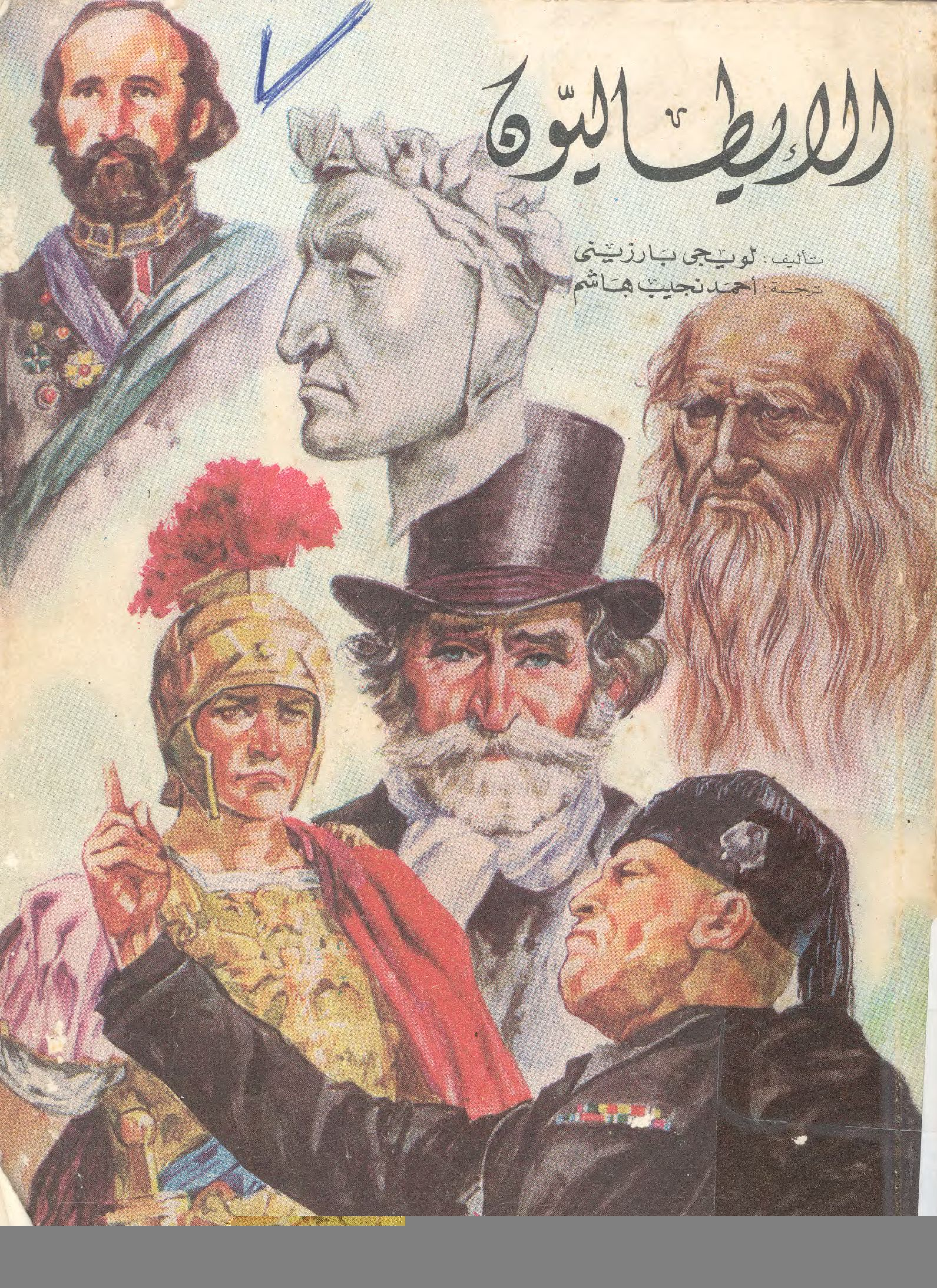


الإيطاليون

تأليف : لويجي بارزيني

ترجمة: أحمد نجيب هاشم

الإيطاليون

الإيطاليون

تأليف لويجي بارزيني
ترجمة أحمد نجيب هاشم



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع .

فهرست

تصدير :

بقلم المترجم

دكتور لويجى بارزينى مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا من مواليد عام ١٩٠٨ فى مدينة ميلانو . تلقى دراسته الأولى فى إيطاليا ثم أكملها فى الولايات المتحدة الأمريكية وعمل مراسلا ناشئاً فى إحدى صحف نيويورك وعاد إلى إيطاليا سنة ١٩٣٠ فعهدت إليه صحيفة « كوريرى ديللاسيرا » التى تصدر فى ميلانو تغطية أنباء المسائل الدولية المعاصرة آنذاك : بداية عهد الرئيس الأمريكى روزفلت — غزو الحبشة — الحرب الصينية اليابانية . وفى سنة ١٩٤٠ زار لندن لعدة شهور عاد بعدها إلى إيطاليا ولكنه اعتقل فى منزله باعتباره مناهضاً لحكم موسولينى ولم يعد إلى سابق نشاطه إلا بعد أربع سنوات حين دخل الحلفاء إلى روما فنشر وحرر صحيفتين يوميتين، كما ساهم فى تحرير مجلتى « هاربر » و« إنكونتر » ، ودخل مجلس النواب الإيطالى منذ سنة ١٩٥٨ ممثلا لميلانو عن حزب الأحرار وهكذا نشأ دكتور لويجى بارزينى فى أحضان الصحافة ولا يزال صحفياً لامعاً — ومكن له تعليمه فى الولايات المتحدة من إجادة اللغة الإنجليزية فهو يتحدث ويكتب بها كأحد أبنائها وقد أصدر بها كتابه هذا فى سنة ١٩٦٤ ثم نشره باللغة الإيطالية فى السنة التالية ليعرف العالم بإيطاليا وأهلها من جهة ، ومن جهة أخرى ليظهر الإيطاليين على جوانب من حياتهم ويكشف عن جذورها فى أعماق الماضى أو فى تجريات التاريخ .

فالكتاب مزيج من تاريخ وفلسفة واجتماع وسياسة وأخلاق ، أحكم الرباط

بينها فى إطار محبوك ، يضم بين جنباته صورة أرادها المؤلف أن تكون واقعية حقيقية لوطنه الذى أحبه ، فنأى بقلمه عن التحريف والتشويه ، قدرما نأى عن التزويق والتنميق ، فلم يمنعه هذا الحب من الإلمام ببعض الشوائب هنا وهناك فى الحياة الإيطالية أوردها على حقيقتها ، ملتمساً أصولها ونشأتها عبر القرون ، بعين المؤرخ الفاحصة ، وتحقيق الصحفى البارع ، وكأنما قصد أن يكون ناقداً اجتماعياً مخلصاً ولعله نهج فى ذلك نهج « ابن خلدون » فى مقدمته الخالدة ، فإن هذا العربى الأصيل أحب قومه وأهمه أمرهم وأراد أن ينبههم إلى عيوبهم ليتلافوها فمضى يبحث فى شئونهم ويقول مايؤمن به دون خوف أووجل ولولم يكن يحب العرب لما عناه أمرهم وما كلف نفسه مشقة نقدهم وتوجيههم [1] .

ويسهب بارزينى فى شرح علاقة إيطاليا والإيطاليين بالزائرين الأجانب الذين وفدوا عليها منذ قرون طويلة ، ولا يزالون يفدون إليها كل عام ، وهم فى ازدياد مطرد ، حيث يبلغ عدد هؤلاء السائحين نحو خمسة وعشرين مليوناً سنوياً ، ويتساءل بارزينى عن سر هذا التدفق ، ولماذا يُخلق الزائر الأجنبى خلقاً أكثر حيوية وانتعاشاً وتفتحاً فور عبوره الحدود الإيطالية ؟

أيكمن السر فى جو إيطاليا ، أو فى آثارها ، أو فى طعامها ، أو مناظرها الطبيعية ، أو أهلها ، أو روحانيتها لأن روما عاصمة روحية عريقة ، أو هى الحياة الحلوة La dolce vita فى إيطاليا عامة ، لأنها مكان الانطلاق من القيود ، والتحرر من صرامة النظم والقوانين والالتزام المحض بالأعراف والتقاليد ؟ إنها فى رأيه فى المقام الأول الواقعية والانطلاق اللذان تتسم بها الحياة فى إيطاليا ، وحيوية الإيطاليين ، وحرصهم على توفير أسباب البهجة والارتياح والطمأنينة لضيوفهم . ويرى بارزينى

---

(١) دكتور حسين مؤنس : عالم الإسلام ص ٢٦٤ — طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .

أن الإيطاليين طوروا أساليب حياتهم ، على أساس التخفف من النظام الصارم ، والنزوع إلى الحياة الهينة اللينة ، ومن ثم فإن أهالى شمالى أوربا يهرعون إلى إيطاليا هرباً من القيود التى ألفوها فى بلادهم ، إلى حياة حرة طليقة . وهنا يتساءل بارزينى : هل تحولت رذائلنا إلى مزايا فى العصر الحديث ؟ وهل باتت هذه المزايا ضرورية للبقاء ؟ وهل معنى ذلك أن تكون إيطاليا هى معلمة الشعوب ؟

ويشير بارزينى إلى طائفة من أبرز الكتاب الأجانب الذين زاروا إيطاليا وافتتنوا بها ، ويقتبس عنهم ، مثل ستاندال ، وشاتوبريان ، وأناتول فرانس ، وشيلى ، وبيرون ، وهنرى جيمس ، وناثانيل هوثورن ، وجيته ، وهنريخ هاين ، فينقل عن هذا الأخير عبارته : « إن الحياة فى إيطاليا سحر لا مثيل له ، وشعور بالانطلاق والتحرر » . وينقل عن ستاندال قوله : « إن سحر إيطاليا أشبه شىء بسحر الوقوع فى أشراك الغرام » — وعن هنرى جيمس شعوره بأن بهجة العيش فى إيطاليا جزء لا يتجزأ من العنصر البشرى ، أى الناس الذين صنعوا هذه الحياة ، وشكلوا هذا البلد بأيديهم على تعاقب العصور ، وكان ذلك فى نظره بمثابة تفاعل الإنسان مع التاريخ والتربة والهواء واللون والتركيب والشكل ، هذا التفاعل هو الذى يخلق فتنة إيطاليا ، ويضفى عليها أسمى ألوان الجمال وأروعها .

ويركز الكتاب كذلك على نقطة هامة ، تلك هى أن الإيطاليين بوصفهم أفراداً يتميزون بحيوية وعبقرية ملحوظة ، مما ينتزعون معه إعجاب الناس بهم ، والإعجاب ينطلق من العقل قبل العاطفة . ولقد ظهر فيهم كثيرون : علماء وأدباء ومفكرون سياسيون وقادة عسكريون ومصورون ونحاتون وموسيقيون ، ولكنهم كانوا طوال حياتهم شعباً ضعيفاً ، مغلوباً على أمره أحياناً كثيرة حين أحدق به الغزاة وحكمه الأجانب . ويخلص بارزينى من هذا إلى أنه ليس من الصواب القول بأن تاريخ الإيطاليين

هوالذى صنعهم ، بل الحقيقة أنهم هم الذين صنعوا تاريخهم .

ويقلب المؤلف صفحات التاريخ الإيطالى ، ويبرز أهم معالمه حين يعالج فى صراحة تامة طبائع الإيطاليين وأخلاقهم وآداب سلوكهم وأساليب حياتهم ، ولا يخفى ما فيها من أخطاء يردها البعض إلى ازدحام البلد بالسكان ، وطول شقائه بالحكم الأجنبى فى الماضى حين فقد الشعب ثقته بحكامه . ونتيجة لهذه الثغرة بين الحكام والمحكومين ، راح الناس يروغون من القوانين ويتحايلون على التهرب من دفع الضرائب . ويعطى المؤلف صورة حية للمجتمع الإيطالى وما يعانيه من آلام الفقر والجهل والظلم والخوف ، ولكنه من جهة أخرى يصفه ، على الرغم من كل ذلك ، بأنه شعب رشيق طيب ، لايزال يتمسك بأهداب الفضيلة داخل الأسرة ، وهو يقرر فى هذا الصدد أن الهدف الأساسى من الحياة الزوجية فى إيطاليا ، ليس إشباع أحلام المراهقة أوالنزوات الرومانتيكية ، بقدرما هوبناء أسرة جديدة ، وتدعيم الأسر القائمة ، فالأسرة الإيطالية تستقطب الولاء الأول من كل فرد . بيد أن عرى الأسرة بدأت تتفكك فى عصرالتقدم الصناعى ، وتلك ظاهرة متفشية فى سائر أنحاء العالم اليوم .

وفى حديث بارزينى عن الأسرة وسلطانها يشير إلى تفوق شخصية المرأة فى الحياة الإيطالية ، ويضرب مثلا لذلك كثرة الأغانى الشعبية التى تشيد بذكر الأم La Mamma ويقول إن أكثر صيحات الاستغاثة شيوعاً بين الإيطاليين ساعة المحنة « يا أماه ! » Mamma Mia يصرخ بها الجندى الجريح فى الحرب ، والمتهم ساعة صدور الحكم عليه .

ويفرد بارزينى فصلا عن المافيا فى صقلية وآخر عن مشكلة الجنوب الإيطالى المتخلف ، ويحرص على تبيان الفوارق بين سمات أهل الشمال وأهل الجنوب ،

ويشير بصفة عامة إلى شفافية الوجوه الإيطالية ، فمن اليسير على الأجنبي أن يتتبع أحاديث الإيطاليين عن بعد ، بمجرد ملاحظة سيماهم وإيماءاتهم ، ويفصل بارزيني القول في هذه الإيماءات تفصيلا .

ويستشف المؤلف المؤرخ ظلال الماضي منعكسة على الحاضر ، أو بعبارة أخرى يستقرئ الأحداث الغابرة ليفسر الوقائع الراهنة ، ويخصص فصولا لشخصيات شهيرة ظهرت على مسرح التاريخ الإيطالي ، مثل كولا دي ريينزو الذي قتله شعب روما سنة ١٣٥٤ ومثل بجثته ، على غرار ما فعل بجثة موسوليني بعد ذلك بستة قرون تقريباً (أبريل ١٩٤٥) ؛ وتحدث في فصل آخر عن موسوليني واستعراضاته المسرحية ومساوئ العهد الفاشي ؛ وهو لا يغفل في هذا المجال ذكر الشخصيات الإيطالية اللامعة من أمثال دانتي ومكيافيلي ومعاصره جويتشارديني وغيرهم .

صدر هذا الكتاب في إيطاليا كما ذكرت في سنة ١٩٦٥ ، وكنت وقتئذ في روما سفيراً لجمهوريتنا لدى حكومة جمهورية إيطاليا ، فاقتنيته وقرأته كما اقتنا وقرأه آلاف من الإيطاليين والأجانب . وحسبي أن أقتبس هنا فقرات من تعليق على هذا الكتاب للناقد الإيطالي جان كارلو فيجوريلي Giancarlo Vigorelli نشره في مجلة « أوجي Oggi » في ديسمبر ١٩٦٥ :

« منذ صدر كتاب لويجي بارزيني (الإيطاليون) كان في مقدمة الكتب المبيعة وأكثرها رواجاً . . . كما حدث هذا عندما صدر الكتاب لأول مرة باللغة الإنجليزية منذ عام في الولايات المتحدة الأمريكية . . . ولم ينقطع سيل التقريظ والأحاديث والتحقيقات الصحفية المتعلقة به ، غير أنه لم يحدث ذلك التجريح والشنق الأدبي الذي كان يتوقعه الجميع منذ اللحظة الأولى . . . إن الجميع يقرءونه وقد يختلفون

مع ما جاء فى هذه الصفحة أو تلك . . . ولكن القارئ يترك المعارضة والاشمئزاز الشخصى جانباً ، ويطلق لنفسه العنان بدلا من ذلك ، فى الإحساس الغريزى بالمزيد من الرضا ، الذى ينطوى قبل كل شىء على التعقل . . . إن هذا الكتاب قرأه الجميع وناقشه الكثيرون ، ولكن أحداً لم يستشعر نحوه عداء . . . فإن هذا الكتاب يحمل الإنسان على أن يلجأ إلى ضميره . . . لقد أخرج بارزينى كتاباً جذاباً لاذعاً شافياً ، قراءته شائقة تشعر المرء بالمشاركة . إنه دراسة عن إيطاليا والإيطاليين لم يكتب مثلها منذ زمن بعيد » .

ولست أريد المبالغة فى وجوه الشبه بين الإيطاليين ومجتمعات أو شعوب كثيرة أخرى فى منطقة البحر المتوسط ، ولكن كم أتمنى أن تعالج الأمور ويربط الماضى بالحاضر ، ويجلو كل بلد جوانب حياته وتاريخه بمثل هذه الواقعية والصراحة ، بحثاً عن الحقيقة وحدها .

وتحضرنى بهذه المناسبة عبارة للكاتب الكبير أنيس منصور ، حيث قال : « مطلوب من الكاتب ، أو هذا واجبه المقدس ، أن يصور الناس للناس ، يقول لهم من أنتم ، ولماذا أنتم هكذا ، ثم ما هو الحل ؟ »

ولعل الكتاب الذى نقدمه اليوم لقراء العربية ، يدور فى هذا الإطار .

أحمد نجيب هاشم

مقدمة :

« إن الأحداث الماضية تلقى ضوءاً على أحداث المستقبل ، فقد كانت طبيعة العالم دائماً واحدة ، بمعنى أن ما يحدث اليوم، وما سوف يحدث غداً ، قد حدث فى وقت مضى ، فالأحداث نفسها تتكرر ولكن تحت أسماء مختلفة وفى أشكال متباينة ، ولا يتسنى لكل امرئ أن يتعرف عليها ، وإنما يتسنى هذا للعاقل الذى يدقق النظر فى الأمور » .

فرانشيسكو جويتشاردينى

« هل هناك بلد آخر فى أوربا يبدو فيه أن خلق أهله قد تأثر تأثراً طفيفاً على هذا النحو بالتغير السياسى والتكنولوجى ؟ » .

و . ه . أودن

فى مقدمته لمؤلف جيته « رحلة إيطالية »

إن هذا الكتاب لا يزعم أن يكون بحثاً علمياً ، فهو ليس أكثر طموحاً أو دقة من الفصول الافتتاحية لرواية مسلية من روايات القرن التاسع عشر أسهب مؤلفها فى وصف البلد الذى دارت فيه حوادثها وعصرها التاريخى والناس أنفسهم — ويستطيع من يفرغ من قراءته أن يتوجه إلى إيطاليا ويخلق شخصيات روائية ممن يقابله من مختلف

الأفراد هناك ، وسوف تكون هذه القراءة قد علمته ما يتوقعه تقريباً . وما زالت إيطاليا بلد فرص لا حدّ لها ، بلداً يوفر زماناً ومكاناً لمسرح كل أنواع المغامرات والحب المشروع وغير المشروع ، ودراسة الفن ومعاناة الشجن وحبك المؤامرات ، ويمكن أن تكون إيطاليا مرحة أو مفجعة أو طائشة أو ريفاً هادئاً أو بلداً قديماً أو حديثاً أو بلداً حلواً حقّاً .

ولقد حاولت أن أسجل فى كتابى هذا أهم المظاهر المميزة فقط ، سالكاً فى ذلك أسلوب مصور الأفراد الأمين الذى يضع على لوحته تلك السمات المميزة التى تجعل من الجالس أمامه الإنسان عينه لا إنساناً آخر . والجالس أمامى ، فى حالتى هذه هو وطنى ، ومن ثم شعرت أحياناً أنى أشبه ذلك الرجل الذى يقوم بأشق الأعمال التى تتطلب عناية فائقة ، ألا وهى رسم « صورة أم الفنان » . والأم فى هذه الحالة معروفة بسوء السمعة ، ولكن ماضيها مجيد ، منجزاتها وضاءة مشرقة ، وتقاليدها نبيلة ، وشهرتها تثير الرهبة ، وسحرها لا سبيل إلى مقاومته ، ولقد عرفتها وأعجبت بها زمناً طويلا وأحببتها حبًّا عميقاً .

ولكن لما تقدّمت بى السن (مثل كثير من أبناء أمهات عريقات) تحررت من الافتتان ببعض طباعها ، وصدمتنى بعض رذائلها الخفية ، واشمأززت من فسادها وفسوقها ووقاحتها ، وتألمت حين اكتشفت أنها برغم كل شىء لم تكن المثال المتألق الذى ظننته حين كنت صغيراً — ومع ذلك لم يكن فى وسعى أن يكون لى أم غيرها ، وما كنت لأكفّ عن حبها . وحين كنت أسطر هذا الكتاب لم أشأ أن أجرح مشاعرها ، أو أن أكون قاسياً عليها على نحو لا تقتضيه ضرورة ، أو أن أنسى مزاياها الطيبة ، ولكنى فى الوقت نفسه حاولت بجهد بالغ ألا أتملقها ، وألا تغرينى مفاتنها الساحرة ، أو تضللنى عواطفى الشخصية — بل عقدت العزم على أن أقوم

بمهمة تصويرها تصويراً أميناً صادقاً ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

* * *

وكان جمع مادة هذا الكتاب عملا مرهقاً . والشائع أنه يسير على المرء أن يكتب عن أمور وعن أناس لا يعرفهم حق المعرفة حيث تكون شكوكه أقل ، أما أن يكتب المرء عن بلده فهى عملية شاقة عذبتنى ، ذلك لأنى عرفت أكثر مما ينبغى ، وتوغلت فى الأعماق ، واستطعت أحياناً أن أدلل بنفس القدر من السهولة على شىء أو على نقيضه ، وأربكتنى بعض الشواذ ، وارتبت فى كل فكرة ، وتيقنت من كل كلمة ، وكانت الوطنية العاطفية هى الأسلوب السائد فى أيام شبابى — فهل ترى كنت فى تلهفى على تصحيح هذه الأهواء بالغ الحماس فى دحض أفكار قويمة متينة ؟ لقد خشيت أن أكون محافظاً متطرفاً وأن أكون فى الوقت نفسه تقريباً ميالا كل الميل لانتهاج أساليب فكرية حديثة شأن أهل الفكر المعاصرين ، فأعتنق نظريات جديدة مغرية قد تغدو بالية قبل أن يظهر الكتاب مطبوعاً .

وكان من بواعث الحيرة عندى ذلك التناقض الأحمق بين قدر ما حققه أهالى إيطاليا خلال قرون طويلة من منجزات كثيرة رائعة وبين ماهية تاريخهم القومى العادية — فقد ملأ الإيطاليون وبهروا أوربا ومعظم العالم بصيت مشاهيرهم العمالقة حيث شيد معماريون وبناءون إيطاليون جزءاً من مبنى الكرملين فى موسكو ، وقصر الشتاء فى لينينجراد ، وزخرف فنانون إيطاليون مبنى الكابيتول فى واشنجتن ، وأقاموا الكنائس والقصور الشامخة والدور الفخمة فى طول أوربا الكاثوليكية وعرضها ، وبخاصة فى فينا ومدريد وبراغ ووارسو ، وظهر أثرهم فى العمارة فى كل مكان آخر تقريباً ولا سيما فى المظهر الخارجى للمبانى التى كانت تصمم بحيث تبهر الناظر إليها وتسره أكثر من أن تكون صالحة لأغراض عملية بحتة — وكذلك ملأ الإيطاليون

أمريكا الجنوبية بتماثيل مزخرفة منمقة لأبطالها المحليين .

ولإيطاليا مآثر أقل شأناً على الحياة اليومية ، ولكنها بالغة الكثرة بحيث لا يمكن تجاهلها ، فلولا مدينة بستويا Pistoia ما كان هناك مسدسات ، ولولا مدينة سافونا Savona ما كان هناك صابون Savon فى فرنسا ، ولولا مدينة فاينزا Faenza ما كان هناك خزف مزخرف Faience فى أى مكان ، ولولا مدينة ميلان ما كانت هناك قبعات للسيدات millinery ، ولولا مدينة جنوه التى صنع فيها قماش قطنى أزرق اللون لأول مرة ما كانت هناك السراويل الزرقاء Gênes وما كان هناك شراع السارية الأمامية فى السفينة المعروف باسم شراع جنوه ، وعلى هذا النحو ما كانت هناك المثلوجات ice-cream النابوليتانية (نسبة إلى نابولى) ، والشموع الرومانية (نسبة إلى روما) ، والحجب الفينتيسية التى تنسب إلى فينتسيا Venetian blinds والسجق البولونى (بولونيا) ، والجبن البارميزان (بارما) ، والدجاج اللجهورن (ليفورنو) — كذلك اكتشف الإيطاليون أمريكا للأمريكيين ، وعلموا الإنجليز الشعر والسياسة وحيل التجارة ، وعلموا الألمان فن الحرب ، وعلموا الفرنسيين فن الطهى ، وعلموا الروس فن التمثيل ورقص الباليه ، وعلموا كل إنسان الموسيقى — وإذا قدر لهذا العالم أن يصبح يوماً ما سحابة من الغبار المشع فى الفضاء فسوف يكون ذلك باختراعات نووية تم تطويرها بمساعدة حاسمة من قبل العلماء الإيطاليين [١] .

---

(١) إن قائمة المشاهير الإيطاليين تثير الإعجاب ؛ ومن الخير أن نورد أسماءهم هنا إذ سوف تندر الإشارة إليهم فى سائر الكتاب حيث إنه كتب على فرض أن القارئ ملم إلماماً طيباً بهم . وإليك بعض المهمين منهم :

القديسون : سانت فرانسز Saint Françis — سانتا كاترينا دى سيينا Santa Catarina da Siena — سان برناردينو داسينيا San Bernardino da Siena — سان لويجى جونزاجا San Luigi Gonzaga — سانت توماس اكوينو Saint Thomas of Aquino

الأشرار : أسرة بورجيا Borgia (إسبانية ولكنها تأقلمت) — تشلينى Cellini كارافاجو

... ...

Caravaggio – كاليوستر و Cagliostro – كازانوفا Casanova

المفكرون السياسيون : دانتي اليجيرى Dante Alighieri – الملك فردريك هوهنشتوفن F. of Hohenstaufen ملك صقلية وجنوب إيطاليا (ولد فى إيطاليا وهو مبتكر الدولة الحديثة «الدولة بوصفها عملا فنيا »–لورنزودى مديتشى Lorenzo de Medici (مبتكر التوازن الدولى) –ماكيافللى Machiavelli–جويتشارديني Guicciardini مانزيني Mazzini– كافور Cavour

القادة العسكريون : جوفنى Giovanni قائد الفرق السوداء – رايموندو مونتيكوكولى Montecuccoli الذى قاد الجيوش النمساوية ، نابليون – غاريبلدى Garibaldi

أمراء البحر : أندريا دوريا – موشنيجو Mocenigo – موروسيني – برجادين Bregadin – كاراتشولو Caracciolo

العلماء : جاليليو جاليلى – لوناردو دافنشى Leonardo de Vinci– فولتا Volta – ماركونى – فيرمى

الملاحون : كولمبس – فيسبوتشى Vespucci – آل كابوت .

المفكرون : سانت توماس أكوينو – كبانيلا – كروتشى – فيكو .

الشعراء : دانتي اليجيرى Dante Alighieri ، بوكاتشيو ، بترارك ، ليوباردى ، مانزونى .

النحاتون : دوناتلو Donatello – فيروكيو Verrocchio – جيبرتى – ديلاروبيا – تشليني – ميكل أنجلو – برنيني Bernini .

المصورون : جيوتو– بوتيتشلى – فرا أنجليكو– ليوناردو دافنشى – بيير ودلا فرانشيسكا بيروجينو – ميكلأنجلو – رافاييل – تيتيان Titian – تنتوريتو – تييولو – موديليانى .

الموسيقيون : بالسترينا – بيرجوليزى – مونتفردى – فيفالدى – روسيني – فردى – بليني – دونيزتى – بوتشيني – توسكانيني .

هذه الأسماء بطبيعة الحال هى أسماء الشخصيات ذات الأهمية الأولى ، أما أسماء الذين فى المرتبة الثانية أو الثالثة فمن السهل أن تملأ دفتر تليفون مدينة صغيرة .

لا يمكن أن ننكر أن كل عباقرة إيطاليا جعلوها عظيمة ، أو على الأقل جعلوا إيطاليا واحدة عظيمة ، نعني البلد الروحي ، أرض الثقافة والفن والفكر التي يمكن أن يعتبر مواطنين كاملين فيها أفضلُ أبنائها فقط وكذا الأجانب الممتازون الذين شعروا في كل الأزمنة أنهم يعيشون في وطنهم — ومن الغريب حقاً أن هؤلاء العباقرة الأفذاذ لم يجعلوا إيطاليا أخرى عظيمة ، نعني بذلك البلد المعين الوارد ذكره في التقاويم وكتب التاريخ ، إيطاليا الحقيقية بلد الحروب والغزوات والمعاهدات والانقلابات السياسية الماضية . الواقع أنه يمكن القول بأن كثيرين من عمالقة الفكر هؤلاء لم يكن لهم تأثير يذكر ، أو لم يكن لهم تأثير على الإطلاق .

وأحب الإيطاليون دائماً المرء الذي أتقن تسليتهم ، واستطاع أن يثير عواطفهم ويلهيهم عن أنفسهم ، وابتهجوا دائماً بالإنسان الموهوب سواء كان مصوراً أو موسيقياً أو نحاتاً أو مهندساً معمارياً أو راقصاً طالما أنه لم يجهد أذهانهم ، ووقروا العلماء الأفذاذ ، وأعجبوا بهم ، وبخاصة إذا كانت اكتشافاتهم ونظرياتهم مجردة مبهمة ، كما احتملوا الزعيم القويّ وخشوا بأسه ، ولكنهم كانوا دائماً يغتبطون ويهللون لسقوطه ، بيد أن معظمهم تجاهلوا أو عارضوا أو سخروا بمن لا حول لهم ولا قوة من معلمين ملهمين وفلاسفة ومصلحين سياسيين ودينيين ووعاظ وعلماء ثوريين نادوا بنظريات جديدة مثيرة ولهم منزلة رفيعة في كل الميادين .

صحيح أنه حدث أيضاً في بلاد أخرى أن لقي رجال عظماء بين الحين والحين ألواناً من الاضطهاد ، ومنهم من أعدم ، ولكن لم يحدث ذلك في بقعة أخرى على هذا النحو من التعصب والانتظام والتصميم كما حدث في إيطاليا ، فإن غالبية الأبطال في البلاد المتمدينة الأخرى تركوا يعيشون ويزدهرون كي يساهموا في رفعة أوطانهم ومجدها وعظمتها ، ولم ينظر إليهم عادة على أنهم معتوهون انحرفوا عن المألوف ،

بل اعتبروا نماذج لامعة تمثل المثل الأعلى القومى ، ورجالا عاديين مُجدوا لأنهم رسموا الطريق للاهتداء به — أما إيطاليا فقد عمدت بطريقة لاشعورية إلى القضاء على تأثير كل أولئك الذين حاولوا أن يضفوا على بنى وطنهم عظمة أخلاقية : فأبعد ماكيافللى عن الشئون الهامة — وعاش جامباتستا فيكو مؤسس الفكر الحديث فى حجرة صغيرة فى فقر مدقع ، واضطهد جاليليو جاليلى من أجل آرائه ، ونفى كل من دانتى الليجيرى وجوزيبى ماتزينى وكثيرون غيرهما ، وقضى البعض أمثال توماسو كامبانيلا حياتهم فى غياهب السجون ، ولقى قليل من خيرة الرجال الأكفياء المشهورين حتفهم ، فمنهم من شدّ إلى خازوق وحكم عليه بالموت حرقاً مثل جوردا نوبرونو Giordano Bruno وسافونارولا Savonarola ، ومنهم من شنق مثل شهداء الجمهورية النابوليتانية عام ١٧٩٩ ، ومنهم من طعنته الجماهير ورمته بالحجارة مثل كولادى ريتزو Cola di Rienzo .

* * *

وإنا لنجد فى تواجد هاتين الإيطاليتين معاً مشاكل تبعث الحيرة — ترى لماذا نهجت إيطاليا دائماً هذا السلوك الأخرق ، وهى بلد اشتهر بوفرة أبنائه الممتلئين حيوية ويقظة وذكاء ؟ ولماذا كانت هى عرضة للنكبات فى كل العصور ؟ لقد وقعت فى كل قرن فريسة للغزو والنهب والسلب والإذلال ، ولكنها برغم ذلك قصرت فى اتخاذ الإجراءات الضرورية للدفاع عن نفسها — ولم يكن سبب هذا التقصير أن أهلها تقاعسوا عن الحرب والتضحية بأرواحهم ، فقد خاضوا حروباً دامية كثيرة قدر حروب جيرانهم الأمجاد ؛ وطالما حاربوا تحت أعلام الأجانب واستشهدوا أكثر منهم ، ووقع المدنيون فريسة لمذابح الجند الأجانب ، وغلب العسكريون عادة على أمرهم أمام جيوش الأعداء المتفوقة عليهم . أجل لقد كسب الإيطاليون معارك قليلة

ولكن كان معظمها ضد إيطاليين آخرين ونمساويين ، ولعل أقسى الحروب التى خاضوها كانت تلك التى احتدم فيها النضال ثلاث سنوات ونصف سنة فوق ثلوج جبال الألب حيث قاتلوا بشجاعة وإقدام، وعلى الرغم من هزيمتهم فى «كابوريتو» سنة ١٩١٧ فإنهم انتصروا فى النهاية لا على النمساويين فحسب بل كذلك على الألمان الأشد قوة ومراساً بيد أنهم خسروا معظم الحروب الأخرى . ومن السخف أن يظن أن هذا راجع إلى أن أفراد الشعب ضعاف جبناء مترفون، فهم فى الواقع ممتلئون حيوية وشجاعة ونشاطاً ، وفى وسعهم أحياناً أن يحتملوا وأن يخاطروا أكثر من غيرهم .

ومع ذلك فإن كسب الحروب هو الدليل الحاسم لا على طبيعة الأفراد بل على قدرتهم على العمل معاً فى جماعات ، وعلى قبول التضحيات المشتركة ، وهذا هو السبب فى أن اللغز الذى سحر ماكيافلى منذ أربعة قرون مضت ما زال إلى اليوم موضع نقاش متصل بيننا : ترى لماذا لم يتحقق لنا قيام وحدة وطنية وحكومة مركزية فى حين فعلت ذلك أمم أخرى ؟ ولماذا لم نبتدع نظاماً سياسيًّا خاصًّا بنا ؟ من الممكن تتبع اتجاهات ثابتة مستمرة لم تكن وليدة المصادفة — هذه الاتجاهات هى التى حالت دون تجمع الإيطاليين فى أمة واحدة ، وتتلخص فيما يلى :

(ا) التقبل العاجل والحماسى للتغيرات السياسية والغزاة الأجانب مما جعل كل الثورات أمراً لا سبيل إلى مقاومته ، ولكنه سطحى ، وسلب كل نظم الحكم الجديدة استقرارها .

(ب) فن العيش على اعتبار أن كل القوانين عوائق بغيضة لابد من التغلب عليها بطريقة ما — وهو فن جعل أفضل القوانين عديمة الجدوى على نحو يدعو إلى السخرية .

(حـ) اعتبار كل من يتولى الحكم سواء كان مواطناً أو أجنبيًّا ، قابلاً للفساد،

الأمر الذى عجل فى تحويل أشد الحكام أمانة وتحرراً إلى حاكم منحرف .

(د) الاعتقاد الراسخ بأن أشد الحكومات صلابة يمكن على مر الزمن إفسادها من الداخل .

لذلك كله كانت الحكومات الوطنية التى أقمناها فى فترة أو أخرى حكومات ضعيفة تعسفية تعوزها الكفاية بما فى ذلك حكومتنا الدكتاتورية الأخيرة التى نعتت بأنها « طغيان يلطفه عصيان عام لكل القوانين » — ترى لماذا تخلفنا مدى طويلا فى تطوير صناعاتنا الحديثة وأنظمتنا الحرة ؟ ولماذا بدأنا نفتح مستعمرات فى الوقت الذى أوشكت فيه جميع الدول الاستعمارية أن تفقد مستعمراتها ؟

إن السجايا والعيوب التى شكلتنا على ما نحن عليه قد سحرت الأجانب برغم أن بعض طباعنا المميزة لم تكن مستساغة ، فمنذ نهاية القرن الخامس عشر على وجه التحديد لم يخف الرحالة احتقارهم لنا ، ولكنهم مع ذلك لم يتوقفوا قط عن زيارة إيطاليا — وبدأ كثيرون اليوم يعجبون بنا ويصغوا إلينا ويحاكوننا بل يحسدوننا — فما هو سبب ذلك ؟ نحن — دون ريب — ما زلنا عظماء فى الأشياء التى وصلتنا دائماً فى سهولة ويسر ، ولا شك أننا تقدمنا فى ميادين كثيرة غير أننا لم نحرز تقدماً محسوساً فى تلك الميادين التى جعلتنا موضع سخرية الأجانب فى الماضى ، فلسنا أكثر أمانة أو أهلا للثقة أو طاعة للقوانين مما كنا فيما مضى ، ويعيبنا سوء التنظيم وسوء الحكم ، وما زلنا عاجزين إلى حد بالغ عن السيطرة على حياتنا الغرامية . ترى ألم يعد الأجانب يؤمنون بأن فضائلهم هى الأحسن؟ أم أصبحت رذائلنا مزايا مرغوباً فيها فى العالم الحديث بوصفها صفات جوهرية للبقاء ؟ أتغيرنا نحن أم تغير سائر العالم ؟ ثم ما هى على وجه التحديد حسنات الإيطاليين وعيوبهم ؟

* * *

إنى لا أعرف طريقة موثوقاً بها للتحقق من الخلق القومى الإيطالى، وليست هناك استفتاءات لاستطلاع آراء الأموات — وليس هناك مؤلفون يمكن الاعتماد عليهم ؛ فإن ما دوّنه الكتاب الإيطاليون فى وصف الطباع والعادات الإيطالية نادر جداً ، وقلما كان واضحاً ، وقليلون منهم من يمكن الاعتماد عليهم حيث كان لكل كاتب هدف شخصى ، ورأى سعى لإثباته، وأسلوب عمل نادى به ، أو حقد تفسّس عنه ، وهكذا كتب كل منهم من زاويته الخاصة ، وتأثر بالتعصب الذى فرضه عليه القرن الذى عاش فيه ، والطبقة التى انتمى إليها ، والمقاطعة التى سكن فيها ، ونوع التعليم الذى تلقاه ، والآراء السياسية التى اعتنقها ، والخطر الذى أصابه فى الحياة .

بيد أن هناك ثلاثة أو أربعة استثناءات طفيفة من هذه القاعدة . فهناك مقال للشاعر العظيم جاكومو ليوباردى Giacomo Leopardi الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، ونجح فى أن يكون موضوعياً برغم كونه أرستقراطياً ، وكان رجلاعبقرياً أحدب الظهر عاش فى بلدة موحشة فى إحدى المقاطعات ، وهناك أيضاً فقرات كاشفة فى كتابات نيقولا ماكيافلى وفرانشيسكو جويتشاردينى ، ثم هناك مقالات قليلة عن الأدب الإيطالى تعتبر مفتاحاً للخلق القومى كتبها فرانشيسكو دى سانكتس الذى عمل أستاذاً فى معهد الفنون التقنية والتطبيقية فى زيوريخ منذ مائة سنة مضت — وقد أقر هو نفسه « بأن الإيطاليين لا يكتبون عن عاداتهم أو يفكرون فيها ، وكأنهم اعتقدوا أن هذه الدراسات لم تكن مفيدة لهم » وبطبيعة الحال هناك آلاف الكتب التى وضعها الأجانب ، ولكنى لا أجد بين هؤلاء سوى مصدر واحد موثوق به ذلك هو الكاتب الفرنسى ستاندال (١٧٨٣ — ١٨٤٢) ، ويليه فى اعتقادى المؤرخ الإنجليزى جون إدنجتن سيموندز (١٨٤٣ — ١٨٩٣) ، وإن كانت قد أعمته أحياناً أخلاقياته المتزمتة وكراهيته للبابوية ، أما الكتاب الآخرون فهم لأمر ما يبدون متطرفين

فى حبهم أو فى كراهيتهم إيانا ، وفى كثير من الأحوال تضمنت أفضل كتبهم عن إيطاليا ومضات مشرقة تنم عن إدراك وبصيرة وبعض حقائق كاشفة وردت فى مجموعة غير منتظمة من الصيغ المبتذلة ، كما احتوت تقديرات سطحية وأفكاراً سابقة قبلها المؤلف دون تمحيص ، فضلا عن بيانات خاطئة وكلمات إيطالية بها أخطاء فى الهجاء .

ومع ذلك فقد ساعدتنى طبيعة الإيطاليين أنفسهم ؛ فعلى الرغم من أنهم لا يكتبون عن فضائلهم ورذائلهم العامة فإنهم يتكلمون عنها باستمرار ، فتدور فى مقصورات قطارات السكك الحديدية ، وفى المقاهى القائمة على أرصفة الشوارع ، وفى مكاتب دور الصحف مناقشة حول موضوع هو أطرف المواضيع كلها ، وهو لماذا نحن على النحو الذى نحن عليه ؟ ولقد اشتركت طيلة حياتى فى هذه المناقشات التى لا تنتهى ، وسمعت نظريات لا حصر لها ، ولم أسمع إجابات مقنعة حاسمة ، ولكنى اكتشفت أننا جميعاً متفقون بالسليقة على أن بعض الطباع والسمات والميول والعادات هى بدون ريب خاصة بنا وحدنا ،ومن ثم نسميها الأمور على الطريقة الإيطالية cose all'italiana وتنطق هذه الكلمات أحياناً فى كبرياء، وأحياناً بشىء من المحبة أو السخرية أو الحنو أو الفكاهة أو الاستسلام ، وتنطق فى أحوال كثيرة فى غضب واحتقار ، ولكنها تنطق دائماً فى حزن ضمنى .

ترى ما هى على وجه التحديد تلك الأمور على الطريقة الإيطالية cose all'italiana؟ — هى أمور نظهر فيها أنفسنا كما لو أننا أمام مرايا ، هى بادرة كريمة ، beau geste ذريعة دنيئة — خدعة حاذقة — ارتجال بارع — حيلة معقدة — عمل بطولى — عمل إجرامى — أداء رائع ، وقد لا تكون هذه الأمور cose بارزة من الناحية الإحصائية ، ولكن يمكن أن تحدث فقط فى إيطاليا — ويجب ألا يستهان بها فهى مفاتيح تزودنا

بمعلومات موثوق بها — والواقع أنه بعد البحث عنها وتعقبها وإضافتها بعضها إلى بعض فى عناية وحرص ، الغث منها والسمين ، بدأت أرى النموذج رويداً رويداً ، فهى تثبت أن هناك أشياء تصل إلينا فى سهولة ويسر ، وأشياء أخرى مستحيلة علينا ، ثم إنها حددت دون ريب مجرى الأحداث فى الماضى — وهى يقيناً سوف تحدد المستقبل — ولعلنا لا نملك وسيلة للفرار — وهذا الشعور ، شعور المرء بأنه حبيس النزعات القومية وقيودها الجامدة ، هو الذى يضفى على الحياة الإيطالية ، تحت سطحها المشرق المرح ، طبيعتها المرة البائسة الكئيبة أساساً :

الفصل الأول

الغزو السلمى

إن الإيطاليين لتغمرهم البهجة كما تعروهم الحيرة ، فهم — منذ نهاية الحرب العالمية الثانية — يرون أن عدد أفواج الزائرين الأجانب الذين يفدون إلى بلدهم يزداد سنة بعد أخرى بسرعة لا تصدق . وبلغت هذه الظاهرة اليوم معدلات لم يسبق لها مثيل ، يتعذر تفسيرها ، وتكاد تثير القلق . فإن عدد السائحين فى الخمسينات من هذا القرن بلغ سنوياً ثمانية ملايين وعشرة ملايين واثنى عشر مليوناً ، وتجاوز حالياً العشرين مليوناً ، أى بنسبة تزيد على سائح واحد لكل اثنين ونصف من سكان إيطاليا . ولا يزال هذا العدد فى نمو . وإذا ظلت الظروف مواتية فسوف يصل عدد السائحين فى مدى عشر سنوات إلى ثلاثين مليوناً ، ثم سوف يتساوى بعد ذلك مع عدد السكان ، وقد يتعداه . والواقع أنه ليس هناك ما يثنى السائحين عن إيطاليا ، وليس هناك ما يخيفهم أو يوقف تيارهم ، فهم يتدفقون إليها فى تيار مستمر مستخدمين كل أنواع المواصلات وسيراً على الأقدام — يفدون إليها نهاراً وليلا عن طريق جبال الألب ، ويبدأ تدفقهم قطراً صغيراً أيام الشتاء ، ثم ينمو فى الربيع ويصبح فى حجم النهر ، ثم يغدو فى أشهر أبريل ومايو ويونية فيضاً موسمياً يحطم كل الحواجز أمامه ، ويغمر كل مكان ، ثم يبدأ ينحسر فى شهر سبتمبر ، ولكنه لا يجف كلية على الإطلاق .

ويفد السائحون إلى إيطاليا من جميع أنحاء القارات الخمس — من الأمم

العريقة فى أوربا وأمريكا ، ومن الدول النامية حديثاً فى أفريقيا وآسيا — ويأتى أكبر عدد منهم من الشمال — شمال أوربا وأمريكا ، ذلك الشمال الفسيح الديمقراطى البورجوازى الصناعى ، كما يفد بعضهم من روسيا ، وهى تعتبر من بعض النواحى أقصى الدول شمالا ، ويصل سائحوها فى جماعات منظمة تشبه فى سلوكها الفرق العسكرية التى تخترق أرضاً ملأى بالأخطار يسكنها قوم لا يؤمن جانبهم . وهم فى خجلهم وانطوائهم على أنفسهم يذكروننا بيونان زونوفون وهم يزحفون على آسيا الصغرى . ويلاحظ أن جميع السائحين الروس يرتدون ثياباً جديدة فضفاضة تشبه فى جدتها ملابس المتزوجين حديثاً من أهل المدن الصغيرة فى الأقاليم ، كما يرتدون معاطف طويلة تقيهم المطر تصل إلى كعوبهم . ويدل مظهرهم على أنهم يتغذون تغذية طيبة . هذا ولا يعيب مسلكهم شائبة ما ، وهم شديدو الحرص على اكتساب أكبر قسط من الثقافة بكافة ألوانها فى أقصر وقت وبأرخص السبل . وهناك شبه مقلق بينهم وبين السائحين الألمان المجتهدين فى أوائل هذا القرن — رعايا القيصر ولهلم الثانى William II المتميزين برزانتهم .

وخلاصة القول أن عدداً وفيراً من السائحين ، رغبة منهم فى إطاعة الحافز الذى يدفعهم نحو الجنوب ، يتركون بلادهم التى يعلن عن مفاتنها ويروج لها فى جميع أنحاء العالم . ترى أى شىء يبحثون عنه أفضل مما تركوه وراءهم ؟ أما الإيطاليون فلا يسافر الكثير منهم طواعية واختياراً إلى أية بقعة فى الخارج شمالا أو جنوباً ، شرقاً أو غرباً ، ذلك لأنهم يشعرون على الدوام فى البلاد الأجنبية أنهم منفيون وبائسون نوعاً ما ، ومن ثم يؤمنون إيماناً صادقاً بأن مفاتن بلادهم هى أفضل مصدر لسعادتهم ، وهكذا فهم أول ضحايا سحر إيطاليا الذائع الصيت ، لا يشبعون إطلاقاً من مناظرها الطبيعية وطعامها وموسيقاها والعيش فيها ، وهذه الألفة لا تولد

فيهم الاحتقار على الإطلاق ، فالنابوليتانيون (أهل نابولى) مثلا لا يزالون بعد عشرات آلاف السنين يحدقون النظر فى المناظر الطبيعية حولهم بالنشوة نفسها التى اقترنت بنظرة أسلافهم ، وما زالوا يأكلون بنهم الإسباجتى المخلوط بقواقع البحر spaghetti alle vongole كأنهم لم يذوقوه من قبل، وما زالوا يؤلفون أغانى لاحصر لها يتغنون فيها بجمال نسائهم الخالد وروعة خليجهم . أما أولئك الإيطاليون الذين يقومون برحلات إلى الخارج فهم عادة المحظوظون : رجال الأعمال من ميلانو وأثرياء روما الذين اقتبسوا العادات الأجنبية ، والوزراء والدبلوماسيون والعرسان . كذلك يسافر إلى الخارج المعدمون للبحث عن عمل يرتزقون منه . ويشعر كل هؤلاء وأولئك بالوحشة نفسها فى البلد الأجنبى ، فيبحثون — الأغنياء والفقراء — أينما ذهبوا عن القهوة الإيطالية caffè espresso وعن مطعم إيطالى ، ويتطلعون فى شغف إلى اليوم الذى يعودون فيه إلى بلادهم .

وحين يكون موسم السياحة فى ذروته ، أى من أوائل يونية إلى أواخر سبتمبر ، يملأ الزائرون الأجانب كل مكان خال فى إيطاليا ، فتتكدس بهم قطارات السكة الحديدية والأتوبيسات والبواخر والمطاعم والكنائس ومناطق الآثار اليونانية والرومانية والمعابد وقاعات الحفلات الموسيقية والمبانى العالية التى تهيئ لهم الفرصة لرؤية ما تطل عليه من مناظر خلابة والاستمتاع بها . ويصادف المرء هؤلاء الأجانب فى كل مكان ، وكثيراً ما يجلسون معه إلى مائدته ، أصدقاء يجهل بعضهم بعضاً ، بل قد يجدهم أحياناً فى غرفته ، وفضلا عن ذلك فهم يكتظون فى جامعتين : جامعة بيروچيا Perugia وجامعة أوربينو Urbino اللتين خصصتا بالأجانب ليدرسوا فيهما اللغة الإيطالية ، وينهلوا من الثقافة الإيطالية المشرقة ، ويتصادقوا معاً ويسبحوا ويلعبوا معاً ، وهناك يغذون أنفسهم غذاء رخيصاً قوامه عجينة المكرونة

وزيت الزيتون والطماطم والثوم . وتقوم الجامعات الأمريكية أحياناً بتنظيم دراسات صيفية فى إيطاليا لتذوق الفن أو تاريخ الحضارة وما إلى ذلك، فتعقد هذه الدراسات فى إحدى الدور القديمة villa القائمة على أحد التلال المطلة على فلورنسا أو فى قصر Palazzo قائم على القناة الكبيرة فى فينتسيا — كذلك اشترت أندية عمال السويد والنرويج أراضى تكسوها الغابات فى بقعة مهجورة من الشاطئ وأقامت عليها نوادى لهم ومراكز للترفيه خاصة بهم .

وحين يشتد القيظ الخانق فى بعض أيام شهرى يولية وأغسطس وتكاد المدن تخلو من أهلها ، تغير عليها أسراب الأجانب المغبرين المتصببين عرقاً ، وفى ساعة الظهيرة حين يتقيل الإيطاليون ، وتنام خيل العربات تحت قبعاتها المصنوعة من القش ، يخلد هؤلاء السائحون الحفاة إلى الراحة ، فيتمددون على الأرائك فى الحدائق العامة ، وعلى الحواجز الحجرية المرتفعة قليلا عن طوار الطريق ، وعلى حواف أسوار النافورات أو الآثار القديمة ، ويضع بعضهم رءوسهم فوق أذرعهم على مناضد المقاهى لينالوا حظهم من الغفوة بين زجاجات فارغة وفوق مفارش قذرة ووسط تذكارات اقتنوها فى رحلتهم ، وعندئذ يبدون حقًّا كأنهم أفراد جيش متعب علق به الوحل بعد معركة منهكة ، واحتل مدينة تخلى عنها العدو وولى هارباً . لقد انتصروا وأصبح المكان ملكاً لهم .

وإنى لا أتحدث هنا عن القلة أعنى الأجانب المتمرسين الذين يعرفون لماذا يأتون إلى إيطاليا ، وما هى إيطاليا ؟ نعم ؛ لقد جاء إليها كثيرون من قبل ممن يعرفون طريقهم وكيف يتنقلون فيها ، وآخرون ممن لم يسبق لهم زيارتها ، ولكنهم يعرفون بطريقة أو بأخرى ماذا يفعلون وماذا يريدون ، ويتحاشى كل هؤلاء القيظ والغبار ، وقلما يزورون المعالم الشهيرة ، فإن أرادوا زيارتها (والأماكن

الشهيرة هى أكثر الأماكن المرغوبة) فإنهم يقصدونها فى أوقات ملائمة حين تخلو من الجماهير الغفيرة وحين يكون الهواء عليلا ، ويرتدى هؤلاء ثياباً عادية كأى إنسان آخر ، ومنهم من يعشق الطبيعة ، ومنهم من يهوى التعرف على الناس وتكوين صداقات ، ومنهم من يكتشف شواطئ رملية لا يعرفها كثيرون أو جزائر لا يرتادها غيرهم ، ومنهم من ينعطف فى دروب ملتوية طويلة لمشاهدة قطعة فنية يجهلها كثيرون ، ومنهم من يحب الطعام والنبيذ ويعرف المطاعم الصغيرة trattorie التى لا يعرفها سوى قلة من المواطنين ويجهلها الأجانب ، وهناك كثيرون يجيدون التحدث باللغة الإيطالية ؛ وكل هؤلاء يختفون بعيداً عن الأضواء ، ولا يعنينى أمرهم هنا حيث لا يميزهم شىء ما عن أهالى البلاد، وإنما أتحدث عن الغالبية العظمى من السائحين ، أعنى الملايين الذين يدفعهم إلى زيارة إيطاليا حافز غير معروف .

يفد هؤلاء إلى إيطاليا فى انتظام بالغ وأعداد وفيرة ، الأمر الذى يجعل وصولهم الجماعى يبدو وكأنه حدث طبيعى لا يمكن مقاومته ولا تجنبه ، شأنه شأن موسم عودة الطيور القواطع ، كالخطاف والسمان والحجل ، بدافع الغريزة ، أو كأنه ظاهرة أنثروبولوجية مثل انتقال القبائل الرحل سعياً وراء العشب الأخضر لرعى قطعانهم – ويزداد هذا الانطباع رسوخاً فى أذهان الإيطاليين لأن كثيرين من هؤلاء السائحين يبدون لهم متشابهين حيث يرتدون ملابس صارخة الألوان كما كان يفعل أفراد القبائل البربرية القديمة فى الماضى ، وكما لا يزال يفعل البربر والغجر ، فضلا عن أن بشرة كثيرين من السائحين الألمان والإسكندنافيين والبريطانيين والهولنديين حمراء وردية اللون ، وقلما تنجح أشعة الشمس فى أن تكسبها سمرة لائقة ، بل إنها تزيد هذه البشرة احمراراً فتصبح أشبه بلون

لحم الخنزير أو تكسوها بالنمش . أضف إلى ذلك أنهم من شدة الحر يتصببون عرقاً تحت قمصانهم المصنوعة من النايلون ، وهم ينتعلون نعالا خشنة يعوزها الذوق السليم ، ويضعون على أعينهم نظارات سوداء ، ويتركون رءوسهم عارية أو يغطونها بقبعات مصنوعة من القش الرخيص على حوافها زخرفة مطبوعة أو مطرزة بأسماء المدن أو الأماكن المقدسة أو الشواطئ أو الجزر .

وهناك فى سلوك كثيرين منهم شىء له معنى خفى ، ذلك أن لوناً من الجنون الهادئ ينتاب معظمهم ويغير طبيعتهم فور عبورهم الحدود ودخولهم الأراضى الإيطالية – هو جنون يشبه الإثارة التى لا تمكن مقاومتها والتى تأسر بعض الكائنات الحية وتجعلها تنسى نفسها وكل ما عداها ، ومن ثم تنصاع لحافز غامض خفى من الطبيعة ، كما يحدث لسمك السلمون عندما يتجه ضد التيار . أو قل إنه جنون يشبه تلك النشوة الحلوة الرقيقة التى تأخذ بألباب العروسين فى شهر العسل فتذهب بهما بعيداً نوعاً ما فى كل مكان فى العالم ، ولكنها تجعلهما أشد جنوناً فى إيطاليا بوصف كونهما فى شهر العسل ، ولأنهما فى إيطاليا بالذات . الواقع أن كثيرين من الرحالة العاديين يبدون أشبه بالأعراس الجدد ، سعداء سكارى بأوهام وآمال جديدة ، وهكذا فإن المهنى الرزين والتاجر الرصين والموظف المخلص والعالم المدقق والمربى المتجهم وربة المنزل الأنيقة والعانس ذات النظارة والعذراء الساذجة والزوجة العفيفة والزوج المستكين – كل أولئك يتصرفون على نحو لم يجرؤ أحد منهم أن يسلكه من قبل ، ولن يجرؤ أن يسلكه جهاراً فى بيئته المحلية ، وبمعنى أدق أنهم يتصرفون وكأنهم قد طرحوا جانباً الأدوار التى حددتها لهم الطبيعة ، وخلعوا عن أنفسهم الشخصيات التى وهبتها لهم ، لأن هذه الشخصيات وتلك الأدوار غدت فجأة بغيضة إليهم غريبة عنهم ، أو كأن كل القواعد التى

تنظم الحياة قد غيرت أو عطلت — ويبدو بعضهم وكأنهم تجردوا تجرداً غريباً من كل أو بعض فطنتهم المألوفة وقدراتهم على ضبط أنفسهم ، ومن حسن البصر بالأمور وغير ذلك من السجايا التى تعتبر ضرورية للبقاء فى معظم البلاد ، مثل النزوع إلى الشك والحياء والحذر والخوف ، ومن ثم يقعون فى أنواع شتى من المآزق ويصادقون الصالح والطالح ، وينظرون إلى الأمور بعين متسامحة ساذجة تبدو أنها على أتم استعداد لحب كل شىء تقريباً والإعجاب به والعطف عليه أو على الأقل للتغاضى والصفح عنه سواء أكان غثًا أم سميناً ، أو بين بين أو بغيضاً ، ومن ثم يسهل الاحتيال عليهم فى كثير من الأحوال ، على أن كثيرين منهم لا يرون فى كل الأحوال غضاضة فى ذلك .

ويحتسى معظم الوافدين من شمال أوربا كميات هائلة من النبيذ دون تمييز ، فهم يشربون أى قدر منه فى تلهف وانشراح سواء كان نبيذاً غالياً من إنتاج مزارع الكروم الشهيرة أو رخيصاً لا تزال تعلق به رائحة الكبريت وألواح البراميل الخشبية وتشتد حلاوته وكثافته مما ينتج لأولئك الذين لا يعرفون أنواع الخمور ، وهذا — لسبب غريب — أول شىء يفعله الألمان والنمساويون فور عبورهم ممر برنر فى رحلتهم نحو الجنوب ، فهم يوقفون سياراتهم أمام إحدى حانات النبيذ المنتشرة — بقدر انتشار محطات البنزين — على جانبى طريق الوادى وراء الحدود مباشرة . ولكل حانة Osteria لافتة من الحديد المطروق تحمل اسمها ، ولكل منها شرفة مغطاة بأوراق الأشجار ، وبها مناضد تكسوها مفارش عليها رسوم مربعات ، ويقوم بالخدمة فيها فتيات يرتدين الموادع (المرايل Dirndl) ، والحق أن كل شىء صمم فى هذه الحانات بذوق جميل يوحى بجو القصص الخرافية ، جو خليط يناسب المكان جغرافيًا وسيكولوجيًا ، فهو نصف ألمانى ونصف إيطالى ،

أو قل نصف على نمط والت ديزنى بأسلوب تيرولى ، ونصف على نمط مناظر التروفاتورى ومهرجان الخيل الذى يقام فى مدينة سيينا Palio-di-Siena وهو من بقايا العصور الوسطى . ويذكرنا سلوك السائحين الألمان والنمساويين على طول طريق برنر Brenner بسلوك الأمريكيين فى فترة تحريم الخمور فى بلادهم حين كانوا يسارعون إلى أول حانة فور عبورهم الحدود الكندية . وليس هناك تفسير واضح لهذه الظاهرة ، فليس فى ألمانيا والنمسا نقص فى الخمور الرخيصة المحلية أو المستوردة ، ولكن لعل هؤلاء السائحين يحاولون إطفاء ظمئهم السيكولوجى لا الفسيولوجى ، وقد يكون هذا طقساً سحرياً يؤدونه تلقائياً ودون وعى منهم يشربون النبيذ كأنه جرعة ضرورية لاكتساب شخصية جديدة ، أو لعلهم يشربونه كما يشرب المرء الشمبانيا ليلة رأس السنة الجديدة حين تدق الساعة منتصف الليل ليحتفل بالعبور إلى عام جديد ، وليبنى آمالا جديدة ويبدأ حياة جديدة .

وبهذا الحماس نفسه ينغمس أولئك السائحون الذين يفدون فى أثناء الصيف فى كل أنواع اللهو والتسلية دون تمييز ، تلك التى يحتمل أنهم قد تجنبوها فى بلادهم ، فتراهم ينصتون فى جذل وطرب فى روما أو ميلانو أو سبولتيو Spoleto إلى أساطين غناء الأوبرا فى العالم كله ، ويستمعون إلى الفرق الموسيقية الريفية التى تصفر وتئز ، ويصغون إلى رباعيات فيفالدى Vivaldi الرائعة ، وإلى الأوركسترا الراقصة ذات الآلات النحاسية ، ويقبلون على الطعام الطيب المذاق الذى يعده طهاة مشهورون ويأكلونه بالشهوة نفسها التى يلتهمون بها على حد سواء طعام الفلاحين العادى المكون أساساً من الثوم والطماطم وما يصيده الصيادون من أسماك الأخطبوط والجمبرى المقلية فى بقعة مهجورة على الشاطئ .

ويحاول كثيرون من السائحين التحدث باللغة الإيطالية، ويوفق قليلون منهم فى التكلم بها فى وقت قصير ، على حين يتصور آخرون أنهم يفعلون ذلك، ويدرس بعضهم قوائم كلمات طبعت بالهجاء الصوتى فى كتيبات، ويلتقطها آخرون من المحادثات العفوية ، ويبذلون جهدهم فى استخدام الإيماءات العنيفة عندما يتكلمون ، ويفعلون ذلك عادة على النحو الذى يفعله الممثلون الهزليون الهواة الذين يلعبون دور شخصية إيطالية فيقهقهون ويتكلمون بصوت عال ويتحدثون مع كل إنسان : مع الأفراد الجالسين إلى المنضدة المجاورة — مع رفاقهم فى القطارات — مع الأندال فى المقاهى والمطاعم — مع الشحاذين ومع المغنين الطوافين فى الشوارع ، ومع المرشدين الذين يرافقونهم فى زياراتهم ، ومع أى فرد على مرأى منهم — يفعلون ذلك فى سذاجة ودون تمييز شأنهم شأن المولعين بالكلاب أولئك الذين يدللون أى كلب يصادفونه .

والرجال — أو على الأقل كثيرون منهم ومن مختلف الأعمار — مولعون بالجنس اللطيف ، فيعجبون بالفتيات والشابات الإيطاليات ، ويلاحقونهم فى كل مكان . وجدير بالذكر أن الفتيات والشابات الإيطاليات — لأسباب نجهلها — هن اليوم أروع جمالا مما كن عليه فى الماضى ومما تعيه الذاكرة ، ثم هن أكثر فتنة وأشهى إلى النفس من أشهر التماثيل واللوحات التى صنعها أو رسمها أساطين الفن السابقون ، فإن تمثال فينس للفنان بوتشلى ولوحة الحب المقدس للفنان تتيان ، ولوحة فورنارينا للفنان رافاييل ، لا تجعل أى فرد يتلفت حوله فى الشوارع أو يغير اتجاهه فيها ، الحق أن الفتيات الإيطاليات أشد جاذبية وأيسر منالا ليس فقط مما كن عليه فى الماضى بل مما هو عليه حال زميلاتهن فى بلاد كثيرة أخرى ، فإن الجمال الأنثوى قبل الحرب — شأنه شأن الرخاء الاقتصادى — كان فيما الإيطاليون

يبدو ميزة مقصورة على حالات محلية نادرة على حين آنه كان منتشراً بين آجنبيات كثيرات وبخاصة الأمريكيات ، ومن ثم كان الشبان الإيطاليون المهندسون يترقبون فى لهفة فصل الربيع موعد وصول الفتيات الأمريكيات ذوات القد الممشوق والبشرة النظيفة والملابس الأنيقة والسيقان الطويلة ، فيخيل إليهم أنهن قد جئن من عالم آخر أكثر حيوية وشباباً — فتيات تمتعن بصحة طيبة وتميزن بظرفهن وتحررهن وجرأتهن — ومهما يكن من شىء فقد اكتسب الإيطاليات اليوم وعلى نحو مذهل سيقاناً طويلة جميلة التكوين ، ولهن وجوه فاتنة مفعمة بالحيوية والنشاط ، وأثداء مشرئبة وخصور نحيلة وأرداف متناسقة ، وفضلا عن ذلك فإنهن يتميزن بطباع أليفة ساذجة غير معقدة ، ويمكنهن التفوه بكلمات حنون رقيقة فى صراحة تحطم القلوب ، أو يتلفظن أحياناً وعلى نحو لطيف بألفاظ لا يليق ذكرها هنا .

الواقع أن الرجال دأبوا دائماً على ملاطفة النساء فى إيطاليا ، فكانت غانيات روما وفنتيسيا فى عصر النهضة موضع الإعجاب الشديد ، وكان موسم الكرنفالات فى روما وفنتيسيا لقرون كثيرة مجرد مسوغ لتصيد بنات مقنعات فى الشوارع — أما الآن فقد اكتسبت هذه الملاحقة صبغة أشد إقداماً وتهوراً حيث تسحر فتنة الفتيات كثيرين من الزائرين لدرجة أنهم يفقدون فى كثير من الأحوال كل قدراتهم على التزام المنطق السليم والرأى السديد . نعم تسلب لبهم مشية الفتيات الأفعوانية المثيرة ، وعاداتهن المغرية المضيافة ، وملابسهن الأنيقة التى كثيراً ما تبدو وكأنها حيكت عليهن ، وبخاصة ثوب السباحة الرقيق المؤلف من قطعتين — وفى بعض الأحيان يذرع الأجانب الشوارع فى ملاحقة بعض هذه النماذج المثيرة بنوع خاص ، شأنهم شأن الكلاب الجائعة التى تلاحق صبية القصابين حين يتوجهون لتسليم ما لديهم من لحوم لأصحابها ، وليس من الصعب دائماً بدء عملية التعارف

فى المقهى أو على شاطئ البحر ، بل ربما استطاع كثير من الرجال فى سهولة بالغة أن يدلفوا إلى مضجع فتاة ، ويقع بعض هؤلاء فى أشراك غرام عنيف فيرغبون فى الزواج – إنهم يريدون أن يأخذوا معهم عند أوبتهم إلى أوطانهم المظلمة تذكاراً حيًّا من بلد الشمس المشرقة والعادات اللطيفة – ومن ثم هناك فى آخر كل صيف رجال يهددون بالانتحار (قليلون يقتلون أنفسهم) من أجل حب امرأة جميلة قلما يستطيعون التحدث معها ، وربما تشقيهم وتجعلهم تعساء إن هى أصبحت زوجة لهم .

وتعتقد كثيرات من النساء الأجنبيات أن للرجال الإيطاليين سحراً لا تمكن مقاومته ، وهكذا فللرجال أيضاً صيت ذائع من قديم ، والواقع أن بعضهم لا يمكن مقاومتهم ، فإن سحرهم ومهارتهم وتجردهم من المبادئ وجرأتهم هى مضرب الأمثال ، ويشعر معظم هؤلاء أنهم أحرار كالطيور – حتى المتزوجون منهم أو أولئك الذين تعلقوا بفتاة معينة أو خطبوها – فالكثيرون منهم ميالون إلى مداعبة ومغازلة الجنس اللطيف فى أول فرصة تسنح لهم وفى أى مكان سواء كان ذلك فى سيارة أو على شاطئ البحر أو خلف شجيرة كثيفة الأغصان أو فوق قمم الجبال أو تحت الماء أو حتى فى الفراش ، وسواء كان ذلك نهاراً أو ليلا ، وليس من العسير إرضاؤهم شباناً كانوا أو رجالا ناضجين ، بدينين أو نحيلين ، فلاحين أو أبناء مدن مستهترين من راكبى سيارات « مازيراتى Maserati » . وقلما يضيع أولئك النساء فرصة ما ، فكل ما على المرأة أن تفعله فى حالات كثيرة هو أن تلقى بنظرة لها معناها عبر منضدة فى المقهى ، أو تبتسم ابتسامة خفيفة ، أو تلوح بيدها ، أو تضع فى فمها لفافة تبغ ثم تتظاهر بالبحث فى حقيبتها عبثاً عن عيدان الثقاب ، أما الرجال الأكثر خبرة أو أعلى مقاماً فإن اجتذابهم يتطلب من المرأة جهداً أكبر

نوعاً ما ، وطبيعى أن يفد إلى إيطاليا بعض نساء أجنبيات قبيحات لهن صدور مسطحة ، وأخريات فى متوسط العمر مازلن يشعرن فى أعماق قلوبهن أنهن شابات ، كما يفد إليها بعض جدات وحيدات يحتفظن بقوامهن — يفد كل هؤلاء إلى إيطاليا يحدوهن أمل إثراء حياتهن بتذكار علاقة غرامية إيطالية ، أو قل حب عنيف تحت النجوم أو على شاطئ البحر فى صحبة أنغام القيثارة . بل هناك أيضاً مخيمات رخيصة هى مجموعات من أكواخ مصنوعة من القش أقامتها مؤسسات أجنبية على شواطئ منعزلة فى جنوب إيطاليا أو فى الجزر وخصصتها لاجتماع النساء الأجنبيات المنسيات والمعدمات بكل ما توفره البيئات البدائية من رجال إيطاليين متلهفين : صيادى أسماك وملاحين وجنود وعمال زراعيين عاطلين ، شعورهم المجعدة ملمعة بمستحضر زيتى ، وابتساماتهم مشرقة .

* * *

وكثيرون من الأجانب يعودون إلى إيطاليا فى السنة التالية ، ويتردد البعض عليهم على نحو مطرد ، ويبقى البعض فيها مدة أطول فى كل مرة ، ويقررون الإقامة فى إيطاليا فترة من الزمن ، وفى نهاية الأمر يدهش قليلون منهم لكشفهم أنهم لم يعودوا قادرين على مغادرتها ، ولا يجدون مناصاً من الإحساس بأن هناك شيئاً من الجبن فى قرارهم بالعيش هنا مدى حياتهم . ومنذ زمن طويل أحسن وصف إحساساتهم هذه ناثانيل هوثورن Nathaniel Hawthorne الذى جاء إلى روما سائحاً ثم راقب نفسه وهو يتحول شيئاً فشيئاً إلى مستوطن بها . قال هوثورن : « إن السنوات برغم ذلك يشوبها شىء من العقم حين نقضى عدداً وفيراً منها على شاطئ أجنبى ، وفى هذه الأحوال نرجئ حقيقة الحياة إلى لحظة مقبلة سوف نستنشق فيها نسيم وطننا مرة أخرى . ولكن شيئاً فشيئاً ليست هناك لحظات مقبلة ، أو أننا إذا

عدنا فعلا إلى وطننا نجد أن نسيمه قد فقد سمعته المنعشة ، وأن الحياة قد نقلت حقيقتها إلى البقعة التى اعتبرنا أنفسنا فيها مجرد نزلاء مؤقتين ، وهكذا فليس لنا بين البلدين بلد على الإطلاق أو لنا فقط فى أى منهما ذلك الحيز الصغير الذى ندفن فيه فى النهاية عظامنا « الساخطة » .

ترى كم عدد هؤلاء الأجانب المغتربين فى إيطاليا اليوم؟ بضعة مئات الألوف؟ مليون ؟ إن أحداً لا يعرف ذلك . فبعضهم غير بارزين ، وهؤلاء هم المتطلينون Italianizanten الذين أولعوا بإيطاليا ويقيمون فيها على الدوام ويعرفون سبب بقائهم فيها . هم إيطاليون فخريون بحكم مزاج عقلى خاص أو قل بحكم صلة ربطتهم بإيطاليا بمحض اختيارهم . وقلة منهم إيطاليون أكثر من الإيطاليين أنفسهم فيعرفون عن إيطاليا وآدابها وعاداتها تاريخها وكنوزها الخفية وإمكانياتها أكثر مما يعرفه أهلها ، أما أولئك الذين يثيرون اهتماماً فهم الآخرون ، وأبرز هؤلاء هم بطبيعة الحال الأثرياء وأصحاب الملايين من بلاد أمريكا الجنوبية المتمردة الذين يخشون الثورات ، والفنانون الناجحون ونجوم هوليوود وهواة الفن من أصحاب الدخول الثابتة وعشاق الجمال الذين ضجروا من الحياة ولهم حسابات فى المصارف السويسرية .

ويقضى هؤلاء فصلا من السنة أو بضع سنوات فى بيت فى فلورنسة أو فى دارفخمة تطل على المدينة من دور آل مديتشى وسط لوحات نفيسة لا تقدربثمن (ومن أمثلة هؤلاء الملكة فكتوريا، وآل برونتج، ومارك توين، وبرنارد برينسون، وألدوس هكسلى) أو يستأجرون على القناة الكبيرة فى فينيتسيا Grande Canal قصراً Palazzo كاملا بما يلزمه من زوارق الجندولا وملاحيها gondoliers بيزاتهم المميزة (ومن أمثلة هؤلاء لورد بيرون — وألفريد دى موسيه — وجون رسكن —

وفاجنر – وباربارا هاتون – وكول بورتر) أو يقيمون ، كإحدى شخصيات قصة من قصص هنرى جيمس ، فى الطابق الأول الفخم بحجراته ذات الأسقف العالية فى أحد قصور روما ، ويفضل بعضهم السكنى فى بيوت قديمة مثيرة قائمة على قمم تلال وتطل على بحر أو بحيرة (ومن أمثلة هؤلاء الشاعر شلى Shelley الذى أقام فى ليرتشى Lerici وأكسل مونته ، ونورمان دوجلاس ، وكروب فون بوهلن Krupp von Bohlen ، الذين عاشوا فى جزيرة كابرى Capri ؛ وجوركى الذى أقام فى سوريتو Sorrento) .

ويأتى الأثرياء إلى إيطاليا حرصاً منهم على تفادى دفع ضريبة الدخل المرتفعة فى بلادهم ، أو لتحاشى استنزاف ثرواتهم بضرائب التركات – ويريد آخرون الاستمرار فى العيش عيشة رغدة وحولهم الخدم والحشم كما كان يفعل الأغنياء دائماً وكما هو ممكن فى إيطاليا لسنوات قليلة أخرى فحسب . ويتوق أغنياء الحرب Nouveaux riches إلى طمأنينة البيئات الفخمة فكلهم يريدون أقصى درجة من الأبهة الظاهرة بأقل النفقات ، ولكن علاوة على ذلك فإن كثيرين يريدون دون شك الاعتزال بعيداً عن جلبة الحياة العملية وعنفها كى يحتفظوا ويعتزوا بصورة خادعة خيالية عن أنفسهم : عن ذوقهم الرفيع وعن ذكائهم وجمالهم ومنزلتهم الاجتماعية ، صورة يمكن أن يحطمها ما قد يواجهونه من تحديات قاسية فى وطنهم ، ومن ثم يلتمسون فى أسى ألا تصدمهم الحقائق .

ثم هناك المغتربون الفقراء ، وهم يفوقون الأغنياء عدداً ، ويتزايدون سنة بعد أخرى ؛ وكثيرون منهم – شأنهم فى القرون الماضية – فنانون ، بعضهم أكفياء وآخرون شبان مكافحون ، وفاشلون قدامى ، ومبتدئون تحدوهم الآمال ، وناجحون ، وأولئك الذين لا قيمة لهم على الإطلاق وهم يدركون هذه الحقيقة ولا يبالون ، الحق

أن إيطاليا تلائمهم بوصفها بلداً يمكن أن يعمل المرء فيه وأن يبلور آراءه وآراء الآخرين ، وأن يقوم بتجارب وأن يقابل أناساً مثيرين ، وأن ينمى بصفة عامة إمكانات كامنة ، وهؤلاء المغتربون الفقراء هم من جميع الأنواع ، فهناك كتاب ومصورون وراقصون وموسيقيون وممثلون ونحاتون وشعراء أو أصحاب فنون جديدة لم تعرف بعد ، وبعضهم مجرد هواة يحبون الفنون حبًّا يفوق بكثير قدراتهم ومواهبهم المتواضعة ، ويتحايلون لاقتناص لقمة العيش بطريقة ما فى البيئات الفنية وعلى هامش عالم الفن — وإيطاليا لكل هؤلاء هى الملاذ الأبدى فى العالم أو قل هى شاطئ الأمان الذى يرتدون إليه من البحر الهادر المتلاطم .

ثم هناك مغتربون معدمون لا صلة لهم بالفن ، ولعلهم أكثر عدداً من زملائهم الفنانين ، وهم أيضاً من جميع الأنواع ، فهناك أرامل حرب ألمانيات وغانيات فرنسيات شمط يعشن على غنائم مغامرات غرامية مضى زمنها وولى ، وهناك نقباء Colonels عملوا فى الجيش الهندى ، ومعلمون إسكندنافيون متقاعدون ، وأجداد أمريكيون يمقتون جنوب كاليفورنيا ، وأفراد لم يتكيفوا مع مجتمعهم ، وآخرون هبطت منزلتهم الاجتماعية فى بلدهم ، قل هناك طريدو الأمم كلها وأنواع المتسكعين كافة ، ويعيش كثيرون من هؤلاء كلهم فى المدن الكبيرة فيستأجرون شققاً صغيرة مفروشة فى بيوت قديمة أو فى مراسم الفنانين ، ويتحاشون المراكز الصناعية الصاخبة وشقق المجموعات السكنية المغمورة ، ويؤثرون إيطاليا الفاتنة الفقيرة المتداعية حيث يجدون عزاء وسلوى فى الانحلال . كذلك يفضل كثيرون المدن التاريخية القائمة على التلال والقرى الجاثمة على قمم الجبال وموانى الصيد الصغيرة المنتشرة على طول الشاطئ والجزر الصخرية . وجدير بالذكر أن بعض البقاع البهيجة التى اكتشفها أجانب مفلسون فى الأجيال الماضية مثل كابرى

وإسكيا Ischia ورابالو وتوارمينا Taormina وبورديجيرا (التى قضى فيها إدوارد لير آخر سنى حياته وكتب قصائده الفكاهية خماسية الأبيات) : نقول إن هذه البقاع أصبحت اليوم أماكن شهيرة جداً باهظة النفقات كثيرة الضوضاء مكتظة بالزائرين ، ولكن هناك دائماً أماكن أخرى جديدة لم تلحقها هذه الشوائب بعد .

ويرتدى الأجانب المفلسون ثياباً رثة ولكنها جميلة ، وفى بعض الأحيان يطهون طعامهم بأنفسهم ، وفى أحيان أخرى يقيمون فى بيوت الفلاحين أو صيادى الأسماك لقاء أجر معين شامل لطعامهم وسكناهم ، أو يأكلون فى مطعم رخيص Pizzeria أو فى حانة مقابل ليرات قليلة ، والطعام الإيطالى العادى جيد كالطعام فى ريف فرنسا أو طعام الصين فيما مضى . ويقول معظم هؤلاء الأجانب الفقراء إنهم جاءوا أساساً إلى إيطاليا لأن جوها أكثر اعتدالا ، ولأن المعيشة فيها أقل نفقات من أى مكان آخر . وإن ما يحبونه — بطبيعة الحال — ليس رخص الأسعار والشمس المشرقة فحسب بل أيضاً مكاناً يبدو فيه العوز غنى متواضعاً بالمقارنة إلى الفقر السائد حوله ، مكاناً يمكن فيه احتمال الفقر فى كرامة لأنه لا يلفت النظر ولا يحرج صاحبه ، والواقع أن العسر قلما يكون موضع الرثاء والاحتقار بين الإيطاليين العاديين لأنهم يعتبرون الفقر هو الحالة الطبيعية للإنسان ، ويرونه مسألة شخصية مثله مثل الدين والسياسة أو غيرها من فضائل ورذائل وعادات لايجوز مناقشتها ، وبعبارة أخرى أن ما يبحث عنه هؤلاء الناس هو عدم اكتراث الإيطاليين التقليدى بمظهر غيرهم ومالهم من خاصيات بما فى ذلك الفقر ، أو قل إنهم يتطلعون إلى عدم الاكتراث الذى يقارب التسامح ، بل هو التشجيع أحياناً .

الواقع أن إيطاليا الأجانب المغتربين — أغنياء وفقراء — هى فى أغلبها بلد خيالى غير متطابق تماماً مع إيطاليا الإيطاليين ، فالمغتربون فى كثير من الأحوال لا يهتمون

حقاً بتفهم إيطاليا الإيطاليين فى جلاء ووضوح أو بجبها ، وأول ما يلاحظ فى هذا الشأن أن كثيرين منهم لا يعرفون من أبناء البلاد سوى عدد بالغ القلة لا يقابلونهم إلا لماماً مما لا يستطيعون معه فهمهم وإدراك مشاكلهم ، فالأجانب الفقراء يقابلون فى الأغلب الخدم وبوابى الفنادق وندل المطاعم والمقاهى وأصحاب الحوانيت وواحداً أو اثنين من الحرفيين ، وساعى البريد ومختلف الطفيليين ، أما الأجانب الأغنياء فإنهم يقابلون أعضاء مجتمع المقاهى المحلى : إيطاليين مرحين بارعين يتحدثون اللغات الأجنبية ، زاروا بلاداً أجنبية ، ومنهم من يشربون الويسكى ولهم أقارب فى الخارج . وهكذا فإن قليلين فقط هم الذين تسنح لهم الفرصة لمعرفة جمهرة الشعب الكبرى . وهؤلاء الأجانب يعاملون أهالى البلاد بلطف وكرم ، ويسىء كثيرون منهم فهم السلوك المتسم بالتسامح الذى يعاملهم به الإيطاليون والذى يبلغ أحياناً حد الملاطفة التى يعامل بها المرء الأطفال فيحسبه هؤلاء الأجانب كياسة وعطفاً !

الحق أن مشاكل إيطاليا المعاصرة اتثير بالغ القلق وتدق على الفهم حيث بدت الأحداث السياسية المحلية دائماً غامضة تافهة ، فيلاحظ أنه قبل الحرب العالمية الثانية رأى كثيرون ممن كرهوا الحكم الفاشى أنه ، برغم كراهيتهم له ، كان تهريجاً رائعاً لا ضرر منه ملائماً للأهالى ، على حين كانت هناك فئة من الناس بعد الحرب تعتقد أن قليلا من الشيوعية قد يفيد الإيطاليين ، ولعل الآراء التى أدلى بها الشاعر الأمريكى عزرا باوند Ezra Pound فى موسولينى ونظام حكمه قبل الحرب وفى أثنائها هى أسطع مثال لهذا النوع من الاضطراب الشامل وإن كان اضطراباً بريئاً ، كذلك هناك أقلية تمقت الإيطاليين مقتاً شديداً ، ويعتقد هؤلاء أن المناظر الجميلة التى تؤلف خلفية مسرح الحياة التى يحلمون بها يفسدها ركام متنافر من ملايين الإضافات : من رجال ونساء وأطفال صاخبين ، وتتلفها أصوات دراجات الفسبا Vespas وبريق

الإضاءة اللامعة (فلورسنت) والضوضاء والمنشآت الحديثة وكافة أنواع المزاعم والتعقيدات ، والواقع أن البلد الذى يقطنه هؤلاء الأجانب هو إيطاليا البالغة الصغر الخاصة بالمغتربين والتى تتألف من أحياء قليلة شهيرة فى المدن القديمة وبعض البنادر والقرى والبقاع الشهيرة بمناظرها الطبيعية الرائعة وثلاث أو أربع جزر ، حيث يعاشرون فى الأغلب أناساً على شاكلتهم .

ويجد كثيرون فجأة — شأن الروائى الأمريكى ناثانيل هوثورن Hawthorne (١٨٠٤ — ١٨٦٤) — أنه لم يعد فى استطاعتهم مغادرة هذا البلد الذى لا وجود له فى الواقع ، ولم يعد فى وسعهم مواجهة العالم الأشد قسوة الذى جاءوا منه ، حيث قد يرون الأشياء فى وضوح بالغ وحيث لكل لفظ فى لغتهم القومية معنى دقيق ، أجل ؛ لقد غدوا أسارى للحياة فى إيطاليا متعلقين بأساليبها الأنيسة اللطيفة — فضلا عن أن كثيرين منهم لم يعد لهم أقارب يعودون إليه فى بلادهم — ومن ثم يتشبثون بعرينهم الصغير وبمنظر البحر الذى يطلون عليه من التل ، وبمنظر الكلوزيوم الذى يشاهدونه من نافذة سكنهم ، وبمنظر القناة الكبيرة فى فينتسيا ، وبمنظر أسطح مبانى فلورنسة ، والدور المتداعية فى راپالو Rapallo ، ويتعلقون بمجموعة التحف القديمة التى اقتنوها طيلة سنوات إقامتهم فى إيطاليا ، ويتمسكون بعاداتهم الرتيبة . وهكذا تمتلئ إيطاليا بأناس يتقدمون فى السن لم يعد فى وسعهم التفكير فى مغادرتها ، ويعيشون وحدهم يسليهم قط أو كلب ، ويقوم بخدمتهم خادم أمين أحياناً أو خادمة لا ضمير لها فى كثير من الأحيان تطعم أسرتها بما تسرقه ، ثم يحل يوم يصبح فيه هؤلاء المسنون مرضى لا حول لهم ولا قوة ، بعيدين عن المناظر والأصوات التى ألفوها أيام شبابهم ، يصبحون منفيين بإرادتهم لأسباب غدت غامضة فى ذاكرتهم ، منفيين فى صقع أجنبى لم يشهدوه قط على حقيقته ولم يفهموه تماماً ، وفى النهاية ينتظرون الموت ،

ومع ذلك يظل بعضهم بملابس الشباب المزوقة الزاهية ، تلك المألوفة فى المصايف والمشاتى تحيط بهم معالم أجنبية وأفراد شعب أجنبي أصبحوا بطريقة ما الدعائم الضرورية والشخصيات التقليدية المعينة للمأساة الخيالية لحياتهم ، وفى كل سنة يموت كثيرون منهم ، ويعجل بدفنهم فى المقابر الإيطالية فى ركن خصص للكفار والضالين (يقصد المؤلف من لم يعتنقوا الكاثوليكية) ، على حين تنقل جثث بعضهم إلى أوطانهم ، إلى أقارب مجهولين غير مبالين بأصحابها ، أجل يموت كثيرون من هؤلاء المغتربين دون أن يتبينوا فعلا لماذا اختاروا قضاء السنوات الأخيرة من حياتهم فى إيطاليا بالذات دون أى بلد آخر .

وكثيرون من المغتربين العاطلين ليسوا كبار السن بل شباناً وهؤلاء لا ينشدون حياة الأبهة الفخمة بأسعار زهيدة ، أو رفاهية متواضعة سهلة أو طمأنينة يشوبها الجبن نوعاً ما خالية من المنافسة والنقد المر مما يمكن لإيطاليا توفيره ، ولا يريدون أن تساورهم أوهام أو قل صور كاذبة عن أنفسهم ، أو أن يسعوا وراء رغبات شاذة أو يهيئوا أنفسهم لمستقبل يضفى عليهم مجداً وشهرة — وكثيرون منهم ليسوا ضعافاً يائسين بل أقوياء مفعمين أملا وحيوية وصحة — وفى ساعات الأصيل فى فصل الصيف فى روما حين يلطف نسيم البحر — أو كما يسمونه نسيم الغرب Ponentino — الهواء الثقيل المرهق ، ترى هؤلاء الشباب الأجانب من كلا الجنسين وقد احتشدوا على الدرجات الصاعدة إلى كنيسة ترينيتا دى مونتى Trinita dei Monti المطلة على ميدان إسبانيا فى روما ، وقد تركوا شعورهم غير ممشطة ، ولفحت الشمس بشرتهم ، وارتدوا ثياباً قطنية متغضنة (مكرمشة) وانتعلوا نعالا مغبرة ، وفى بعض الأحيان يبدو الذكور منهم أنثويين على نحو غريب على حين تبدو الفتيات مسترجلات على نحو غريب أيضاً .

ويتكئ هؤلاء الأجانب على الحاجز الحجرى القديم الممتد على جانبى الدرجات أو يجلسون أو يضطجعون على الدرجات نفسها وينتظرون . . . ترى ماذا أو من ينتظرون ؟ إنهم يحتلون — دون علم منهم — أحد الأماكن التى تقابل فيها شباب غيرهم منذ مائة سنة مضت أو نحو ذلك ، تقابل فيها الحالمون من نماذج الفنانين الذين جاءوا إلى هذه البقعة للبحث عن عمل ، كذلك جلس على هذه « الدرجات الإسبانية » فى الماضى رهبان أتقياء ذوو لحى بيضاء وقطاع طرق وحجاج يحملون تذكارات من المحار وفلاحات حسناوات فى أزيائهن الجميلة ، ولصوص فى عطلة من عملهم بقبعاتهم المخروطية ولحاهم الكثة ، وقتلة سفاحون وخونة مارقون وسكارى مدمنون ، وشباب من طراز يوحنا المعمدان ، ورعاة بدوا فى عباءاتهم المصنوعة من جلد الماعز أو جلد الجاموس أشبه بآلهة الغابة الوارد ذكرها فى الأساطير اليونانية القديمة ، وشيوخ بلحى بيضاء وفلاحون ذوو عيون مفترسة جاءوا من التلال ، وهكذا يحتل هؤلاء الأجانب ، ودون علم منهم أيضاً ، أحد الأماكن التى وجد فيها قديماً اللصوص والقتلة وغيرهم من البائسين مأوى حصيناً لا يجوز لمن تعقبوهم من رجال الشرطة البابوية أن يقبضوا عليهم ما بقوا فى هذا المكان وذلك طبقاً لامتياز قديم .

ولهؤلاء الشباب المعاصرين مظهر زائف يجعلهم أشبه بالنماذج القديمة ، والواقع أنهم يبدون فى ملابسهم الرثة المتغضنة وكأنهم أيضاً قد فروا من موطنهم وراحوا يلتمسون ملاذاً . هذا فضلا عن أن السلطات الإيطالية تتركهم أحراراً يفعلون ما يشاءون ويلبسون ما يشاءون وكأنهم بدورهم محميون بفضل امتياز قديم من نوع ما . . . ترى من أية جرائم وأهوال عصرية غير محددة وغير معروفة يفر هؤلاء الشباب الأجانب ؟ وأى فراغ غامض يعانون فى أنفسهم بمجرد الوقوف على أرض إيطالية ؟.

الفصل الثانى

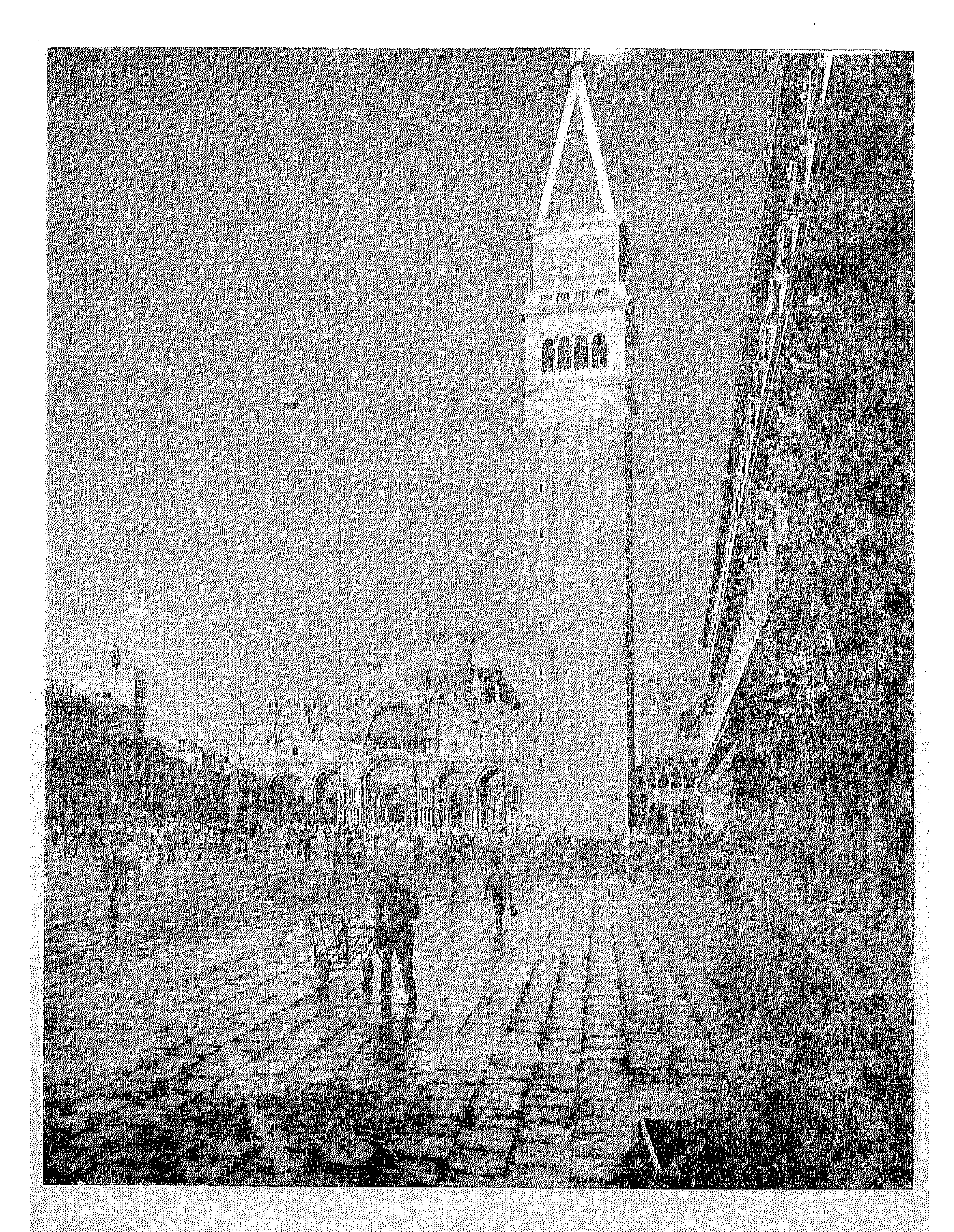
الحج الأبدى

إن الحج إلى روما موغل فى القدم إلى حد يمكن معه اعتباره جزءاً من طبيعة حياة هذا البلد — حيث ترجع أصوله إلى فجر التاريخ ، إلى الأيام التى فرّ فيها ساتورن Saturn أبو الآلهة من أولبس Olympus بعد أن عزله ابنه جوبتر Jupiter وسامه الذل والهوان ، ويروى أنه وجد ملاذاً فى إقليم لاتيوم Latium الذى يضم حالياً مدينة روما التى لم تكن قد أسست بعد ، وأصبح ملكاً عليه حكم فى العصر الذهبى ، وكان ساتورن بدوره لاجئاً تحرّر من الوهم ، وحاول أن ينسى سوء التفاهم والجمود والهزيمة ، ولا تزال إيطاليا تعرف فى لغة الشعر بأنها أرض ساتورن Saturnia Tellus ومما له دلالته أن أهل روما خصصوا قديماً أسبوعاً فى شهر ديسمبر من كل عام جعلوه عيداً يطلقون فيه العنان لأنفسهم وسموه ساتورناليا Saturnalia تمجيداً لذكرى هذا الإله المغترب أول ضيوفهم الأجانب ، فتحللوا فى هذا العيد من القوانين ، وشاعت الفوضى ، وأغلقت المدارس أبوابها ، وحرمت الحروب والمعارك ، وأصدر الفقراء أوامرهم للأغنياء ، وانتهر العبيد سادتهم ، وترك اللصوص أحراراً دون عقاب ، وغازل رعاع القوم علية النساء المتغطرسات .

ومنذ وقت طويل على قدر ما تعيه ذاكرة الإنسان نشد الأجانب ، سواء الخالدو الذكر أو من فنيت ذكراهم ، المسلحون منهم وغير المسلحين ، فرادى أو جماعات ، نشد كل هؤلاء فترة «ساتورنية» فى إيطاليا ، فجاء إليها حشود البرابرة أيام اضمحلال

الإمبراطورية الرومانية مدفوعين فيما يبدو بالرغبة فى السلام والاستقرار والفوز بغنائم ثمينة ومراع جديدة ، ومدفوعين قبل كل شيء بما كان يحدوهم من أمل ساذج يثير الشفقة، فى أنهم سوف يكتسبون، بطريقة ما فضائل المواطنين الرومان، المضمحلين المنهارين ، ومنجزاتهم، وما كان لهم من مركز مبجل بين الشعوب الأخرى ، ومن ثم يعتبرون روماناً ، كذلك وفد على المدينة الخالدة رحالة شماليون حتى قبل أن يعمدوا ، نذكر منهم على سبيل المثال أولئك الشبان الإنجليز الوسيمى الطلعة الذين قابلهم مرة فى ساحة « الفورم forum » البابا جريجورى الأكبر حين كان لايزال قساً عادياً، فوصفهم بأنهم ملائكة لا إنجليز Angeli non Angli وقد اشتهرت هذه العبارة لما جاء فيها من لعب بالألفاظ حيث تشبه كلمة ملائكة Angeli كلمة إنجليز Angli .

وطوال القرون المظلمة من العصور الوسطى السحيقة لم يتوقف قط سيل الرحالة الأتقياء إلى إيطاليا فكانوا يتدفقون بعضهم وراء بعض كأسراب النمل مشياً على الأقدام أوعلى ظهور الخيل أو البغال على طول الطرق المتداعية التى شقت فى عصر الإمبراطورية الرومانية، والتى لاتزال تعرف حتى اليوم بأسمائها الرومانية القديمة: أوريليا – كاسيا – فلامينيا، حقاً كانت كل الطرق فى ذلك الوقت تؤدى إلى روما. وكان يحج إلى هذه المدينة المقدسة الملوك والأشراف والعامة ورجال الدين من أساقفة ورهبان وقديسين ، وكذا المتشردون والمغامرون واللصوص، والفرسان والتجار والعلماء ، كان كل هؤلاء ينشدون ، قبل أن يدركهم الموت ، أن يروا مقر الكنيسة العالمية وأن يباركهم البابا ولى المسيح فى الأرض. ولم تكن اللغة حينئذ عائقاً حيث كان المسيحيون جميعاً يتكلمون اللاتينية ، فتزاحموا فى خشوع فى الكاتدرائيات الشهيرة وأضرحة القديسين أصحاب المعجزات، وحضروا الحفلات البابوية، واستمعوا إلى الوعاظ ذوى الشهرة العالمية ، وتضرعوا للصور المبجلة والآثار المقدسة ، ولم



ميدان سان ماركو — فينتسيا

يهتموا إذ ذاك بذكرى العصور القديمة، فلم يعن أحد منهم بأن يحدق النظر فى الأطلال الرهيبة الباقية فى روما من عصر الإمبراطورية الرومانية ، والواقع أن أتقاهم ارتعدوا منها خوفاً ، اعتقاداً منهم أنها رجس من عمل الشيطان أو الأرواح الخبيثة؛ ألم تكن آلهة الوثنيين مجرد أشباح للشياطين !

وطوال أواخر العصور الوسطى زحف على إيطاليا أباطرة ألمان وقادة عسكريون على رأس جيوشهم المدرعة بالحديد ، لقد جاءوا للصلاة عرضاً فحسب ، ذلك أنهم أرادوا قبل كل شيء أن يبهروا البابوات والإيطاليين بقوتهم وأن ينهبوا دول المدن (city-states) الإيطالية الثائرة ويدمروها تدميراً تامًّا ، وأن يكافئوا الجبليين Ghibellines (حزب الإمبراطور) أصدقاءهم وحلفاءهم المخلصين ،وأن يسحقوا الويلف Guelphs (حزب البابا) أعداءهم. أجل كان فى مقدورهم أن يتوجهوا بالسهولة نفسها إلى صقع آخر، فمثلا كان فى استطاعتهم إذا شاءوا أن يجدوا علة لمناوشة سلطان تركيا أو أدواق موسكو العظام ، أو أن يطاردوا الفرسان التيوتون إلى بحر البلطيق ، أو أن يقتفوا أثر الإسكندر الأكبر فى طريقه إلى الهند فيغيروا كل تاريخ أوربا ووجه العالم بأسره — ولكنهم فضلوا فى معظم الأحيان الارتحال نحو الجنوب وكأن هناك مغناطيساً يجذبهم إليه — صاعدين جبال الألب المكسوة بالثلج وهابطين إلى شبه الجزيرة الصخرية الضيقة ، وسط شعب غادر لم يفهمهم ولم يحبهم، وحيث فرص السلب والنهب ضئيلة فى أحسن الأحوال ؛ نقول فضلوا الارتحال إلى الجنوب لأن اسم روما وكل ما أثاره ، ولا يزال يثيره من صور وذكريات فتنهم وبلغ من أمر افتتانهم هذا أن سموا أنفسهم أباطرة رومان ، لا أباطرة ألمان ، وأطلقوا على إمبراطورهم لقب قيصر ؛ وشعروا أنهم لا يستطيعون أن يحكموا حكماً شرعيًّا إلا إذا توجهم البابا نفسه — كما توج شارلمان من قبل — فى كنيسة القديس بطرس، وباسم إمبراطورية غدت شبحاً وزالت من الوجود منذ قرون مضت .

وافتتن الأباطرة أيضاً بأشياء أخرى، قلما وعوها ونادراً ما ذكروها ، فبوصفهم شماليين خلصاً فتنتهم ونفرتهم كل الأمور التى قدر لها أن تفتن عدداً وفيراً من الشماليين فى القرون التالية ، أجل أحبوا الجو المعتدل ، ولكنهم خشوه ، كما أحبوا وخشوا فى الوقت نفسه حياة الإيطاليين اللطيفة ، والمتع الميسرة والسلوك الذى يتبدل وفق الظروف ، والتفكير المعقد ، والنبيذ والنساء والمناظر الطبيعية الرائعة والشعور بالانغمار فى التاريخ وما يضفيه من عظمة ، وهزهم إحساس من الإحساسات السارة التى تهيئها إيطاليا دائماً للزائرين من الشمال ، نعنى بذلك الإحساس بأنهم أرقى أخلاقاً من المواطنين أهالى البلاد . ونقل الأباطرة إلى وطنهم أنواع التذكارات كافة ، التى برع الإيطاليون المحتقرون فى صنعها، وقد فعل ذلك جميع الغزاة على مر القرون ، فسرق نابوليون تماثيل الخيل البرونزية من كنيسة سان مارك ، فى مدينة البندقية ، وكان البنادقة أنفسهم قد أخذوها من قبل من القسطنطينية، وكدس هتلر وجيرنج قطارات السكة الحديد بأفضل روائع الفن التى استطاعا الاهتداء إليها .

كذلك اجتاز الصليبيون إيطاليا فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة باعتبارها أقصر الطرق ، وفى طريق عودتهم قضى ريتشارد قلب الأسد شتاء قاسياً فى مسينا Messina ومزق جاى دى منتفورت Guy de Montfort الشاب هنرى أمير كورنوال إرباً إرباً حين اعتصم فى محراب كاتدرائية مدينة فيتربو Viterbo وبعد الحروب الصليبية أقبل على إيطاليا التجار لشراء السلع التى كانت تصل من الشرق من توابل وأحجار كريمة وحرير وجياد عربية ، كما جاء إليها آخرون فى عصر النهضة ليتعلموا أحدث فنون المصارف والتجارة ووسائل استثمار المال وطرق إمساك الدفاتر وتبادل السلع والذهب والمضاربة عليها ، كما وفد إليها

الشاعر تشوسر Chaucer مرتين، فى مهمة رسمية، بوصفه ممثلا لمليكه — وربما توغل فيها حتى مدينة بادوا بدافع من نفسه؛ كى يقابل الشاعر بترارك Petrarch وحضر إليها أيضاً أساقفة للتشاور مع البابا، وفقهاء الدين ومشرعون وعلماء للدراسة، مع مشاهير أساتذة جامعة بولونيا Bologna، ومدربو الجياد لإتقان فن ترويضها، وتدفق الفرسان Knights على الجنوب بحثاً وراء المغامرات، ولعل ألمع هؤلاء جميعاً هو سيرجون هوكوود Sir John Hawkwood النموذج الأصلى المبكر لنوع آخر من المغترب الشمالى الذى نجح فى إيطاليا على طول القرون ولا يزال ناجحاً — أعنى بذلك المهنى أو رجل الأعمال الذى يكون ثروة؛ لأن الإيطاليين اعتبروه أكثر غباء وأشد أمانة من منافسيه المحليين أبناء وطنهم .

وصل سيرجون هوكوود إلى إيطاليا فى سنة ١٣٦٠، وكان صلح بريتانى Bretigny قد أوقف حرب المائة عام، التى شنها ملك إنجلترا على الفرنسيين، فوجد سيرجون نفسه عاطلاً بلا عمل، حيث كان قد اشترك فى معركة كريسى Crécy وحظى بعطف الأمير الأسود Black Prince، ونعم بترف المعيشة فى القصور الفخمة التى صودرت بكل من فيها وما فيها من خدم وحشم ومطابخ ومخازن وخمور، وعرف حب السيدات الأوربيات الجميلات المثقفات . ومن ثم كره سيرجون — — شأنه شأن سادة الحرب المؤقتين — أن يعود لارتداء ملابسه المدنية، وأنف فكرة العودة إلى موطنه فى إسكس، وإلى حرفته السابقة دابغاً للجلود، فعبر جبال الألب فوق ممر مونت سنى Mont Cenis، على رأس زمرة من الخيالة أطلقوا على أنفسهم اسم « الجماعة البيضاء » The White Company، سرعان ما تخاطفهم الأمراء المحليون ليتولوا القتال فى مناوشاتهم، ومن هذه البداية البسيطة راحوا يقاتلون فى صفوف من هم أكبر ثروة وأعظم سلطاناً، واشتهر قائدهم سيرجون هوكوود باسم جوفنى

أكوتو Giovanni Acuto ، وليس هذا الاسم بأى حال بسبب حدة ذهنه حيث إن كلمة Acuto الإيطالية معناها حادّ ، ولكن لأنها أقرب ما يستطيعه الإيطاليون نطق لقبه « هوكوود » .

وكان سير جون طويل القامة متورد الوجه أزرق العينين ، متئد الحركة ، قليل الكلام ، شجاعاً ، عرف عنه أنه كان رجلا حصيفاً لا يبالغ فى أجره، ويبذل قصارى جهده لكسب أية معركة يخوضها دون أن يفقد عدداً وفيراً من جنده بلاضرورة ، ولكنه كان لا يترك فرصة للفتك بأعدائه ، وكان مخلصاً لرؤسائه لم يخن أحداً منهم قط ، ويعتبر واحداً من القادة المرتزقة Condottieri القلائل الذين كان يعتمد عليهم ويعرفون بأمانتهم فى عصره . واعترافاً بفضله أنعم عليه البابا بلقب Signore di Bagnacavallo وهو لقب مناسب لفارس إنجليزى (يقصد المؤلف أنه يشبه لقب Knight Commander of the Bath فى إنجلترا) ، وتوج سير جون حياته بتقلده منصب القائد العام الدائم لجيش جمهورية فلورنسه ، وهو منصب رفيع طالما رنت إليه الأبصار .

وقد آلت إلينا أوصاف دقيقة لبعض المعارك التى خاضها تثبت أنها كانت عمليات عسكرية أحسن تخطيطها ونفذت بمهارة وإتقان ، وأن جنوده الإنجليز قد أخلصوا فى خدمته ، وأبلوا فى القتال بلاء فاق بلاء خصومهم ، وذلك أيضاً لأنهم حاربوا بروح فتية ، حريصة على كسب النصر ، الأمر الذى كان يعتبر وقتئذ نادراً محفوفاً بالمخاطر . وهكذا كان أفراد « الجماعة البيضاء » أول من رأتهم إيطاليا من جند حسن تدريبهم ، ووحدت أسلحتهم ، وأحكم ضبطهم ، وربطهم ، وتميزوا بحسن هندامهم . وقد وصف كاتب الحوليات فيليبو فيلاّنى Philippo Villani إعجاب أهل عصره بأفراد هذه الجماعة فقال :

« لقد كانوا جميعاً شباناً يافعين ، ومن ثم كانوا متحمسين مندفعين تواقين إلى

القتال لا يبالون بسلامتهم ، وكانوا فى صفوفهم سريعى الحركة مطيعين لرؤسائهم؛ أما فى ميدان القتال فقد كانوا يتفرقون هنا وهناك فى غير نظام وغير حيطة بسبب نشاطهم المفرط وجرأتهم الفذة ... وكان يخدم كلاً منهم غلام أو اثنان ، وكان لبعضهم أكثر من ذلك ، فإذا خلعوا أسلحتهم قام الفتيان بتنظيفها وتلميعها حتى إذا انطلقوا بعد ذلك إلى المعركة بدت أسلحتهم وكأنها مرايا، ولذلك كانت أشد رهبة . . وكانوا يتجهون نحو العدو مترابطين متضامنين فى خطى بطيئة ، وقد نكسوا رماحهم وراحوا يطلقون صيحة مخيفة. وكان من العسير إحداث ثغرة فى صفوفهم»؛ وختم فيلانى وصفه فى حزن وأسى قائلا : « ومهما يكن من شىء فإن فوزهم يعود إلى جبن شعبنا أكثر منه إلى بسالتهم » .

وأشار ماكيافلى Machiavelli إلى أن الفلورنسيين وثقوا من سيرجون ولم يخشوا أن يستعبدهم كما استعبد كثير من القادة المرتزقة مدناً حرة أخرى ؛ ذلك لأنهم لم يعتقدوا أن هذا الإنجليزى كان على قدر كاف من الدهاء يمكنه من ذلك. على أن سيرجون خسر فى نهاية الأمر ، حيث كان قد تعاقد مع جمهورية فلورنسة على أن يقيم له بعد وفاته تمثالا فى كاتدرائيتها يمثله ممتطياً جواداً ؛ فلما مات سنة ١٣٩٤ تمخض هذا المشروع الباهظ النفقات عن مجرد لوحة رخيصة من الجص رسمت فى بقعة عالية فوق باب الكاتدرائية ، وكانت رديئة الصنع ، الأمر الذى اضطر الفنان باولوا أوتشلّو Paolo Uccello إلى أن يعيد رسمها بعد ذلك بسنوات .

* * *

وكان السفر إلى إيطاليا فى الأزمنة القديمة محفوفاً بالأخطار لمن يحاول القيام بالرحلة بمفرده ؛ فلقى كثيرون حتفهم ، ودفنوا فى أماكن مجهولة على جانب الطريق . على أن موت المرء فى طريقه إلى الحج إلى روما كان فى نظر الكنيسة

جديراً بالثواب ، كما أنه — بشكل ما — تخفيف من قصاص طويل فى المطهر Purgatory والواقع أن الأخطار الرهيبة بدأت على جبال الألب حيث كثيراً ما كانت تختفى معالم الطرق تحت عواصف الثلج الفجائية أو الكتل الجليدية المنهارة. وفى هذه الظروف كان المرشدون أنفسهم يضلون طريقهم ، ومنهم من كانوا أوغاداً لا يعتمد عليهم ولا يؤمن جانبهم ، وطالما سلبوا زبائنهم وقتلوهم . وكانت جثث الموتى تبرز دائماً فى فصل الربيع فور ذوبان الثلج . وكانت الكتل الجليدية الخطر الجسيم الثانى الذى هدد المسافرين كما أشرنا . ومن ثم قامت الطوائف الدينية المختلفة أنزالاً على طول الممرات الرئيسية على جبال الألب ، ليتسنى لها العثور على الضحايا التى دفنتها تلك الكتل ، واحتفظ الرهبان فى هذه الأنزال بكميات وفيرة من أخشاب الوقود والطعام والأسرة الجيدة والبطاطين الوثيرة ، والبراندى ؛ وكذا بكلاب قوية يمكنها أن تكتشف بالشم جسماً حياً وهو على بعد عدة أقدام تحت الثلج. وكانت الكتل الجليدية المتساقطة جزءاً من الإحساسات الضرورية للرحلة إلى قبيل حفر أنفاق الخطوط الحديدية عبر جبال الألب ، فكان الرحالة الإنجليز المشهورون بحبهم للرياضة يقفون فى أماكن ملائمة ويطلقون الرصاص من مسدساتهم ليحركوا الهواء الساكن ويجعلوا الثلج يتساقط من القمم العالية ، وكان عبور جبال الألب دون رؤية كتل جليدية منهارة رحلة لا طعم لها خالية من المتعة شأنها شأن عبور البحر دون رؤية حوت أو مواجهة عاصفة . وحدث فى بعض الأحيان أن لقى رحالة جسر حتفهم ودفنوا أحياء هم ورفقاؤهم ومتاعهم نتيجة تجاربهم العلمية الناجحة .

كذلك ترقب اللصوص جماعات المسافرين على طول الطرق فى السهول . فمن نجوا من الوقوع فى كمائن هؤلاء اللصوص ، أو من السلب أو القتل ،

لقوا حتفهم وهم في مضاجعهم على يد أصحاب الخانات التى نزلوا بها ؛ ومن ثم كان من سداد الرأى أن يتظاهر المسافر بالفقر ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى لا يثير جشع مختلف الناس بما فيهم رفاقه فى الرحلة . ولجأ المسافرون إلى استخدام كل أنواع الحيل ؛ ويذكر لنا واحدة منها فسباسيانو دابستتشى Vespasiano da Bisticci فيقول : « كان وليم جراى (أصبح فيما بعد أسقف مدينة إيلى Ely فى إنجلترا) طالباً فى مدينة كولون . . . فلما حل وقت رحيله إلى إيطاليا كان من الضرورى أن يرتب سفره فى حذر تام حيث عرف عنه أنه رجل ثرى يمكنه أن يدفع فدية ثمينة . وفضلا عن ذلك كان كثيرون فى كولون Cologne يترقبون رحيله ويرسمون الخطط لمهاجمته فى الطريق. وكان الطريق أيضاً يعج بالنبلاء الصغار ، وكان السفر خطراً ، فقرر وليم بناء على التقارير التى تلقاها أن يضع خطة تكفل سلامة رحلته . ورأى أن خير ما يفعله هو أن يتمارض ويدعو الطبيب لزيارته يومياً ثم يتسلل هو ورفيق له متنكرين فى ثياب حجاج إيرلنديين ، على أن يستمر الطبيب فى التردد على شقته بانتظام مدة سبعة أو ثمانية أيام بعد رحيله » .

ثم كانت هناك حروب محلية ينبغى تجنبها ، فحاول المسافرون دائماً جمع البيانات عن الحروب الدائرة فى الطريق الذى سيسلكون ، وعن طرفى النزاع فيها ، وكانت هذه عملية تتطلب مهارة وحذراً ، فقلما تيسر الحصول على الأنباء ، وما أتيح منها لم يكن موثوقاً به تماماً . الحق أن المنازعات السياسية الإيطالية كانت دائماً — ولا تزال حتى اليوم — لغزاً محيراً للأجانب ، فنشبت الحروب فجأة على نحو غير متوقع ، وتغيرت الجبهات بدون إنذار ، وغدا الحلفاء أعداء بين عشية وضحاها ، والعكس بالعكس ، وكثيراً ما وجد المسافرون أنفسهم فجأة وسط

معركة، ثم اختفوا فيها دون أن يتركوا أثراً — موتى بين الموتى —وكثيراً ما التقى مسافرون آخرون بجيش منتصر جذل بفوزه ، وجنده سكارى بما نهبوه من خمر ، أو بجيش منهزم يندب خسائره ، وجنده ثملون كذلك بما سلبوه من أنبذة ؛ وكان كلاهما خطراً هدد سلامة المسافرين على حد سواء . أما المسافرون المحظوظون أو العنيدون أولئك الذين لم يموتوا أو يختفوا فى الطريق، فقد لقوا حتفهم أحياناً وهم مستريحون آمنون يتمتعون بمناظر مدينة من المدن الإيطالية وما فيها من لذات ؛ وهكذا قتل كثيرون منهم على مر القرون على يد أوغاد سفاحين ، أو فى مبارزات مع سادة تشاجروا معهم فى أحد الخانات ، أو ماتوا بمرض غير معروف ، وفى أحسن الأحوال كان المسافرون يودعون السجن بحجة أنه لم يعد لديهم ما يمكنهم من العيش بعد أن سلبت أموالهم .

كذلك كثيراً ما كانت الرحلة إلى إيطاليا عن طريق البحر أشد خطراً منها عن طريق البر ؛ فمن حين إلى حين تحطمت السفن ، وغرقت بفعل العواصف ، أو ثار ملاحوها لينهبوا ما تحمله من سلع ويسلبوا ركابها . وحدث مراراً أن أغار عليها القراصنة وأسروا جميع من عليها ، الأمر الذى يتعذر معه أن نتبين كم من المسيحيين الصالحين الذين كانوا فى طريقهم إلى روما فرض عليهم أن يقضوا بقية حياتهم مجدفين فى السفن الشراعية التركية ، أو أرقاء مغمورين فى شمال إفريقية والمشرق ، ولم تعرف أسرهم قط أكانوا وقتئذ أحياء ، فراحوا يصلون على أرواحهم ولكن استطاع عدد قليل منهم بين الحين والحين إخطار أهلهم بوجودهم على قيد الحياة ، وطالبوهم بدفع فدية عنهم لإنقاذهم ؛ وقد حدث أحياناً أن أطلق سراح بعضهم وعادوا إلى أهلهم شيوخاً منهوكى القوى، تعزف عنهم زوجاتهم اللائى نسينهم ووجدن عنهم بديلا. ودام خطر القرصنة فترة طويلة امتدت إلى القرن التاسع

عشر ، فني سنة ١٨٠٥ أبحرت سفينة من ميناء جنوة قاصدة صقلية ، وكان من بين ركابها الكاتب الأمريكى واشنجتن إيرفتج W. Irving ، وبينما هى فى عرض البحر استولت عليها سفينة للقراصنة حيث صعد إلى سطحها ملاحون أشرار ، ومعهم سيوف قصيرة مقوسة علاها الصدأ ومسدسات وخناجر صغيرة. وكان من الطبيعى بعد هذا الحادث أن تصور الكاتب الأمريكى عندما وطئت قدمه أرض إيطاليا، أن عصابات اللصوص موجودة فى كل مكان. وقد أطلق القراصنة سراح الرحالة الشاب حين اطلعوا على ما معه من رسائل توصية موجهة إلى شخصيات كبيرة، ولم يكن القراصنة متحذلقين يبهرهم بسهولة ذوو الحيثية والأسماء اللامعة ، ولكنهم كانوا يخشون بحق انتقام المتصلين بذوى النفوذ أكثر مما كانوا يخافون انتقام الفقراء المجهولين .

وجدير بالذكر أن الرحالة الذين خلت رحلتهم من الأحداث قد أزعجتهم متاعب أخرى ، فقد كانت الأسرّة نادرة فى إيطاليا شأنها فى سائر بلاد أوربا وقتئذ، وكانت فى كثير من الأحيان نتنة ملأى بالحشرات ، كما كانت ملاءات الأسرة والبطاطين قذرة بما تجمع عليها من عرق وأوساخ جميع أولئك الذين ناموا فيها أشهراً وسنوات دون تنظيفها وتبديلها . وكان النزلاء من كلا الجنسين ومن جميع الأعمار ومختلف مستويات النظافة يضطرون عادة إلى الاشتراك معاً فى شغل الأسرة القليلة المتاحة ، كذلك لم تكن هناك ألواح زجاجية بالنوافذ حتى أواخر القرن السابع عشر (كرر مونتين Montaigne فى مذكراته الشكوى من تيارات الهواء فى غرفته لأن النوافذ الخشبية لم تكن كافية لدرء هذه التيارات) ، وفضلا عن ذلك كله كان الطعام رديئاً أثار فى كثير من الأحوال الشعور بالرغبة فى القىء . وظل الحال على هذا المنوال إلى وقت حديث نسبياً ، ففى أواخر القرن الثامن عشر شكا سمولت Smollet من أن الخانات كفيلة بأن تقلب معدة سائق البغال .. فالطعام يطهى على

نحو يشمئز منه رجل الهوتنتوت » .

ولم تكن هناك بعد وسيلة لتدفئة البيوت فى الشتاء فيما عدا موقد متنقل . و يتضح من دليل جنوب إيطاليا الذى أصدره مرى Murray (طبعة ١٨٥٨) أنه لم يطرأ على الخانات الصغيرة القائمة فى الأقاليم تحسن يذكر عما كانت عليه فى العصور الوسطى فيقول : « إن الخانات فى المناطق النائية رديئة خالية من وسائل الراحة كما كان حالها فى عصر مونتين ، وذلك فيما عدا النوافذ الخشبية التى استبدل بها فى الأغلب نوافذ زجاجية . ثم إن المسافر الذى يستطيع أن يعد لنفسه صحناً من عجة البيض ، وفى وسعه أن يعلم ربة الخان كيف تطهو صحناً من لحم الخنزير والبيض ، قد يجد هذه السلع فى القرى الجبلية ، بل قد يندر هنا أيضاً اللبن والزبد . وبعبارة أخرى كان فن الطهى المحلى منفراً ممجوجاً ، وإلا لما فضلت عليه إرشادات الرحالة الإنجليز الذين ليس لهم دراية به .

كذلك كان استئجار جواد أو عربة أو خادم أو مرشد أو غرفة عملاً شاقاً عسيراً دائماً ، ومحفوظاً بالأخطار أحياناً ؛ وظل الحال كذلك إلى عهد قريب ، فإن دليل مرى (طبعة ١٨٥٨) استمر ينصح الرحالة الإنجليز «بأن يساوموا أصحاب الخانات فور وصولهم إليها كما كان يفعل — على سبيل الحذر — سائر الأجانب الذين كانوا يدفعون ثلث ما يدفعه الرحالة الإنجليز ، وفضلا عن ذلك يوفرون على أنفسهم المنغصات والتأخيرات الناشئة عن الخلاف على قوائم الحساب » .

وهناك دليل آخر للرحالة الشماليين صدر أيضاً فى القرن التاسع عشر وحوى تحذيراً جاء فيه : « عليك كلما أردت أن تستأجر مكاناً فى مركبة أن تشترط دائماً بأن يحجز لك مقعد أمامى ، وعليك مهما كلفك الأمر أن تجعل هذا الاتفاق مكتوباً ، وأن يشهد عليه موثق حيث كان الالتجاء إلى رجل الشرطة المحلى ، سواء

فى الماضى أو فى الأزمنة الأحدث عهداً ، عملية محفوفة بالمخاطر ، فكثيراً ما فضّل الشرطى أن ينحاز إلى زميله المواطن المخادع الذى قدر له أن يشاطره حياته ، على مساعدة السائح الأجنبى البرىء الذى لن يراه مرة أخرى .

ومع ذلك لم ينقطع سيل السائحين قط عن إيطاليا ، فعلى الرغم مما اكتنف زيارتها من عوائق ومنغصات وحوادث مؤسفة ، ونوافذ تتسرب منها تيارات الهواء ، وغرف باردة وطرق غير معبدة وأسرّة قذرة ملأى بالحشرات وطعام فاسد ولصوص وقطاع طرق وقتلة ، وأعاصير مدمرة وكتل جليدية منهارة ، وقراصنة وأمراض غير معروفة ، على الرغم من كل ذلك فالثابت أن من زاروا إيطاليا خلال القرون الوسطى يزيدون على أولئك الذين قصدوا أى بلد آخر ؛ وكان الدين دون شك أقوى عامل حفزهم إلى المجىء إليها ، فوفد الحجاج إلى روما فى كل الأوقات والفصول ، واحتشدوا بنوع خاص فى المدينة الخالدة فى السنوات المقدسة التى حلت مرة كل خمسين سنة ، وفيها أغدقت الكنيسة بركاتها وتوسعت فى إصدار صكوك الغفران. ويروى أن معدل عدد الحجاج فى روما فى أول سنة مقدسة حين ابتدع هذا النظام سنة ١٣٠٠ ، بلغ مائتى ألف يومياً ، وقدر مؤرخ الحوليات المعاصر ماتيو فيلانى Matteo Villani عدد من مروا ببوابات روما فى السنة المقدسة الثانية ، أى فى سنة ١٣٥٠ ، بمليون ومائتى ألف نسمة ، وهذه كلها أرقام مثيرة وإن كانت غير دقيقة . وربما كان كثير من هؤلاء الحجاج إيطاليين وفدوا إلى المدينة من من الأقاليم القريبة ، ولكن مما لا شك فيه أن عدداً كبيراً منهم جاءوا إليها من جهات نائية ومن خارج إيطاليا .

وأتاحت روما للمؤمن مزايا فريدة ، ومع ذلك لم تكن الرحلة إليها ضرورة ملحة ، فقد كانت هناك سبل أخرى للفوز بالجنة ، سبل أرخص وأسرع وأسلم لغسل

الخطايا واكتساب رضا الرب ورحمته . نعم كان فى وسع المرء أن يسافر إلى حرم مقدس قريب فى أية جهة فى أوربا ، ويصلى للإله نفسه ويحصل على صكوك الغفران نفسها أو ما يقرب منها ثم يعود إلى بلده سالماً آمنا فى أيام معدودات ، أو كان فى مقدوره أن يفعل ما هو أفضل من ذلك بأن يسلك التقى والورع ، ويمارس الفضائل الأساسية ويكتسب القداسة دون أن يغادر قريته . وهكذا فإن الرحلة إلى روما ، إن كانت نافلة لا تقضى بها ضرورة ، لم تكن كذلك شيئاً لا غنى عنه .

والواقع أن التماس الخلاص الأبدى بطل شيئاً فشيئاً عن أن يكون المسوّغ الوحيد للرحلة . ولكن ظلت زيارة أضرحة القديسين والمزارات والتماثيل والصور والأيقونات صاحبة المعجزات ، وحضور الحفلات البابوية والمهرجانات الفذة ، وطلب الغفران عن جسام الخطايا أو التحرر من روابط مقدسة ؛ نقول ظلت هذه الأمور ، وكلها امتيازات لا يمكن الحصول عليها إلا فى روما ، من الأسباب الرئيسية التى دفعت الكثيرين إلى ترك أوطانهم ، ولا تزال كذلك وإن تضاءلت أهميتها البالغة شيئاً فشيئا على مرّ السنين ، فراح الناس يزورون باطراد المبانى المقدسة لا لمجرد ماتوحى به من وقار وتهذيب بل أيضاً لتناسقها الدنيوى الجديد ، ووفرة وكمال زخارفها ، وما تزدان به من قطع فنية . ولقيت صور العذراء Madonna إعجاباً متزايداً لا لصيت قدراتها الخارقة فحسب ، بل أيضاً لبراعة صنعها وشهرة مصوريها ولجمال النماذج الحية المأخوذة عنها .

ولأول مرة فى فترة تعدّ بالقرون أصبح الفن شيئاً يقدّر لذاته ، والواقع أن الفن الدينى لم يكن وقفاً على تمجيد الله وقديسيه فحسب بل كان كذلك تمجيد الرجل والمرأة ، والجمال ، ومتع الحياة الدنيا ، والألوان وأشعة الشمس والعمل الشاق ، فالمصور الإيطالى حين رسم صورة للعذراء أو لأحد آباء الكنيسة بلحيته الكثة ،

رسم فى خلفيتها فى سرور ورضا مصغراً لمدينة أو لريف جميل ، مصغراً بالغ الدقة بحيث لا يمكن تبين كل تفاصيله إلا من مسافة قصيرة جداً ، فترى الأسوار والأبراج والكنائس والحرفيين فى عملهم ، والسفن فى النهر ، والسيدات فى الشرفات والأطفال والكلاب النابحة ، والملابس الزاهية الألوان وهى تجف فى الشمس ، والفلاح والحراث والصياد. وفى شىء من القلق اعتقد كثير من السائحين الإسكندنافيين أنهم اكتشفوا لوناً من عدم القداسة حول الفن والحياة فى إيطاليا ، ولا يزالون يكتشفونه حتى اليوم. وحقيقة الأمر أن إيطاليا كانت تكتسب رويداً رويداً تلك السمعة الوثنية غير الموقرة والمدنسة للمقدسات نوعاً ما ، وهى سمعة قُدّر لها ألا تتخلص منها قط ، ولم تصد عنها سيل الزائرين ، فالواقع أن المغامرة بخسران النفس مع المتعة فى الحياة الدنيا جذبت الناس إلى إيطاليا بقدر ما جذبهم إليها الأمل فى فى الفوز بالخلاص الأبدى .

* * *

وليس مما يثير الدهشة أن زار إيطاليا فى عصر النهضة المتسم بالإلحاد والمروق أناس أكثر ممن جاءوا إليها فى العصور الوسطى المعروفة بالتقوى والتزمت ، فقد أصبحت إيطاليا فى عصر النهضة أغنى أمة فى العالم المسيحى وأعظمها تألقاً وأكثرها ثقافة ، وأشدها ذكاء وأقلها خشوعاً ، حيث غير الإيطاليون صورة الكون ، أو على الأقل فكرة الإنسان عن الكون ومكانه فيه ، و بدءوا ثورة قدر لها أن تغير أوربا خلال القرون التالية . وتضمنت الحركة الإنسانية Humanism أو دراسة منجزات الإنسان التسليم بقدراته الهائلة على الخير والشر وبفضائله ونقائصه ، وبطبيعته المنشطرة بين الحيوانية والملائكية . ففى غضون سنوات قليلة اكتشفت واستخدمت اختراعات وكشوف وأساليب علمية جديدة مذهلة ، وأنتجت النشاطات الجديدة ثروة لا حصر لها تفوق حد التصور ، كما ولدت نشاطات جديدة أخرى أنتجت بدورها مزيداً

من الثروة ، وساعدت الاكتشافات الجغرافية والتجارب العلمية الجريئة والأجهزة التجارية والمصرفية المبتكرة على مضاعفة الموارد المالية المتاحة ، كذلك شجعت الثروة على صقل السلوك والعادات وأعانت المدارس والأكاديميات ، ويسرت الحياة للشعراء والمصورين والنحاتين والعلماء .

ولكن كان هناك أيضاً جانب مثير كئيب ؛ فقد كتب جون أدنجتن سيموندز John Addington Symonds يقول : «توارى تحت سطح ثقافة اجتماعية مشرقة شهوات فظة وأهواء همجية غير مقيدة بتقوى العصور الوسطى وغير ملقنة بالخبرة الحديثة . لقد عرض المجتمع الإيطالى صورة لا نظير لها تقريباً للصقل الأدبى والفنى وآداب البلاط ، صورة تعترضها فظائع الشهوة والخيانة ودس السم والقتل والعنف . . ونظراً لأن الطبقات المتعلمة انغمست فى المعارف الوثنية وحرصت على محاكاة سلوك القدماء وعاداتهم ، واعتادت أن تفكر فى أوفيد Ovid وثيوكريتس Theocritus وتنسجم معهما ، وصيرها الفساد شكاكة فى الطبيعة البشرية ، فقد فقدت سيطرتها على الأخلاق وكادت الأمانة السياسية أن تنعدم فى إيطاليا ، وغدت الفضائل المسيحية موضع سخرية كبار كتاب العصر وقادة الفكر فيه ، وصارت فضائل العصور القديمة موضوعات للبلاغة أكثر منها دوافع مؤثرة للسلوك . الواقع أن سيموندز أدرك المسألة إدراكاً وافياً . وكان سيموندز ثرياً معتل الصحة أمره أطباؤه أن يقضى فترة طويلة فى إيطاليا ، فعكف على دراسة النهضة ، ليكتب مؤلفه الضخم عنها ، وكانت حياته صراعاً بين مبادئ الكنيسة الإنجيلية Anglican «وشهواته الفظة وأهوائه الهمجية » . وقد توفى فى غرفته بأحد فنادق روما حيث كان يعيش وحيداً ، ووورى التراب فى مقابر الإنجليز بها Cimitero Degli Inglesi على مقربة من قبر الشاعر كيتس Keats ، وحضر جنازته عدد قليل من الناس ، من بينهم خادمه السويسرى

الذى شوهد وهو يجهش فى البكاء .

وجدير بالذكر أنه لم يكن من الممكن الشروع فى أى عمل هام فى أى مكان فى أوربا بدون السفر أولا إلى إيطاليا للاطلاع على ما قد فعله الإيطاليون والتعرف على الكشوف والاختراعات التى وصلوا إليها ؛ فجاء إلى إيطاليا فى سيل متصل مصورون ومعماريون ونحاتون وبناة سفن ومشرعون ورياضيون وأهل علم وطلاب ، ووفد إليها الأدباء الإنجليز ليتعلموا كيف ينظمون الشعر بلغتهم ، ويحاكون نماذج الكتابة الجديدة ، وطاف التجار بين أسواق المدن على رأس قوافل من البغال محملة بالسلع والبضائع سارت فى طرق أفضل وأكثر أمناً مما كانت عليه الطرق من قبل ، وسجل الوافدون ملاحظاتهم عن كل ما رأوه من مستحدثات وطرائق جديدة ، من ذلك أنه فى سنة ١٦١١ وصف توماس كوريات Thomas Coryat لمواطنيه الأجلاف أحد الأشياء التى أذهلت الأجانب لفترة تزيد على قرن ، فكتب يقول : « لقد استرعت نظرى عادة لم أشهدها فى أى بلد آخر طيلة أسفارى ، فإن الإيطاليين ومعظم الأجانب المقيمين فى إيطاليا يداومون فى وجباتهم على استعمال شوكات صغيرة حين يقطعون اللحم ... وغالبية هذه الشوكات مصنوعة من الحديد أو الصلب وبعضها من الفضة ، ولكن لا يستعمل هذه إلا السادة الأمجاد . ومنشأ هذه العادة أن الإيطالى لا يحتمل بأى حال من الأحوال لمس طعامه بالأصابع نظراً لأن أصابع كل الناس ليست متماثلة النظافة .

وأصبح القليل من الخانات وقتئذ أحسن حالا مما كانت عليه فى الماضى ، وكان أفضلها ذلك القائم فى مدينة أوربينو Urbino والذى شيده دوقها ، ولعله كان أول فندق مريح فى العصر الحديث ، وصفه فى سنة ١٧٥٨ فرنسى مجهول فقال : « إنه أحسن فنادق إيطاليا وأوسعها ، فيه أربعون حجرة للنوم كلها فى طابق

واحد ، وتفتح جميعها على دهليز طويل ، وبه علاوة على ذلك خمس حجرات أو ست لتناول الطعام ، كلها محلاة بزخارف جميلة ، كأن المبنى كان قصراً لأحد النبلاء ». الحق أنه وفد إلى إيطاليا كل إنسان ذى شأن، واكتظت الجامعات بشبان أجانب انكب بعضهم على الدراسة فى جد وحماس ، وقضى الجميع وقتاً مرحاً ؛ فقد أرسل الأثرياء وذوو النفوذ من أهل الشمال أبناءهم إلى إيطاليا لتعلم اللغة الإيطالية لغة الدبلوماسية ، وحياة البلاط والحب والتآمر ، متبعين فى ذلك الحكمة المأثورة عن الإمبراطور شارل الخامس : « إنى أخاطب الله بالإسبانية والنساء بالإيطالية والرجال بالفرنسية وجوادى بالألمانية » .

لقد كان الشبان يوفدون إلى إيطاليا ليتعلموا قبل كل شيء كيف يصبحون سادة مهذبين كاملين حيث ابتكر إيطاليو ذلك العصر نموذج السيد المهذب gentleman وصيروه كاملا ، ثم اقتبس فى جهات كثيرة . كتب سيموندز يقول : « ليكون المرء سيداً مهذباً » — وكان هو من هذا الطراز — «ينبغى له أن يكون ملماً بأصول المعرفة على الأقل ، مهذباً فى ألفاظه ، قادراً على أن يتراسل أو أن يتحدث بعبارات مختارة متفتح الذهن على جمال الفن مهتماً اهتماماً ذكياً بآثار الماضى وحضارته ، متخذاً مثلا له فى سلوكه عظماء العصر القديم لا قديسى الكنيسة » .

كذلك كان ينتظر من الرجل المهذب أن يكون ماهراً فى الرياضة البدنية خبيراً بالعادات الكريمة التى خلفها نظام الفروسية . وقد بلغ الإيطاليون هذه المرحلة بفضل ما بعث من فكر النهضة الذى أثارته الحركة الإنسانية وصقلته الفنون الجميلة ، وتفتح وازدهر فى ظروف مواتية انتشر فيها الرخاء ، نقول بلغ الإيطاليون هذه المرحلة فى وقت كانت فيه سائر بلاد أوربا فى حالة بربرية نسبياً » .

* * *

ولم يتوقف السائحون عن المجيء إلى إيطاليا حتى بعد أن اكتسح الإصلاح الديني بلاداً كبيرة كثيرة في شمال أوربا ، ووجد هؤلاء أن إيطاليا قد تغيرت مرة أخرى ، في غضون أجيال قليلة حاسمة في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حل الدمار والهزيمة والعار محل المجد والعظمة حيث حاربت الجيوش الأجنبية فوق أرضها ، واحتلت أعظم مدنها ودمرتها ، ومع ذلك استمر الكاثوليك في المجيء إلى إيطاليا يلتمسون في العقيدة القديمة راحة النفس وقوة اليقين ، كما استمر مجيء الكثيرين إليها للدراسة ، ولكن لم يعد معظم الأجانب يتوقعون من زيارتهم لإيطاليا أن يتثقفوا ويتعلموا ويغمروا أنفسهم في ضياء حضارة مشرقة ، وإنما جاءوا إليها لينظروا إلى الأشياء في إيطاليا نظرة لهو وتعال واحتقار وليفغروا أفواههم فزعاً من الهاوية التي تردى فيها البلد الذي اعتبره كثيرون بلد الشيطان ؛ وفي ذلك يقول المؤرخ الإنجليزي هيل J.R. Hale :

« استناداً إلى رأي الجغرافيين عن أثر المناخ في الأخلاق ، فإن الفكرة القائلة بأن شعوب جنوب أوربا اللبيبة الماكرة تبتز أموال شعوب شمال أوربا الغبية البلهاء أصبحت هاجساً كثيباً ، فإن الحكم على أعمال ماكيافلي صدر في عصر توقع أن يجد الدهاء والمكر في أهل الجنوب الحار . وبرغم ما رواه الرحالة عما اتسمت به العادات الإيطالية من اعتدال بوجه عام فقد رسخت الفكرة بأن الإيطاليين لم يحسنوا استغلال الأموال التي تحايلوا في الحصول عليها من أهل الشمال ، بل بددوها على الملابس الغريبة والرذائل الدنيئة . . . وإن السائح الذي أتقن فنون الملبس والانحناءات ربما نقل أيضاً عند عودته إلى وطنه أفانين الإلحاد والبغاء ودس السم وغير ذلك من الرذائل » .

وكتب روجر أسكام Roger Ascham مقالا نشر في لندن سنة ١٥٧٠ بعنوان

« معلم المدرسة » خصصه لتحذير الشبان السذج الأبرياء من مغريات إيطاليا التى يتعذر مقاومتها ، أوضح فيه أنه إذا قصد شاب إنجليزى إيطاليا ، وأهمل أن يصحبه معلم خاص حصيف ، فسوف ينزلق حتماً إلى الكثلكة وحياة الفحش والفجور ، وسوف تغيره ساحرة من نوع الساحرة تشرتشى Circe [1] من إنجليزى ساذج إلى إيطالى قح . كذلك كتب توماس بالمر Thomas Palmer مقالا فى ١٦٠٦ عالج فيه موضوع السياحة الخارجية فقال : « إنه من الأسلم ألا يزور المرء إيطاليا على الإطلاق ، لأن الإيطاليين سوف يلقنون السائح الأمين الوافد إليهم من الشمال فنون الطعن بالخناجر ودس السم والخداع والتآمر والخيانة » ، وفى تمثيليتين للروائى الإنجليزى جون وبستر John Webster ١٥٨٠ — ١٦٢٤ نرى الشخصيات الإيطالية فيهما تدس السم لضحاياها مستخدمة أربع وسائل : أوراق كتاب ، صورة وجه إنسان ، قربوس السرج ، خوذة مدهونة بالزيت . ونلحظ منذ ذلك الوقت أن عدد الإيطاليين الخونة والمحتالين والقوادين والجواسيس والقتلة الوارد ذكرهم فى أدب الشمال غدا فعلاً لا نهاية له . ويبدأ هذا الموكب بالقتلة الكثيرين الوضيعين الماكرين فى تمثيليات المسرح الإليزابيثى ، ويستمر فى القصص القوطية وروايات القرن التاسع عشر التاريخية ، ثم فى كتابات بارون كورفو Baron Corvo الأحدث عهداً والذى اشتهر بخياله المبدع . ويواصل هذا الموكب مسيرته حتى يصل إلى أيامنا هذه حيث نجد فى الروايات البوليسية المعاصرة وأفلام السينما عدداً من قتلة البحر المتوسط وعصابات صقلية .

إلا أن كل هذه التحذيرات المنذرة بالسوء لم تثن عزم كثيرين من الرحالة عن

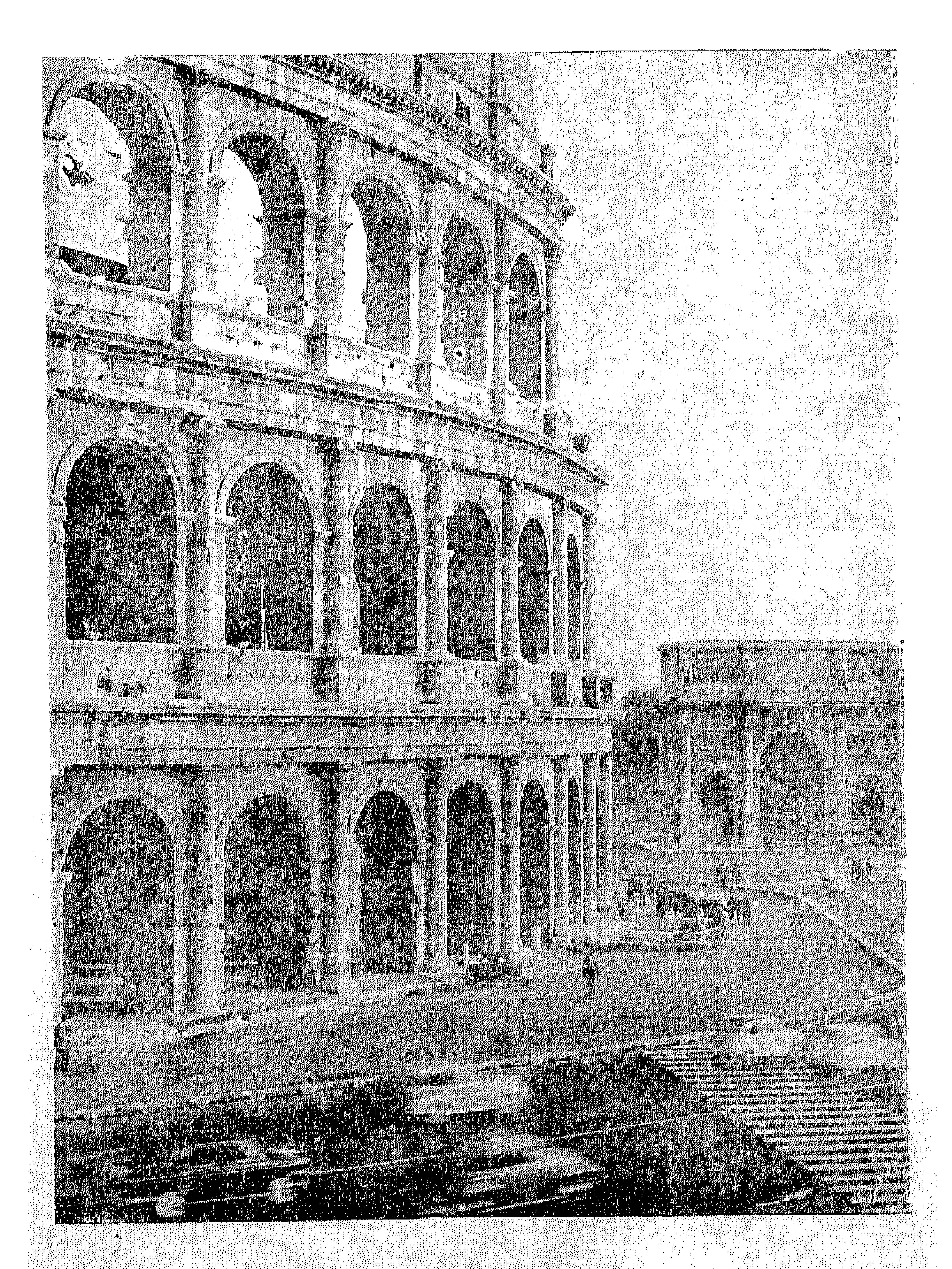
---

(١) تشرتشى ساحرة ورد ذكرها فى أسطورة أوديسس — حولت رفاق أوديسس إلى خنازير عن طريق شراب سحرى .

زيارة إيطاليا . والواقع أنهم ربما أرادوا أن يشهدوا أو أن يجربوا بأنفسهم تلك الحياة الدنسة حتى يدركوا حقيقة بشاعتها ، أو أنهم اعتقدوا أن إيطاليا — حتى فى حالتها المنحلة — ما زالت قادرة على أن تثرى ثقافتهم وتدرب عقولهم . وحاول الشبان كل شىء فى جرأة وشجاعة كى يتبعوا نصيحة ريتشارد لاسل Richard Lassel بأن يتفهموا أهمية تلك الأمة التى مدنت العالم كله وعلمت البشرية معنى الإنسان . أجل كانت إيطاليا بلداً لا سبيل إلى مقاومته ، فإن الشاعر ملتن Milton نفسه أزعجته الشكوك حين راح يفكر فى الأسباب الحقيقية التى دفعته إلى زيارة بلد كان ينبغى على رجل فاضل متدين أن يحرص على تحاشيه وسأل نفسه : «ولماذا إيطاليا بالذات ؟ ترى هل كان الدافع إلى ذلك أننى — مثل ساتورن Saturn — قد أجد فى إقليم لاتيوم Latium ملاذاً أتوارى فيه ؟» . وأجاب ملتن نفسه عن أسئلته فى شىء من التحدى وكأنه خشى ألا يصدق كلامه فقال : « كلا ؛ لقد كان الدافع الذى حفزنى هو أننى عرفت عن ثقة ، وثبت من خبرتى بعد ذلك ، أن إيطاليا بدلا من أن تكون — كما يظن — بؤرة الرذيلة، هى فى حقيقة الأمر موطن الحضارة والمقر الكريم لكل أنواع المعرفة » .

* * *

ولم يشهد القرن الثامن عشر نقصاً فى عدد الرحالة إلا أن مسوغهم للرحلة كان مسوغاً جديداً ، فقد أرادوا أن يهذبوا ويثقفوا أنفسهم ، ورأوا أن زيارة إيطاليا هى السبيل الوحيد لتحقيق ذلك . وساد الاعتقاد وقتئذ أن زيارة طويلة لفينتسيا وفلورنسه وروما ونابولى جزء لا غنى عنه لتربية المرء وتثقيفه ، وأنها التكملة الضرورية لدراساته ، أو قل إنها حقاً رحلة فلسفية Voyage Philosophique . وهكذا بعد إيطاليا المقدسة فى العصور الوسطى ، وإيطاليا الدنسة فى عصر النهضة ، إيطاليا



الكلوسيوم – روما

التفاخر والفساد والخرافة ، كان لدينا إيطاليا المعلمة أو مدرسة العالم التكميلية World's Finishing School . كذلك كانت الرحلة إلى إيطاليا رمزاً لما للمرء من منزلة رفيعة ؛ فعلى سبيل المثال اعتقد الدكتور جونسون Johnson « أن الرجل الذى لم يزر إيطاليا يشعر دائماً بمركب النقص لأنه لم ير ما ينتظر من المرء أن يراه » ورأى الدكتور جونسون كغالبية أهل عصره « أن المرء يكتسب منزلة أدبية رفيعة ومركزاً يبعث على الاحترام والثقة إذا هو ساير الرأى العام فى اتجاهاته ولم يتقيد بما يحبه هو أو ما يميل إليه » .

وربما لم يكن الرجل الذى لزم وطنه أرقى منزلة من المسافر العائد إليه ، بيد أنه كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه فعلا أقل شأناً ، وكذلك كان يعتبره الآخرون ؛ وما كان عليه لكى يتخلص من هذا النقص إلا أن ينقل نفسه وأمتعته أميالا كثيرة ويتبع خط سير مقرر هو تقريباً ذلك الذى سلكه الحجاج إلى روما منذ زمن ممعن فى القدم ، وأن يبعث لأهله رسائل عليها أختام بأسماء البلاد الشهيرة التى يزورها ، وأن يدون فى سجل يومياته تجاربه العجيبة ولقاءاته المثيرة ، وأنباء الكوارث الطبيعية ، وكذا وصف النساء الجميلات اللائى يغازلهن على غرار ما فعله الكاتب بوزول Boswell ، وشعر كثيرون بعد عودتهم إلى وطنهم أنهم بلغوا درجة من السمو بحيث كان من المتعذر فعلا معرفتهم ، حيث سيطرت إيطاليا على أذهانهم ، فحاكوا طرائق الإيطاليين فى الكلام والسلوك ، وحشروا كلمات إيطالية فى أحاديثهم ، وتغنوا بألحان من الأوبرا الإيطالية ، وارتدوا ملابس مزركشة ، وتلهفوا على العودة إلى البلد الوحيد الذى أمكن أن يكونوا سعداء فيه .

وكان على السائح — كى يحصل على أفضل النتائج — أن يتبع النظام الرتيب الذى تشير به الأدلة المطبوعة دون أن يغفل زيارة أى من المعالم الواردة فيها ، وكانت

هذه هى نفسها دائماً دون تغيير . وقد ازدرى القرن الثامن عشر كل نتاج العصور الوسطى وأوائل عصر النهضة ونعته بأنه قبيح تافه ، وأحب عدداً محدوداً فقط مما هو حديث نسبياً من القصور Palazzi وأعاثيل والكنائس واللوحات Paintings واعتبر طراز القرن السادس عشر ممتازاً ، ورأى فى رافاييل Raphael وجويدو رينى Guido Reni أو جويدو الملهم — أعظم المصورين إطلاقاً — وعلاوة على الفن كان على السائح ألا يغفل المناظر الطبيعية الجميلة ، تلك المناظر الإيطالية التى وصفها الشعراء والمصورون : جبال الألب المكسوة بالثلوج ، والبحيرات ، والريف المبتلى بالحمى ، وخليج نابولى . كتب مؤلف إنجليزى عاش فى ذلك العصر يقول فى حماس : « إن إيطاليا هى أكثر بلاد العالم كله زخرفة بالفنون ، وهى من بين كل بلاد العالم أقلها احتياجاً إليها » .

وبعد الفن والطبيعة كان لزاماً على السائح فى القرن الثامن عشر أن يوجه اهتمامه الخالص إلى بقايا المبانى القديمة ، وهى ذات الأطلال التى أغفلها الجميع إلى ما قبل ذلك بسنوات ، فلم يكن من الممكن أن يتعلم الزائر ويرفع من مستواه ويتثقف إلا عن طريق الاتصال المباشر بما بقى من آثار العصر الرومانى القديم والمعالم التاريخية ومسارح الأحداث الكبرى . وكانت بعض هذه الأماكن موضع الشك ، كما كان بعضها دون ريب مجرد شباك لصيد السائحين ، مثال ذلك ما يدعى أطلال فيلا شيشرون Cicero فى بلدة فورميا ، أو قبر فرجيل فى نابولى ، أو مقبرة نيرون Nero فى طريق كاسيا Cassian way على مقربة من روما ، فكل هذه ادعاءات تفتقر إلى ما يثبت صحتها ، وإن نجحت فى التأثير على أولئك الذين ظنوا أنها أصيلة غير زائفة . وما من شك فى أن هناك آثاراً وأماكن كثيرة ذات تاريخ موثوق بصحته ، فكان السائح يقف لمشاهدة المناظر الطبيعية الشهيرة أو شواطئ

بحيرة ترازيمينو Trasimeno أو سهول كاناى Cannae (حيث هزم القرطاجيون الرومان) أو طريق آبيا Appia أو جبل سوراكت Mount Soracte (الذى وصفه هوراس Horace) أو الشاطئ الرملى قرب جاييتا Gaeta (حيث قتل شيشرون بطعنة خنجر) أو كابرى Capri (حيث قضى الإمبراطور تيبيريوس Tiberius سنواته البغيضة الأخيرة) ، نقول : كان السائح يقف لمشاهدة هذه الأماكن ويملؤها بالأشباح التى يثيرها خياله، وهكذا وقف الناس فى صمت حاسرى الرءوس فى الفورم Forum فى البقعة نفسها التى قتل فيها قيصر، أو فى الكلوسيوم Colosseum حيث لقى كثير من المسيحيين حتفهم بين «مخالب الأسود» .

ولعل التركيز على الفن والطبيعة والآثار الرومانية القديمة كان سبباً من أسباب قلة اكتراث الرحالة بسائر جوانب المشهد الإيطالى ، فقد نظر هؤلاء إلى حياة الشعب المعاصر فى شىء من الانعزال المتسم بشرود الذهن ، شأنهم فى ذلك شأن علماء الآثار المصرية القديمة حين يتأملون عادات الفلاحين فى القرى المصرية . ونلمر أن ورد وصف للناس الذين تدثروا بثياب صارخة الألوان واكتظت بهم الشوارع. وحتى هذا الوصف النادر جاء وكأن هؤلاء ليسوا أناساً أحياء فعلا بل مجموعة من دمى خشبية فى مذود مقدس كبير Presepio ، وللكاتب الفرنسى ستاندال ملاحظة لاذعة عن عدم إحساس الزائر الإنجليزى بالإيطاليين المعاصرين ؛ قال ستاندال Stendhal : « يقتصر كثيرون من الإنجليز فى كل مكان يزورونه على قراءة ما خلفه عنه الشعراء اللاتينيون من أوصاف ، ثم يغادرون إيطاليا ساخطين على العادات الإيطالية التى يعرفونها فقط من الاختلاط مع أدنى الطبقات » . وركز معظم الرحالة الإنجليز اهتمامهم على المبانى . نذكر على سبيل المثال أن جراى Gray كتب إلى أمه رسالة من روما وصف فيها هذه المدينة وكأنها مهجورة ، فهو يقول : « أشهد

أن عظمة هذه المدينة فاقت إلى أبعد الحدود كل ما توقعته برغم أنني توقعت الشيء الكثير ، فأنت لا يمكنك السير في شارع من شوارعها دون أن تشهدى قصراً أو كنيسة أو ميداناً أو نافورة من أروع وأفخم ما يتصوره الإنسان » . وكانت استعادة ذكرى التاريخ القديم هي وحدها التي تضفي على المشهد المعاصر لوناً من الطرافة . كتب سائح يقول : « ألق نظرة على تلك البقعة حيث يداعب ذلك الرجل البائس أوتار آلته الموسيقية (الماندولين) ، لعله حدث في هذا المكان نفسه أن قتل أب فاضل ابنته خشية أن يراها ضحية لفسق إمبراطور فاجر » .

والواقع أن الأدلة المطبوعة المتداولة إذ ذاك اشتملت على معلومات قليلة عن إيطاليا المعاصرة ، ولكنها حوت الكثير من المقتطفات المنقولة بنصوصها الأصلية عن المؤلفين اليونان واللاتين ، والمناسبة لكل بقعة تاريخية على حدة . وجاء في هوامش تلك الأدلة ترجمة للمقتبسات اليونانية ، أما المقتطفات اللاتينية فقد وردت دون ترجمة لها . وكأن المفروض أن يقرأ السائحون — بدون معين — خمسين أو ستين بيتاً من الشعر أو مجموعة من النثر القديم . ويلاحظ أن اليوميات التي دونها الرحالة على مختلف جنسياتهم ، والوسائل التي بعثوا بها إلى أوطانهم في شمال أوربا وإنجلترا وروسيا وأمريكا كانت زاخرة بالاقتباسات المسهبة المنقولة من الأدلة ، وبالأفكار الرفيعة التي أوحت بها دائماً مناظر إيطاليا إلى الرحالة الذين استغرقوا في التأمل والتفكير ، وكانت بعض هذه الأفكار أصيلة . الواقع أن الأحجار والأسوار التي كستها أشجار التين البرى ونبات الشمار Fennel حفزت هؤلاء الرحالة إلى التفكير في ضعف الإنسان برغم عظمته ، كما حثت بعضهم إلى منجزات أسمى . قال المؤرخ الإنجليزى جيبون Gibbon : « ففي روما في الخامس عشر من أكتوبر عام ١٧٦٤ ، بينما كنت جالساً أتأمل في أطلال العاصمة على حين كان الرهبان

الحفاة يرتلون صلوات المساء فى معبد جوبتر Jupiter ، نبتت فى ذهنى لأول مرة فكرة الكتابة عن اضمحلال المدينة وسقوطها » . بعبارة أخرى كان الموتى الإيطاليون هم وحدهم الذين اعتبرهم أولئك الرحالة أهلا للاهتمام، وكلما قدم العهد بالميت كان أكثر جدارة بتقديرهم .

ولم تكن إيطاليا القرن الثامن عشر التى تاقت نفوس الأجانب إليها بوصفها بلد اللغات المندثرة ، وبلد الموتى الغابرين ، وبلد الأحجار الصامتة ، تختلف قط عن إيطاليا كما عاشها الإيطاليون أنفسهم. وبطبيعة الحال لم يجد الرحالة مفراً من أن يشهدوا كذلك جانب الحياة الدنسة المستهترة الفاسدة التى سادت كل مكان حولهم ، ولم تزعجهم هذه الحقيقة الواقعة . نعم نفر واشمأز منها قلة ، ولكنها أغرت كثيرين فاستمتعوا بها وقضوا فترة رائعة وإن لم يعترف سوى عدد قليل منهم بأنهم جاءوا أساساً بقصد اللهو والاختلاط بطبقات الشعب الحقيرة . لقد كان طلب العلم والمعرفة هو ضالتهم المنشودة وإن تخلله فى القليل النادر فحسب فترات من اللهو والفجور تعذر اجتنابها . ومن الطريف أن نذكر أن صورة إيطاليا الزائفة هذه، إيطاليا بوصفها « المتحف التربوى The Pedagogic Museum» ربما كانت من عمل رجل واحد أكثر من أى إنسان آخر ، فهو الذى استطاع بوصفه خبيراً موثوقاً به أن يحجب بصر الرحالة عما كان يدور حولهم فعلا ، وأن يركز اهتمامهم ويقصره على الأشياء القيمة التى توحى إليهم بأفكار نبيلة. وطبيعى أن هذا الرجل نفسه كان مولعاً بالآثار القديمة ، وكان بروتستنتى العقيدة ، بيوريتانى المذهب ، ولد فى بروسيا ثم عمل فى روما طول حياته حيث عكف على وضع نظرياته الفكرية وتنظيمها ، ولم يعترف قط حتى فى قرارة نفسه بأنه عاش هناك لأن الحياة كانت أيضاً ساحرة فاتنة ، والأخلاق أكثر انحلالا ،

والنبيذ رخيصاً ، والناس يغضون الطرف عن نقائص العلماء المنعزلين . ومهما يكن من شيء فمن المفيد أن نستعرض حياته لأنه النموذج الأصلي لكثير من المغتربين الذين حذوا حذوه .

يدعى هذا الرجل جان يواكيم فينكلمان Johann Joachim Winckelmann وفد إلى روما شاباً فى سنة ١٧٣٥ ، وتحول إلى الكاثوليكية ، ولقى من كبار رجال الدين الودودين تأييداً وتشجيعاً فى دراساته الفنية وحماسه الدينى ، وسرعان ما رقى إلى مرتبة كاهن Abate وارتدى كأمثاله الكهنة ثوباً كهنوتياً بسيطاً جعله شخصية غير بارزة فى روما . ولكنه لم يكن من الناحية الفنية قساً . وحظى فينكلمان برعاية الكاردينال السندرو ألبانى Alessandro Albani وهو ثرى من أثرياء روما هوى جمع التحف وملأ قصراً من أفخم قصورها بروائع الفن ؛ فقد كان هذا الكاردينال كفيف البصر ، ومن ثم اضطر أن يستعين بهذا الشاب البروسى فى شراء اللوحات التى رغب فى اقتنائها . أما التماثيل فقد كان فى وسعه هو أن يتحسسها . وجدير بالذكر أن قصر ألبانى Villa Albani ما زال محتفظاً حتى اليوم بحاله كما أثثه الكاردينال والكاهن البروسى معاً .

أحس فينكلمان بمقت شديد نحو فجور شعوب الجنوب (يقصد إيطاليا) الذى تفشى فى كل مكان ولوث كل شىء ، وآثر العاطفة العفيفة الفاترة frigid chastity فى التماثيل الرومانية ، والخطوط المنسجمة الفاترة أيضاً ، فى العمارة الكلاسيكية . ويروى عنه أنه لكى يختبر قدراته على مقاومة مغريات الدنيا اعتاد أن يضطجع فى الفراش ساعات طويلة مع السيدة الحسناء مارجريتا جواتزى Margherita Guazzi زوجة صديقه وابن وطنه رافائيل منجز R.Mengs الذى اتخذها أيضاً نموذجاً حياً لرسومه . ودأب الكاهن البروسى والسيدة الحسناء وهما

عاريان فى صيف روما القائظ على أن يتبادلا الأحاديث الرقيقة حول موضوعات ثقافية . ولم تكن هذه التجربة عسيرة صعبة كما تبدو ، وإن كانت جديرة بالتقدير ؛ ذلك أن فينكلمان فضل على جمال أجسام السيدات المليئة بالنتوءات والمفتقرة إلى الانسجام فى كثير من الأحوال ، جمال الفتيان المراهقين الناعم الذى هو أقرب إلى كمال التماثيل اليونانية التى عشقها ، ولم يسبب له تفضيله هذا متاعب فى حياته إلا فيما ندر حيث جرى عادة دون أن يسترعى انتباه أحد ، ومع ذلك فقد حدث مرة أن أثارت صداقته الجنونية مع خصى castrato فاتن هو مغن مشهور ، (سوبرانو) فى الأوبرا ، فضيحة حفزت الفاتيكان — حيث كان فينكلمان أميناً لمكتبته — إلى إعلان سخطه واستهجانه لهذه العلاقة ، كما ساورت الغيرة نفوس حماته ، فاضطر فينكلمان إلى قطع هذه الصلة الوثيقة .

وكان الكاهن البروسى أول من فهم وقاسى ودرس وأحب وصنف عدداً وفيراً من تماثيل العصور اليونانية والرومانية ، أو قل كل ما عثر عليه منها فى إيطاليا، وهى تقريباً كل ما كان موجوداً بها وقتئذ . كذلك كان فينكلمان من أوائل من توغلوا جنوباً فى إيطاليا حتى بلدة بايستوم Paestum لزيارة أطلال المعابد اليونانية المطلة على الشاطئ المهجور وسط الورود البرية وقطعان الجاموس المائى حيث لم يجرؤ إنسان على أن يطرق هذه البقعة بعد الغروب خشية أن تصيبه حمى المستنقعات .

وكان فينكلمان زائراً مستديماً لمدينة بومبى Pompeii التى كانت قد اكتشفت قبل ذلك بسنوات قليلة ، وكانت آثارها لا تزال مطمورة تحت الخرائب والرماد ، كما تردد أيضاً على بلدة هيركيولانيوم Herculaneum التى كانت وقتئذ مدينة مظلمة تحت سطح الأرض ، لا يمكن الوصول إليها إلا عبر أنفاق محفورة أسفل

بيوت بورتتشى Portici ولا يمكن مشاهدة آثارها إلا على ضوء المشاعل .

وفى نهاية الأمر بلور فينكلمان نظرياته فى الجمال وفى الفن فى مؤلفه : Geschichte der Kunst des Altertums الذى سجل رفضاً ثورياً على أساليب التفكير السابقة ، وكان مولد فرع جديد من المعرفة أعنى «تاريخ الفن». والواقع أنه إما أن يكون حماس فينكلمان وانكبابه على الدراسة قد غيرا ذوق معاصريه بطريقة غامضة ، وإما أن تكون العناية الإلهية قد جاءت به إلى هذه الأرض باختياراته المفضلة الفريدة وآرائه الجديدة الفذة فى الوقت المناسب . والواقع أنه ابتكر الطراز الكلاسيكى الجديد Neo-Classic ، فقد بلغ النحاتون اليونان — طبقاً لرأيه — الكمال المطلق الذى يتعذر على الإنسان أن يتجاوزه ، ذلك لأنهم راقبوا ونسخوا أشكالا إنسانية أضفوا عليها سمات مثالية فى أحسن صورها ، فعل ذلك براكسيتلس Praxiteles بقياس محظياته الفاتنات العديدات ، كما فعله أيضاً فيدياس Pheidias عن طريق تردده يومياً على ساحة الألعاب (الجمنازيوم) حيث تأمل الرياضيين العرايا فى أثناء ألعابهم. أما فى فن التصوير فمن الغريب أن الكاهن البروسى — شأنه شأن معظم المعاصرين — اعتقد أن رافاييل Raphael هو الوحيد الذى اقترب من كمال النحاتين اليونان ، وأنه من بين المصورين اللاحقين كافة لا يمكن أن يقارن بهذا الأستاذ الإيطالى سوى فنان ألمانى واحد هو صديقه منجز (الحق أن منجز لم يكن بطبيعة الحال ممتازاً ، بل كان مجرد فنان انتقائى مجتهد مدقق ، مزج — على حد ما ذكره هو نفسه — «بين تعبير رافاييل ، ولون تتيان وانسجام الضوء والظل الذى تميز به كوريجو» Correggio . وقد شبهه فينكلمان بالنحلة التى انتقت مختلف الرحيق من مختلف الأزهار ، ثم صنعت مشهدها أكثر حلاوة) .

كان الكمال فى نظر الكاهن البروسى شكلا جليلا منسجماً يجرى فى تناسقه على قاعدة تكاد تكون غير معروفة ، ولا تشوهه سمات فردية ، فهو فاتر مجرد من العواطف ، ولا يكشف عن خصائص جنسية بارزة . أما أن البشر فى شوارع روما كانوا فى كثير من الأحوال أجمل من النماذج اليونانية الفاترة أو من الصور المضجرة التى رسمها رافاييل للعذراء ، فهذه حقيقة لم تزعج فينكلمان الذى اعتقد أن جمال الأحياء إنما هو جمال سطحى فحسب ، فقد كان هؤلاء فى رأيه جملاء على نحو خاطئ عديم المعنى ، وبالتالى فهم ليسوا جملاء وإنما هو مستساغون لطاف ظراف فحسب . الحق أنه لا يمكن لأحد أن يتكهن بالمدى الذى كانت تبلغه ثورة فينكلمان من أجل القواعد اليونانية فى الفن والحب فيما لو قدر له أن يعيش مدة أطول ، ولكنه لقى حتفه فى سن مبكرة نسبياً — فى الحادية والخمسين من عمره — وذلك فى فندق حقير فى تريستا وكان فى طريق عودته من فينا حيث حظى باستقبال رائع من الإمبراطورة ماريا تريزا ومن صديقه وحاميه الأمير كونتز Kaunitz مستشار الإمبراطورية . راح فينكلمان ضحية أهوائه ، قتله شاب فى الثامنة عشرة كان يعمل فى حجرة غسل الصحون بالفندق ، وكان فينكلمان قد دعاه إلى حجرته ليطلعه على بعض الميداليات القديمة ذات التصميم النادر ، وقد قبض على هذا الشاب فيما بعد وهو يتجول فى الريف ، وعثر فى جيوبه على تلك الميداليات فحوكم وأعدم .

إن ما فعله فينكلمان فى مجال الفن المتطور ، فعله على الأرجح فى مجال الأدب رجل آخر من أصدقاء فينكلمان ومنجز — ذلك هو جان وولفجانج جيته Goethe . أولع هذا الشاعر طيلة حياته بالفتيات الجميلات ، ومما يروى عنه أنه — وهو فى الثالثة والسبعين من عمره — قال للمستشار موللر Müller شاكياً : « إننى متوعك

المزاج ، ولعل سر ذلك أنني اليوم لا أحب أحداً ولا يحبني أحد » . والواقع أنه لما زار إيطاليا فى مرحلة شبابه لم يترك فتاة دون أن يغازلها . جاء جيته إلى روما سنة ١٧٨٦ ، وكان إذ ذاك فى السابعة والثلاثين من عمره ، واتخذ مؤلفات فينكلمان مرشداً له ، واعتمد عليها فى مشاهدة معالم روما الكلاسيكية ، فعلمته أن يتغاضى عن كل المبانى الباروك والمعاصرة ، وزودته بصور أهم التماثيل سواء كانت فى مقتنيات عامة أو خاصة ، كما أثارت فيه غراماً متقداً بالمثل العليا القديمة .

ودعمت تعاليم فينكلمان مفاهيم جيته الغامضة التى جاء إلى إيطاليا لتهذيبها . والحق أنه ظل عدة سنوات يفكر فى القيام بهذه الرحلة ، وكان يحلم بها بوصفها انفصاماً عن ماضيه ورمزاً للثورة على الرومانتيكية الشمالية المعروفة باسم Sturm und Drang ، (وهى حركة أدبية ألمانية ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتميزت بالثورة على حركة التنوير الفرنسية والمحاكاة الألمانية لها ، تزعمها يوحنا جورج همان « ١٧٣٠ — ١٧٨٨ » واختار اسمها الكاتب الروائى المسرحى فردريخ مكسمليان فون كلنجر مقتبساً إياه من اسم إحدى مسرحياته Sturm und Drang أى العاصفة والثورة ، وكان جيته من أبرز رعاتها) . وحالما وصل جيته إلى روما راح يحول ما كتبه الكاهن البروسى الذى اعتنق الكاثوليكية من كتابات هادئة مجردة من العواطف فى علم الجمال الأولبى إلى مبادئ أدبية وشعرية وفلسفية وخلقية . وبطريقة ما علمه احتكاكه بهذا البلد الصعب المراس أن كل ما فى الفن والحياة لا بد أن يكون نتيجة التحكم ودلالة على سيطرة الإنسان على الأحداث والانغماسات المفرطة ، وعلى ثورات العاطفة والفوضى . كتب جيته يقول : « يقيناً ليست لدى أولئك الذين يعيشون بعيداً عن روما أية فكرة عن الطريقة التى يتعلم بها المرء هنا ؛ فلابد للإنسان — إذا جاز التعبير — أن يولد من جديد . إنه يتعلم

هنا أن يلقى نظرة على أفكاره القديمة وكأنه ينظر إلى شواطئ الطفولة » . واكتشف جيته أن كل شيء لا بد له من قانون وشكل ، فالشكل Gestalt والقانون Gesetz من شأنهما كبح جماح الطبيعة Nature ، ومن شأن جوهر الشرعية — Gesetz lichkeit أن يسيطر ويسود ، ثم إن جميع ألوان الخلل سواء خلقها الرب أو صنعها ميكلأنجلو أو شكسبير لا بد من التأسف عليها وتحاشيها سواء بسواء .

وجدير بالذكر أن كل هذا الانسجام والبرود والكبت والجمود ، وكلها من سمات فيدياس ، وكل هذا الشغف بالشرعية الذى اتسمت به الشعوب الجرمانية القاطنة فى شمال أوربا وبخاصة اسكندناوة ، وكل هذا الاحتقار للهوى العابث والتعبير الجامح عن النقائص والغرائز البشرية ، نقول كل أولئك التمسه جيته وأجانب كثيرون غيره فى إيطاليا بالذات دون سائر البلاد ، وهى البلد الذى امتثل أهله لقواعد أرسوها على النقيض تماماً من كل ذلك حيث استسلم هؤلاء لسلطان العواطف الجامح والتعبير الطليق للغرائز والاستمتاع بمباهج الحياة joie de vivre والتحرر من الواجبات المملة والقوانين الحمقاء، فأطلقوا العنان لشهواتهم، وانغمسوا فى كل الزلات البشرية . ترى أيها كانت إيطاليا ؟ لابد أن جيته نفسه ساورته الشكوك . حدث فى أول أيام زيارته لإيطاليا أن سأل صاحب الخان الذى نزل فيه فى بلدة توربولى Torbole القريبة من فينتسيا (البندقية) أن يدله على مكان دورة المياه ، فأشار إليه هذا إشارة مبهمة نحو فناء الخان ، وألح الشاعر الألمانى فى سؤاله طالباً إليه أن يوضح له فى أى مكان من الفناء بالضبط ، فرد عليه صاحب الخان قائلا : « فى أى مكان — حيثما تشاء . . . "Ma da per tutto, dove vuole" ، لم يكن هذا « جوهر الشرعية » ، كما لم يكن بحال مثلا لسيطرة الإنسان على فوضى الطبيعة .

ونحن اليوم لا نبرئ الرحالة الذين وفدوا إلى إيطاليا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر من أنهم جاءوا دون وعى منهم للاستمتاع بفترات من اللهو بين الإيطاليين المفعمين حيوية أكثر من التمتع بدروس التاريخ القديم بين الإيطاليين الأموات ؛ بيد أنه لم يسلم بهذه الحقيقة سوى فئة صغيرة من الأجانب ، وحاول عدد قليل جداً منهم تحليل طبيعة اللذات الخاصة التى اكتشفوها فى ملاحظة الإيطاليين الصاخبة ، واختلطوا بهم وتقبلوا قواعدهم المنحلة وعاداتهم المتساهلة ؛ وقبل كل شىء كان هذا الإحساس بالتحرر الذى مارسوه إحساساً مادياً متميزاً شعروا به فور أن عبروا الحدود، أو قل كان هذا الإحساس إثارة صامتة وتنشيطاً للحواس — أما عن سببه فإن أحداً لم يجرؤ أن يتحرى عنه .

ومهما يكن من شىء فقد اعتقد ستاندال أن هذا الإحساس راجع أساساً إلى الجو حيث يقول : « من الثابت أن الجو وحده يحدث فى أعصاب الأجانب فور وصولهم إلى إيطاليا تأثيراً يتعذر تفسيره ، ومثال ذلك أنه بعد أن عبرت الفيالق الفرنسية بقيادة ماربو Marbot ألمانيا فى سنة ١٨٠٦ ، ووصلت إلى فريولى Friuli فى إقليم فينتسيا ، بدا وكأن روحاً جديدة قد دبت فى أولئك الجند الفرنسيين ، فتحولوا من شخصيات بالغة الصرامة إلى شخصيات حلوة مرحة ، وأصبح كل فرد منهم سعيداً مبتهجاً ، وحل الربيع محل الشتاء فى نفسه » ، وجدير بالذكر أن جو فريولى الواقعة فى أقصى شمال إقليم فينتسيا لا يختلف كثيراً عن جو أقصى الولايات الألمانية جنوباً عبر الحدود التى كان هؤلاء الجند الفرنسيون قد تركوها لتوهم .

ووافق شيلى Shelley على هذا الرأى تقريباً حيث وجد فى الأحوال الجوية تفسيره هو أيضاً ؛ فبعد أن عبر جبال الألب ببضعة أيام كتب يقول : « ما إن وصلنا إلى إيطاليا حتى أحدث جمال الثرى ، وصفاء السماء ، أكبر تبدل فى

إحساساتى » . ثم دون فيما بعد انطباعاته الأولى هذه فى مقدمة كتبها لمسرحيته « بروميثيوس الطليق Prometheus Unbound » ، وفيها يقول : « لقد كانت هذه الدراما من وحى سماء روما الزرقاء الصافية ، والربيع المنشط الموقظ ، وسط ذلك الجو البالغ الروعة ، والحياة الجديدة التى تسكر الروح حتى الثمالة » . ولعله كان من الطبيعى للزائرين الوافدين من الشمال المعتم أن ينبهروا أكثر من غيرهم بالشمس المشرقة وبضياء القمر الذى — على حد قول جيته — يفوق بريقه ضوء النهار ؛ كما كان من الطبيعى لهؤلاء أن يكونوا أيسر ميلا إلى الاقتناع بأن الضوء والجو قد هيأ الأذهان للاستمتاع بمفاتن كثيرة أخرى ؛ فحالما جاء هنريخ هاين Heinrich Heine إلى إيطاليا ذكّر نفسه بقوله : « إن صيفنا الألمانى إن هو إلا شتاء مكسو باللون الأخضر . . . وإن الشمس نفسها ترتدى ثوباً رمادياً ... وفى هذه الشمس الشاحبة لا تنضج الفاكهة ، وأقول — وهذا سر بيننا — إن الفاكهة الوحيدة الناضجة فى بلدنا هى التفاح المطبوخ » . وعالج الشعراء الروس الموضوع نفسه ، فكتب أبولون نيقولا يفتش Apollon Nicolayevich Maykov فى خماس يقول : « تحت أشعة الشمس المتقدة ، وفى هدير أحد مساقط المياه قلتِ لى وأنت مبتهجة وكأنك ثملة : هنا يمكننا أن نموت معاً — أقصد كلينا » كذلك كتب جوجول Gogol أنه « يمكن لمن زار إيطاليا أن ينسى جميع الأقاليم الأخرى ، فإن من دخل الجنة لا يروم الذهاب إلى الأرض . والحق أن أوربا بالنسبة لإيطاليا أشبه بيوم مظلم عبوس بالنسبة ليوم مشرق ساطع » . وقال نيقولا يفتش لصديقه الشاعر جوكوفسكى Zhukovsky : « لم تكن روسيا وسان بطرسبرج والثلوج والشعوب البغيضة سوى كابوس ثقيل » .

وكان من الطبيعى أن أشاد الألمان والاسكندنافيون بجو إيطاليا المشرق

الدافئ – فعلوا ذلك فى فيض من القصائد معظمها من الدرجة الثانية وقلة منها من أحسن إنتاجهم . ولكن من الغريب أن الوافدين من أجواء أكثر اعتدالا مثل الفرنسيين الذين لم يحرموا يقيناً من رؤية الشمس فى بلادهم انبهروا هم أيضاً، كتب شاتوبريان Chateaubriand فى رسالة شهيرة إلى صديقه دى فونتين Fontanes يقول : « لا شك أنك أعجبت فى اللوحات التى رسمها كلود لوران Claude Lorrain بالضوء الذى يبدو مثالياً وأجمل مما فى الطبيعة ! حسناً، إنه نور روما! »؛ كذلك كتب الفرديد دى موسيه Alfred de Musset عن « السماء الفاتنة التى بلغ من صفائها أن الابتهال فى إيطاليا يرتفع إلى الله طليقاً دون عائق أكثر مما يحدث فى أى مكان آخر على الأرض » .

وسواء كان هذا الإحساس راجعاً إلى الشمس أو الجو أو السماء أو الضوء ، فقد كان إحساساً قوياً بل غامراً أدى فى كثير من الأحوال إلى تغيير حياة المرء، كتب ماكولى Macaulay – وقد عراه الذهول – قائلا : « لم يدر بخلدى أن شيئاً مثيراً سائغاً على هذا النحو الذى لم يسبق لى تجربته كان من الممكن الاهتداء إليه فى العالم » . وذكر هنرى آدمز H. Adams فيما بعد « أن إيطاليا كانت فى المقام الأول إحساساً ، وتركز هذا الإحساس بطبيعة الحال فى روما التى كانت قبل سنة ١٨٧٠ مغرية إغراء لا يمكن مقاومته ؛ وكان شهر مايو سنة ١٨٦٠ رائعاً . . . فقد نشرت الأشجار عبيرها ، وتألقت . . . وازدانت بشمال رقيقة ناعمة تشعر بها الحواس التى أرهقها الضباع » ، وكتب إبسن Ibsen فى سنة ١٨٦٦ يقول : « إن روما جميلة رائعة فاتنة ؛ وإنى لأشعر فيها بطاقة فياضة للعمل وبقوة خارقة . لقد قضيت عاماً كاملا وأنا أجاهد فى نظم قصيدتى Brand قبل أن تأخذ شكلا واضحاً محدداً ، ثم حدث فى يوم ما أن دخلت كنيسة القديس

بطرس ، وجبت فى أرجائها ، وهناك أدركت فجأة خطوطاً محددة واضحة قوية لشكل ما كان على أن أقوله » . كذلك سجل هنرى جيمس H. James فى يومياته فى أول يوم وصل فيه إلى روما سنة ١٨٦٩ قوله : «وأخيراً ولأول مرة أحسست أنى أنبض بالحياة » .

وتحت تأثير هذا الإحساس لم تبد إيطاليا لكثيرين من زائريها بلداً كسائر البلاد التى خلقها الإله ، بل تحفة رائعة صنعها المولى فى لحظة تجل خاصة ، وهكذا شُكل كل جبل ، وصُممت كل بحيرة ، وغُرست كل شجرة ، ورُسم كل شاطئ على النحو القويم الذى يحقق تأثيراً شعريًّا أو تصويريًّا معيناً. ولقد خامر أناتول فرانس Anatole France شعور بأن هناك إلهاً آخر هو فنان أعظم ، فجاء فى روايته الزنبقة الحمراء Le Lys Rouge على لسان إحدى شخصياته ، وهو يخاطب حبيبته وهما يطلان على مدينة فلورنسه من أعالى تلال فيزولى Fiesole : « انظرى يا حبيبتى ، أمعنى النظر ، إن ما تشاهدينه لهو شىء فذ فريد . . . حقًّا ليست هناك أية بقعة أخرى نجد فيها الطبيعة رقيقة رائعة فاتنة على هذا النحو . . . يقيناً أن الإله الذى صنع تلال فلورنسه كان فناناً ، وإلا فكيف يتسنى أن يكون بخالق هذا التل البنفسجى — تل سان منياتو San Miniato — المصمم تصميماً كاملا متقناً ، هو نفسه صانع جبل مون بلان Mont Blanc ؟ » .

وتملك كثيرين من الرحالة الميل البروستى[1] Proustian إلى مقارنة كل شىء

---

(١) نسبة إلى المؤلف الفرنسى مارسل بروست ١٨٧١–١٩٢٢ الذى تميزت كتاباته بالدقة فى التفصيلات وآمن بأن الإحساس هو الجوهر الوحيد الحقيقى فى الإنسان .

بآخر من بنات الخيال البارع ، فحاولوا أن ينسبوا كل منظر طبيعي إلى الفنان الملائم ، وكل شخصية واقعية إلى الكاتب الذى فى وسعه أن يبتدعها ، وكل إحساس فى النفس إلى الشاعر الأقدر على التعبير عنه ، وكان هذا العمل أكثر من خدعة أدبية . وحقيقة الأمر أن المشهد الإيطالى أثار فى كثيرين فى الماضى — ولا يزال يثير فى كثيرين اليوم — إحساسات قوية حادة لا يثيرها عادة إلا الفن الرفيع وحده ، وكأن إيطاليا ليست موطن الفن فحسب بل إنها هى نفسها تحفة فنية رائعة objet d'art ، وصفها الشاعر بيرون Byron فخاطبها قائلا : « إنك بستان العالم » ، وهو يعنى بلفظ بستان شيئاً خططه ونفذه فى دقة وعناية فنان هدفه المحدد إدخال البهجة على نفوس البشر وتسليتهم .

كتب المليونير الروسى الثائر الكسندر هرزن Alexander Herzen يقول : « هناك بلد واحد فقط فى أوربا يمكنه أن يمنحك هدوء النفس ، ويجعلك تذرف الدموع ، لا دموع السخط أو خيبة الأمل بل دموع الغبطة والفرح ؛ ذلك البلد هو إيطاليا » . واضح أن هذه الكلمات أصلح لوصف الانطباعات التى تحدثها فى النفس الموسيقى الرائعة ، والتراجيديات العظيمة والشعر الخالد ، منها لوصف تلك التى تثيرها زيارة بلد أجنبى ، فإن الإحساس بالهدوء وذرف دموع الفرح هما من بين الدلائل الجلية على فعالية ما سماه أرسطو تطهير العواطف بالفن . ومال كثيرون إلى الاعتقاد فى أن ترجمة المشاهد اليومية إلى آثار فنية خالدة أيسر بكثير فى إيطاليا حيث البون بين الطبيعة والفن طفيف يمكن تجاوزه أسهل مما هو عليه الحال فى بلاد مناظرها مألوفة وأقل بهجة وأكثر شيوعاً . ولكم أسف وردزورث Wordsworth لأنه لم يكشف هذا المعين الملهم للشعر إلا فى وقت متأخر لم يسمح له بالنهل منه ، فقال متحسراً : « لقد أثرى ذهنى صور

لا تعد ولا تحصى ، ولو أنها توافرت لى من قبل لاستطعت أن أعبر عنها فى أبيات من الشعر تفيض بالمشاعر الحية . نعم لو أنها قد جاءت فى مقتبل العمر لحققت غايات نبيلة على نحو يتعذر الآن أن تفعله » .

ولقد أثار الوهم بأن الفن والطبيعة فى إيطاليا هما شىء واحد سخط بيرون الذى كان أحد كبار ضحاياه ، وذلك حين لمسه فى غيره من الرحالة ، ويروى لنا توماس مور Thomas Moore قصة لها دلالتها عن اجتماعه فى فنيتسيا بصديقه العظيم « بيرون » بعد فراق طويل فيقول : « وقفنا فى الشرفة المطلة على القناة الكبيرة حتى أستطيع أن ألقى نظرة خاطفة على منظر القناة قبل أن يغيب ضوء النهار تماماً . وبينما كنت أرقب السحب التى كانت لا تزال صافية فى الغرب قلت لصديقى : إن ما يبهرنى فى غروب الشمس فى إيطاليا هو ذلك اللون الوردى الفريد . ولكن لم أكد ألفظ كلمة « وردى » حتى سارع بيرون بوضع يده على فمى وصاح ضاحكاً : « هيا بنا ياتوم — عليها اللعنة — لا تكن شاعرياً » .

* * *

ومهما يكن من شىء فلم يكن الطرب والابتهاج خالصين نقيين بل كثيراً ما امتزجا بأحاسيس أخرى مختلفة مزعجة ومقلقة ، فكان هناك على سبيل المثال اللذة المرة — إذا جاز التعبير — فى الرثاء لحال الإيطاليين واحتقارهم . فقد عانى الإيطاليون من ظلم حكومات استبدادية فاسدة خرقاء جشعة ، ومع ذلك لا يسع المرء أن يتجنب فكرة أنهم استحقوا هذا المصير ، لأنهم بدوا مفتقرين إلى كل الفضائل التى خلقت من شعوب أخرى شعوباً عظيمة . نعم كانوا قذرين ، فكانت ثيابهم وبيوتهم وشوارعهم رثة ، فضلا عن أنهم كانوا صاخبين إلى حد يفوق التصور ، ومضللين مخادعين ومسرفين قصيرى النظر ؛ ومن ثم بدت محنهم النتيجة الطبيعية لافتقارهم إلى الفضيلة ، كما كان افتقارهم إلى الفضيلة بدوره

العاقبة الحتمية لمحنهم . ولم يكن هناك سبيل سهل لكسر الحلقة المفرغة . كتب رسكن Ruskin الذى أحب إيطاليا وهام بها أكثر مما أحب زوجته وتعلق بها رسالة إلى أبيه فى سنة ١٨٤٥ قال فيها : «لتأخذ الإيطاليين فى جملتهم — إنى أعافهم وأمقتهم مقتاً شديداً . إنهم أشبه بجمجمة يوريك Yorik's Skull تغشاها الديدان ، ولم يبق فيها من ملامح الإنسانية إلا شبحها » . وراح فى كتابه : « صباحيات فى فلورنسه » Mornings in Florence يشكو ويتذمر من : «أنك لا تسمع على الإطلاق فى الشوارع كلمة بدون أن تلفظ فى غضب عنيف ، إما أن يكون على أهبة الانفجار أو متفجراً لتوه فى معظم الأحوال . فكل إنسان — رجلا كان أو امرأة أو طفلا — يهدر فى كل مناسبة ، فى أقل مناسبة ترى فيضاً من الأفكار والرغبات الدنيئة الحقيرة ؛ يفعل الرجل ذلك وعيناه تتفجران غضباً وفى صوت صاخب أجش ضائع . قل إنه أمل جنونى فى أن ينترع بضياحه وصراخه كل ما يمكن أن يحصل عليه من الإنسان ومن الله . . . لاحظ المتكلمين فى شوارع فلورنسه تتبين أنهم وقد عجزوا أساساً عن الكلام يحاولون أن يجعلوا من أصابعهم شفاهاً . انظر كيف يحركونها ويلوحون بأيديهم ، وكيف يهزون قبضتهم فى وجه خصمهم . . . حركات عقيمة غير مقنعة مثل اهتزاز غصون الأشجار فى مهب الريح » .

وجدير بالذكر أن والتر سافيدج لاندر Walter Savage Landor الذى قضى سنوات طويلة فى فلورنسه تجنب الفلورنسيين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فقال فى صراحة وعزم : « إننى لا أزور أحداً منهم ، ولا أستقبل أحداً منهم فى مسكنى ، ثم إننى لا أتوجه إطلاقاً إلى قاعة القمار أو المقهى أو المسرح أو القصر أو الكنيسة ». لقد أثار أهل فلورنسة حنقه وسخطه بحيث اضطر أحياناً إلى أن يلكم ويرفس

العمال الذين اشتغلوا فى بيته وفى حديقته ، ويروى عنه أنه طرد مرة مالك البيت الذى يسكنه لأنه دخل عليه وقد وضع قبعته على رأسه . وبعد ذلك بسنوات طويلة أحس د. هـ. لورانس D.H. Lawrence بمقت غامر نحو « أهل المدن » الإيطاليين ، أعنى طبقة البورجوازية ، فكتب فى ٢٣ أكتوبر ١٩١٣ إلى ليدى سنثيا أسكويث Synthia Asquith يقول : « ثم وصلت إلى مدينة ميلان البغيضة بكاتدرائيتها التى تشبه القنفذ ، وأهلها الكريهين بجواربهم القصيرة ، وأربطة عنقهم الأرجوانية ، وقبعاتهم الملامسة لآذانهم » . وبعد ذلك ببضعة أيام كتب لورانس يقول : « إنى أعاف الإيطاليين وأمقتهم فهم لا يتناقشون على الإطلاق وإنما يكتفون بترديد عبارات معينة كالببغاوات ويدفعون أكتافهم إلى أعلى فى حركة عنيفة ، ويميلون برؤوسهم إلى أحد الجانبين ، ويضربون أيديهم كفاً على كف ! ترى ما الذى يفعله الرجل الأمين معهم ؟ »

وسأل كثيرون أنفسهم عما إذا كانت إيطاليا جميلة بهيجة حقاً بالقدر الذى دفعتهم الحواس المضللة إلى الإيمان به ، أم أنها كانت مجرد سراب ؟ ترى هل كان المرء ضحية خدعة شيطانية تحت تأثير العاطفة التى ألهبتها صور مضللة ؟ — وصف هوثورن Hawthorne فى بلاغة رائعة العجز المحير الذى أحس به رجل مهذب قويم الأخلاق من أهل الشمال زار روما فقال :

« بعد أن تعرفنا على روما وتركناها حيث ترقد — وكأنها جثة اعتراها البلى منذ زمن طويل ، وما زالت تحتفظ بآثار من شكلها ورونقها الجليل الذى كانت عليه ، ولكن يكسو معالمها البالغة الروعة الغبار المتراكم ، وتنتشر فوقها النباتات الفطرية — تركناها فى تقزز مطلق ، وذلك بدون شك من شوارعها الضيقة الملتوية المعقدة المرصوفة رصفاً رديئاً برقع صغيرة من الحمم تجعل السير فوقها وكأنه

حج يغسل الذنوب ويكفر عن الخطايا . شوارع لا يمكن وصف قبحها ، الواقع أنها حارات لا تدخلها الشمس على الإطلاق ، وفيها يدفع الهواء البارد نسمته القاتلة إلى رئاتنا . تركناها وقد سئمنا منظر الخرائب الضخمة المؤلفة من سبعة طوابق والمدهونة باللون الأصفر ، أو سمها القصور حيث يبدو كل ما هو كئيب فى الحياة المنزلية مضخماً ومضاعفاً . تركناها وقد أعيانا التعب من صعود تلك الدرجات التى تصادفك فى شوارعها والصاعدة من طابق أرضى به المطاعم وأكشاك الأساكفة والإصطبلات وجماعات الفرسان إلى منطقة وسطى يشغلها الأمراء والكرادلة والشعراء ، ثم إلى طبقة عليا تحت السماء مباشرة يعيش فيها الفنانون . تركناها مرهقين من القشعريرة التى تملكتنا نهاراً أمام الموقد الكئيب الداخن ، ومن الحشرات الصغيرة النهمة التى تغذت على أجسامنا ليلا فى أسرة روما . تركناها مشمئزين فى أعماق قلوبنا من التحايل الإيطالى الذى اجتث كل ما بقى حتى الآن من إيمان فى نزاهة الإنسان . تركناها ومعداتنا عليلة من الخبز العفن ، والنبيذ الحامض ، والزبد الزنخ ، والطهى الردىء الذى استخدم عبثاً فى إعداد اللحوم الفاسدة . تركناها ممتعضين من مظهر القداسة وواقع الدناسة وكلتاهما موجودة على حد سواء فى كل مكان . تركناها ونحن أنصاف أموات من الجو المضنى الذى استهلك عنصره الحيوى منذ زمن طويل أو أفسدته مذابح راح ضحيتها عشرات الآلاف . تركناها وأرواحنا محطمة أسى على دمار آثارها واليأس من مستقبلها . وقصارى القول تركناها كارهين إياها بكل قوانا وصابين عليها لعنتنا إضافة إلى اللعنة اللانهائية التى جرتها عليها دون شك جرائمها السابقة . وحين تركنا روما ونحن فى هذه الحالة النفسية أذهلنا أن نكتشف شيئاً فشيئاً أن أوتار قلوبنا قد تعلقت بطريقة خفية بالمدينة الخالدة ، وراحت تجذبنا إليها مرة أخرى ،

وكأنها البلد الأكثر ألفة لنا أو بيتنا الذى نحن أشد تعلقاً به حتى من البقعة التى ولدنا فيها » .

وجدير بالذكر أن ما امتلكته إيطاليا من قوة سحرية تضعف مقاومة الأجانب لجاذبيتها يعد حقيقة اكتشفها كثيرون ممن ذهلوا أيضاً حين أدركوا — كما أدرك هوثورن — أن هذه العملية لم تثر استياءهم أو تملأهم بالندم والأسف، بل أضفت عليهم إحساس الاستسلام والرضا والسكينة ، مثال ذلك كتب بولوار لتن Bulwer Lytton يقول: «يالك من إقليم يوهننا مناخه بسحر أخاذ ويصوغنا شيئاً فشيئاً بطريقة غامضة غير محسوسة فى قوالب تنسجم معه . إن كل من يزورك يبدو أنه يطرح وراءه الأرض وهمومها القاسية ؛ ليطرق البوابة العاجية Ivory Gate ويدخل أرض الأحلام » . ثم إن الفن — وهو الغاية السامية للزائرين الأكثر جدية والهدف الأساسى لحج كثيرين منهم إلى إيطاليا — لم ينج أيضاً من التعرض للشك . ألم يكن الفن أحياناً مجرد مسوغ للفجور والحياة الخليعة ؟ لقد ضايق هذا الشك هوثورن وعذبه . كتب فى مؤلفه «التمثال الرخامى للإله فون » The Marble Faun يقول : « يبدو أن كل نحات شاب يعتقد أنه لزام عليه أن يقدم للناس نموذجاً لامرأة غير محتشمة ، ثم يطلق عليها اسم حواء أو فينس أو حورية أو أى اسم آخر قد يغفر تجردها من ثوب الوقار. وإنى ليعرونى الضجر أكثر مما يعرونى الخجل من رؤية هذه الأشياء . الواقع أن الناس فى الوقت الحاضر يبدون كأنهم ولدوا بملابسهم ، وليس هناك فعلا إنسان عار فى الوجود ؛ ولذلك لا يستطيع فنان أن يصنع تمثالا لجسم عار عن رغبة نقية خالصة ما دام مضطراً فى آخر الأمر إلى أن يختلس نظرات خاطفة إلى النماذج المأجورة ، ولا مفر فى هذه الحالة من أن يفقد التمثال المرمرى عفته وطهارته » .

الفصل الثالث

سحر إيطاليا الفتاك

ما هو إذن هذا السحر الفتاك الذى تتميز به إيطاليا ؟ يبدو أحياناً أنه يكاد يكون من الممكن قياسه على نحو مضبوط ، كما يقيس رجل العلم انكسار الضوء فى الماء بمراقبة الزاوية التى تظهر فيها عصا منحنية فيه . نقول يمكن قياسه قياساً مضبوطاً بمقارنة الفرق بين ما يستعيده السائح من ذكريات خلابة لتجاربه الشخصية وبين ما جاء عن الأحداث نفسها من روايات أكثر اتزاناً وموضوعية . خذ مثلا الرسائل التى كتبها لورد بيرون Byron إلى أصدقائه فى إنجلترا خلال مدة إقامته الأولى فى فينتسيا (البندقية) ، فما أروع النساء اللائى وصفهن بيرون فى رسائله ، كلهن شابات يافعات آية فى الجمال ، وكلهن وقعن فى أشراك غرامه ؛ بعضهن فتيات من أسر وضيعة ، وبعضهن نبيلات (كونتسات) متغطرسات ، وتردد هؤلاء وأولئك فى فيض مستمر على شقته فى قصر موتشنجو Mocenigo أو على وكره (جارسونيرته) الخاص فى سانتا ماريا زوبينيجو Santa Maria Zobenigo وتشاجرن معاً أحياناً من أجل الفوز باهتمامه .

كتب بيرون إلى أصدقائه فى لندن يقول : « لقد وقعت فى أشراك الحب . . . حب لا يتضح مداه . . . وليست معبودتى سوى زوجة تاجر من البندقية ، ومن ثم فهى جميلة كالظبية ، لا يتجاوز عمرها الثانية والعشرين ، ولها العينان الشرقيتان السوداوان ، والوجه الإيطالى ، والشعر الداكن اللامع ، وصوتها كصوت القيثارة ،

وغناؤها كغناء الملائكة (وإن لم يكن مقدساً مثلهم) وذلك علاوة على سلسلة طويلة من الميزات والفضائل . . . على أن ميزاتها الكبرى تكمن فى قدرتها على اكتشاف ما ترى : فليس هناك شيء أسمى من البصيرة النافذة». ويقول فى رسالة أخرى : « هى فتاة فينيسية لها عينان سوداوان واسعتان ووجه كوجه (فوستينا[١] Faustina) وبنية كبنية (يونو) Juno — وهى فارعة الطول مفعمة بالنشاط مثل كاهنة دلفى Pythoness ، عيناها متألقتان وشعرها داكن يلمع فى ضوء القمر ، إنها واحدة من أولئك النساء اللائى تصوغهن كما تشاء . . . وإنى لعلى يقين من أننى إذا وضعت خنجراً بين يدى هذه الفتاة فإنها سوف تغمده حينما أطلب منها — وسوف تغمده فىّ إن أغضبتها » .

ثم خذ بعد ذلك الوصف المتزن الذى كتبه الشاعر شلى عن حياة بيرون الغرامية فى فينسيا : « الواقع أن أوليات النساء الإيطاليات اللائى يعاشرهن بيرون ربما كن أحقر النساء الكائنات تحت القمر وأجهلهن وأغبهن وأشدهن تعصباً ، وتفوح من عدد لا يحصى منهن رائحة الثوم على نحو كريه لا يستطيع معه الإنجليزى العادى أن يقترب منهن . حقاً إن لورد بيرون يألف أحط أنواع النساء ، أولئك اللائى يلتقطهن له من الشوارع مجدفو زورقه (الجندول) ؛ فهو يعاشر نساء حقيرات يجاهرن تقريباً بممارستهن أفعالا لا يمكن ذكرها ، بل أعتقد أنها قلما يتصورها أحد فى إنجلترا . ويقول بيرون نفسه إنه يستنكرها بيد أنه يحتملها » .

---

(١) فوستينا : ابنة الإمبراطور الرومانى أنطونيوس بيوس وزوجة ماركس أوريليوس اشتهرت بغرامياتها ومجونها قدر ما اشتهرت بجمالها — ويبدو أن زوجها كان جاهلا بمساوئها فى تأملاته نراه يشكر الآلهة التى وهبته زوجة مخلصة وديعة !

ما هو إذن هذا السحر الفتاك ؟ وما الذى طمس حاسة التمييز عند بيرون ؟ إنه سحر جعل بطلا بحرياً من رجال الطبقة الوسطى اتصف بالترمت والحرص على أداء الواجب ، هو هوارشيو نلسن Horatio Nelson ، جعله ينسى زوجته الطاهرة ، وشرف بزته الرسمية ، وكرامة منصبه بوصفه وزير جلالة ملك بريطانيا لدى بلاط نابولى ، ويقع فى أشراك حب ليدى هاملتن الفاتنة الحقيرة . لقد أضفى هذا السحر على الكهول والمتقاعدين الإحساس بأنهم إن لم يكونوا قد عادوا شباناً فهم على الأقل يتصفون بالجرأة ، يألفهم الناس وبالتالى غرس فيهم الوهم بأنهم لا يزالون قادرين على قضم ثمار الحياة بأسنانهم الصناعية ، وفى الوقت نفسه حفز هذا السحر قلة ممن أثقلت الخطايا ظهورهم إلى زيارة إيطاليا التماساً للتوبة والغفران . كما جعل ، ولا يزال يجعل ، غير المرغوب فيهم يشعرون أنهم مرغوب فيهم ، والتافهين يشعرون بأهميتهم ، وجعل أولئك الذين لا هدف لهم يؤمنون بأن الطريقة المثلى ليعيشوا عيشة ناعمة هى ألا يكون لهم هدف جدى فى الحياة . وهذا السحر الفتاك عريق فى القدم يمكن تتبعه إلى أقدم العصور ، ولا يزال قوة من القوى التى يعمل حسابها فى العالم الحديث ، قوة تعمل بطريقة ما على تشكيل حياة الجماهير ، ومن اليسير علينا اليوم أن نثبت أن السعى وراء هذه السمة الفريدة التى تتصف بها الحياة الإيطالية ، أو قل الإحساس الذى أضفى على كل ما عداه قوة وأهمية ، هو الذى اجتذب الناس إلى إيطاليا دون كل الحوافز الأخرى ، لأن ملايين من الناس يفدون إلى إيطاليا لكل الأسباب التى اجتذبتهم إليها فى الماضى ، وهى أسباب بالغة التناقض بحيث يتنافر كل منها مع الآخر ويطغى عليه .

وبطبيعة الحال لا يزال كثيرون يفدون إلى إيطاليا طلباً لحياة التقوى ، أو لما

يسبغه الدين على نفوسهم من طمأنينة وسكينة ، وليس كل هؤلاء من الكاثوليك ، ففى كل مرة يطل فيها البابا من نافذة قصره لإلقاء كلمته يحتشد لسماعها بروتستنت ، ويهود ، وبوذيون ، ومسلمون عدا نفر من الملحدين واللا أدريين . كما أن البابا يأذن لآلاف من غير الكاثوليك بمقابلته وينعم عليهم بنفسه ببركاته التى لا يؤمنون بها ولكنهم يرحبون بها فى حماس وغيرة . ويشترى كل هؤلاء المسابح والتذكارات الدينية لأصدقائهم ، ويميل الكثيرون منهم إلى نسيان الخلافات الطائفية الماضية ويغبطون جماهير الكاثوليك على عقيدتهم المسالمة التى لا تقبل بدلا . وكثيراً ما أقر غير الكاثوليك أن زياراتهم روما ورؤية البابا عن كثب ترفع من روحهم الدينية على نحو يفوق فى كثير من الأحوال ما يحس به الكاثوليك الذين ألفوا هذه الطقوس وتعودوها ، وهكذا أصبح البابا مرة أخرى زعيماً روحياً عظيماً وشخصية رمزية والرئيس المعنوى لكل قوى الخير التى تجاهد ضد القوى الشر .

أما الكاثوليك فلا ريب أنهم يفدون إلى إيطاليا لا لرؤية البابا فحسب بل كذلك لزيارة أماكن العبادة التقليدية الشهيرة من كاتدرائيات ومزارات وأضرحة القديسين ، وأيضاً للفوز بغفران الكنيسة خطاياهم . ويتدفق الكاثوليك وغير الكاثوليك على مدينة أسيسى Assisi حيث لا تزال ذكرى القديس فرانسيس الخيالية عاطرة ذكية فيها ، وحيث لا تزال اللوحات الجصية التى تمثل حياته والتى رسمها جوتو Giotto فى حالة طيبة ، ويتوجهون إلى بلدة لوريتو Loreto حيث يمكن مشاهدة كوخ السيدة العذراء الذى حمله الملائكة إليها على أجنحتهم من آسيا الصغرى ، وفى بعض الأحيان يزور الحجاج مزار القديس ميخائيل Michael القائم على جبل جارجانو Gargano « مهماز إيطاليا » (عرف بهذا الاسم لأنه يمتد داخل البحر الإدرياتى لمسافة ٤٠ ميلا) وقد أقيم هذا المزار فى كهف سحيق ذكرت الأسطورة أن رئيس الملائكة ظهر فيه لجماعة من الفرسان النورمان كانت

فى طريق عودتها من الأراضى المقدسة فى القرن الحادى عشر — كما تقول الأسطورة — كذلك يتوجه آخرون إلى سيراكوزا Syracuse فى صقلية لمشاهدة تمثال نصفى للعذراء ، هو تمثال جديد رخيص قبيح تنتج إيطاليا نسخاً وفيرة منه تبيعها فى كل متاجرها الكبرى ؛ ولكن يشاع أن هذا التمثال النصفى بكى منذ سنوات قليلة مضت وذرف دموعاً غزيرة يقال إن السلطات المحلية قامت بتحليلها كيائياً ، وتبين لها أنها حوت كل عناصر الدموع البشرية الحقيقية .

ويتدفق الزائرون اليوم بنوع خاص على قرية سان جوفنى روتوندو San Giovanni Rotondo, فى إقليم أبوليا Apulia على مقربة من كهف القديس ميخائيل St. Michael فى موسم السياحة تغادر روما يومياً حافلات (أتوبيسات) سريعة تنقل ركابها مباشرة إلى تلك القرية التى كانت مغمورة من قبل . فيتوجه إليها الناس اليوم (كما فعل كثيرون فى القرون الماضية) ليتبركوا بقديس على قيد الحياة هو الأب الملتحى بيو دا بيتيرالتشينا Pio da Pietralcina وهو من طائفة الكابوتشين Capuchin ، ويعيش عيشة بسيطة طاهرة ، فقد بورك منذ سنة ١٩١٨ بظهور علامات على قدميه ويديه وصدره كتلك التى أحدثتها المسامير فى جسد المسيح عند صلبه ، ولكنه حياء منه يخفى علامات يديه بارتدائه قفازاً . ولا شك أن هذه العلامات Stigmata هى مجرد العلامات الأولى للقداسة ، ولكنها ليست أصدقها أو أهمها ، إنها ظهرت حتى على بعض البروتستنت والهراطقة ، ولا تعترف الكنيسة بصحتها ، ولا ترى فيها ما يحملها على اعتبار الأب بيو قديساً . أما الدلائل الأصدق على القداسة فهى طبعاً السباحة فى الهواء ، وكلية الوجود وغير ذلك من المعجزات إلى جانب حياة التقشف البالغ .

ولكن الأب بيو لا يطير ، وربما كان ذلك هو العمل القدسى الفذ الوحيد

الذى لم يقم به ، بيد أنه اشتهر بكلية وجوده وبمعجزاته فى علاج المرضى ؛ فإنه دون أن يغادر صومعته قد ظهر مراراً فى وقت واحد لكثيرين ممن يوثق بهم ويعيش بعضهم بعيداً عن بعض أميالا كثيرة ، وتبادل الحديث معهم . وأقر أحد الكرادلة المعروفين أنه رآه مرة راكعاً فى كنيسة القديس بطرس فى روما منهمكاً فى الصلاة ، كما ظهر فى غرف نوم المرضى ومن أشرفوا على الموت ، وفى زنزانات السجون ، وفى أجنحة المستشفيات بعد أن تضرع إليه نزلاؤها والتمسوا مساعدته . وحين لا يستطيع الذهاب إليهم (واضح أن ظهوره شخصياً ليس بدون حدود) فإنه يبعث أحياناً بديلا له عطراً غريباً ينتشر فى كل أنحاء الغرفة ويشمه كل من فيها بما فى ذلك المفطورون على الشك فيه ، عطراً يذكرهم بشذا غابة البنفسج . إنه « رائحة القداسة » التى ذاع صيتها ووصفها ثقات كثيرون منذ أوائل العصور الوسطى . وجدير بالذكر أن كثيرين من اليائسين الذين تضرعوا إليه تم لهم على يديه الشفاء من أمراض فتاكة وأحياناً من أمراض معضلة كما تشهد بذلك شهادات الأطباء ، أو تخلصوا مما عانوه من أسى وكرب .

وقد أصبحت اليوم بلدة سان جوفنى روتوندو الصغيرة مركزاً لنشاطات محمومة ، بعضها يثير الشك ، وكلها تستغل اسمه ووجوده ، وتنظر الكنيسة إلى معظمها نظرة ارتياب وتحذر أتباعها المؤمنين من أن يقعوا فريسة استغلال محتمل ، وبالبلدة مستشفى كبير تموله تبرعات من الخارج ، وبها أيضاً خانات وأنزال ومطاعم وحوانيت تبيع التحف والتذكارات المقدسة ، وهناك كذلك وسطاء مشكوك فيهم يعدون كل زائر بمقابلة الأب بيو أو حتى بمعجزة من معجزاته لقاء مبلغ ضئيل يدفعه لهم .

أما الأب بيو نفسه فإنه يبدو خالى الذهن من كل هذا ولا يشترك فيه ، وإنما هو يقيم القداس فى ساعة مبكرة جداً كل صباح — كما فعل دائماً —

أمام حشد ضخم يضم السائحين الوافدين إلى البلدة ليوم واحد ، والحجاج الذين يلتمسون المغفرة ، والمعذبين الذين يرجون الخلاص من آلامهم ، وعدداً وفيراً من أتباعه الورعين الذين خلفوا كل شيء وراءهم ليعيشوا فقراء على مقربة منه . ويستمر الأب بيو فى قداسه مدة تزيد على الساعة ، وذلك لأنه ينطق كل كلمة فى وضوح تام وخشوع عظيم ، ويستغرق أحياناً فى نشوة دقائق طويلة ، ثم يتحدث بعد القداس إلى عدد قليل من الناس هم أولئك الذين حصلوا على إذن بمقابلته ، وحديثه حلو ظريف يختلف كلية عن عبارات النهى والتحريم التى تصدر عن ناسك متقشف أو قديس متصوف ؛ قل إنها عبارات قس ريفى طيب نشأ من أصل قروى . . . الحق أن الأب بيو هو كذلك .

ومن بين أتباع الأب بيو قائد قاذفة قنابل أمريكى كان فى أثناء الحرب العالمية الثانية عائداً من مهمة فى البلقان ، وأراد قبل أن يهبط بطائرته فى قاعدته فى بلدة فوجا Foggia أن يتخلص من القنابل التى لم يستعملها ؛ وبينما هو يحلق فوق بلدة سان جوفنى روتوندو ، وكان على وشك فتح خزان القنابل ، ظهر أمامه فجأة بين السحب سحابة ضخمة فى شكل راهب ملتح ، وقد رفع ذراعيه ، وراح يأمره فى صرامة بألا يسقط القنابل فى هذه البقعة . وبلغ من تأثر القائد الأمريكى أنه لم يجد مناصاً من أن يطيع الأمر . وبعد ذلك بسنوات عديدة ، حين غدت مغامرة هذا القائد فى طى النسيان تقريباً ، ولم تعد تتجاوز نادرة من النوادر التى تثير الشك وتروى بعد العشاء ، تصادف أن قرأ مقالا عن الأب « بيو » فى عدد قديم من إحدى المجلات ، فأدرك على الفور معنى ما رآه وما حدث له فوق بلدة سان جوفنى روتوندو ، فتوجه إلى أبوليا وقابل الراهب واعتنق الكاثوليكية وصار من أتباعه .

* * *

وربما لا يزال يفد إلى إيطاليا عدد وفير من الأجانب لأسباب على النقيض من ذلك تماماً ؛ فإن إيطاليا لهؤلاء هى واحدة من بين آخر بلاد العالم الغربى، لم يفن فيها الإله الإغريقى العظيم بان Pan ، فهى بلد لا تزال الحياة فيه وثنية مرحة ، لم تحدث فيه المسيحية تغييراً عميقاً فى تقاليد بلاد اليونان وروما القديمة وعاداتها البهيجة ، وكأن النهضة لم يكن لها فيها أثر عظيم . ويقول هؤلاء إن الدين إن هو إلا طلاء رقيق فوق عادات أقدم ، فإن كثيرين من القديسين الذين يبجلون بوصفهم حماة أقوياء لقرية أو أخرى ليسوا سوى آلهة محليين فى شكل خفى ، وفى بعض الأحيان تنم عنهم أسماؤهم ، فمثلا يعبد الأهالى المقيمون على جوانب جبل إتنا Aetna فى صقلية قديسة تدعى « فنرينا Santa Venerina » يقال إنه من بين معجزاتها أنها تستطيع إخصاب النساء العاقرات على غرار الإلهة القديمة فينس Venus التى تعرف باللغة الإيطالية باسم Venere ؛ ثم أليست هناك صلة بين اسم قديس نابولى وراعيها الأسقف الموقر يانوريس Januarius الذى يصبح دمه المتجمد سائلا مرتين فى السنة والذى كثيراً ما صدت تذكاراته المقدسة حمم بركان فيزوف وأوقفتها عند أبواب المدينة فى أثناء أعنف ثورانه — نقول أليست هناك صلة بينه وبين الإله يانوس Janus حامى كل المداخل والأبواب عند الرومان ؟ ويقولون إن الكنيسة تعرف كل ذلك أو ترتاب فيه ، ولكنها بحكمتها الكبيرة تغض الطرف عنه على اعتبار أنه لا يتضارب مع عقيدتها الأساسية فى وجود معجزات للقديسين . فإن رفع اسم قديس من قائمة القديسين يتطلب من الكنيسة من الجهد والمشقة قدر ما يتطلبه منها اصطناع آخر . والواقع أنه بعد أبحاث ومداولات كهنوتية دامت سنوات طويلة فقد قديسان اثنان فقط مرتبتهما ، وهذان هما : القديس جورج وهو القديس القديم حامى جنوه ومملكة إنجلترا وبلاد أخرى

كثيرة والذى تجد صورته على كل جنيه ذهب تقريباً، ثم القديسة فيليومينا Philomena التى كانت قد رفعت إلى منزلة القداسة نتيجة خطأ عالم من علماء القرن التاسع عشر أساء فهم كتابة قديمة .

ويأتى الأجانب إلى روما ليتذوقوا طعم الحياة الحلوة la dolce vita فى شارع فينيتو Via Veneto (شارع رئيسى فى روما) ، وفى النوادى الليلية ، وفى الدور القائمة على طول طريق آبيا Via Appia ، وفى استوديوهات السينما أو فى مراسم الفنانين فى حارة مارجوتا Via Margutta ، ويلجأ بعضهم إلى اللهو والمجون على الشواطئ المنعزلة أو فى الكهوف والغابات المهجورة حيث يستطيعون أن يستحموا وهم عرايا ، وأن يشربوا الخمر ويأكلوا طعاماً بسيطاً بأيديهم ، وحيث يمكنهم أن يعاشروا الفلاحين Contadini وصيادى الأسماك، وأن يعيشوا على مقربة من الطبيعة وفى انسجام مع أهواء الغرائز البشرية ونزواتها . وإيطاليا لهؤلاء هى جنة الأرض حيث لا تعرف الخطيئة ، وحيث لا يزال الإنسان حيواناً مقدساً ، وحيث كل أنواع الحب طاهرة ، قل إنها البيئة الصالحة لشهور العسل والعلاقات الغرامية والاتصالات والمغامرات سواء كانت هذه كلها مشروعة أو غير مشروعة ، طبيعية أو شبه طبيعية أو غير طبيعية أو شاذة .

ويفد إلى إيطاليا سيدات ناضجات لا يزلن يشعرن فى أعماقهن بشبابهن ، ويتطلعن إلى تجديد الأحاسيس التى كانت تهزهن طرباً فى مرحلة المراهقة ، كما يفد إليها رجال جاوزوا سن الشباب يتوقون إلى حب فتيات أصغر منهم سناً بكثير ، ويتدفق إلى إيطاليا أزواج من السيدات فقط أو أزواج من الرجال فقط أو كهول مع زوجاتهم فيستقر الرجل وزوجته فى مكان ما ويخلدان إلى تدبير شئون المنزل وحياته الرتيبة البورجوازية ، يقوم الرجل بشراء السلع وتتولى الزوجة

أعمال الطهى ، الأول يتكفل بالغسل والثانية تتعهد إصلاح الجوارب ، ويقوم الاثنان معاً بتلميع الأوانى الفضية ، وهناك عدا كل هؤلاء رجال أدنياء يأتون إلى إيطاليا بمفردهم ويجوسون فيها ويجدون أن ارتكاب الخطايا الدنيئة الشاذة مع أبناء الفلاحين المعدمين أسهل عليهم فى إيطاليا منه فى غيرها من البلاد .

ثم هناك آخرون يتطلعون إلى الأشياء التى احتفظت بنكهاتها الطبيعية ، تلك النكهات التى تعمل المدنية الصناعية على أن تستبدل بها نكهات عارية مبتذلة ، فيحب هؤلاء الأنبذة الأصيلة ، والجبن المحلى الذى قد يكون غير معروف على بعد أميال قليلة من مكان صنعه ، والفاكهة التى تقطف لتوها فور أن أنضجتها أشعة الشمس ، وقنافذ البحر التى تشطر إلى نصفين بسكين صدئ حين لا يزال الماء الملح يتساقط منها وتؤكل مع قطرات قليلة من عصير الليمون ، والخبز المخبوز فى البيت pane casareccio ، إلى جانب عشق الفتيات الفلاحات الغزيرات الشعر اللائى تفوح منهن رائحة عرقهن . ويستسيغ هؤلاء الأجانب قبل كل شىء مايعتقدون أنه انفعالات صادقة للإيطاليين . والواضح أن الإيطاليين يخجلون منها ، وقلما يحاولون إخفاءها — ويتسم الإيطاليون بصراحة صارخة ، وهى صفة مثيرة قوية تبهج الأجانب الذين ألفوا ما اتصف به أهل الشمال من ضبط النفس والبرود المتصنع أو الحقيقى . ولا يزال هؤلاء الناس ينشدون — شأن ستاندال — « ذلك المزيج من الحب والفجور والصراحة » ، وهو مزيج واضح أنه لا يزال يميز الإيطاليين . « فإن الرجل الجاد يندر وجوده بينهم قدر ندرة الرجل الفطرى الساذج فى باريس » ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك : أو فى أى مكان آخر فى البلاد الشمالية . ثم هم يؤمنون مع ستاندال بأن « الموسيقى تحيا فقط فى إيطاليا » بالإضافة إلى فنون حسية أخرى ، وأنه « فى هذا البلد الجميل يجب على المرء أن يعشق فحسب ،

فالحب لذيذ سائغ هنا ، على حين أنه فى أيه جهة أخرى لا يعدو أن يكون صورة ممسوخة منه » .

وفوق ذلك فإن إيطاليا اليوم هى معلمة فنون كثيرة ، فقد حافظ الإيطاليون على مجموعة منوعة من الحرف والمهارات التى لا تزال فذة ونفيسة فى العالم المعاصر ؛ فإن الأجانب يتعلمون منهم فن نحت الرخام ، وتدريب خيل السباق على القفز وقيادة سيارات السباق ، وعمل الأفلام السينمائية القاسية من المفتونين بالجنس والشخصيات المحرومة فى الأحياء الفقيرة ، كما يتعلمون منهم تصميم هياكل السيارات الأنيقة ، وتصميم القمصان والملابس والأحذية وكل أنواع الأجهزة الحديثة ، وكذا تصميم المبانى الحديثة على غرار الطراز الجرىء Bravura style الذى سار عليه المعمارى الإيطالى الشهير بيير لويجى نرفى Pier Luigi Nervi أستاذ المنشآت الخرسانية العظيم ؛ وفضلا عن ذلك هناك فتيان وفتيات من لاعبى البيانو يختارون اختياراً دقيقاً من مختلف أنحاء العالم ويدرسون بالمجان مع الأستاذ الإيطالى الغامض بنديتى ميكلانجلى Benedetti Michelangeli فى قصر يعيش فيه على مقربة من تورينو ؛ كما أن هناك شباناً وشابات من منشدى الأوبرا ومؤلفيها ومديريها الأجانب يتدربون تدريباً شاقًّا فى فصل الشتاء فى أوبرا روما ، وبعد تخرجهم يعرضون أعمالهم فى مسرح سبوليتو Spoleto فى نهاية العام ، أى حين لا يستخدمه جان كارلو مينوتى Gian Carlo Menotti . ثم هناك طلاب الفن الأجانب ، ويعيش هؤلاء ويعملون فى الأكاديميات القديمة المجيدة التى أقامتها فى روما لهذا الغرض دول أجنبية ، منها ما يتبع الدول الغربية مثل الأكاديمية الأمريكية القائمة فوق تل جانيكيلو Gianicolo ، والأكاديمية الفرنسية التى تشغل دار مديتشى Medici الفخمة على مقربة من كنيسة ترينيتا دى مونتى

والدنمركية ، والإسبانية ، والألمانية الغربية ، والبلجيكية ، Trinita dei Monti المتفرقة في أنحاء المدينة ، ومنها — للعجب — ما يتبع الدول الديمقراطية الشعبية الماركسية نذكر منها : أكاديمية المجر ، وبولندة ، ورومانيا ، ومنها ما يتبع الدول المحايدة مثل الأكاديمية المصرية القائمة في حدائق بورجيزي .

ويلاحظ أن بعض هؤلاء الأجانب الذين يتعلمون مختلف الحرف والمهارات والفنون في إيطاليا يقومون في النهاية بعمل الأشياء على الطريقة الإيطالية alla Italiana وعن وعي يفوق وعي المواطنين ، وبالتالي يبزونهم في مهنتهم ، مثال ذلك أنه يحدث في كل عام تقريباً في مهرجان الخيل أن يتفوق راكبوها الأجانب الذين يتبعون الأسلوب الإيطالي في القفز ، على الأبطال المحليين ؛ كذلك يتفوق السائقون الأجانب في سباق مونزا Monza للسيارات وهم يقودون سياراتهم الإيطالية الصنع « الفراري أو المزاراتي Maserati » على السائقين المحليين . على أن الإيطاليين لا يزالون كما كانوا في الماضي في كثير من المسائل تلاميذ لكثيرين من المغتربين الأجانب ، فالتليفزيون والكوميديا الموسيقية الرائعة هما احتكار الشبان الأمريكيين الذين تدفع لهم إيطاليا أجراً سخياً ، كما يعمل واضعو الألحان ومصممو المناظر من المهاجرين الروس في كثير من دور الأوبرا والمسارح ، كما يضع مخرجو الأفلام الأمريكيون للمنتجين الإيطاليين كثيراً من الأفلام التاريخية الملونة التي تدر عليهم ربحاً طائلا . وعلاوة على ذلك هناك فصول تابعة للجامعات الأمريكية يقوم فيها أساتذة أمريكيون بتدريس إدارة الأعمال والإدارة العامة للإيطاليين ، ويؤدون رسالتهم في حماس يشبه حماس المبشرين ، ويطوف بالريف أمريكيون من طائفة الكويكرز يعلمون الأميين من المواطنين أصول القراءة والكتابة ، وفي كثير من الأحوال، يساعد الخبراء والمنظمون السوفييت إخوانهم الشيوعيين

الإيطاليين ، ويعمل فى المصانع الإيطالية فنيون ومهندسون وكيائيون ألمان ، كما يعمل مستشارون أمريكيون فى إدارة الأعمال ، ولشركات الإعلانات الإنجليزية والأمريكية فروع فى ميلانو وروما . وتستخدم إيطاليا عدداً وفيراً من خبراء الطباعة السويسريين ، ومن مدربى كرة القدم المجريين والإسبان . ويلاحظ أن كل هؤلاء — شأنهم شأن سيرجون هوكوود فى الماضى — يجدون الحياة فى إيطاليا لطيفة منشطة وإن بدا تلاميذهم الإيطاليون عنيدين أحياناً ولا يتقدمون فى سهولة ويسر . .

ولعل خير ما يوضح لنا العوامل المتناقضة التى تدفع بعض الأجانب إلى القدوم إلى إيطاليا هى المقارنة بين فريقين من الوافدين إليها : فريق المتعاظمين المتحذلقين محدثى النعمة محبى الظهور Snobs ، وفريق غير المتكبرين ممن لا يتعاظمون ولا يحبون الظهور ، فالمتعاظمون يفدون إلى إيطاليا كما وفدوا إليها عبر قرون طويلة ، وكأنها جنتهم الخاصة بهم ، وهى مربعهم السعيد للصيد والقنص ، ومن ثم يسهل عليهم أن يخلقوا من جديد حياة الماضى البعيد ، حياة الأبهة والفخامة التى تتعذر عليهم فى وطنهم لما تتطلبه من نفقات باهظة وما تتعرض له من سخرية ، فهناك فى إيطاليا قصور ذات أسماء تاريخية ، مجهزة بأثاثها ، يمكن أن يستأجرها هؤلاء فى سهولة حيث لا يريدها أحد ، وكذلك يمكن فى ساعات قليلة شراء أو استئجار بزات الخدم المطلوبين لها واستخدام هؤلاء باليوم أو بالسنة بما فى ذلك رئيسهم Maggiordomo والطهاة المهرة ؛ ويمكن فى الحالات العاجلة إتمام كل هذه الإجراءات بين عشية وضحاها ، وذلك عن طريق شركات متخصصة فى هذه العملية . ففى قليل من الصبر ودون صعوبة استثنائية تذكر ، تستطيع هذه الشركات معرفة الضيوف الكبار من أصحاب الأسماء الرنانة التى ترجع

إلى الحروب الصليبية أو تنتسب إلى مشاهير البابوات ، ولا يزال هؤلاء — مثل شخصيات روايات القرن التاسع عشر — لا يعملون شيئاً إطلاقاً ولكنهم يحسنون صيانة ثيابهم ، ولا تشوب سلوكهم شائبة ، ورغم أنهم لا يملكون من المال سوى قدر ضئيل فإنهم يميلون لحياة الأبهة والمظاهر ويحبون أن يدعوا إلى الحفلات وأن تكرم وفادتهم . وفى بعض الأحيان تذاع دعوات بعض المناسبات الهامة فى الإذاعة الموجهة إلى كل بلاد أوربا والولايات المتحدة فيتدفق إلى إيطاليا الصحفيات ومحررات عمود الاجتماعيات فى الصحف ، يتدفقن من بلاد نائية : من لندن وشيكاغو وهوليوود ليصفن فى عبارات براقة وليمة عشاء أو حفلا رائعاً ؛ ومثل هذه الأمور توغر صدور الإيطاليين حيث لا يشار إليهم فى الصحف المحلية .

أما غير المتعاظمين الذين يمقتون التظاهر والتباهى فإنهم يندفعون أمواجاً إلى إيطاليا ليستمتعوا بصحبة أهلها اللطاف المنطلقين على سجيتهم ، المتحررين من العقد ، ولا يكترثون إطلاقاً بالإمارات الدالة على مراتب الناس ، فإن المحاولة المبتذلة من شخص ما لإجبار الناس على الاعتراف بمركزه الاجتماعى وإبهارهم بما له من جاه وثروة لعبة لا يهتم بها سوى قلة صغيرة نسبياً من الإيطاليين ، وهؤلاء معظمهم من أصل أجنبى ، أو لهم صلات بالخارج ، ومن ثم فهم يحاكون عادات الأجانب إما لأنهم تلقوا دراساتهم فى بلاد أجنبية أو نشأوا فى إيطاليا على يد مربيات إنجليزيات ؛ ومنذ وقت طويل اكتشفت الكاتبة مدام دى ستايل Madame de Stael أن الإيطاليين عادة لا تبهرهم الألقاب والمظاهر ، ولم تستطع — وهى السيدة التى أضفى عليها زوجها ثراء ونبلا وذاع صيتها — أن تخفى سخطها ، فكتبت شاكية تقول : « ليس للألقاب وتفاوت المراتب أثر يذكر فى إيطاليا . . . والإيطاليون لا يستجيبون للنزعات الأرستقراطية ؛ ولما كان المجتمع يعتبر نفسه حكماً

على لاشىء فهو يجيز كل شىء ... وليس هناك صالون أدبى ، ولا مبتكرات بسيطة يومية يتألق بها » . كذلك أشار ستاندال إلى أن المركيزة التى تنتسب إلى أعرق الأسر وأنبلها قد تصادق مدرس رسم ساذجاً ، وأن الغرور أبعد من أن يكون إحساساً مسيطراً على الإيطاليين . . وأن الرجل الذى يعيش على دخل قدره ألف وخمسمائة فرنك يتحدث إلى الرجل الذى يبلغ دخله ستة ملايين فرنك كأنه يتكلم مع زميل له على قدم المساواة ، وهذا أمر لا يمكن تصوره فى إنجلترا » .

وتوفى ج. پ. مورجان الكبير J.P. Morgan the elder فى روما فى فندق جراند الذى كان ينزل به مرة على الأقل كل عام . وجدير بالذكر أنه جاء أساساً إلى إيطاليا ليأكل فى المطاعم الصغيرة Trattorie حيث لا يعرف أحد من يكون هذا الأمريكى الضخم ذا الأنف المنتفخ ، وليتجول فى الشوارع ليلا وهو يسترسل فى الحديث على نحو لا يستطيعه فى نيويورك مع واحد من أعز أصدقائه هو الصحفى الإيطالى المفلس سالفاتورى كورتيزى Salvatore Cortesi ، فيحدثه عن معنى الحياة والموت والحب والإله . وفى أوائل القرن التاسع عشر كان سحر كابرى وتوارمينا Taormina وأمثالهما من الأماكن — قبل أن تتحسن وتتحول إلى مصايف ومشات مطروقة باهظة النفقات — كان هذا السحر يكمن فى المساواة السلوكية والاجتماعية بين الجميع ، وهو ما لم يكن متوفراً فى أية بقعة أخرى ؛ فكان الثائرون الروس ، وأصحاب الملايين الألمان ، والأمريكيون ، واللوردات الإنجليز ، والمصورون والشعراء المفلسون ، أو المتشردون والمتسكعون المحليون والفلاحون والبحارة أو الصيادون — كان كل أولئك يرتدون الثياب القطنية الرخيصة نفسها ، ويأكلون فى كثير من الأحوال فى المطاعم الرخيصة Osterie عينها ويشربون الأنبذة نفسها ، ويقضون وقتهم فى تبادل الأحاديث التافهة ويعيشون حياة من نوع واحد .

وهناك أناس من ذوى الشأن لا يزالون يكتشفون اليوم المتع المنعشة المريحة للنفس ، متع البساطة والبعد عن الأضواء ، فمثلا كان يتردد على إيطاليا ملك السويد (الراحل) وأسرته مرتديا ثياباً قطنية بسيطة ليواصل هوايته فى البحث عن الآثار القديمة ، فيعكف على التنقيب فى مقابر الإترسك Etruscs بحثاً عن مخلفاتهم البرونزية والفخارية دون أن يستلفت الأنظار ، كذلك أقامت ملكة هولندة لنفسها كوخاً متواضعاً على شاطئ البحر فى بلدة بورتو إركولى Porto Ercole ، واشترت الأرملة بتينا Bettina صديقة على خان جزءاً من شاطئ سردينيا . وعلى حين يستمتع المشهورون بلذة كونهم بشراً عاديين على سبيل التغيير ، يجد المغمورون من الوافدين إلى إيطاليا نوعاً آخر من الإحساس بالبهجة والراحة ، ذلك أنهم يهربون من عذاب كونهم مغمورين فى أماكن ينعم فيها غيرهم بتسلط الأضواء عليهم . كما يستسيغون أيضاً شيئاً آخر يفتنهم ويجذبهم ، أعنى الحياة فى القرى الجميلة الصغيرة التى لا تزال غير معروفة إلا للقلة فقط والتى قد تصبح شهيرة بعد عشر سنوات أو عشرين سنة ، أى الأماكن التى يتجول فيها العظماء فى ثياب بالية وبتكلمون مع كل شخص ، فنى هذه الحالة يكون من السهل عادة للأجنبى البسيط أن يؤخذ على أنه من العظماء أو مساو لهم ، ويستطيع أن يتعرف على كثيرين وهو أمر متعذر أو قل إنه مستحيل فى أى مكان آخر .

والكثير من الأسباب التاريخية التى تسوغ المجىء إلى إيطاليا هى أسباب خيالية تماماً . أجل لا شك فى أن مقر البابوية قائم فى روما دون غيرها ، وأن بركان فيزوف قائم فى نابولى وحدها ، وأن أطلال بومبى موجودة فى بلدة بومبى فقط ، وأن روائع الفن الفلورنسى موجودة فى فلورنسة فحسب ، ولكن هناك أيضاً فى بلاد أخرى مفاتن كبيرة الأهمية تتميز عادة بحسن موقعها ، وهى أحياناً تعادل

مفاتن إيطاليا أو تفوقها . خذ مثلا الجو الذى تغنى به الشعراء عبر القرون ، وكان فى كل العصور من المسوغات الرئيسية للرحلة إلى إيطاليا ، فقد دأب الأجانب على أن يصفوا إيطاليا بأنها « إيطاليا المشمسة » ، وهو وصف ابتدعه دون شك الإنجليز والروس والاسكندنافيون ، أعنى الشعوب التى قاست من سوء جو بلادها الذى يعتبر أسوأ أجواء العالم المتمدين . وإن ما قصده هؤلاء هو أن الشمس لدهشتهم تسطع فى إيطاليا فى فصل الصيف . ومعروف طبعاً أن الشمس تسطع فى الصيف فى بلاد كثيرة أخرى . ترى كم من الشماليين المساكين وقعوا فريسة لهذه الفكرة المضللة ، أولئك الذين قاسوا من مرض الرئة فأرسلوا إلى روما أو فلورنسة أو بيزا Pisa لقضاء الشتاء فيها ، فتدهورت صحتهم ، وهلكوا فى المطر والبرد والهواء الرطب البارد ؟ ومن بين ضحايا هذه الفكرة نفسها يمكننا أن نعتبر مئات من الشخصيات الخيالية فى قصص القرن التاسع عشر ، نذكر منها شخصية أزوالد — لورد نيلفل Oswald, Lord Nelvil البطل صاحب المغامرات الجنونية الوارد ذكره فى رواية مدام دى ستايل Corinne ، فقد اضطر فى القصة أن يترك بلده أدنبره لأن صحته قد أضناها الألم المبرح ، وخشى أطباؤه أن يكون مصاباً فى رئتيه ، فأشاروا عليه بالتوجه إلى وسط إيطاليا ليفيد بهوائه ، ولكن صحته لم تتقدم .

الواقع أن جو شمال إيطاليا يماثل تقريباً جو معظم بلاد القارة الأوربية ، بل إن ميلانو وتورينو أبرد شتاء من كوبنهاجن وأحر صيفاً من فاليتا (مالطة) والجزائر . أما وسط إيطاليا وجنوبها فإنه يشبه تقريباً جو بلاد أخرى فى حوض البحر المتوسط ، وهو أكثر اعتدالا على الساحل منه فى الداخل ، ولكن يفضله جو هونج كونج وشبه جزيرة القرم . ومما لا شك فيه أن الشتاء ألطف فى مصر

وفلوريدا وواحات ليبيا والمغرب والجزائر منه فى إيطاليا ، أما جو روما فله سمعة سيئة حيث تهب عليها «الشيروكو» Scirocco مائتى يوم فى السنة تقريباً ، والشيروكو هى رياح جنوبية حارة رطبة تملأ السماء بسحب منخفضة رطبة تجعل العفن الفطرى ينمو فى كل مكان ، وتلطخ الرطوبة الجدران ببقع كئيبة . وتهد من قوى الناس فتجعلهم ضعافاً منحرفى المزاج سريعى الغضب .

وللكاتب الإنجليزى نورمان دوجلاس N. Douglas كتاب سماه « الشيروكو » نسبة إلى هذه الرياح ، فعرفها بأنها « لفحة مدمرة من شأن لمستها الحارة الرطبة أنها تعجل الموت والتعفن » . أما مدينة فينتسيا فإنها تقاسى من المطر الكئيب معظم أيام الخريف والشتاء وأوائل الربيع ؛ وليس هناك فى العالم جو أكثر كآبة من هذا الجو وبخاصة حين تتحول الرياح إلى الجنوب الشرقى ، فتفوح من المدينة رائحة الكرنب الفاسد والمياه الراكدة . يروى أن أوسكار وايلد Oscar Wilde زارها فى فترة من هذا الفترات وطاف بقنواتها فى زورق gondola أسود اللون فعلته الكآبة وكتب يقول : إنه شعر وكأنه يطوف فى تابوت عبر مياه المجارى ! . . كذلك أوحت فينتسيا إلى توماس مان Thomas Mann بأفكار الموت .

أو خذ سبباً آخر من الأسباب التقليدية للرحلة إلى إيطاليا ، ونعنى به الطعام الجيد . الواقع أن الطعام جيد عادة فى إيطاليا ، فهو دائماً فى بعض المطاعم الشهيرة والصغيرة لا تشوبه شائبة ، ويندر جداً ألا يكون جيداً ، ثم هو فى كل المطاعم تقريباً ليس رديئاً قط ، فضلا عن أنه يتميز بميزة خاصة ، فقلما يكون مريباً أو تضفى عليه صفات ليست له ، فالأصناف تفوح منها رائحتها الحقيقية ومظهرها هو كما ينبغى أن يكون ، وكذلك مذاقها ، ويحتفظ كل عنصر فيها بطبيعته ، ويمكن تمييزه تمييزاً واضحاً ، ولا يفسد شكلها أو مذاقها صلصة حادة ، ويؤكل كل

شيء طازجاً وفى موسمه حين يكون فى أحسن حاله : فلا تجلب من المخازن فاكهة أو خضر لها مذاق الورق الرطب شأن كل المنتجات الصناعية ، أجل لا يقطف شيء هنا قبل موعده ثم يخزن حتى ينضج ، ولا تقدم أصناف مجمدة أو محفوظة حفظاً كيمائياً . وللطعام الإيطالى ألوان زاهية بهيجة ، فاللون الأصفر يتميز به الأرز المطبوخ على الطريقة الميلانية ، واللون الأحمر واضح جلى فى سلطة الطماطم وفى الإسباجتى المخلوطة بصلصة الطماطم ، واللون الأخضر واضح كذلك فى البروكولى broccoli ، والأبيض فى الفاصوليا التوسكانى ، والأرجوانى فى الأخطبوط المسلوق ، والذهبى فى الفيتوتشينى ذى الزبدة الوفيرة ، الحق أنها كلها ألوان صافية خالصة مثل ألوان أعلام الدول ، أوقل ألوان أقلام الرسم التى يستعملها الأطفال . كما تشبه فطائر البيتزا Pizza اللوحات التى يمزج عليها الرسامون ألوانهم وتكاد تصور غروب الشمس . أما الأنبذه فإنها تتألق كالجواهر حين تتخلل أشعة الشمس زجاجاتها : ألوانها صافية ، وشذاها قوى يسهل كشف التلاعب فيها .

والوجبة الكاملة جيدة فى إيطاليا ، والواقع أنها تفضل أية وجبة تقدم للمرء فى بلاد أكثر تقدماً فى الشمال أو فى إسبانيا ، ثم هى أفضل بكثير من وجبة فى بلاد اليونان ، ولكن يجب أن نقر أن الطعام والأنبذة فى إيطاليا ليست جيدة تماماً قدر جودتها فى فرنسا ، فإن أسلوب الطهى الإيطالى يعرض الطبيعة فى أحسن أحوالها فحسب ، أما أسلوب الطهى الفرنسى فإنه يتحدى الطبيعة ويقهرها ويبتكر طبيعة جديدة وفق هواه . حقاً إن الطهى الفرنسى فن . وبينما الأنبذة الإيطالية هى ثمرة الاجتهاد حيث هى مجرد خلاصة عصير عنب معين بعد التخمير فإن الأنبذة الفرنسية هى مبتكرات العبقرية ، هى مزيج صنعه وبرع فيه خبراء

محنكون . لا شك أن الفرنسيين يدبرون هذه الأمور على نحو أفضل .

أو خذ آثار إيطاليا بوصفها سبباً آخر للرحلة إليها . لا جدال فى أن بعضها فريد فذ ، وربما نجد فى جنوب إيطاليا أو كما كانت تسمى اليونان الكبرى Magna Grecia معابد يونانية لاتزال قائمة على أعمدتها الأصلية وآثاراً يونانية أخرى يزيد عددها على مثيلاتها فى اليونان الصغرى ، ولكن توجد آثار أقدم وأكثر شهرة وروعة فى سائر أنحاء العالم ابتداء من أجمة يوقاطان Yucatan إلى أنخورفات Ankhor Vat ، ومن صحراء العراق إلى إيران ، ومن مصر إلى الهند . كما أن هناك فى مختلف بلاد العالم قصوراً شاهقة ومتاحف وروائع يمكن أن يشاهدها المرء ويعجب بها ، وكلها لا تقل جمالا عن مثيلاتها فى إيطاليا ، وقد تفوقها أحياناً كما يشهد بذلك الإسكوريال Escorial ، ومتحف البرادو El Prado فى إسبانيا ، وقصر الشتاء ، ومتحف الهرميتاج Hermitage فى لينينجراد . أو خذ الفن ، فإن الفن المعاصر أكثر حيوية وروعة فى باريس ونيويورك منه فى إيطاليا . كذلك يمكن مشاهدة الأوبرا الرائعة وسماعها فى فينا ولندن ونيويورك ، كما يمكن أن نجد الموسيقى السيمفونية الجيدة فى فينا وميونخ ودوسلدورف Düsseldorf. وبرلين وكولون وفرانكفوت وباريس وفى نيويورك وبوسطن وعشرات من المدن الأمريكية الأخرى ، وبطبيعة الحال فى الاتحاد السوفييتى . ثم إن رقص الباليه ردىء فى إيطاليا على حين أنه ممتاز فى موسكو ولينينجراد ونيويورك ولندن ، بل فى كوبنهاجن أيضاً.

ترى هل المناظر الطبيعية الريفية الفاتنة ، والجبال المهيبة ، والخلجان المتغايرة الألوان ، ومساقط المياه الرومانتيكية ، والبحيرات الجذابة ، والجزر الجميلة هى التى يعتقد السائحون الوافدون إلى إيطاليا أنه لابديل لها ؟ لا شك أن مفاتن الطبيعة والمناظر الخلابة وفيرة فى إيطاليا ، ولكنها متوافرة أيضاً فى غيرها من

البلاد ، فالطبيعة عادة أكثر روعة حيثما لم يفسدها الإنسان حتى فى الولايات المتحدة . وليس بإيطاليا غابات قديمة تتحول ألوانها فى الخريف من اللون الذهبى إلى القرمزى كما يحدث فى شمال ولاية نيويورك ونيوإنجلند ، كذلك ليس بإيطاليا وديان ضيقة Canyons منحدرة الجنبات تجرى فى أسفلها جداول ، وليس بها صحارى ، ثم إن ريودى جانيرو واستانبول وهونج كونج لا تقل جمالا عن خليج نابولى . وجدير بالذكر أن جبال الألب تبدو من الجانب الفرنسى والسويسرى والنمساوى رائعة بقدر ما تبدو فيه من الجانب الإيطالى، وفضلا عن ذلك هناك جبال شاهقة أخرى أكثر ارتفاعاً وصخوراً وانحداراً ، وبعضها أقدم وأكثر وعورة ، ثم هناك فى أجزاء أخرى من أوربا مئات من البحيرات تكسو الغابات المنحدرات المحيطة بها ، وكثير منها لا يقل جمالا عن بحيرات إيطاليا . نعم ، لا شك أن مساقط المياه فى إيطاليا خلابة ، ولكنها هزيلة ضئيلة إذا قورنت بأشهر الشلالات فى إفريقيا وأمريكا . أما أنهار إيطاليا فإنها لا تعدو أن تكون جداول صغيرة بالنسبة إلى الأنهار الكبرى الأربعة أو الخمسة فى العالم . ثم الجزر ؟ إن الجزر اليونانية أكثر عدداً وأكثر احتفاظاً بحالتها الطبيعية من الجزر الإيطالية علاوة على أنها أدفأ منها على مدار السنة .

ويقر البعض أن الحياة الحلوة la dolce vita هى التى تشدهم إلى إيطاليا . وهذا الاسم هو كل ما هو جديد ، فإن الحياة الحلوة جذبت على الدوام على مر القرون السائحين إلى فينتسيا فى أشهر مهرجاناتها الكبير (الكرنفال) وإلى غيرها من المدن فى أوقات مختلفة من السنة . ولكن هل الحياة الحلوة فى إيطاليا هى حقًّا أكثر حلاوة منها فى أى مكان آخر ؟ هل هى مثلا أحلى من الحياة فى باريس أو فى لاس فيجاس أو نيويورك أو ميونخ أو هوليوود ؟ إن المقارنات مستحيلة ، فالحياة المرحة لسوء الحظ هى شىء لا يمكن دواماً العثور عليه بالسفر إلى بقاع معينة

فى العالم ، بل هى غالباً سجية يحملها الإنسان معه بين جنبيه أو قل إنها قدرته على أن يحدث مغامرة جذلة أينما يذهب. فكثيرون ممن يزورون روما يشعرون بخيبة الأمل حين يكتشفون أن الحياة فيها يمكن أن تكون محتشمة متزمتة كما كانت فى وطنهم أو كما هى فى الواقع لغالبية أهلها .

ترى، هل إيطاليا إذن هى المكان المثالى الذى ينعم فيه المرء بتطبيق القوانين تطبيقاً متراخياً غير فعال ؟ وهل هى الملاذ من طغيان ضريبة الدخل وغيرها من الضرائب ؟ إن العالم مملوء بجمهوريات أو إمارات صغيرة بهيجة يلقى فيها الثرى الأجنبى الذى يقيم بها كل احترام وتبجيل ، وينظر إليه على أنه خارج نطاق القانون ؛ وفى وسعه عن طريق صديق يشغل وظيفة مرموقة ، أو هدية يقدمها إلى موظف فى الوقت المناسب ، أن يوفر على نفسه متاعب شتى . أما من حيث تحاشى الضرائب فهناك أماكن أخرى أفضل من إيطاليا . مثال ذلك أن الإيطاليين أنفسهم يفضلون سويسرا لهذا الغرض على بلدهم ؛ كما تشتهر مونت كارلو ولكسمبرج وليختنستين Liechtenstein بأنها خير البلاد لإخفاء الثروات الطائلة . أم يريد هؤلاء الأجانب الراحة التى تشبع غرورهم والتى يوفرها لهم جمهور أنيس كريم لطيف شهم رائع ماهر ، جمهور مستعد لأن يقدم من بين أفراده ودون عناء يذكر حرفيين وصناعاً مهرة ومنافقين ؟ الواقع أن مثل هؤلاء الناس المتوددين موجودون فى كثير من البلاد ، بل فى كل مكان قامت فيه حضارة قديمة راقت واضمحلت دون أن تخلق بعد صيغة محلية لمجتمع صناعى حديث .

واضح أن هذه التفسيرات سليمة فقط بالقدر الذى تذهب إليه ، فإن الناس بطبيعة الحال لا يتوقعون دائماً أن يجدوا فى إيطاليا الخير المطلق ، أى أفضل الأشياء وأحسنها ، حيث إن مجرد التفوق أمر لا يهمهم بقدر ما تهمهم تلك الصفة الخاصة

التي تصبغ كل شيء حيًّا كان أو جماداً ، فى إيطاليا دون غيرها من البلاد . وهذه الصفة هى ما درجت إعلانات مكاتب السياحة على تسميتها « سحر إيطاليا » ؛ فإن هذه الصفة تضفى أهمية وطرافة على مفاتن واضحة ، وتجعلها أفضل فى إيطاليا مما هى عليه فى غيرها من البلاد ، تماماً كما يجعل الملح المذاقات العادية أحدّ وأكمل ، بل إن الأحزان تصبح عزيزة أثيرة فى إيطاليا . ذكر هنريخ هين Heinrich Heine « أن مجرد العيش فى إيطاليا أمر رائع جميل ، فللتنهدات فى هذه القصور الرخامية صدى أكثر رومانتيكية منه فى بيوتنا البسيطة المبنية من الآجر ، وفى ظلال شجيرات الغار Laurel هذه يجد المرء فى البكاء عزاء وسلوى أكثر مما يجده تحت أشجار الشربين Fir العالية عندنا ، وإنه لأجمل للمرء أن يستغرق فى أحلام اليقظة متتبعاً أشكال السحب الإيطالية من أن يفعل ذلك تحت قبة السماء الألمانية الرمادية الكئيبة ، حيث تتخذ فيها السحب نفسها سيماء المواطنين العابسة وتنفغر ضجراً . . . ومع ذلك فما هى اللذة إن لم تكن ألماً حلواً على نحو رائع ؟ — ترى ما هو إذن سحر إيطاليا ؟

قال ستاندال «إن سحر إيطاليا أشبه بسحر الوقوع فى الحب» ، ولا بد أنه كان يعرف ما كان يتكلم عنه ، لأنه خصص معظم حياته لدراسة هذين الموضوعين دراسة ثابر عليها وبذل فيها غاية جهده . فالحب وسحر إيطاليا موضوعان متشابهان ومتكاملان كل منهما يقوى الآخر ويدعمه ، واشتهر الحب فى إيطاليا بأنه أكثر إشباعاً للنفس ، فإن إيطاليا فى أعين العاشقين هى أكثر فتنة وسحراً .

ترى هل إيطاليا هى الحب ؟ أو أنها كما يقول بعضهم هى الفن ؟ فالفن مثله مثل المشهد الإيطالى يمكن أن يكون مسكراً مثيراً ، ويمكنه أن يغير الناس وينقلهم بعيداً عن أنفسهم ، كما يمكنه أن يثير الشهوة الجنسية . يقول والتر باتر Walter Pater

عن الفن : « إنه يضفى على أوقاتك وهى تمضى أسمى صفة فى الوجود » وهذه كلمات يمكن إطلاقها على إيطاليا وعلى الحب على حد سواء ؛ ولكن هل يستطيع بلد قديم أو قل شبه جزيرة تمتد من جبال الألب إلى البحر المتوسط ملأى بخمسين مليوناً من السكان المجتهدين وبمشاكلهم التاريخية ؛ نقول هل يستطيع هذا البلد أن يشبه جدياً بعاطفة رقيقة أو بحافز بدائى أو بأرقى ازدهار للروح البشرية ؟ هل يمكن لعلم الجغرافية أن يمتزج بعلم النفس أو بعلم الجمال ؟

لقد خامر هنرى جيمس الشعور بأن بهجة إيطاليا جزء لا يتجزأ من العنصر الإنسانى ، أى الناس الذين خلقوا هذا البلد وشكلوه بأيديهم تقريباً على مر قرون طويلة ، وكان ذلك فى نظره بمثابة تفاعل الإنسان وانصهاره بشكل لا مثيل له مع تاريخه وأحاسيسه ومع التربة والهواء واللون والتركيب والشكل . وهذا التفاعل هو الذى يكون فتنة إيطاليا ويضفى عليها أسمى أنواع الجمال وأروعها » . لقد توقف هنرى جيمس يوماً فى مدينة فيلليترى Velletri الصغيرة الكئيبة الواقعة إلى جنوب روما وقضى بها ساعات قليلة يطوف بها على غير هدى ، وكانت فيلليترى بلدة موحشة ليس فيها ما يستحق الرؤية ، ولكنه برغم هذا افتتن بها فكتب يقول : « رأيت هناك شرفة ضيقة مرتفعة ذات درجات تمتد أمام مقهى هو أحسن مقهيين أو ثلاثة بها ، وفى هذه الشرفة المادئة ، وفى ضوء يونية الدافئ المتضائل ، جلس حول مناضد أفرغت مما عليها أشخاص أفاضل استغرقوا فى تأملاتهم . وبينما راحوا يدخنون سجاير طويلة ، سوداء أمتعونا بدهائهم . لقد كمن السحر — كما هو حاله دائماً فى إيطاليا — فى طابع الأشياء ومظهرها الخارجى » .

وأحس آخرون بهذه الصلة الوثيقة القائمة بين الناس وجاذبية المكان ، بين طباع الناس وعاداتهم وسيماتهم وأسلوبهم فى الحياة وبين بهجة إيطاليا ، فإن ولم

دين هاولز W. Dean Howells الذى أولع بإيطاليا، وتشرب بعادات الإيطاليين واختار مكافأة له عن كتابته سيرة حروب لنكلن منصب قنصل أمريكا فى فينتسيا كتب يقول : لقد كانت أساليب الفلورنسيين وعاداتهم المحببة إلى النفس أكثر بمراحل من آثار تاريخهم وفنهم ، فهى التى جعلت العودة إليهم بهجة ممتعة . صدقنى لو أمكن أن تعرض للبيع ابتسامة الخادم الذى كان يحضر إلى القهوة كل صباح ، ولوحة دوناتللو : القديس جورجو ، San Giorgio لفضلت شراء الأولى والاحتفاظ بها دواماً ، كذلك كان وجه الخادمة العجوز التى تعهدت غرفة نومى والذى كان يشع منه حب الأمومة ، أفضل لدى من واجهة كنيسة « سانتا ماريا نوفلا » Santa Maria Novella . لقد أحب هاولز « بنى البشر الذين نشأوا نشأة طبيعية ، بعيداً عن التصنع والتكلف ، أولئك الذين لا بد للمرء أن يلقاهم فى هذا البلد "إيطاليا" بلد الطبيعة البشرية على سجيتها » . ولاحظ ستاندال أن سر سحر إيطاليا يكمن فى عادات أهلها جملة وفى أساليبهم الطبيعية ورقتهم ، أو قل إنه يكمن فى ذلك الفن العظيم ، فن الحياة السعيدة التى يعيشونها هنا على هذا النحو الرائع ، ولا يعرف الناس أنه فن ، بل هو أصعب الفنون كلها .

ولا ريب أن هذا الكلام غير صحيح كل الصحة حيث يدرك الإيطاليون أن كل شىء فى بلدهم تقرره خبرتهم ، وهو نتاج جهدهم ومصطبغ بروحهم. هم يدركون أنه لا حاجة فى الواقع إلى المرء أن يميز أو يختار بين ابتسامة تعلو وجه الخادم ولوحة « القديس جورجو » للفنان دوناتلو ، بين « التركيب والكلاسيكية » والتل المطل على فلورنسه الذى هذبت يد الانسان مناظره ؛ فكلها من أعمال الفن ، فن الحياة السعيدة وإدخال السعادة على الآخرين . وهو فن عظيم يشمل كل الآخرين فى إيطاليا ويلهمهم ، بل هو الفن الوحيد الذى يجدر الإلمام به ولكن

لا يمكن قط استيعابه تماماً : أعنى فن الحياة على الأرض .

* * *

وهكذا يمكن القول على نحو حاسم إن هذا هو الحافز الأساسى الذى يدفع الأجانب إلى المجىء إلى إيطاليا ، بل هو الحافز الذى يدعم كل الحوافز الأخرى ويضفى عليها أهمية وشرعية ، وفيه الإجابة عن سؤال ملتز : « ولماذا إيطاليا بالذات» فلا يزال الناس يفدون إلى إيطاليا ـ كما وفدوا إليها مدة قرون طويلة ـ لأن صفة معينة فى الحياة الإيطالية تشدهم إليها ؛ وسواء عرفوا أم لم يعرفوا ماهية هذه الصفة فإنها تبعث فيهم الحياة والنشاط بطريقة ما ، ولا تزال توفر لهم إحساساً «ساتورنيًّا » Saturnian [1] بالانطلاق والتحرر من القيود . ويبدو الإيطاليون حولهم كأنهم يدركون أموراً لا تزال تحير شعوباً أخرى ، وأنهم اكتشفوا طرقاً مختصرة ، القليل منها دنيئة نوعاً ما ومشكوك فيها ، ولكنها مفيدة فى تحاشى أقسى مآزق الحياة . نعم يبدون أنهم يحاولون وضع نظام ناجع لتحدى تاريخهم .

وليس هذا النظام مثاليًّا تماماً حيث يبدو أنه لايكون فعالا إلا حين تكون الظروف مؤاتية ، ولكنه يبهج قلوب الناس ويوهمهم أنهم يغالبون القدر . نعم يبدو الإيطاليون سعداء ويظهرون فى كل شىء يعملونه حماساً وحيوية شديدين تنتقل العدوى منهما إلى الغير . ويروى أن أحد رفاق جيته فى أسفاره حاول أن يعلمه السر فقال لهذا الشاعر الشاب : « لماذا تفكر ؟ إنه ينبغى للإنسان ألا يفكر أبداً لأن التفكير يجعلك متقدماً فى العمر . ولا بد أن يحوى ذهن الإنسان أشياء كثيرة أو قل بلبلة كبيرة » ؛ وعلى المرء أن يسمح للميول المتناقضة أن تتوالد وأن يشجع

---

(١) أى بالحياة فى العصر الذهبى الذى تقول الأسطورة إنه كان طالع عصر « ساتورن » إله الزراعة والخصب والنماء .

غرس المثل العليا المتعارضة ، ثم عليه أن يتبع العقل وحده ، وألا يشغل باله بما فى الحياة الدنيا من نقائص . أجل على المرء أن يواصل مسيرته .

الحق أن بهجة إيطاليا تنبع من الحياة فى عالم صنعه الإنسان للإنسان وفقاً لمقاييس الإنسان .

الفصل الرابع

أهمية المظهر

إن أول ما يلفت نظر الوافد إلى إيطاليا هو الحيوية الرائعة التى تميز حياة الإيطاليين النشيطة الشبيهة بحياة كثيب النمل . فالشوارع والميادين والأسواق تعج بأناس صاخبين فُخُرٍ نشيطين دائبى الحركة والعمل . إنك ترى هناك رجال الدرك Carabinieri بملابسهم الرسمية يراقبون بجفونهم نصف المغلقة كل شىء وكل فرد ، والقسس البدينين يتجولون على مهل ، والفلاحين بملابسهم المصنوعة من المخمل الخشن ، والجند الشبان الأنيقين وهم يقضون إجازاتهم ، وربات البيوت وهن يحملن حقائب مشترياتهن ، والفتيان اليائسين أصحاب الشعور الطويلة والسراويل الزرقاء ، وأسرابًا من الفتيات الجميلات وأطفالا يلعبون فى كل مكان . وتدلى السيدات من نوافذ الطوابق العليا فى مساكنهن بسلال صغيرة مربوطة فى حبال — على غرار ما كان يفعله النساك المصريون من قمم معابدهم — يودع فيها ساعى البريد مالهن من رسائل ، أو ليضع فيها الخباز ما يشترينه من خبز ، كما ترى الرهبان المتسولين وهم يدفعون صناديقهم الخشبية تحت أعين المارة لعل هؤلاء يضعون فيها ما يجودون به ، وكذا الأحدب الذى يبيع أوراق النصيب وتسمعه وهو يصيح : « آخر ورقة لا بد أن تكسب » .

وتخرج السيدات من الحوانيت ليتحققن فى ضوء الشمس من لون قماش راقهن ، ويطرى الباعة سلعهم بأعلى أصواتهم ، ويؤدى أصحاب الحرف أعمالهم فى الهواء الطلق أمام حوانيتهم ويغنون أو يتحدثون مع أصدقائهم من المارة ، ويدلف الميكانيكيون

تحت سيارات أفرغوا أحشاءها ، ويطرق الإسكافيون الجلد المدبوغ ويشكلونه أحذية ، ويصقل النجارون سطوح ما يصنعونه من مناضد برشاقة كبيرة كتلك التى نلحظها فى قائد فرقة موسيقية تعزف لحنًا هادئًا Adagio Cantabile ، ويغير النادل (الجرسون) مفارش مناضد المقهى أو المطعم فينفض كلا منها فى نشاط وخفة فى ضوء الشمس ، وأحيانًا يمرّ موكب دينى تتقدمه فرقة موسيقية ورجال الدرك بملابسهم الرسمية وقد كسيت قبعاتهم المردودة حوافها إلى أعلى بريش أزرق ، ويتبعهم القساوسة المرتلون فى أرديتهم البيضاء المزركشة ، ثم يسير وراء هؤلاء جميعًا كبير القساوسة تحت مظلة من المخمل يرفعها فوق رأسه رجال ورعون ، وأحيانًا أخرى قد يمرّ موكب جنائزى فترى عربة تجرها خيول سوداء تختال فى خطواتها ، وقد زين طقمها بريش أسود وحلى فضية ، والنعش فى عربة وحوله صندوق زجاجى تعلوه تماثيل خشبية لملائكة تطير ، ومزيد من الريش الأسود ومختلف الرموز الدالة على الحياة الأبدية ، ويتبع العربة لفيف من الباكين من أقارب الفقيد وأصدقائه .

وتزخر العربات وواجهات الحوانيت والأكشاك بالخضر والأزهار والفاكهة واللعب والملابس والأحذية والأسماك . الحق أنها تشكيلة غنية بالألوان أشبه بمجموعة وفيرة من لعب الأطفال تدفقت فى غير نظام . فهناك قنبيط أبيض فى الشمال وقنبيط أخضر فى روما ، وقنبيط أرجوانى فى كاتانيا Catania بصقلية ، وكوسة قصيرة خضراء فى كل مكان ، أوكوسة بيضاء طولها ست أقدام فى نابولى ، وخرشوف بشوك على ساحل الريفييرا وبدون شوك فى الجنوب ، ثم هناك أكوام من البرتقال شق بعضها إلى نصفين لإظهار قلبها الدموى ، وهو نوع يفضله الإيطاليون ، وهناك أنواع من الأسماك ، فتجد فى صقلية البورى الأحمر والحبّار الذى يلمع كالمرمر ، وأبو سيف الطويل ، وسمك التونة ، وتجد قرب مصب نهر البو سمك الحفش الأملس (الذى يستخرج

منه الكافيار) ، كما تجد على طول ساحل الإدرياتى سمك موسى والأخطبوط الذى يقع فى الأشراك وهو لا يزال يتلوى من صراعه العنيف . أما نوافذ محال اللحوم الجاهزة فهى جديرة بريشة مصور للطبيعة الصامتة من أبناء برجامو التى تشتهر بطعامها ، ومدرسة التصوير التى تخصصت فى هذا الفن . فأنت ترى فى نوافذ تلك الحوانيت عقوداً ضخمة من لحم الخنزير ، والمورتاديلا وقد تدلت وكأنها مصابيح من نوع المصابيح المصنوعة فى البندقية (فينتسيا) ، وعناقيد من أرجل الخنزير المحشوة ، وأنواعاً شتى من الجبن منها ما اشتهر به الجنوب ، والمعروف باسم كاتشوكافالى ، ومنها البروفولونى والموتزاريلا الغارقة فى اللبن وحلقات من جبن البارميزان مطلية باللون الأسود الجنائزى ؛ وقدوراً ضخمة ملأى بالزيتون وكميات من عيش الغراب غائصة فى الزيت وبراميل أخرى ملأى بالخيار المخلل وغيرها بها أنشوجة محفوظة فى محلول شديد الملوحة .

إن كل شىء معروض فى كل مكان فى فوضى درامية فنية ، فها هى ذى الأقمشة القطنية المزركشة تفرد من لفتها وتلقى نحو الزبون فى حركة عنيفة ، وها هى ذى حزم الأسباجتى قد ربطت كل منها فى وسطها بشرائط بيضاء وحمراء وخضراء وهى ألوان العلم الإيطالى ، ثم ها هى ذى زجاجات النبيذ وزيت الزيتون قد حليت بمداليات على غرار ما نشاهده على صدور أبطال الحرب ، وها هى ذى حوانيت القصابين ترى فيها رؤوس العجول المذبوحة شاحبة وعيونها مغلقة وشفاهها متجعدة فى مرح غامض ، وقد وضع القصاب بين أسنانها ليمونة أو قرنفلة كأنها تتحدى الموت فى لامبالاة ، بل إنك لترى حتى حزام الفتق المعروض فى حانوت المجبر قد زين بأعلام صغيرة وشرائط ملونة تجعله شيئاً بهيجاً يروق الرائى .

والضوضاء صاحبة عادة ، فيتحدث الناس ويصفرون ويقسمون ويغنون ويصرخون ويصيحون ويبكون وينادى بعضهم بعضاً بأعلى أصواتهم ، وعلى هذا النحو يواصلون

مناقشاتهم المسهبة أو مفاوضاتهم الرقيقة . وتهمس الأمهات كلمات التدليل والإعزاز لأطفالهن الصغار ، ويطلبن إلى النظارة أن يكونوا شهوداً على سحر فلذات أكبادهن وعنادهم ، وتنادى أمهات أخريات أطفالهن بأصوات عالية من نوافذ الطبقات العليا ، وترن أجراس أبراج الكنيسة فى صوت برونزى يطغى على كل صوت آخر ، ثم هناك دائماً شخص ما يتدرب على لعب آلة موسيقية كالبوق أو الترومبونى trombone ، وقد تسمع أحياناً أغنية ذائعة أو لحناً من الأوبرا صادراً من النوافذ المفتوحة فى الشقق ، ومن تحت المناضد فى المقاهى ، أومن جيوب روادها ومن بطون المارة من ربات البيوت ، وتمرق الفسبا وغيرها من الدراجات البخارية والسيارات وعربات النقل فتحدث محركاتها أصواتاً مزعجة .

الحق أن الجو كله مملوء بضوضاء بالغة بحيث لامناص للمرء من أن يتكلم عادة بصوت عال جداً كى يتسنى للغير إدراك ما يقوله ، الأمر الذى يزيد من الصخب والضجيج ، بحيث يضطر العاشقون أحياناً إلى أن « يهمس » كل منهم للآخر عبارة « إنى أحبك » بنبرات أشبه بنبرات بائع صحف المساء ، ويقال عن الإيطاليين الذين ينتابهم الموت فى حجرات تطل على ميادين صاخبة إنهم قد تخلوا لأقاربهم الباكين عن إبداء رغباتهم ونصائحهم الأخيرة وذلك لشدة ضعفهم وعجزهم عن أن يسمع صوتهم . ومع كل ذلك فإن هذا الضجيج هو شىء مرح بهيج ، يزيد من مرحه وبهجته تلك الأسوار الحجرية ، والشوارع الضيقة وانعدام الخضرة ، هو ضجيج يستمر من الفجر حتى الساعات الأخيرة من الليل حين يقف المتسلقون تحت نافذة حجرة نومك ويتناقشون فى مسألة سياسية دقيقة أو يتجادلون فى شخصية صديق لهم ويتحدثون فى آن واحد بأعلى أصواتهم .

إن هذا المشهد كله يمكن أن يكون فاتناً خلاباً بحيث يقضى كثيرون من

الناس معظم أيام حياتهم وهم يراقبونه فحسب ، فهناك عادة فى المقاهى مناضد نظمت بطريقة استراتيجية تمكن من يرتادها لشرب القهوة أو تناول المشهيات أن يلم بما يدور فيها من أحاديث ، وعبر الشرائح الخشبية لستائرها المطلية باللون الأخضر تحدق السيدات العجائز النظر — دون أن يراهن أحد — ولا يفوت عيونهن اليقظة شىء له أهمية ما ، وهن ينسجن استنتاجاتهن من كل صغيرة : مشتريات سيدة ما ، فستان جديد ترتديه فتاة ، ابتسامة جديدة على وجه شاب ، سيارة غريبة عن المدينة ، أو صفير فتى لنافذة فى الطابق الثالث . وهناك على طول واجهات المنازل جميعها شرفات مريحة مثلها مثل مقصورات المسارح ، فيمكنك أن تضع فيها كرسياً ذا ذراعين أو تقف فيها متكئاً على مرفقيك ، وتشهد الأيام أو السنوات أو حياتك كلها وهى تمضى فى مسيرتها ، كما تشهد موكباً من آلاف الممثلين ومئات من الحبكات الثانوية المسرحية .

ولعل ما يجعل سحر كل هذه المشاهد أكثر جاذبية وأشد فتنة هو شفافية الوجوه الإيطالية ، فمن اليسير عليك أن تتبع أحاديث الإيطاليين عن بعد بمجرد ملاحظة سيماء أولئك الذين يشتركون فيها . نعم ، يمكنك أن تقرأ من سيمائهم الشعور بالفرح أو الحزن أو الأمل أو الغضب أو الارتياح أو الضجر أو اليأس أو الحب أو خيبة الأمل ، كما لو كنت تقرأ كلمات مطبوعة بأحرف كبيرة على أحد الملصقات ، فإن الانفعالات غير المقنعة ، الصادق منها والزائف ، تتابع فى تسلسل على الوجه الإيطالى بسرعة تتابع ظلال السحب فوق روضة ما فى يوم عاصف من أيام الربيع . ونذكر على سبيل المثال أن النادل الذى يتلقى طلباً لإحضار طعام الغذاء سوف تظهر على وجهه سلسلة من الانفعالات الآتية فى سرعة متتالية : ١ — خضوع متبرم وتلطف مهنى حين يسلم الزبون الجديد قائمة الطعام ، ٢ — استسلام

وإذعان حين ينتزع قلمه ويستعد بمذكرته لكتابة الطلب المعتاد السخيف المتجرد من الخيال ، ٣ـ شيء من الفضول إذا راح الزبون يفكر ويسعل ويسأل قليلا من الأسئلة الوثيقة الصلة بأصناف الطعام ، ٤ـ اهتمام ينم عن الشك إذا ظهر أن الزبون من النوع الذى يصعب إرضاؤه ، وأنه حذر نوعاً ما فى ترجيح ما يمكنه اختياره من أصناف الطعام ، ثم قد يتبع هذا ، ٥ـ نظرة تنم عن اليقظة والحماس والابتهاج إذا أثبت الزبون أنه خبير قدير وقد يلى هذا ، ٦ـ الرجوع إلى الخضوع المتبرم الذى ظهر فى بادئ الأمر إذا اتضح أن الطلب الذى اختاره لا يعدو أن يكون طلباً عادياً .

إن قراءة تعابير الوجه أمر هام فى إيطاليا يتعلمه الإيطاليون منذ طفولتهم ، بل لعله أهم للبقاء من فن قراءة الأحرف المطبوعة . وقد تكون الكلمات الملفوظة مختلفة أحياناً عما يصاحبها من قسمات الوجه ، وعندئذ يجب التغاضى عن الكلمات ، فإن الوجه هو الشيء المهم . وحين يتوجه الإيطاليون إلى البلاد الشمالية فى أوربا فإنهم يكونون فى كثير من الأحيان مرتبكين بائسين وحيدين قلما يعرفون ما يدور حولهم ، حيث يجدون حولهم وجوهاً خالية من التعبير والانفعال ، ووجوهاً لا تنم عن شيء ، وقلما تكون مثيرة ، ومن ثم يستنتجون خطأ أن أصحابها ماداموا لا يظهرون شيئا من الانفعالات هم خلو من كل الانفعالات الجديرة بالإفصاح عنها ، والشائع أن ما اشتهر به الإنجليز من انعدام العاطفة هو دليل لا لبس فيه على البرود والجمود ، والغريب أن ما جبل عليه الإيطاليون فى التعبير عن عواطفهم فى سهولة بالغة أمر يعوق الممثلين المحترفين أجل ؛ لعل الطبيعة أغدقت عليهم فى إسراف بالغ فنالوا من المزايا والمواهب الطبيعية قدراً أكثر من الضرورى ؛ والملاحظ أن تمثيلهم المنمق سرعان ما يتحول إلى تمثيل غير بارع حين لا يكون تحت إشراف صارم . ومن ثم يقضى أفضلهم سنوات طويلة لنسيان ما ينبغى على زملائهم الأجانب تعلمه . يروى عن أورسون ويلز

Orson Welles أنه أبدى مرة ملاحظة ذكية فقال إن إيطاليا تعج بممثلين يبلغ عددهم خمسين مليونًا كلهم تقريبًا قادرون، أما الردىء منهم فهم قلة، وهؤلاء تجدهم على المسارح وفى أفلام السينما .

ثم هناك بعد ذلك الإيماءات . ونقول إنصافًا للحق إن الإيماءات الإيطالية ذائعة الصيت حيث يستخدمها الإيطاليون على نطاق أوسع وأكثر إتقانًا وخيالا من غيرهم من الشعوب ، فهم يستعملونها ليؤكدوا أو ليوضحوا كل ما يقال ، وللإيحاء بكلمات ليس من الحكمة الإفصاح عنها ، كما يستعملونها أحيانًا لمجرد نقل رسالة إلى مسافة بعيدة لا يمكن لصوت المتكلم أن ينقلها . وفى عالم السرعة الذى نعيشه اليوم تستخدم الإيماءات على نحو مطرد بوصفها أكثر اقتصاداً للوقت ، فلم يعد سائقو السيارات يلجأون إلى تخفيض سرعة سياراتهم وإضاعة ثوان ثمينة كى يوجه كل منهم للآخر أو إلى المارة بأعلى أصواتهم خليطًا من السباب كما كانوا يفعلون منذ سنوات قليلة مضت . بل إنهم الآن يكتفون ببسط إحدى يديهم نحو الذى يريدون توجيه اللوم إليه ، فاليد المطوية الأصابع فيما عدا السبابة والأصبع الصغيرة تعنى أن الرجل الموجهة اليد نحوه يجب أن يضع قرنين على رأسه أو أنه سوف يضعهما قريبًا ؛ بعبارة أخرى أنه لايدرى ماذا تفعله زوجته أو خطيبته أو عشيقته فى غيبته . وهناك إيماءات قليلة اعتباطية وتقليدية شأنها شأن أبجدية الصم والبكم أو لغة الإشارات الخاصة بالهنود الحمر الأمريكيين ؛ بيد أن غالبية الإيماءات قائمة على حركات طبيعية غريزية شائعة بين معظم الرجال ولاسيما الرجال الغربيين . وقد أتقنها الإيطاليون ، وزادوها شدة وحدة ، وأضفوا عليها أسلوبًا مفيداً وجعلوها فنًّا يمكن أن يفهم معناها فوراً غير الخبير كما هو الحال فى كل الفنون العظيمة الأخرى .

وليست الإيماءات دائمًا — كما يظن كثيرون — فى لىّ الأذرع والجسم وتقليب

العينين من اتجاه إلى آخر ، وتحريك الأصابع على نحو درامى مبالغ فيه لافت للنظر . أجل ؛ لعل تمثيل منشدى الأوبرا الناشئ مباشرة من الإيماءات الإيطالية الطبيعية هو الذى نشر هذه الفكرة الخاطئة . ولكن الواقع أن أحسن الإيماءات وأفضلها هى فى معظم الأحيان أكثرها اقتصاداً بحيث تكاد تكون غير مدركة بالحس . نذكر على سبيل المثال أنه معروف عن أهالى صقلية أنهم يستطيعون أن ينقلوا بإيماءاتهم معانى خطيرة بل قاتلة أحياناً دون أن يحركوا أيديهم أو عضلة واحدة فى وجوههم . فإن حركة رفع الذقن قليلا معناها عندهم « إننى لا أعرف » — كما أن معناها فى أحيان كثيرة : « إننى ربما أعرف ولكنى لن أخبرك » وهذه هى الإجابة التى يحصل عليها دائما رجال الشرطة حين يسألون من يحتمل أن يكونوا شهوداً لحادث قتل ارتكبه رجال المافيا أمام مئات من الناس فى وسط ميدان يعج بهم ؛ وهى كذلك الإجابة التى يحصل عليها غريب ساذج من مختلف فلاحى صقلية حين يسأل عن الطريق المؤدى إلى أقرب قرية .

ثم إن بسط أصابع يد واحدة وتحريكها ببطء إلى الأمام والخلف تحت الذقن المرفوعة معناه : « هذا أمر لايهمنى ولا شأن لى به فلاتعتمد علىّ فيه » ، وهذه هى الإيماءة التى استخدمها فى سنة ١٨٦٠ أحد أهالى مسينا ردًّا على سؤال ألقاه عليه غاريبلدى ؛ فيروى أنه حين غزا هذا القائد صقلية ومعه عدد من أعوانه المتطوعين رأى وهو فى طريقه إلى شبه الجزيرة الإيطالية شابًّا قويًّا قد غلبه النعاس واستلقى إلى جدار حجرى تحت ظلال شجرة خروب فى أحد مسالك دروب الريف ، وعندئذ جذب غاريبلدى عنان حصانه ونادى الشاب قائلا : « أيها الفتى ، هل لك أن تنضم إلينا لنحرر إخوتنا فى جنوب إيطاليا من طغيان ملوك البوربون السفاكين للدماء ؟ كيف تستطيع النوم ووطنك فى أشد الحاجة إليك ؟ ألا فاستيقظ وهلم إلى السلاح » ! ولكن

الفتى أجاب بإيماءته فى صمت ، فنخس غاريبلدى حصانه ومضى فى طريقه .

ومن الإيماءات الذائعة بين أهالى صقلية رفع حاجب واحد ، ومعناها « إنى على استعداد لاتخاذ ما هو ضرورى من قرارات » — ومنها كذلك إغلاق العينين ببطء بدون أن يبدو على وجه صاحبهما أى تعبير أو حركة ، وهذه تنم عن الاستسلام لما هو محتوم ، وقبول مهمة شاقة بغيضة لا مفر منها ؛ مثال ذلك : « لقد حذرناه مرة بعد أخرى ، ولكنه رجل عنيد لا يريد أن يستمع لصوت العقل ، فلابد لنا أن نقوم بواجبنا » .

هذا وقد رأيت يوماً ما فى ردهة فندق النخيل فى مدينة بالرمو بصقلية إيماءة من أكثر الإيماءات اقتصاداً وبلاغة ؛ فقد دلف إلى الفندق من الشارع رجل وضح أنه يريد أن يعرّف الجميع أنه من السادة الكبار أصحاب الثروة والجاه ، الذين ألفوا أن يخدمهم الناس ، فتلفت حوله كأنه يبحث عن صديق بين الزائرين الذين كانوا يتسكعون فى الردهة ، ثم خلع معطفه وأمسك بطرفه برهة وجيزة وهو يمد ذراعه دون أن يهتم بالتأكد مما إذا كان هناك خادم إلى جانبه . ولما كان من المعروف أنه لابد أن يكون هناك دائماً إلى جانب السيد الكبير شخص ما لتلقى معطفه فور أن يخلعه دون أن يتوجه بنفسه إلى غرفة المعاطف ، فبطبيعة الحال لم يسقط معطف هذا السيد على الأرض بل هرع إليه أحد صبية سعاة الفندق وتلقاه منه .

ومما يثير الدهشة حقاً أن أحداً ما لم يقم بدراسة جدية لهذا الموضوع . والإنسان الوحيد الذى أعرف أنه كان له بعض النشاط فى هذا الميدان هو قسيس من نابولى أولع بالآثار اسمه القس أندريا دى يوريو Canon Andrea de Jorio حاول أن يضع قائمة بإيماءات أهل بلده ، فبدأ محاولته بتفسير معنى المناظر المرسومة على الزهريات اليونانية أو المصورة على اللوحات الجصية (الفريسك) الرومانية ، وكذا النقوش البارزة المودعة فى متحف البوربون فى نابولى ؛ ولذلك راح يسأل نفسه ترى ماذا يمكن

للآلهة وبنى البشر المُممثلين فى هذه الرسوم أن يقولوه فيما لو كانوا من أهالى نابولى الحديثين ؟ ثم ماذا يمكن أن يفهم فرد أصم من أهالى نابولى المعاصرين من إشاراتهم الصامتة . ومن ثم أخذ فى بادئ الأمر يعاين ويجمع ويضيف ما يشهده من إيماءات فى حياته اليومية ويطلب إلى الفنانين رسم وحفر كل منها ، ثم قام بعد ذلك بتصنيفها وفهرستها . وبعد سنوات طويلة نشر فى سنة ١٨٣٢ نتيجة أبحاثه التى قضى فيها كل عمره فى مجلد ضخم أهداه إلى فرد ريك وليم هو هنزلرن F.W. of Hohenzollern أمير بروسيا ووارث عرشها حينذاك . وقد وضع لمؤلفه هذا عنواناً مضللا بعض الشىء فسماه « إشارات القدماء مفسرة بالإيماءات النابوليتانية » . La mimica degli antichi investigata nel gestire napoletano وحقيقة الأمر أن جزءاً صغيراً فقط من الكتاب هو الذى يعالج تفسير إشارات الشعوب القدامى ؛ أما معظمه فقد خصص لمجموعة فريدة كاملة تتضمن كل الإشارات اللازمة — فى نابولى وغيرها — للتعبير عن أى شىء أو كل شىء تقريبًا دون أن يفتح المرء فمه ، وجدير بالذكر أن هذا المجلد من المؤلفات النادرة جداً ، ولم يشر إليه فى المراجع أو دوائر المعارف أو قوائم الكتب النادرة المعروضة للبيع أو فهارس المكتبات الإيطالية ، وبالتالى لا يعرفه الإخصائيون والدارسون . والنسخة الوحيدة التى لى علم بها هى الموجودة لدى ، وكنت قد سرقتها من مكتبة رجل إنجليزى مسن لم يشك فى أمانتى .

ويتبين من إلقاء نظرة على محتويات هذا المؤلف أن هذه الإيماءات طبيعية سهلة الفهم عامة أبدية . ونظرا لأنه لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ سنة ١٨٣٢ فيحتمل أنها لا تزال إلى اليوم على ما كانت عليه تقريبًا فى العصور القديمة ، وهذا ما حاول القس أندريا أن يكتبه . خذ مثلا الفصل الذى عنوانه « الغيظ والغضب » : إنه يسرد عشر طرق للتعبير فى صمت عن هذه الانفعالات (١) عض المرء إحدى شفتيه (٢) عض المرء

إحدى يديه وأصابعه(٣)شد المرء شعره(٤)خدش المرء وجهه(٥)وضع المرء قبضة يده في اليد الأخرى وحكها بقوة من شأنها أن تطقطق المفاصل(٦)صلك المرء أسنانه، وشفتاه مفتوحتان(٧) تحريك المرء إحدى شفتيه فى تواتر مرتجف عصبى(٨)ضرب الأرض بعنف بأخمص القدم (٩) ضرب كف على كف بقوة مرة أو اثنتين فقط . أما الإيماءة الوحيدة التى لا يسهل فهمها فهى العاشرة وهذه هى : التظاهر بعض المرء لأحد مرفقيه، والواقع أنها إشارة إلى قول إيطالى اصطلاحى معناه : « سأفعل أى شىء للانتقام لنفسى ولو كان هذا الشىء أمراً مستحيلا مثل استحالة عض المرء مرفقه » .

ويسرد الفصل الذى عنوانه «لا — الرفض — الإنكار» ثلاث عشرة طريقة للتعبير عن هذه الفكرة نفسها مرتبة ترتيباً تصاعدياً وفقاً لشدتها : فأولى الطرق وأبسطها هى رفع المرء حاجبيه فى حركة سريعة واحدة إلى أقصى مدى يستطيعه ، وإشاحة المرء بوجهه عما لا يرتضيه ، وتحريك المرء رأسه يساراً ويميناً ، ورفع المرء شفته السفلى فوق العليا ، أو خفض أحد ركنى الشفة السفلى . وقد أورد القسيس العلامة تسع طرق فقط للدلالة على الحب تنم كلها عن العفة والطهارة ،ولعله قد غضّ بصره عن الأمثلة المثيرة التى كان يراها الناس بكثرة فى شوارع نابولى فى زمنه كما هو حالها اليوم .

وفى كثير من الأحوال قد تحل إيماءة بسيطة تصحبها تعبيرات معينة على وجه صاحبها محل بضع كلمات بل محل حديث كامل بليغ . تخيّل مثلا رجلين يجلسان إلى منضدة فى أحد المقاهى، وقد راح أحدهما يشرح لزميله فى إسهاب مسألة معقدة تشغل باله تدور حول كيان هذا العالم ، وكيف أنه سيتغير إلى ما هو أفضل نتيجة تطور جديد يمكن أن يتحقق ؛ فقد يقول هذا الرجل لزميله : « إن قارتنا — أوربا — قارة عفى عليها الزمن وشاخت ، فهى مقسمة إلى أمم مختلفة كل منها مقسم

إلى ولايات ، وتعيش كل أمة وكل ولاية حياتها الخاصة بها داخل أفقها الضيق ، وتتحدث بلهجاتها غير المفهومة ، وتتبنى أفكارها ، وتغذى أهواءها وعيوبها وما تكنه لغيرها من ضغائن . . . كل منا يغتبط بذكريات الهزائم التى أنزلناها بجيراننا ، وكل منا ينسى تماماً ما ألحقه جيراننا بنا من هزائم . . . تأمل كم تكون الحياة رخيصة لو أننا اندمجنا جميعاً فى وحدة كاملة فنقيم أوربا الموحدة ، دنيا المسيحية القديمة : حلم شارلمان ومترنيخ وكثيرين من العظماء غيرهما ، بل حلم هتلر أيضاً — ولم لا ؟ ويستمع الرجل الثانى فى صبر لكلام زميله ويحملق النظر فيه ، وفى لحظة معينة ، وكأنما استولت عليه حجج صديقه وإغراقه فى تفاؤله ، تراه يرفع فى بطء إحدى يديه عن المنضدة فى خط عمودى مستقيم إلى أقصى مدى يستطيعه أعلى من رأسه ، ويطلق فى الوقت نفسه آهة طويلة « إيه Eeeh » أشبه بالتنهد . يفعل ذلك دون أن تنحسر عيناه قط عن وجه صديقه ، وتظل سيماؤه هادئة وإن كانت تنم عن التعب والشك على نحو غامض ، وتعنى إيماءته هذه ما يلى : « ما أسرعك فى الوصول إلى النتائج يا صديقى ! وما أكثر حججك تعقيداً ! وما أبعد آمالك عما هو معقول ! على حين أننا نعلم جميعاً أن العالم ظل على حاله هذه ، وأن الحلول البراقة لتسوية مشاكلنا قد أنتجت بدورها مزيداً من المشاكل المختلفة ، مشاكل أكثر خطورة وأشق احتمالا من تلك التى ألفناها .

الواقع أن الحيوية الدافقة والألوان الزاهية والوفرة الهائلة لكل شىء ، والبزات العسكرية والثياب الكهنوتية والوجوه المعبرة والإيماءات الموحية والضوضاء العالية . . نقول إن هذه كلها من بين أولى الانطباعات السطحية التى يكونها كل من يفد إلى إيطاليا ويزور أية جهة منها سواء فى الشمال أو الجنوب ، فى المدن الكبرى أو فى القرى الهادئة ، فى المراكز الحديثة أو فى القرى الصغيرة المتداعية البائسة التى نسيها التاريخ ،

وهناك بطبيعة الحال اختلافات إقليمية عميقة يدركها السائح شيئاً فشيئاً ؛ فواضح مثلا أن سوق الماشية فى بلدة لوجو Lugo الواقعة فى إقليم رومانيا Romagna والتى لاتبعد كثيراً عن بولونيا Balogna غيرها فى بلدة بايستوم Paestum ؛ وزيادة فى الإيضاح نقول إن لوجو التى تنتمى إلى العصور الوسطى تقع على مقربة من مصب نهر بو ، وبها قلعة من الطوب الأحمر ، وكنائس قديمة من طراز الباروك ، وتقوم وسط أراض وفيرة الخصوبة تخترقها قنوات ومصارف ؛ فلاحوها أقوياء بدينون ، وجوههم حمراء مشرقة وشعرهم أسمر ، وعيونهم فاتحة اللون ، وماشيتها يعنى بتغذيتها ، ومن ثم فهى محظوظة وسمينة ، أما بايستوم فتقع على مصب نهر سيلى Sele إلى الجنوب من سالرنو Salerno ، وهى وسط سهل ظل إلى اليوم مجدباً قاحلا ، وكان موبوءاً بالملاريا ، واستصلح ونظمت له وسائل الرى جزئياً فحسب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وفلاحوه داكنو البشرة نحيلو الأجسام ، عيونهم سوداء متقدة ، وأسنانهم بيضاء ناصعة ، وماشيته صغيرة نحيلة ، ومع ذلك فإنا نجد فى كلا المكانين نفس العواطف الحارة اللطيفة والنشاط المحموم .

أو خذ روما فإن شارع فينيتو Via Veneto فيها هو أحد الشوارع الشهيرة فى أوربا ، وهو من الشوارع الرئيسية فى هذه العاصمة العظيمة ، والواقع أنه صورة مكبرة للشارع الرئيسى Corso فى أية مدينة إيطالية صغيرة ، فنجد على جانبيه مناضد المقاهى وقد زخرت بالزبائن الذين يحملقون فى المتجولين فى ذهابهم وإيابهم وقت تناول المشهيات أو بعد انصرافهم من المسارح ، ونجد بين هؤلاء المتجولين جماعات من السائحين الأجانب والإيطاليين ، كما نجد مقابل هذه الخلفية المجهولة ، الشخصيات الإيطالية المعتادة . ويمكن أن يتعرف المرء بعد قليل من الزمن على قلة منهم من منظرهم ، كما يمكنه أن يتابع حياتهم مدة أشهر أو سنوات ؛ فهناك الشبان النحيلون



النيل — نافورة الأنهار الأربعة — بياتزا نافونا — روما — من تصميم برنيني الإيطاليون

الطامحون وسيمو الطلعة الذين يصلون فى يوم ما من الضواحى أو الأقاليم ولا يملكون سوى بذلة واحدة يرتدونها وقليل من الليرات، ثم يستطيعون بطريقة ما أن يقيموا بعض الصداقات مع أولئك الذين يجلسون معهم فى المقاهى، هناك يقابلون رجلا من أصحاب النفوذ والجاه، ويتعرفون على عشيقته، ويكتسبون ثقته، كما يفوزون بعطفها ورعايتها، ثم تتاح لهم الفرص عن طريقهما لمقابلة عدد من أصحاب النفوذ والسلطان، ويصعد نجمهم رويداً رويداً كفقاقيع العفن الغازية فى مستنقع موحل ويمكنك أن تتتبع ارتقاءهم يوماً بعد يوم، فهم فى بادئ الأمر يشترون بذلة أخرى ثم سيارة مستعملة ثم عدداً من بذلات أفضل وأحسن، ثم سيارة جديدة غالية الثمن؛ فإذا بهم فى النهاية يرتدون أكثر الملابس أناقة فى شارع فينيتو، ويلهون مع أجمل النساء وأكثرهن حلياً، ويتصرفون بكياسة ولطف دون تكلف، ويقتنون أسرع السيارات وأشدها تألقاً وبهاء، ترى كم من الزمن تستغرق هذه العملية كلها ؟ أجل؛ قد لا تستغرق فى بعض الأحيان سوى الوقت الذى يقدم فيه أحد أصحاب الملايين إلى مخرج سينمائى ممثلة جميلة، أو يتم التعارف فيه بين موظف حكومى كبير ومقاول أشغال عامة ؟

وهناك رجال مسنون بائسون يرتدون ثياباً رثة (كم كان هؤلاء متغطرسين فى شبابهم فخراً بملابسهم الرسمية أيام حكم موسولينى! وما كان أسرع اختفاءهم لفترة ما بعد نهاية الحرب!) وهم يحاولون اليوم إخفاء تضاؤل أقدارهم واضمحلالهم وعزلتهم وبطونهم المترهلة. ثم هناك مجموعات وفيرة من الممثلات السينمائيات الناشئات المجهولات (يجىء بعضهن يومياً من الريف دون خبرة ما ويقطعن شارع فينيتو جيئة وذهاباً أملا فى أن يلحظهن أحد المخرجين المشهورين الجدد، ثم يتمنين بعد قليل أن يلحظهن أى مخرج قديم قد يكون من أولئك الذين يخرجون الأفلام التاريخية الملونة المربحة التى يعدونها للعرض فى دول أمريكا الجنوبية والشرق الأوسط، فيعرض عليهن

أدواراً قصيرة لايتعدى تصويرها يومين أو ثلاثة مع لقطة واحدة أو لقطتين عن قرب ، وعبارات قليلة ينطقن بها فى قصة الفيلم ، ثم يتمنين فى نهاية الأمر أن يلحظهن أى رجل ، أى رجل وحيد يدعوهن إلى تناول عشاء طيب ، وقد يقدم لهن هدية فى الصباح ، وينهى بعضهن حياتهن بالقفز من نوافذ البيت الذى يقمن فيه ، فتتعرف على وجوههن فى صحف اليوم التالى ، وتعرف أسماءهن لأول مرة ؛ بيد أن قلة من هؤلاء الممثلات يصبحن ذوات شهرة عالمية ، فينقطعن عن التردد على شارع فينيتو فيما عدا مرتين أو ثلاثًا فى السنة ، وعندئذ تجدهن محوطات بالأصدقاء والمصورين وسيدات واضح أنهن أقل جمالا منهن . ويفد إلى الشارع نفسه ممثلات قديمات ، وكثيراً ما يكن ثملات (كم كن بالأمس فقط فاتنات سهلاً قيادُهن !) يفدن وبصحبتهن فى كثير من الأحيان شبان عاشقون وقحون، ثم هناك مئات من البغايا الإناث والذكور ، ومصورون من الصحف التى تعنى بفضائح الناس وتبتز أموالهم بالتهديد بنشرها ، ويتحين هؤلاء الفرص لظهور شخص كبير المقام مخموراً أو مقبوضًا عليه إثر شجار مع صديق له ، وكثيراً ما تتحقق أمنيتهم . ثم هناك تجار السوق السوداء المتجولون ،أولئك الذين يبيعون السجائر المهربة أو المخدرات المحرمة قانوناً . وأخيراً هناك وكلاء الممثلين والقوادون وأفراد الطبقة الوسطى من أهل روما الذين جاءوا للنزهة . الحق أن المرء يستطيع أن يتابع فى شارع فينيتو عدة أنماط مماثلة للحياة ، أو قل سلسلة من الأحداث المترابطة فى الحياة الواقعية ؛ كل على حدة سنة بعد أخرى دون عناء ، وذلك بمجرد الجلوس إلى منضدة فى أحد مقاهى هذا الشارع كما يفعل فى أى شارع رئيسى أو فى أى ميدان Piazza فى كل جهة فى إيطاليا .

وحيث تكون إيطاليا فى مظهرها هذا أقل من إيطاليا الحقيقية وأكثر شبهًا بأى بلد فى شمالى أوربا ، فلا يفوت المراقب المدقق أن يكتشف بعض الخصائص القومية

تحت السطح الأجنبى ؛ فإن ميلانو Milan مثلا بمبانيها المشيدة من الصلب والزجاج ، وبوصفها عاصمة الصناعة والتجارة والمال ، تبدو هنا وهناك أشبه بزيوريخ ودوسلدورف أو بشارع ماديسون فى نيويورك . فترى جماهيرها أصحاء عليهم علامات التغذية الطيبة ، حسنى الملبس ، لهم عزائم ماضية ، ذوى كفاية فى عملهم منكبين عليه ، وتجدهم يندفعون بسرعة هنا وهناك مقطبى الجبين كما لو كانوا لا يملكون سوى دقائق قليلة للعثور على طبيب وإنقاذ حياة إنسان ، وفى بعض الأحيان يزدردون طعامهم وهم وقوف فى محال الوجبات الخفيفة . وكثيراً ما تجد رجال الأعمال الذين تقابلهم صموتين فاترين متحفظين موجزين فى حديثهم ، وحين يتكلمون فإنهم لا يحركون أيديهم الشاحبة ، ولا يقلبون عيونهم ذات اليمين وذات اليسار ، ثم هم يديرون مؤسسات على نطاق عالمى ، ويتنافسون مع اليابانيين والألمان ، ويطرحون مشروعات جديدة بارعة ، ويبنون السدود والجسور فى إفريقيا وآسيا ، ويتحدثون عن ملايين الدولارات . أما المبانى التى يعملون فيها فهى أعلى من أى مبنى فى أوربا ، وعمارتها أكثر جرأة وعصرية من مبانى نيويورك .

وتسأل نفسك : « هل هذه هى إيطاليا ؟ » ثم تتجول فى أنحاء المدينة فتكتشف الأحياء القديمة والميادين المهملة حيث يتسوق ربات البيوت ما يردن من سلع ، أو تكتشف الممر التجارى Galleria . ويوجد عادة فى وسط المدينة عند تقاطع شارعين تقاطعاً عمودياً وهو مغطى بالزجاج شأن المستنبت الزجاجى الفكتورى (Victorian hot-house) وتنتشر على جانبيه مناضد المقاهى وقد امتلأت بالزبائن المتلكئين الذين راحوا يراقبون المارة كما هو الحال فى ميدان سان ماركو فى فينتسيا ، وفى شارع فينيتو فى روما وفى شارع كاراتشولو Caracciolo فى نابولى ، أو فى مئات شوارع أخرى . ويتناقش المتسكعون فى أمور خطيرة ، ويلوحون بأيديهم ليؤكدوا نقطة هامة ، وبعض

هؤلاء من منشدى الأوبرا المتعطلين الذين ينتظرون عقد عمل يهبط إليهم من السماء، لينشدوا «ريجوليتو Rigoletto» أو «تروفاتورى Trovatore» فى الأقاليم أو فى الخارج: فى أمريكا اللاتينية أو فى أى مكان آخر، وهناك متجولون آخرون واضح من سيمائهم أنهم من أهل الريف، فهم حمر الوجوه بدينون صلد؛ أولئك هم فلاحون ووسطاء دأبوا على التجمع فى الجاليريا منذ إنشائها من حوالى مائة سنة، فى أيام معينة كل أسبوع ليتاجروا فى الحبوب، فيشتروا ويبيعوا فى نشاط ودهاء، ويتصافحوا فور الاتفاق على كل صفقة، ويسجلوا ذلك فى مفكراتهم الصغيرة. ويمكنك أن تدرك من الذى يخسر ومن الذى يكسب فى كل صفقة بمجرد ملاحظة وجوه أصحابها؛ وتعم الضوضاء هذا المكان ويمتلىء بالإيماءات، أو يمكنك فى وقت تناول المشهيات أن تتجول فى شارع مونتى نابليونى، وهو شارع قصير به حوانيت أنيقة تعرض سلعًا غالية الثمن، وسوف ترى هناك شبانًا وسيمين حسنى الملبس راحوا يتسكعون بخطوات ماكرة لينظروا فى ازدراء إلى النساء، فهناك نساء جميلات أنيقات يسرن فى تراخ ويرسلن عيونهن إلى الرجال ليجذبن أنظارهم إليهن، وسوف ترى فى الشارع نفسه سيارات فخمة جديدة كل منها نموذج فريد، وكلها أغلى سيارات فى العالم؛ سوف تراها تمر بك على مهل، أو تقف إلى جانب الطريق. وتستطيع هنا أيضًا أن تتابع ما يجرى بمجرد ملاحظة وجوه الناس، ويمكنك أن تميز الغزل الحديث العهد والعلاقة الغرامية القديمة البالية، والفتاة المفعمة بالأمل، وهى تلاحق الرجل الضجر، والشاب الولع الذى يصاحب حسناء ناضجة ذكية.

وحين تمعن النظر فيما حولك من أشياء وناس فى ميلانو، حتى ما أريد منها أن يبدو أجنبيًا بالغ الكفاية متطرفًا فى عصريته، حين تمعن النظر فى رجال الأعمال الأقوياء، وفى ناطحات السحاب التى تعكس فى مئات من نوافذها صور السحب

المارة فوقها ، وفى مبانى المؤسسات الصناعية التى ابتكرها فيما يبدو مهندسون مخبولون أو خيال كتاب القصص العلمية ، وفى الطرق العلوية التى تمتد فوق دعائم خرسانية .. تقول حين تمعن النظر فى كل ذلك تبدأ تكتشف أن كثيراً من الأشياء قد جاوزت الحدود ، وبولغ فى إبراز كيانها المفروض . الحق أن ميلانو فى أحيائها الجديدة هى أقرب شبهاً إلى زيوريخ ودوسلدورف وشارع ماديسون فى نيويورك ، بل قل أكثر شبها من زيوريخ ودوسلدورف وشارع ماديسون نفسها ، وبرغم ذلك فأنت فى إيطاليا .

أما الانطباع الآخر الذى يترك أثره فى ذهن السائح فهو ما يبدو من انكباب كل فرد — أو كل فرد تقريباً — على عمله فى صدق وحماس وإخلاص — وليس معنى هذا أن الإيطاليين يعملون كل شىء بكفاية وسرعة وإتقان ، الواقع أنهم لايفعلون ذلك ، وإنما هم فقط يؤدون عملهم بابتهاج واضح ، وكأن العمل ليس عقاب الإنسان ، فالملاحظ فى البلاد الأخرى أنه يقوم بخدمتك عادة أناس جلىّ أنهم يعتقدون أنهم خصصوا لشغل مراكز أسمى ، ولكن القدر القاسى فرض عليهم أن يقبلوا عملا مهينًا ، بلغ من حطته أنه جعلهم يحتكون بأناس بغيضين . وهذا أمر لايحدث إطلاقا فى إيطاليا ، فليس بها فرد يبدو ضجراً أو فظًّا أو متمرداً ، ويدخل عليك هذا الاكتشاف إحساسًا لطيفًا ، ثم هو أيضًا يحيرك بعد قليل فتسأل نفسك : وأحقًّا أن الإيطاليين برثوا مما قسم للناس عامة ؟ ترى هل هم محظوظون ، وأن كل فرد منهم يعمل فى الحياة العمل الذى يريده والذى صورته له آماله وبعثت به العناية الإلهية إلى الأرض ليحققه ؟

وهذا الابتهاج الواضح والحماس الجلى اللذان تؤدى بهما الأعمال سمتان معديتان ، فحالما تعبر الحدود تحيط بك وجوه باسمة ، فيذلل موظفو الجمارك الإجراءات

الفنية المعقدة بشأن البطاقة الجمركية الخاصة بسيارتك أو السجائر التى قد تكون فى حقيبتك . ويحمل أمتعتك حمالون مبتهجون . وحين تصل إلى الفندق يبذل بوابه المبتسم أومديره المرح قصارى جهده كى يجد لك حجرة فى فندقه المزدحم كما لو كنت قريباً عزيزاً من أقربائه ، وإذا قصدت مطعماً لتناول طعامك فسوف يشير عليك النادل الباسم بألا تطلب سمكاً اليوم كما لو كان حريصاً على صحتك . وعندئذ تبدأ تعتقد بأن كل فرد مهما كان مركزه وضيعاً أو مهيناً أو تافهاً له برغم ذلك كرامة يعتز بها ، كرامة الرجل الذى لا يحسد أحداً ، المرتاح البال المتحرر من القلق .

خذ مثلا منشدى الأغانى النابوليتانية فى مطاعم الهواء الطلق ، فكثيرون منهم لا صوت لهم ، وأذنهم الموسيقية خشنة ، وذاكرتهم فى تلاوة كلمات الأغانى ضعيفة ، وهم يكسبون قوتهم مما يلقى به إليهم الزبائن من نقود ، وفى بعض الأحيان يأكلون مخلفات المطبخ بعد إعادة تسخينها ، ولكنهم يغنون بحيوية بالغة لا تصدق ، ويرتجلون تعديلات على القطع الضعيفة ، ويبثون فيها عاطفة حلوة ، ويصبحون مفعمين بالحيوية والنشاط عندما ينشدون القطع البهيجة ، ويطلقون أنغاماً طويلة من أفواههم الصغيرة المستديرة كما لو كانوا صداحين tenors حقيقيين ، وهم يختارون لزبائن كل مائدة الأغنية المناسبة : الألحان الراقصة للشباب ، وأغانى لوعة الحب ووحشته للخطيبين المنعزلين والأغانى القديمة للمسنين التواقين إلى الماضى ، تماماً كأنهم فنيون يتناولون أجراً عالياً بمقتضى عقد ثابت ، أو خذ السيدات المهيبات الحنونات اللائى يشرفن على دورات المياه العامة فى الحدائق أو فى المطاعم ، فهن يفتحن لك الأبواب فى لطف وكياسة ، ويناولنك قطع الصابون والفوط وكأنها زهور ، ويتبادلن معك بعض كلمات رقيقة ، وفى النهاية يتقبلن بقشيشاً بسيطاً وهن يحنين رءوسهن انحناءة ذات هيبة ملكية ، أجل ، يبدو أنهن يعتقدن أنه ليست هناك وسيلة لأن يقضى

المرء حياته أفضل من البقاء وسط الخزف الصينى اللامع ، وهدير المياه المتكرر وشذا قطع الصابون الرقيقة والاحتكاك بهؤلاء الناس الممتازين !

وفى القرون الماضية كان النحاتون الأجانب فى إيطاليا ينبهرون دائماً بمهارة قطاع رخام تماثيلهم وتواضعهم وحماسهم ، أولئك الذين ترجموا نماذجهم الصلصالية التقريبية إلى حجر خالد ، وكثيراً ما حسنوها وهذبوها ؛ وعلى هذا النحو نفسه نلحظ فى روما اليوم أن مخرجى الأفلام الأجانب ، وهم رجال وقورون قادرون فى أوطانهم ، تعوزهم فى كثير من الأحيان تحليقات الخيال الملهم ، يذهلون ويكتسبون إحساساً غريباً هو الإحساس بالقدرة على كل شىء حين يعملون مع معاونيهم الإيطاليين المحليين المطواعين من مساعدى مخرجين ومصورين ومصممى المسرح ومهندسين معماريين وصانعى المناظر ، وميكانيكيين ونجارين وكهربائيين ، وسرعان ما يكتشف أشد هؤلاء المخرجين تواضعاً أنه يكاد يتحول إلى تيبيريوس أو نيرون أو كاليجولا ، أى حاكماً مطلقاً أسمى من البشر يصدر أوامر غريبة لا تحتمل ، إلى عبيد مخلصين ، فيجد أن أى شىء ، أى شىء على الإطلاق مما قد يستغرق فى بلد آخر أشهراً طويلة فى الجدال والنقاش ، يمكن فى إيطاليا تنفيذه فى الحال وفى بضع ساعات ؛ ذلك لأنه ليست هناك أية عقبات تعترض حريته فى التعبير عن أفكاره ، وليست هناك مراوغات حقيرة من المكتب الرئيسى ، ولا صعوبات مالية ولا قواعد نقابية تعوق وحى أفكاره ، ويستطيع فى النهاية أن يثبت أنه الفنان الكبير الذى أرادت العناية الإلهية أن يكون .

ويمكن مراجعة نص قصة الفيلم (السيناريو) وتهذيبه وتعديله فى أى وقت كلما طرأت للمخرج فكرة ذكية ، أو جاءت هذه عفواً لحظة وقت تصوير المنظر ، ويمكن طلب عمل ترتيبات جديدة لمناظر ابتكرت فى ليلة مليئة بالنشاط لم يغمض فيها جفن ، الأمر الذى يقوض برامج بأكملها ، كما يمكن جعل الأحداث العارضة

فى القصة مثيرة باستغلال منظر طبيعى رآه المخرج فى الريف أو باستخدام مواهب لم تكتشف لفتاة قابلها فى حفل ما . أجل ، هناك تحمس شديد للارتجال مما يجعل العمل مثيراً ؛ فقد يصدر فى بعض الأحيان اقتراح سديد من رجل الماكياج أو من الكهربائى المحلق بين مصابيحه تحت السقف فينفذ على الفور ، ويعلق المخرج المنفعل على ذلك بقوله : « هذه هى المادة التى صنع منها مسرح الفن Teatro dell'arte بل هى قوامه وجوهرُه » . وبالتالى فكل ما يقترحه المخرج من فكرة جديدة أو منظر جديد أو تحوير جديد فى حبك القصة يقابل بصيحات الترحيب الحارة من أعوانه الإيطاليين الذين يندفعون فى حمية ونشاط ويصدرون الأوامر العاجلة للتنفيذ ، ويرددون القول : « Che ci vuole » أى ليس هناك شىء مستحيل .

وطبيعى أن هؤلاء الناس لا يكرهون أن تمتد أعمالهم غير المستقرة إلى أجل غير مسمى ، والواقع أنه يحدث فى كثير من الأحيان أن عملية تصوير مفروض أن تتم فى صباح يوم ماقد تستغرق نهاراً كاملا وأحياناً قد تستمر طول الليل إذا اقتضت الضرورة ذلك دون أن يتذكر أحد من هؤلاء أنه فى حاجة إلى طعام أو نوم أو أن له بيتاً وأسرة وفراشاً يعود إليه . وهكذا فإن الفيلم الذى حدد لإكماله ستة أسابيع قد يستغرق لذلك مدة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أشهر . بل هناك عدد قليل من الأفلام لا ينجز إطلاقاً ، وجدير بالذكر أن تلك الارتجالات العفوية قلما تؤدى إلى تحسين الفيلم ، فهناك أفلام كثيرة تصبح فى نهاية الأمر بالغة الطول مملة معقدة ضعيفة ومبهمة ، ومن ثم يستلزم الأمر عمل شىء لها ، فتعاد إلى غرفة القص لتعديلها ، وكثيراً ما ينبغى إضافة صوت خارج الشاشة لتوضيح القفزات الغامضة فى القصة ، ومن الطريف أن عدداً غير قليل من مخرجى الأفلام العظام خابت آمالهم وتكبدوا خسائر جمة فى روما .

والأجانب العاديون الذين يفدون إلى إيطاليا لقتل الوقت وصرف دخلهم على نحو سائغ قدر الإمكان، يفتتنون بدورهم بما تتيحه الحياة الإيطالية من فرص وما تتسم به من راحة البال والتحرر من التكلف فهم حين يستأجرون بيتاً أو يستخدمون خادماً أو اثنين ، أو يشترون بذلة وعدداً من القمصان ، أو يطلبون إلى نجار الأثاث أن يصنع لهم بعض القطع طبقاً لشكل غير واضح رسم على ظهر مظروف أو طبقاً لصورة فى مجلة ، أو حين يبحثون عن قطعة قديمة أثرية لامناص لهم من أن يذهلوا لما يلقونه من كل فرد من معاونة وديعة حارة ، ويكتشفون لأول مرة نوعاً جديداً من التحرر حيث يستطيع المرء أن يطلب عمل أو تنفيذ أى شىء — أو قل أى شىء تقريباً — دون أن تزيد تكاليفه ، أو قد تزيد قليلا، عن تكاليف ما ينبغى عليه أن يتقبله من سلطات عليا فى بلاد أخرى ، فالحياة فى إيطاليا مطواعة لينة تثمر مادة يمكن صياغتها فى أى شكل ، وتبدو الإمكانيات فيها غير محدودة لا ينضب معينها ، ومن ثم يمكن إشباع كل نزوة ما دام المرء يملك المال ، ومع ذلك لن يتطلب هذا الإشباع مبالغ باهظة . الواقع أن المرء يستطيع أن يعبر عن نفسه فى إيطاليا .

ثم خذ بنات الهوى الإيطاليات ، فالمعروف أن السائحين الأجانب أصحاب الخبرة ، بل الإيطاليين أنفسهم ، يؤمنون أنه ليس هناك فى أوربا عاهرات محترفات يفقن زميلتهن الإيطالية حيث لها صفات خاصة بها وحدها ، فهى عادة معسولة اللسان وديعة ، بل هى أحياناً جبانة نوعاً ما ، خرقاء بعض الشىء ، حريصة على أن ترضى زبونها ، وتستطيع أن تكون حنوناً كالأم ، رفيقة كالأخت ، رافعة للكلفة كالزوجة ، كما يمكنها أيضاً أن تتحول فجأة إلى عربيدة قليلة الحياء وفاجرة مسعورة بارعة ، لقد ورثت من ماضيها السحيق الإلمام بمجموعة من مقومات الإحساسات المهذبة الرقيقة ، ولكنها تخفى فنها تحت ستار جذاب من التورط

المرتبك . نعم ، لقد تعلمت من الرومان القدامى أن الفن العظيم يجب أن يسترشد بأساليب خفية ، ويجب أن يبدو أنه الازدهار الطبيعى لمزاج اللحظة وباعثه !

ويبدو أن المال ليس هو هدفها المباشر فى الحياة شأنها فى ذلك شأن الفنانين الكبار . إنها بطبيعة الحال تفعل ما تفعل لقاء آلاف قليلة من الليرات ، ولكنها بطريقة ما توحى إلى زبونها أن دفع الأجر لمرات قليلة ، وبخاصة هذه المرة ، هو مجرد إجراء شكلى . وهكذا يبدو أن إتقانها دورها هو هدفها الحقيقى ومصدر المتعة بهذه الصلة الغرامية العفوية ، متعتها هى من غير ريب ، وتلك التى تقرؤها على وجه زبونها المتوهج . واضح أن ما تريده قبل كل شىء هو أن تخلق لحظة قوامها مجرد سورة كاذبة سريعة الزوال ، وفى نهاية الأمر سوف تقذف بالنقود جانبًا دون عدها وقد تضيع بعض الدقائق الثمينة فى التحدث إلى زبونها وكأنه صديق قديم ، وسوف تريه صورة ابنها الصغير الذى تعوله فى الريف لدى أمها الفلاحة ، وسوف تلحظ بقعة على سترة الرجل فتزيلها بالبنزين ، وقد تضع قرنفلة فى عروة سترته ، وفى كثير من الأحوال سوف تكون قبلتها الأخيرة على درجة الباب قبلة طاهرة رقيقة لا قبلة روتينية أو داعرة على الإطلاق ؛ بعبارة أخرى ليس هناك فى معاملتها لزبونها شىء عنيف أو تجارى أو جاف . إنها فتاة أبية تحترم نفسها .

ويميل السائح فى بادئ الأمر (بعد جمع هذه الانطباعات السطحية وقبل الغوص حقًا فى أعماق الحياة الإيطالية) إلى أن يقرر بأن ما سمعه وما قرأه من قبل كان خطأ كله ، ويظن أن الإيطاليين يتسمون بالشفافية ولا يقدرون على الرياء والنفاق ، فينغمر فرحًا مرتاح البال فى هذا الجو الجديد المسكر برغم أنه يعجز عن أن يميز بسهولة العناصر المختلفة التى تكونه ، ولا يبدأ — إلا بعد فترة من الزمن — يخامره الشعور أنه قد يكون هناك وراء هذا كله شىء من التمثيل أو التظاهر يرتفع بكل القيم ولكنه يشوهها بعض الشىء .

الفصل الخامس

المظهر الخداع وكاليوسترو

واضح إذن أن مظهر الحياة الإيطالية المرح العابث فى كثير من الأحيان ، الكئيب المفجع فى بعض الأحايين ، له خصائص المظهر الخداع أو قل العرض المسرحى ، فهو عرض بكلا المعنيين المقصودين من هذه الكلمة . ذلك أنه أولا وقبل كل شيء يكاد يكون دائماً مسلياً مثيراً جذاباً ، رائعاً إلى غير حد ، يفسر نفسه بنفسه ، مفعماً بالحيوية فاتناً ، شأن كل العروض الجيدة ، ومن الناحية الثانية فإن كل تأثيراته تدبر تدبيراً بارعاً وإن لم يكن متعمداً دائماً . حيث تتدرج لتحمل رسالة معينة إلى المشاهدين وتثير فيهم عواطف خاصة ، ومن ثم لا يمكن لغير الأغبياء أن يحجموا عن الابتسام أو عن الدهشة أو عن مسح دمعة تنحدر من مآقيهم ، طبقاً لما تقتضيه كل حالة ، ذلك أن الأغبياء عديمى الحس وحدهم هم الذين يسيئون تفسير المعنى الواضح لما يرونه .

ويلجأ الإيطاليون إلى التمثيل المثير والتعبير الحار عن العواطف عندما يكونون فى حضرة الغير . . . راقب مثلا أماً إيطالية وهى تدلل طفلها فهى — وإن كانت تفعل ذلك على انفراد ، شأن أى أم أخرى — حنون قلقة على طفلها ؛ ولكن حالما يدخل شخص ما إلى غرفتها تنتحل على الفور شخصية جديدة ، فيتألق وجهها وتفيض عيناها بدموع المحبة ، وتضم الطفل إلى صدرها وتغنى له وتناديه بأسماء التدليل الشاعرية ، وفى كثير من الأحيان حين ينطق الإيطالى بكلمات هامة صادقة (أثارها غضب أو حسد

أو دفاع عن مصالحه وكرامته أو حب متقد) فإنه فى الوقت نفسه يخدع بعينه ليتحقق من أثر كلماته فى الغير .

إن محاولة إحداث تأثيرات يدركها المرء عادةً فى الأشياء التى خلقها الله محاولة قائمة دائماً فى تلك التى صنعها الإنسان وكيّفها وعدّلها ، فأنت تلمسها فى الابتسامة الرقيقة الخجلة لطفل يستجدى ، وفى الواجهة الهائلة الفخمة لكنيسة مشهورة أو قصر معروف ، وفى إبريق من الزجاج الأخضر حوى نبيذاً أحمر وضع على سماط قرنفلى قرب ليمونتين صفراوين على شاطئ بحر أزرق داكن ، وفى صيادى السمك المسنين وقد جلسوا إلى جوار السور البحرى يدخنون غلايينهم المصنوعة من الفخار وكأنهم على استعداد لصورة فوتوغرافية ملونة لملصق سياحى ، ثم إن المنظر البائس لميدان قرية فى صقلية بكنيسته الباروك الضخمة ، والعاطلين المتسكعين فيه ، والحمير الهزيلة التى تخترقه هو صورة ملموسة معبرة عن الخراب واليأس ، على حين أن منظر مدينة صناعية فى شمال إيطاليا بمبانيها ذات الواجهات الزجاجية المركبة فى إطارات من معدن الكروم هو بدوره صورة ملموسة معبرة عن الكفاية والتقدم .

والغرض الأول من المظهر الخداع هو جعل الحياة سائغة مقبولة ، فالحياة وسط الطبيعة التى لم تمسسها يد الإنسان يمكن أن تكون عديمة المعنى مرعبة ، ويشعر الإيطاليون بالضيق حين تطوقهم الطبيعة ، ومن ثم دأبوا منذ قرون طويلة على قطع الغابات القديمة التى وجدت فيها آلهة الوثنية مأواها الأخير وكذا الأشجار الضخمة القائمة هنا وهناك ، وابتكروا منذ زمن طويل طرقاً لإجبار النباتات على الخضوع لإرادتهم ، فشذبوا الشجيرات إلى أشكال تشبه التماثيل ، وأنشأوا حدائق كانت أشبه بالمدن ذات المساحات الخضراء ، ونذكر بهذه المناسبة أن جبريل دانتزيو Gabriele d'Annunzio الذى ربما كان إيطالياً أكثر من أى إيطالى آخر ، قضى السنوات

الأخيرة من حياته منهمكاً فى اقتلاع أشجار وشجيرات حديقته الجميلة الواقعة على بحيرة جاردا Garda (وكان قد غرسها قبل ذلك بسنوات ألمانى محب للطبيعة) ووضع مكانها أنصاباً تذكارية وأسواراً حجرية وأقواساً رخامية وتماثيل رمزية، بل إنه نقل المقدم الحديدى لمدمرة من مخلفات الحرب العالمية الأولى وأقامه بين أحواض الزهور. وابتكر الإيطاليون منذ زمن طويل وسائل لتدفق المياه من النافورات فى أشكال زخرفية عربية منسجمة (توريقات متشابكة: أرابسك)، ثم إن فن تدريب الخيل على أشياء تبدو مستحيلة، ذلك الفن الذى لا يزال مزدهراً فى فينا وتتعهده مؤسستها المعروفة باسم «المدرسة الإسبانية لركوب الخيل» Spanische Schule Riders" كان قد أتقن أصلا فى نابولى منذ أربعمائة سنة مضت على يد بنيا تلى Pignatelli أحد أبنائها.

إن اللحظات المملة التافهة فى الحياة يجب جعلها جذابة سائغة بتزويقات وطقوس ملائمة، فالأشياء القبيحة يجب أن تختفى، والحقائق المفجعة يجب أن توارى كلما أمكن ذلك، ويجب أن يجعل كل شىء براقاً متلألئاً؛ فالوجبة البسيطة، والصفقة العادية، والخطبة المقبضة والاستسلام الجبان كل ذلك يجب تنميقه وتفخيمه بالتوريات والعبارات المنمقة وكل ما يثير العواطف. ولم تنشأ هذه العادات (كما يظن كثيرون) على يد شعب يجد الحياة مجزية سارة، بل شعب متشائم واقعى مستسلم فزع، يعتقد أفراده أن علل الإنسان لا يمكن شفاؤها وإنما يمكن تلطيفها فحسب، وإن الكوارث لا يمكن تفاديها وإنما يمكن تخفيف آلامها فقط، ويفضلون أن ينسلوا فى رشاقة على سطح الحياة وألا يغوصوا فى أعماقها.

ولكن هذا السعى الدائم وراء الملذات والتسليات السطحية وتزويق الحقيقة مهما كلف الأمر يمكن أن يصبح متخماً منفراً إن لم يكن مقترناً بما يسميه الإيطاليون «جاربو» Garbo وهى كلمة إيطالية يتعذر ترجمتها، وتشير إلى سمة جد ضرورية فى

إيطاليا ولها وزنها بين أهلها؛ فهى على سبيل المثال الحذر اليقظ الذى يغير به المرء ولاءه السياسى رويداً رويداً حين توشك الأمور أن تنذر بالخطر، وهى اللباقة التى يجب أن تبلغ بها فى لطف ووداعة الأنباء السيئة، وهى التناسق الذى يراعيه الحائك فى تفصيل سترة ليظهر خطوط الجسم أكثر جمالا وحسناً، وهى التحذير الودى الذى يوضع به حد للعلاقات الغرامية الموجعة، وهى المهارة التى بها يعيد مدير الأمن Prefetto النظام شيئاً فشيئاً إلى مقاطعة متمردة بدون أن يثير استياء وضجراً، وبدون هذه السمة Garbo تصبح الخطبة الوطنية الحماسية بلاغية متكلفة، ويصبح الإفصاح المنمق عن الحب سقيماً مملا، ويصبح البناء البالغ الزخرفة بغيضاً منفراً، وتصبح القطعة الموسيقية المنمقة شيئاً لا يحتمل. الواقع أن هذه الصفة —Garbo— هى التى تحفظ كل شىء فى نطاق المعقولية والذوق.

ومن المحال ألا يسحر المرء ويفتتن بالمظهر الخداع. فالإنسان فى إيطاليا لا يكون مفرداً ألبتة مع أفكاره، بل هو يشعر دائماً أنه منغمس فى البشرية وأن كل ما حوله واضح وصريح، وأن روائع إنجازات العناصر الطبيعية والمناظر الطبيعية وبنى البشر والعمارة تؤلف نوعاً من التسلية الدائمة المستمرة، بحيث لا يمكن أن يشبع الإنسان من هذه المباهج بل إن المواطنين أنفسهم لا يحتملون الابتعاد عنها زمناً طويلا؛ ومن ثم فإنهم حين يهاجرون يحيطون أنفسهم فى البلد الذى هاجروا إليه بأبناء وطنهم وبما ألفوه من الضوضاء والإيماءات وتعبيرات الوجه، وفى بعض الأحيان يستقرون وسط مناظر طبيعية مثيرة كتلك التى خلفوها وراءهم، مثلما فعلوا فى كاليفورنيا منذ أجيال مضت. ويعتقد أهل نابولى أن غيرهم من الناس يموتون حين يشاهدون بلدتهم (نابولى)، ولكن الشىء الذى لا ريب فيه أن النابوليتانيين يذبلون على نحو واضح حين يتركونها.

أما الأجانب فإنهم يتأثرون تأثراً مضاعفاً . ذلك لأنهم لم يشعروا قط من قبل بهذا الإحساس المسكر الذى يذهلهم شأنهم شأن أولئك الذين لاخبرة لهم بالأفلام السينمائية حين يشاهدون أول فيلم، فتذهلهم الصور التى يرونها فى حجمها الطبيعى ، ويجرفهم ما تثيره فيهم من عواطف ، ويتوهمون أن لابد أن يكون هناك خدعة ما ولكنهم لايبالون باكتشافها . وقلما يسألون أنفسهم عن سبب كون الحياة فى إيطاليا مثيرة للمشاعر إلى هذا الحد ، ولماذا قسم للإيطاليين أن يكونوا هم أنفسهم ممثلى مسرحيتهم القومية وكتابها وواضعى ألحانها ومخرجيها ، بل يكتفى هؤلاء الأجانب بالاستمتاع بالعرض فحسب ولكن حالما يبدءون يدركون أن الأمور ليست دائماً تماماً كما تبدو وأنه ليس لزاماً أن تكون الحقيقة معتمة بشعة ، فإن تفكيرهم يتبدل . وهذا الإحساس هام ، وهو اكتشاف أثر فى السائحين وبخاصة أولئك الذين لم يكونوا مجرد سائحين عاديين ، فقد حول بطريقة بارعة كتاباً كباراً اتصلوا بإيطاليا ، فإن الحيوية الجديدة التى لمسها الناس فى أعمال أدباء مثل تشوسر وملتن وجيته وجوجول بعد عودتهم من إيطاليا ، بل فى أعمال غيرهم ممن لم يبرحوا بلادهم قط أمثال شكسبير وبوشكن ، أولئك الذين عرفوا إيطاليا مما نقل عنها من أخبار وروايات ، نقول إن هذه الحيوية الجديدة ترجع إلى حد ما إلى أن هؤلاء الكتاب ربما درسوا اللغة وحاكوا النماذج الأدبية واتخذوا أساليب جديدة ، ولأنهم قبل كل شىء قد أدركوا السر الإيطالى البهيج ، وفحواه أن العيش يمكن أن تُضفَى عليه ألوان من التكريم والتمجيد بوصفه صورة للحياة ، وبذلك يكون عملا من أعمال الفن .

ويمكن أحياناً أن تهدف الأكاذيب اللطيفة وألوان التملق إلى المنفعة ، ولكن لا مراء فى أنه يجب اعتبارها من الأدوات التى اصطنعت فى نزاهة لجعل الحياة بهيجة سائغة فهى زيوت التشحيم التى تضمن سلامة العلاقات بين بنى البشر حيث

يضفى التملق بطريقة ما على أشد الرجال حذراً إحساساً بأنهم أخطر شأناً وأكثر ثقة بأنفسهم ، وبالتالى أكثر تسامحاً وكرماً ، أو قل شهامة ورحابة صدر . والتملق شائع فى إيطاليا بحيث أصبح أمراً عادياً من سنن الحياة يتنسمه المرء كما يتنسم أريج البنفسج فى الغابات فى فصل الربيع دون أن يدرك ما هو بالضبط سر هذا الإحساس اللطيف . فالكل هناك يطرون بعضهم بعضاً على الدوام ، وهكذا يقال دواماً للرجل الهرم إنه يبدو أصغر سنوات ، وللمرأة الشمطاء إنها جميلة ، وإنها أجمل فى هذا العام منها فى العام الماضى ، واليوم أكثر جمالا منها بالأمس ، والليلة أكثر جمالا منها فى الصباح ، ثم إن فى تلهف الغير على إطاعة أوامرك أو فى تذللهم للفوز بنصيحتك فى مسائل ليست لك بها خبرة عملية تملقاً يكاد يكون غير محسوس . ومن أمثلة التملق فى إيطاليا ما جرى عليه أهلها من استعمال الألقاب العلمية وغيرها ، فهم يضيفونها إلى اسمك وكأنهم يريدون أن يثبتوا لك أنك جدير من غير شك بهذه الألقاب بحيث يستحيل ألا تكون قد منحت إياها ؛ ومن ثم ينعتون رجل الطبقة الوسطى بلقب دكتور dottore فى أيام شبابه ، وبلقب كومند اتور Commendatore إذا تجاوز الأربعين ، ويستخدمون فى رسائلهم العادية عبارات مثل : السيد الأفضل ، أو الأجل ، أو الشهير ، أو الفذ أو صاحب السمعة الحميدة ، أو الرجل النبيل . ويطرى الحائكون قوامك ، ويصيح طبيب الأسنان قائلا : « إن لك أسنان الرومانى القديم » ، ولا يجد الطبيب الباطنى مناصاً من أن يقول : « إنه قلما صادف حالة أنفلونزا محيرة له كحالتك » ، وسوف يذكر لك تاجر القطع النادرة ، وتاجر الحلى ، والنادل ، والقصاب وكل فرد ، أن ذوقك رائع ، وأن خدمتك مصدر سرورهم ، وأنهم ما كانوا يبيعون لغيرك ما تشتريه ولاسيا بهذا الثمن الزهيد الذى طلبوه منك .

وطبيعى أن أحداً ما لا يأخذ هذه المجاملات والإطراءات مأخذ الجد — فلا يهم

أحدمثلا بالتملق الواضح الذى تتضمنه التحيات اليومية — وأذكر بهذه المناسبة أن أحد الأهالى فى نابولى (حاضرة التملق المغرق) حيا صديقًا لى بهذه الصيغة الساذجة اللطيفة : « سيدى فلتعتبرنى آخر زر فى بزة أصغر خدمك ! » ترى هل هناك عبارة أحسن ذوقًا من هذه ؟ ولكن صديقى لم يكن من أبناء نابولى ، ومن ثم أخذ على غرة ، ولم يعرف ماذا يقول ، فتمتم كلمات مقطعة غير مترابطة . أما الإجابة الصحيحة لتلك العبارة فهى بطبيعة الحال : « سيدى إن آخر زر فى بزة أصغر خدمى مصنوع من الألماس ! » .

ومعظم الأكاذيب اللطيفة — مثلها مثل التملق — بالغة الشفافية يتضح منها أنها فى الواقع ليست من أجل صالح الكذاب نفسه ؛ فحين يؤكد لك الإسكاف وقد وضع يده على قلبه قائلا : « طبعًا يا سيدى سأسلمك حذاءك الجديد يوم الخميس حتمًا ، فلا تقلق ! » فإنه يدرك تمامًا أنه لن يستطيع إنجاز وعده ، لأن الحذاء لن يكون جاهزاً فى موعده ، ولكنه يكذب لا لمصلحته ولكن لمصلحتك أنت ؛ ذلك أنه يريد أن تبقى مطمئنًا هادئ البال حتى يوم الخميس على الأقل ، وتظل فى هذه الفترة يحدوك الأمل بأن الحذاء سوف تتسلمه يوم الخميس . ومنذ عهد بعيد سخر الكاتب نورمان دوجلاس Norman Douglas بهذه العادة البريئة فكتب فى قصة له عنوانها «الأرض الفاتنة[1] The Siren Land» يقول على لسان بطلها : « هل يمكنك يا كوستَنْزا الجميلة أن تعدّى لى شيئًا من الطعام أسدّ به رمقى ؟ » فأجابته : « كل ما تأمر به » . . . فقاقيع رقيقة من لطف أهل الجنوب وكياستهم لاتلبث أن تتبخر فور وخزها إلى نوع آخر من المكرونة ، ولا يمكن إنكار أنه فى الدقائق القليلة السابقة لظهور

---

(١) هى مجموعة كائنات أسطورية عند الإغريق — لها رءوس نساء وأجسام طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك .

صحن المكرونة بعث ماتوقعه الرجل من إجابة كوستنزا شيئاً من الاطمئنان فى نفسه، مثله فى ذلك مثل الأيام القليلة السابقة ليوم الخميس الذى حدده الإسكاف لزبونه .

بل إن الآلات الدقيقة الإيطالية مثل عدادات السرعة والساعات الكبيرة روعى فيها أن تكذب من أجل إسعادك — فعداد السرعة فى سيارتك يسجل دواماً رقماً يزيد بقدر يتراوح بين ١٠٪ و ٢٠ ٪ على السرعة الحقيقية التى تسير بها ليجعلك تشعر بأنك فخوراً بسيارتك و ببراعة قيادتك لها ، ثم لتجعلك تخفض السرعة قبلما كنت تفعل فيما لو كانت هذه هى السرعة الحقيقية ، و بذلك تنقذ حياتك . وجدير بالذكر أن كل الساعات الكبيرة فى محطات السكك الحديدية متقدمة خمس دقائق ، وطبيعى أن كل فرد يعرف ذلك ، ومع هذا فإن المسافرين الذين يصلون إلى المحطة فى الميعاد يسرعون فى خطاهم حالما يقرءون ساعتها .والأجانب وحدهم هم الذين يفوتهم القطار أحياناً إذا تباطأوا أكثر من اللازم . ومن الناحية الأخرى فإن الساعات الكهربائية المركبة فى القطارات نفسها تكون فى كثير من الأحيان متأخرة بضع دقائق حتى تخدع المسافرين بأنهم وصلوا فى الميعاد إن كان قطارهم متأخراً أو قبل الموعد بقليل .

وتستخدم الخدع الواضحة الشفافة على نحو مطرد لتغرس فى المرء أثمن الأحاسيس الإيطالية، أعنى الإحساس بأنه نموذج فريد وشخصية بارزة جديرة باعتبار خاص . ويشعر الإيطالى بأنه من الواجب تشجيع هذه الخدع فى زملائه بنى البشر ، ثم هو يشعر قبل كل شىء أن هذا هو واجبه نحو نفسه ؛ فلا يقر أحد ما فى إيطاليا أنه « رجل عادى » ، بل إن كل فرد يقنع نفسه لأسباب معقدة بعيدة الاحتمال أحياناً أنه من أبناء الرب المميزين . ويمكن دعم هذا الإحساس لا بالكلمات وحدها بل بوسائل أخرى كثيرة . خذ مثلا تذاكر المسارح ، فإن من يدفع الثمن كاملا

لمشاهدة مسرحية يدل على أنه شخص لاأصدقاء له ولانفوذ له ؛ ومن ثم ليس غريباً أن نصف رواد المسارح الإيطالية يدخلونها بالمجان، على حين أن النصف الآخر يدفعون أجراً مخفضاً (ويعرف أولئك الذين يدخلون المسارح مجاناً باسم البرتغاليين Portoghesi لا لأنهم من أبناء البرتغال ولكن لأنه منذ قرون كثيرة مضت حدث أن أقيم حفل فى روما لتكريم بعثة برتغالية، فاكتظ الحفل بجمع غفير من أهالى روما الذين أعلنوا عند دخولهم أنهم برتغاليون ليتهربوا من دفع الأجر) ، كذلك لايدفع فرد ما أجر تذكرة السكة الحديد كاملا ، وهناك أناس من كل صنف يسافرون بالمجان، ويتمتع الباقون بتخفيضات هائلة . ولايدفع الأجر الكامل سوى السادة العظام Grands Seigneurs من الأجانب والإيطاليين .

ويهوى الإيطاليون الشماليون رواية النكتة التالية دليلا على شغف أبناء نابولى بأن يضفوا على أى إنسان الإحساس بأنه يتميز عن غيره . وتتلخص النكتة فى أن أحد أبناء ميلانو أراد فى أثناء زيارته نابولى شراء طابع بريد ، فسار فى أحد الشوارع وهو يحمل خطابه باحثاً عن حانوت تبغ حيث تباع الطوابع فى إيطاليا ؛ وحدث أن قابل فى طريقه أحد معارفه من أبناء نابولى الذى أدرك طلبه على الفور وقال له : « أتريد طابع بريد؟ هل تعرف كيف تشتريه ؟ أتقصد أى مكان ؟ يا لك من ساذج ! إنه من حسن حظك أنك قابلتنى ، فينبغى أن تكون حريصاً حذراً هذه الأيام . إننى أعرف مكاناً طيباً هو خير الأماكن فى نابولى . ماذا أقول ؟ أجل إنه خير الأماكن فى كل جنوب إيطاليا . إن صاحبه تباغ من الطراز القديم ، فهو رجل أمين موثوق به ، وليس من أولئك التباغين الحديثين الجشعين الذين يحبون المال حباً جماً . سآخذك إليه » . فلما وصلا إلى الحانوت ودخلاه غمز النابوليتانى بعينه غمزة لم تخف على الميلانى ، وراح يخاطب التباغ الواقف وراء نضده قائلا : « يا جوسبى ، هذا صديق لى من

ميلانو ينبغي خدمته بكل احترام جدير به . إليك مشكلته . إنه يريد شراء طابع بريد، نعم طابع بريد من فئة ثلاثين ليرة لخطاب بالغ الأهمية سيرسله فوراً ، ولقد أخبرته بأنك الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يسد حاجته على نحو كامل وترضيه كل الرضا . ألا يزال عندك بعض الطوابع الجيدة من فئة ثلاثين ليرة . أعنى تلك الجيدة جداً التى بعتها لى الأسبوع الماضى ؟ دعه يشترى منك واحداً منها ، واحداً من أفضلها » .

أما الإيطاليون الأقل عوزاً فإنهم يوفقون فى إخفاء أسلوب التملق والمداهنة نفسه تحت قناع من الرصانة المهنية . من ذلك أن رجال الأعمال المهذبين من الشمال يعرضون على بعض وكلائهم صفقات مثيرة مشجعةوفرصاً خيالية فى مشروعات مربحة بشروط مرضية سخية قائلين للوكيل : « هذه كلها من أجلك وحدك » . والواقع أن معظم هذه الأشياء يصعب الحصول عليها قدر صعوبة الحصول على طابع بريد من فئة ثلاثين ليرة بثلاثين ليرة !

بيد أن المظهر ليس نزيهاً خالصاً دوماً بل إنه يجرى فى كثير من الأحيان لتدعيم مصالح صاحبه وأسرته وأصدقائه وحُماته . وكم من الأمور المستحيلة تصبح متاحة فى هذا البلد ، وكم من العقبات المنيعة تذلل بالملابس المناسبة وتعبيرات الوجه المناسبة والإخراج المناسب والكلمات المناسبة! أجل بهذه الأشياء يستطيع أى فرد إطلاقاً أن يكتسب اهتمام ورعاية وعطف الجمهور عامة أو شخصية منفردة هامة وقد أعجب بهذا الأسلوب الخاص الكاتب ألاستير ريد Alastair Reid حين حضر اجتماعاً أدبياً عقد فى سنة ١٩٦٢ فى فورمنتور Formentor بمايوركا لمنح جائزتين لاثنين من الكتاب المجهولين ، فكتب يقول : « لقد تحدث الإيطاليون وأبدوا آراء هم ببلاغة مقنعة بحيث لم يستطع أحد أن يلزمهم بمراعاة الزمن المحدد الذى اتفق عليه من قبل،

وقدره سبع دقائق لكل متكلم؛ وحدث مرة أن الكاتب فيتوريني Vittorini توقف عن الكلام بشكل مسرحي في منتصف إحدى عباراته ليقول إنه قد تجاوز مدته، فصاح الحشد المبهور: «استمر استمر»، فواصل حديثه لأكثر من عشر دقائق. لقد أدى كل من تحدث في الاجتماع من الإيطاليين دوره أحسن أداء، وكانت كل كلمة نطق بها مثالا لبراعة الأسلوب»، (ونجح الإيطاليون في تلك السنة في إقناع زملائهم بمنح إحدى الجائزتين لواحدة من بين مرشحيهم هي أديبة شابة مناضلة من أتباع مورافيا Moravia الكاتب الإيطالي المعاصر).

وفي بعض الأحيان يكون المظهر الخداع من عمل مدينة بأسرها تريد أن تبدو إما مزدهرة ثرية أو بائسة تعيسة طبقًا لمقتضى الظروف. مثال ذلك أن روما جعلت تبدو أكثر عصرية وثروة ونفوذاً بإضافة وحدات كاملة من مبان مصنوعة من الورق المقوى شيدت على غرار مناظر السينما حين زارها هتلر في سنة ١٩٣٨ (في هذه المناسبة كتب شاعر اللهجات الشعبية تريلوسا Trilussa حكمته الساخرة البارعة التي قال فيها: «روما المبنية من الحجر وأعيد بناؤها من الورق المقوى تحيي نقاش البيوت الذي سيصير مولاها المقبل»).

وفي بعض الأحيان يكون المظهر الخداع من عمل دولة بأسرها، فعقب الحرب العالمية الثانية تدفق موظفون إيطاليون إلى نيويورك ليصفوا فقر إيطاليا وجوعها وما لحقها من دمار وبؤس كي يحصلوا بالمجان من الحكومة الأمريكية على هبات من القمح والقطن والزيت وغير ذلك من المواد الخام، في حين هرع زملاء آخرون لهم إلى نيويورك ليصفوا صورة مختلفة تمامًا لبني وطنهم وأنشطتهم المحمومة وأملهم الجديد وحماسهم وانطلاق طاقاتهم وإيمانهم بالمستقبل، وذلك كي يحصلوا على قروض عادية. وفي أحيان أخرى عهد إلى أفراد الفريق نفسه في القيام بمهمة هاتين

البعثتين . وحين تنقل هؤلاء من مكتب إلى آخر أو من حفل حضره موظفو الحكومة إلى آخر حضره رجال المصارف الخاصة سارعوا إلى تغيير تعبيرات وجوههم ونبرات أصواتهم . وبطبيعة الحال لم يكذبوا قط ، فكلتا الصورتين صادقتان .

ومنذ زمن طويل أوصى بهذا النوع من السلوك كتاب شهير قَلَّ أن قرأه أحد من الإيطاليين . ولعل تعاليم مؤلفه قد ترسبت فى أعماق ضمائر مواطنيه حتى غدت اليوم جزءاً من طبيعتهم نفسها ، أو أن المؤلف بوصفه إيطالياً قد صنف فحسب ما كان يعرفه نوعاً ما كل إنسان وقتئذ وما ظل يعرفه بعد ذلك بقرون . والكتاب الذى نحن بصدده ألفه بَلْداسار كاستليونى Baldassar Castiglione وجعل عنوانه The Book of the Courtier وقد تم طبعه فى فينتسيا سنة ١٥٢٨ ، وسرعان ما ترجم إلى الإنجليزية بعنوان « دليل رجل البلاط » ، واشتهر بأنه المرشد الوافى لصغار أعضاء البلاط الإنجليزى حتى عهد إدوارد السابع ، ويعلم كاستليونى كل من يقرأ كتابه الكثير من الكياسات الضرورية للفوز برعاية رئيسه ومحبته وثقته ووسائل المحافظة عليها ، وييسر له سبيل الرقى فى هذه الدنيا ، فيعلمه كيف يكون خبيراً بساحة الطعان ، ملماً بآداب المائدة ، وكيف يتصرف فى حضرة السيدات ، وفى قاعة مجلس الشورى .

وكان كاستليونى خير من أعد لكتابة هذا البحث ، فقد كان أبوه نبيلا ثرياً ، وكانت أمه تنتسب إلى بيت جونزاجا Gonzaga العريق . ولد فى سنة ١٤٧٨ فى بلدة كازاتيكو Casatico بدوقية مانتوا Mantua ، وعنى والده بتربيته ، وصار رجلا متنوع المواهب والإنجازات أجاد فيها كلها ، ولكنه لم يتفوق فى أى منها ، كان جندياً ، وسياسياً ، وعالماً ودبلوماسياً ومؤلفاً بعض القصائد اللاتينية المشهورة ، ورياضياً وناقداً للفن خبيراً به ، وكان ملماً بتقاليد البلاطات الرئيسية فى أوربا ، زار لندن فى

سنة ١٥٠٦ ليقبل نيابة عن مولاه جويدو بالدودوق أوربينو Guidobaldo d'Urbino تقليده وسام ربطة الساق من الملك هنرى السابع ، وكان كاستليونى صديقاً لأشهر الشخصيات المعروفة فى عصره بما فيهم رافاييل الذى رسم صورته المودعة اليوم فى متحف اللوفر . وكانت إرشاداته عملية وحكيمة دائماً . .

إليك مثلا ما يذكره عن مواجهة أخطار الحرب ، منقولا عن الترجمة الإنجليزية لكتابه : « أينما يكن رجل الحاشية فى مناوشة أو غارة أو معركة برية أو غير ذلك من ميادين المغامرة فعليه أن يدبر الأمر بفطنة فى فصل نفسه عن الزمرة ، وعليه أن يتولى الأعمال البطولية الفذة الجريئة المنوطة به مع أقل عدد من الرفاق وعلى مرأى من الرجال البارزين الذين يلقون أعظم احترام بين الجند وكذا فى حضرة وأمام عينى مليكه أو شخصية كبيرة يكون هو فى خدمتها (إذا كان ذلك ممكناً) ؛ ذلك لأنه من الملائم حقاً أن تظهر فى العرض أعمال متقنة » .

وكاستليونى سيد فاضل ، ولايحرض قارئه على أن يتهرب من واجبه ، ومع ذلك يجب على المرء ألا يبدد بطولته يجب عليه أن يباشر أى واجب خطير يلزمه أداؤه على أن يراعى بشىء من الجاربو Garbo ألايغمر عمله بين أعمال أخرى كثيرة ، فعليه أن يحسن تقديمه أمام جمهور من الصفوة وأصحاب النفوذ حتى لاتضيع جسارته عبثاً وتلقى شجاعته مكافأة وتقديراً . . ترى هل جميع مهارات وحيل رجل البلاط صادقة مستقيمة حقاً ؟ لقد طمأن كاستليونى قارئ كتابه مرة بعد أخرى إلى أن المهارات التى ينادى بها ليست بالضرورة مشينة إذا استخدمت على الوجه الصحيح ، فهى ليست مشينة أكثر من البراعة التى يستطيع بها الرياضى الأفضل هزيمة خصمه فى المباراة . (ألن تقول أيضاً إن من يهزم زميله . . . فى المبارزة يخدعه ، لأن مهارته تفوق مهارة زميله !) ثم هى ليست مشينة أكثر من براعة الصائغ الموهوب الذى يجعل حجراً

كريمًا أجمل وأروع بتركيبه فى إطاره على نحو سليم لائق (ترى هل تقول إن الصائغ يخدع بصر من يفحصون حلية ما ؟) .

وليست الحيل صادرة دائمًا عن الرغبة الدنيئة فى خداع المشاهدين وبهر أبصارهم ، فى كثير من الأحيان تصبح تهيئة العرض الخدّاع الوسيلة المثيرة للعواطف للتمرد على القدر ، ومواجهة ما فى الحياة من ظلم وجور بسلاح من الأسلحة القليلة المتاحة لشعب يائس شجاع ، وليس هذا السلاح إلا خيالهم القوى . وبديهى أن الفرد يشتهى ويؤثر أن يكون صاحب نفوذ غنيًا على أن يكون ضعيفًا فقيراً ؛ والأمر نفسه ينطبق على أية أمة . ويدرك الإيطاليون هذه الحقيقة كما يدركها غيرهم ، ولكن لسبب ما كان من العسير عليهم إلى أبعد حد أن يظفروا بالسلطة والمال سواء على الصعيد الفردى أو القومى ، فماذا كان عليهم أن يفعلوا ؟ لقد لجأوا إلى التمثيل فأخرجوا صورة زائفة تكاد تكون طبق الأصل من الشىء الحقيقى . ومهما يكن من أمر فى الأوقات العادية حيث لاتكون هناك صراعات ما يمكن اعتبار السلطة الحقيقية والسلطة الزائفة متساويتين . والواقع أنه إذا أبرزت السلطة الزائفة على نحو مقنع أمكن أن تكون مرعبة كالسلطة الحقيقية ، وباستخدامها قد يكسب المرء الأمن والسكينة سنوات قليلة أو أجيالا ، وهو كل ما يتمناه ، ولكن الأزمات نادرة الحدوث ، وقلما تحلّ دون إنذار ، ويمكن تأخيرها أو تحاشيها بإحداث تغير لبق فى السياسة ، وهذه طريقة محفوفة بالمخاطر ، فقد تستمر فترة معينة ، وربما تستمر زمنًا طويلا جدًا ، ولكنها لاتدوم أبداً . فى مرحلة ما تقضى السلطة الحقيقية على السلطة الزائفة وينتهى كل شىء فى إخفاق تام ؛ ولكن المظهر الخدّاع خير من لاشىء وخير من قبول هزيمة حالية فى استسلام وإذعان .

ولا شك أنه من الأفضل إلى أقصى حد أن تكون غنيًا من أن تبدو غنيًا ، ولكن

إذا لم تتيسر لفرد أو لأمة المزايا والفرص اللازمة لكسب المال وجمعه فماذا عساه أو ماذا عساها أن تفعل ؟ إن فن التظاهر بالغنى لقى رعاية وتشجيعاً فى إيطاليا على نحو لم يحدث فى غيرها ، فإن مدناً إقليمية صغيرة كانت فى القرون الماضية عواصم لإمارات بالغة الصغر مثل لوكا ، ومودينا ، وبارما ، ومانتوا ، وفِرّارا Ferrara تتباهى بقصورها الفاخرة ، وقلاعها المهيبة ، وكنائسها الضخمة ، ودور الأوبرا الفخمة ، وكلها لاتتناسب — إلى حد يدعو إلى السخرية أحياناً — وحجم الإمارة التى تمثلها وعدد سكانها ، وكانت هناك فى نابولى أسر أرستقراطية معدمة لا تستطيع شراء العربات وتحمل نفقاتها ؛ ومن ثم كانت لا تمتلك سوى أبواب العربات وقد نقش عليها شعارات النبالة ، فكانت تُركب هذه الأبواب فى عربات تستأجرها فى الأيام النادرة حين تحتاج إلى الظهور فى موكب عام ؛ وكانت هنا وهناك أسر أخنى الدهر عليها ، اقتصدت كل ليرة ، واقتصرت فى معيشتها على استخدام عدد قليل فقط من غرف قصورها ، واكتفت فى طعامها بتناول البطاطس المسلوق مع خدمها فى المطبخ ، كل ذلك لتقيم حفلة راقصة كبيرة مرة فى السنة ، وعندئذ كانت الصالونات المذهبة تفتح للمدعوين ، وتضاء آلاف الشموع فتبدد الظلام ، فى حين وقف على الدرج الرخامى خدم استؤجروا ليوم واحد وقد ارتدوا بزات قديمة ، وأمسكوا فى أيديهم الريفية الحمراء شمعدانات فضية ، وراحت فرقتان موسيقيتان تتناوبان العزف وتملآن الجو بأنغامها ، وفى غضون ذلك كانت الشمبانيا تتدفق فى سخاء بين الضيوف . ولايزال هناك اليوم سادة يعيشون متوارين فى قرى منعزلة حيث يديرون ما تبقى لهم من أملاكهم ، ثم يظهرون مرة فى السنة ليتوجهوا إلى مونت كارلو أو باريس أو بيارتز لقضاء بضعة أيام ، وينزلون فى أشهر الفنادق ، ويتناولون الطعام مع سيدات تحلين بالجواهر ، ويسرفون فى دعوة الضيوف الأثرياء وإكرامهم فيُدعَوْنهم بدورهم ويكرّمون ،

ويدفعون للخدم نفحات سخية ، ثم يعودون إلى مخابئهم سنة أخرى يقترون فيها على أنفسهم .

ويجب على المرء أن يضع هذا نصب عينيه حتى اليوم، حيث بلغت البلاد ولأول مرة فى التاريخ ثراء غير عادى ، فالإيطاليون اليوم يرتدون ثياباً حسنة ، ويقودون سيارات فخمة ، ويترددون على المطاعم الباهظة التكاليف ، وقد لا يمتلك بعضهم (لا كلهم بطبيعة الحال) أكثر من الملابس التى يرتدونها وسيارة لم يسددوا بعد كل ثمنها الذى يدفعونه أقساطاً ، والنقود التى يدفعونها ثمناً لوجباتهم الغالية ، وتشيد الشركات الجديدة مبانى فخمة من الصلب والزجاج لمقارها الرئيسية ، وتخصص بعضها جزءاً كبيراً من مواردها المالية لتأثيث مكاتبها المتألقة وزخرفتها . وقد أوضح الإخصائيون الاجتماعيون أن العمال غير المهرة فى جنوبى إيطاليا حين يحصلون على أول عمل ثابت لهم منذ قرون طويلة ينفقون أجورهم أولا وقبل كل شىء فى مشتريات كمالية مزوقة ليتباهوا بها، مثل ساعات اليد وأجهزة الراديو والتليفزيون والملابس الزاهية المتعددة الألوان ، على أن أهم ما يبتغونه هو الظهور بمظهر الرخاء والتأكد من ذلك مما يقرءونه فى نظرات جيرانهم الحاسدين . والواقع أنهم لا يبدءون يحسنون بيوتهم إلا فيما بعد ، فيشترون بعض الأثاث والبطاطين والملاءات والأوعية والأوانى . وآخر شىء ينفقون فيه نقودهم هو الطعام الأفضل ، لأن هذا مستور لا يراه الناس .

والارتياب فى أن ما يحيط بالمرء فى إيطاليا قد يكون مظهراً خداعاً أمر يقلق البال ويشوش المزاج ، فهو يربك المراهقين الإيطاليين حين يبلغون رشدهم ، على حين أن الابتهاج الذى يحس به الأجانب فى بادئ الأمر لا يلبث الشك والحياء أن يجعلاه مراً منغصاً حين يطيلون إقامتهم فى إيطاليا . يقول الدبلوماسيون فى روما والغم يملأ نفوسهم : « إن إيطاليا على نقيض روسيا ، ففى موسكو لا يعرف المرء شيئاً ومع ذلك

فكل شيء واضح جلي ، أما في روما فكل شيء علني وليست هناك أسرار ما ، فكل فرد يتكلم ، وتجرى الأمور أحياناً على نوع رائع ومع ذلك فالمرء لايفهم شيئاً » . ولتحاشى الأخطاء يستنتج بعضهم في سرعة بالغة أن كل شيء زائف وأن شيئاً ما ليس على حقيقته كما يبدو ، وأن المرء لايستطيع قط أن يعوّل على المظاهر ، ومن ثم فإن لكل شيء صورة مزدوجة كتلك التي يراها الرجل المخمور . وهؤلاء الحذرون يخدعون في سهولة ، شأنهم شأن غيرهم من السذج ، فإن مظاهر إيطاليا ليست خدّاعة دائماً . ترى هل الشاب أقل حباً لفتاته إذا هو غازلها بأسلوب مثير ؟ وهل القرية في صقلية أقل بؤساً لأنها تبدو بائسة على نحو واضح ؟ وهل الجيش أقل قوة إذا خرج في استعراض رائع ؟ ليس هذا صحيحاً بالضرورة ، وبطبيعة الحال ليس صحيحاً دائماً ، الواقع أن الشيء وصورته كثيراً ما يتطابقان تطابقاً كاملا ، وكذلك قد يتطابقان تقريبياً وقد لايتطابقان إطلاقاً ؛ ومن ثم ليست هناك وسيلة أكيدة لتبين الحقيقة .

خذ مثلا هذه الحالة العادية التي يتكرر حدوثها ، أعني الحيرة التي تعترى فتاة أجنبية جميلة تقابل عشيقها الإيطالي في حديقة أو في جندول Gondala في هذا الجو الإيطالي وتحت ضياء القمر . . إن الرجل يهمس في أذنها كلمات تودّد واستعطاف ويتدرج في مغازلتها ، ويشتط حتى تصعب مقاومته ، فماذا في وسعها أن تفعل ؟ ترى ما معدنه الحقيقي ؟ قد يكون محباً صادقاً كأي رجل آخر وربما كان أكثر براعة ، وعلى النقيض من ذلك تماماً قد يكون ممثلا بارعاً وأفاقاً محتالا ، أو قد يكون أي شيء بين هذا وذاك ؛ فقد تختلف الحقيقة عن الصورة قيد شعرة ، ومثل الصورتين اللتين تراهما طبقاً لقياس المسافة في آلة التصوير . وفي كثير من الأحيان لايدرك العاشق نفسه أين تنتهى الحقيقة ، وأين يبدأ الكلام الملفق ؟ فقد يظن مخلصاً أنه

يحب الفتاة ، ولكنه قد يكون عاشقاً فاتراً ومحباً عابراً تجرفه العواطف وتدفعه براعته ، أو لعله وجد التحدى لبراعته وجرأته أشد مما يمكن مقاومته فى موقف بالغ الصعوبة تجاه فتاة طاهرة عفيفة ، أو قد يكون متهوراً فى حبه . ومهما كانت مشاعره فإن سلوكه يكاد يكون دائماً مبهجاً مثيراً ولبقاً ، فلا تملك الفتاة المسكينة إلا أن تستسلم فى حدود المعقول ، وتلعب دورها وتحتفظ بهدوئها وتستمتع بالعرض أو المظهر الخدّاع .

وليس لزاماً أن يكون المرء فتاة جميلة أو دبلوماسياً أو رجل أعمال ليصادف المشكلة ، حيث يواجهها كل من يرتادون المعالم الإيطالية التى تستحق المشاهدة ، فكل شيء يجب أن يفسر على أسلوب مشابه. ولنبدأ أولا بالآثار ، فإن أكبرها فى إيطاليا أقيم فى ميدان فينتسيا فى روما إحياء لذكرى فكتور إمانويل الثانى ، وواضح وجلى أنه يعبر عن التقدير العظيم الذى يكنه شعب معترف بالجميل للملك والقائد العسكرى المسئول عن تحرير إيطاليا ، وعن تأسيس دولة إيطالية موحدة فى سنة ١٨٦١ ، وقد شيد هذا المبنى فى أوائل القرن العشرين أو الفترة الزاهرة وأسلوب عمارته الفخم صورة للطراز الرومانى الإمبراطورى. ويجب علينا أن نتغاضى عن حقيقة أنه منذ إقامته وتدشينه فى سنة ١٩١١ عرضت مئات من الأفلام السينمائية صوراً له ضمن مناظر قصصها ، كما صنعت من الورق المقوى Papier Maché نماذج لاتحصى لأعمدته وواجهته الأمر الذى أفسد بعض الشيء أثر الشكل الأصلى فينا .

وفضلا عن ذلك فإن المرء حين يتفحصه عن كثب يسائل نفسه : لم أقيم هذا المبنى الضخم فى قلب روما القديمة وعلى أقدس تلالها السبعة ، ؟ ولماذا لم يشيد فى متنزه خارج المدينة على مرتفع أقل قداسة وتبجيلا ، قل فوق مونت ماريو مثلا ؟ ولماذا

يحجب كامبيدوليو Campidoglio ويبتلعه ؟ ترى هل كان منظر التل الشهير مقلقاً لكبرياء الإيطاليين الحديثين ؟ (وبطبيعة الحال يعرف المرء سبب كون رخام هذا المبنى الشامخ من الرخام الناصع البياض بطبيعته لامن الترافرتين Travertine حجر روما الذى شيدت منه مبانيها ، ذلك أن رخامه قطع من مكان قرب بلدة برشيا Brescia ، لأن رئيس وزراء إيطاليا وقتئذ واسمه زاناردلى Zanardelli كان من برشيا) ثم لماذا كان طرازه إمبراطورياً على نحو واضح متعمد ؟

وشيئاً فشيئاً يبدأ المرء يميز نصباً تذكارياً آخر فى أسفل المبنى الأول . إن حجم المبنى المفرط فى ضخامته ، وكذا موقعه وأسلوب عمارته ، لتكشف لنا عن إحساس بانعدام الأمن كان يساور الأقلية الوطنية التى استطاعت أن تحقق الوحدة الإيطالية وعملت على تدعيمها ضد قوى معارضة ساحقة تقريباً . واضح أن تلك الأقلية أرادت أن تمجد بطلاً قومياً غطى على كثيرين من أبطال الماضى ، بطلا مخلصاً لوطنه يمحو كل الإيطاليين المارقين ، أجل أرادت أن تمجد ملكاً يمحق كل أنصار الجمهورية فى حركة البعث الإيطالى Risorgimento . الحق أنه يمكن القول إن فكتور إمانويل الثانى لو لم يوجد إطلاقاً أو لو أنه لم يكن ملكاً شجاعاً كريماً على النحو الذى كان عليه لاصطنعته الصفوة الحاكمة فى ذلك الوقت ، ولأضفت عليه كل ما كان عليه أن يحرزه من فضائل بلوتاركية . وهكذا لامناص للمرء فى نهاية الأمر من أن يستنتج أن هذا النصب التذكارى ليس فقط تعبيراً صادقاً لشعب معترف بالجميل لذكرى مليكهم العظيم ، بل إنه كذلك تمثيل مسرحى لهذا التقدير .

أو خذ بعض الكنائس . نعم ، خذ أكبرها جلالا ووقاراً ، أعنى كنيسة القديس بطرس . لاجدال فى أنها مكان عبادة يثير الإعجاب ساهم فى جعلها على هذا النحو

جميع الفنانين العباقرة ، فكان ميكلأنجلو أحد مهندسيها المعماريين ، وتتوافر فيها كل الأدوات والناس اللازمة لإقامة الشعائر الدينية ، وتنظم فيها على نحو دورى حفلات فخمة وفقاً لطقوس دينية عريقة فى القدم خصصت لما للكنيسة الكاثوليكية من أسرار ملهمة وتعاليم مقدسة ، وبين جدرانها يتحول سنوياً مئات من غير الكاثوليك عن مذهبهم ويعتنقون الكاثوليكية ، ويثبت يومياً آلاف من الكاثوليك على دينهم ويلقون فيه راحة وسلوى ، ولكن حين يقارن المرء هذه الكنيسة بكنائس غيرها فى جهات أخرى وبقليل من الكنائس العريقة فى القدم القائمة فى روما نفسها يجد أنها قد تكون بالغة الإفراط فى زخرفتها وتنميقها وملئها بمظاهر دنيوية ، ورحابتها بحيث تصرف الزائر عن الأحاسيس الدينية الخالصة التى ترتبط عادة بأماكن العبادة .

ولا يستطيع المرء أن ينصرف بكليته إلى الصلاة فى هذه الكنيسة إلا بشىء من الصعوبة ، حيث تلهيه ألوان رخامها النادر ، وعمارتها المعقدة ، وتفاصيل نقوشها الدقيقة المتقنة وإيماءات تماثيلها ، وموسيقاها السماوية ، وحشود الزائرين فى غدواتهم وروحاتهم . ومن ثم يبدأ المرء يدرك فى مرحلة معينة أن هذه ليست مجرد كاتدرائية عظيمة ، ومكاناً للعبادة ، ومقر الكنيسة الرومانية المقدسة ، ولكنها أيضاً الصورة المسرحية لكل ذلك ، ويكتشف المرء أنها ليست مصممة فقط لتثير الأحاسيس الدينية ولكن لتترك فى نفس المشاهد انطباعاً عميقاً بقوة الكنيسة وجلالها وثروتها وصلابتها ، وبالتالى بمجد الرب ، وإذا تصادف أن دخلت أحد المخازن السرية التى تحفظ فيها الرصائع والجواهر والأدوات اللازمة للشعائر المختلفة فلن تجد مفراً من أن تنتهى إلى استنتاج لا يتسم بالاحترام هو أن كنيسة القديس بطرس هى دار التمثيل المقدسة التى يملكها الرب .

وفى مرحلة معينة يصبح تقصى الناحية الثانوية لكل شيء إيطالى نوعاً من اللهو : ترى هل السائل الجائع الذى يستجدى فى الشارع سائل حقيقى أو صورة له أتقن تزييفها ؟ وإلى أى حد يمكن أن نعتبر السيد « ا » السياسى المعاصر ذائع الصيت الذى تظهر صورته فى الصحف كل يوم ، رجل دولة حقيقة ، وإلى أى حد هو مهرج بارع ؟ وإلى أى مدى يصدق نعت السيد « ب » بأنه روائى كبير ، والسيد « ج » بأنه ممثل عظيم ، والسيد « د » بأنه مخرج سينمائى قدير ، والسيد « هـ » بأنه شاعر فحل ؟ بطبيعة الحال ليست هناك إجابة بسيطة خالصة لكل هذه الأسئلة ، فقد يكون معظم هؤلاء السادة الأفذاذ متفوقين فى مهنتهم كما يبدون ، ولكن لاشك فى أنهم فى الوقت نفسه مشخصون مهرة ، وقد تكون قلة منهم مدعين بارعين ، ومن ناحية أخرى قد يكون بعضهم أعظم مما يبدون أمام الجماهير ، وقد يكون آخرون عظماء بطريقة أخرى .

خذ مثلا دانتزيو D'Annunzio فقد عاش عيشة أمير من أمراء النهضة : وانغمس فى الشهوات ، واقتنى مجموعة من الكلاب وخليطاً من التحف البراقة القديمة والأقمشة المقصبة والعطور الشرقية النادرة والحلى المتلألئة وإن كانت غير غالية الثمن : وعنى بهندامه فدأب على ارتداء ثياب أنيقة كتلك التى يلبسها عضو فى ناد من نوادى لندن ، وكان يفضل أن يقضى لياليه مع دوقات ، وممثلات شهيرات وروسيات مفتونات ، وكتب شعراً ونثراً بأسلوب بالغ التنميق ، وأولع بالخروج للصيد ممتطياً جواده ويحيط به كلابه ، وكان فى مذهبه السياسى يمينياً متطرفاً ، بيد أنه كان فى حقيقة الأمر عبقرياً ريفياً معدماً ابن تاجر متواضع من بلدة بسكارا Pescara

وعلى النقيض من ذلك هناك ألبرتو مورافيا Alberto Moravia الذى يرتدى قمصاناً صوفية محبوكة حول العنق وثياباً رثة ، ويكتب فى كثير من الأحيان بلغة سمجة

لايتحدث بها إلا السوقة ، ويطلق لنفسه العنان فى استخدام كلمات يعاقب الأطفال
على التلفظ بها ، ويصطحب معه ممثلات سينمائيات ناشئات لاعمل لهن ، وشاعرات
مجهولات تخرجن حديثاً من المدرسة ، وبنات عمال المعادن والبنائين ، وموارافيا
يسارى متطرف فى مذهبه السياسى ، وحقيقة الأمر أنه ابن أسرة بورجوازية ثرية
عنيت بتربيته وفقاً للمعايير الصارمة التى سارت فى العقود الأولى من هذا القرن (وهناك
صور له فى ثياب أنيقة تشبه ثياب أبناء اللوردات الإنجليز وكذا فى زى البحرية) ،
ويستطيع أن يعيش فى يسر على دخل أملاكه التى ورثها عن أبيه الذى كان مهندساً
إنشائياً لم يعرف كللا أو مللا .

إن كلا الرجلين دانتزيو وموارافيا كاتب رائع ، وكلاهما ممثل نموذجى لجيله ،
وحاول كلاهما أن يصبح الناطق بلسان طبقة معينة ونوع من حياة لم يكن ينتمى
إليها . لقد بلغ هذا الأداء المسرحى من الكمال درجة يكاد يكون من المستحيل معها
أن يقرر لأول وهلة إلى أى مدى تطابق الشخصية الحقيقية الشخصية الزائفة ،
فكثيراً ما يتطلب التقويم الصحيح فترة من الزمن ؛ وفى غضون ذلك يجب على المرء أن
يتصرف بحذر .

ويجب أن نسلم بأن هذا صحيح تقريباً فى بلاد كثيرة أخرى كما كان صحيحاً
فى كل العصور ، حيث كان هناك دائماً رجال بارزون لعبوا دورهم بمهارة وحذق
وكان التشخيص جزءاً أساسياً من مهنة الشخصيات العظيمة فى كل العصور . أجل
لقد مات نيرون معتقداً أنه كان ممثلا بارعاً لعب دور إمبراطور رومانى ، واشتهر
لويس الرابع عشر بإخلاصه طول حياته لواجباته بوصفه مولعاً بالاستعراض المسرحى ،
واستطاع رجال كثيرون إقناع الجماهير بعظمتهم ، على حين لم ينجح غيرهم إلا فى
إقناع السذج على بعد ولمدة قصيرة . وكثيراً ما اتخذت الأحداث التاريخية الكبرى
شكل العرض المملوء بالمراسم . وثمة آثار ومبان ظلت هى هى كما كانت منذ

قيامها ، ولكنها فى الوقت نفسه تكتسى مظهراً خداعاً . خذ القلاع القديمة فى أى مكان فى أوربا : إلى أى حد كان لها قيمة عسكرية حقة ؟ وإلى أى حد صممت لتبث فى العدو الإحساس بمناعتها ؟

وهذا ينطبق أيضاً على إيطاليا . ولكن هناك اختلافاً جوهرياً ، ففى جهات العالم الأخرى تكون الأسبقية دائماً للجوهر ، ويعتبر المظهر الخارجى ناقصاً ، ولكنه ثانوى ؛ أما هنا فى إيطاليا فالمظهر مهم قدر أهمية الحقيقة ، بل قد يفوقها فى الأهمية أضعافاً مضاعفة ، ولعل هذا راجع إلى أن جو إيطاليا أتاح للإيطاليين العيش غالباً خارج بيوتهم ، فى الشوارع والميادين ، وهم يكونون آراءهم عن الناس والأحداث اعتماداً على ما يرونه ويسمعونه ويلمسونه ويشمونه لا على ما يقرءون أو يتعلمون ، أو لعل ذلك راجع إلى أنهم ميالون بطبيعتهم إلى تدبير مشهد مثير ، وتمثيل شخصية ، وإخراج مسرحية ، أو لأنهم أكثر سعادة من غيرهم بالمظهر بحيث لا يمكنهم مواجهة الحياة إذا اختزلت إلى حقيقة عارية تجردت من الزخرف ، وقد يرجع إلى أن المظهر يمكن أن يكون حلا رضياً لكثير من الأشياء التى تعوزهم ، أو لأنهم يحبون قبل كل شىء ممثلا قديراً يستطيع أن يهزهم ، أو موقفاً مثيراً يمكن أن يبث فيهم تلك الأحاسيس التى لا يمكن أن يثيرها على الوجه الأكمل غير الفن . ومهما كان السبب فإن النتيجة تتلخص فى أنه فى كل الأوقات يعتبر الشكل والجوهر الشىء نفسه تماماً ، ولا يمكن بقاء أحدهما بدون الآخر ، فالتعبير هو الشىء المعبر عنه .

ولا بد للمرء من أن يدرك إدراكاً كاملا هذا الاعتماد على الشعارات والمظاهر إن أراد تفهم إيطاليا والتاريخ والعادات والحضارة والطباع الإيطالية ، وإن شاء التنبؤ بالمستقبل . وينبغى ألا يغفل هذه الحقيقة كل من لا يريد خداع نفسه ؛ فهذه سمة أساسية فى الخلق القوى تحدد الحياة العامة والخاصة وتشكل السياسة والخطط السياسية .



الممر التجاری (جالیری) — نابولی

ثم نقول عرضًا إنها من أسباب تفوق الإيطاليين فى كل الأنشطة التى يبرز فيها المظهر ويسود ، مثال ذلك : فن العمارة ، والزخرفة ، والبستنة المنظرية ، والفنون التشكيلية ، والمهرجانات والمواكب ، والألعاب النارية ، والمراسم والحفلات ، والأوبرا ؛ وزاد على ذلك اليوم التصميم الصناعي وحُلى المسرح ، والأزياء المبتكرة والسينما ؛ وبهذه المناسبة نذكر أن الدروع الإيطالية فى العصور الوسطى كانت أجمل الدروع فى أوربا كلها ، فكانت تتميز بزخرفتها الكثيرة وشكلها الأنيق وتصميمها البارع ، ولكنها كانت خفيفة رقيقة بحيث كانت عديمة الجدوى فى القتال ، ومن ثم فضل الإيطاليون أنفسهم فى الحرب استعمال الدروع الألمانية التى كانت قبيحة المنظر ولكنها عملية وأكثر أمنًا .

وكان من الطبيعى أن يميل الإيطاليون إلى الإسراف فى إطراء تلك الإنجازات التى تحيد على نحو خطير وإلى أبعد ما يكون عن الحقيقة ، أعنى تلك التى تنتهى إلى صناعة أشياء بديلة دون أن تزعم أنها تحاكى النماذج القائمة ، وتكون برغم ذلك رائعة فعالة مقنعة مثيرة أو ممتعة . خذ مثلا على ذلك الرخام المقلد ، فمنذ أقدم العصور تميز الصناع المحليون المهرة بقدرتهم الفذّة على صناعة رخام يشبه الرخام الأصيل ؛ ومن ثم فإن نصف الرخام الذى يراه المرء فى الكنائس أو قصور الأشراف ليس فى حقيقة الأمر سوى جص أملس دهن بطلاء يخدع البصر ، وليس هو بالضرورة أرخص دائمًا من الرخام الأصيل ؛ فقد يكون أحيانًا أغلى من هذا وأصعب منالا بمراحل . ومن بين كل أنواع الرخام المقلد يكنّ الإيطاليون تقديراً أكبر لذلك الذى لايحاكى فى الواقع شيئًا على الإطلاق بل يبتدع مزيجًا من ألوان لم توجد قط فى الطبيعة ، وهكذا فإن ما يقدر بنوع خاص هو جرأة صانعيه وتحديهم البروميثى (المبدع) للرب .

والكلمة الإيطالية الدالة على هذه البراعة هى Virtuosismo ، وقد تمثلت خير تمثيل فى الموسيقى العظيم نيقولو باجانينى Nicolò Paganini الذى كثيراً ماختم عزف أشد ألحانه (سوناتا) تعقيداً بعد أن يكون قد حطم كل أوتار كمانه عدا وتر واحد. واشتهر البارعون Virtuosi الإيطاليون على مر القرون بأنهم أخرجوا فيضاً غامراً من الإنجازات التى تخدع البصر وتخدع العقل وتخدع القلب ، وملأوا المكتبات بأشعار غرام رائعة لم تصدر عن هوى مبتذل بل عن براعة رائعة فى اختيار مجموعات من الكلمات المتناغمة المضبوطة فنياً ، وفى وسعهم أن يكتبوا مقالات معصومة من الخطأ تثبت النقيض المطلق لما يعرفه كل فرد أنه الحقيقة كما أنه فى استطاعتهم أن يحرروا أبحاثاً علمية قامت قصداً على بيانات كاذبة نوعاً ما ، وأن يقوموا بدراسات تاريخية روعى فيها إغفال الحقائق التى تتعارض ورأى المؤلف . ويعتز بعض المحامين الجنائيين اعتزازاً خاصاً ويفخرون بتبرئة تلك الفئة من موكليهم الذين يعلمون عنهم أنهم مذنبون حقاً .

ويدرك كثيرون حقيقة الخدعة ، ولكنهم مع ذلك يمتدحون براعة صانعها ، ذلك لأن هذه الأعمال لايمكن أن يفعلها إلا الرجل البارع ، ففى وسع كل إنسان أن يعد عجة من البيض ، ولكن العبقرى وحده هو الذى يستطيع أن يصنعها بدونه . وليست البراعة Virtuosismo بالضرورة تباهيا فارغاً بالمقدرة إذ كثيراً ما تكون لها قيمة عملية ؛ خذ مثلا الحرب فى عصر النهضة ، فقد كانت فى سائر البلاد تعنى معركة حماسية دموية بين جيوش هائلة ، فمن قتل عدداً أكثر من الأعداء كان النصر حليفه ؛ أما فى إيطاليا فقد كانت الحرب تمثيلية إيمائية (Pantomime) ظريفة بيضاء فعلا لايراق فيها دماء ، تمثيلية يخرجها قادة مرتزقون Condottieri يجزل لهم الأجر ، ويضفون عليها مظهر القتال المسلح ، فيزينون المسرح بكل ما يتطلبه هذا الإخراج من

أعلام بديعة وخيام ملونة وخيل مطهمة ومجموعة من الريش الجميل ، ويصحب ذلك كله ما يناسب الموقف من موسيقى عسكرية وقرع الطبول وصيحات تقشعر لها الأبدان ، وحرك أولئك القادة المرتزقة جنودهم القليلين بين كر وفر ، وطارد كل منهم الآخر عبر ولايات شاسعة وتغلب على حصونه ، وكان النصر يقرر بمفاوضات سرية وبتقديم الرشاوى ، ومع ذلك كان هذا أسلوبا متمدينـًا وممتعـًا لشن الحرب ، فكثيرا ما خلف المشاكل دون حل حاسم قدر ما فعلته الحرب فى بلاد أخرى ، ولكنه كان أقل فى النفقات وفى الضحايا وفى الآلام .

لقد اتهم الإيطاليون فى كل عصر بالخداع ، ويعتقد أنهم يبرزون فى المجالات المشينة المريبة مثل الديبلوماسية وحبك المؤامرات والمضاربات الاحتيالية وتدبير أعمال الغش والاختلاس . ويشير أجانب قساة إلى أن الإيطاليين هم الذين قننوا فنون الخداع السياسى ، وإلى أن بعض كبار المغامرين الدوليين كانوا إيطاليين ، وكثيراً ما تردد ذكر اسم جاكومو كازانوفا Giacomo Casanova وكونت كاليوسترو Cagliostro للدلالة على صحة هذا الرأى ، والواقع أن هذه الاتهامات قديمة ، وبلغ من قدمها أن بعضها يرجع إلى العصور الوسطى ، وقد يرجع بعضها الآخر إلى أزمنة ممعنة فى القدم ، فهى متأصلة فى الأهواء العنصرية والدينية وما يقترن بها من سوء فهم . ومهما يكن من أمر فهناك شىء من الحقيقة فى بعض هذه الاتهامات .

ويجب قبل كل شىء التسليم بأن فضائل الإيطاليين شأنها شأن فضائل غيرهم قد تنحط أحيانـًا إلى ما يناظرها من رذائل ، وهكذا من السهل أن يتحول تقتير الفرنسيين إلى جشع ، وتحفظ الإنجليز إلى عزلة صماء بكماء ، ونشاط الأمريكيين المفعم بالحيوية إلى تهور أحمق ، ومن ثم ليس عجيبـًا وقد امتلك الإيطاليون القدرة على تصحيح مظهر الحياة الخارجى وزخرفته أن يميلوا إلى الإفادة بهذه الموهبة ،

كى يحيروا جيرانهم من أجل مصلحتهم هم أنفسهم ؛ ولكن شيئًا ما يمنع الإيطالى دائمًا من تحقيق احتيال هائل خالد عن نطاق عالمى ، فهو عادة فريسة مكايده ودسائسه . والأفاقون الإيطاليون مؤسسو الديانات المزيفة والممولون المحتالون على نطاق واسع ،هم قلة ضئيلة إذا قورنوا بأولئك الذين نشأوا فى بلاد أخرى ، ومن ثم لاتقترن فضيحة من الفضائح الدولية الشهيرة فى التاريخ باسم إيطالى، فقد كان الاقتصادى المغامر جون لو John Law اسكتلنديًا . ولم يتورط أى إيطالى فى كارثة إفلاس شركة البحر الجنوبى South Sea Bubble أو فى مشروع المضاربات فى أبصال نبات التيوليب فى هولندة ، أو فى فضيحة شركة قناة بنما وأسهمها فى باريس فى أواخر القرن الماضى ، أو فى قضية ستافسكى Stavisky فى فرنسا فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، أو فى نمو وانهيار إمبراطورية كروجر Kreuger السويدى ملك الكبريت .

ولاشك أن الإيطالى جا كومو كازانوفا (١٧٢٥–١٧٩٨) كان رجلا سيء السمعة تميز بكل الصفات اللازمة لحياة أفاق ومحتال دولى بالمقارنة بأكبر الأفاقين الأجانب ، ولكن يمكن إثبات أن ما حال دون بلوغه ذروة النجاح هى خصائصه الإيطالية الأصيلة . كان كازانوفا طويل القامة ، وسيم الطلعة ، عريض الجبين ، رومانى الأنف ، له مظهر الرجل المهذب ، تحوطه هالة من المهابة ، وكان زاخراً بالحيوية والنشاط ، مليئًا بالصحة والعافية ، كما كان ذكيًّا موهوبًا ، أجاد الكتابة فى سلاسة دافقة ، وعزف على آلات موسيقية مختلفة ، وتحدث وكتب بلغات شتى فى سهولة ويسر ، وتميز أسلوبه فى اللغتين الإيطالية والفرنسية بالرشاقة ، وكان واسع الاطلاع ، وكثيراً ما ارتجل اقتباسات عن الآداب اللاتينية واليونانية والمؤلفين المعاصرين . واستطاع أن يتحدث مع الفلاسفة والشعراء والروائيين حديث الند للند ،

وزار فولتير ليناقشه في مسألة ثانوية . وفتن النساء من أول نظرة ، نقصد النساء من كل الأعمار والطبقات ، واستطاع أن يصيرهن ضعيفات مستسلمات لتوسلاته وينال منهن ما يشاء واحدة بعد الأخرى مراراً وتكراراً دون أن يلحقه كلل أو ملل ، سواء كان ذلك نهاراً أو ليلا ، وسواء كانت من أعجب بها بدينة أو نحيلة ، شابة أو متوسطة العمر ، قذرة أو أنيقة ، سيدة راقية أو خادمة ، بغياً أو راهبة ، وظل بهذه الحيوية والحماس الفني إلى أواخر أيام حياته .

وتكلم كازانوفا بأسلوب مقنع ، وكثيراً ما انتحل أية شخصية يختارها . كتب في مذكراته يقول : « إن سري بسيط ، فإني دائماً أقول الحقيقة ، وبطبيعة الحال يصدقني الناس » . والواقع أنه كذب في مذكراته ، فإن أقل ما يقال عما ذكره من أحداث ونوادر أنها كانت بعيدة الاحتمال ، كما كانت أحياناً سخيفة غير معقولة على نحو صارخ . ومع ذلك فقد وثق به بعض الناس إلى حين . وكان عديم الضمير لا يرعى أية مبادئ خلقية في أي مجال يطرقه . وقد توفي سنة ١٧٩٨ معدماً وحيداً بعيداً عن وطنه ، حيث كان قد أنقذه من العوز صديق محسن هو جراف والدشتين Graf Waldstein فعينه أميناً لمكتبة قصره في بلدة دوكس Dux في بوهيميا Bohemia ، وكان هذا العمل كئيباً بغيضاً لهذا الأفاق الكبير ، فقضى آخر سني عمره في نزاعات مذلة مهينة مع خدم جراف الذين سخروا من هذا العجوز الذي لم يكن له حول ولا قوة وجعلوه أضحوكة لهم .

أما الأفاق الإيطالي الآخر السيء السمعة والذي يتردد اسمه عادة إلى جانب اسم كازانوفا فهو جوسبي بلسامو Giuseppe Balsamo (١٧٤٣—١٧٩٥) هكذا كان اسمه يوم مولده ، ولكنه أطلق على نفسه اسم كونت السندرو دي كاليوسترو (وكاليوسترو هو لقب أسرة عمة له متزوجة كانت هي التي أشرفت على تعميده) ويكاد يكون

من المتعذر تعليل نجاحه . وصف بأنه كان قصير القامة ، بدين الجسم ، قبيح المنظر ، داكن البشرة ، جاهلا ، عابس الوجه ، سيماؤه تثير الريبة ؛ وكان متغطرساً جلفاً متبجحاً تنتابه سورات غضب عنيف . ولم يعرف عنه أنه كانت له عشيقات بل كان زوجاً مخلصاً . ولما كان أمياً فعلا فإنه لم يحسن الكلام إلا بلغة واحدة هى اللهجة الصقلية ، وكان يتكلم غيرها بنبرة صقلية واضحة ؛ كتب الشاعر السويسرى الصوفى لافاتر (١٧٤١–١٨٠١) Lavater إلى صديقه الشاعر الشاب جيته يقول : « ليس هناك شىء مغر بشأنه » . وكان جيته بالغ الاهتمام بأمر هذا الدجال المشهور بحيث إنه لما زار بالرمو بذل جهداً خاصاً ليثبت لنفسه بالدليل القاطع أن كونت كاليسترو وجوسى بلسامو هما إنسان واحد (وهو أمر أنكره كاليوسترو حتى وفاته) ، ومن ثم راح جيته يبحث عن أفراد أسرته ووجدهم قوماً فقراء أبرياء يخافون الله ، وتحدث إليهم فى مطبخهم البالغ النظافة ، وعندئذ طلبت الأم الحزينة إلى الشاعر الألمانى إذا قدر له أن يقابل ابنها فى الشمال (شمال أوربا) أن يذكره بأنه لايزال مديناً لها بمبلغ من المال منذ سنوات مضت عند زيارته الأخيرة لموطنه ، وذلك حين رهن بعض الحلى ولم يقم باستردادها إطلاقا . وقال أقاربه لجيته : « لقد بلغنا أن جوسبى قد جمع ثروة ، وأنه يعيش الآن عيشة رجل ثرى جداً . ما أسعد حظنا لو أنه عاد إلى وطنه وتولى رعايتنا ! » . هذا هو تعبير صادق لمطمع كل من فى صقلية ، أعنى أن يعوله قريب غنى .

ولد جوسبى بلسامو فى صقلية فى سنة ١٧٤٣ ، والتحق بدير وهب رهبانه أنفسهم لعلاج المرضى ، فعلموه مبادئ الفنون الطبية التى قدر لها أن تفيده فيما بعد ، وهرب من الدير بعد فترة قصيرة ، وزار اليونان ومصر وبلاد العرب وفارس ورودس ومالطة ، وراح يتلمس قوته من أعمال كثيرة غير مشروعة ، فاشتغل بأعمال السحر التى أولع

بها الفقراء والأميون الذين حافظوا على التقاليد والمعتقدات القديمة ، وراح يبيع جرعات من أدوية ، ويصنع التمائم ، ويستحضر الأرواح ، ويصيغ الرقى والتعاويذ ، ويتنبأ بالمستقبل ، ويشفى المرضى . بل إنه حاول أن يهلك على البعد أعداء زبائنه وذلك لقاء أجر زهيد . وأهم من ذلك كله أنه مارس فناً تميز فيه بموهبة خاصة حرص طول حياته على تهذيبها وبلوغها حدّ الكمال : ذلك هو نسخ أى توقيع فى إتقان بالغ بحيث إنه كثيراً ما خدع صاحب التوقيع الأصلى ، كما استطاع أن يزيف الوثائق العويصة على اختلاف أنواعها .

ونزح بلسامو إلى روما حيث التقى بلورنزا فيليتشانى Lorenza Feliciani وتزوجها ، وهى ابنة حرفى بسيط ، وكانت ساحرة الجمال بحيث تعذر فعلا مقاومة فتنتها . وظلت « مغرية » كما وصفها بعد ذلك بعشرين سنة شهود عيان وقُرُّ موثوق بهم . وهكذا فإن ما تعذر على بلسامو أن يحققه بسبب سماته البغيضة المنفرة استطاع الآن بلوغه بمساعدة زوجته ، فقد جذبت لورنزا الباسمة الأغنياء وفتنتهم ، ونال بعضهم منها ودفعوا لها أجراً سخياً ، واكتفى بعضهم الآخر بالاستدفاء بضياء جمالها . ووقع هؤلاء وأولئك فريسة لجشع زوجها ، فى بعض الأحيان كان كاليوسترو يتظاهر بأنه شديد الغيرة على زوجه ليبتز المال من زبونها بالتهديد والوعيد (فعل ذلك فى لندن دون مشقة مع رجل متزوج كان من طائفة الكويكرز) ولكنه كان فى كثير من الأحوال يعد فى هدوء النقود الواردة عن طريق زوجه (ولم يكن هذا عملا غير عادى فى عصره . يروى أن زوج إحدى راقصات الباليه المشهورات فى القرن الثامن عشر اعتاد أن يقول : « إن القرون كالأسنان توجع عندما تظهر ثم يأكل بها المرء ! ») وفى الوقت نفسه واصل كاليوسترو ممارسته فنونه هو .

وتجول الزوجان الشابان فى أنحاء أوربا كما كان ينبغى أن يفعل المغامرون البارعون .

وعاشا حياة الترف أينما ذهبا يعاونهما ويشجعهما على ذلك الأصدقاء الأثرياء وذوو الشأن الذين سرعان ما كانت لورنزا تجمعهم حولها . فنى بطرسبرج تولى الفيلد مارشال بوتيمكين (١٧٣٩—١٧٩١) Potemkin نفسه رعايتهما . ونظم كاليوسترو فى كل مكان توقف فيه محفلا لمذهب ماسونى من ابتكاره هو أطلق عليه اسم «الطائفة المصرية Egyptian Order » تميزت بأسرار سحرية لم تسمع عنها أية طائفة أخرى، وانخرط فى هذه الطائفة كل أصدقاء زوجته وسط مراسم وطقوس معقدة دأب على أن يقيمها لهم بهذه المناسبة. وزعم كاليوسترو أنه من بين المزايا الكثيرة لطائفته هذه أنها أتاحت لأعضائها الفرصة لأن يشتروا من القفط الكبير Grand Copht ، أى الزعيم نفسه أحد الإكسيرين الشهيرين اللذين اخترعهما : أولهما وأرخصهما إكسير يوقف مظاهر تقدم عمر المرء فور تناول أول جرعة منه، أما الثانى فإنه يعيد للمرء شبابه ويرده إلى الوراء عشر سنين وعشرين أو ثلاثين سنة حسب الجرعة التى يتناولها . وراج الإكسيران رواجاً هائلا وملأ كاليوسترو أوربا بزجاجات تحويهما .

وأولع كاليوسترو بأن يلفت النظر إلى أنه مثل حىّ لنجاح وصفته السرية ، فقال إن عمره يبلغ آلاف السنين ، وإنه يتذكر كل ما رآه طيلة القرون التى عاشها ، فكان يستغرق فى ذكرياته عن بناء الأهرام والأباطرة الرومان الذين قابلهم وما ذكره له السيد المسيح . . . بعبارة أخرى لم يفته أن يصادق كل عظماء الماضى ، ولعله كان أكبر من وعى الأسماء الواردة فى التاريخ . بيد أن صناعة الإكسيرات كانت من بين أقل نشاطاته ، فقد تولى بنفسه طقوساً وتجارب فى السحر من كافة الأنواع وحول الرصاص إلى ذهب أمام نظارة متشككين ، واتصل بالأرواح العلوية ، وشفى المرضى ، وتكهن بالمستقبل . وكان بعض هذا كله مجرد شعوذة، بيد أن بعضه الآخر أظهر أنه يمتلك قدرات غامضة غيبية من نوع ردىء، والحق أنه شفى كثيرين

من مرضاه ، وصدقت بعض تنبؤاته ، فحين فرّ من باريس فى سنة ١٧٨٥ تنبأ بقيام الثورة الفرنسية وبتدمير الباستيل وبقدوم أمير عظيم يصلح الدين .

وكان الكاردينال دى روهان (١٧٣٤ — ١٨٠٣) مقتنعًا بأنه رآه فى قصره فى ستراسبورج وهو يصنع الذهب فعلا وينشىء من أحجار بالغة الصغر ماسة كبيرة تساوى ٢٥,٠٠٠ جنيه — وصرح الكاردينال بقوله : « إنه سيجعلنى أغنى رجل فى أوربا » ؛ وأقام لهذا الساحر على درج قصره الريفى فى سافرن Saverne تمثالا نصفيًّا من الرخام نقش عليه عبارة « كاليوسترو المقدس » . وفى باريس التى اشتهرت بكرم وفادتها للمشعوذين لقى كاليوسترو وزوجه نجاحًا باهراً ، واتخذت لورنزا لنفسها اسم سيرافينا Serafina ، وزعمت أنها روح ملائكية من عالم آخر . وشغى هو زبائن أثرياء وحشوداً من الفقراء المعوزين كانوا ينتظرونه عند مدخل داره كل صباح ، ولكن كان من سوء حظه أن صداقته للكاردينال الساذج ورطته فى تلك الفضيحة المشهورة ، فضيحة عقد الملكة ، ونتيجة لذلك أودع هو ولورنزا سجن الباستيل ، ونظراً لأنه كان بريئًا من هذه الجريمة بالذات فقد استطاع فى سرعة أن يثبت براءته ، ومن ثم أفرج عنه وعن زوجته ، ولكن الشرطة أجبرتهما على مغادرة باريس فوراً .

وكانت هذه الحادثة بداية النهاية . فقد راح الزوجان يتسكعان مرة أخرى فى أنحاء أوربا ولكن دون أن يصادفا نجاحًا . لقد ولى الافتتان السابق بهما وأدبر ، وأصبح كاليوسترو سيىء السمعة لدرجة بالغة ، واعتقد أفراد كثيرون لا حصر لهم أنه دجال . وانتهى المطاف بالزوجين بأن حطا رحالهما فى روما بعد عشرين سنة تقريبًا من مغادرتهما باريس . وكانت هذه الخطوة هى الغلطة الحاسمة التى ارتكبها كاليوسترو فقد أخفق بوصفه مداويًا ، ولم يكن أهالى روما مرضى أو سذجًا بالقدر الذى كان عليه

أهل باريس ، وسعى — كمحاولة أخيرة — أن ينشئ فى روما محفلا لمذهبه الشهير « الطائفة المصرية » ، فدعا صفوة الناس بما فيهم كبار الأساقفة إلى اجتماع تمهيدى عقد فى فيلا مالطة Villa Malta (تقع هذه الدار إلى جوار فيلا مديتشى فى روما ، وكانت تخص فرسان مالطة ، ثم أصبحت فيما بعد سكنًا للأمير فون بولوف von Bülow السفير الألمانى فى روما سنة ١٩١٤ وتمتلكها الآن طائفة الجزويت) .

وترك لنا الأب لوكانتُنيوبندتى Lucantonio Benedetti —وهو شاهدعيان خامره الشك فى كاليوسترو — وصفًا دقيقًا لهذه المحاولة الأخيرة اليائسة التى قام بها الدجال لتجنب انهياره وإفلاسه ، فقال إن الكونت وهو قصير بدين داكن البشرة ظهر جالسًا على مقعد مثلث القوائم وكأنه العرافة سيبل Sybil القديمة —؛ وألقى خطبة يحتمل أنها كانت الخطبة المقررة لمثل هذه المناسبات . قال الكونت : « إنه من الملائم أن أكشف لكم عن شخصيتى ، وأن أبين لكم ما لى من ماض . . . هأنذا أرى الصحراء الشاسعة وأشجار النخيل الضخمة تلقى ظلالها على الرمال ، والنيل يجرى فى هدوء ، وتماثيل أبى الهول والمسلات والأعمدة ترتفع فى هيبة وجلال . . . هذه هى المدينة المقدسة منف . . . . وها هو ذا الملك الظافر تحتمس الثالث يدخل من بواباتها بعد أن هزم السوريين والكنعانيين . . . إنى أرى . . .Io Vedo ولكنى الآن فى مدينة أخرى ، هنا يقوم المعبد المقدس الذى كان يعبد فيه الرب يهوه Jehova . . . لقد انتصر الإله الجديد على الإله القديم . . . إنى أسمع أصواتًا . . . إن الناس يهللون للنبى ابن الإله . . من هو ياترى ؟ إنه المسيح — آه هأنذا أراه فى مأدبة عرس ببلدة قانا الجليل وهو يحول الماء إلى خمر . . . »

وواصل الأب وصفه قائلا : « وهنا صرخ الكونت صرخة عالية ، وقفز من مقعده المثلث القوائم وصاح يقول : إن المسيح لم يكن الوحيد الذى قام بهذه

المعجزة .. سأبرهن لكم .. سأكشف لكم الأسرار . . . فليس هناك شيء أجهله إنني أعرف كل شيء . . إنني خالد . . إنني سابق على الطوفان . . . Ego sum qùi sum ثم راح يصب قليلا من قطرات السائل السحرى فى إبريق ماء ، وحوله إلى نبيذ "لاحظ الأب فى حينه أنه تألق مثل نبيذ أورفييتو " ثم أعلن أنه نبيذ الرومان القدامى المشهور باسم فالرنو Falerno ، وتذوقه قلة من الناس ووصفوه بأنه رائع » . هكذا كتب عنه الأب الذى لم يذقه .ثم تحدث الكونت عن قدراته الخفية الأخرى وعن إكسيراته السحرية ، ووزع عينات من إكسيره الأول على قلة من الكهول الذين كانوا بين الحاضرين ، فتألقت على الفور عيونهم وتوردت وجناتهم (وكتب الأب فى سجل يومياته يقول : « كان للإكسير النتيجة نفسها التى نراها عقب تناول كأس من نبيذ مونتفيا سكونى Montefiascone ») .

وأخيراً قام الكونت كاليوسترو ببرهان عملى على قدرته على تحويل قطع الألماس الصغيرة إلى قطع ألماس كبيرة ، فاستعار خاتمًا من السفير الفرنسى ، وهو الكاردينال دى برنى نفسه Cardinal de Bernis الذى كان صديق كازانوفا فى فينتسيا وباريس ، ثم وضع الخاتم فى بوتقة ، وصب عليه سوائل ومساحيق مختلفة ، وتمتم بكلمات قال إنها مصرية وعبرية ، وفى النهاية سلم إلى الكاردينال خاتمه وفيه ماسة يزيد حجمها على أكثر من ضعف الحجم الأصلى .وكتب الأب بندتى يقول : « وأعلن الكاردينال على الملأ بأن معجزة قد تحققت ، ولكنى أعتقد أنه لاعلاقة بين الخاتم الثانى والخاتم الأول ، وأن قطعة الألماس الثانية لم تكن سوى قطعة من البلور الصخرى » .

ولم يحقق الاجتماع نجاحًا ما ، وقبض على كاليوسترو وسجن فى قلعة سانت أنجيلو بأمر من المحكمة الكهنوتية ، لالكونه محتالا ، ولكن لعقوقه وهرطقته وممارسته أعمالا ضارة بالكنيسة والديانة المسيحية ، وانقلبت زوجته إلى شاهد للادعاء لتنقذ

رقبتها . وحوكم كاليوسترو ، وحكم عليه بالإعدام ، ثم خفف هذا الحكم إلى سجن مدى الحياة ، فحبس فى زنزانة صغيرة فى قلعة سان ليو الحصينة قرب ريمينى Rimini . ومات قبل أن تتمكن جيوش الثورة الفرنسية من الوصول إليه بوقت قصير ، وكانت هذه الجيوش قد غزت الولايات البابوية وراحت تطلق سراح من ألقى بهم الطغيان البابوى فى غياهب السجون .

* * *

وكان من بين معارفى سيدة إنجليزية عجوز قضت معظم حياتها فى روما اعتادت أن تهز أصبعها وتقول : « هناك شىء من كاليوسترو وشىء من كازانوفا فى كل إيطالى حتى أولئك الذين هم أقل إثارة للشبهات » ، وليست الحقيقة التى لم تثر استياءها بطبيعة الحال صحيحة تماماً .. حقاً ما كان من الممكن أن يولد كازانوفا وكاليوسترو فى بلد آخر ؛ فإن حياة كل منهما الملأى بالمغامرات كانت بطريقة ما انتقاماً على الطريقة الإيطالية من دنيا جعلت كليهما فقيراً واهناً محتقراً ، وعضواً فى أمة لم تتح له سوى الفقر والتهريج والإذلال الدنىء ، وقد كان لكليهما النقيصة الإيطالية العامة من حيث إنه عجز عن أن يستخدم مواهبه الخاصة فى إبداع شىء رائع متين وتحويل حياته على أساس راسخ للفوز بأمجاد ثابتة من ثروة وهيبة ونفوذ ، شأن ما يفعله غيرهم من المغامرين من بلاد أخرى .

ويلاحظ أن شيئاً ما عوقهما دائماً حيث مارسا فنهما للفن نفسه ، ووزعا الثروات بالسهولة نفسها التى جمعاها بها ، وقنعا بالمظهر الخارجى للنجاح ؛ بيد أن مجال نشاطهما كان فى أوربا لا فى إيطاليا ، فكان لزاماً عليهما أن يقصدا إلى بلاد أخرى ليجدا عدداً كافياً من الزبائن ، وتوقف نجاحهما إلى حد ما على انعدام وجود إيطاليين آخرين فى بطانتهما وبين زبائنهما ، ومن ثم اقتصرت ضحاياهما على الأجانب ، وأفسدتهما سرعة تصديق الجمهور الساذج كل ما يدعيانه مما جعلهما يفرطان

فى الثقة بنفسيهما ، فضللتهما براعتهما Virtuosismo ، وأخفقا فى تحقيق غايتهما بعد أن بالغا فى أكاذيبهما ، وغدا من الصعب تصديقهما ؛ وهذا يفسر سبب ما لحق بهما من مآس كلما وطئا أرض إيطاليا ؛ فقد سجن كازانوفا مرة فى فينتسيا ، واضطر أن يهرب مرتين ، ولقى كاليوسترو إخفاقه النهائى فى روما ؛ ولم يكن كلاهما إيطالياً فاضلا كأولئك الذين لم يبرحوا إيطاليا قط وعاشوا حياة هادئة ، واستغلوا قدراتهم على نحو حكيم غير لافت النظر بدون أن ينتهى أمرهم إلى السجن أو فى زنزانة منعزلة فى قصر ناء ، بل تركوا اسمًا طاهراً وثروة ضخمة لأسلافهم . أجل ، إن أهم قاعدة هى ألا يصبح المرء سيىء السمعة .

وإليك – على نحو مجمل – أبرز الأسباب التى توضح لنا لماذا يولع الإيطاليون بمظهرهم الخداع، ولماذا يفضلون فى كثير من الأحوال العيش فى عالمهم المائع الزائف بين مستنسخات من الورق المقوى Papier Maché للأصل الحقيقى، ووسط كلمات منمقة ولكنها منافقة ، وفى شبه ظل أنصاف الحقائق ، وبين إيماءات تشنجية لعواطف وإحساسات كاذبة . هم يفعلون ذلك أولا وقبل كل شىء ليرضوا الطبيعة الموحشة ويجملوها ، وليجعلوا الحياة محتملة كريمة ذات قيمة ، سائغة لغيرهم ولهم . ومن ثم يفعلون ذلك من أجل أغراضهم الخاصة ، فالمظهر البارع يجعل صاحبه محبباً لدى أصحاب النفوذ ، ويساعده على التقدم فى الحياة ونيل ما يبتغيه ، ويحل الكثير من المشاكل ، وييسر أموره فى المجتمع ، ويحميه من حسد أعدائه وغطرسة المتجبرين ، أجل ، إنهم يفعلون ذلك ليثأروا لأنفسهم من قدر ظالم .

وفى الأوقات العصيبة ، أعنى فى عهود الطغيان الدامية ، يمكن أيضًا أن يكون المظهر درعًا يحمى صاحبه بل كثيراً ما يكون الحامى الوحيد . أذكر بهذه المناسبة أنه فى الأشهر القليلة الأخيرة للحرب العالمية الماضية حين كانت إيطاليا مسرحًا

لمعارك الجيوش الأجنبية وتمزقها الحرب الأهلية ، كنت أعيش فى بقعة منعزلة على ساحل تاسكانيا Tuscany قرب بلدة بورتوسانتو ستيفانو ، وراحت قاذفات القنابل الألمانية تمطرنا بوابل من. قنابلها ليلا ونهاراً . وحدث فى فترة سكنت فيها الغارات أن جاء لزيارتى ربّان بحرى ألمانى ومعه عدد من زملائه الضباط ، فأخذوا يتفحصون البيت فى عناية وحذر ليتأكدوا من عدم وجود أى شىء يثير شكوكهم ، فلما اطمأنوا جلسوا وشربوا بعض النبيذ وشربت معهم . وتنهد الربان وقال لى : « أنت لا تعرف يا سيدى إلى أى مدى يمكن أن تكون الحياة فى إيطاليا اليوم خداعة غدارة لرجال مثلنا ؛ والواقع أنه يمكن أن يكون كل من تقابله عدواً ، نعم عدواً لدوداً » . ولم أنبس ببنت شفة ، فواصل الربان حديثه قائلا : « ليس كل فرد مثلك يا سيدى — فإنى أستطيع أن أقرأ فى وجهك أنك تريد انتصار بلدك وحلفائها الألمان ، ولكن هناك كثيرون — ولن تصدقنى فى هذا . . . أقول هناك كثيرون يتمنون هزيمتنا ، وليست هناك إطلاقا وسيلة ما لتمييزهم من زملائهم الآخرين » .

وبقيت صامتاً . لقد كان الربان حزيناً مغتماً حقاً ، وكان لا يتصور لماذا لم يقم الإيطاليون بالطواف هنا وهناك حاملين لافتات كتب عليها مثلا : « الحليفة المخلصة لألمانيا النازية » . . . « الخائن الحقير هو من يريد هزيمة وطنه وحلفائه » ؛ فكيف يستطيع حقاً أن يميز الأصدقاء من الأعداء ؟ هل كان قارئاً للأفكار ؟ وكيف يستطيع أن يكافئ الإيطاليين الصالحين ويطلق الرصاص على غيرهم فور رؤيتهم ، فى حين ابتسم له الجميع بنفس الأسلوب وتكلموا فى وداعة عن الجو وعن الحرب ، وعبروا عن نفس الآمال الغامضة فى نصر سريع وسلم عاجل ، ورفعوا كئوسهم تحية لموسولينى وهتلر ، وبدوا جميعاً رجالا صادقين مخلصين موثوقاً بهم بقدر ما بدا كل الإيطاليين للألمانى الطيب ؟ . أما فى حالتى فواضح أن الربّان ارتاح

واطمأن إلى . . . لماذا ؟ إنه لم يعرف أننى كنت على قائمة المشتبه فيهم الذين طلبت الحكومة الفاشية القبض عليهم فور رؤيتهم وربما إعدامهم (كانت هذه القوائم طويلة ، ولم يكن لها قيمة عملية فى الخطوط الأمامية ، فكثيراً ما ظلت مهملة فى أغلفتها المغلقة) — وما كان فى وسعه أن يعرف أننى كنت نشيطاً فى حركة المقاومة السرية ، وأنى كنت فى ذلك الوقت أقدم للفدائيين كل ما استطعت من مساعدة . أجل ، « كيف له أن يعرف ذلك ما دمت لم أخبره ؟ » .

إنى أسلم أن هذه الحالة فريدة بحيث لا يمكن أن تتخذ مثلا نموذجياً . فقد كان الربان بدون شك أقل حذقاً من غالبية مواطنيه ، وربما كان أيضاً متعباً مضطرباً مكتئباً مرتعباً بسبب وابل القنابل المتساقطة باستمرار ، وربما كان أحمق غبياً . . ومع ذلك فسوف تظل ولولته الصادقة الممزقة للقلوب راسخة فى ذهنى بوصفها أبرز مثل صادفته لحيرة رجل من الشمال تجاه تعقد الحياة الإيطالية . . . كذلك أثبتت لى كلماته كم أنا إيطالى بكل معانى الكلمة برغم أسفارى ودراستى فى الخارج حيث استطعت ، بدون أن أفوه بكلمة ، أن أقنع نازياً بسيطاً ساذجا صريحاً بأنى كنت أقف إلى جانب المحور موقفاً صريحاً ثابتاً .

الفصل السادس

الجانب الآخر من العملة

هناك وراء الحركة الدائبة النشيطة الرائعة التي نراها في إيطاليا، ووراء مشهدها المرح اللطيف المثير، حياة أخرى حقيقية مختلفة عن كل ذلك، حياة يمكن أن تكون حقيرة مفجعة قاسية لا رحمة فيها، وكثيراً ما تكون لعبة مؤلمة مروعة، وفي بعض الأحيان خطرة فتاكة؛ ثم هي شاقة عسيرة دائما، والواقع أن مهد كل طفل إيطالي تطوقه منذ ولادته أرواح شريرة آلت على نفسها أن تجعل حياته بائسة تعيسة، ومن ثم يجب عليه عندما يشب ويترعرع أن يردها عنه ويقهرها إن استطاع إلى ذلك سبيلا، فتلك مهمة صعبة يائسة حيث لا يجد لمعاونته سوى قلة تافهة من المؤثرات الطيبة.

وأولى هذه الأرواح الشريرة هو الفقر. فلا تزال إيطاليا بلداً فقيراً جداً، أفقر من أي بلد آخر في غرب أوربا باستثناء إسبانيا. (كان متوسط مستوى المعيشة في إيطاليا عام ١٩٦١ يعادل المستوى الذي كان عليه في الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩١٤، وفي فرنسا في عام ١٩٢٤، وفي بريطانيا في عام ١٩٢٧) ولا يزال الجزء الجنوبي من إيطاليا أشد أقاليمها بؤساً، وبرغم الأموال الضخمة التي أنفقتها الحكومة فيه طيلة السنوات العشر السابقة لسنة ١٩٦١ فإن حالته لم تتحسن إلا قليلا، ولا تزال الغالبية العظمى من أهله يعيشون عيشة الكفاف، وإن كان حالهم اليوم أحسن من ذي قبل. فإن المصانع التي أقيمت حديثاً تجبر عمالها على أن يتناولوا وجبة كاملة كل يوم في مطاعمها حتى تضمن بذلك حصولهم على كمية كافية من

الوحدات الحرارية ، وبالتالى يقوون على القيام بأعمالهم . ولو أنها تركتهم وشأنهم لتناولوا وجبة الغداء فى بيوتهم ولما أكلوا شيئًا يذكر حيث سيصير لزامًا عليهم فى هذه الحالة أن يتقاسموا الطعام مع كثير من أقربائهم الجياع . ثم هناك فقر معظم الأحياء الصناعية الرثة فى شمال إيطاليا، الفقر الكئيب المستتر ، فقر العمال الذين يتناولون أجراً أحسن نوعـًا ، وفقر صغار الموظفين وأفراد الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى عامة ، أولئك الذين يقتصدون كل ليرة كى يعلموا أولادهم تعليمـًا راقيـًا حتى يتيحوا لهم الدراسة بالجامعة ، ثم فقر أبنائهم البغيض ، أولئك الذين يؤلفون فئة الكادحين المثقفين الذين يكتسبون أقل مما يكتسبه العمال غير المهرة ، برغم أنهم يعملون مدرسين أو أطباء فى البنادر أو أطباء بيطريين فى مدن الريف وقراه ، أو إداريين أو ضباط شرطة أو مشرفين فى نقابات العمال ، أو كتبة فى الأحزاب السياسية .

ثم هناك فقر الأرستقراطيين المضمحلين المتكبرين الذين كانوا يومًا ما يمتلكون أراضى غنية وأطاح بثرواتهم هبوط الأسعار أو الإصلاح الزراعى أو المنافسة الأجنبية ، فقر من جردوا من أملاكهم وكانوا هم الصفوة بالأمس أو بالأمس الأول . وانضم كل أولئك الذين هبطت منزلتهم الاجتماعية إلى فئة العاملين المثقفين ، وألفوا كوادر الحركات الجماهيرية المتعصبة سواء لليسار المتطرف أو اليمين المتطرف . وحيث لا يوجد الفقر فعلا بين الموسرين نوعـًا ما ، فهناك دائمـًا الخوف من شبحه الكئيب الذى يرفرف على كل شيء وينزع الأغنياء إلى التصرف كما لو كانت الثروة دواء ثمينـًا فى أوقات الأوبئة ، فيتشبث بها كثيرون ويعضون عليها بالنواجذ فى حنان ، ويدافعون عنها بكل الوسائل مشروعة كانت أو غير مشروعة .

وثانى الأرواح الشريرة هو الجهل — فلا يزال ملايين من الإيطاليين أوقل ما يروح بين ١٠٪ و ٣٠٪ من السكان أميين — ويختلف العدد طبقـًا لتعريف الأمية ،

فهل يعتبر المرء الذى يجهل القراءة ولكنه يستطيع أن يكتب اسمه فقط متعلماً أو أمياً ؟ وهل يعتبر ذلك الذى ذهب إلى المدرسة ولكنه نسى كل شيء، أو الذى يستطيع أحياناً أن يفهم كلمات مألوفة على ملصق من الملصقات متعلماً أو أمياً ؟ ثم إن أولئك الذين هم متعلمون قلما يكونون ماهرين بارعين . فإن نسبة الصحف التى تباع فى إيطاليا لكل مليون من السكان أقل منها فى أى بلد آخر فى غرب أوربا ؛ ويمكن القول بوجه عام إن الأقلية المثقفة نفسها لاتعرف سوى ثقافة عتيقة إقليمية قاصرة .

والواقع أنه لا تتيسر — لغير الوزراء والصحفيين والدبلوماسيين ورجال الأعمال والأثرياء وقلة من الباحثين — فرصة السفر إلى الخارج لدراسة العادات الأجنبية ومقارنة البلاد الأخرى ببلدهم . وبديهى أن الجهل السائد بحقائق الأحوال فى سائر بلاد العالم يغذى شتى أنواع الغرور والحزازات التى لامسوغ لها، وكذا الإعجاب المفرط بالأجانب أو الاحتقار السخيف لهم ، وغالباً ما اضطر الساسة الجدد الذين نشأوا ارتجالا منذ نهاية الحرب إلى أن يصيروا خبراء حقيقيين فى فن واحد فقط هو أصعب الفنون كلها ، أعنى الاهتمام بالفوز بأصوات جمهور الناخبين القلب والتحايل للوصول إلى مركز رفيع فى أحزابهم وفى البرلمان وفى الحكومة ، وغرقوا جميعاً فى أعمال روتينية من يوم لآخر ، وفى توقيع آلاف الرسائل كل يوم ، وفى التشاور معاً ، وفى السفر بالطائرات لحضور مؤتمرات دولية ، وفى التجوال فى الأقاليم وإلقاء خطب من كل الأنواع فى كل المناسبات الأمر الذى لم يتح لهم فرصة للقيام بفحص جدى للمشاكل القومية ، ناهيك لابتكار حلول جديدة لها وإلقاء نظرة شاملة على ما فى جهاز الدولة من عجز وقصور ، وتحليل أسباب تدهوره ؛ بل إنهم أحياناً مشغولون حتى عن قراءة الصحف ، ويعهدون إلى مرءوسيهم باختيار فقرات يرون أنها جديرة باطلاعهم عليها ، وهكذا غالباً ما يسير العمل السياسى اعتماداً على السماع .

أما أوفر الإيطاليين ثقافة وعلماً ، أعنى أساتذة الجامعات، الأمناء على ثقافة الأمة ، فتعوزهم الاعتمادات المالية اللازمة لشراء المراجع وإجراء التجارب العلمية البسيطة ، ومن ثم فمكتبات الجامعات فقيرة متخلفة ، ومعاملها ناقصة نقصاً مزرياً ، ويضطر أساتذة الجامعات بسبب مرتباتهم الضئيلة المهينة إلى التحايل على العيش عن طريق أعمال إضافية ، فيعملون مستشارين للمؤسسات ، أو يمارسون فى الخارج المهن التى يعلمونها سواء كانوا أطباء أو اقتصاديين أو محامين أو جيولوجيين أو مهندسين وهكذا ، ويصبح هذا العمل الخارجى شغلهم الشاغل ، أما لقبهم العلمى فى الجامعة « الأستاذ » والذى يطبعونه على بطاقاتهم فإنه يفيدهم فقط فى كسب أجور أعلى . ولا يتسع وقتهم لأى شىء آخر حيث يتعين عليهم أيضاً أن يقيموا حيث يكسبون رزقهم من هذا العمل الخارجى ، ثم يتنقلون جيئة وذهاباً إلى جامعاتهم فى الأقاليم لإلقاء محاضراتهم ، فهم يحاضرون ثم يهرعون . وكثيرون منهم يتمشون مع التقدم الذى يجرى فى خارج بلادهم بقراءة المجلات المتخصصة قراءة عابرة ، وقلة منهم فقط هم الذين يستطيعون بطريقة ما القيام بدراسة جدية وتوفير المال اللازم لأبحاثهم العلمية فيصبحون ذوى شهرة عالمية فى مجالهم ويفوزون بجائزة نوبل . ثم إن الكنيسة نفسها منزعجة لهبوط مستوى المعرفة بين رجال الدين العاديين وقساوسة الأبرشيات حيث إن معلوماتهم الدنيوية والدينية أدنى بمراحل من معلومات زملائهم الفرنسيين والألمان .

والروح الشريرة الثالثة هى الظلم . فهناك فى إيطاليا قوانين كثيرة لا حصر لها ، هناك مجموعة متشابكة من التشريعات والنظم والقواعد واللوائح بعضها يرجع إلى مئات السنين ، وبعضها صدق عليها البرلمان فى الأسبوع الماضى واعتمده رئيس الجمهورية هذا الصباح ، ولو أنها نفذت كلها فجأة لأمكن أن تشل كل نشاط فى البلاد وتوقف سير قطارات سكة الحديد والطائرات والسيارات والسفن ، وتغلق الحوانيت

والمصانع والمستشفيات والمدارس والدواوين . وبهذه المناسبة نذكر أن لويجى إيناودى Luigi Einaudi الاقتصادى الأول والرئيس السابق لإيطاليا قدر أنه إذا حُصلت كل ضريبة نصت عليها القوانين تحصيلا كاملا لامتصت الدولة ١١٠٪ من الدخل القومى . وثبت أنه نظراً لكثرة القوانين وتناقضها وغموضها فإنه من الممكن لحكومة قوية أن تحدث ثورة من أى نوع سواء كانت ثورة نحو اليمين المتطرف أو اليسار المتطرف ، وذلك باختيار عدد قليل من القوانين المناسبة فحسب ثم تطبيقها إلى أقصى حد ، ولا يعرف أحد كم من هذه القوانين لايزال سارى المفعول ، كما لا يعرف أحد عن يقين حقيقة المقصود من بعضها ، بل كثيراً ما يعجز أعضاء البرلمان عن تبين معناها والغرض منها حين يناقشونها فى مجلسهم ، وذلك برغم رجوعهم إلى السجلات القديمة وما قاله عنها المشرعون الذين وضعوها . وحقيقة الأمر أن القوانين تصدر فى سيل متدفق بسبب خرافة إيطالية غريبة : حين تختل الأمور وتصبح المسائل محيرة مربكة لاسبيل لإصلاحها يصدر عادة قانون جديد على أمل أن يأتى بالمعجزات ويكون له فعل السحر فى درء ذلك الضرر المعين ، ولكن كثيراً ما يكون هذا القانون بالغ الصعوبة والتعقيد بحيث يتعذر تطبيقه تطبيقاً سليماً . أجل لا مراء فى أن بعض القوانين مفيد ، وقلة منها صالحة ، وكثيرها عديم النفع أو غير عملى ، ومن ثم أغفلت أو على حد التعبير الفنى عطلت بإغفالها Abrogated by desuetude ولكن يمكن أن تبعث فجأة من زوايا النسيان ويزال ما عليها من غبار وتستغل فى أى وقت لمصلحة طائفة قوية تجد فيها سلاحاً تدمر به أعداءها .

وتقف المحاكم مكتوفة اليدين أمام هذه الفوضى ، ومن ثم يندر أن يتوقع منها الإيطالى النابه شيئاً ما غير عدالة ضالة ، فالقاعدة العامة هى ألا تقاضى أحداً مادمت صاحب حق ، لأن التقاضى عملية بالغة الخطورة ، ولهذا يجب على المرء ألا يقصد

المحكمة إلا إذا كان يدرك أنه مخطئ وأنه سيكون فى موقف الدفاع . يقول الخبراء المحنكون : « من اليسير على القاضى أن يخطئ ويصدر حكمه فى مصلحتك » ومهما يكن من أمر فسوف يطول الخلاف ويستمر سنوات وسنوات ، ويؤجل الفصل فيه مرة بعد أخرى ، وسوف ينفد صبر خصومك فيطلبون إليك الصلح . ويلاحظ أن المحاكمات تطول بسبب قلة عدد القضاة ، وهؤلاء يتناولون مرتبات غير مجزية ، وليس لهم فعلا مساعدون يعاونونهم ، ولكنهم عادة رجال أذكياء أمناء وعلى علم وافر ، يحاولون بطريقة ما التغلب على أكداس الأوراق القانونية التى تهددهم بأن تدفنهم تحتها ، حيث تتراكم يومياً فوق مكاتبهم وعلى كراسيهم وفى أرضية حجراتهم الحقيرة وعلى طول جدرانها وترتفع إلى قامة رجل طويل . وليس للقضاة سكرتاريون كما ليس لهم فى كثير من الأحوال تليفونات ، بل إن كتبة المحاكم يشترون آلات كاتبة قديمة ويستخدمونها خلسة ، لأن القانون ينص على أن تكتب كل الوثائق باليد بقلم من الصلب والحبر لتكون سارية المفعول .

ومما هو جدير بالذكر أن قاضياً من أكبر قضاة إيطاليا ألقى خطاباً رزيناً فى يناير ١٩٦٢ شكا فيه من أن القضاة فى روما يعوزهم غرفة خاصة بهم ومكاتب وكراسى . وكانت قلة الكراسى مشكلة مزعجة بنوع خاص حيث لا يمكن أن يتولى القاضى الإجراءات الطويلة وهو واقف . ويلاحظ أن أغلب الخلافات تسوى شخصياً باتفاق يعقد بين المحامين ، وكثيراً ما يفضل الدائنون تسويات مجحفة كأن يدفع المدين مبلغاً رمزياً أو جزءاً صغيراً من الدين المستحق عليه ، نقول يفضل الدائنون هذه التسويات المجحفة على الانتظار سنوات طويلة فى المحاكم بغية استرداد مبلغ أكبر ، وذلك كله عملا بالقاعدة السائدة « قليل من الليرات اللعينة ... وفوراً » Pochi, maledetti e subito ومع ذلك فإن هذه التسويات البديلة باهظة النفقات لا يمكن

أن يتحملها الفقراء ، فيفضلون فى كثير من الأحوال أن يكونوا فريسة الظلم ، ويستسلمون لاعتداء صارخ على حقوقهم الشرعية ، ويتغاضون عن كل شيء خير من أن يعكروا صفوهم بمتاعب التقاضى وتكاليفه ، ويأملون أنه لو أتيحت لهم الفرصة فى يوم من الأيام فسوف ينتقمون بطريقة ما من خصومهم ، من يدرى ؟ ؟ إنهم يقولون « إن الرب لا يدفع (أجراً) يوم السبت Dio non Paga il sabato »

وبطبيعة الحال يجب على موظفى الحكومة تفسير الكثير من القوانين وتنفيذها ، وينبغى لهم بادئ ذى بدء أن يعرفوا على الأقل ما هى تلك القوانين ، ولكنهم يتناولون مرتبات زهيدة ، ويختارون اختياراً سيئاً ، فضلا عن أنهم منظمون تنظيماً سيئاً ويعاملون معاملة سيئة ، ومن ثم فهم عادة متبرمون نافدو الصبر ، متغطرسون صاخبون ، جاهلون ، لا يكترثون بمشاكل الغير ، متعجرفون وأحياناً منحرفون ؛ ومع ذلك فهناك موظفون قلائل أذكياء قادرون صالحون ، بدونهم يتوقف جهاز الدولة عن أداء وظيفته تماماً ، حقاً إنهم ليسوا أكثر دراية بالقوانين من زملائهم ، ولكنهم يبتكرون مخارج مختصرة عبر شبكة معقدة من الروتين واللوائح القديمة . ويحافظون على تحريك الأوراق فى أناة وينجحون فى حل بعض المشاكل . والواقع أن هناك فى كل مكتب اثنين أو ثلاثة يقومون عن طيب خاطر بعمل زملائهم ، أما الآخرون فإنهم يضعون قبعاتهم على مشجب القبعات ليثبتوا وجودهم فى المبنى ، ثم يخرجون للنزهة أو يذهبون إلى بيوتهم أو إلى عمل آخر أحسن أجراً . وغنى عن البيان أن عدد الموظفين الصالحين قليل غير كاف ، ولذلك لا مناص من أن تتعطل الأمور . مثال ذلك أن التعويضات عن الخسائر التى لحقت الأملاك فى صقلية فى سنة ١٨٦٠ بسبب حركة غاريبلدى وذوى القمصان الحمر كانت لا تزال تسدد فى سنة ١٩٥٤ — أى بعد ست وتسعين سنة فقدت خلالها الليرة قيمتها ومعناها . نعم ، كانت لاتزال تسدد لورثة يكادون

لا يعلمون السبب الذى من أجله استحقوا تسلم هذه المبالغ الزهيدة الهزيلة . ولا يجد الموظفون الصالحون القليلون أحداً يشكرهم لحماسهم وإخلاصهم أو يكافئهم لكفايتهم حيث تنص لوائح الحكومة على أن المرتبات تحدد وفقـًا للأقدمية ، ومن ثم يتساوون مع زملائهم الكثيرين غير الصالحين وغير المكترثين ، ويسير الجميع فى طابور واحد من البداية إلى النهاية فيحصلون جميعـًا على العلاوات فى يوم واحد، ويمنحون لقب فارس Cavaliere فى الوقت نفسه، ويحالون إلى المعاش فى السن نفسها . ولا يمكن فصل موظف لعدم كفايته ، بل لا يمكن فصله إلا إذا ارتكب أفضح الجرائم وأشنعها مثل سرقة خزانة أو اختلاس أموال أو قتل مدير الإدارة Capo ufficio .

ويقضى الإيطاليون من جميع الطبقات (ما لم يكونوا من ذوى الشأن ولهم أصدقاء أقوياء) جزءاً كبيراً من وقتهم فى الوقوف صفوفـًا أمام نوافذ المكاتب أو فى انتظار لا نهاية له لمجرد إقرار حق بسيط لهم ، ولا يعرف أحد عن يقين ما لهم من حقوق . ويستغل هذا الجهل فى إيطاليا كأداة للحكم Instrumentum regni . وقد ضاعفت حكومة الجمهورية عدد الموظفين بالنسبة لعددهم أيام الحكم الملكى السابق ، وذلك يرجع من جهة إلى ازدياد مهام الدولة الحديثة ، ومن جهة أخرى إلى رغبتها فى منح وظائف ثابتة لكثيرين من أنصار الأحزاب الحاكمة . وحين تكون إيطاليا مقسمة — طبقـًا لما نص عليه الدستور — إلى أقاليم صغيرة تنعم بحكم ذاتى فسوف تصدر كل كل حكومة إقليمية قوانينها المعقدة ، وسوف يكون لكل منها الحق فى طرح القروض وتكديس الديون ، وكذا تنظيم دواوينها ولوائحها ، وسوف يزيد تبعـًا لذلك كله عدد موظفيها .

ورابع الأرواح الشريرة هو الخوف ، وهو نتاج الأرواح الشريرة السابق ذكرها : الفقر — والجهل — والظلم ، بل هو شر منها وأنكى وأعم حيث يكمن متربصـًا فى ثنايا

الحياة الإيطالية حتى فى تلك التى لايتوقع المرء وجوده فيها . هناك خوف الفقراء المساكين المضطهدين من رؤسائهم المتغطرسين ، وهناك خوف كرام المحتد الأغنياء الأقوياء من أتباعهم المتمردين الغادرين ، وهناك خوف الطبقة الوسطى من الأقوياء من جهة ومن الجماهير المتفجرة من جهة أخرى . ويسوى الخوف فى صمت كل الأمور تقريبًا ، ويبعث القرارات السياسية من رقادها ، ويشعل السخط فى الثورات الخانقة ، ويسيطر على حياة الكثيرين ، ويشوه الشخصيات ، فيسلب الرجل الحازم إرادته ، والقويم فضائله ، والحر استقلاله ، والأبىّ كرامته ، واللبيب منطقه ورصانته ، كما يرغم كثيرين من الأوفياء على خيانة أصدقائهم ومعتقداتهم ، ويعلم التواكل المزرى .

ويخشى الإيطاليون فى المقام الأول الموت المفاجئ غير الطبيعى . وبديهى أن العواطف المتأججة لشعب مشاغب متبرم هى دائمًا مستعدة لأن تنفجر فجأة مثل الجمرات الساخنة تحت الرماد ، ولذلك نلاحظ أن إيطاليا بلد تلطخه الدماء ، ففى كل يوم من أيام السنة تقريبًا يقتل أزواج غُيُر زوجاتهم الزانيات وعشاقهن ، كما يقتل عدد مماثل من الزوجات أزواجهن الفاسقين ومحظياتهم ، ويقتل الآباء أو الإخوة الكبار أولئك المضللين الذين غرروا ببناتهم أو أخواتهم العذارى الضعيفات الساذجات ، ويقتل العذارى الرجال الذين يحاولون اغتصابهن ، وينتحر المحبون اليائسون شبانًا وفتيات ، كل زوج معًا ، أو منفصلين كلا على حدة ، ولاشك أن هذه المذبحة المستمرة والتى دامت قرونًا طويلة قد كلفت البلاد عددًا من الضحايا يزيد على ضحايا الأوبئة والكوارث التى فتكت بها ، والحروب التى دارت فوق أرضها .

كذلك تقتضى الأموال والصيت والكرامة والسياسة ضحاياها البشرية كل يوم ،

فيقتل العمال المفصولون مستخدميهم ، ورجال الأعمال المفلسون أنفسهم أو منافسيهم ، ويقتل دافعو الضرائب محصليها ، والطلبة الفاشلون مدرسيهم ، ورجال المافيا يقتلون أندادهم ومن يتجسسون عليهم ومن يشهد ما يقترفونه من جرائم ، ورجال الشرطة . ويقتل الفاشيون الشيوعيين ، والشيوعيون الفاشيين ، والعمال المتمردون رجال الشرطة ومفسدى الإضراب ، مستخدمين فى ذلك الحجارة والعصى والأنابيب الفولاذية المخبأة فى لفائف من ورق الصحف ، ويقتل رجال الشرطة العمال المتمردين . ويروع قادة الشيوعيين المخضرمين المحنكين ما يأتيه الأعضاء الشبان من أعمال العنف حين يدعون للقيام بمظاهرة سلمية ، فيحطمون كل ما يقع عليه بصرهم ، ويقلبون عربات الترام والسيارات ، ويضربون المتفرجين الأبرياء ضربًا مبرحًا ثم يلقون هم أنفسهم حتفهم بحماقتهم .

وعلاوة على ذلك تطالب دنيا الرذيلة بضحاياها اليومية ، فيعثر على جثث بنات الهوى ملقاة على فُرشهن الشعثاء ، أو فى الممرات الضيقة فى الريف ، وقد لفت بإحكام حول أعناقهن جوارب حريرية ، أو طعنت ضلوعهن بالسكاكين ، ويعثر فى الحدائق العامة على رجال شواذ وقد حطمت رءوسهم وقلبت جيوبهم ظهراً لبطن ، وعندما يبزغ الفجر يعثر فى الشواطئ المنعزلة على فتيات عرايا وقد غرقن فى مياه ضحلة لايزيد عمقها على بضع بوصات ، وتقتل المومسات قواديهن أولئك الذين يطلقن عليهم لفظ «خطيبى» il mio fidanzato ، ويقتل القوادون وبائعو المخدرات المتجولون بعضهم بعضًا فى منازعاتهم حول مدى نطاق اختصاص كل منهم ، ويموت آلاف من الناس كل سنة فى حوادث السيارات فى إيطاليا وهى أشنع الحوادث فى العالم الغربى وأكثرها دماراً . ثم هناك الزلازل والفيضانات وانهيارات الصخور أو التربة وموجات المد ، وكلها تتكرر ولكل منها ضحاياها .

وحتى عندما لا يكون الموت غير الطبيعى متربصاً وسط الظلال ، وحين تبدو الأمور سائغة هادئة والحياة آمنة مزدهرة رخية ، يجب على الإيطالى أن يظل متيقظاً وأن يتحرك فى حذر واحتراس . ذلك أنه على الرغم من أن مساحة إيطاليا تعادل مساحة كاليفورنيا فإنها أقل منها من حيث خصوبة أرضها ومواردها الطبيعية ، على حين أن سكانها كثيرون فوق التصور ٥٢٠ مليوناً ، ومن ثم فالتنافس حاد قاس مستمر دون توقف على كل مستوى وفى كل مجال . حقاً كانت الأعمال بكل أنواعها شحيحة قليلة إلى عهد قريب جداً ، أما اليوم فالأعمال العادية متوافرة ، على حين لاتزال الأعمال المجزية نادرة ، كما يندر جداً توافر الأعمال التى ينشدها غالبية الناس. ونتيجة هذا كله ليس هناك متسع للراغبين فيها ،ومن ثم كثيراً ما شبهت إيطاليا بصحن من الحساء تكتنفه ملاعق بالغة الكثرة ، فلا عجب أن تكون آداب المائدة سيئة كما هى اليوم .

ويتعلم الإيطالى منذ طفولته أنه يجب عليه أن يكف عن الكلام ، وأن يفكر مرتين قبل أن يفعل شيئاً ما على الإطلاق ، فكل شىء يلمسه قد يكون شرك الغفلة ، والخطوة التالية التى يخطوها قد تقوده إلى موقع لغم ، وكل كلمة يلفظها أو يكتبها قد تستغل ضده يوماً ما ، وعليه أن يتنبه إلى الذين لا يعرفهم ، أولئك الذين قد تؤخذ لهم معه وسط جماعة ما صورة فوتوغرافية فى حفل أو نزهة ، فقد ينتهى الأمر إلى أن تكون هذه الصورة الدليل القاطع على اشتراكه مع محتالين أفاقين أو قد تثير الشبهات فى ولائه لحزبه السياسى ، وبذلك قد تحطمه فى نهاية الأمر . ويلاحظ فى السنتين الأخيرتين من الحكم الفاشى أن الصحفيين الفطنين الذين لم يجرؤوا على ترك وظائفهم أو عجزوا عن احتمال العيش بدونها كفوا عن توقيع مقالاتهم ، وقالوا فى مرارة : « إن من يوقع باسمه فهو هالك » ، وهذه العبارة هى « Chi si firma è perduto » صيغة جديدة

محرفة فى حرف واحد (فى الكلمة الثالثة) لشعار من شعارات موسولينى المتغطرسة الذى يقول فيه : « من يتوقف فهو هالك » Chi si ferma è perduto . أما الصحفيون الذين داوموا على توقيع مقالاتهم الفاشية فى تحد حتى النهاية ، أو أولئك الذين تركوا وظائفهم إلى السجون أو انخرطوا فى حركة المقاومة السرية ، فلم يكونوا قلة ولكنهم كانوا شجعاناً بصورة خاصة .

ويجب على الإيطالى أن يعرف كيف يرعى نفسه وأهله فى أحلك الظروف وأشدها شذوذاً وغرابة ، وأن يتنبأ بكل الطوارئ المقبلة . وقد عرف الفلاحون بطريقة أو بأخرى ما ينبغى عليهم أن يفعلوا بالضبط أمام الجيوش التى زحفت على بلادهم فى الحرب العالمية الأخيرة ، فأصدروا الأوامر نفسها التى أصدرها آباؤهم وأجدادهم عدة مرات من قبل : «الماشية والنساء فوق الجبال» . وعلى الإيطالى أن يدرك أنه ينبغى له أن يعتمد فقط على نفسه وحده ، وفى اللحظة التى يتراخى فيها ويظن أن أيام الهناء والرخاء قد حلت لتبقى فهو هالك ، لأن أيام الهناء والرخاء لم تدم طويلا قط فى إيطاليا .

إن الحظ متقلب والتاريخ دائب الحركة ، ومما هو طريف أنه لما كان نابليون بونابرت يسيطر على أوربا كلها دأبت أمه مدام ليتزيا بونابرت Letizia Bonaparte على أن تتمتم بلهجتها القورسيقية قولها عن حظه : « شريطة أن يدوم » ورددت راكيلى Rachele زوجة موسولينى الفكرة نفسها فى كلمات مختلفة وبلهجة رومانية وذلك خلال السنوات العشرين التى واتى فيها الحظ موسولينى . واعتاد الملك العجوز فكتور إما نويل الثالث أن يطل بحياء عابس على الجموع الغفيرة المحتشدة للتهليل والهتاف له ، وقال مرة لأركان حربه بأن جموعاً مماثلة سوف تأتى لمشاهدة إعدامه وسوف تهلل وتهتف بنفس القوة والحماس . الواقع أن فكتور إمانويل لم يستطع أن ينسى

قط أن أباه الملك الصالح أومبرتو قتل فى سنة ١٩٠٠ حيث أطلق عليه الرصاص فوضوى إيطالى مهاجر اسمه بريتشى Bresci من بلدة باترسون فى ولاية نيوجرسى .

ولقد علم الخوف الإيطاليين أن يسلكوا سبل الحياة بحذر شأن المستكشفين المحنكين الذين يجتازون الغابات وينظرون إلى الأمام وإلى الخلف وإلى اليمين واليسار ، ويصغون إلى أقل الهمسات ويتحسسون الأرض أمامهم بحثاً عن أشراك خفية ، ويلاحظون العلامات التى على لحاء الأشجار ، وكذا الغصون المكسورة والعشب المائل . ولعل حياة بالميرو توليياتى Palmiro Togliati الزعيم الشيوعى الإيطالى مثل من أحسن الأمثلة على قدرة الإيطاليين على الخروج من أشد المحن ، أحياء مفعمين بالنشاط . فقد نفى فى العشرينيات من هذا القرن بعد زحف موسولينى على روما ، وتوجه إلى موسكو بوصفه ممثلا للحزب الشيوعى الإيطالى فى الكومنترن ، وأقام هناك فى فندق « لوكس Lux » فى شارع جوركى Gorki مع كل الزعماء الدوليين ، وعمل يومياً مع أبطال الثورة الروسية : زينوفييف وبوخارين وستالين ومولوتوف وتروتسكى ، وقد صادقوه جميعاً ، ولم يبرح موسكو عدا مرة واحدة حين قصد إسبانيا فى أثناء الحرب الأهلية ، عدا زيارات خاطفة إلى باريس .

وفى آخر الأمر بزغ نجم توليياتى بوصفه واحداً من الفئة القليلة الباقية من جيله وأصدق مفسر للماركسية اللينينية فى الغرب ، حيث توفى كل من كانوا يجلسون معه فى الكومنترن فقتل ستالين معظمهم ، ولقى بعضهم حتفهم وسط حياتهم المضطربة المملوءة بالمغامرات ، ومات قلة منهم لكبر السن فحسب ، أما توليياتى الحذر الصموت ، ابن مدير ملجأ حكومى للأيتام خصص لأبناء صغار الموظفين فى جزيرة سردينيا Sardinia ، فقد كان واحداً من القلائل الذين ألموا بالوسائل اللازمة للبقاء ، فعرف اتجاه مهب الريح المذهبية ، ومن سيكون الزعيم القادم ؟ ومن يمتلك السلطة حقاً ؟

ومن الذى ليس له من السلطة إلا مظهرها ؟ وأى أصدقاء يتخلى عنهم ، وأى أعداء يكتسبهم ، وأى فخاخ يتحاشاها ؟ الواقع أن حيل الكادح الإيطالى المثقف المعرض للخطر ، القليل الأجر ، كانت تفوق الدهاء والجور والعنف الآسيوى ، صفات من هم فى قمة صفوف الكومنترن الدولى .

وطبيعى أن الأغنياء وأصحاب النفوذ والسلطان يخافون على مصايرهم وامتيازاتهم ومنزلتهم الرفيعة فى المجتمع ، ويدفعهم جبنهم المفرط وإحساسهم العميق بعدم الأمن إلى السير وراء زعيم دهماوى يعدهم فى خطبه الرنانة بأمن وطيد دائم . وليس هذا الأمر بجديد ، ففى العصور الوسطى كان الأثرياء دائماً ، الذين نعتوا وقتئذ بالأفراد ، السمان Popolo Grasso ، موضع كراهية الفقراء ، أو كما كانوا يسمون حينذاك القوم الضئيلين popolo minuto أو النحيلين popolo magro وأقام الأغنياء الحفلات ولعبوا فى الصراعات السياسية دوراً عنيفاً وشيدوا قصورهم palazzi منيعة كالحصون . وما زال من السهل اليوم سدّ بوابات بعض هذه القصور القديمة فى دقائق معدودات ضد أى معتد ، حيث يشغلها حالياً فى الأغلب مصارف وشركات تأمين وإدارات حكومية وسفارات أجنبية ، كذلك تحمى نوافذ طوابقها الأرضية أسياخ حديدية قوية ، وهكذا أتاحت هذه الضمانات للمدافعين عن تلك القصور فى العصور الوسطى الانتقال فى سهولة إلى أسطحها كى يصبوا على المغيرين عليها ماء مغلياً أو رصاصاً مصهوراً ، كما أعدت فى جدرانها هنا وهناك شقوق طويلة خفية لاستخدامها فى تصويب الأقواس والبنادق تصويباً دقيقاً . وإلى يسار المدخل الرئيسى لقصر الكويرينال Quirinale الذى كان يوماً ما مقر البابا بوصفه حاكماً دنيوياً ، وأصبح فيما بعد القصر الملكى لملك إيطاليا ، ثم هو اليوم المسكن الرسمى لرئيس الجمهورية ، نقول إلى يسار مدخله الرئيسى لايزال هناك حتى اليوم برج مستدير

بنى من الآجر الأحمر به كوات كافية شقت فى جدرانه السميكة لاستخدامها فى تركيز النيران تركيزاً متقناًعلى أى حشد مغير إذا دعت الحاجة إلى ذلك مرة أخرى.

كذلك يدرك الإيطاليون الأثرياء أنه يجب عليهم أن يكونوا مستعدين دائماً لأى طارئ ، فقد يصدر فجأة قانون يصادر بعض أملاكهم أو جميعها أو قد تشب ثورة فى البلاد ، ومن ثم عليهم أن يكونوا مستعدين للفرار منها فى أية لحظة . حدث ذلك فى الماضى وقد يحدث مرة أخرى . فنى خلال القرون الماضية اكتظ المنفيون من مدن حرة إيطالية ، فى مدن حرة إيطالية أخرى ، وراحوا يرسمون الخطط لعودتهم إلى مدنهم على رأس جيوش صديقة ، وعلى هذا النحو عاد الأحرار والديمقراطيون من منفاهم مع جيوش بيدمنت Piedmonte فى أثناء حركة البعث الإيطالى Risorgimento حين توحدت إيطاليا فى القرن التاسع عشر ، كما عاد اللاجئون أعداء الفاشية مع جيوش الحلفاء فى نهاية الحرب العالمية الثانية . وكان كثيرون ممن تعرضوا لأخطار الفاشية أو خشوا قيام ثورة فى البلاد قد فروا منها فى سنة ١٩٤٤ واختبأوا فى أديرة فى الخارج ولم يعودوا إلى إيطاليا إلا بعد أن أصبحت الأمور فيها مأمونة ، وهناك كثيرون على استعداد لمغادرة البلاد اليوم ، فيحتفظون بيخوت فى الموانى القريبة من مقارهم ، أو سوف يهرعون إلى الحدود السويسرية فى سياراتهم السريعة عند أول إنذار .

على أن خوف الأغنياء شىء لايذكر بالنسبة لخوف الفقراء . فليس لهؤلاء من يحميهم ، وليست لهم جيوش خاصة ولا ثروات داخل البلاد أو خارجها ، ولاقصور ولا أصدقاء من أصحاب السلطة والنفوذ . . أجل ليست لهم سوى أعمالهم الهزيلة وحياتهم ليفقدوها ، وهم لايرتاحون إلى الطريقة التى تدار بها الأمور والتى ظلت تدار بها زمناً طويلا ، ولكنهم يرتعدون أيضاً من التغيير . فالثائرون أنفسهم يخافون الثورة ، هم يتكلمون و يكتبون منذرين بحمام الدم القادم ولكنهم لايفعلون شيئاً يذكر

لإثارته . ومما هو جدير بالذكر أن ستالين سخر بتولياتي لجبنه . فقال ذات مرة لتيتو : « انظر إليه . . إنه محام وأستاذ » لقد اعتقد ستالين أن هذا الإيطالي كان خير أعضاء الكومنترن لتحرير وثائق يصوغها في عبارات بارعة ذكية ماكرة . ولكنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك . ويدرك الفقراء أنهم أوائل الضحايا لأية أزمة أو اضطرابات وإن كانت من صنعهم . فعندما سقطت الفاشية ، وبعد فورة الغضب التي سادت في الأيام الأولى ، حين لقي موسوليني وعشيقته وكثيرون من أعضاء حكومته الأخيرة حتفهم رمياً بالرصاص ، قبض على قليل من الشخصيات الكبيرة الشهيرة وحوكموا وشنقوا ، ولكن آلافاً من المغمورين الضعاف قتلوا جزافاً . أو قبض عليهم وأودعوا في معسكرات الاعتقال ، وحوكموا وتقرر إعدامهم كما لو كانوا هم المسئولين مباشرة عن إشعال نار الحرب وعن خراب بلدهم .

* * *

ويمكن أيضاً اكتشاف الخوف وراء ولع الإيطاليين الفريد بالأشكال الهندسية والتصميمات المعمارية المتقنة ، والتماثل بوجه عام الذي هو جزء من شغفهم بالمظهر . . هذا أساساً هو الخوف مما في الحياة والطبيعة من أخطار لا يمكن السيطرة عليها أو التنبؤ بها ، بل هو الخوف وشبحه المتمثل في التلهف المرير على استعادة الأمن ، وفي كل مكان يمكن ملاحظة هذا الميل الاضطراري إلى التماثل ، ويندر أن يكون الهدف منه النفع وحده ، فقلما يفي بحاجات عملية ، بل يكاد يكون القصد منه دائماً إبهاج البصر وانشراح الصدر ، وهكذا يقضي باعة الفاكهة والخضر دقائق ثمينة كل صباح في تنظيم سلعهم على شكل أهرامات لابد لهم من هدمها خلال النهار ، كذلك تعمد الخادمة الجديدة كل صباح إلى نقل كل قطعة من قطع أثاث حجرتك من مكانها المعتاد لتحقق مثلها الأعلى في الذوق المتناسق ، وسوف

ترتب التحف الفنية الصغيرة على رف المدفأة حتى يبدو صورة ممسوخة لمذبح الكنيسة ، كذلك لا تترك الحدائق القديمة شيئًا ما للمصادفة أو للطبيعة المطلقة العنان ، فإن أشكال سياجها المعقدة ومشاياتها المكسوة بالحصباء وتماثيلها ونافوراتها متماثلة دائمًا تماثلا محكمًا الأمر الذى يحير زائريها ويربكهم ، حيث لا يمكن لغير من يحلقون فوقها فى مناطيد شراعية الإعجاب بها إعجابًا كاملا ، وعندئذ يرونها وكأنها سجاجيد أتقن نسجها وتزيينها بالصور والرسوم .

كذلك خططت فى تماثل صارم الشوارع والميادين Piazze والطرق العريضة المشجرة والحدائق العامة والشوارع الرئيسية Corsi . فتطوق كنائس متماثلة تقريبًا جانبى أول الطريق العريض المشجر ، وتتقابل شوارع شتى عند نفس المسلة أو النصب التذكارى ، وفى طرفى الشارع الرئيسى الطويل Corso تومئ نافورتان متشابهتان أو متماثلتان كل منهما إلى الأخرى .

أما الريف الأخضر فهو دائمًا محكم الترتيب دون ضرورة ، حيث تغرس الشجيرات فى مساحات الغابات الجديدة فى صفوف متراصة كأنها صفوف الجند ، ويمكن أيضًا تتبع تسلط فكرة الأشكال المنتظمة على أذهان الإيطاليين فى الأشياء غير المرئية ، فى النظم واللوائح السخيفة التى تحدث التوازن بين المحظورات المفروضة على هذا الفريق وذاك ، وفى الخلاصات المتقنة للرسائل الجامعية ، وفى الخرائط التنظيمية لمكاتب الحكومة والوحدات العسكرية ، وفى أروع مؤلف أدبى فى اللغة الإيطالية أعنى « الكوميديا الإلهية لدانتى » Divina Commedia فهو مرتب بإتقان بالغ بحيث يجب على قرائه من الطلاب أن يشتروا رسمًا تخطيطيًا يوضح بالضبط موقع الجحيم والمطهر والفردوس . وتتألف الكوميديا من نشيد تمهيدى وثلاثة أجزاء يتألف كل منها من ثلاثة وثلاثين نشيداً ، وينتهى النشيد الأخير فى كل جزء من هذه الأجزاء الثلاثة

بالكلمة نفسها : « النجوم » Stelle

والكلمة الدالة على هذا الأسلوب هي Sistemazione وفعلها Sistemare ومعناهما الإجمالى الترتيب أو التنظيم أو التنسيق ويرتب أو ينظم ، وبرغم أن هذا المعنى هو الوارد في القواميس ومن ثم ليس عامياً ، فإنه قاصر جداً عن استيعاب كل استعمال الإيطاليين لهذه الكلمة ومشتقاتها ، وهى شائعة فى أحاديثهم اليومية قدر شيوع الخبز والجبن . فبادئ ذى بدء يعنى الفعل Sistemare أيضًا «يقهر الطبيعة» ومن ثم نقول إن الإيطاليين يقهرون sistemano السيول الجبلية الجارفة وأراضى المستنقعات والحيوانات المتوحشة والأطفال المدللين والسكان المتمردين . كما أن عبارة Ti sistemo io تنطوى على تهديد يكثر سوء استعماله ومعناه « سأكبح غرائزك المتمردة » أو كما نقول بالعامية « حاوضبك » .

وكثيراً ما يستعمل المصدر والفعل بمعنى « تحقيق حياة آمنة مستقرة » فإن أى نوع من العيشة الآمنة المستقرة una sistemazione هو حلم غالبية الإيطاليين ، ولايعنى هذا بالضرورة عملا شاقًا ومسئوليات جسامًا ومرتبات طيبة وتوافر فرص الترقى ، ولكن كثيراً ما لايتعدى هذا منصبًا متواضعًا ولكنه منصب دائم بمنجى من الأحداث غير المتوقعة وذو مستقبل مضمون ومكانة أدبية إلى حد ما ، ثم معاش فى نهاية الخدمة ؛ وهناك نصيحة شهيرة قدمها أب من أهالى روما لأبنائه قال : « يا أبنائى ، عليكم أن تحاولوا أن يكون لكم حرفة أو مهنة أو صنعة فى الحياة ؛ لأن الحياة بدون ذلك تكون حقيرة عديمة المعنى ؛ ولكن عليكم أن تضعوا نصب أعينكم دائمًا ألا تتيحوا لحرفتكم أو مهنتكم أو صنعتكم أن تنحط إلى نوع من السخرة »، ويتوق الآباء فى طول إيطاليا وعرضها إلى أن يهيئوا لأولادهم حياة طيبة sistemare كما تتوق الأمهات إلى توفير حياة طيبة sistemare لبناتهن مع أزواج

طيبين مستقرين لا أزواج بالغى الثراء بالغى الوسامة ، لأن هؤلاء لا يقبلون على الاستقرار المنشود sistemazione فى سهولة ويسر ؛ ولا تحلم الفتيات أنفسهن سواء منهن الجميلات اللائى يرتدين البكينى ويفزن فى مسابقات الجمال على شواطئ المصايف ، أو القبيحات المتدثرات فى أسمال قطنية سوداء تصل إلى كعوبهن ويعملن فى المكاتب . . تقول لا تحلم هؤلاء وأولئك فى كثير من الأحوال بما تحلم به زميلاتهن فى البلاد الأخرى من حيث مستقبل فى السينما ، والوله برجل مفتول العضلات ، وحياة ثرية متنقلة ، وإنما يفضلن نوعاً من الاستقرار una sistemazione وكثيراً ما يحلم رجال الصناعة بأن يكونوا قادرين على أن ينسقوا Sistemare المنافسة بإقامة اتحادات قوية للمنتجين Cartels وعقد اتفاقات محكمة ، وقد دأبت الحكومة الملكية قبل الحرب العالمية الأخيرة على أن تنظم sistemare المستعمرات ، فنعت المغامرين والمقامرين والمضاربين والأفاقين والجنود المرتزقة الذين لا هم لهم إلا الكسب من الذهاب إليها منعاً باتاً .

والغريب أن الشغف بتوفير حياة مستقرة sistemazione شائع كذلك بين المنشقين والمتمردين والخارجين على القانون ، فإن اللص الشقى bandito جوليانو Giuliano الذى نشط وازدهر فى صقلية عقب الحرب العالمية الأخيرة مباشرة منح أتباعه ألقاباً عسكرية مناسبة ، وأحيط بمراسم بدائية ولكنها صارمة . كذلك كثيراً ما يتزوج الشعراء المجددون والكتاب الرواد المبتدعون ومخرجو الأفلام السينمائية والمصورون الطليعيون الذين يبهرون العالم بجرأتهم وتحدياتهم ، كثيراً ما يتزوج أولئك من طاهيات ماهرات ومدبرات للبيوت بارعات ينجحن فى تربية أطفالهن ويحرصن على ادخار المال ، ولكن الطعام الذى يأكله أولئك الأزواج خلو من كل جديد أو مبتكر . ومما هو جدير بالذكر أنه عقب زحف موسولينى على روما سنة ١٩٢٢ كان لجميع ذوى

القمصان السود تقريباً . وهم أبناء الثوار الذين رددوا أناشيد رهيبة مروعة تعبر عن احتقارهم للموت وللسلطات وللقوانين والمعاهدات ، ولوحوا بما حملوا فى أيديهم من قنابل وخناجر ومدافع رشاشة ورسموا على صدورهم صور جماجم وعظام ، كان لجميع أولئك تقريباً مطمع أساسى إلى جانب إقامة حكم جديد ، هو أن يصبحوا موظفين ذوى مرتبات مجزية ومعاش فى نهاية الأمر . ولم يكن هذا بجديد ، فنى سنة ١٨٦٠ حين وصل ذوو القمصان الحمر أنصار غاريبلدى Garibaldi إلى نابولى ، بعد أن حرروا على نحو خارق وفى أشهر قليلة كل صقلية وجنوبى إيطاليا ، طالب كثيرون منهم بأن يستقروا Sistemati فى حياة آمنة فى الجيش النظامى . ولِمَ نذهبَ بعيداً؟ ، فحالما انتهت الحرب العالمية الأخيرة طالب بعض الفدائيين الشجعان الذين أبلوا بلاء حسناً فى هزيمة الألمان فى إيطاليا بأن يعينوا أعضاء فى الشرطة أو فى المطافئ أو جنوداً فى الجيش أو موظفين فى الحكومة حتى تستقر أمورهم .

* * *

كذلك يمكن أن نجد بعض هذا الهاجس القومى ، وبدرجات مختلفة ، فى أيديولوجيات أهم الأحزاب السياسية فى إيطاليا ؛ تلك التى حصلت على أكبر نسبة من الأصوات فى كل انتخاب أجرى منذ الحرب الأخيرة ، ونذكر فيما يلى هذه الأحزاب مرتبة حسب اتجاهها متدرجين من اليسار إلى اليمين : الشيوعيون ، الاشتراكيون ، الديمقراطيون المسيحيون ، الفاشيون أو كما يفضلون أن يسموا أنفسهم : الحركة الاشتراكية الإيطالية Movimento Sociale Italiano وتمثل هذه الأحزاب معاً ٨٥ ٪ من أصوات الناخبين ، وليس بينها من يهتم بالحرية اهتماماً خاصاً ، فالفاشيون والشيوعيون والجناح اليسارى الثورى من الاشتراكيين يهزءون بالحرية بوصفها ضعفاً عاطفياً سخيفاً يتسم به أعداؤهم ، ضعفاً يمكن استغلاله لإثارة الاضطرابات

وعرقلة أعمال الدولة والسير فى الإعداد لثوراتهم على نحو أيسر وأسهل . أما الديمقراطيون المسيحيون والجناح اليمينى من الاشتراكيين فهم يمتدحون الحرية ويتشدقون بها فى كل خطبهم ويمجدونها فى أناشيدهم وألحانهم العسكرية ، بل اتخذها الديمقراطيون المسيحيون شعاراً لهم نقشوه باللغة اللاتينية ' Libertas ' على راياتهم ، ولكن عندما تحلل المثل العليا لهذه الأحزاب يتبين أنها مقيدة بشروط وقيود ونزعات لاهوتية وضوابط وحزازات طبقية وأغلال تعسفية بحيث لامناص للمرء من أن يستنتج أنها فى حقيقة الأمر حذرة من الحرية ولاتدير إلا القليل منها فى أحسن الأحوال وبحيث يكون مخففاً على نحو مأمون ، بل إنها فى بعض الأحيان لاتريد شيئاً منها على الإطلاق .

ويحلم كل حزب من الأحزاب الجماهيرية يمينياً كان أو يسارياً (وعدد وافر من الديمقراطيين المسيحيين) بمستقبل يختلف عن مستقبل أقرانه وإن كانت هذه الأحزاب جميعها تحلم بمستقبل وطيد متوازن لاتزعزعه مفاجآت خطيرة ، وبمجتمع ينقسم فيه الناس إلى طبقات أفقية محددة تحديداً واضحاً ، متقناً قدر إتقان الأهرامات التى يقيمها باعة الخضر والفواكه من سلعهم ، بحيث يعرف كل فرد مكانه فيها وما سيكون عليه منذ ولادته حتى آخر عمره ، مجتمع تصدر فيه القرارات بكافة أنواعها سواء كانت خاصة ، أو أخلاقية أو ثقافية أو اقتصادية أو سياسية من القادة الحكماء وحدهم بوصفهم الوحيدين الذين يعرفون ما هو صالح للبلاد ، العارفين ببواطن الأمور ، مجتمع لا يختار فيه القادة اختياراً أعمى كيفما اتفق كما يجرى فى غرفة الاقتراع ، وإنما يختارون عن طريق المؤامرات السرية والملاكمة وصراعات سياسة القوة ؛ وهو أسلوب أكثر براعة وذكاء .

أما أفراد الشعب الذين تقدم لهم هذه الأحزاب الوعود فلن يعودوا يشغلون

بالهم بالأفكار النظرية والسياسات والمسائل المعقدة والفنية والتى لاتثير اهتمامهم على أية حال ، وسوف تقوم البيروقراطية بمعظم العمل/، ومن الطبيعى إلى حد ما أن الإيطاليين الذين يدلون بأصواتهم بالجملة لهذه الأحزاب هم أعقل من أن يجهلوا أن هذه المثل العليا قد يمكن تطبيقها تطبيقاً فعالا فى بلاد أكثر كفاية ونظاماً ؛ ولكن لا يمكن قط تحقيق ذلك فى بلدهم ، فهم يدركون أنه لو فاز أحد هذه الأحزاب بسلطة مطلقة فسوف يستطيع أن يكسوا الحقيقة الإيطالية بواجهة براقة من المبانى الجديدة والاستعراضات والملابس الرسمية والحفلات والاجتماعات العامة والخطب والشعارات ، واجهة تمضى تحتها الحياة الزائفة فى هدوء وثبات ؛ فيجمع الحاذقون المال وينعمون بحياة رخية ، على حين يدبر كل الآخرين أمورهم على قدر استطاعتهم . لقد حدث ذلك مراراً فى الماضى وسوف يحدث يقيناً ثانية ، كذلك يدرك الإيطاليون أنه إذا كانت فكرة إيداع المستقبل أمانة فى يد البيروقراطية فكرة معقولة فى البلاد الأخرى فهى فكرة حمقاء فى بلدهم حيث أثبت البيروقراطيون أنفسهم أنهم عاجزون عن تسيير أى شىء بكفاية وأمانة وعدالة ، ومع ذلك فإن الأمل فى قهر الخوف القائم على سراب التسوية النهائية المستقرة المنشودة Sistemazione التى تضع حداً لكل التسويات الجانبية المؤقتة Sistemazioni وكذا على حلم بناء دولة مثالية أبدية من الورق المقوى papier-mâché إنما هو أمل يفتن الإيطاليين ويسحر ألبابهم ؛ ومن ثم يواصلون الإدلاء بأصواتهم لمصلحة نفس الأحزاب الجماهيرية فى انتخاب بعد آخر .

الفصل السابع

كولا دى ريينزو وهاجس المجد الغابر

هناك على مر التاريخ الإيطالى شخصيات كثيرة تمثل اعتماد الإيطاليين على التظاهر الكاذب وتستغله كأداة للسياسة . ولكن شخصية واحدة فقط يمكن اعتبار صاحبها البطل الإيطالى فى أكمل صوره ، البطل الذى كانت له كل الصفات المميزة وأنقاها. وهذه هى : أفكار أدبية وفنية غامضة ومتناقضة لا تتصل فعلا بالعالم المعاصر ، وطموح هائل للسيطرة على إيطاليا وإعادة بناء الإمبراطورية ، ثم السيطرة على أوربا فى نهاية الأمر ، وحلم بناء «دولة جديدة» تتلقى الإلهام والوحى من تاريخ الأمجاد القديمة ، دولة يسودها السلام والقانون والفضيلة ، كما تميز هذا البطل بحب صادق لشعبه ولبلده ومجدهما الغابر ، حب عنيف مفرط يمكن أن يلتبس بحب الذات وكأنه اعتبر نفسه وإيطاليا والإيطاليين شيئاً واحداً ، أضف إلى ذلك رغبته فى أن ينتقم لما أصاب شعبه من شقاء وإذلال نسبهما كلية إلى فساد الحكام الآخرين ، وتحدى هذا الرجل فى تهور وطيش كل الدول الكبرى المعاصرة له ، وحاول أن يوقظ بنى وطنه وينبههم إلى معنى جديد لرسالتهم ، وجرهم على مضض إلى حروب لم يكن هو ولم يكونوا هم مستعدين لخوض غمارها .

وفى بادئ الأمر أرهب الأعداء ، وواسى الأصدقاء ، وأثار إعجاب بعض قادة الفكر المعاصرين ، وسحر الجماهير ، فقد كان أعظم خطيب فى زمنه ، وفصل

فى كل شئون الشعب فى شرفة كان يلقى خطبه منها فى الجموع المحتشدة أمامه ، وبدا أنه ليس ثمة سبيل إلى مقاومته ؛ وانحصرت وسيلته الأساسية فى الاستعراض المسرحى ، فاستخدم العلامات الرمزية والمهرجانات والطقوس ومواكب الفرسان والمشاة ، والملابس الرسمية ، والألقاب الرنانة لنفسه ولأتباعه ، وقد أقصى مرة عن الحكم وأعيد إليه على يد جنود أجانب ، ثم انتهى أمره بأن قتله شعبه نفسه الذى حاول أن يجعل منه شعباً عظيماً قوياً ، وعلقت جثته من قدميه ، وتدلى رأسه إلى أسفل ، وذلك فى ميدان عام ، حيث هزأ وسخر به أبناء شعبه أنفسهم الذين مجدوه ووصفوه بأنه منقذهم وصفقوا وهللوا له قبل ذلك بأيام قلائل . كان اسم هذا الزعيم كولا دى رينزو Cola di Rienzo أو نيقولا بن لورنزو .

ولد كولا دى رينزو فى روما سنة ١٣١٣ أو فى سنة ١٣١٤ فى حى ريجولا Regola قرب كنيسة سانت توماس القائمة على مقربة من حى اليهود ، وكان أبوه لورنزو صاحب خان ، وكانت أمه غسالة (كان أبو موسولينى حداداً فى بادئ الأمر ثم صاحب حانة فيما بعد ، كذلك كانت أم غاريبلدى غسالة) ، ولكنه كان يميل إلى الاعتقاد بأنه من أصل أنبل من أصل أسرته . فتفاخر بأنه كان الابن غير الشرعى للإمبراطور هنرى السابع الذى زار روما فى الوقت المناسب وقام بضعة أيام ضيفاً فى خان لورنزو تحت اسم مستعار ، وقد عززت تصرفاته وهيئته مزاعمه ، فكان فى أيام شبابه وسيم الطلعة ، يتصرف فى وقار ، ويتكلم بأسلوب مقنع ، ويضفى على حديثه حيوية باقتباسات وصور مناسبة . قال كاتب حوليات معاصر : « كان للضحك سمة غريبة على شفتيه » ، وقد تربى فى أنانى Anagni فى ريف الجنوب حيث رعاه بعض أقاربه بعد وفاة أمه ، ولكنه عاد إلى روما حين بلغ العشرين شاباً حيث عكف على التفكير ؛ واستغرق فى دراسة الآثار القديمة وقراءة النقوش

اللاتينية وتفسير ما يكتشف من تماثيل .

وجمع قطعًا من الآثار القديمة ، وخاصة الجعلان Cammei التى ذكرها فى كتاباته فيما بعد ، وهذه هى الجعلان التى نقشت عليها صورة سكيبيو ، وقيصر ، ومتيلس ومارسلس ، وفابياس . وقرأ ما وصلت إليه يده من أعمال المؤلفين الكلاسيين : ليفى Livy ، سالوست Sallust ، شيشرون Cicero ، سنيكا ، فاليريوس ماكسيموس ، كما درس أيضًا الكتاب المقدس ، وظل حتى آخر حياته يردد فقرات كاملة من هذه الكتب حفظها عن ظهر قلب ؛ وكان من أثر كتب المؤلفين الوثنيين والنصوص والأساطير المسيحية أنها أحدثت فى ذهنه الذى تثقف ذاتيًا دون معلم ، بلبلة غريبة بين صوفية العصور الوسطى ومجد الرومان . وكثيراً ما خطب فى الناس كيفما اتفق ، فكان يجمعهم من الشوارع المحيطة ويثيرهم بذكريات ماضيهم المجيد وما يعانونه فى حاضرهم من ذلة ومهانة ، وكان يصيح فيهم قائلا : « أين هم اليوم أولئك الرومان ؟ أين فضائلهم وعدلهم وسلطانهم ؟ لماذا لم أولد فى تلك الأيام السعيدة ؟ » .

الواقع أنه لم يكن من الممكن أن تكون الأحوال فى عصره أسوأ مما هى عليه ، فقد كانت روما فى حالة يائسة منذ هجرها البابوات فى سنة ١٣٠٥ حين آثر البابا كلمنت الخامس Clement V أن يستقر فى أفنيون Avignon على أن يواجه رعاياه الثائرين ؛ وبقيت المدينة بدون حكومة فعالة وبدون قانون ، فراح الناس بمختلف طبقاتهم يبذلون أقصى ما يستطيعون للدفاع عن أنفسهم ضد اللصوص ومشعلى الحرائق ومغتصبى النساء والقتلة . وامتلكت كل من الأسرات النبيلة المشهورة حصنًا فى روما وقصوراً منيعة فى الريف ، من ذلك أن أسرة أورسينى Orsini امتلكت قلعة سانت أنجلو وسيطرت على الأحياء الواقعة حول مرتفعى جوردانو ومسرح بومبى وكامبو دى فيورى ، وكان لأسرة كولونا Colonna قلعة قرب كنيسة الرسل المقدسين Holy

Apostles بجانب تل كويرينال Quirinale حيث لايزال أفرادها يعيشون اليوم . وسيطرت هذه الأسرة على طول الشارع الرئيسى Corso وامتد نفوذها حتى بياتزادل بوبولو Piazza del Popolo (ميدان الشعب) . وكان لهذه الأسرات جيوشها الخاصة من الفرسان والمشاة يقودها أبناؤها وحفدتها وغيرهم من الأقارب ، وفرضت كل منها قانونها ونظامها على دائرة اختصاصها ، ودارت بين بعضها وبعض حروب لانهاية لها . وحين سارت الأمور على خير ما يرام عاشت هذه الأسرات فى روما وسط مظاهر الأبهة والفخامة ؛ ولكن حين واجهتها ظروف قاسية أو حين أصبحت ريح الشيروكو الحارة الرطبة ثقيلة الوطأة مقبضة ، لجأت إلى الريف مع نسائها وأطفالها وكنوزها وخدمها وحشمها .

أما الفقراء الذين لا مورد لهم من أهالى روما فقد اشتروا حمايتهم وأمنهم بإعلان ولائهم للأسرة النبيلة المسيطرة على حيهم فى المدينة ، فإذا انتقل أحدهم إلى حى آخر نقل ولاءه مع أثاثه ؛ وكان لزامًا على العامة المساكين أن يخدموا فى الجيوش الصغيرة الخاصة ، ولكن كان فى وسعهم دائمًا طلب المعونة — إذا اقتضت الضرورة — لقهر هجوم ، والانتقام لأى أذى وإنزال مثله بالعدو إذا تأخرت هذه المعونة . وبطبيعة الحال لم يكن لحياة الإنسان قيمة تذكر ، فكانت النساء تغتصب ، والبيوت تحرق ، والأديرة تنهب ، والماشية تخطف ، والمال يسرق ، كان كل ذلك من الأمور العادية المتوقعة . وكانت الجثث تكتسح من الشوارع كل صباح ويلقى بها مع الفضلات فى نهر التيبر Tiber ؛ كما كانت المبانى فى حالة بالغة السوء ، فقد كانت كنيسة سانت جون لاتيران S.J. Lateran بدون سقف ، وكان جسر ميلفيان Milvian متهدمًا ، دمرته أسرة أورسينى التى امتلكت الجسر الوحيد الآخر قرب قلعة سانت أنجلو وسيطرت عليه ؛ كذلك كان برج ناقوس كنيسة القديس بطرس

قد تحطم بفعل البرق، وترك كثير من الكنائس والجسور والقصور البابوية في خراب متفاوت الدرجات نتيجة الحرائق أو القدم أو الجو أو النهب وتكرار سرقة أحجارها وتماثيلها وقرميدها .

وحدث في سنة ١٣٤٢ أن أوفد كولا ، ذلك الشاب المتوقع له مستقبل مرموق في الخطابة، عضواً اختاره مواطنوه في بعثة إلى البابا المقيم وقتئذ في أفنيون، وراح يحاضر البابا كلمنت السادس في فصاحة و بلاغة موضحاً له أنه ما دام القانون والنظام في يد النبلاء المتمردين وهم أقل الناس اهتماماً بالدفاع عنهما فلن يسود المدينة الأمن والسلام؛ وكان متحمساً لهذا الموضوع بصفة خاصة ، لأنه كان قد فقد أخيراً أخاً له لقي حتفه على يد سفاكين مجهولين ،ومن ثم وجه هذا الحزن الشخصي أفكاره نحو مآسي الحياة في روما، على أن كلماته العنيفة لم ترق أعضاء الأسرات النبيلة الذين تألفت منهم سائر البعثة ، والذين كان لهم أقارب بين رجال بلاط البابا ، فطرد شر طردة ، وألقي به في الشوارع ، فعاش شريداً بضعة أشهر في أفنيون . ولكن أفكاره المشرقة ، وذهنه المتقد ذكاء وثقافته وفصاحته و بلاغته ، سحرت الشاعر بترارك Petrarch الذي راوده نوعاً ما الحلم نفسه : حلم إحياء أمجاد الماضي وجعل روما مرة أخرى عاصمة لإيطاليا المتحدة ولكل أوربا ، ودعم كلا الرجلين معتقدات زميله، وصارا صديقين مدى الحياة ، فبفضل شفاعة بترارك ووفاة البابا وفي غضون ذلك عاد كولا إلى ما كان له من حظوة ، فعين موثقاً من قبل البابا الجديد وأعيد إلى روما .

وكانت وظيفته هذه مما يتوق إليه معظم الإيطاليين ، فقد كان له مرتب ثابت قدره خمسة فلورينات ذهباً شهرياً ، وقدر من السلطة ، ولديه مساعدون يقومون بالعمل الحقيقي ، ووقت لمتابعة دراساته الخاصة . وتجول كولا هنا وهناك ، وقابل جميع أنواع الناس ، وفكر ملياً في أسباب اضمحلال روما وفندها وشهر بها ، فألقي

خطيباً رائعة أثارت مشاعر سامعيه حتى انحدرت الدموع من مآقيهم، ورفض الكتابة بريشة الإوز لأنه اعتقد أنه لا يليق بمنزلة الموثق الرسولي ووقاره، فكان يستخدم قلماً من الفضة صنع له بناء على طلبه، ولعله بذلك اخترع أول قلم معدني في التاريخ، وأهم من ذلك كله أنه كون له أنصاراً بين عامة الشعب، بين الحرفيين والتجار والبورجوازيين الناشئين Petty Bourgeoisie وصغار رجال الدين، والمثقفين، وربط بين هؤلاء جميعاً بطريقة واهية، هي إعجابهم بزعامته وسخطهم على الأحوال القائمة.

وسمى نفسه وقتئذ « المدافع (التربيون Tribune) عن حقوق الأرامل والأيتام والفقراء؛ ويرجح أنه كان أيضاً مبتكر الرسم الكاريكاتوري السياسي، فكثيراً ما كان يعرض في الطرق وعلى الجدران صوراً رمزية تعبر عن قصص معقدة كي يبرز نقطة معينة، فكانت تعنون بخط واضح صورة كل أنثى، فتسمى إما روما أو المسيحية أو إيطاليا أو الديانة، أو الإمبراطورية؛ وهكذا، وكثيراً ما دعاه النبلاء إلى تناول العشاء معهم في حصونهم بالمدينة، ليتحدث إليهم عن خطاياهم ويسليهم بتهديداته وتنبؤاته. وحدث ليلة وهو في ضيافة جوفني كولونا Giovanni Colonna أن تباهى قائلا: « سوف أكون يوماً ما عاهلا مشهوراً أو إمبراطوراً عظيماً »، ثم راح يشير إلى الحاضرين الواحد بعد الآخر ويقول: « سوف أسجنك، سوف أقطع رأسك، سوف أشطرك إلى أربعة أقسام، سوف أعذبك وأشنقك . . »، وضج الجميع بالضحك حين فاه بهذه الكلمات، ولم يساورهم الشك في أن هذا هو ما اعتزم أن يحاول تنفيذه عما قريب.

وقضى كولا ليلة السبت ٩ مايو سنة ١٣٤٧ في كنيسة سانت أنجلو في بسكييرا Peschiera يستمع إلى عشرين قداساً كرست للروح القدس، وفي الصباح ظهر

عارى الرأس ، ولكنه كان مدججاً بسلاحه ، وأعد موكباً رائعاً أخرجه إخراجا مسرحياً مثيراً ، فسار نحو كامبيدوليو Compidglio مقر حكومة روما الإسمية العاجزة القائم على مسيرة دقائق قليلة ، يحيط به رفاقه المسلحون ويحميه مئات من الجند المأجورين ويتقدمه حملة أربعة أعلام أولها علم الحرية وهو أحمر اللون (ولعل هذه هى أول مرة فى التاريخ ظهر فيها العلم الثورى الأحمر) وقد طرز عليه بالذهب حروف ورسوم تمثل روما جاثمة على أسدين وتقبض بإحدى يديها على الكرة الأرضية وتمسك بالأخرى سعف النخيل ، وكتب عليه شعار « روما عاصمة العالم Roma caput mundi » وكان العلم الثانى يرمز إلى العدالة وهو أبيض اللون عليه صورة القديس بطرس متقلداً تاجاً وحاملا سيفاً مسلولا ، كذلك كان العلم الثالث أبيض اللون وعليه أيضاً صورة القديس بطرس قابضاً على مفاتيح الوئام والسلام . أما الرابع فكان لواء سانت جورج ، وكان قديماً مهلهلا ممزقاً الأمر الذى استلزم حمله فى صندوق خشبى ثبت فى قمة السارية .

وسرعان ما انضم إلى الموكب عدد من المتسكعين وأولاد الشوارع المتشردين والمتسولين والفضوليين من أهالى روما ، ولما وصل الموكب إلى التل هجم رجاله فجأة على مبنى الكامبيدوليو واستولوا عليه ، فلم يكن هناك من يدافع عنه . ومن الطريف أن أعضاء معظم الأسر النبيلة سمعوا بهذه المؤامرة السرية ولكنهم حسبوها مجرد تلفيق من تلفيقات الموثق المجنون ومن ثم لم يأخذوها مأخذ الجد ، وكانت جماعة كولونا — أقوى الأسر النبيلة كلها — خارج روما ، فقد ذهب كل أعضائها بقضّهم وقضيضهم إلى تاركوينيا Tarquinia ليحصلوا على القمح الذى كان نادراً فى تلك الآونة ، بيد أن عميدها ستيفانو الكبير الذى كان قد ناهز الثمانين عاد على عجل إلى روما بعد أيام قلائل ، ويروى عنه أنه حين علم بما حدث قال فى ازدراء : « إذا استمر هذا

المخبول فى إزعاجى فسوف آمر بإلقائه من نوافذ كامبيدوليو » .

وبعد أن استولى كولا على مبنى كامبيدوليو توجه إلى شرفته وراح يتحدث يحيط به رجاله المسلحون وأعلامه وأقاربه وأتباعه وأنصاره ، وألقى خطاباً رائعاً ركز فيه على بؤس أهالى روما وأمجادهم الغابرة والحاجة الماسة إلى إقامة حكومة قوية حازمة ، أعنى «الحكومة الفاضلة» والاحتفاظ بها ، وصاحت الجماهير وهللت معبرة عن استحسانها وموافقتها ؛ وعندئذ طلب إلى أحد أقربائه أن يقرأ جهاراً الدستور الجديد الذى كان قد أعده ؛ ولما تم ذلك خطا إلى الأمام وسأل الجماهير عمن يريدون انتخابه ليرأس الدولة الجديدة فصاحوا ملوحين بأذرعتهم فى حماس : « أنت » .

ونشط كولا إلى العمل على الفور ، واتخذ لنفسه بادئ ذى بدء لقباً رناناً : « نيقولا الصارم الرحيم المدافع عن الحرية والسلام والعدالة محرر الجمهورية الرومانية المقدسة » ، ثم نظم حرساً (ميليشيا) قوامه ٣٦٠ من الفرسان و ١٣٠٠ من المشاة جمعهم من مدنيين من مختلف أحياء روما ، وأمرهم أن يستعدوا للزحف على الكابيتول حالما يسمعون دقات ناقوسه الكبير ، وراح كولا يشنق اللصوص والقتلة بما فيهم قليل من النبلاء البارزين ، وأمر بأنه من الآن فصاعداً لن يسمح بإقامة أية حصون خاصة أو مواقع خاصة للمدافع داخل أسوار المدينة ، وأن تكون جميع الأسرات النبيلة مسئولة عن سلامة عابرى السبيل على طول الطرق التى تخترق أراضيها ، وحرم عليها إيواء اللصوص والمجرمين بكافة أنواعهم ، كما قرر أن تتولى قوات الحرس (الميليشيا) حراسة كل ما فى روما من جسور وممرات ضيقة وبوابات وتحصينات على أن يهدم منها كل ما هو غير ضرورى .

وهدد كولا بأن كل من يعصى أوامره من النبلاء سوف ينفى إلى ضيعته فى الريف ، ولن يسمح له بأن تطأ قدمه أرض روما مرة أخرى ، وبعد أسبوعين ، وحرصاً

منه على تأكيد سلطانه ، دعا جميع رءوساء الأسرات النبيلة إلى اجتماع عنده ، فجاء معظمهم واستقبلهم لابساً درعه وفوقه عباءة قرمزية رمز السلطة التى حصل عليها أخيراً ، ثم قادهم إلى مذبح كان قد وضع أمامه شارة الكنيسة ، وهناك طلب إليهم جميعاً أن يقسموا على الكتاب المقدس وعلى القربان المكرّس بأنهم سيتجنبون تماماً العدوان عليه وعلى حكومته وجنده والشعب عامة ، وقام كل منهم بحلف اليمين ، وبذلك قبلوا ضمناً نهاية الحكم الإقطاعى وعودة الجمهورية وشرعية سلطانه والدستور الجديد ، وجعل كولا الثورة ضد الإقطاع واضحة جلية للجميع حين حرم على العامة حلف يمين الولاء للنبلاء أو وضع شعاراتهم على البيوت الخاصة والحوانيت بغية حمايتهم ، كما منعهم من أن يخاطبوا النبيل بلفظ « مولاى » Mio Signore

كتب المؤرخ الإنجليزى جيبون Gibbon فى مؤلفه الخالد « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » يقول : « ربما لم يحدث قط من قبل أن أحس الناس على نحو رائع بنشاط عقل واحد وأثره أشد من إحساسهم بإصلاح روما إصلاحاً عاجلا وإن كان عارضاً ، فتحول وكر اللصوص إلى معسكر أو دير يسوده النظام ويلقى فيه المذنب جزاءه ، وكان كولا يصغى فى صبر ويسارع إلى رفع الظلم ، وينزل العقاب دون رحمة أو شفاعة ، وكانت محكمته سهلة المنال دائما على الفقير والغريب ، ولم يكن المولد أو المنزلة أو حصانة رجال الكنيسة وامتيازاتهم لتحمى المذنب أو شركاءه » ؛ وقد بالغ كاتب حوليات معاصر مجهول الاسم حين كتب يقول : « لقد بدأت الغابات تبتهج حيث لم يعد اللصوص يغزونها ويحتشدون فيها ، وبدأت الثيران تحرث الأرض ، وراح الحجاج يزورون المعابد ، وامتلأت الطرق والخانات ثانية بالمسافرين ، وعادت التجارة والرخاء والثقـــة إلى الأسواق ، واستتب الأمن ، فكان

من الممكن أن يترك فى وسط الطريق العام كيس ملآن بالذهب دون أن تمسه يد » .

وبعد أن مضت بضعة أسابيع نعمت فيها روما بحكم هادئ خال من الاضطرابات بدأ كولا فى النهاية يكشف عن المزيد من خططه ، وكان هدفه الأول توحيد إيطاليا فى جمهورية اتحادية كبرى تحت زعامته ، وراح ينفذ خطته هذه لا عن طريق شن الحروب أو تدبير المؤامرات السياسية الواسعة النطاق بل عن طريق المراسلة ، فأوفد رسلا موثوقًا بهم سريعى الحركة ومعهم رسائل كريمة كتبها فى نثر لاتينى بليغ إلى حكومات كثير من المدن والجمهوريات والإمارات الصغيرة الإيطالية . وسافر هؤلاء السفراء سيراً على أقدامهم ، وكانوا عزلا من السلاح يمسكون بعصىّ بيضاء لتميزهم وتيسر التعرف عليهم ، ولقوا ترحيبًا فى كل مكان وسط مظاهر الفرح والابتهاج . وسرعان ما وصلت إليه ردود تنم عن الودّ والاحترام ، ولكنها فى جوهرها مراوغة ، ثم جاء إليه فى أثرها سفراء من الأمراء والمدن الحرة ، وأضفى الموثق الحديث على نفسه المزيد من وقار الحاكم الشرعى الرسمى ومهابته ، وبدأت السلطة تفسده وتلوثه ، وأصبحت ألقابه أكثر رنينًا وتنميقًا ، وضم إليه مناطق جديدة على مرّ الأيام ، وكانت ألقابه فى ذلك الوقت : «نيقولا الصارم الرحيم منقذ روما وحامى إيطاليا وصديق الجنس البشرى ونصير الحرية والسلام والعدالة والمدافع المبجل Tribune August عن حقوق العامة ومصالحها » .

وامتطى كولا فى جولاته فى المدينة جواداً أشهب – وهذه ميزة اختص بها البابوات والأمراء العظام وحدهم – كما كانت ثيابه على غرار ثياب البابوات – مصنوعة من الحرير الأبيض ومطرزة بالذهب . وسار أمامه مائة جندى من المشاة اختارهم من الحىّ الذى ولد فيه ، وهو حى ريجولا Regola ، وفى كل مواكبه رفرف فوق رأسه

علم الجمهورية الذى صممه بنفسه ، وكان يمثل شمسًا حولها دائرة من النجوم وحمامة تحمل أغصان الزيتون؛ وذهب كولا مرة إلى كنيسة القديس بطرس فى موكب فخم، وهرعت الجماهير من أحياء روما كافة لتصطف على طول طريقه وتبدى إعجابها به؛ وتقدم الموكب فرقة من الفرسان ببزاتهم الجميلة وأسلحتهم اللامعة، وتلاهم موظفو حكومته ، وسار وراء هؤلاء رجل يحمل كأسًا فضية ، أعقبته كوكبة أخرى من الفرسان أو قل فرقة موسيقية يمتطى أفرادها جيادًا ومعهم طبولهم وأبواقهم المصنوعة من الفضة وعدد من الحجاب شهر أحدهم سيفًا مسلولا ونثر آخر قطعًا من العملات الذهبية والفضية على الناس ، فى حين سار إلى جانبيه رجلان لمساعدته، حمل كلاهما حقائب ملأى بالنقود، وهذا مما لم يسبق مشاهدته إلا عند دخول الأباطرة روما . وظهر التريبيون «كولا» على جواده وقد ارتدى ثوبًا من المخمل نصفه أصفر ونصمه أخضر ومبطنًا بالفراء ، وأمسك فى يده اليمنى بعصا العدالة ، وهى صولجان من الصلب المصقول تتوجه كرة وصليب من الذهب به قطعة صغيرة من خشب الصليب الأصلى؛ ورفرف فوق رأس التريبيون العلم الكبير الذى حمله رجل سار وراءه، كما سار إلى جانبيه خمسون رجلا من قرية فيتور كيانو Vitorchiano (وكان أهلها حلفاء روما المخلصين ، ولايزالون حتى اليوم يشتركون فى كل حفلات البلدية) وقد تدثروا بالفراء وحملوا المطارد (المطرد سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب) ، و بدوا على حد قول أحد المشاهدين المعاصرين : «وكأنهم دببة مسلحة» وسار فى آخر الموكب عدد من الأصدقاء والأنصار . والطريف أنه حوالى ذلك الوقت بدّل كل أقارب كولا الأجلاف أسماءهم ومهنهم ، مثال ذلك أن عمه الحلاق ارتدى ثياب الفارس النبيل Knight وسمى نفسه السيد المهذب روسو Rosso . وفى يوليو سنة ١٣٤٧ بدأ كولا يؤرخ رسائله الرسمية وفقًا لعهد جديد: السنة الأولى لعودة الجمهورية الرومانية؛

ولكنه لم يتجاوز هذا التأريخ حيث لم يدم حكمه سوى سبعة أشهر وذلك من مايو حتى يوم عيد الميلاد سنة ١٣٤٧ . وجدير بالذكر أن موسوليني بعد ذلك بستة قرون حاول أن يحاكي هذه الإجراء، واستطاع أن يواصله فترة أطول كثيراً ، فكتب معتزاً على صورته الفوتوغرافية التي أهداها إلى أحد الصحفيين قبل أن يلقى حتفه بثلاثة أيام : « السنة الثالثة والعشرون من العهد الفاشي » Anno XXIII E.F.

والحق أن أول استعراض مسرحي ينم عن طموح كولا وأطماعه هو ذلك الذي أخرجه بمناسبة قبوله « رتبة فارس » في كنيسة سان جون لاتيران يوم أول أغسطس ، وكان استعراضاً غريباً شاذاً أهدف إلى إحاطته بهالة التكريس الكنسي الغامضة التي تتميز بها العصور الوسطى وإلى رفعه إلى طبقة النبلاء . كما هدف في الوقت نفسه إلى إحياء ذكريات الإمبراطورية الرومانية . ولكنه قصد بوجه خاص إحداث نقطة تحول في التاريخ ؛ أو قل ثورة في المبادئ السياسية المعاصرة وقيام عهد جديد ، وذلك كله وسط أروع مظاهر الجلال والوقار . فسار يوم ٣١ يوليو موكب كبير لاحد له من مبنى الكامبيدوليو Campidoglio إلى كنيسة سانت جون لاتيران ، واخترق شوارع ازدانت بالزهور وأقواس النصر والطنافس الثمينة ؛ واحتشدت الجماهير تهتف وتهلل على طول الطريق ، وراح المشعوذون يسلون المشاهدين بألعابهم ، وغنى منشدو الشوارع الأغاني ، وألقى الشعراء الشعبيون القصائد ، ونفخ الموسيقيون في الأبواق وقرعوا الطبول وداعبوا أوتار الأعواد ، وتصدر كولا الموكب ممتطياً جواده الأشهب ، وتبعه كبار القوم من رجال الدين والمدنيين والعسكريين وقد ارتدوا أفخر الثياب . وتقدم كل طائفة منها علمها ، وجاءت زوجة كولا سيراً على الأقدام وبرفقتها سيدات روما ، ونثرت الزهور أمامهن ، وغير بعض السفراء الأجانب ثيابهم عدة مرات على طول الطريق ، وألقوا ما خلعوه منها إلى الجماهير .

وعندما وصل الموكب إلى الكنيسة أمر الجميع بالانصراف حتى اليوم التالي ؛

واختفى كولا عن الأنظار بعد أن دخل الكنيسة ، وهناك أخذ حمّاماً طقسيًّا فى الناووس المصنوع من الرخام السماقى والذى تقول الأسطورة إن الإمبراطور قسطنطين شفى فيه من مرض الجذام بمعجزة خارقة على يد البابا سيلفستر Sylvester ، ولكن هذا العمل أثار على كولا سخطاً شديداً حيث اعتبر على الفور تدنيساً للمقدسات ، ثم اتخذ فيما بعد مسوّغاً من مسوّغات حرمانه من عضوية الكنيسة ، وكان كل ما يعنيه من عمله هذا أن يكون رمزاً لسلطته الجديدة التى استمدت قوتها المهوشة من جذور مسيحية وإقطاعية ورومانية قديمة . ثم راح بعد ذلك فاضطجع على سرير رسمى فخم أعد له قرب مذبح الكنيسة ونام فيه حتى الصباح . وحدث أن انهارت تحت ثقله إحدى قوائم السرير ، وفسر ذلك على أنه نذير شؤم .

وفى اليوم التالى (أول أغسطس عام ١٣٤٧) احتفل بتنصيب كولا فارساً وسط طقوس فخمة ابتدعها هو . وفى النهاية خرج إلى الشرفة وأطل على الجماهير وقد أضفى على نفسه أبهى مظاهر الهيبة والجلال مرتدياً ثوباً أرجوانيًّا إمبراطوريًّا ؛ وكان يطوق قدميه مهماز من الذهب (دلالة الفروسية وشرف المولد) وحاملا سيفاً مسلولا . ولما عاد إلى صحن الكنيسة كشف فى نهاية الأمر لضيوفه ولشعب روما عن معنى الاحتفال ، وأفصح لأول مرة عن سر خططه السياسية بأكملها حين نهض من عرشه وأعلن فى صوت جهير : « إننا نأمر البابا كلمنت بأن يمثل أمامنا ، وأن يقيم فى أبرشيته ، أبرشية روما ؛ كذلك نأمر مجمع الكرادلة المقدس بالمثول أمامنا كما نأمر الدعيين شارل أمير بوهيميا ولويس أمير بافاريا اللذين ينتحلان كلاهما لقب إمبراطور بالحضور أمامنا ؛ كما نطالب جميع ناخبى ألمانيا بالحضور لإبلاغنا بأى حق اغتصبه هذان الدعيان من حقوق الشعب الرومانى التى هى ملك الشعب وحده ، وكذا ليقوموا بانتخاب حاكم الإمبراطورية الشرعى » . ثم استل كولا سيفه الجديد ولوّح به ثلاث مرات فى ثلاثة

اتجاهات مكرراً فى كل مرة قوله : « وهذا أيضاً ملكى أنا » .

لم يكن من الممكن أن تكون معانى كلماته الثورية وإشاراته وإيماءاته أوضح من ذلك . لقد أراد أن تكون روما عاصمة العالم Roma caput mundi مرة أخرى ، وأن يجعل الشعب الرومانى الحكم الوحيد على مصيره كما كان فى الماضى ، وأن يحى الإمبراطورية الرومانية فى ثوبها القديم ؛ كما أراد أن يقلل من شأن البابا ومنزلته ليكون مجرد أسقف المدينة الخالدة ورأس منظمة دينية عالمية ، فلا يكون بعد ذلك حاكماً دنيوياً على أملاكه الإيطالية ، ووصم كولا الإمبراطوريين الدعيين بأنهما مغتصبان ، لأن أفراد الشعب الرومانى وحدهم هم أصحاب الحق فى انتخاب الإمبراطور الشرعى . ترى من ذا الذى يمكن أن يكون هذا الإمبراطور ؟ هناك رجل واحد لهذا المنصب هو الرئيس الحالى للجمهورية الرومانية ، ذلك الذى اختاره الشعب ، بعبارة أخرى هو نفسه كولا بن لورنزو صاحب الخان . هكذا تحدى كولا فى ضربة واحدة كل السلطات القائمة فى عصره : النبلاء والإقطاع ، البابا والكنيسة ، ألمانيا والإمبراطورية ، وقام بهذا التحدى دون أن تكون له قوة واضحة ليحارب بها أعداءه ويقهرهم .

وأقام كولا فى اليوم نفسه وليمة لضيوفه ولمواطنى روما كانت من أضخم الولائم وأكثرها بذخاً وإسرافاً ، ولم يسبق أن شوهدت مثلها على الإطلاق فى أيام المجاعات المزمنة فى هاتيك الأيام . وكان لزاماً للإعداد لهذه المناسبة إدخال تعديلات على قصر لاتيران ، فهدمت جدران ، وبنى أكثر من سلم جديد ، ثم مدّت المناضد فى الأفنية والأروقة والغرف ، وأقيم ثمانون مطبخاً لطهى كل ما لذّ وطاب من أنواع الطعام الفاخر ، وتدفق النبيذ الأحمر من منخر الحصان البرونزى الذى يمتطيه تمثال الإمبراطور ماركوس أوريليوس ، وانساب الماء من منخره الآخر ، هذا هو التمثال القائم إذ ذاك أمام قصر لاتيران ، وكان الاعتقاد السائد وقتئذ أنه تمثال الإمبراطور قسطنطين أول

إمبراطور مسيحى . وفى وسط قاعة الطعام الرئيسية وضعت كعكة هائلة صنعت على شكل قلعة خرجت من نوافذها وأبوابها صحون جديدة كأنها بفعل السحر .

وحدد يوم لاحق لعرض رائع آخر يبهر الأبصار ، وذلك بمناسبة تتويج كولا دى رينزو — وكان هذا الحفل مثقلا بدوره بمعان وأغراض خيالية حمقاء ، فقد اتخذ بعض السمات من تتويج الشعراء التقليدى فوق تل كامبيدوليو ، واتخذ بعضها الآخر من تتويج الأبطال الرومان القدامى حين كانوا يحملون تكريمًا لهم فى احتفال عظيم يخترق شوارع روما ، ووضع ستة من كبار رجال الدين ستة تيجان على رأس كولا ، تمثل عطايا الروح القدس التى كانت فيما يبدو ستًا فقط وقتئذ، ولم تصبح بعد سبعًا . وتولى واحد من الأوباش فى أسماله البالية تحطيم التيجان الواحد بعد الآخر فور وضعها على رأس كولا ما عدا التاج الأخير . وبهذه المناسبة نذكر أنه فى العصور القديمة كان للجند وأفراد الشعب مطلق الحرية فى أن يسخروا بالقائد العسكرى المحمول على الأعناق فى احتفال النصر ، وأن يوجهوا إليه الشتائم والألفاظ النابية . وهكذا كان كولا هو أيضًا أثرًا ممقوتًا من آثار الماضى . كما كان رمزًا للسمة الزائلة التى تتسم بها كل الأمجاد الدنيوية . أما التاج الأخير الذى لم يهشمه المتشرد المهلهل الثياب فهو ذلك الذى وضعه على رأس كولا رئيس دير مستشفى الروح المقدس (ولايزال هذا المنصب قائمًا حتى اليوم) الذى ناوله أيضًا صوبلجانًا . وفى النهاية تقدم نحو كولا النبيل جو فريدو Goffredo degli Scotti العجوز الذى قام بتنصيبه فارسًا قبل ذلك بأيام ، وأعطاه كرة فضية يعلوها صليب وقال له : «أيها التريبيون الأفخم تقبل العدالة ومارسها ولتمنحنا السلام والحرية » .

وبلغت أطماع كولا فى ذلك اليوم أقصى درجات حماقتها ، فإنه لم يقنع بأنه

استطاع أن ينتزع مركزاً أعلى من مركز البابا والإمبراطور ، بل جرؤ على أن يقارن نفسه بالسيد المسيح ، فلمح فى خطبة قصيرة إلى أن عمره ٣٣ سنة ، وهى السن التى انتقل فيها المخلِّص إلى السماء ، إشارة إلى أن مصيراً عظيماً ينتظره . وعندئذ أجهش فى البكاء راهب تقىّ من أنصاره ، وقال : « والآن هل هبط حاكمنا من السماء ؟ إننى لم أر قط إنساناً على هذا النحو من الكبرياء ، لقد استطاع بمعونة الروح القدس أن يقصى الطغاة عن المدينة دون أن يستل سيفاً . ترى لماذا هو مغرور متغطرس منكر لفضل السيد المسيح إلى هذا الحد ؟ »

وطيلة الأسابيع السابقة ظل مكتب التريبيون يعمل بجد وحماس منهمكاً فى إعداد رسائل إلى عدد من الأمراء الأجانب الذين تفاوتت مراتبهم الرفيعة ، وكذا فى دراسة ما ورد منهم من ردود . وأرسل كولا رسالة خطيرة الشأن إلى ملك إنجلترا ، وأخرى إلى ملك فرنسا يأمرهما بإيقاف الحرب الدائرة بينهما لأنها « ألحقت ضرراً جسيماً بالعالم المسيحى كله » كما بعث رسالة ثالثة إلى البابا فى أفنيون يأمره بأن يصلح بين الملكين دون إبطاء . ووصلت إلى كولا رسالة من لويس ملك المجر يسأله فيها التدخل لمصلحته فى نزاع عائلى عويص ، ذلك أن أخاه الملك أندرو Andrew زوج جوانا ملكة نابولى Joan of Naples قد قتل ، وطلب لويس إلى كولا أن يأذن له ولجيشه بعبور الأراضى الرومانية حتى يثأر لما لحق أسرته من أذى ، ووصلت فى الوقت نفسه رسالة أخرى من الملكة جوانا تطلب فيها من التريبيون أن يحميها وأن يتوسط فى هذا الخلاف لمصلحتها لدى ملك المجر . ووعد كولا الطرفين بأن يبذل كل ما يستطيع من جهد ، وأقحم فى رده لكليهما اقتباسات فذة من الكتاب المقدس . كذلك تبودلت مع المدن الإيطالية رسائل شتى بشأن الإعداد لمؤتمر مهيب للمحامين يعقد فى روما كى يصوغ فى عبارات قانونية وافية إعلاناً يوضح حقوق الشعب الرومانى . واعتقد

المحامى كولا أنه فور أن يوطد مؤتمر من كبار المحامين سيادة روما ، لن يجسر أحد إطلاقا على أن يتحداها .

ولتدعيم حكمه دعا كولا كل زعماء الأسرات النبيلة إلى حفل عشاء أقامه لهم ، وبينما كان الضيوف جالسين إلى المائدة تحسس ستيفانو Stefano العجوز زعيم أسرة كولونا هدب ثوب التربيبون وقال له فى ازدراء : « خير لك أن ترتدى ثياب عامة الشعب بدلا من هذا الرداء الفاخر الدال على الأبهة والعظمة » ؛ فتميز كولا غضباً ، وسجن الجميع ، وأمر بأن تزخرف جدران القاعة الكبرى بستائر حمراء وبيضاء — وهما لونا الحكم بالإعدام — واستدعى الجلاد ، كما أوفد قساً ليتلقى اعتراف السجناء ، ولكن ستيفانو العجوز رفض تلقى الأسرار المقدسة من القسيس ، وقال فى أنفة وإباء إنه لم يكن مستعداً بعد لأن يموت . ولم يلبث كولا كما هى عادته أن توجس خيفة مما هو مقدم عليه ، فغير رأيه ، وأطلق سراح الجميع مقابل تعهد منهم بعدم تعكير السلم ، ثم منحهم هدايا قائلا إنه إنما كان يقصد من كل عمله هذا مجرد الدعابة . وامتطوا جميعاً جيادهم ، وتقدمهم كولا فى موكب طاف شوارع المدينة دلالة على هذا التصالح . وكانت هذه الغلطة الضربة القاضية التى حطمته ، وقد استبان حقيقتها الشعب ومؤرخ الحوليات المعاصر حين كتب يقول : « لقد أشعل هذا الرجل ناراً سيعجز عن إخمادها » ؛ والواقع أنه منذ ذلك اليوم آمن الأمراء الإقطاعيون بأنهم لا يستطيعون أن يأمنوا إلى كولا ، وأنه خير لهم أن يدعوا جندهم إلى حمل أسلحتهم وأن يحصنوا قلاعهم ويستعدوا للحرب .

وفى نهاية الأمر قضت الحرب عليه . لقد كان النبلاء الرومان المنفذ لتحقيق مخططه ، وكان لزاماً عليه أن يقاتلهم كى يحتفظ بسلطته فى روما ، لأنه إذا خسر تأييد روما فسوف يفقد أيضاً تأييد المناطق النائية ، ومعنى هذا نهاية أطماعه فى

إيطاليا حيث لا يستطيع بدون إيطاليا موحدة أن يواجه البابا أو الإمبراطور أو أن يخضع أحدهما لرغباته بمساعدة من الآخر ؛ فخاض ضد الأسرات النبيلة حرباً متقطعة تعوزها الخبرة والبراعة وإن تخللتها بعض انتصارات عرضية . ولكنه لم يكن فى وسعه أن يعلل نفسه بأمل القضاء على أعدائه الذين احتموا فى كثير من البلاد المحصنة . وأخيراً ضاق الناس ذرعاً بجنون كولا وإسرافه وحروبه العقيمة ، وأهاجتهم الأبهة والاحتفالات والمظهر الخداع والبلاغة الجوفاء وقلة المواد الغذائية ، فراحوا يتوقون إلى أيام الماضى التعيسة تلك التى سبقت قيام « الدولة الجديدة » ؛ وبدت لهم فجأة أياماً هادئة رخية بعد أن استعادوا ذكرياتهم . وارتعدت فرائص كولا خوفاً من تمرد تافه وإن كان قد ملأ الشارع بالضجيج ، فلم يحاول الدفاع عن نفسه وعن حكومته بل فر هارباً من المدينة على رأس فئة قليلة من الجند ظلوا مخلصين له . حدث ذلك يوم ٥ ديسمبر ١٣٤٧ .

ولكن كولا عاد إلى روما بعد ذلك بسبع سنوات ، يوم أول أغسطس ١٣٥٤ ، على رأس جيش من المرتزقة يقوده ضابطان فرنسيان هما الأخوان منريال Monréal وكان قد تجول فى أوربا ، وفى نهاية رحلته زار الإمبراطور فى براغ فسجنه هذا على الفور بوصفه ثائراً عنيداً ومارقاً خطيراً ، وأرسله مقيداً بالسلاسل إلى البابا . ولكنه استطاع فى آخر الأمر — بعد أن حرر رسائل كثيرة بأسلوب بليغ باللغة اللاتينية وبعد جدال طويل — أن يحظى بثقة الإمبراطور والبابا وصداقتهما فأعيد إلى إيطاليا فى رفقة الممثل البابوى الكاردينال جيل دالبورنوز Gil d'Albornoz الإسبانى الذى كلف باسترداد الولايات البابوية للكنيسة وإخضاعها وتهدئتها . وأبدى كولا رغبته فى أن يتقدم الجيش الرئيسى الزاحف إلى روما ، لأنه سمع أن الشعب كان مشتاقاً إلى لقائه ، فقوبل بالترحيب ، ونعت بأنه المحرر ، ورحب به فرسان روما على مشارف

المدينة عند مونتِ ماريو Monte Mario ملوحين بأغصان الزيتون. وقابله أهل روما بالتصفيق والهتاف. وكأنه – على حد قول كاتب الحوليات – سكيبيو الإفريقي Scipio Africanos

واقتيد كولا مرة أخرى إلى كاميدوليو ماراً فى شوارع مزدانة بالطنافس والزينات الذهبية والفضية ، وخطب فى الناس مرة أخرى من الشرفة ، ومرة أخرى لوحت الجماهير بأيديها وهتفت باسمه ؛ ولكنه لم يعد ذلك الرجل الذى كان من قبل ، فقد أصبح بدينًا مترهلا . ويقول المؤرخ الإنجليزى جيبون : « الشائع أن معاشرة كولا للألمان والبوهيميين نقلت إليه عادات القسوة والخروج عن عادة الاعتدال ، وثبطت المحنة حماسه دون أن تقوى عقله أو تدعم مزاياه » . الواقع أنه أصبح جشعًا جبانًا نزاعًا إلى الشك ، وكثيراً ما حكم بالإعدام على أعدائه أو أولئك الذين اشتبه أنهم أعداؤه بعد محاكمة صورية ، وفعل ذلك أحيانًا لمجرد رغبته فى مصادرة أملاكهم . وشن من جديد حروبًا حمقاء غير حاسمة على الأمراء المحصنين تحصينًا قويًّا كما فعل منذ سبع سنوات ، حتى نفدت أمواله وأوشك الجند المرتزقة أن يتمردوا ، وتأهب أهل روما للثورة مرة أخرى ؛ فقد فرض ضرائب باهظة عليهم : وأسرف فى إنفاق الأموال العامة على نفسه وعلى أصدقائه ومشروعاته الجنونية ، ولم يعمل شيئًا ليحول دون تدهور التجارة وكسادها ، أو لدرء المآسى التى ألحقتها المجاعة بالمدينة ؛ وهكذا شاهدت روما فى يوم ٨ أكتوبر عام ١٣٥٤ حوادث شغب متفرقة ، وهتف الناس : « فليحى الشعب » Viva il popolo وتجمعوا على سفح تل كابيتول ، وراحوا يصيحون : « الموت للخائن كولا ! » .

ولم يتأثر كولا فى بادئ الأمر ، ورفض أن يأمر بقرع ناقوس الكومبون ، وتوجه إلى الشرفة ليعيد الطمأنينة إلى الجماهير المحتشدة ويهدئ من روعها ، وكان يرتدى

ثياب الفارس ، ورفرف علم الجمهورية الكبير فوق رأسه كالعادة . وحين وصل إلى الشرفة رفع ذراعه وطلب إلى الجماهير السكون حتى يتكلم ؛ ولكنهم ازدادوا صخباً وضجيجاً وراحوا يرشقونه بالحجارة ، وأصيبت يده بسهم نفذ فيها ، فهرع عائداً إلى داخل المبنى وقد تملكه الذعر والارتباك ؛ ولم يدر ماذا يفعل ، فوضع خوذته على رأسه مرة بعد أخرى على نحو آلى كما لو كان يعنى أنه سيواجه الثورة بالسلاح مع رجاله ، ثم خلع خوذته وكأنه قد اعتزم تبديل ثيابه والفرار . وفى غضون ذلك أشعلت الجماهير النار فى القصر ، والتهم لهيبها الدرجات الخشبية ، وأخيراً حزم كولا أمره فاعتمد لإنقاذ حياته على قدرته على التمثيل ، وبناء على ذلك خلع درعه وأزال لحيته بمقص ، وطلا وجهه باللون الأسود ، وارتدى ثياباً قديمة هى ثياب بستانى ، وحمل على ظهره حشية لتقيه من الجمرات الطائرة ، وتسلل من المبنى .

واجتاز كولا فعلا آخر باب من أبواب المبنى كان مختلطاً بالمتظاهرين الثائرين وبينما كان يهتف معهم فى لهجة ريفية واضحة « فليسقط الخائن . . . لنصعد إلى المبنى وننهب ما فيه من كنوز وفيرة » ، لاحظ أحدهم الأساور الذهبية التى كانت لاتزال تطوق معصميه ، فعرفت الجماهير شخصيته وقتلته ، وطعنت جثته مراراً بالرماح والحراب والمزاريق والمدراوات ثم سحبتها على طول الطريق الرئيسى Corso إلى سان مارشلو San Marcello حيث علقتها من القدمين ، وتركت الجثة هناك مدة يومين وليلتين ، وراح الصبية الأشقياء يقذفونها بالحجارة و يبصقون عليها إلى أن تم حرقها قرب أطلال ضريح أوغسطس فى محرقة وقودها النباتات الشائكة الجافة .

* * *

وكان من اليسير على المؤرخ جيبون أن ينتهى فى حكمه على كولا إلى القول بأنه مجرد نموذج آخر لرجل مخادع مجنون معاً ، ولكننا أكثر علماً ودراية ، فالمخادعون

المجانين يكثر ظهورهم فى جميع العصور وفى جميع البلاد ، ولكن الواقع أن قلة منهم أو بالأحرى قلة قليلة جداً منهم هم الذين ينجحون فى أن يتركوا بصماتهم الخالدة على التاريخ ، ولكى يفعلوا ذلك يجب أن يكونوا أكثر من مجرد أفاقين مجانين برغم أنهم عادة لابد أن يكونوا كذلك أيضًا . ولابد أن يكونوا أيضًا الآلات اللاواعية الطيعة فى أيدى الآلهة ، التى ضبطت أوتارها دون وعى منها على ألحان الكون السرية ، أو قل هم أشبه نوعًا ما بأولئك الذين يقول عنهم أهل نابلى إنهم يستطيعون «أن يعطوا الأرقام . . . Dare i numeri» وهؤلاء هم عادة رهبان مسنون ومتسولون ومتعطلون ونساء فى أسمال بالية وجامعو الخرق القديمة ، وجميعهم لايعرفون ولايستطيعون أن يخبروك بأرقام الأوراق الرابحة التى ستسحب يوم السبت التالى فى النصيب القومى ولكنهم يوحون بها بطريقة ما ، وعليك أن تراقبهم وتلاحظهم فى انتباه ودقة ، فإن بعض ما يتفوهون به من كلمات عابرة أو ما يصدر عنهم وهم شاردو الذهن من أفعال ، إذا فسرت تفسيراً سليمًا وفق الطرق القديمة قد تكشف أحيانًا الإجابة الصحيحة وتجعلك غنيًّا .

إن أمثال كولا هم مترجمون لاواعون لدخيلة عصورهم يدركون ما يتوق إليه مواطنوهم إدراكًا يقوم على البداهة ويتنبأ بالمستقبل . وعليك أن تغفل إيضاحاتهم لأنها سخيفة تستوجب السخرية ، وعليك أن تراقبهم . اصغ إليهم وهم يخاطبون الجماهير . إنهم يتكلمون وكأنهم يعبرون عما يجيش فى صدور الناس من عواطف خرساء ، فيتردد صدى كلامهم فى قلوب هؤلاء ويوقظها ، ويحثونهم على القيام بجليل الأعمال . الواقع أن الناس يموتون عن طيب خاطر فى سبيل أمثال هؤلاء ، أعنى أفاضل الناس الذين لايرضون أن يموتوا ولن يموتوا فى سبيل مجرد مخادعين مجانين . إن أمثال كولا يتعرفون بطريقة ما على الموضوعات الكبرى التى سوف يطرحها التاريخ ، مثلهم

فى ذلك مثل المهندسين الذين يتحسسون الأرض بعصا الاستنباء ليتعرفوا على مواقع المياه الجوفية الخفية، لقد كانت أفكار كولا خليطـًا مشوشـًا مثيراً للسخرية. ولكنه استطاع عن غير عمد وفى غفلة منه أن يضع أصبعه على معظم الموضوعات الكبرى التى قدر لها أن تسيطر على التاريخ الإيطالى قرونـًا من الزمن والتى لايزال بعضها يسيطر عليه اليوم .

لقد أدرك الحاجة الملحة لقيام حكومة شعبية وتوفير العدالة (أو القانون نفسه لكل فرد) والإدارة الصالحة والنظام والحرية ونهاية الفوضى الإقطاعية الملطخة بالدماء لا لمجرد أنها كانت إقطاعية ملطخة بالدماء بل لأنها كانت عاجزة عديمة القدرة، خلاصة القول إن كولا أراد أن يمنح إيطاليا حكومة موحدة قبل أن استطاع الإيطاليون تحقيق ذلك بخمسة قرون، وتعلم ما قدر لكثيرين غيره أن يتعلموه فى أسى وتحملوا من أجله الأذى، نعنى بذلك أنه فى كل مرة حاول فرد ما، حل المشكلة السياسية الإيطالية تعرض لخطر اتهامه بالهرطقة وكذا حرمانه من عضوية الكنيسة . أدرك كولا أنه لزام على إيطاليا أن تكون موحدة قوية حتى تحارب فى جبهتين : نفوذ الأباطرة الألمان من جهة، وسلطان الكنيسة السياسى ومطامح البابا الدنيوية من جهة أخرى. ولهذا اعتبره – بعد ذلك بقرون – كثير من الباحثين الغيُر من أوائل الوطنيين الإيطاليين، اعتبروه رائد الأهداف القومية ، وبشير حركة البعث الإيطالى Risorgimento لايسمو عليه سوى دانتى Dante ، وبترارك ، وماكيافلى Machiavelli

كان كولا إيطاليـًا ، تحدث فى فصاحة ، وارتدى ثيابـًا جميلة ، وابتكر أعلامـًا ورايات ، وأخرج أروع أعمال عهده واحتفالاته على نحو مسرحى ، وبعث رسائل رائعة للجميع بلا استثناء ، ووضع ثقته فى صيغ قانونية هزيلة وسوابق تاريخية ، ولكنه أهمل بناء جمهورية حقيقية ذات جيش حقيقى ، وتعيين قادة عسكريين

صالحين ، وتوفير الاعتمادات الكافية للحملات العسكرية ، كما أغفل وضع خطط ملائمة لقهر أعدائه أو لإرهابهم ، ولم يشك فى أية لحظة فى أن بناء واجهة مشابهة للحقيقة أمر غير كافٍ ، فقد كان بدوره يؤمن بأن الواجهة ، أو قل المظهر الكذاب والحقيقة هما الشيء نفسه تماماً .

نتيجة لذلك كانت لمنجزات كولا سمة عمل من أعمال الفن ، فتفاصيل العمل الفنى قد تكون تافهة فعلا ، أما قيمته العامة ومعانيه السامية فهى خالدة . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله راق كولا الفنانين فى الأغلب ، راق أولئك أمثال بيرون الذى خصص له جزءاً من قصيدته « تشايلد هارولد » ، وبرلوار ليتون Bulwer Lytton الذى كتب رواية عنوانها « رييتزى Rienzi آخر تريبيونات الرومان » ، وريتشارد فاجنر الذى ألف أوبرا « رييتزى » ، وجبريل دانتزيو الذى أمضى ساعات ثمينة فى كتابة « سيرة حياة كولا » وهو المؤلف التاريخى الوحيد الذى قام به على الإطلاق. كذلك راق كولا « مخادعين ومجانين » آخرين اعتبروا أنفسهم أداة فى يد القدر ، فقد كان فى مركبة نابليون حين هرول عائداً من موسكو نسخة من كتاب « مؤامرة نيقولا الشهير بدى رييتزى » Conjuration de Nicholas, dit Rienzi ألفه الراهب جين أنطوان دى سيرسو Jean Antione du Cerceau وطبع فى باريس سنة ١٧٣٣ .

الفصل الثامن

موسوليني أو حدود فن الاستعراض المسرحي

« ليس هناك من هو أقل دراية بخدمه من سيدهم ، وليس هناك من هو أقل دراية برعاياه من حاكمهم ، لأن هؤلاء وأولئك لا يكشفون عن حقيقتهم أمام هذا أو ذاك بمثل ما يفعلون أمام الغير ، بل إنهم دائما يحاولون جاهدين أن يظهروا خلاف ما يبطنون وأن يبدوا لكل منهما شيئاً مختلفاً عن حقيقة أمرهم » .

(فرانشسكو جويتشارديني)

أبلغني ألدو باريني Aldo Parini وهو اشتراكي قديم من مقاطعة بولونيا Bologna تميز بالطيبة والتواضع ، وكان صديقا فاضلا لبينيتو موسوليني في أيامه الأولى ، أبلغني أنه طلب مرة قبل قيام الحرب العالمية الأخيرة مباشرة مقابلة موسوليني ، فاستقبله الدوتشي في قصر فينتسيا . وأوضح باريني أنه لم يأت إليه لطلب خاص به أو لمنفعة شخصية ، فقد كان سعيداً بعمله الحر ، ولم يعد يمارس السياسة ، وإنما جاء ليرجوه مساعدة بعض رفاقهما القدامى ، أولئك الرجال الأفاضل الشجعان الذين خاضوا معهما معارك الاشتراكية في أوائل القرن الحالي ، وغدوا فقراء معدمين لا يستطيعون أن يجدوا عملا يكسبون منه عيشهم ، وراحت الشرطة تضطهدهم . وتساءل باريني هل من الممكن أن يرفع عنهم الدوتشي هذا الاضطهاد حتى ينعموا بالهدوء

والسلام ؟ وهل فى وسعه أن يقرر للمسنين منهم معاشاً من الاعتمادات السرية ؟ وكان موسولينى يحب التظاهر بأنه الحاكم الشهم الكريم ، فأكد لرفيقه القديم أنه سيحقق كل ماطلبه ، ودوّن أسماء أولئك الاشتراكيين المعوزين ، ثم راح يتحدث عن الأحوال العامة .

وبعد ذلك بسنوات عقب موت موسولينى ذكر لى باريني تفاصيل هذه المقابلة فقال : « كان الدوتشي يرتدى سترة كتانية ، فقد كنا فى الصيف ، ولوحت الشمس وجهة ، وامتلأ تيهاً وزهواً ، وراح يغير من قسمات وجهة ويدفع بذقنه إلى الأمام ويثنى ركبتيه ويضع يديه على فخذيه كما يفعل الضباط الفرسان . فعل كل ذلك فى روح فكهة ، واستذكر بعض رفاقنا المنسيين ، وتباهى بمنجزات عهده . وبقيت صامتاً فقال لى : « يالك من أحمق عنيد لأنك لم تصبح واحداً منا ! لماذا لاتنضم إلى الحزب الفاشى » ؟ وكنت متململا لبعدى عن زملائى ، وأحسست أنى او أجبته إلى رغبته لناولنى على الفور بطاقة العضوية ، ولاشك أنها سوف تحل كثيراً من المشاكل ، ولكنى أردت أن أكون صادقاً للمبادئ التى اعتنقتها أيام شبابى ، فقلت : لا ، حيث كنت قانعاً سعيداً بحالى ، ولست فى حاجة إلى شئ ما . وعاد موسولينى يلح علىّ حتى اضطررت فى النهاية أن أفصح عما يدور فى ذهنى وقلت له : «أخشى أن عهدك سوف ينتهى نهاية سيئة ، إن هذه الأمور تحدث دائماً ، وسوف تموت يا بينيتو ميتة كولا دى رينزو » . وإزاء هذه الكلمات التى قصدت جدياً ما تعنيه ، وإن كنت قلتها بنبرة فكاهية ، صعر موسولينى خده وكأنه يعبر عن خوف زائف ، وضحك ، وحدق النظر فى يديه الممدودتين أمامه وقد انفتحت أصابعهما بعيداً بعضها عن بعض ، حقاً إنهما يدا فلاح غليظتان قصيرتان . ولن أنسى قط ما قاله لى عندئذ : «ها أنت ذا ترى أنى لا أتحلى بأية خواتم . إن ما حدث لرينزو لن يحدث لى» .

* * *

ولد موسولينى فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٨٣ فى دوفيا دى بريدابيو Dovia di Predappio الإيطاليون

القريبة من بلدة فورلى Forli فى مقاطعة رومانيا Romagna بإيطاليا ، وكان أبوه حداداً وثائراً متحمساً (نعته بعضهم بأنه اشتراكى بدائى) أطلق على أول مولود ذكر له اسم بينيتو ، تيمناً باسم بينيتو يواريز Benito Juarez الزعيم المكسيكى الذى قاد الثورة ضد مكسمليان Maximilian ، وكانت أمه معلمة قاست كثيراً من الشدائد . ونشأ موسولينى كارهاً الكنيسة والجيش والملك والشرطة والقانون والأغنياء والذين نالوا قسطاً وافراً من التعليم والمتأنقين والمحظوظين وأى نوع من السلطة ، وكل الأمور التى قدر له أن يدافع عنها فيما بعد ، بل كره أحياناً العمال الثوار الذين خيبوا ظنه ، وكثيراً ما وصفهم بأنهم « اشتراكيون أغبياء » . وكان موسولينى صبياً مشاغباً آل على نفسه أن يكون الأول فى كل شىء ، كان صبياً متكبراً مشاكساً متبجحاً ، مؤمناً بالخرافات وإن لم يكن شجاعاً دائماً . قال عنه واحد ممن كتبوا سيرة حياته وعطف عليه : « لقد انتحل الخصومات ليجد سبيلا للعراك » ، وكان حين يفوز فى لعبة ما يرغب فى ربح أكثر مما حدده الرهان ، وحين يخسر يرفض ، أن يدفع المستحق عليه ، وقد فصل من مدرستين لأنه طعن تلميذين من أقرانه بمدية وكرهه كثير من رفاقه ، وأحبه قلة فى شغف وإعزاز واتخذوه قائداً لهم ، ولا يزال المسنون من أهل مقاطعة رومانيا يذكرون سحره الصبيانى المزعج وابتساماته التى استهوت كل من وقع نظره عليه ، وإخلاصه الشديد لأصدقائه ورفاقه ، وكان دائماً مقتنعاً بأن هناك مصيراً عظيماً ينتظره . قال ذات مرة لأمه وهو لا يزال صبياً : « سوف أهز هذه الدنيا يوماً ما » ، وحقق ذلك فعلا » .

وأصبح موسولينى مدرساً فى سنة ١٩٠١ ، وبعد ذلك بسنة فر إلى سويسرا هرباً من التجنيد ، على حين كانت الجندية وقتئذ واجباً على الثائر الجاد ، وفى بلدة لوزان حاول مرة أو مرتين أن ينضم إلى طبقة العمال ، فاشتغل فى حمل الأحجار فى أثناء

تشييد مبنى مصنع جديد ، ولكنه اكتشف أن هذا العمل المرهق لايناسبه ، وفضل عليه قراءة المطبوعات الثورية وإلقاء الخطب ، فقرأ فى نهم دون تمييز ، ولكنه ركز أغلب قراءاته على الثوريين الذين سبقوا ماركس ، وغير الماركسيين بما فيهم نيتشه وسورل Sorel وشوبنهور . ولعله لم يقرأ من أعمال ماركس إلا البيان الشيوعى Communist Manifesto . وراح يدعو إلى عنف غير متميز : «إلى الإلحاد ، وصراع الطبقات ، وأسطورة الإضراب العام ، والثورة من أجل الثورة » دعا إلى ذلك كله بين زملائه الإيطاليين فى سويسرا ، وكان معظمهم من مهاجرين فقراء يعملون فى صناعة البناء ، فسحرتهم أفكاره ، وانتخبوه سكرتيراً لنقابتهم . وصادق موسولينى ثائرين آخرين كان معظمهم وقتئذ من الروس الإرهابيين والفوضويين والديمقراطيين والاشتراكيين ، وأطلق عليه هؤلاء اسم «بينيتوشكا Benitushka» (بدلا من بنيتو Benito على سبيل التدليل) على حين نعت نفسه بأنه « رسول العنفApostle of violence» .

وفى سويسرا لم يغتسل موسولينى قط ، ونادراً ما حلق لحيته ، وترك شعره الخفيف طويلا يتدلى على رقبته ، ونام فى أى مكان صادفه . وحدث مرة أن عاش مع فتاة فى صندوق شحن مهجور تحت أحد الجسور ، وراقبه رجال الشرطة وقبضوا عليه عدة مرات ، وصادقته الاشتراكية الروسية إنجيليكا بلابانوفا Angelica Balabanova وافتتنت به فترة من الزمن وأدركت أنه برغم كلامه الصاخب الإلحادى الثائر جبان يرتبك ويضطرب فى حضرة من يظن أنهم أرقى منه اجتماعياً وفكرياً ، والواقع أنه راقب نفسه وهو يقوم بدوره الكبير الذى كان يبتدعه على مر الأيام ويمثله بحيوية بالغة ، فلم يكن فى سويسرا إذ ذاك ثائر جاد يثير الرعب مثله ، يقيناً لم يكن لينين على هذا النحو لأنه أضفى على نفسه بمهارة شخصية الأستاذ المتواضع .

وعاد موسولينى إلى إيطاليا سنة ١٩٠٤ بعد أن أعلن الملك بمناسبة مولد ولى

عهده عفواً عاماً شمل موسولينى بوصفه هارباً من الجندية . واشتغل فترة مدرساً بإحدى مدارس القرى ، ثم انخرط فى الجيش جندياً فى فرقة الصاعقة Bersagliere وأثبت أنه جندى صالح برغم كل شىء : وبعد تسريحه حصل على دبلوم آخر لتدريس اللغة الفرنسية فى المدارس الثانوية ، واشتغل بأعمال عرضية شتى ، ثم عمل صحفياً ، وصار داعية للاشتراكية ومنظماً لحركتها[1] ، وبدأ يحسن قدرته على الخطابة فطور لنفسه شيئاً فشيئاً أسلوباً جعله فيما بعد من أقدر الخطباء فى إيطاليا وأكثرهم إثارة للجماهير . والواقع أنه لم يعن كثيراً بمنطق ما يقول وحقيقته ما دام كلامه مفعماً بالحيوية مثيراً للمشاعر ، وكان لإيماءاته إيقاع وقوة ، واستخدم عبارات قصيرة متقطعة لا تربطها رابطة واضحة ، وكثيراً ما تخللتها فترات توقف طويلة مثيرة ، وكان أحياناً يغير نبرات صوته وتعبيرات وجهه فيصعد صوته رويداً رويداً فى غضب عنيف حتى ينتهى بعاصفة من الشتائم . وحين كان خطابه يستحوذ على مشاعر الجماهير كان أحياناً يتوقف عن الكلام ويلقى على أفراد الحشود التى أمامه سؤالا بليغاً لمجرد التأثير فى نفوسهم ، فيجيبون عنه بأعلى أصواتهم . وبهذا الأسلوب أقام نوعاً من الحوار المتأجج صار به المواطنون مشتركين فى قرارات لم يكن لديهم وقت ما لدراستها والتفكير فيها ، وارتقى موسولينى فى تنظيمات الحزب الاشتراكى بفضل كتابته العنيفة وبلاغته المثيرة إلى أن عين فى سنة ١٩١٢ محرراً لصحيفة الحزب المعروفة باسم «أفانتى Avanti» .

وكان محرراً بارعاً ناجحاً ، فارتفع توزيع الصحيفة تحت رياسته من خمسين ألف نسخة إلى مائتى ألف نسخة ، وكان دور الصحفى من الأدوار القليلة فى حياته التى لم يحتج فيه إلى التمثيل ، وذلك لأنه كان صحفياً حقاً بل كان أكثر الصحفيين شعبية فى إيطاليا إذ ذاك . فكان لا يوجه مقالاته إلى الأقلية المثقفة الوقور بل إلى

جماهير الأميين ، أولئك الذين تجرفهم العواطف الفطرية . والطريف أن هذه الصفات التى جعلت منه محرراً ممتازاً يثير الغوغاء هى نفسها التى جعلت منه رجل دولة جلب على بلده الكوارث والنكبات ، فقد تميز الصحفى موسولينى محرر الأفانتى بذكاء بدهى سطحى وقدرة على المبالغة فى تبسيط المسائل وتصوير الأمور بطريقة مسرحية مثيرة ، والعناية بأهم أحداث الساعة يوماً بعد يوم ، وبتناول المسائل من وجهة نظر حزبية بحتة ، وتجاهل الحقيقة والدقة والموضوعية والاتساق متى تعارضت هذه الأمور مع أهدافه ، كما تميز بمقدرته على القيام بعمله بدون أن تزعجه أية وساوس أو شكوك أو انتقادات ، وأهم من ذلك كله كانت له موهبة طبيعية للسيطرة على الموجة العاطفية السائدة أيًّا كانت ، ومعرفة ما يريد الشعب أن يقال له وبأية انفعالات جماعية رخيصة يمكن أن يُجرف فى يسر أكثر . ولو كان الإيطاليون شعباً قارئاً الصحف على غرار الشعب الإنجليزى لكان من السهل أن يرتفع توزيع صحيفة أفانتى إلى مليونين أو ثلاثة ملايين من النسخ . ومهما يكن من شىء فقد اعتبر ارتفاع توزيعها إلى مائتى ألف نسخة معجزة من المعجزات .

وانتقل موسولينى للعيش فى ميلانو ومعه أسرته التى تألفت من زوجته راكيلى Rachele (الابنة الصغرى لخطية أبيه ، وكان موسولينى قد تزوجها زواجاً عرفيًّا حيث جرى الاشتراكيون فى ذلك الوقت على عدم الاعتراف بوجود الكنيسة أو الدولة ، فتزوجوا بدون طقوس دينية أو مدنية) وطفلته الصغرى إدا Edda التى كانت تشبهه بعينيها الواسعتين السوداوين ووجهها الشاحب الناتئ العظام . وكان موسولينى فى ميلانو أحسن هنداماً نوعاً ما مما كان عليه « رسول العنف » فى لوزان ، ولكنه ظل لا يغتسل إلا نادراً ، ولا يحلق لحيته إلا مرتين فى الأسبوع ، ولا يغير سترته إلا إذا بليت ، ولا يهتم بعقد رباط حذائه ؛ واعتاد أن يلوى قسمات وجهه على نحو غريب عندما

يتكلم ، ويستخدم ألفاظا صارخة نابية . كما كان حاد المزاج نافد الصبر ، ولكنه استطاع — على غرار ما فعله أيام الدراسة — أن يجذب إليه عدداً من الأصدقاء الأوفياء والأنصار المتحمسين الذين تعلقوا به حتى النهاية .

لقد كمن فى موسولينى شىء ما روّع وفتن كل فرد تقريباً بما فى ذلك أعداؤه ، ووقع معظم من اتصلوا به اتصالا وثيقاً ، وتحدثوا معه مراراً وتكراراً ، وعملوا معه ، فريسة سحره الغامض ، وأحبوه كما لو كان امرأة فاتنة ، قل إنه غرام جنونى أعمى جعلهم ميالين لأن يغفروا له فظاظته وأخطاءه وأكاذيبه وادعاءاته وعناده وجهله وكل شىء . يروى أن أحد الذين عملوا معه منذ سنة ١٩١٤ واسمه مانليو مورجانى Manlio Morgagni انتحر فى يولية سنة ١٩٤٣ بعد أن كتب العبارة التالية على ورقة تركها : « لقد استقال الدوتشى وانتهت بذلك حياتى . فليحى موسولينى » . كذلك افتتن نساء كثيرات بموسولينى الذى عاملهن معاملة خشنة على نحو ما فعل من قبل مع الفتيات الفلاحات فى فورلى ، فكان أحياناً يأخذهن بدون سابق تمهيد ويغتصبهن على أرضية حجرة مكتبه أو وهن واقفات أمام جدار من الجدران . ولم يدرك سوى قلة منهن جبنه وإحساسه بعدم الاطمئنان وولعه بأن يكون موضع الإعجاب والمحبة ؛ ولذلك استمرت علاقته مع هؤلاء مدة أطول ؛ أما الأخريات اللاتى سحرن به فسرعان ما كان يقطع علاقته بهن .

وجاء أول انطباع لى عنه بعد ذلك بسنوات ، وعلى التحديد فى سنة ١٩٣٢ فى أثناء مناورات قام بها الجيش ، وكان انطباعاً مزعجاً ، فقد وضع على رأسه قلنسوة مما يلبسها قادة اليخوت ، وارتدى قميصاً ذا ياقة مفتوحة ، وسترة ذات صفين من الأزرار مثل تلك التى يرتديها رجال الأعمال ، وبنطلوناً رمادياً قصيراً مما يلبسه رجال الجيش ، وحذاء أسود ، فبدا وكأنه ممثل فى السيرك فى فترة راحته من العمل . وربما

قصد من ملابسه هذه أن ترمز إلى تشكيلة اهتماماته المتعددة الجوانب : الخيل ، أعمال الصناعة والتجارة ، البحر ، الشئون الاقتصادية ، الجيش ، كما بدا قصير القامة غليظاً جلفاً عنيداً . ولا أزال أذكر رأسه الكبير الأصلع ولونه العاجي ، وعينيه السوداوين البارزتين فى وجهه الشاحب ، وفكه الناتئ ، وأسنانه الصفراء المتباعدة (علامة الحظ السعيد طبقاً للاعتقاد السائد) ونتوءاً زائداً فى حجم ثمرة البطاطس الصغيرة فوق جمجمته ، وشامة كبيرة سوداء تحت ذقنه . وراح موسولينى يلوح بذراعيه ويحرك ساقيه على نحو ما يفعل المصارع عندما يحاول إحكام ثيابه على جسمه .

وفى ذلك اليوم كتبت فى سجل يومياتى : « إنه المهندس القابض على الصمام الخانق ، ونحن ركاب القطار ، ترى هل يستطيع دائماً أن يرى أن الجسور التى يمر فوقها لا تزال قائمة أم أنها جرفت ؟ فلنعلل أنفسنا بأطيب الآمال ! » صحيح أننى لم أتعرض لسحره ، لأننى لم أتكلم معه بل راقبته أياماً عن كثب من نقاط المراقبة التى أعدّها الجيش بهذه المناسبة . وكان بطبيعة الحال يلعب دور الرجل ذى العزيمة التى لا تقهر ، تلك التى وصفتها العبارات المدونة إذ ذاك بأحرف كبيرة سوداء على بيوت القرى فى طول إيطاليا وعرضها بأنها عزيمة لن يثنيها الرب أو الإنسان ! . . . والواقع أنه كان كعادته دائماً عنيداً ، لا يسمع نقداً ، متشبثاً برأيه ، نزاعاً إلى الشك ، ولكنه كان أيضاً شارد الذهن متردداً فى معظم الوقت ، ميالا إلى الأخذ بأحدث فكرة يسمعها ، وكان يحاول إخفاء تردده وخوفه ، ولكنى لم أدرك هذه الحقيقة ، لأنى كنت وقتئذ حديث السن قليل الخبرة ، ومن ثم فهمته فى ضوء قيمته الظاهرية .

والأمر الذى لا شك فيه أن موسولينى كان متردداً خلال صيف سنة ١٩١٤ الحاسم ، فقد كانت إيطاليا مرتبطة بالإمبراطوريتين النمساوية والألمانية بمقتضى التحالف الثلاثى Triple Alliance وكان اليمينيون أى المحافظون وهيئة أركان الجيش ورجال الأعمال

والمال والحكومة يحبذون اتخاذ إيطاليا موقف الحياد التام . على حين كان الشبان وطلائع الفنانين والنقابيون والفوضويون والطلبة والجمهوريون والديمقراطيون والقوميون وكذلك المتهورون من اليمينيين ، والاشتراكيون الأكثر اعتدالا ، كان كل هؤلاء يؤيدون دخول إيطاليا الحرب إلى جانب فرنسا وبريطانيا . ولم تكن التعاليم الاشتراكية مرشداً موثوقًا بها ، فقد كان ينبغي أن يكون العمال ضد حرب بورچوازية رأسمالية ، ولكن كان من واجبهم من الوجهة النظرية أيضًا المساعدة على جلب كارثة قد تعجل بقيام ثورة بروليتارية . وفى بادئ الأمر راح محرر صحيفة أڤانتى يكرر الشعارات القديمة « فلتسقط الحرب — فلتسقط أجهزة الحرب — فلتحى أخوة العمال الدولية » وصبّ المحرر موسولينى لعناته على دعاة الحرب ، ونظم لقرائه استفتاء : « أأنت ممن يؤيدون الحرب أم أنك من أنصار السلم ؟ » وصدّر مقالا من مقالاته العنيفه بالعنوان التالى : « من يدفعنا إلى الحرب فإنه يخوننا » ، ولكنه ما لبث أن تذبذب حين أحس بأنه سوف يفقد أنصاره إن هو واصل تأييده للسياسة الحذرة التى انتهجتها الحكومة . فقد كانت معارضة الحرب أمراً كرهه أولئك الذين أراد هو أن يتزعمهم ، أعنى جيل الشباب الثائر . ولذا لم يمض سوى أشهر قليلة حتى نشر فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩١٤ ودون أن يستشير زعماء الحزب الاشتراكى صاحب الصحيفة ، مقالا رئيسيًّا بحث فيه دخول إيطاليا الحرب ، فطرد من وظيفته على الفور ، وفصل من الحزب فى اجتماع عاصف ، وخرج وهو يجهش بالبكاء ، ويقول : « إنكم تكرهوننى ، لأنه لا يسعكم إلا أن تحبونى ! » .

واستطاع موسولينى بأموال أجنبية وإيطالية أن ينشئ صحيفة خاصة له سمّاها « بوبولو ديتاليا ، Popolo d'Italia » وأصدر أول عدد منها فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩١٤ . ونجح على الفور فى أن يجمع له أنصاراً وقراء يزيد عددهم على ما كان له حين

كان يحرر صحيفة أفانتي . ودخلت إيطاليا الحرب يوم ٢٤ مايو ١٩١٥ ، واشترك هو فيها حين استدعى مع من استدعى من رفاقه ، وأدى خدمته على ما يرام بوصفه عريفاً فى فرقة البرسالييرى حتى أصيب بجروح فى أثناء معركة من المعارك . وبعد أن انتهت الحرب وتعرض كيان الوحدة السياسية الإيطالية الواهن للخصومات الأهلية والعسر الاقتصادى وانهيار أسلوب الحكم القائم ، استخدم موسولينى صحيفته لينفس عن كل الانفعالات ، ويلم شعث جميع المتهورين من ساسة كل الأحزاب المحنكين الذين عزّ عليهم أن يعودوا إلى الأعمال المدنية الرتيبة ، وكذا الشبان الذين شعروا أنهم خدعوا حيث لم تتح لهم فرصة الاشتراك فى الحرب ، وجميع أولئك الذين أرادوا ثورة ما ، ثورة من أى نوع ما دامت غير اشتراكية وغير ماركسية . وفى ٢٣ مارس سنة ١٩١٩ أسس موسولينى فى ميلانو جماعة سماها « الفاشيين I Fascii » وهى منظمة غامضة ولكنها كانت قوية الشكيمة اتخذت لها برنامجاً ملتهباً ومتناقضاً ؛ بلغ من تناقضه أنه اجتذب عدداً من المحافظين والساخطين من اليمين واليسار ، فوضويين ومحافظين ، ورجال أعمال وفنانين كان من بينهم أرتورو توسكانينى Arturo Toscanini ، وعكس برنامج المنظمة المشوش ذهن الزعيم المضطرب وإن كان متوقداً ذكاء ، كما عكس افتقاره إلى المبادئ وتردده الدائم . وانبثقت هنا وهناك فى مدن أخرى فى الأقاليم وفى البنادر والقرى جماعات فاشية من الشباب لتقاتل الاشتراكيين والشيوعيين فى الشوارع ؛ وسرعان ما لقيت الحركة تأييد المحافظين ، وغدا عراك الشوارع أمراً مألوفاً .

وكان الإيطاليون عامة يعتبرون موسولينى الزعيم المشاغب المتغطرس لهذه الحركة كلها ، والرجل الذى قبض على زمام الموقف وتغلب على كل العقبات ، وحقيقة الأمر أنه كان فى قرارة نفسه نفوراً كعادته تستبد به الشكوك ، ولكنه أجاد التمثيل ، تنم قسمات وجهه عن خصائص العزم الصلب فكان يقطب جبينه ويطبق أسنانه ، كما كانت

منضدة عمله فى صحيفة بوبولو ديتاليا أشبه بترسانة أسلحة حيث وضع عليها قنابل يدوية ومسدسات من مختلف العيارات والبنادق والمدى (وظل موسوليني مولعًا بالأسلحة حتى أواخر عهده ، وكثيراً ما كان يضع فى حجرة انتظار الزائرين فى قصر ڤينتسيا مسدسين من مسدسات المبارزة وسيفين من سيوف المبارزة أيضًا ليرهب الزائرين) . وامتلأت مقالاته بالشتائم والإهانات الموجهة إلى الحذرين الجبناء ، وكثيراً ما ارتدى قميصًا أسود مثل أتباعه[1] . وكتب موسوليني مقالات لاذعة صب فيها الشتائم على سياسيين فطنين ذوى وقار ، وتحدى أعداءه للقتال ، وتنبأ بأروع مستقبل لحزبه ، ولكنه لم يشترك قط فى شجار الشوارع ، واستطاع بمناوراته وراء الستار وبراعته فى ترك جميع الأبواب مفتوحة أن يتفاوض مع الاشتراكيين والمحافظين فى الوقت نفسه الذى كان يحارب فيه الفريقين ، كما تفاوض مع الملكيين والجمهوريين ومع الحكومة والمعارضة ، وثبتت عبقريته قبل كل شيء فى أنه استطاع أن يظل خمسة وعشرين عامًا زعيمًا لحزب جماهيرى تألف من طوائف وزمر وجماعات مختلفة ، وأن يقهر دائمًا جميع من توقع أن ينافسوه .

ولكن لم يكن شيء من هذا واضحًا عن بعد . لقد كانت شخصية موسوليني العامة بوصفه الزعيم الجسور الذى واجه الخطر بشجاعة على رأس رجاله المقاتلين تختلف عن شخصيته الخاصة التى لم يعرفها سوى القلة ، (وبطبيعة الحال كان هذا التناقض

---

(١) ترجع عادة الإيطاليين فى ارتداء قميص من لون معين بوصفه بزة سياسية إلى غاريبلدى الذى بدأها فى منتفديو سنة ١٨٤٣ حين ألبس أفراد فرقته الإيطالية التى اشتركت فى معارك استقلال أوروجواى Uruguay قمصاناً حمراء من مجموعة مخزونة لم يتم بيعها كانت قد صنعت أصلا لعمال المجزر .. أما القمصان السوداء فقد سبق أن استخدمها فى إيطاليا عمال السكك الحديدية ومصانع الصلب والورش .

معروفًا لزوجه « راكيلي » التي اعتادت أن تشكو إليه قائلة : « إنك تخضع أربعين مليونًا لأوامرك ، ولكنك لا تستطيع أن تروض أطفالك على طاعتك » . هذا ما سمعته بأذني من أحد أبنائه منذ سنوات طويلة مضت . كذلك أدرك قادة الحزب تردده حين قرروا الزحف على روما في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ؛ فالثابت أن بالبو Balbo قال له وقتئذ : « إننا سنزحف على روما سواء معك أو بدونك فلتحزم أمرك » . ورأى موسوليني أنه من الحكمة أن يظل هو في ميلانو في حين سار ذوو القمصان السود في غير نظام تحت الأمطار المتساقطة ، ودخلوا روما دون أن يلقوا أية مقاومة . وفي اليوم التالي قدم موسوليني إلى روما في غرفة نوم بقطار سكة الحديد ، وذلك بعد أن استدعاه الملك لإجراء مشاورات معه . وتوجه إلى لقاء الملك في قصر الكويرينال Quirinalc مرتديًا سترة ضيقة استعارها ، ولبس تحتها قميصًا أسود . ووضع على الجزء العلوي من حذائه طماقًا spats (كان معروفاً في مصر باسمه الفرنسي : جيتر ، وكان يغطي وجه الحذاء وظهره) قل إنها ثياب ترمز إلى ذوق موسوليني في اختيار ملابسه التي كانت مزيجًا جمع بين التقاليد والثورة ولما مثل بين يدي الملك قال : « ياصاحب الجلالة ، أرجو أن تعذرني لارتدائي قميصًا أسود ، ولكني عدت للتو من المعركة التي كان لزامًا علينا خوضها والتي خضناها لحسن الحظ دون سفك دماء . . . » .

* * *

هناك لغز محير حول حياة موسوليني ، فقد كان دكتاتوراً لإيطاليا حوالي عقدين من السنين ، وعلى التحديد من ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ إلى ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٣ . ومدة العقدين هذه هي تقريبًا الفترة الفاصلة بين جيلين حيث تشمل السنوات التي يشب فيها أطفال المدارس ويصبحون رجالا ناضجين ، ويصبح فيها الرجال الناضجون كبار السن . وكان هو نفسه في التاسعة والثلاثين من عمره حين تسلم مقاليد السلطة ،

وبلغ الستين بعد أيام قلائل فحسب من يوم اضطراره إلى التخلى عنها . وهكذا كان فى آخر الأمر ينتزع بلداً يختلف عن ذلك الذى استولى فيه على السلطة ، بلداً جديداً شكّله وفقاً لرغباته ، ونظّمه طبقاً لنظرياته ، وزوّده برجال نشأوا على يديه ، واختارهم هو ومعاونوه ، وكانت سلطاته لاحدّ لها ، فحيث انتهت حقوقه الشرعية بدأت سلطته التى لاتنازع ومكانته الشخصية الرفيعة ، وأدار بنفسه الحزب السياسى الوحيد القائم رسمياً إذ ذاك والذى بلغ من تغلغله وانتشاره أنه تدخل فى العادات اليومية للملايين من الناس من الفجر حتى الغسق بل فى أواخر الليل ! (أراد موسولينى أن ينجب الإيطاليون المزيد من الأطفال ومنح جوائز ومزايا للأسرات الكبيرة العدد)ومن المهد إلى اللحد ، وقرر هو بنفسه محتويات الصحف والمجلات وبرامج الإذاعة والأفلام السينمائية والمرسوعات ؛ ولم تقف أمامه أية معارضة يناضلها ويجادلها .

كان موسولينى هو وحده المشرع والقاضى والرقيب والشرطى والسفير والقائد ، كان رئيس الحكومة ورئيس المجلس الكبير Grand Council ورئيس مجلس الوزراء ، واحتل من وقت لآخر معظم المقاعد المرصوصة حول منضدة هذا المجلس ، فقد تولى أكثر من مرة وزارات الداخلية ، والخارجية ، والحربية ، والبحرية والطيران ، كما أدار الشئون الاقتصادية بوصفه وزيراً للمؤسسات ، وأشرف بطريق غير مباشر على الوزارات التى لم يدرها بنفسه ، وتصور كل شىء على أساس أنه إعداد للامتحان النهائى أعنى أكبر حرب عالمية ، تلك التى لم يبذل مجهوداً يذكر ليتجنبها ، والتى تنبأ بها قبل اشتعالها بسنوات ، ثم رحب بها فعلا . فقام بوصفه القائد الأعلى بتنظيم القوات المسلحة وتدريبها وتسليحها لهذا الصراع ، وعاونته فى ذلك المنظمة الاقتصادية والصناعية التى شكلها لهذا الغرض بالذات ، كما تشجعت هذه القوات بجهاز الدعاية الذى ابتكره وأداره فترة دامت عقدين من السنين ، وتولى بنفسه قيادتها فى أثناء الحرب فكانت تحركاتها الاستراتيجية

المتتالية تسير وفق ما تصوره وقرره هو والقادة الذين اختارهم بنفسه .

والواقع أن موسولينى هُزم فعلا على يد رجل واحد هو موسولينى نفسه . فقد وجد أنه عاجز أمام حشود أعدائه الساحقة أولئك الذين أثارهم ، وأمام الحليف المتغطرس الذى صادقه وساعده بموارده الضئيلة التى أعدها من قبل والصناعات التى نماها والأسلحة التى صممها وصنعها ، ووضع نفسه فى مركز حرج ، فبوصفه وزيراً للخارجية كان فهمه للموقف العالمى بالغ التفاؤل ، وبوصفه وزيراً أساء للقوات المسلحة اختيار قادتها ، وبوصفه وزيراً للداخلية أساء تقدير رغبة الإيطاليين فى أن يقاسوا ويموتوا من أجل حرب لم يفهموها ، وأخيراً بوصفه زعيم الحزب الفاشى ظن بطريقة عشوائية أنه اهتدى إلى حل كل ألغاز العالم الحديث .

واستخدم رجال المدفعية الإيطالية فى معارك الصحراء الغربية مدافع نمساوية من طراز تلك التى استخدمت فى الحرب العالمية الأولى والتى صنعتها مصانع سكودا فى سنة ١٩٠٨ أو حوالى ذلك ، على حين استخدم الأمريكيون والبريطانيون أحدث أنواع المدافع . كذلك كانت تنقص موسولينى المواد الخام والوقود والمواد الغذائية اللازمة لحرب طويلة ، كما كانت تعوزه السفن التجارية الضرورية لتموين الميادين النائية التى اختار أن يحارب فيها ؛ ذلك لأن سفناً إيطالية كثيرة كانت فى مياه أجنبية حين دخلت إيطاليا الحرب دون سبق إخطارها ، فاحتجزت على الفور . وكانت الدبابات الإيطالية صغيرة بطيئة ضعيفة أشبه بالصفيح من السهل أن تنفذ فيها نيران مدافع العدو ؛ وقد اختارها موسولينى لرخص ثمنها ، وقال إنها أسرع من الدبابات الثقيلة ، «وأكثر اتساقاً مع استجابات الجنود الإيطاليين السريعة» . ولم يكن لديه حاملات طائرات ، وكانت طائراته حسنة الصنع ولكنها كانت بالغة القلة ، وتعذر عليه إحلال بديل لها فى سرعة كافية ، لقد كانت لعباً رشيقة ونماذج أنيقة صنعت باليد ،

صنعها ميكانيكيون بارعون للاستعراضات وقت السلم، ولم تكن ثمرة إنتاج صناعى واسع ينتج منها أعداد وفيرة حتى تكون لها نتائج فعالة . أما بحريته التى استطاعت بطريقة ما أن تدبر أمورها بنفسها عدة سنوات فقد كانت قديرة نسبياً ، ولكنها يقيناً لم تكن ضخمة ومتقدمة على نحو يمكنها من الصمود أمام قوة الأساطيل المتحالفة التى هاجمها . فلم تكن مزودة بجهاز الرادار ، وزاد الطين بلة أنها لم تتوهم إطلاقاً أن هذا الاختراع موجود . ومن ثم كانت السفن الإيطالية هدفاً هيناً للبريطانيين سواء على المدى البعيد أو فى الليل .

وكان الجيش فى بادئ الأمر منظماً عالى الروح ، ولم تكن العبارة المبتذلة عن فرار الجنود الإيطاليين صادقة فى بداية الحرب . فقد ضحى الرجال بأنفسهم حتى بعد أن اتضح لهم أن العملية كلها كانت رقصة الموت وأضحوكة يائسة . وبطبيعة الحال مامن أحد يميل إلى القتال فى ظروف بالغة السوء ضد حشود ساحقة ، لها كل الإمكانات ، ومع ذلك بذل الجنود الإيطاليون أقصى ما يستطيعون فى حدود ما كان لديهم من أسلحة كانت لاتصلح إلا لمغامرة استعمارية قصيرة الأجل ضد شعب متخلف غير مسلح ، لا لمواجهة أكبر جيوش العالم وأغناها وأكثرها عدداً وتقدماً ، وضحت البحرية بسفنها وبنصف عدد ضباطها فى محاولتها اليائسة لإنقاذ شرفها . الحق أنه لم تنقص إيطاليا الشجاعة وعزيمة القتال ، وإنما كان ينقصها فى كثير من الأحوال أى نوع من الخطط الجدية وكذا أى تنظيم جاد وراء خطوط المقاتلين .

بل لو أن تجربة الحكم الفاشى لم تنته إلى إخفاق تام لكان من المحتمل أن يدهش المؤرخون لضآلة إنجازات العشرين سنة التى عاشها هذا الحكم ؛ فما الذى فعله حقاً موسولينى فى عصره ؟ لقد عنى من غير ريب بالمنشآت العامة ، فبنى الموانى والمدارس والمستشفيات وغير ذلك من المبانى العامة ، ومد الطرق والسكك الحديدية والطرق

الطويلة الواسعة للسيارات (أتوستراد) ، وأقام التماثيل وقنوات لجر المياه والجسور وشبكة للرى والصرف وما إلى ذلك . وكان بعض هذه المنشآت صالحًا ومفيداً أثار إعجاب الأصدقاء والأعداء وحسدهم ، ومع ذلك فإننا حين نستعيد الماضى ونتأمل فيه تبدو لنا نتيجة كل هذا النشاط هزيلة تافهة ، فلكى يصل المرء إلى حكم دقيق على إنجازات موسولينى لابد له أولا وقبل كل شىء أن يسقط من جملة هذه الإنجازات كل ما كان فى وسع أية حكومة أخرى أن تحققه ، فلا يمكن أن يتصور المرء أنه بدون دكتاتور ما كسيت الطرق المتربة بالأسفلت كما كان حالها فى كل أوربا ؛ ومعروف أن الحكومات التحررية (الليبرالية) التى سبقت الانقلاب الفاشى جففت بعض المستنقعات ، ومدت خطوط السكك الحديدية ، وبنت قناطر لجر المياه ، وشجعت الصناعات ، بل إن بعض هذه الإصلاحات قام بها أيضًا قبل ذلك آل البربون Bourbons فى نابولى ، وحكومات البابوات التى اتسمت بالعجز والقصور . ومتى أسقطت أيضًا جميع المشروعات التى كان من المفروض نظريًا أن ينفذها العهد الفاشى من جملة ما تم فإن مآثر موسولينى — وإن ظلت هامة — تتضاءل على نحو واضح ، وتزداد تضاؤلا حين يأخذ المرء بعين الاعتبار كم من مشروعات كثيرة اتضح أنها كانت أخطاء خالصة تقررت لأسباب سياسية ودواعى المظهر والأبهة ، ولم تصدر عن رغبة خالصة فى تحقيق نتائج عملية ، وكم من أموال اختفت فى جيوب المقاولين غير الأمناء . ونتيجة لهذا كله فإن المجموع الكلى لإنجازات العهد الفاشى فى هذا المجال تبدو غير متناسبة مع الهالة التى أضفيت عليها والطنطنة الرنانة التى اقترنت بها وتكاليفها الباهظة .

والواقع أنه وراء مشهد التجديد والاستثمارات الصناعية ظل ملايين من الإيطاليين يعيشون حياة بدائية وضيعة أشبه بحياة عصور ما قبل التاريخ ، فبقيت معظم مشاكل

البلاد الأساسية دون أن تمسها يد الإصلاح ، والمشكلة الوحيدة التي حلها موسوليني في الواقع هي مشكلة الكنيسة التي عقد معها اتفاقيات اللاتيران في فبراير سنة ١٩٢٩ ، وحقق بذلك السلام والوئام مع الفاتيكان . وحلت مشاكل قليلة نفسها بنفسها على مر الزمن ، وكانت هناك مشاكل أخرى لم يتصد موسوليني إلا لأعراضها الظاهرة ، أما بذورها العميقة فقد كانت بالغة التعقيد بالغة الكآبة ، ومن ثم لم تجذب اهتمام هذا الزعيم الصحفي الحاوي المزهو المتعجل . وهكذا فإن المشاكل التي لا يمكن أن يحلها إلا دكتاتور أعني المشاكل العويصة حقاً قد تركت على ما كانت عليه أو أصبحت أكثر خطورة وتأصلا . من هذه المشاكل مثلا : الأمية ، المافيا ، الملاريا ، اللصوصية ، التخلف الاجتماعي والسياسي في أقاليم جنوبي إيطاليا ، سوء توزيع الدخل ، الزراعة البدائية ، الكيان الصناعي الناقص .

وكان تناوله كثيراً من الأزمات الكبيرة المعاصرة تناولا متفائلا وسطحياً نوعاً ما . مثال ذلك أن أول تعليمات تلقيتها في سنة ١٩٣٠ حين انضممت إلى مكتب لندن لصحيفة كوريري ديلاسيرا التي تصدر في ميلانو كانت كالآتي : « لا تذكر الأزمة الاقتصادية العالمية » وكانت هذه هي كلماته نفسها التي أذيعت على جميع الصحفيين وكان هذا هو أسلوبه لتسوية واحدة من كبرى المشاكل في عصره ، وأذكر أنني رحت أسأل نفسي : ترى ماذا يحصل لو أن الصحافة الإيطالية توقفت عن ذكر المحيط الأطلنطي : هل يلقى الإيطاليون حتفهم غرقاً وهم يحاولون الوصول إلى نيويورك على دراجات ؟ وعندما توجهت إلى جزيرة سردينيا Sardinia بعد ذلك بسنوات قيل لي إنه في وسعي أن أكتب عن أي شيء ، أي شيء على الإطلاق عدا شيئين : قطاع الطرق والملاريا ؛ وكانت هاتان الظاهرتان أهم ظاهرتين في حياة الجزيرة وقتئذ ، وكان حذفهما من الصحف أمراً يسيراً ، ولكني تساءلت : كيف يمكن تجنبهما في

الوثائق والإحصاءات الرسمية ؟ وبطبيعة الحال لم يحدث ذلك ، ولكن أطلق على كل منهما اسم مختلف ، فسمى قطاع الطرق « الهاربون من العدالة » Latitanti وأطلق على الملاريا اسم «الحمى المتقطعة Febbre Intermittente» وبينما تركت المسائل الملحة بدون حل ابتكرت سنوياً مسائل خيالية واستؤصلت ببراعة : فمُنع الإيطاليون من أن يصافح بعضهم بعضاً ، ولم يسمح لهم إلا بالتحية الفاشية ، وحرم عليهم استخدام الكلمات الأجنبية فى أحاديثهم العادية ، كما أزيلت كلها من لافتات الشوارع ، ومنعوا منعاً باتاً من استعمال صيغة الغائب Lei (صاحب السيادة بمعنى سيادتك) التى جرى الإيطاليون على استخدامها عند مخاطبة إنسان فى شىء من الاحترام ، وحذف هذا اللفظ من كل كتب النحو .

كيف نعلل جمود الفاشية وعقمها ؟ وما سبب فشلها ؟ إن موسولينى لم يكن غبياً بل كان داهية سريع التعلم يقظاً ذكياً . فكان يدرك المسألة المعقدة فى دقائق قليلة ، ويواجه بنجاح الخصوم العنيدين ، ويتخذ عادة القرار البدهى الذى تتطلبه أية حالة . ولعله لم يرهق نفسه بالعمل ، فقد خامرنى هذا الشك يوماً ما منذ سنوات كثيرة وأنا فى روما حين كنت أقود سيارتى وأذنت لجندى فى الطريق بأن يركب معى ، وعندئذ سألته : إلى أين ؟ فأجابنى : إلى قصر ڤينتسيا . ولما سألته : لماذا ؟ أجاب ببساطة أنه من بلدة طباخة مكتب موسولينى ، وأن عليه أن يسلمها طرداً أرسله معه أهلها ، وحرصاً على مواصلة الحديث سألته : هل تسنح لك الفرصة لرؤية الدوتشى عن كثب ؟ وأضفت بأننى بطبيعة الحال كثيراً ما رأيته بوصفى صحفياً ، ولكن فى الحفلات الرسمية فقط ، وهو محاط بحاشيته وفى بزته الرسمية . وأجابنى الجندى فى هدوء قائلا : نعم . إننى أراه طول الوقت ، فهو دائماً فى فناء الدار يتحدث إلى السائقين والحجاب . وصعقت فلعلنى قد عثرت مصادفة على سر من أشد أسرار الدولة كتماناً

فى ذلك الوقت . فإننا اليوم نعرف أن موسولينى كان يبقى مكتبه مضاء إلى ساعات متأخرة من الليل بدون أن يكون موجوداً فيه فى كثير من الأحوال ، وذلك ليوهم أفراد الشعب أنه ساهر على رعاية شئونهم ومن أجل إسعادهم وصالحهم . بيد أنه برغم كل ذلك انكب على العمل إلى حدّ كاف .

الواقع أن موسولينى أحبّ العمل ، وألمّ بكل ما كان يدور فى إيطاليا ؛ فكان يتلقّى فى صباح كل يوم أول تقرير إخبارى من رئيس الشرطة وقائد رجال الدرك « الكارابنييرى Carabinieri » ، وعرف كل إنسان حيث حرص ذو والشأن وغيرهم ممن أرادوا أن يظهروا أنهم من أصحاب السلطة على مقابلته مرات كثيرة كل عام ، كما حرص هو على أن يزوّد بكل الأخبار وأتفه الأسرار، فقد كانت التليفونات مراقبة لا لمجرد إحباط أعداء العهد وكشف خطط الجواسيس الأجانب الملتوية ، ولكن لتوفر أيضاً مادة للثرثرة ، ولتنقل إليه ما يدور على ألسنة الناس من شائعات . وقرأ موسولينى كل ما سهلت قراءته : الصحف والمجلات والكتب ، وشاهد كل فيلم سينمائى ، وقابل كل الأشخاص البارزين الذين مروا بروما . وإذا لم يكن قد وفق فى أن يكون رجل الدولة العظيم الذى أراد أن يكون ، فلا ريب أنه كان سياسيًّا مخلصًا انشغل كل الانشغال بما تطلبه منصبه من مهام شاقة لاحصر لها ، كما كان صحفيًّا بارعًا تمشى مع كل تطور وحرص على جمع المعلومات ليستغلها عندما تسنح الفرصة .

أما تفسير إخفاقه فربما ينحصر فى القول إنه لم يكن مخفقًا . نعم لقد خسر الحرب والسلطة ، وفقد بلده وحظيته ومكانته فى التاريخ وحياته ، ولكنه نجح فى تحقيق ما أراد أن يفعله منذ أن استولى على الحكم . ذلك أنه لم يهدف إلى أن يجعل بلده آمنًا مزدهراً ، ولاشك أنه لم يعمل على إعداد إيطاليا لخوض حرب حديثة والنصر فيها ، وإنما كرس حياته ليقيم استعراضًا مسرحيًّا رائعًا أو قل ليهيىء مظهراً خداعًا مثيراً ونجح فى ذلك

إلى أبعد حد . ومن ثم لا ينبغى أن يقارن بكرومويل Cromwell أو واشنجتن أوكافور أو بسمارك أو تاليران، بل برجال أمثال أرنستو روسى وتوماسو سلفينى الممثلين البارزين ،وكذا برجل مثل فِنْياس تيلور بارنوم Phyneas T. Barnum ، فقد كان موسولينى ممثلا بارعًا يبرز الأدوار البطولية على غرار ما كان يفعله كبار الممثلين التراجيديين ومنشدى الأوبرا (الباريتون) فى القرن التاسع عشر . كتب باولو مونلى Paolo Monelli مؤلف أحسن سيرة لموسولينى يقول : لم ير الإيطاليون فيه سوى الصادح (التنور Tenor) الذى تحمسوا وهللوا له كما فعلوا سنوات من قبل لكاروزو Caruso وتامانيو Tamagno ، وكما يفعل المرء مع الصادحين ، فقد استمتعوا بنغماته الطويلة البارعة وبإيقاعها دون أن يعيروا كلماته أدنى اهتمام ، ولكن لو أنهم كانوا قد أصغوا إليه بعناية أكثر لما أدهشتهم النكبة فيما بعد لأنه كان قد دل عليها .

لقد لعب دوراً متعدد الجوانب متعدد الوجوه ، ذلك هو دور موسولينى الذى تألف من مزيج ضخم جمع بين أدوار قائد المرتزقة فى عصر النهضة ، والمفكر المكيافلى الرزين ، وزعيم من طراز لينين لأقلية ثورية ؛ ودكتاتور صلب الرأى ، وطاغية إنسانى ، ودور كازانوفا العشيق ، وسوبرمان نيتشه ، وأضاف فيما بعد إلى ذخيرته دور العبقرية النابليونية التى أدت إلى نتائج معروفة للجميع ؛ ثم أضاف قبل موته مباشرة دور المصلح الاجتماعى . والواقع أنه لم يكن واحداً من كل هؤلاء ، وفى نهاية الأمر ، شأنه شأن الممثل العجوز ، لم يعد يتذكر ماذا كان هو فى الحقيقة ؟ وماذا أحس به ؟ وماذا آمن به ؟ وماذا أراده ؟ وقد دأب العلامة أوجو أوييتى Ugo Ojetti الناقد الفنى والكاتب والذواقة الذى أحب موسولينى ، دأب على أن يقول فى الثلاثينيات : « إننى حين أراه لا يسعنى إلا أن أفكر فى وجهه الذى لا بد أن يتوجع ويكتئب حين يأوى إلى فراشه ليلا » . وكان فى وسع أى مراقب يقظ أن يتبين

أن موسولينى تعمد أن يمثل أدواراً طيلة الوقت : فقد اختال أو باعد بين رجليه فى مشيته كما يفعل الممثل التراجيدى المتدثر فى زىّ قديم ، وارتكز على كعب حذائه ذى المهماز وكأنه كان دائماً يجر وراءه عباءة طويلة أرجوانية اللون (رمز السلطة) ، ولم يَمِل قط ولكنه لم يبد مطمئناً متحرراً من القلق إطلاقاً .

لقد صعد نجمه و بدا نجاحه عظيماً فوق التصور ، فحظى فى إيطاليا بشعبية لم يحظ بها إنسان من قبل ، وقد لا يفوز بها أحد فى المستقبل ، وكانت صوره تنتزع من الصحف والمجلات وتلصق على جدران أكواخ الفلاحين الفقراء أو توضع إلى جانب صور العذراء والقديس يوسف ، ووقع طالبات المدارس فى غرامه كما لو كان نجماً من نجوم السينما ، وكانت عباراته المأثورة تكتب بحروف كبيرة على بيوت القرى ليقرأها الجميع . وحين أعلن للشعب من شرفة قصر ڤينتسيا بروما فى مايو سنة ١٩٣٦ أن الحبشة قد تم فتحها ، وأن روما أصبحت مرة أخرى عاصمة الإمبراطورية ، صاح أحد أعوانه : « إنه شبه إله . . . » فاعترض آخر قائلا : « شبه إله ؟ كلا ، كلا ، بل إنه إله ! » .

وإنى أذكره فى يوم من أيام سنة ١٩٣٢ جرت فيه مناورات عسكرية . أذكره وهو يسير فى سهل فسيح أجرد إلا من جذامة الحنطة الصفراء تحوطه على بعد تلال خضراء وأشجار وأبراج كنائس القرى ، أذكره وقد هرع الفلاحون من كل الجهات وجاءوا يلهثون وقد احمرت وجوههم مشتاقين لرؤيته ولمسه والهتاف له . وسار وراءه أحد سكرتارييه ومعه مظروف من الجلد فى حجم ورقة ليرة تماماً راح يوزع ما فيه من أوراق العملة على الفقراء ، وكأنه مقامر انهمك فى أوراق اللعب (الكوتشينه) . وسرعان ما صار موسولينى يقود موكباً من آلاف الأتباع المسعورين الهائجين ، ولكنه لم يظهر على سيمائه تعبير ما عدا ثبات عزمه الجامد . ورفع الأمهات أطفالهن إلى أعلى

حتى يراهم أو ربما ليلمسهم ، كما فعلت الأمهات من قبل مع ملوك العصور الوسطى . وحدث فى أثناء مسيرته أن نفراً من الراهبات جئن إليه مسرعات وخمرهن السوداء تتطاير فى الهواء وقد حملن سلالا ملأى بالخوخ الطازج قدمنها هدية إليه فتقبل إكرامهن و ولاءهن دون أن يشكرهن أو يلتفت إليهن أو يبتسم ، وناول الفاكهة لحاشيته. والواقع أن كل من رآه وهو يلقى خطبة من خطبه لن ينسى أبداً مشهد الحشود الهائلة التى كانت تتجمع فى ميادين المدن للاستماع إليه وقد اقتربت رءوس الجماهير بعضها من بعض وكأنها قطع الفسيفساء (الموزايك) ركبت بإحكام ، وكانت كل الأبصار تتجه صوب نقطة مركزية واحدة : الشرفة أو المنصة التى يخطب منها . . لقد كان مشهداً ينذر بالسوء و يثير الفزع .

و إنا لنضحك اليوم حين نراه فى الأفلام السينمائية الإخبارية القديمة . و ربما كان فنه الاستعراضى المسرحى أشبه ببعض الأنبذة التى لا تدوم جودتها طويلا أولا تتحمل نقلها إلى جهات بعيدة و إنما تكون ممتازة إذا استهلكت فى السنة التى صنعت فيها وفى بيئتها المحلية . وكان أسلوبه مبهرجاً صبيانياً سخيفاً ، ولكنه كان فعالا إلى درجة كبيرة . أرضى شعبه من جماهير العامة والأميين أهل القرى والريف الذين نشأ أصلا من بينهم والذين تاقوا إلى أيام الهدوء والسكينة القديمة التى افتقدوها بقيام الثورة الصناعية ثم الحرب العالمية الأولى ، كما أرضى البورجوازية الصغيرة Petite Bourgeoisie تلك التى سماها ماريو ميسيرولى Mario Missiroli «الطبقة المتعصبة الرجعية» التى أرادت أن تنصرف إلى شئونها وتترك لغيرها مكافحة المشاكل الضخمة ، وكذا أنصاف المتعلمين ، والقوميين اليائسين الذين شعروا بالخزى لأنهم ولدوا وعاشوا فى بلد من الدرجة الثالثة برغم أنه يحمل اسماً مجيداً من الدرجة الأولى ، بلد فاقته فى سهولة بلاد منافسة له أقل منه مجداً ولكنها أكثر كفاية . وواضح أن أسلوب موسولينى لم يقصد به

أهل الذوق والثقافة . وعلى أية حال فقد كان هؤلاء فى إيطاليا أقلية لا اعتبار لها ؛ ومع ذلك قام كثيرون من أفرادها من أمثال زعيمهم بندتوكروتشى Benedetto Croce بمقاومة العهد الفاشى فى عزم وثبات ، وواجه كثيرون منهم الموت فى المنفى أو السجن المؤبد ، فى حين تعاون كثيرون من زملائهم مع العهد إما عن تهديد وإرهاب أو لرغبتهم فى استغلال ما يتيحه لهم من فرص .

وكانت مهمة موسولينى سهلة هينة فى بادئ الأمر ، فلم تكن هناك فعلا ثغرة بين المظهر والواقع حيث جرى تنفيذ أعمال كثيرة ، وعولجت بعض المسائل البسيطة علاجًا فعالا ، وكانت البلاد تتقدم والأحوال المعيشية تتحسن ، فقد ورث موسولينى بيروقراطية ذات مقدرة وكفاية ، وكان إذ ذاك لايزال مستعدًا للإصغاء إلى النصيحة الطيبة ، ولكن المهمة أصبحت فيما بعد أكثر صعوبة يومًا بعد آخر ، وغدت الحالة الدولية أشد خطورة وتعقيداً ، فاتسعت على نحو خطير الثغرة بين المظاهر المنمقة والحفلات والخطب النارية ، وبين الحقائق الواضحة الكئيبة . ولم يعرف الشعب بعد عشرين سنة من الحكم الدكتاتورى أن موسولينى لم يكن يحل فى الواقع أية مشاكل حيث خدرتهم الدعاية وخدعتهم المظاهر المثيرة ، وفقد معظمهم أو نسوا القدرة على الحكم على الأمور حكمًا مستقلا ؛ وراح الذين انزعجوا للطريقة التى كانت تسير بها الأمور يعزون أنفسهم بالاعتقاد أن موسولينى كان هناك دائمًا فى قصر ڤينتسيا ساهراً لا ينام يرهق نفسه بالعمل ويتدبر الأمور حتى لا يقع مايتعذر دفعه ، وأطل وجهه المطمئن على كل فرد من صورته المثبتة على كل جدار ومن شاشة كل دار للسينما ، وتمنى كثيرون سرًا أن يتجنب الكشف عن أوراقه ويحول دون وقوع كارثة . ألم يجعل إيطاليا دولة من الدرجة الأولى كاملة السلاح ، حسنة القيادة يخافها أعداؤها ؟ ألم يكن أعظم رجل ولد فى إيطاليا ؟ ألم يكن ، مثلهم جميعًا ، لا بالغبى ولا بالأحمق ؟

* * *

وحين يحاول المرء كشف ما حدث فى الواقع فإنه يضل فى متاهة سيكولوجية معقدة، وتحيّره لعبة المرايا الإيطالية التى تعكس كلٌ منها ما فى الأخرى من صور مشوهة . ويجب أولا أن نقرر أنه لاشك فى أن موسولينى خدع الشعب ، وأنه استغل الخداع أداة للحكم . وليس هذا الأمر باعثاً للأسى من ناحية المبدأ ، فإن كل رجال الدولة العظماء لجأوا من حين لآخر إلى التحريفات والتفسيرات الخاطئة والأكاذيب الكاملة ، وكل ما فى الأمر أن موسولينى كذب أكثر من كافة الساسة السابقين وأكثر نوعاً مامن بعض منافسيه المعاصرين وإن كان كذب أقل من هتلر ، واستمتع باحتكار الكذب ، واستطاع أن يضاعف أكاذيبه باستغلاله أحدث وسائل الاتصال بالجماهير ، فملأت أفكاره المشوهة واختلاقاته وتلفيقاته ، الصحف والملصقات والإذاعة وشاشات دور السينما وكثيراً من الكتب والمجلات والأحاديث التى كانت تدور بين أولئك الذين لايعرفون بعضهم بعضاً معرفة جيدة . وليس عجيباً بعد هذه الحملات الدعائية التى لم يسبق لها مثيل أن صدق غالبية جمهوره المفتون معظم ما أرادهم أن يصدقوه .

وكان لزاماً أن يكون مظهره الخدّاع جديداً ومخيفاً دائماً ، فكان يعنى طيلة الوقت بأن يشغل أفراد شعبه ويثير اهتمامهم ويهزّ مشاعرهم ويربكهم ويخيفهم ويسليهم ، لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطيع بها أن ينسيهم ضياع حريتهم وما هم فيه من فقر وبؤس ، وتمكنه من جمع غالبية قوية وراءه وتثبيط همة المعارضة وتمزيق صفوفها ، كما تكفل النظام فى الداخل وتدعم مكانة إيطاليا فى الخارج . وبديهى أن اختيار سياسة رزينة متزنة تفرض تضحيات حقة ونظاماً صارماً ، والاعتراف بأن الأزمات لايمكن محوها بالكلمات والخدع البارعة والبيانات الرسمية المتفائلة ، بل تتطلب دراسات كثيرة مرهقة وتخطيطاً دقيقاً وعملا شاقاً — نقول إن اختيار سياسة من هذا النوع كان من المحتمل أن تكلف موسولينى خسارة منصبه ، لأنه على أية حال لم يكن هو الرجل الذى يقدر على مثل هذا البرنامج العنيف ، ولو أنه فعل لحطمه الضجر .

ويمكن القول بأن تمثيله لم يكن كله نابعًا منه وحده ، أو صادراً عن نزوته ، بل كان الكثير منه استجابة لرغبة أبناء الشعب أنفسهم . فكان لزامًا عليه فى معظم الوقت أن ينثر عليهم أيضًا الأكاذيب التى توقعوها والأساطير التى تاقوا إلى أن يؤمنوا بها فى دور خطير مثير فى تاريخهم ، كذلك لم تكن الشخصية التى تقمصها موسولينى من اختياره وحده بل كانت أيضاً الشخصية التى ظل يتوقعها كثيرون من الإيطاليين ، ومثلت رغباتهم الخفية وهدأت من همومهم الغامضة ، وانتشرت إذ ذاك فى إيطاليا لافتات كتب عليها : « أيها الدوتشى ، إنك كلنا جميعًا » ، وكانت هذه العبارة صادقة نوعًا ما .

خلاصة القول أنه لم يكن فى وسع موسولينى أن يكون بمنجى من الفساد ، أفسده مظهره الخداع ، وأفسده الناس الذين أحاطوا به . وقديمًا بدأ جميع أباطرة الرومان انحلالهم فى اليوم نفسه الذى رفعوا فيه إلى المنصب الإمبراطورى ، كما أن كثيرين من القادة العظماء فى الماضى أسكرتهم أهميتهم الكبيرة وذكاؤهم الخارق ، وظنوا أنهم معصومون من الخطأ ، وأحاط بهم متملقون ذليلون ، فتعثروا واقترفوا خطأ قرر مصيرهم ، حيث عرضوا أنفسهم فى مرحلة ما لأخطار بالغة . فقد هاجم نابليون روسيا ، وحاول هتلر أن يحارب فى جبهتين . ومع ذلك فإن نابليون وهتلر كليهما قادا أكفأ الأجهزة العسكرية وأقواها فى زمنه ، تلك التى كانت حتى ذلك الوقت قد قهرت أعداءها ، وكان لكليهما فرصة معقولة واقترب كلاهما من النصر .

أما موسولينى فلم تكن له فرصة ما .. نعم لقد حسب أن الحرب قد أوشكت أن تنتهى حين دخلها فى يونية سنة ١٩٤٠ ، واعتمد على أن يساعده حليفه القوى وقت الضرورة ، وعول على بديهته وحظه ولكن كان ينبغى لأى دكتاتور حصيف أن يكون مستعدًا لما يستجد من ظروف غير متوقعة ، الأمر الذى لم يعمل له موسولينى حسابًا .

كان يجب عليه أن يدرك أن الألمان قد خسروا الحرب أحياناً ، وأنهم قد يخسرون هذه الحرب إذا هي طالت مدة كافية . أجل لقد خامره هذا الشك فترة من الزمن فى بداية الصراع حين كانت إيطاليا لاتزال واقفة على الحياد ثم أدرك هذه الحقيقة فى النهاية . وقد فسر الوضع لزملائه : « إن الألمان هم بطبيعة الحال مشربون بالروح العسكرية ، ولكنهم ليسوا جنوداً ، ولو كان لهم من العبقرية السياسية قدر ما لهم من العبقرية الاستراتيجية لأصبحوا سادة العالم منذ قرون مضت» . والشيء الذى لم يعرفه موسولينى إطلاقاً هو أن كل ملحق عسكرى فى كل سفارة أجنبية فى روما كان يدرك أن إيطاليا كانت غير مستعدة للحرب على نحو يدعو إلى السخرية والأسى . ترى ما الذى أغشى على بصره ؟

إنه لم يشك قط حتى فى أن مظهره الخداع لايدعمه فى الواقع شيء ما . نعم ،لم يدرك مدى ما كانت إيطاليا تعانيه من ضعف وعدم تسليح وفساد الروح المعنوية ، وظن مخلصاً أنه يستطيع أن يلعب دوراً بجيشه الهزيل ، وقواده المتذللين ، ومدافعه القديمة ،وطياراته اللعب ، ودباباته الصفيح ، وصناعاته المتفككة المتداعية . وهذه حالة لايمكن تعليلها ، فلم يكن أحمق ، ولم يكن مجنوناً ، وعلى الرغم من أنه بدا منهوكاً نوعاً ما ، وظهرت عليه علامات الشيخوخة قبل الأوان بسبب حياته العنيفة وعلاقاته الغرامية (دخلت كلارتا بيتاتشى Claretta Petacci حياته فى سنة ١٩٣٦ ، وكان إذ ذاك فى الثالثة والخمسين ، وكانت هى فى الرابعة والعشرين) وصحته السيئة (عانى من تشنجات عصبية فى معدته سببت له آلاماً مضنية فى كل نوبة من نوباتها) ، نقول على الرغم من ذلك كله فإنه كان فى الجملة لايزال واعيا بما كان يجرى ، وكل ما فى الأمر أنه لم يحط علماً بالحقائق كما ينبغى ، ولكنه أراد ألا يحاط بها ، ومن ثم لم يعرف شيئاً ما عن استعدادات إيطاليا العسكرية ، وأخفى الحقائق عن

نفسه ، فخدعته نفسه . وساعده فى ذلك وزراؤه وقواده والاستعراضات المسرحية والمواكب واجتماعات الجماهير والشعب .

وكان موسولينى قد حاول من وقت لآخر فى بادئ الأمر أن يكشف تذلل الموظفين وأنصاف الحقائق الرسمية وألوان الخداع ، عندما كان أخوه أرنالدو حياً (مات سنة ١٩٣١) ، ولما كان يستقبل بعض أصدقائه وأعوانه القدامى الذين يتحدثون إليه فى صراحة ، لم يكن بعد قد انفصل انفصالا خطيراً عن الحقيقة ، ولكن ما لبث أن تغلب عليه شيئاً فشيئاً الجو المثير المسكر ، جو مركزه الرفيع ، فلم يستطع حماية نفسه من تأثيراته الضارة الوبيلة . وعجز سيد التظاهر الكاذب أن يكتشف دائماً ما يمارسه عليه غيره من ألوان التصنع والزيف . ،وهذا من غير ريب هو لبّ الموضوع، فإن مقاومته للمخادعة وإن لم تكن شديدة إطلاقا أخذت تتضاءل رويداً رويداً إلى أن تلاشت فى النهاية . حدث فى شهر من الأشهر الأولى لحكمه فى سنة ١٩٢٣ أن عاد سفير مسن من جنيف حيث كان يمثل إيطاليا فى اجتماع عقد لبحث موضوع السيطرة على الغازات السامة ؛ وحين دخل هذا الرجل الوقور مكتب الرئيس الأصغر سناً لم ينظر موسولينى إليه ، واستمر فى الكتابة ، وأخيراً وبعد دقائق طويلة رفع عينيه عن أوراقه وأنتأ ذقنه إلى الأمام ، ثم سأل السفير فى ازدراء : « ما أخطر الغازات أيها السفير ؟ » فأجاب السفير فى رصانة ووقار : « إن عبق البخور (يقصد التملق) هو أشدها فتكاً يا صاحب السعادة » ، فأحيل السفير إلى المعاش بعد فترة وجيزة . وأصبح موسولينى على مرّ السنين منغمساً تماماً فى ذلك النعيم الزائف الذى ابتدعه للغير واحتاج إلى جرعات أكبر وأكبر من التملق عاماً بعد آخر حتى بدت له أغث الأكاذيب وأبعدها احتمالا ، مادامت تتملق فكرته عن نفسه وتؤيد أهواءه ، بدت له أنها التعبير الصادق غير المنمق عن الحقيقة الموضوعية .

وبديهى أن جميع الشخصيات العظيمة تحيط بهم حاشية من المتزلفين. والمتملقون شائعون بخاصة فى إيطاليا حيث استخدم أهلها هذه الأفانين على نحو هجوى مزعج لكسب المزايا وتحطيم المنافسين ولقهر السلطة والمال . وكذا على نحو دفاعى لخداع الأقوياء والدكتاتوريين والطغاة وبلبلتهم. ولكن أغلب الشخصيات العظيمة يدركون الخطر الذى يحيط بهم . فإن كل أصحاب السلطة فى إيطاليا ، أى نوع من السلطة حتى عمد القرى . يدركون أن الابتسامات والإطراءات والهدايا وهتافات الاستحسان ليست موجهة إليهم بل إلى مناصبهم، وبالتالى يوفق أكثرهم فى حماية أنفسهم من الوقوع فى كارثة . أما موسولينى فإنه لم يتعلم قط حيث كان بالغ الاقتناع بكونه معصوماً من الخطأ ، وأحب فقط من لم يحذروه الأخطار التى تواجهه ، ولم يحاولوا إطلاقاً أن يطلعوه على الحقيقة ، ومن ثم كان الوحيدون الذين اتصلوا به وتقربوا إليه هم أبرع المتملقين فى المملكة ، ولم يكن جميع هؤلاء مخادعين ، فقد كان بعضهم مجرد حمقى صدقوا ما قالوا ، وتمنى البعض الآخر فى يأس أن ما قالوه كان صدقاً ، وأن موسولينى كان حقاً أعظم رجل حى وأن كل الأمور ستنتهى إلى خير ما يرام آخر الأمر . وقد تملقوه أيضاً ليؤمنوا أنفسهم ضد أية أخطار . وكان هناك غير هؤلاء وأولئك آخرون هم مجرد محتالين عديمى الضمير .

وفى النهاية عاش موسولينى داخل عالم خيالى خاص به وحده ، فكانت المدن التى يزورها تعد إعداداً دقيقاً وافياً قبل وصوله بفترة طويلة حتى لا تقع عينه إلا على ما يسره ويرضيه سواء من الأشياء أو الناس ، أما ما عدا ذلك فكان يخفى عنه بمهارة ، وبالتالى لم يدرك أن الحشود المتحمسة التى راحت تهتف له كانت معززة بفرق من رجال الشرطة فى زى ذوى القمصان السوداء ، وبآلاف غيرهم نقلوا من المديريات فى اليوم السابق ، كذلك لم يعرف أن بعض المبانى الجديدة والمنشآت العامة والقرى التى افتتحها

قد هجرت وبدأت تتدهور فى اليوم التالى، وأن قنوات جرّ المياه لم تنقل ماء قط ، وأن الفرق العسكرية العديدة التى كان يستعرضها كانت دائماً تقريباً هى نفسها ، تلك الفرق القليلة التى كانت تنقل من مكان إلى آخر .

وكانت أفانين المظاهر الكذابة بالغة الصقل بحيث خدعت هتلر حين قدم إلى إيطاليا فى زيارة رسمية سنة ١٩٣٨ ، فقد استمرت الاستعدادات لهذه الزيارة مدة بلغت ستة أشهر حيث كان لزاماً على كل إيطاليا أن تظهر للدكتاتور الألمانى وجهاً جديداً فلا تبقى على شئ يقال عنه « إنه ينم عن حياة القرن التاسع عشر أو أنه عادى أو مألوف » ، ومن ثَمّ تغيرت البلاد ، فأعيد تخطيط الشوارع التى تقرر أن يمر بها موكب الزعيم النازى ، وأعيد بناؤها على غرار ما يجرى فى مناظر الأفلام السينمائية ، وطليت كل البيوت القائمة على طول خطوط السكة الحديدية الممتدة من ممر برنر إلى روما ، وتم اختيار الجنود الذين سيشتركون فى الاستعراضات اختياراً دقيقاً ، فاشترط أن يكون معظمهم من ذوى العيون الزرقاء ، وأن يكونوا طوال القامة حتى يثبت موسولينى للزائرين أن الإيطاليين هم أيضاً من سلالة الجنس الآرى (كان الملك هو الشخص الوحيد الذى لم يمكن تغييره الأمر الذى أزعج موسولينى ، فقد كان الملك قميئاً قصير القامة لا يبعث الرهبة فى النفوس ؛ والغريب أنه كان الشمالى الوحيد nordic بين كل هؤلاء ، جرى فى عروقه الدم النمساوى والألمانى ، وظهر أثر ذلك فى عينيه الزرقاوين) ، وزود الدوتشى الجنود الذين اشتركوا فى الاستعراضات بكافة أنواع الأسلحة الموجودة فى إيطاليا وارتدوا جميعاً بزات جديدة تماماً .

وكان من شأن الفكرة الطيبة التى كونها هتلر عن زميله وعن استعدادات إيطاليا العسكرية وولاء الشعب الإيطالى لنظام حكمه وللمحور ، أن جعلته يخطئ فى كثير من تقديراته ، ويحتمل أن أحد هذه الأخطاء أدت إلى خسارته الحرب ، فقد آمن

هتلر فى النهاية أنه أخفق فى حملته على روسيا لأنه بدأها متأخراً أربعة أسابيع ، حيث أضاع هذه الأسابيع الأربعة فى إنقاذ الجيوش الإيطالية التى تعثرت فى ألبانيا فى طريق هجومها العقيم على اليونان ، فإن صح ذلك أمكن اعتبار موسولينى أعظم عبقرية عسكرية سلبية شهدها العالم إطلاقاً ، حيث هزم بمفرده دولتين عظيمتين : دولته هو وألمانيا .

واستمتع موسولينى بالاستعراضات والمظاهر أكثر مما فعل هتلر ، وكان يقهقه حين يقرأ الكتابات المدونة على جدران البيوت كما لو كانت تعبر حقاً عن إرادة الشعب ، كذلك لـذ لموسولينى قراءة ما يكتبه السفراء فى الخارج من تقارير ضمنوها المسائل التى تروق ، كما لذ له قراءة صحفه اليومية . وكان من السهل تضليله . حدث مرة فى خلال الحرب العالمية الأخيرة أن اطلع على تقرير تضمن أرقاماً قيل إنها تمثل مجموع المدافع الجديدة فى الجيش الإيطالى ، وغضب موسولينى وثار لأنه كان يعرف أن جيشه لم يتوافر له هذا العدد الكبير من المدافع ، ولكن وكيل وزارة الحربية وكان قائداً داهية سارع إلى الرد عليه قائلا : « سيدى الدوتشى ، هناك خطأ فى التقرير ، فإن أعداد المدافع الواردة فيه هى التى تعتزم مصانعنا إنتاجها فى القريب العاجل » . وارتاح موسولينى إلى هذه الإجابة !

* * *

ومهما يكن من شئ فقد هوى نجم موسولينى يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٣ حيث كانت جيوش الحلفاء قد غزت صقلية قبل ذلك بأيام قلائل ، وكانت إيطاليا قد خسرت كل مستعمراتها وهزم جيشها وتحطم فى روسيا والبلقان وإفريقيا وأمطرتها غارات الحلفاء بوابل من القنابل دمرها وشل حركتها ، واقتصر أعوانها الألمان على التقهقر دفاعاً عن أنفسهم ، وحرصوا على أن يوفروا ما بقى لهم من مؤن ورجال . فى وسط هذه الظروف

العصبية عقد المجلس الكبير Grand Council اجتماعاً حاسماً فى يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٣ فى قصر فينتسيا بروما. حضره كل كبار القادة الفاشيين، ورأسه الدوتشى الذى بدا متعباً منهوكاً عليه علامات الشيخوخة، وأخذ هو يستعرض الموقف ويشرحه شرحاً موضوعياً نوعاً ما، ووضح من حديثه أن إدراكه الأمور لا يعدو النظرة السطحية لصحفى بارع، فواصل حديثه وكأنه كان يتكلم عن بلاد أخرى وحرب أخرى وقادة آخرين بل أزمة أخرى. وعندئذ اقترح أعوانه القدامى أعضاء المجلس بأن يتخلى هو عن قيادة جميع القوات لمسلحة، وأن تنقل هذه السلطة إلى الملك فكتور إمانويل الثالث، فيكون جلالته القائد الأعلى للقوات المسلحة. وحاول موسولينى أن يثنيهم عن هذا الاقتراح، وناشدهم العدول عنه، وراح يتملقهم تارة ويهددهم تارة أخرى مشيراً إلى بعض الملفات المرصوصة على منضدة إلى جانبه قيل إنها كانت تحوى أسراراً خطيرة، ثم توسل إليهم أن يحترموا شيخوخته قائلا لهم: «سوف أبلغ الستين بعد أيام قلائل» ولكن لم يجد ذلك كله نفعاً، فرضخ فى النهاية ووافق على الاقتراح، وارتضى أن يهبط إلى مركز أدنى.

وفى اليوم التالى استقبله الملك فكتور إمانويل الثالث فى فيلا سافويا مسكنه الخاص (مقر السفارة المصرية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية) وأمر بالقبض عليه. والطريف أنه لما انتشر هذا الخبر لم تقم ثورة فاشية، ولم يشهر السلاح أنصار موسولينى المخلصون، ولم ينفذ أحد القسم الفاشى: «أقسم أننى سأدافع عن الثورة بدمى». نعم لم يحدث شىء ما، فقد انتهت المسرحية، وكان هذا هو كل ما فى الأمر. انتهت المسرحية وهزم الدكتاتور، هزمه الإيطاليون أنفسهم بطريقة كلفتهم أبهظ الثمن، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة. وابتهج الشعب ابتهاجاً صاخباً. ونقل موسولينى أسيراً من مكان إلى آخر، فأرسل أولا إلى بعض

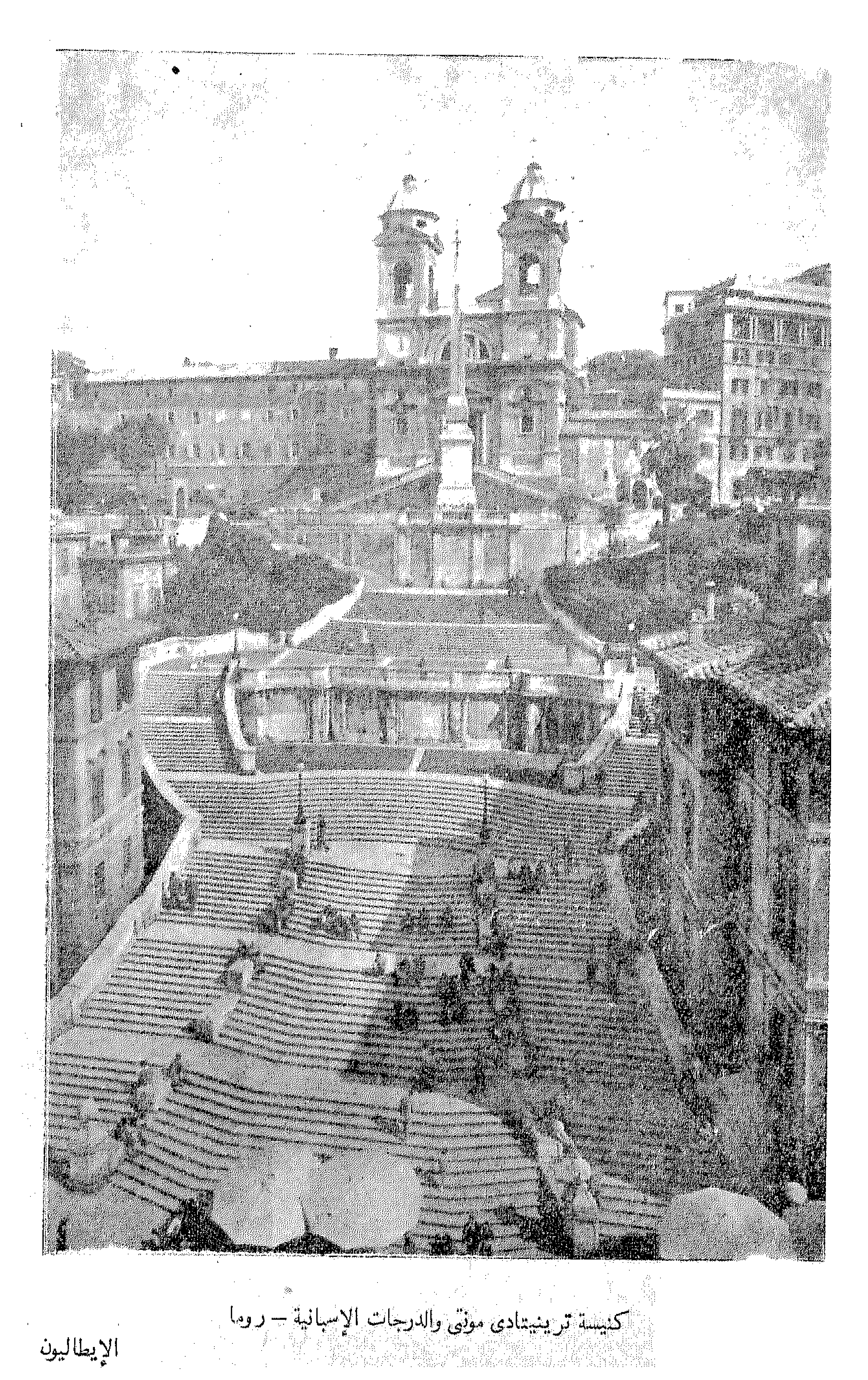
الجزر الإيطالية ، ثم إلى فندق سياحى فى بقعة نائية فوق جبال ابروتزى Abruzzi كان هو قد شيده للمولعين برياضة التزحلق على الثلوج . وقد اختير هذا الفندق حتى يتعذر على الألمان إنقاذه فلم يكن هناك طريق برى يؤدى إلى هذا الفندق ، بل كان الوصول إليه مقصوراً على سكة حديد معلقة تربطه بالبلاد الواقعة فى سفح الجبل ، ولكن الألمان اهتدوا إليه وهربوه من الفندق (سبتمبر ١٩٤٣) مستخدمين فى ذلك طائرات شراعية ، ثم وصل موسولينى إلى مركز قيادة هتلر فى بروسيا الشرقية وعبر له عن جميل شكره لإنقاذه ، وارتدى بزته الرسمية القديمة ، وصار رئيساً للجمهورية الفاشية لشمال إيطاليا ، وكانت هذه بطبيعة الحال ألعوبة فى يد هتلر .

واتخذ موسولينى مقر حكومته الرسمى على بحيرة جاردا Lake Garda على الطريق المؤدى مباشرة إلى ممر برنر حتى يسهل عليه الفرار إذا دعت الضرورة إلى تقهقر فجائى . والواقع أن الأشهر الأخيرة من حياته كانت فترة كئيبة موحشة ، فقد أدرك أنه خسر كل شىء وأنه أخفق فى حكمه ، وأنه أقحم إيطاليا فى حرب خاسرة فى وقت غير ملائم حيث لم تكن مزودة بالأسلحة اللازمة . فضلا عن أنها بددت ما كان لها من موارد معنوية ومادية قليلة بما فى ذلك بطولة آلاف الرجال الشجعان . . . بددتها فى حملات حمقاء أملاها حرص مخطط حرب هاو على أن يظهر لحليفه أنه هو أيضاً عقلية فذة وزعيم عظيم . وفى بعض الأحيان حاول موسولينى أن ينتحل الأعذار ، ويلقى اللوم على الإيطاليين قائلا إن العيب يكمن فى طباعهم الناعمة وكرههم الأعمال الشاقة ، ونعتهم بأنهم ليسوا سلالة الرومان القدماء ، بل إنهم انحدروا من رقيق مهجنين وأقنان أجانب . وعلل نفسه بأمل العودة إلى السلطة كى ينتقم من كل أعدائه ويستخدم فى ذلك الأسلحة السرية التى أعدها الألمان ، ولكنه فى الواقع لم يهتم بالأحداث الجارية ، وعكف على قراءة كتب كثيرة ، وانهمك فى كتابة الكثير

من المقالات والدفوع والمذكرات التافهة بما فى ذلك ما كتبه منها لكتب الأطفال ، وعنى موسولينى بشىء واحد فقط هو موضعه فى التاريخ ، فكان يسأل زائريه فى حذر : ترى هل يحتل فى التاريخ مكانة مثل مكانة المسيح ، أو نابليون ، أو قيصر ؟ ولم يذكر قط اسم كولادى رينزو ولا اسم فينياس بارنوم ؛ كذلك دأب وهو فى مقرّه الجديد فى شمال إيطاليا على زيارة عشيقته كلارتا بيتاتشى يوميًّا ، وكانت تقيم فى دار قريبة منه . ولكنه كان ضعيفاً معتل الصحة فاقد الهمة ، أدرك أن النهاية قد حلت .

والواقع أن النهاية حلت فعلا يوم ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٥ ، فقد تفاوض الألمان من وراء ظهره مع الحلفاء ، ووقعوا معهم سرًّا هدنة راحوا بمقتضاها يسلمون أنفسهم إليهم بوصفهم أسرى حرب . وحاول موسولينى أن يتفاوض بدوره مع الحلفاء عن طريق الكاردينال شوستر كبير أساقفة ميلان لوضع شروط هدنة خاصة به ، ولكنه سرعان ما أدرك أنه أصبح لا حول له ولا قوة وأن الحل الوحيد المتاح له هو أن يسلم نفسه. لقد كان يعتمد على ولاء أهل ميلانو الذين كانوا قد هللوا له فى الشوارع قبل ذلك بأشهر قليلة وصفقوا له بالحماس السابق نفسه حين استمعوا إلى خطاب ألقاه فى أحد مسارحها ، ولكن الأحوال تغيرت ، وأصبح الشعب كله اليوم ضده ، ولم يعد ممكنًا له أن يأمن البقاء فى المدينة حيث تهدده الأخطار ، فقرر أن يهرب مع عدد قليل من رفاقه المخلصين إلى بلدة فالتلينا Valtellina أو إلى سويسرا ، ولكن مالبث أن ساوره التردّد كعادته ، وعجز عن أن يحزم أمره . ترى على أى وجه يمكن أن تنتهى مغامرته ؟ . . .

نعم ساوره التردد نفسه الذى سبق أن ساور كولا دى رينزو فى القرن الرابع عشر : ترى هل يختار موتًا بطوليًّا أو هروبًا بورجوازيًّا ؟ وراح يستعرض الموقف. وكان بطبيعة الحال يدرك أن وادى فالتلينا الإيطالى واد ضيق ، ينفذ كالإسفين فى



كنيسة ترينيتادى مونتى والدرجات الإسبانية — روما

الأراضى السويسرية ، وأنه محمى من اليمين واليسار ، ومن ثم تستطيع قوات قليلة الدفاع عنه على جبهة صغيرة ؛ وهكذا فكر موسولينى أن يتخذ من هذا الوادى آخر معقل يقاوم فيه مع قلة من رفاقه ، فإذا غير رأيه فإنه يستطيع أن يصل إلى بلد أجنبى فى ساعات قليلة عبر الجبال ؛ ولكن موسولينى قرر فى نهاية الأمر أن يلجأ إلى فنه الأصيل بوصفه ممثلا. أجل ،قرر أن يتخفى ويهرب ويتجه مباشرة إلى سويسرا دون أن يضيع وقتاً ما فى أعمال بطولية تسفك فيها الدماء ، وحمل معه كل أمواله ومجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية التى تفيده ليروع بها ساسة الحلفاء أو ليستغلها فى الدفاع عن نفسه فيما لو حوكم على أنه مجرم حرب ؛ ولكن أخفقت خطة هروبه ، فقد كشفه وقبض عليه فدائيون Partisans وكان مختبئاً فى سيارة نقل ألمانية متجهة إلى الشمال على طول شاطئ بحيرة كومو ، Como وكان متخفياً فى زى ضابط ألمانى يرتدى معطفاً ثقيلا وخوذة ألمانية. وفى نفس القافلة قبض أيضاً على عشيقته كلارتا بيتاتشى .

وفى عصر اليوم التالى (٢٨ أبريل ١٩٤٥) أعدم الاثنان رمياً بالرصاص أمام بوابة فيلا فخمة ، وحاولت كلارتا أن تقى جسم موسولينى من الرصاص فسقطت قتيلة معه ، واختفت إلى الأبد الأموال والوثائق التى كان يحملها الدوتشى ، ونقلت الجثتان إلى ميلانو . وكما حدث من قبل لجثة كولا دى رينزو علقتا من أقدامهما من سقف محطة بنزين فى ميدان لوريتو ، وعلقت إلى جانبهما جثث الرؤساء الفاشيين الذين قبض عليهم وتم إعدامهم على طول الطريق نفسه وهم يتجهون إلى سويسرا . وجدير بالذكر أنه قبل هذه النهاية بثلاث عشرة سنة قال موسولينى للكاتب الألمانى إميل لودفج : « إن كل امرئ يموت الميتة التى تناسب شخصيته » . لقد كانت جريمة موسولينى أنه ضلل الشعب ، وكانت غلطته القاتلة أنه لم يدرك أن أبناء شعبه كانوا يضللونه أيضاً ، وقادوه إلى الكارثة بوصفها السبيل الوحيد للتخلص منه .

الفصل التاسع

الواقعية وجويتشارديني

واجه الإيطاليون تحت الحكم الفاشي مشكلة قديمة قدر قدم إيطاليا ، تلك هي : كيف يمكن للمرء البقاء بل النجاح – إن أمكن – وسط الفساد والحروب الأهلية والثورات والغزوات الأجنبية ، وتحت حكم طغاة سفاكين للدماء ورجال حاشيتهم الجشعين ، دون أن يلقى حماية من القانون ؟ أجل ، إن معظم الطرائق التي استنبطها الإيطاليون طرائق قاصرة ، وهي في أحسن الأحوال حلول جزئية ، فإن قلة من الأفراد يستطيعون النجاح في عالم فاسد . ولكن كلما أصابهم التوفيق زاد العالم فساداً . ومع ذلك فماذا عسى أن يفعل المرء ؟ إنه لا يستطيع تغيير زملائه المواطنين ، أو اختيار العصر الذي يولد فيه ، كما لا يمكنه بحال أن يتفادى تيارات التاريخ ، وإنما يمكنه فقط أن يحاول وقاية نفسه من قسوتها الطائشة ، وأن يلتزم الصمت وينصرف إلى شئونه فحسب . ويعتبر فرانشيسكو جويتشارديني F. Guicciardini الفلورنسي أهم مرجع إيطالي في هذه الفنون . وكان محامياً ودبلوماسياً ورجل دولة ومؤرخاً ومفكراً مارس هذه الفنون وصقلها طيلة حياته العملية الناجحة ، ثم أودع حصيلة خبرته في كراسة خاصة تحت عنوان « ذكريات » I Recordi ، لم تنشر إلا بعد وفاته بقرون – ويعتبر هذا المؤلف خير مرشد كتب

حتى الآن لتعريف المرء بأساليب العيش فى الأزمنة العصيبة الغدارة ، ولا يزال مرجعاً ذا قيمة كبيرة حتى اليوم .

وكان الكاتب الفرنسى مونتين Montaigne الذى مارس بدوره الفنون الفرنسية المتصلة بمعرفة الكياسة Savoir faire وآداب السلوك Savoir Vivre مولعاً بجويتشارديني شديد الاعتزاز به ، بل إن ماكيافلى الذى صار اسمه مضرب الأمثال بوصفه المصنف القاسى لأساليب الحياة الإيطالية أشاد بصنوه جويتشارديني وقدّره حق قدره ، وهو إحساس يندر أن نجده بين متنافسين ، وفضلا عن ذلك كان يكن له كل إعجاب ومحبة . كتب مرة يقول : « إنى أحب فرانشيسكو جويتشارديني ، وأحب وطنى أكثر مما أحب نفسى » وهى عبارة لها دلالتها ، فلم يكن فى وسعه أن يقول أكثر من ذلك ، والواقع أن ماكيافلى أحب وطنه الصغير فلورنسا ووطنه الكبير إيطاليا أكثر مما أحب نفسه .

وعلى مرّ القرون عقدت المقارنة بين جويتشارديني وماكيافلى مراراً وتكراراً ، لأن أوجه الشبه بينهما وفيرة لا يمكن إغفالها ، فكلاهما ينتمى إلى فلورنسا التى ولدا فيها فى سنوات متقاربة (ولد ماكيافلى فى سنة ١٤٦٩ وولد جويتشارديني فى سنة ١٤٨٢) ، وبدأ كلاهما حياته العملية فى مستهل الشباب سفيراً بجمهورية فلورنسا الشعبية ، ومارس كلاهما العمل السياسى ، وافتتن بأسلوب حكم الشعب واكتساب السلطة ، إلى أن أفل نجمهما فى نهاية المطاف ، واختار كلاهما حياة العزلة فى ضيعته حيث عكفا على الدراسة وتأليف الكتب التاريخية والتأمل فى قوانين التاريخ الثابتة الغامضة ، ووصلا إلى النتيجة نفسها : تلك هى أن الناس لم تتغير طباعهم ، وأن الأشياء لم تتحول عما كانت عليه ، ومن ثم فإن كل خطط العمل يجب أن تبدأ من هذا الافتراض ، وآمن هذان الصديقان أن الكد من أجل النجاح

واجب أساسي على الأفراد والحكومات سواء بسواء . وهو ــ أى النجاح ــ الهدف المعقول الوحيد للعمل . كتب ماكيافلى يقول : « لا يستطيع من لا عمل له فى الحياة أن يفوز حتى بنباح كلب عليه » .

وبرغم ما بين هذين الصديقين من أوجه الشبه السطحية سالفة الذكر فقد كانا يختلفان ، الواحد منهما عن الآخر ، اختلافاً عميقاً ، ذلك أن ماكيافلى وهو الأكبر سناً احتفظ ببعض أفكار غضة تنتمى لعصر أقدم وأسعد ، فكان قبل كل شىء فناناً كتب نثراً لعله أجل وأوجز وأقوى ما ورد فى الأدب الإيطالى ، وكان أسلوبه لاذعاً قارصاً ساخراً داعراً أحياناً ، كما كان أحياناً أخرى وقوراً مهيباً رناناً ، ولكنه كان دائماً واضحاً شفافاً . وعاش ماكيافلى حياة شاذة بل بوهيمية تقريباً . وكانت حياته فى نهاية الأمر مثلا صارخاً للإخفاق حيث لم يبلغ قط أهدافه ؛ ولم يحدث إطلاقاً أن غازل المرأة التى أرادها ، أو حقق أطماعه ، أو وصل إلى القمة فى حياته السياسية ، كما لم يحدث قط طيلة حياته أن أخذت آراؤه مأخذ الجد بوصفه قائداً من قادة الفكر . ومات فقيراً معدماً ؛ لقد عجز تماماً عن إقناع جمهورية فلورنسا بأن تسدد ديونه أو تدفع له ما تحمله من نفقات ، ولم يستطع قط أن ينشر مؤلفاته الخالدة ، وكان الضحية الدائمة لما طرأ على فلورنسا من تغيرات سياسية . فلم يتقدم أو يبتسم له الحظ حين كانت فلورنسا تنعم بحكم ديمقراطى شعبى ، ومن جهة أخرى لما تغير الحال وعاد آل مديتشى Medici الطغاة إلى الحكم قبض عليه وعذب فى المخلعة (أداة التعذيب فى ذلك الوقت) حيث اتهم بأنه نصير الجمهورية ، ثم حين أعيدت الجمهورية مرة أخرى فيما بعد حامت حوله الشكوك الخاطئة وأبعد عن كل المناصب العامة على اعتبار أنه كان من مؤيدى آل مديتشى . هذا هو مصير الرجال الوافرى

الذكاء الذين هم برغم ذلك ليسوا على قدر كاف من الذكاء لإخفاء ذكائهم وتحاشي إثارة مخاوف غيرهم وشكوكهم .

وحقيقة الأمر أن ماكيافلي كان حالماً متطرفاً سبح فى دنيا الخيال وغرق فى التفاؤل ، وبالتالى تعذر عليه أن يحقق أية نتائج عملية ، فقد اعتقد أن هناك وسائل أكيدة لحل مشكلة إيطاليا القومية ، وآمن أنه من الممكن تعديل مسيرة التاريخ وتفادى القدر وتغيير الشعب لا عن طريق الوعظ والإرشاد والحملات الصليبية والإصلاحات والصلوات بل بوسائل وأجهزة واقعية فرأى (شأن الكاتب الفرنسي ستاندال الذى نادى فى سذاجة بعد ذلك بثلثمائة سنة بأن كل علل إيطاليا سوف تزول يوم تأخذ بنظام برلمانى يقوم على مجلسين) ، نقول رأى ماكيافلي أن إيطاليا سوف تكون دولة قوية لا تقهر حين تعتمد على قوات مسلحة نظامية تؤلف من مواطنيها ، وتستغنى بها عن الجيوش المرتزقة وقادتها المغامرين Condottieri الذين لا هم لهم إلا مصلحتهم الشخصية (وقد رفض هذا الاقتراح جويتشارديني الأكثر خبرة حين كان حاكماً على إقليم رومانيا Romagna ، ونعته بأنه اقتراح نظرى بالغ الخطورة) .

وتطلع ماكيافلي قبل كل شيء إلى ظهور الزعيم الأعظم ، أى الشخص الأمثل القوى الذى يستطيع أن يحقق المعجزة الكبرى ، معجزة توحيد إيطاليا وحكمها بيد قوية حازمة ويحميها من غزوات الجيوش الأجنبية ويصونها من الأعداء المحليين باستخدام جميع فنون الحكم المعاصرة ووسائله بما فى ذلك السموم والخداع والإرهاب والرشاوى والجواسيس ... ثم العدالة حين تقضى الضرورة .

أما جويتشارديني فلم يكن فناناً طائشاً ، ولم يحى حياة بوهيمية ، ولم تساوره الأوهام ، فقد ولد فى أسرة نبيلة ثرية ، وعنى أبواه بتربيته وتعليمه ، وقضى

فترة شبابه متمسكاً بالفضائل أو على حد قوله ، « بدون أن يدنسه فساد أو طيش ، ودون أن يضيع وقته سدى » ، ومع ذلك فقد كان الولع بالنساء الرذيلة الوحيدة التى عرفت عنه حيث أغرم فى الخفاء بهن من كل الطبقات والأعمار (روى عنه أنه لم يحب زوجته وأنه تزوجها لأسباب سياسية فحسب وكان يدأب على تركها فى البيت) ، وكان جويتشاردينى شديد الانطواء متحفظاً بل منفراً ، أثار كراهية جميع من عرفوه معرفة سطحية فقط ، وتلقن من أبيه بييرو Piero دروسه الأولى فى فن البقاء والنجاح فى الأزمنة العصيبة الغدارة . وكان بييرو هذا رجلا بارعاً استطاع أن يكون لنفسه سمعة طيبة ولكن بحيث لا يثير مخاوف الآخرين وحسدهم ، ووصل إلى مناصب عالية ولكنها لم تكن بالغة الخطورة تثير حقد الآخرين ونقدهم ، وكان يشعر دائماً بقرب تغير مهب الريح فيعد نفسه للسير معها دون تهور مبتذل ومن ثم نجح وازدهر فى كل العهود سواء الشعبية والأرستقراطية والديمقراطية ، والاستبدادية .

وتميز الابن جويتشاردينى بهذه الحاسة نفسها ، حاسة التكهن بالتقلبات السياسية ، وبذلك أمكنه أن يطفو معظم سنى حياته خلال تقلبات كانت من أكثر تقلبات التاريخ الإيطالى تعقيداً وأشدها خطراً ؛ بل لعله فعل ذلك بقدر أكبر من الكرامة والسهولة من أبيه ، أجل ، كانت جلّ أهدافه أن يطفو وأن ينجح ويفوز بالسلطة ، فشغل فى وقار عدداً من أعلى مناصب الدولة حتى كادت سلطاته تكون سلطات ملكية ، وصارت له شهرة راسخة ، وعكف على الدراسات التاريخية والسياسية ، ونمى ثروته ، وحصل على كل ما أراد بأساليب قوامها الأمانة فلم يتملق كبار الشخصيات أو لعله فعل ذلك بأسلوب حصيف لا يمكن كشفه . كتب مرة يقول فى أنفة : « إننى أدع الوظائف تسعى إلىّ لا العكس » . وكان

هذا فى الواقع راجعاً إلى الحظ وإلى شخصيته وتربيته ودرايته البارعة بالطبيعة البشرية وإلى كفايته وحصافته ، وكلها أمور جعلته إنساناً لا غنى عن استخدامه فى المهام العويصة ، حتى أعجب به أولئك الذين كرهوه ، أمثال كاتب الحوليات الفلورنسى بندتوفاركى Benedetto Varchi الذى كتب عنه يقول : « علاوة على ثروته وسعة معرفته ، وفضلا عن كونه حاكماً من حكام البابا أو نائباً له ، فقد اشتهر أيضاً بدرايته العملية بتصرفات البشر وأفعالهم التى درسها وقدرها ببصيرة نافذة » .

ونوجز هنا مراحل حياته وتتابعها السريع :

حين كان جويتشارديني محامياً مكافحاً فى التاسعة والعشرين من عمره عينته جمهورية فلورنسا سفيراً لها لدى ملك إسبانيا . وفى سنة ١٥١٥ — وكان وقتئذ قد بلغ الثالثة والثلاثين — أرسلته فلورنسا لتقديم تحياتها إلى البابا ليو العاشر ، الفلورنسى المنبت والذى كان أصلا كاردينالا باسم جوفنى دى مديتشى Giovanni de Medici . واشتهر هذا البابا بقدرته على اكتشاف الرجال الأكفاء القادرين ، فقربه إليه وعينه بعد ذلك بثلاث سنوات حاكماً على مدينتى ريجو Reggio ومودينا Modena المتمردتين ، ثم أضاف إلى اختصاصه فى سنة ١٥٢١ مدينة بارما Parma . وأدرك الشاب الديمقراطى الغر ما للمظاهر من أهمية ، فأحاط نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة ، فكان يصطحب معه بطانته وعدداً من فرسانه وجنده المشاة كلما ظهر أمام الجمهور . وكان حاكماً قديراً لم يرحم المتمردين من رعاياه سواء أولئك الذين ناصروا الإمبراطور وكانوا بذلك فريسة مباحة ، أو أولئك الذين أيدوا البابا ولهم أصدقاء بين أفراد حاشيته ، ومن ثم كان فى وسعهم أن يعكروا صفو حياته ، فحرم على كل فرد أن يحمل سلاحاً ، وقبض على من اشتبه فيهم

وعذبهم مهما كانت منزلتهم ، وأعدم اللصوص والسفاحين ، وفرض القانون والنظام على الجميع ، ورصف الشوارع الرئيسية بالحجر ، ووازن الميزانية . وبعد وفاة البابا ليو خلفه آخر لم يدم سوى فترة قصيرة ، ثم تولى كرسى البابوية كلمنت السابع ، وهو أيضاً من آل مديتشى ، فعين فرانشيسكو جويتشارديني - وكان إذ ذاك فى الحادية والأربعين - حاكماً على ولاية رومانيا Romagna الإيطالية الفسيحة ثم جعله بعد ذلك بثلاث سنوات قائداً للجيوش البابوية .

وفى سنة ١٥٣١ رقى جويتشارديني حاكماً على بولونيا أهم الولايات البابوية كلها . فلما توفى البابا كلمنت فى سنة ١٥٣٤ استقال جويتشارديني من منصبه وعاد إلى فلورنسا ليلعب دوره فى السياسة المحلية بوصفه خادماً أميناً مخلصاً لآل مديتشى . وبفضل مساعدته تمكن السندرو دى مديتشى Alessandro de Medici من الاستيلاء على السلطة ، وكان هذا طاغية اتسم بالحمق والقسوة والجشع والفجور ، راح يغتصب معظم النساء الوسيمات الجميلات فى فلورنسا . وكان جميع الفلورنسيين بما فيهم جويتشارديني يكرهونه ويمقتونه ، ولكن جويتشارديني برغم ذلك كله ، قام بخدمته فى إخلاص وأمانة . ولما لقى هذا الطاغية ألسندرو مصرعه استغل جويتشارديني كل حذقه السياسى ونفوذه فى تولية طاغية آخر ينتمى إلى الفرع الأصغر من آل مديتشى ، هو كوزيمو دى مديتشى Cosimo di Midici ، وحصل له من الإمبراطور شارل الخامس على لقب « الدوق العظيم » Grand Duke ، وبذلك قضى على ذات اسم « حريات فلورنسا الجمهورية » إن لم يكن على ذكراها .

وكانت هذه غلطته الوحيدة ، فقد كان كوزيمو فتى فى السابعة عشرة من عمره انغمس فى اللهو وحياة الطيش ورأى جويتشارديني أن يترك أمور الدولة لهذا الشاب ويكتفى هو بمرتبه السنوى البالغ قدره ١٢ ألف فلورين من الذهب

ليحيا حياة ناعمة . قال وهو يخفض رأسه ويرفع عينيه مفصحاً عن خططه الباطنة دون وعى منه : « اثنا عشر ألف فلورين ؟ يا له من مبلغ عظيم لإنفاقه ! » وهذه إيماءة لا تزال صالحة لمن يقوم بدور الأفاق فى أوبرا إيطالية أو فى فيلم سينمائى . أجل ، إن ما لم يعرفه جويتشاردينى هو أن كوزيمو كان طفلا سياسياً مسرفاً Enfant prodige تولى أمور الدولة وهو لا يزال مراهقاً طائشاً ، وتحايل بتواضع محتشم واحترام لائق على أن يستغل خادمه المحنك الحذر الداهية الذى يعتبر من أكبر ساسة العصور كلها ، واتخذ منه سلماً صعد عليه إلى العرش ثم رفس هذا السلم بعيداً عنه .

وهكذا اعتزال جويتشاردينى الحياة السياسية، ولجأ فى وقار واحتشام إلى داره الريفية « رقعة الشمار » Il Finocchieto قرب بلدة أرشترى Arcetri كى يشرف على فلاحيه ، ويحسن صناعة نبيذه ، ويستغرق فى التأمل ويعكف على التأليف ، فكتب عدداً من المجلدات هى أروع كتب الأدب فى التاريخ الإيطالى. ومات وهو فى الثامنة والخمسين من عمره إثر أزمة صحية فاجأته .

ومما يلفت النظر ويلقى ضوءاً على حياة فرانشيسكو جويتشاردينى هو ذلك التناقض الهائل بين أفكاره ومعتقداته الشخصية من جهة ، وتصرفاته وأعماله العامة من جهة أخرى . وأعجب من ذلك أنه لم يدهش أو يقلق لهذا التناقض الذى سلم بأنه إحدى حقائق الحياة . وهكذا لم يسمح قط لمعتقداته أن تتدخل فى أى عمل يقوم به ، مثال ذلك أنه كان فى قرارة نفسه رجلا ورعاً تقياً أميناً نزيهاً متمسكاً بتعاليم الكاثوليكية ؛ بل إنه فكر فى أيام شبابه أن يكون قسيساً ، وتمنى أن يعود الدين سيرته الأولى من التقوى والحماس والتمسك بالتعاليم الأخلاقية ، وبوصفه مسيحياً طاهراً احتقر ما للبابا من سلطات دنيوية جعلت من نائب المسيح فى

الأرض أميراً دنيويًّا يساهم بدوره فى ألاعيب السياسة القذرة . ومن ثم ندد جويتشارديني فى كراسة ذكرياته الخاصة بما تسببه السلطة والثروة والطمع من فساد لا مناص منه بين رجال الدين ، ولكنه برغم ذلك كله عكف هو على تحقيق خطط دنيئة لاثنين من البابوات ، وساعد على تدعيم أملاك الكنيسة وزيادة رقعتها . كتب فى مذكراته يفسر ذلك فى رباطة جأش فقال : « ليس هناك من هو أشد بغضاً منى لطمع القساوسة وجشعهم ؛ إن هذه الرذائل الدنيئة فى حد ذاتها هى أدنأ ما تكون فى رجال الدين الذين اختاروا لحياتهم مهنة التقرب إلى الرب . . . لقد اضطرنى المنصب الذى شغلته فى عهد بابوات كثيرين إلى أن أعمل من أجل مجدهم وتوسيع سلطانهم حرصاً على مصلحتى الشخصية ، وإلا كان لزاماً علىّ أن أحب مارتن لوثر كما أحب نفسى ، لا لأنى سوف أنتهك القوانين التى تفرضها علينا المسيحية ولكن لأنى سوف أرى . . . أوغاداً اضطروا أن يعيشوا إما بدون رذائل أو بدون سلطة » .

وبرغم أن جويتشارديني كره الاستبداد قبل كل شيء فإنه لم يفعل شيئاً ليخلص فلورنسا من الطغاة ؛ بل إنه ساعد على إهدار حرية المدينة إلى الأبد ، واقتصر على التعبير عن كراهيته للطغاة فى مذكراته فحسب ، وواصل تنفيذ ما عهدوا إليه من مهام ، وكان حكيماً بارعاً لم يسبح فى دنيا الأوهام أو يعلل نفسه بآمال كاذبة ، ترى هل كان فى وسعه أن يثق بالرجال الذين تآمروا على أن يعيدوا النظم الحرة ؟ الجواب طبعاً بالنفى فقد كتب فرانشيسكو فى حزن يقول :

إياك أن تأخذ غالبية الناس مأخذ الجد (وليس كلهم طبعاً) أعنى أولئك الذين يتشدقون بمزايا الحرية ، ذلك لأنهم إذا توقعوا أية مزايا فى الدولة الاستبدادية فإنهم سيهرعون إليها بأقصر السبل وأسرعها ، فإن جميع الناس تقريباً يضعون

مصلحتهم الخاصة فى منزلة أسمى من حب المجد والشرف » .

ثم قال : « إننى لا ألوم أولئك الذين ألهبهم حبهم لوطنهم إلى حد تحدى الأخطار الجسام من أجل إقامة الحرية والحكم الشعبى برغم أننى أعتقد أن ما يفعلونه ينطوى على مغامرة بالغة ؛ لأن الثورات التى تنجح قليلة ، وحين يتم لها ذلك كثيراً ما تكتشف أنت أنها لم تحقق ما كانت تؤمل فيه ، فتعيش فى خوف أبدى من أن الأطراف التى قهرتها سوف تسترد السلطة فى أية لحظة ، فتعمل على التنكيل بك » .

وفى رأى جويتشارديني أنه ينبغى على المرء أن يعرف كيف يعيش مع الطغاة . وإليك فيما يلى بعض الإرشادات التى ذكرها والتى تبين لك كيف تنجح فى عهدهم : يقول جويتشارديني : « ليست هناك قواعد مفيدة حين تعيش تحت حكم طاغية جبار سفاك للدماء سوى قاعدة واحدة ، تلك التى نعرفها فى أزمنة الطاعون . عندئذ عليك أن تهرب إلى أبعد ما تستطيع ، ولكن حين يكون الطاغية معتدلا مراعياً مشاعر الناس نسبياً بدافع الحذر أو الضرورة ، أو لسبب سياسى ، فإن على الرجل الحكيم أن يحاول أن يظهر بأنه كفى قدير وشجاع ، وإن كان عليه أن يتقبل مؤقتاً الأوضاع كما هى . . . وهكذا سوف يتملق الطاغية حتى لا يثير فى نفسه أية رغبة لتغيير النظام القائم . ولن يلجأ الطاغية إلى هذا النوع من السلوك إذا أدرك أن الرجل مشاغب ثائر ، لأنه حالما يرى أنه ليس هناك من سبيل قط لإبقاء هذا المشاغب هادئاً فسوف يحصر تفكيره فى خير الوسائل لقتله والتخلص منه » .

« إنى أومن بأنه ينبغى للمواطن الصالح المحب لوطنه أن يكون على علاقات طيبة مع الطاغية . . . لا درءاً للخطر عن نفسه فحسب بل أيضاً لفائدة كل فرد

آخر ، وإذا أنت قابلت الطاغية بين الحين والحين فسوف تكتسب ثقته ، وسوف يتقبل بادرة مفيدة ويتجنب عملا صالحاً . أما أولئك الذين ينددون بهذا السلوك فهم مخبولون . بيد أنه من الأفضل بك ألا تكون واحداً من أقرب المقربين إلى الطاغية ، وهكذا تنعم بمزايا سلطاته ، وحينما يسقط ويلقى حتفه فلن يطاح بك مع الباقين » .

خلاصة القول أنه لابد للسلوك الحصيف من أن يتضمن شيئاً من النفاق ، فكيف يواجه الرجل ذو المبادئ هذه الضرورة ؟ إليك ما ذكره فرانشيسكو جويتشارديني عن هذه المشكلة الأبدية :

« بديهى أن كل إنسان يحب الأشخاص السمحين الصادقين الصريحين ، فلا شك أنه مما يشرف المرء أن يكون سمحاً صادقاً صريحاً برغم أن هذه السجايا كثيراً ما تضر صاحبها . ومن جهة أخرى فإن النفاق والخداع مفيدان ، وكثيراً ما يتعذر الاستغناء عنهما ، وذلك بسبب طبيعة البشر الشريرة ، بيد أن هذه الفنون يحتقرها ويكرهها كل فرد . وبناء على ذلك فإنى لا أعرف أن أختار أى نوع من السلوك ، ولكن فى وسعى أن أقترح بأنه ينبغى تفضيل الصدق عادة دون التخلى تماماً عن الخداع ، بمعنى أنه يجب عليك فى الظروف العادية لحياتك أن تستخدم الصدق بحيث تكتسب سمعة بأنك رجل طاهر برىء صادق صريح ، ثم استعمل الخداع فى مسائل قليلة هامة ، وسوف يكون الخداع أكثر إنتاجاً ونجاحاً كلما اكتسبت سمعة بأنك رجل صادق أمين حيث يسهل عندئذ تصديق ما تقول » .

وإليك القاعدة الأساسية التى نادى بها جويتشارديني : « إن من يحسنون تصريف أمورهم هم أولئك الذين يضعون نصب أعينهم مصلحتهم الشخصية ،

ويدبرون كل أفعالهم وفق مقتضياتها» . هذه هي الوسيلة التي تمكن الفرد من البقاء والنجاح في الأزمنة العصيبة الغدارة . وأضاف إلى ذلك قوله : « إنه للأسف ، يعتقد عدد وفير من الناس القليلي التبصر أن مصلحتهم تكمن أساساً في جمع الثروة لا في الاحتفاظ أيضاً بسمعة طيبة واسم طيب » . وأدرك فرانشيسكو ما خفي على غيره ، فقد عرف أنه في وسع المرء أن يجمع ثروة دون أن تكون له مسحة من سمعة طيبة ومنزلة محترمة ، ولكنه نادراً ما يستطيع الاحتفاظ بهذه الثروة أو زيادتها . كما أدرك أن المثل العليا التي اعتز بها لن تعترض نجاحه الشخصي ، وذلك فقط طالما اعتبرها نزوات خاصة به ؛ فكان في وسعه أن يتحدث إلى فريق من أصدقائه عن التقوى والشرف والحرية والعدالة والأخلاق الكريمة وعن الأمل في أن يرى إيطاليا حرة من الطغاة الأجانب ، وأن يلقن أطفاله وحفدته هذه التعاليم القومية ، وأن يكتب عنها في كراساته داخل جدران بيته الأربعة ووراء أبوابه المغلقة . أما قراراته في العالم فما كانت لتمليها قط رغبة في تغييره ، ويمكن أن نشبهه بالربان المحنك الذي يفضل بفطرته أن يقلع بسفينته على بحر هادئ ويدفعه النسيم المواتي إلى الاتجاه الصحيح ، ولكنه على استعداد لأن يكيف نفسه لكل ما يجد من ظروف وأن يستعد لها ، وقد يدير أشرعته في اتجاهها واضعاً نصب عينيه الوصول إلى بره في أمان . وكثيراً ما يستعمل لفظ Navigare استعمالا مجازيًّا بمعنى ينشر المرء الشراع ويوجهه مسيرته وفقاً للرياح السياسية السائدة ، مدركاً أن تغييرها أمر فوق طاقته . ومن الطريف أن نذكر أنه حين سأل موسوليني الممثل الكوميدي الصقلي جوفني موسكو Giovanni Musco عما إذا كان فاشياً أجابه هذا قائلا : « إنني ملاح » Marinaio sugno وهي عبارة ذات معنى خفي .

* * *

والإيطاليون فى غنى عن قراءة جويتشارديني الذى لا يطلع عليه سوى القلة ، ذلك أنهم تعلموا منذ زمن طويل أن يحذروا من تلقاء أنفسهم من مظهرهم ، وتدربوا على أن يكونوا رزينين متبصرين واقعيين فى كل الظروف ، وهم ينصرفون إلى شئونهم ، ويتصرفون بحذر وحيطة بل بشراسة ، ويميلون إلى الشك حيث يأبون أن تخدعهم المظاهر المضللة والكلمات المعسولة ، ولا يرتضون أن تجرفهم العواطف ، بل إنهم يضبطونها ؛ وليس معنى هذا أنهم شعب بارد ، فهم كأى شعب آخر ينعمون بعواطف صادقة منطلقة حين لا يكون فى إظهارها خطر ما ، ولكنهم يدركون أن التعبير الحر عن العواطف الصادقة ترف تختص به فئات معينة ، وكثيراً ما يكون ترفاً خطراً غالى الثمن ؛ فالقديسون والأبطال والشعراء والموسرون والأجانب والمخبولون والمعدمون الذين ليس لديهم شيء يفقدونه أولئك وحدهم الذين يمكن أن تجرفهم عواطفهم ، أما عامة الناس فعليهم عادة أن يختاروا بين التعبير المطلق عن عواطف مزيفة والتعبير المقيد عن العواطف الصادقة . وعلى الرغم من أن الإيطاليين نسوا من أمثلتهم القديمة مثلا اقتبسه لورد شسترفيلد Chesterfield فى رسائله لابنه فإنهم لا يزالون يطبقونه ، ذلك أنهم يحتفظون بسيماء طلقة وأفكار مغلقة volto sciolto e pensiero stretto للأسباب نفسها التى جعلت واجهات بيوتهم فى كثير من الأحوال بهيجة جذابة أما أبوابها الخارجية فهى مغلقة دائماً .

ويتمنى الإيطاليون كأى شعب آخر أن يكون العالم مختلفاً ، فيكون نعيماً يعيش فيه الحمل والذئب معاً فى أمان ، ويستطيع فيه كل إنسان أن يكتب ما يدور فى ذهنه ، ويكون جميع الناس إخوة ، ولكنهم يدركون أن أولئك الذين يخدعون أنفسهم لابد أن يلقوا نهاية سيئة ، وهم يدركون أن الدنيا مكان بشع لا رحمة فيه ، فيكيفون أنفسهم مع قوانينها المقدسة بدون تبادل الاتهامات العقيمة ،

ويدبرون أمورهم وفق أقصى ما يستطيعون مهما كان حالها كما يفعل الجند الرابضون فى مخفر أمامى منعزل يطوقه العدو ، فهم يتذمرون ويتجنبون الأخطار غير الضرورية ، ويجعلون مخابئهم مريحة ، ويزينونها بالصور والأزهار معللين أنفسهم بأمل النجاة ، ولكنهم مستعدون للموت .

ولا يجد عزاء فى الثورة الفعلية سوى قلة من الإيطاليين ، وليست الرغبة عامة بين أعضاء الحزب الشيوعى الكثيرى العدد فى إشعال ثورة . إن غالبيتهم تريد التمتع بما للثوار من مركز ممتاز فى مجتمع رأسمالى يساوره الخوف ، أما أولئك القلائل الذين يريدون إقامة دولة ماركسية فإنهم يدركون فى أسى أن ثورتهم ، كما أوضح جويتشارديني ، لن تخفف ما فى الحياة من مظالم أساسية. ومهما يكن من شيء فإن الثورة على حد رأيه لن توصل المرء إلى شيء بل إنها تنتزعه من ظلمة آمنة مجهولة ، وتجعل حياته شاقة دون مبرر ، وإنها فى أحسن الأحوال ، وفى الظروف النادرة التى تنجح فيها ، سوف تحسن حال حفدة حفدائه ، ولكنها لن تحسن أبداً من حاله هو . ومن ثم كان كثيرون — من المتمردين والثوار الإيطاليين — ولا يزالون أفضل الرجال وأكثر إنكاراً لذواتهم وأهلا لقدر أكبر من الإعجاب من نظرائهم الآخرين ، والواقع أن معظم الإيطاليين يعتقدون أن حياة الإنسان Condition Humaine هى حكم مجرد من الغفران والعفو ، وأن الخطيئة الأصلية لا يمكن محوها ، وأن الإنسان لا يستطيع أن يغير قدره ، وأنه عليه فى نهاية الأمر أن يدفع ثمن كل ما قد يكسبه من راحة بما يقاسيه من متاعب أخرى أشد وأنكى .

ولهذه الأسباب كلها ينزع الإيطاليون إلى أن يكونوا واقعيين لا يسمحون أبداً لخيالهم أن يشرد بعيداً ، ويشغلون بالهم بالمشاكل والمواقف الملموسة وبالناس

كما هم والأشياء كما هى ، ويقبلون على لذات الحواس واللذات المادية الأخرى التى يمكن أن توفرها الثروة والسلطة حينما يستطيعون ذلك . والقاعدة أو الوصية الأساسية التى يحرصون على تطبيقها فى دقة بالغة هى ألا يكون المرء ساذجاً يستغفله غيره Non farsi far fesso ، فإن أكبر عار يلحق المرء هو أن يكون مغفلا ساذجاً (Fesso) يصدق كل شيء ، وهذه خطيئة كبرى لا يجوز أن تكون موضعاً للحديث . والمغفل (Fesso) هو الذى تخونه زوجته ، ويشترى سلعاً مزيفة ، ويسقط فريسة الخداع والمكايد ، ويقبل مرة بعد أخرى دعوة الماكر الشرير . ونذكر عرضاً أيضاً أن المغفل هو الذى يطيع القوانين ، ويسدد ما عليه من الضرائب ، ويصدق ما يقرؤه فى الصحف ، ويفى بوعوده ؛ وبوجه عام يؤدى واجبه . ولحسن الحظ لا يزال هناك فى إيطاليا عدد كاف من المغفلين يعيش معظمهم فى جزئها الشمالى ، وهكذا يساهمون بقسط وافر فى إنعاش وطنهم . ومن المحتمل أنه لولا وجودهم لتوقف كل شيء . ولكنهم برغم ذلك لا يلقون تقديراً أو ثناء إلا من فئة قليلة ؛ ومن ثم فإن عددهم آخذ فى التناقص ، ولا يعرف أحد ماذا يحدث حين يختفون تماماً .

وسرعان ما يلحظ أى فرد ــ حتى ذلك الذى ليس له سوى دراية سطحية بالحياة الإيطالية ــ هذا الانشغال الشديد بالواقع المجسم المحدد المحسوس ، فيمكنه ملاحظته فى القرارات السياسية اليومية الغامضة ، وفى الأسلوب الماكر الذى تدار به مفاوضات عمل من الأعمال ، كما يمكن المرء التثبت منه باستراق السمع على الحديث الذى يدور حول مائدة قريبة منه فى مقهى من المقاهى أو فى مقطورة القطار أو فى أية حجرة للانتظار . ويتحدث الإيطاليون عادة عن الموضوعات التى يتحدث عنها غيرهم : عن الطعام والمال والجنس والعمل والثياب والمظاهر

والملاهى ، والوسائل التى يقى بها المرء نفسه من مكايد خصومه ، ومن صرامة القوانين . أما الشباب الغض فهم وحدهم الذين يتحدثون عن الفن والفضيلة والعدالة ، والآمال والحرية والمثل العليا ، ويكون التركيز دائماً على الواقع المجسم ، وعلى الجانب المادى المؤيد بتفاصيل دقيقة وفيرة ، فالناس الذين يصفونهم قلما يكونون أطهاراً أفاضل نزيهين كراماً ، وقصص الغرام التى يروونها قلما تكون طاهرة عفيفة ، وهكذا يصبون مختلف الاتهامات على من يتكلمون عنهم سواء كانوا أحياء أو شخصيات تاريخية انتقلوا إلى الدار الآخرة ، فينسبون إليهم كل أنواع الجرائم والشذوذ الجنسى والزنى وإغواء الفتيات القاصرات والرشوة والمحسوبية والخيانة والجبن ونهب الأموال العامة أو الغباء وهو أحط الرذائل كلها . ويتساءلون فيما بينهم عن سر تعيين شخص معين فى منصب معين ، ويستبعدون من ذهنهم أن يكون هذا التعيين قد تم لأن الشخص قادر على أن يقوم ببعض مهام منصبه ، ويطربهم أن يعتقدوا أنه إنما عين فى هذا المنصب لأنه شقيق زوجة شخصية هامة ، أو لأنه عثر على وثائق تشين الشخص الذى عينه ، أو لأنه ينتمى إلى جمعية سرية كبيرة ، أو لأنه تقرب إلى محظية رجل من أصحاب النفوذ .

ونذكر على سبيل المثال أنه بعد الحرب العالمية الثانية حاول كل إيطالى أن يقدح زناد فكره ليجد إجابة ملائمة عن المشكلة التى حيرت الإيطاليين ، ألا وهى السر وراء إغداق الولايات المتحدة الأمريكية بلايين الدولارات على إيطاليا . لقد آمن الشيوعيون أن هذا الإغداق هو جزء من خطة رئيسية هدفها تجويع العمال الإيطاليين الكادحين واستعبادهم وهلاكهم . وعجز غير الشيوعيين عن أن يحسموا أمورهم . ترى هل كان الأمريكيون مخبولين ؟ وبحثت تفسيرات محتملة كثيرة ثم استبعدت ؛ وفى نهاية الأمر تساءل معظم الإيطاليين : « ترى لماذا يعمل الأمريكيون

– وهم المنتصرون فى الحرب – على تنمية ثروتنا نحن الذين هزمنا وخسرناها ؟ لابد أن لهم أسبابهم الخاصة ، ومهما كانت هذه الأسباب فلا شك أن الأمريكيين إنما يخدمون مصالحهم الخاصة ، وبناء على ذلك فليس هناك ما يدعو إلى أن نشكر لهم صنيعهم » . أجل ، هناك جزء كبير من الحقيقة لا يدركه الإيطاليون ، نعم ، هناك أمور كثيرة لا يرونها بسبب امتداد بصرهم إلى حد أكثر مما ينبغى .

* * *

حدث منذ سنوات قليلة مضت أن استأجرت أسرة إنجليزية داراً صغيرة على مقربة من فلورنسا ، وكانت هذه الأسرة تعيش على دخل بسيط ، ولا أطماع لها ، واتسمت حياتها بالهدوء ، فكان الأب عالماً عكف على القراءة والكتابة ، فألف كتاباً ضخماً ؛ على حين انصرفت الزوجة إلى تربية طفليها وغرس حديقتها وكتابة مخطوطة زوجها على الآلة الكاتبة . وقد ظلت فلورنسا وتلالها المحيطة بها مأوى لأمثال هذه الأسرة من الإنجليز السكسون الذين أولعوا بالدراسة ، وتميزوا بالأخلاق الفاضلة ، ووجدوا الحياة فى بلدهم مضنية مرهقة . وهكذا استقرت هذه الأسرة فى هذه البقعة ، وعاشت حياة هادئة مريحة ، وافتتن أفرادها بالمناظر الطبيعية حولهم ، وأحبوا الفلاحين Contadini السليمى الطوية وأغرموا بالمشى مسافات طويلة فى الريف ، وكانوا جد سعداء .

وقامت بمساعدتهم فى أعمال البيت خادمة إيطالية تدعى ألفيرا Elvira ، وهى فتاة فلاحة ساذجة عاملوها كأنها واحدة منهم ، فعلموها القراءة والكتابة ، وعودوها أن تنظف أسنانها بالفرشاة مرتين يومياً . وبعد أن قضت فى خدمتهم بضعة أشهر لاحظوا أن بطنها بدأت تنتفخ على نحو واضح ، حتى حل يوم لم يعد فى وسع الفتاة أن تؤجل اعترافها لهم بما دار فى رءوسهم فعلا ، فأخبرتهم أنها تنتظر

مولوداً ، وراحت تجهش بالبكاء وتشد شعرها ، وتعلن لهم أنها غير جديرة بالثقة التى وضعوها فيها ، وأن لهم كل الحق فى طردها من خدمتهم ؛ وأضافت أنها تتمنى أن تموت ، وأنها ستموت على أية حال ، فليس لها مأوى آخر تلجأ إليه ، وسوف يقتلها أبوها إذا كشف أمرها . وقالت إن عشيقها الذى تسبب فى نكبتها هذه قد هاجر منذ أشهر مضت ، وأنها عجزت عن أن تهتدى إليه ، ولم تعد أمامها وسيلة ما لإعادته إليها كى يتزوجها .

وقام الإنجليزى رب الأسرة بالتخفيف عنها قدر ما يستطيع ، وضمتها زوجته بين ذراعيها ، وعانقها الطفلان . وأكد لها الزوجان أنه وفق آرائهما المتقدمة المستنيرة ليس هناك ما يستوجب العار لأم لم تتزوج ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون سوء حظ أصابها ، وأنها ليست أول ولا آخر فتاة ينزل بها هذا الحادث ، وطيبا خاطرها ، ونصحاها بألا تنزعج وألا تقلق ، لأن القلق سوف يضر بصحتها ، وتعهدا لها بأنهما من الآن فصاعداً سوف يتوليان كل شىء ، فتظل معهما فى البيت ، وتقوم بأية أعمال خفيفة تستطيعها ، وتعنى بصحتها . وفى نهاية الأمر سوف يولد الطفل فى مستشفى راق فى فلورنسا ، وسوف يدفعان كل النفقات المطلوبة ، ثم تعود إلى دارها لتعيش هى وطفلها معهما إلى الأبد . وتكرم الزوج فاقترح أنه هو وزوجته سوف يكونان والد الطفل وأمه عند تعميده إذا لم يحل دون ذلك اختلاف مذهبهما الدينى عن مذهبها الكاثوليكى . فجففت الخادمة دموعها وابتسمت .

ولما عادت الفتاة إلى البيت ومعها طفلها قام رب الأسرة بدعوة أبيها وأخبره بما حدث ، وأكد له أن كل شىء تم على ما يرام ، وأنه ليس هناك ما يدعو إلى لوم الفتاة . ثم دعاه وجميع أعضاء أسرته لحضور حفل تعميد الطفل . وبعد أن فرغ العالم الإنجليزى من حديثه القصير نظر فى رقة إلى الفلاح العجوز ، نظر

إليه وقد ملأه شعور الارتياح ، لأنه أظهر استعداده للتخفيف من أحزان غيره بوسائله المتواضعة ، ولأنه على استعداد لأن يوفر الطمأنينة والسعادة لإلفيرا وطفلها ، كما شعر بشيء من الاعتزاز لأنه أظهر لهذا الفلاح التوسكانى الساذج كيف يستطيع الإنجليز أن يكونوا كراماً متمدينين فى مثل هذه الظروف ، لعل هذا الدرس لا يضيع سدى فيكون مثلا يحتذى فى الحالات المثيلة فى المستقبل ، وبذلك يغير العادات المحلية البدائية الجافة .

ولكن الفلاح العجوز بدا متجهم الوجه ، فقد ساورته الشكوك وهو يصغى إلى كلمات هذا الرجل الأجنبي الغريب اللهجة ، وهز رأسه دون أن ينبس ببنت شفة . إنه بطبيعة الحال لم يصدق تلك الأساطير التى قصها عليه رب الأسرة ، وراح يفكر : ترى ما السر فى أن هذا الإنجليزى الذى يبدو ثرياً ومن أسرة راقية يريد أن يتولى نتائج هذا العمل المشين الذى أتته البغى إلفيرا ، التى من الخير لها أن تموت من أن تعيش فتدنس شرف العائلة ، وهو أمر يؤمن به كل فرد يعرف أى شيء عن الحياة ؟ ترى لماذا إذن لم يطردها هذا الإنجليزى من بيته .؟ ولماذا صرف من أجلها كل هذه النفقات من أجور الأطباء البارعين وأجر غرفة فى مستشفى باهظ التكاليف ، وثمن ما لزمها من طعام فاخر وما احتاج إليه طفلها من مساحيق ولفائف ؟ ولماذا أراد هذا الإنجليزى أن يستمر فى إنفاقه على إلفيرا ؟ ولماذا أبدى رغبة فى أن يكون والد عمادة الطفل ؟ وأخيراً وفوق كل شيء لماذا أضاع وقته فى إبلاغه هذا الهراء الواضح ؟

واعتقد الفلاح العجوز أنه ليس هناك سوى تفسير صحيح واحد فى وسع أى فرد أن يستنتجه . ذلك أن الإنجليزى هو أب الطفل المولود . ولعل إلفيرا هى التى أغوته لأنها قادرة تماماً على ذلك . يا لها من مومس وقحة ! أو لعل الإنجليزى

هو الذى استخدم إلفيرا ليتخذها خليلة له . ويمكن أن يعذره المرء بل أن يرفق بحاله حين يلقى نظرة على زوجته الإنجليزية الهزيلة . واعتقد الفلاح العجوز أن هذه الزوجة لا بد أن تكون بالغة الغباء والفجر حتى إنها أبدت استعدادها لأن تكون أم العمادة لطفل زوجها غـــير الشرعى ثمرة علاقته الأثيمة ، ورأى أساليب الأجانب غامضة محيرة ، ثم انتهى فى تفكيره إلى أن ما حدث قد حدث ، وأن عليه الآن أن يقوم بما يجب عليه ، فنكس رأسه فى جفاء وانصرف .

وفى اليوم التالى بدأت تتقاطر على بيت الإنجليزى المسكين سلسلة من الأوراق الرسمية تبين من نثرها الرنان أن الأب الفلاح يطالب الإنجليزى بدفع مبالغ كبيرة تعويضاً عما أصابه من أضرار ، وتهدئة لمشاعر الأسرة الملتهبة ، وتكفيراً عما لحقها من سوء السمعة والعار ، ثم مبالغ تكفل العيش للطفل وأمه وتسدد أجور المحامين ورسوم المحاكم . واضح من كل ذلك أن أسرة إلفيرا رأت أنها اكتسبت الحق فى أن تعيش حياة هانئة مريحة منذ ذلك اليوم فصاعداً مستغلة ما نزل بابنتها المسكينة من محنة وعار . وترك الإنجليزى القضية كلها فى أيدى المحامين ، وأخلى الدار ، وطرد الخادمة ، ورحل مسرعاً مصطحباً زوجه وطفليه .

* * *

إن هذه السمات التى نلحظها فى ميل الإيطاليين الواضح إلى ما هو مجسم وبشرى ومدرك ومجز ، وهذا الشك الدائم فى كل ما هو شريف وروحى وشهم ، وهذا الخوف المستمر من الأشراك العاطفية ، وهذا التركيز على المصلحة الشخصية وإغفال المصلحة العامة ، وهذا الاعتقاد الراسخ بأن كل الأمور مهما كانت جذابة مغرية سوف تنتهى نهاية سيئة . . . نقول إن هذه كلها هى سمات تميزت بها الحياة الإيطالية منذ زمن عريق فى القدم . هى احتياطات ووسائل ذهنية

تقبلها دون وعى جميع الإيطاليين تقريباً ، وطوروها كى تساعدهم على شق طريقهم فى الحياة بدون أن يلحقهم أذى . بيد أن كثيرين من العلماء الأجانب الذين أبدت لهم وجودها أمثلة وفيرة من أدب القرون الماضية وفنها ، انتهوا إلى أنها لم تكن وسائل بل سمات خالدة فى الشعب الإيطالى وجزءاً لا يتجزأ من طبيعته نفسها . مثل ذلك أن الكاتب الأريب أدنجتن سيموندس John Addington Symonds خصص لهذا الرأى عبارات بليغة عديدة فى مؤلفه « النهضة فى إيطاليا Renaissance in Italy » منها قوله : « حينما نتهم الإيطاليين بأنهم قوم يعوزهم أسمى أنواع الخيال المأساوى ، أو أن إحساسهم نحو الطبيعة تعوزه العاطفة الرومانتيكية ، أو أن فنهم لا يبلغ السمو إلا فى أندر أعمالهم ، فإننا بذلك إنما نؤكد نزعتهم الواقعية التى جعلتهم يميلون إلى الأشياء المحسوسة الملموسة وكل ما خبرته الحواس وأدركته . . . إن الواقعية ، أى تفضيل المحسوس الملموس على الوهمى والمجرد ، والمحدد على الغامض ، والحسى على الخيالى . . . إن هذه الواقعية تحدد طبيعة عبقريتهم فى كل مظاهرها » .

ومن الغريب أن الكاتب نورمان دوجلاس اعتقد أيضاً أن الإيطاليين شغلوا بالمسائل العملية وغرقوا فيها حتى أصبحوا غافلين بخاصة عن جمال بلادهم ، فقال فى كتابه « الأرض الفاتنة » Siren Land وهو يتحدث عن كابرى والشاطئ القريب منها : « هناك فى تلك البقاع ترى للأرض والسماء والبحر درجات من الألوان المدهشة ، وترى غروب الشمس بأشعتها الباهرة المتوهجة ، وتألق ضياء القمر على نطاق واسع مثير وهو ينتشر فوق قمم التلال أو يسبح فى اعتزاز عبر الأثير ، وترى الأخاديد الكهرمانية اللون حيث ترقد الظلال أيام يونية المتلألئة ، وكروم الصيف الوفيرة متدلية بفروعها الخضراء فوق أشجار الزيتون والدردار والتين ، وتموجات أزهار البنفسج المتوهجة ترفرف فوق الحجر الجيرى الذى تلسعه

أشعة الشمس ، وسحائب غمام البحر وهى ترتفع فى جلال بين الشقوق الرطبة المبتلة ، والومضات الكبريتية لفجر تهب فيه رياح الشيروكو حين تتوقف مراكب الصيد وتبدو كأنها أشباح ناضلة شاحبة فى الأفق . أجل ، هناك آلاف من أمثال هذه المناظر الرائعة الممتعة ، ولكن أهالى البلاد لا يرونها ، وإن تظاهروا أحياناً برؤيتها إرضاء للزائرين الأجانب ... إن تلافيف العضلات حول كتفى شاب ما ، وهو يجهد نفسه لرفع كتلة ثقيلة من الحجر الجيرى والفتاة الشابة التى يبشر شكلها المنتفخ بأمومة خصبة ، وتموج حقل القمح ، ووابل من المطر فى شهر مايو ، وصحن من السمان المكتنز المشوى . . . كل ذلك جميل شرعاً ؛ ولكن الجبال مجرد عوائق للزراعة ، أو قل نتوءات بشعة فوق سطح الأرض الجميل ، أما المغارات المنتثرة فى الأرض فإنها مفيدة لخزن العلف الجاف على حين أن كهوف البحر الخضراء والزرقاء نافعة لإيواء القوارب فى أوقات المطر ، أما البحر نفسه بكل تناسقه الموسيقى فما هو إلا مجرد مكان يصاد منه السمك » .

* * *

وهذا التعلق بكل ما هو مجسم ومادى وواقعى واضح بنوع خاص فى القصص القديمة Novelle بوصفها خير نتاج الأدب الإيطالى ومنبع الحكايات التى استغلها شيكسبير وغيره من شعراء الشمال لحبكات رواياتهم ، وهناك آلاف منها . وجدير بالذكر أن لفظ Novella الإيطالى هو نفسه شىء ملموس ، فليس معناه حكاية أو قصة من الخيال أو ابتكار شاعرى ، بل يعنى أخباراً ، أو قل أخباراً واقعية ، لأنها تروى أحداثاً وقعت فعلا ، ونوادر حدثت فى حياة أصحاب الجاه والثروة والنفوذ وغيرهم من المشاهير ، ومعلومات وصلت من أماكن نائية . ومن ثم حق للكتاب الأجانب أن يقتبسوا منها أفكاراً لمسرحياتهم وقصائدهم على غرار ما يفعله

المؤلفون المعاصرون حين يقتبسون حبكات أعمالهم ، مما يرد فى الصحف من أخبار .
ولا تجرى أحداث القصص الإيطالية القديمة Novelle فى جو غامض أسطورى بين ناس وهميين خياليين وفرسان أفاضل وعذارى طاهرات تدفعهم جميعاً حوافز نبيلة على غرار ما جاء فى الحكايات التى كتبت فى الفترة نفسها تقريباً — أواخر العصور الوسطى — فى سائر أنحاء أوربا الإقطاعية ، وإنما عالجت القصص الإيطالية القديمة ناساً حقيقيين : تجاراً ورهباناً وحرفيين وأصحاب حوانيت وأمراء ، أى بشراً لهم لحم ودم وميول سليمة ، ويتكلمون اللهجات السريعة الحيوية النغمة التى نسمعها فى السوق وفى حانوت النبيذ .

ولم يكن الدرس الذى خرج به قارئ هذه القصص الإيطالية القديمة يعنى تهذيبه وتقويم أخلاقه ، فإنه لم يتعلم منها أن يتجنب الخطيئة ويصارع الشر ويحمى الضعيف ويضبط غرائزه الدنيئة ويحترم فضائل الآخرين ويصلح الدنيا ويهيئ نفسه للخلاص فى الحياة الآخرة ، بل تعلم منها أساساً أن يقى نفسه من خداع الآخرين وخيانتهم وغطرستهم ومكرهم ، وأن يفيد من مواطن الضعف فيهم ، وأن يتبين نفاقهم ويتمتع بما فى الحياة من طيبات : الغانيات الممتلئات حيوية ، والعذارى المتوردات الخجلات ، والطعام الشهى ، والنبيذ الجيد ، والرفاق المرحين ، والمعارك الظافرة ضد الأعداء الأضعف ، كما تعلم من تلك القصص الإيطالية القديمة أنه لا مناص من تقبل ما فى الدنيا من أساليب قاسية صارمة بوصفها غير قابلة للتغيير ، وقلما تكون موضعاً للبحث ؛ ثم نجد فى القصص نفسها أن أولئك المساكين الذين تعوزهم الشجاعة ، والسذج الذين يسهل خداعهم ، والزوج الذى تخونه زوجه ، هم جميعاً مغفلون Fessi محتقرون . أما المفعمون بالحيوية الأقوياء المهرة الذين يستغلون مواهبهم دون أن تنتابهم الوساوس أو التسامح فى الحكم

على الناس وأفعالهم ، فهم دائماً الفائزون الذين يصلون إلى القمة ، وهم موضع إعجاب المؤلف والقارئ معاً واستحسانهما . وقد حوت تلك القصص عدداً قليلا فقط من الأمراء اتسموا بالشهامة والكرم ، أما سائر أشخاصها فقد عاشوا وفازوا أو خسروا طبقاً لالتزامهم الصارم بقواعد اللعبة التى فهمها الإيطاليون إذ ذاك ولا يزالون يفهمونها حتى اليوم ، وهى لا تزال على ما كانت عليه تقريباً .

وعلى مر الزمن ودون انقطاع خلق الإيطاليون أعمالا فنية كرست أساساً لإطراء الأقوياء وذوى النفوذ ، واحتقار الضعفاء المخفقين أو لتمجيد الجسد ونواحى الجمال المتناغمة بجسم الأنثى العارى . وكانت بعض هذه الأعمال الفنية فظة ، بذيئة دنسة ، وبعضها الآخر مستترة نوعاً ما وتلميحية . بل حين حاول هؤلاء الفنانون معالجة موضوعات أسمى وأنبل ، لم يكن هناك مناص من أن تبرز ميولهم الحقيقية ، فى كثير من صورهم للعذراء يمكن أن يلحظ المرء الغبطة التى وجدها المصور فى النظرة النضرة لفلاحة جميلة أكثر مما يلحظ تقواه . ونذكر بهذه المناسبة أن صور العذراء التى رسمها رافاييل تعكس صورة خليلته الشهوانية ابنة الخباز La Farnarina التى كانت شهوتها الجامحة سبباً من أسباب موته المبكر ، وفى القصائد العظيمة الأكثر طموحاً والتى تعالج موضوعات دينية وبطولية نجد التعبير عن العواطف النبيلة حلواً تقليديًّا واللغة طنانة والأفكار مبتدعة وأدبية ، ولا يكون الشعراء منطلقين متمتعين إلا حين يصفون شراسة معركة ما ، والأشياء الملموسة والزنادقة الأشرار ومباهج الدنيا ، ويشعر مؤلفون كثيرون بقدر أكبر من الراحة فى كثير من كتاباتهم الماجنة الساخرة التى كتبوها عن القصائد النبيلة الملهمة السائدة فى أوربا .

كذلك أولع الإيطاليون بتأليف مسرحيات هزلية ساخرة عن الدسائس

والخداع مقتفين بدقة النماذج الرومانية القديمة الفظة التى لم يمكن إخراجها دون حذف أجزاء منها حتى يومنا هذا . وقد ألف نيقولا ماكيافلى أحسن هذه المسرحيات، وفيها يسخر من رجال الكنيسة والتقاليد البورجوازية والأزواج الغُيُرُ وعفة النساء . وإنه لأمر غريب أن يضيع هذا المؤرخ الكبير والمفكر السياسى وقته فى كتابة مسرحيات ماجنة بذيئة ، ولكن تفسير ذلك ليس متعذراً كما يبدو ، فقد وقف، كثيرون من مشاهير رجال عصره من أساقفة كبار وساسة محنكين وعلماء . . . وقفوا وقت فراغهم لنظم القصائد الفاحشة باللغة اللاتينية أو الإيطالية . ثم إن مسرحيات ماكيافلى ليست بعيدة أخلاقياً كما يتصور المرء عن كتبه الخالدة : « تعليقات على مجلدات ليفى Commentaries on the Decades of Livy » و « الأمير The Prince » ، وكلها جاء إلهامها من الإخفاق والخيبة والمرارة ؛ إخفاق خاص هو إخفاق رجل بالغ المهارة لم يوفق قط فى أن يصبح خطير الشأن ، وإخفاق عام هو إخفاق أمة بالغة المهارة والحضارة هى أمته التى لم تحقق قط الوحدة والنظام اللازمين لهزيمة الغزاة الأجانب الجهلاء .

تحدّى ماكيافلى فى كتبه السياسية ، ولأغراض عملية ، صلاحية الحوافز النبيلة النزيهة فى إدارة شئون الدولة ، كما تحدى فى مسرحياته الهزلية صلاحية نفس تلك الحوافز فى تدبير المرء لشئونه الخاصة ؛ وكان فى كلا الميدانين حذراً كسائر الإيطاليين الحاذقين ، لقد ارتعد مخافة أن يخدع ويستغل ويقاد إلى استنتاجات خاطئة ونهاية سيئة بالتزام المثل العليا النبيلة ، وأحس بأنه أكثر طمأنينة وأمناً باعتقاده أن أسوأ ما يتوقعه المرء يحدث دائماً La pire est toujours certain أو كما كان يمكن أن يقول فى عبارة توسكانية سليمة : « إن أشر الأمور لا يفنى أبداً il peggio non è mai morto » فآثر أن يأخذ كقضية مسلمة أن جميع الحكام

قساة ماكرون عديمو الرحمة ، وأن جميع القساوسة والرهبان فاسقون داعرون نهمون جشعون ، وأن جميع النساء عاهرات . واعتبر أنه فى أغلب آرائه كان مخطئاً فى مرات قليلة جداً فقط وأنه لم يكن مخطئاً دواماً .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر إلى آخر القرن التاسع عشر وقف الكتاب الإيطاليون قرائحهم لما هو أسمى من وصف الملذ الدنيوية وأنشطة رجال ونساء تكيفوا فى سهولة ويسر مع أسوأ ما فى الدنيا . وظهر فى آخر الأمر بعض مؤلفين آمنوا بأنه فى وسع الإيطاليين أن يثوروا على نصيبهم المذل المهين ، وأن يصلحوا عيوبهم القومية ويعملوا على تحسين سلوكهم وتصرفاتهم الأخلاقية والمادية ، فراح هؤلاء الشعراء والقصصيون يمجدون القيم الروحية والقصيدة الدينية والمثل العليا السادية ، وشادوا بالوطنية والخلق المتين والشجاعة والأمانة والعدالة والصدق ، وتكهن بعضهم ببعث فضائل الشعب القومية القديمة وإحياء إيطاليا روحياً ، فاقترنت قصائدهم الرنانة وقصصهم التاريخية وموسيقى فيردى Verdi البطولية بثورة أخلاقية وسياسية وعسكرية واسعة النطاق . . . تلك هى ثورة حركة البعث Risorgimento وتحقيق الاستقلال والوحدة الوطنية .

ولكن بنهاية القرن الماضى وبداية القرن الجديد ، وبعد أن زال دخان المعركة ، بدأ الإيطاليون يكتشفون أنهم تقريباً لم يتغيروا عما كانوا عليه دائماً من قبل ، وأن أولئك الذين آمنوا حقاً بحركة البعث كانوا أقلية صغيرة ، وبدأت السمات القديمة تؤكد نفسها من جديد ، وبدأت النظرة القديمة تعود إلى الظهور فى الكتب ؛ فقد عاد الكتاب إلى قصر ثقتهم على ما يمكن الحس به وقياسه ، وهكذا وصف القصصى الصقلى جوفنى فرجا Giovanni Verga جشع الفلاحين وصيادى السمك وبخلهم الشديد وهم يكدون لجمع الثروة La roba حتى يصبحوا

من طبقة البورجوازية فى الدولة الليبرالية الجديدة ، ولم تعد الوطنية فى نظر دانتزيو D'Annunzio عاطفة يافعة طاهرة بل مسوغاً لمغامرات دموية منمقة ومنحطة ، وآمن قبل كل شيء بكل أنواع الملاذ الجسدية : الإحساس بحصان يلهث وهو يعدو بسرعة بين ركبتيه ، سباحة فى البحر وقت الفجر ، الروائح العطرية النادرة ، قتل الأعداء فى الحرب ، أجساد النساء ومفاتنها التى لا حد لها . وقد بقى التقليد القديم واستمر ، فاهتم عدد من مشاهير الكتاب الإيطاليين المعاصرين — كما فعل أسلافهم — بنواحى الحياة الواقعية (يلاحظ الشيء نفسه فى بعض الأفلام السينمائية الممتازة التى هى من وحيهم إلى حد ما) ، وأظهروا الشك القديم المألوف فيما هو مثالى ونبيل ، ووصف بعضهم ملاذ الجنس والطمع والطموح بالأسلوب القديم ، بل استخدموا أحياناً عبارات جريئة لم تعرف حتى فى عصر النهضة .

ومع ذلك حين تتأمل فى أعمال فنية معاصرة أخرى ، فسوف تدفعك إلى الاعتقاد بأنه لأول مرة لم يعد الإيطاليون على ما كانوا عليه دائماً من قبل ، نذكر من هذه الأعمال القصص الطليعية الرخيصة ، والصور المروعة ، والأفلام السينمائية المحزنة ، والقصائد الكئيبة تلك التى يعجب بها خير النقاد . إن الخوف القديم من الوقوع فى أشراك الخداع والمكايد أصبح اليوم هاجساً يساور الإيطاليين ، ووصل البحث عن الحقائق التى لن تضلل إنسانا — أو قل الحقائق البسيطة إذا اقتضى الأمر — وصل إلى طريق مسدود ، فالواضح أنه لم يبق للمرء شيء يذكر يؤمن به . لم يعد هناك ما كان قائماً بالأمس من مثل عليا وحب الوطن كما صوره الفاشيون ، والاعتزاز بالشرف والأمانة والأخلاق الكريمة والاستقامة ، تلك الصفات التى يستخف بها العرف الحالى . ولم يعد هناك أمل فى مستقبل أفضل يمكن أن يعلل الشيوعيون أنفسهم به حتى لو أرادوا ذلك . نعم ، لم يعد هناك شيء ، لأن آخر مأوى لكل

إيطالى أعنى مصلحته الشخصية الخالصة وسعيه وراء الأشياء الملموسة المحدودة ، قد وصم لأول مرة . بل يبدو أن هؤلاء الإيطاليين الجدد لا يؤمنون حتى بالحقيقة الإيطالية الجوهرية الجازمة ألا وهى : حب الشهوات . والواقع أننا نلاحظ فى بعض أحسن القصص المعاصرة أن الفسق أصبح لأول مرة منذ قرون طويلة لهواً مملا ، بل يكاد يكون لهواً بغيضاً . ومن ثم لم يبق هناك سوى الملل la noia الذى حلله القصصى ألبرتو مورافيا Alberto Moravia بذكاء بالغ ، ولكن عليك بعد هذا كله أن تصغى إلى الناس وهم يتبادلون الحديث فى المقاهى ، ولاحظهم وهم يشترون السمك والفاكهة فى السوق ، وانظر إليهم وهم يستمعون فى طرب مفرط إلى موسيقى صاخبة ، وراقب الكهول وهم يبتسمون لفتاة جميلة فى الشارع . . . سوف يؤكد لك كل ذلك من جديد وعلى الفور أن الإيطاليين لم يتغيروا .

الفصل العاشر

السعى فى الحياة

لنتأمل فى الإيطالى المتعزل ، مهما يكن شأنه ، فى اليوم الذى يدرك فيه أن الأشياء قلما تكون كما تبدو ، وأن الكلمات ليست دائماً كما يرن صداها ، وأن معظم ما تعلمه فى المدرسة وفى الجيش أو ممن هم أكبر منه سناً ، وما قرأه فى كثير من الكتب الخطيرة إن هو إلا هراء خالص ، إنه يدرك فى ذلك اليوم أنه سوف يلحقه الأذى عن يقين إذا هو حاول دون حرص أن يعيش وفق القواعد التى تعلمها ؛ شأن الأعمى الذى يتحسس طريقه فى غرفة رتب أثاثها حيث لا يتوقع أن يكون. أجل ، إن القواعد التى تلقنها قواعد نبيلة ، وربما تكون نافعة فى تنظيم الحياة فى بلاد أخرى مثل تلك البلاد الشمالية التى اشتهرت باستقامتها وحسن نظامها وازدهارها والتى يعتقد الإيطاليون أن القانون نفسه يسرى فيها على الضعفاء والأقوياء على حد سواء ، وأن موظفيها غير قابلين للفساد ، وأن أهلها صادقون أمناء أبرياء لا يخاف بعضهم بعضاً ، وأن دافعى الضرائب يسددون الضرائب عن طيب خاطر ، نعم ، كل الضرائب المستحقة عليهم دون أن يخدعوا الدولة ، وأن الوظائف يعين فيها أفضل الناس ، كما يمنح الأبطال الحقيقيون الأوسمة ، وأن البطاقات التى تلصق على القنينات تتفق تماماً ومحتوياتها ، وأن الأزهار والخضر تنمو دائماً وتكون وفق الصورة الواردة على مظاريف بذورها ؛ وهكذا . . فالحياة فى تلك البلاد الشمالية سهلة هينة على نحو يثير الإعجاب ، أما الحياة فى إيطاليا فلها شأن آخر .

ويجب أن نقر أن لحظة الوحي تحل بكل فرد فعلا لا بالإيطاليين وحدهم حيث يأتي يوم يدرك فيه أبناء جميع الأمم أن الحياة يمكن أن تكون قاسية بشعة ، ولكل أسلوبه للوصول إلى مرحلة النضج ؛ فيحتاج بعض الناس إلى سنوات طويلة على حين يكفي آخرين طارئ بسيط شأنه شأن ما يحدثه هز منظار ضبط الصور من تغيير مفاجئ للصورة . أو قد يوقظ المرء حادث خطير ، فيرى وطنه مهزوماً ذليلا ، ويظهر قواده أشراراً مكروهين أو أغبياء لايعتمد عليهم ، ويكتشف أن بعض المبادئ التي تلقنها على أساس أنها مبادئ أبدية لم تكن سوى كلمات جوفاء ، وأنه هو نفسه لم يكن سوى ألعوبة في يد واقعيين هاذرين لا يثقون بطبيعة البشر.

إن النضال بين ما ينبغي أن يكون وما هو واقع فعلا ، وبين النفاق والصدق ، وبين التظاهر والحقيقة ، هو نضال قائم في كل مكان . ولا تسير الأمور تماماً كما يتصور السذج أو الشباب ، بل هناك وراء الستار في كل العصور وكل البلاد حقيقة مرة تصدم الأبرياء السذج حين يكتشفونها ، تلك هي أن القرارات الخطيرة ليست قط نبيلة تماماً ، وأن كبار الزعماء في الميادين كافة ليسوا على القدر الذي تصوره لنا سيرهم الرسمية من الذكاء والشهامة والعزم وبعد النظر . قال لورد أكتون Acton في رسالة له إلى ماري ابنة جلادستون الصغرى (وقد أدرك أكتون هذه الأمور بوضوح حيث ولد في نابولي وكان حفيداً لرئيس وزراء نابوليتاني) : « إنه من المؤكد اليوم ، كما كان الحال في الماضي ، أن رجال العصرهم في أغلب الأحوال رجال لا مبادئ لهم ، بل يعملون بحافز المصلحة الشخصية أو العاطفة أو الهوى الذي لا ضابط له ، والطمع الشخصي والخوف الذي لا يليق » .

بيد أنه من الممكن في الأوقات العادية للإنسان العادي غير الإيطالي ألا يستيقظ حين لا ينهار البناء كله على رأسه ، وأن يعيش طيلة حياته محاطاً بأوهام

تغريه متعلقاً فى حنان بكل هراء الطفولة العزيز وموقراً المثل العليا السليمة والأبطال الحقيقيين . ولا يحدث لهذا الانسان شيء يذكر ، وقد يتعجب بين حين وحين لماذا يكافأ الطالحون ويجدون أكثر منه ، ولكن لا تثير هذه المسألة فى نفسه مرارة تذكر ، أما فى إيطاليا فليس فى وسع أحد أن يخدع أو يضلل نفسه لأن أحط الأفراد وأقلهم طموحاً سوف يلقى الاحتقار والغبن والغدر إذا هو لم يعرف تماماً كيف يشق طريقه فى الحياة . وكلما رق حاله زاد تعرضه للأذى وزادت حاجته إلى سرعة إدراك القواعد الحقيقية اللازمة للحياة حتى يستطيع مجرد البقاء لا النجاح . ولا يمكنه — إلا بعد أن يتعلمها — أن يجد الحياة بسيطة إنسانية مرضية سهلة مليئة بفرص كثيرة وجزاء أكثر وفاقاً مما توفره الحياة فى كثير من البلاد الأخرى . وبطبيعة الحال ليست هذه القواعد مدونة وإنما توحى بها أمثلة متداولة ، وشعارات مضحكة نجدها أحياناً على طفايات السجائر ، وتلميحات وغمزات العين وحركات الأكتاف ، ولا يمكن للإيطاليين تجنب تعلم هذه القواعد لأنها تلقن بالخوف والذل والخداع والفشل . وكلها أمور يصادفها المرء فى إيطاليا فى مرحلة مبكرة فى حياته وفى مرات أكثر مما يحدث فى بلاد أخرى .

* * *

وبديهى أن أولاد الأحياء الفقيرة المساكين الأميين والأطفال الفقراء فى قرى الجنوب يعرفون كل ما يحتاجون إلى معرفته حتى قبل أن يبدءوا الكلام . فإن لأولئك الذين لا يتعلمون القراءة ذهناً صافيا غير محشو ؛ ليس عليهم أن ينسوا ما ينبغى للآخرين أن يتعلموه . ترى كم يبلغ من العمر أولئك الأولاد الصغار فى نابولى الذين يسرقون الحقائب من السيارات المتروكة ، ويقودون البغايا إلى البحارة الذين يأتون إلى نابولى فى زيارة قصيرة ؟ إنهم ولدوا منحلين . ثم لنذكر ذلك الطفل الذى كان عمره ثمانى سنوات واختطفته عصابة المافيا هو وجده صاحب الأملاك الشاسعة فى

جزيرة صقلية . لقد أدرك هذا الطفل دون أن يخطره أحد أنه يجب عليه ألا يجزع أو يخاف وألا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً ولا يتذكر فيما بعد شيئاً مما حدث له .

ويكتسب كثير من الأولاد فطنتهم من المدرسة . فيتعلمون بسرعة كيف يشقون طريقهم فى سهولة ويسر ، وكيف يتغلبون على منافسيهم ويحتفظون بصداقاتهم فى الوقت نفسه ، وكيف ينجحون فى الامتحانات دون أن يرهقوا أنفسهم . ويعرفون ما يجب عليهم أن يذكروه فى مقالاتهم من أفكار ترضى مدرسيهم . أما خريجو كليات الحقوق فإنهم يتدفقون كل عام ومعهم شهاداتهم التى لا قيمة لها متجهين شمالا إلى ميلانو وتورينو ، ويدركون فن وضع قدمهم فى مكتب صغير عن طريق أقربائهم أو أصدقائهم . ثم يناورون ويتحايلون على شق طريقهم بدهاء للوصول إلى وظيفة أرقى ، والتفوق على منافسيهم ، ويعملون على إرضاء كل من يرأسهم ، وهكذا يزحفون فى صبر ومثابرة من وظيفة متوسطة إلى أخرى أرقى منها حتى يحققوا غرضهم . ويؤلف هؤلاء نصف البيروقراطية الإيطالية ؛ وهكذا ، فبهذه الفنون يصل الجنوبيون الذين نزحوا إلى الشمال شيئاً فشيئاً إلى المناصب الهامة سواء فى ميدان الأعمال أو المؤسسات الصناعية . ومعظمهم أذكياء مفيدون يحسنون أداء أعمالهم ويستحقون تلك المناصب التى ما كانوا ليشغلوها لو أنهم أغفلوا وسائل غزوها .

وهناك استثناءات كثيرة واضحة ، أعنى أولئك الذين يبدون فى غير حاجة إلى فنون التقدم والنجاح ، وهم كبار الفنانين ، والعلماء والباحثون الذين يعيشون بين أفكار مجردة ومسائل نظرية وشخصيات خيالية ، وقليل من الأثرياء الذين ورثوا الثروة والأخلاق الكريمة ، ولكن لا بد حتى لهؤلاء من أن يتعلموا تلك الفنون عاجلا أو آجلا وذلك حين يريدون التقدم فعلا والاحتفاظ بثروتهم وسلطاتهم ومكانتهم أو تنميتها ،

وحين يدافعون عن أنفسهم ضد منافسين حُسَّد أو حين يلتهمهم الطمع ؛ والواقع أن الاستثناءات الحقيقية تشمل شخصيات أخرى . أجل ، هناك رجال قليلون ذوو كيان خلقى متين ، رجال صارمون عنيدون يدبرون أمورهم وحدهم ، ويرفضون أن يعيروا القواعد اهتمامهم ، أو قل أولئك الذين يصنعون قواعدهم الخاصة بهم . فيناضلون بأسلوبهم وحده غير عابئين بأى عداء أو نقد ، ويكسبون أو يخسرون . وقد خسر معظمهم ولا يزالون يخسرون اليوم ، وإن استطاعت قلة فحسب النجاح بطريقة أو أخرى بين حين وحين كما فعل البعض فى الماضى فأولئك هم عظماء إيطاليا الذين قلما يحبهم الإيطاليون وهم أحياء ، ولكنهم يمجدونهم بعد موتهم ، ولا يعتبرون ظرافاً خفيفى الروح Simpatici حيث إنهم يتبعون مبادئهم الصارمة الخاصة بهم وحدهم لا ما جرى عليه العرف .

ومن بين آخر من يتعلمون تلك الفنون طائفة هى أفضل المتعلمين الإيطاليين . ولذلك يمكن اعتبارهم أحياناً أقل إيطالية من مواطنيهم ، وأقل قدرة على إدارك ما يدور حولهم وعلى التكلم باسم بلدهم ، فهم يصدمون عندما يكتشفون إيطاليا . خذ مثلا القائد النابوليتانى الشهير Carlo Filangieri أمير ساتريانو Satriano ودوق توارمينا Taormina الذى ولد سنة ١٧٨٤ ومات سنة ١٨٦٧ ، فقد كان ابن جايتانو فيلا نجيرى Gaetono Filangieri أحد الفلاسفة السياسيين فى القرن الثامن عشر ، وتعلم فى بريتانيه ,Prytanée وهى المدرسة العسكرية الفرنسية حينذاك وخاض ببراعة تحت قيادة نابليون معارك ألم Ulm وماريتزل Marienzell وأسترلتز وبورجوس Burgos ، كما حارب تحت قيادة مورا ملك نابولى، وكان أركان حربه ، ووصل إلى رتبة جنرال فى سنة ١٨١٥ . لم يتحمل هذا المقاتل الشجاع أن يسمع كلمة نابية توجه إلى مواطنيه (حدث أن قتل مرة القائد الفرنسى فرانشيسكى فى مبارزة

لمجرد أن هذا نعت النابوليتانيين بسُبَّة متواضعة ، ومن جهة أخرى أدرك فيلانجيرى Filangieri تماماً ما هية الحياة فى بلده . فترك لابنه العبارة التالية « صدقنى أن كل من له قليل من الشرف وقليل من الدم فى عروقه يدرك أنها مصيبة كبرى أن يكون نابوليتانى المولد » ؛ وقد قصد من صفة النابوليتانى كل من كان من رعايا ملك نابولى ، أى كل إيطالى من الجنوب بصفة عامة .

أو خذ مثلا بارزاً آخر : ما سيِّمو دازيليو Massimo d'Azeglio ، وكان نبيلا Marquis من بيدمنت عنى أهله بتربيته وتثقيفه ، وشب رجلا أميناً مبجلا ذكياً ووطنياً محنكاً ، وأصبح مصوراً ذائع الصيت ، وقصصياً لامعاً وضابطاً ممتازاً فى سلاح الفرسان وأركان حرب الملك ، ثم رئيس وزرائه من سنة ١٨٤٩ إلى سنة ١٨٥٢ ، وتزوج ابنة الكاتب الشهير السندرو مانزونى A. Manzoni ، واشترك فى حركة البعث ، وعرف إيطاليا معرفة وافية . وحين كان لا يزال شاباً زار روما لأول مرة سنة ١٨٢٠ وقابل بها كثيرين من السياح الأجانب منهم سيدات إنجليزيات شهيرات . فكتب يقول فى مؤلفه « مذكراتى » : لقد مارست فى حضرة الأجانب إحساساً بالمذلة بالغ الألم ، فشعرت بأن صداقتهم كانت مصدر مرارة لى لا مصدر رضا وسعادة ، أجل شعرت بالعار لأننى إيطالى ! . . . وبدا لى سلوك الإنجليز البارد . . . وكبرياؤهم الصامتة التى تنم عن الثقة بالنفس والواضحة على سيمائهم . . . بدت لى وكأننى المقصود بها حتى أشعر بحقارتى ، وحتى يدخل فى ذهنى أنه حين تقع أمة فريسة لأى إنسان يستولى عليها ، وتسمح لجميع أنواع الناس من أركان الدنيا الأربعة بالوفود إليها للترفيه عن أنفسهم على غرار ما يفعله صيادو الحيوانات حين ينتقلون إلى أقاليم يكثر فيها الصيد فإن أولئك الذين ينتسبون إلى تلك الأمة يمكن احتمالهم بين الأجانب ، ولكن لا يمكن أبداً اعتبارهم على قدم المساواة معهم » .

إن العبارات التى ذكرها كارلو فيلانجيرى وما سيمو دازيليو خطيرة ، لأنها صدرت عن رجلين عظيمين ، فضلا عن أنها رويت وطبعت ،على حين أن مثل هذه التعليقات كانت عادة مقصورة على التداول فى الاجتماعات الخاصة ، مثال ذلك أن جوفاكينو روسينى Giovacchino Rossini مؤلف « حلاق إشبيلية » اعتاد أن يقول لأصدقائه : إنا نشكر الله لوجود الإسبان، فلولا وجودهم لكان الإيطاليون آخر شعب فى أوربا » .

واضح أن ردود فعل المتعلمين هى أكثر قوة وعنفاً كما أن إحساسهم بالخداع أشد وأعمق ، ونظراً لأنهم يبلغون يوم يقظتهم بعد أن يبلغه زملاؤهم الأميون ، ولأنهم أقدر على التعبير ، فإنهم عادة يستطيعون أن يحددوا ويصوروا أفكارهم على نحو أوضح كثيراً، فهم بادئ ذى بدء يكونون فى ذلك اليوم على علم مسبق بكل ما ينبغى للمرء أن يحيط به فى كل مكان : يعرفون أن الحياة فى أساسها لعبة قاسية لا رحمة فيها ، وأن على المرء أن ينشد حمايته فى المجتمع ، وأن القيود التى تكبح جماح غرائز الإنسان تؤلف جوهر العيش المتحضر ، وأنه بدون هذه الإجراءات الوقائية يكون الإنسان وحيداً فى العالم قدر وحدة الحيوان الضارى ، أو كالفريسة نفسها تنتظر أن تلتهم .

بيد أن هؤلاء المتعلمين يكتشفون كذلك أن جميع المؤسسات الرسمية فى إيطاليا ضعيفة وغير مستقرة ؛ فالقانون مرن لا يعتمد عليه ، والدولة قليلة الاعتبار يسهل لأصحاب النفوذ والجماعات القوية السيطرة عليها ، وليس للمجتمع — بمدلوله فى البلاد الأخرى — تأثير يذكر ؛ ومع ذلك فإن الحياة تجرى حولهم فى أعنتها بطريقة أو بأخرى ؛ فلا يقع الإنسان دائماً فريسة لأخيه الإنسان ، ويدافع الناس فعلا عن أنفسهم ، ويؤدون العمل اليومى ، ويمكن اعتبار البلد بلداً متحضراً . بل إنه

من بين أكثر بلاد العالم حضارة . وإن كان لزاماً علينا أن نقرّ أنه ينعم بحضارة فريدة خاصة به وحده . فليس الإنسان هنا وحيداً بأى حال من الأحوال . بل إنه غارق فى البشر ، يجد المعونة والسلوى والحماية بأساليب كثيرة . والواقع أنه يمكن فى كثير من الأحوال أن تكون الحياة جميلة جذلة منعشة مشبعة ؛ كل هذه الأمور على أية حال لأولئك الذين لا يصرون على العدالة المجردة الخالية من المحاباة أو يتوقعون من أجهزة القانون أن تؤدى وظيفتها فى يسر . بعبارة أخرى لا تبدو الحياة للمستبسلمين الخالين من الأوهام أقسى مما هى عليه فى البلاد الأخرى الأحسن تنظيما — أو على الأقل لا تبدو قاسية جائرة على النحو نفسه — كأن الناس أنفسهم قد حاولوا أن يعوضوا بنواياهم الطيبة نقص القواعد الجامدة المحددة ووسائل الوقاية القانونية ؛ فإن التسامح الصادق والعطف على مواطن الضعف فى الآخرين وإحساس التآمر المشترك بين شعب يناضل سرًّا الأعداء أنفسهم ، والغفران الكبير المطلق كثيراً ما يطهر كل الأشياء فى فيض من الإحسان ، ويلطف من كل فظاظة ، وقلما تلقى الاستغراقات الأخلاقية ظلالها القاتمة ؛ وبينما يقوم الجهاز الحكومى لحياة الجماعة فى كل مكان ؛ فليس هناك شىء هام يعتمد عليه حقًّا (هناك رجال الشرطة فى بزاتهم الخمس الرسمية المختلفة . وهناك استمارات لا حصر لها ينبغى للمرء ملؤها ؛ وهناك أوراق التمغة التى تستعمل فى كل المناسبات ، والتراخيص الضرورية لأتفه الأمور ، ومئات من مجلدات القوانين ، وهناك المبانى الحكومية الضخمة القائمة فى كل شارع تقريباً) . . ترى كيف يتصرف الإيطاليون ؟

إن أول شىء أساسى يكتشفه الإيطالى المتعلم هو أن الإقطاع بوصفه مفهوماً أخلاقيًّا كان غريباً على إيطاليا ، ولم يؤثر قط تأثيراً عميقاً فى الحياة الإيطالية ، أجل ، لقد تقبل الإيطاليون بطبيعتهم مظاهره الخارجية الملموسة كما تقبلوا دائماً

الأزياء الجديدة الأجنبية ، ولكن سرعان ما تكيفت مع الأذواق والظروف المحلية وحولت إلى شيء نافع مفهوم . فمثلا تحول نظام الفروسية أساساً إلى نوع من اللهو المهذب للطبقات العليا ، فلم يقتبس الإيطاليون منه سوى زخارفه البهية : شعاراته المزخرفة ، ألقابه الرنانة ، تحياته الرشيقة ، مشاهد مبارزاته . على حين أنهم فضلوا مبادئه الأخلاقية ، فليس هناك قسم محلى يماثل ذلك الذى فرضه الملك آرثر على فرسانه ، وليس هناك نظير للجندى الفرنسى بايار Bayard الذى نعت بأنه الفارس الذى لا يخاف والذى لا عيب فيه .

والواقع أن الإيطاليين الذين لبوا نداء عصر الفروسية الأسمى ، وتركوا زوجاتهم وقصورهم كى يستردوا قبر المسيح من المسلمين ، كانوا أقل عدداً من زملائهم الذين فعلوا ذلك فى أى شعب آخر . وحقيقة الأمر أن رجال بيزا Pisa وأما لفى Amalfi والبندقية وجنوه ، وهى المعروفة بالجمهوريات البحرية الأربع - شغلوا أنفسهم بكسب المال فعملوا مقاولين أو تجاراً فى الحروب الصليبية . وجرى البنادقة بخاصة على تأجير سفنهم للفرسان الألمان والإنجليز والفرنسيين كى يعبروا بها البحر المتوسط . ووجهوا فى دهاء العمليات الحربية إلى حيث تجلب أكبر المكاسب لجمهوريتهم . نعم ، وجهوها لغزو الموانى والجزر التى يمكن أن تستغل فيما بعد لتكون قواعد يغزون منها أسواق الشرق الأدنى .

كذلك كان الإيطاليون بطبيعتهم شعباً لم تنفذ إليهم المثل العليا التى جعلت عالم العصور الوسطى يسير فى سيرته : أعنى الإخلاص الثابت الذى يكنه المرء لرئيسه وولاءه لحاكمه والإحساس بالواجب نحو أتباعه ومرءوسيه ، ونحو الضعاف الأبرياء ، بل من الصعب أن نجد ترجمة إيطالية صحيحة لبعض الكلمات الأجنبية مثل كلمة الشرف Honour فإن أقرب لفظ يعادلها فى الإيطالية هو Onore

وهو لفظ مضلل حيث إن معناه الأساسى شىء يمنح من الخارج ، كأن يكون تقديراً أو تبجيلا أو رتبة أو تكريماً أو امتيازاً معيناً. ولا يكاد يعنى إطلاقاً المعنى الذى ورد فى قاموس أكسفورد سنة ١٥٤٨ بأنه إحساس رقيق بالولاء الشديد لما هو حق أو صحيح. ونذكر على سبيل المثال أن ماكيافلى يشكو «من أن الناس لا يعرفون كيف يكونون خبثاء بطريقة مشرفة » . Gli uomini non sanno essere onorevolmente tristi.

وكان من الممكن أن يكون كل هذا قليل الأهمية لولا أن العالم الحديث لا يزال فى حقيقة الأمر يسير على ما خلفه القانون الإقطاعى من بقايا أبقت على كيانه ؛ فلولاها ما كان من الميسور أن يكون هناك أمم قوية وحكومات وجيوش وأساطيل قوية وتحالفات عسكرية متينة ، وما كان من الممكن أن تكون هناك منظمات كبيرة أو تجمعات مالية أو صناعات كبرى ، وما كان من الممكن أن تكون هناك مباريات رياضية دون قدر معين من الفروسية التيوتونية أو دون ذلك القدر القليل الذى تسرب إلى بورجوازية القرن التاسع عشر ثم وصل إلينا فى نهاية الأمر . أجل ، إن توقير الصدق ، ومراعاة المعاملة العادلة fair play واحترام القوانين والقواعد والنظم ، واحترام المرء خصمه ، والقدرة على العمل الجماعى ، واستعداد المرء لأن يطبق على نفسه وعلى أصدقائه القواعد نفسها التى يطبقها على كل من عداهم ، وولاءه لمعتقداته ودينه وحزبه وفصله ومدرسته ووطنه ، نقول إن كل هذه الأمور هى فضائل لم تقتصر على جعل الحروب الصليبية ممكنة وعلى المحافظة على كيان الإمبراطوريات القديمة بل إنها تحافظ أيضاً على تماسك الإمبراطوريات الحديثة .

ولا يزال العالم الرأسمالى المعاصر غير مفهوم لمعظم الإيطاليين ، فهم يوقرون ويحسدون ، بل يحاكون مظهره الخارجى . أعنى قوته وإنتاجاته العملية ، ولكن تفوتهم طبيعته الأخلاقية أو قل إنهم يشكون فى وجودها إطلاقاً ، فإن كثيراً من قواعد السلوك

السوى العادل تبدو للإيطاليين محض هراء : خذ مثلا قول الإنجليز المأثور : « لاترفس أبداً رجلا حين يكون طريحاً على الأرض » ؛ فإن الإيطاليين لا يعتقدون أن أحداً أطاعه حقاً ؛ بل يعرفون أن الرجل لاينبغى رفسه إن كان عجوزاً أو قوياً يمكنه أن يرد الرفسة بأشد منها، أو كان فى وسعه أن ينتقم لنفسه فيما بعد ، أو إن كان له أقارب وأصدقاء أقوياء ، أو كان من أولئك الذين قد يجلب لهم منفعة بأية طريقة فى المستقبل ، أو إن كان رجل الشرطة واقفاً لهم بالمرصاد . وهم يتساءلون لماذا لا يرفسون الرجل حين يكون طريحاً على الأرض ؟ ومتى إذن يمكنهم أن يرفسوه ؟ أليس فى انطراحه على الأرض فرصة ثمينة لرفسه ؟ وهل هناك موقف آخر أكثر ضماناً وفعالية لرفسه ؟ ونود بهذه المناسبة أن نشير إلى دليل شهير يشرح للإيطاليين أفضل الأساليب للعب لعبة سكوبا Scopa أشهر لعبة ورق متداولة بينهم ، وقد ألفه رجل من نابولى اسمه كيتاريلا Chitarella . ومن الطريف أنه يذكر فى فاتحة الكتاب القاعدة الأولى لهذه اللعبة على النحو التالى : « حاول دائماً أن تختلس النظر إلى أوراق خصومك » . . إنها قاعدة مفيدة ملموسة وعملية .

ومع ذلك لا بد لنا أن نقر أن الإيطاليين احتفظوا كل الاحتفاظ بأثر صغير باق من عصر الفرسان القدامى ، هو مؤلف نشر لأول مرة فى سنة ١٨٨٧ ، وأعيد طبعه إلى وقت حديث جداً ثمانى عشرة مرة ، ولا تخلو مكتبة كثيرين من أفراد الطبقة الوسطى الإيطالية من سن معينة من نسخة منه ، وقلما تكون هذه النسخة قد اشتروها بأنفسهم بل استعاروها فى الأغلب على عجل منذ سنوات ولم يردوها قط إلى صاحبها ؛ فإن المرء يحتاج عادة إلى هذا الكتاب على الفور لعلاج طارئ مفاجئ قد يحل فى منتصف الليل أو فى يوم من أيام الأحد ، ولا يزال هذا المؤلف مستعملا اليوم فى مناسبات نادرة .

عنوان هذا الكتاب «قانون الفروسية الإيطالى» Codice cavalleresco italiano ألفه ضابط فرسان من بلجهورن يدعى جاكوبو جيلى Jacopo Gelli ، ويعلم هذا الكتاب المرء كيف يتصرف إذا تورط بأى شكل من الأشكال فى نزاع بين رجال مهذبين قد يؤدى بهم إلى المبارزة . ولا يترك الكتاب شيئاً ما للمصادفة بل أعد العدة لكل ما يطرأ من تغيير بين المتخاصمين فى كل دقيقة . ويقول المؤلف إنه لم يذكر أية قاعدة من القواعد بطريقة عفوية تحكمية بل يدعى أنه سجل فحسب العادات التى تثبت صدق صلاحيتها بين الرجال المهذبين . وبطبيعة الحال يبدأ الكتاب بتعريفات معينة : فالرجل المهذب : « هو ذلك الذى بناء على حاسته الخلقية الشفافة لا يؤمن بأن القوانين . . . كافية لحماية شرفه ، وهو الذى يفرض على نفسه فى دقة بالغة مراعاة قواعد خاصة تسمى قوانين الفروسية » وهكذا يحسم الشرف من الخارج على الطريقة الإيطالية all'italiana ويعرف الشرف « بأنه ما يستطيع أن يكسبه الرجل الفاضل من تقدير الرأى العام واحترامه له نتيجة فعاله المتمشية دائماً مع القوانين الطبيعية والمدنية « . . . » وفى الرجل المهذب يجب أن يسيطر إحساس الشرف على كل الاعتبارات الأخرى ؛ بيد أنه من التعصب الدنىء أن يقاس شرف المهذب بعدد المبارزات التى خاضها » .

ويذكر الكتاب «أن المرء قد يفقد صفة الرجل المهذب (الذى يعجز عن أن يطلب ترضية عن إهانة لحقته يصبح شخصاً حقيراً) إذا هو خالف القوانين العادية ، كما يجوز للجنة من المحكمين أن ترفع عنه الصلاحية لأسباب فنية كافية تقوم هى بتسجيلها وتتدرج أنواع الإهانات أو الإساءات فى ترتيب تصاعدى طبقاً لجسامتها ، شأنها شأن تدرج الزلازل والأعاصير . وأخطر هذه الإهانات هى ما ورد فى الدرجة الرابعة ، وهى تلك التى تمس الأسرة . ولا يمكن حسم الخصومات التى تبدأ بأعلى الإهانات

إلا بخطابات علنية تتضمن اعتذارات ذليلة أو بمبارزات وفق الأصول » .

وبطبيعة الحال هناك وسائل كثيرة للتهرب من اللجوء إلى السلاح لتسوية النزاع ، فيوضح جيلي أن أول واجب لشاهدى المبارزة هو ألا يريا أحد المبارزين يقتل زميله بأى ثمن . إذا أمكن بأى حال من الأحوال تسوية النزاع دون اللجوء إلى السلاح ، ومن الصعب تنظيم ذلك حيث يرفض كلا الطرفين الاعتذار إطلاقاً ؛ ومع ذلك يذكر الكتاب أحابيل عديدة أكثرها استعمالا هى المادة « ٩ » التى تنص على مايلى : « إذا كان العمل العدوانى نتيجة إثارة ، أو لا مسوغ له ، أو إن كان بسبب تقدير خاطئ للحقائق أو سوء تفاهم ، يجب استبعاد فض النزاع بطريق الصدام المسلح ».. ترى أية إساءة لايمكن القول بأنها جاءت نتيجة تقدير خاطئ للحقائق ؟ هذا وقد أورد المؤلف فى نهاية كتابه عدداً من الرسائل الجاهزة لاستعمال الأطراف المختلفة ، فهناك مثلا رسالة من الفرد الذى أهين ، وفيها يكلف اثنين من أصدقائه ليتوليا الدفاع عن مصالحه ، ورسالة أخرى من المعتدى يتحدى فيها زميله cartello di sfida ونماذج لوثائق مختلفة .

والكتاب مفيد من ناحية عملية : فهو يتضمن خبرات قرون طويلة ، ويوضح وسائل لبقة ومحترمة لتسوية خصومات معقدة مضجرة تعجز القوانين العادية والإجراءات القياسية عن حلها أو قد تزيدها تعقيداً ، فالواضح أن هذه الأمور يمكن علاجها عن طريق طرف ثالث يقوم بدراستها ومناقشتها علاجاً أنجع مما لو تركت للخصوم أنفسهم وهكذا . لا يؤدى الخصام إطلاقاً إلى أن يقتل أحد خصمه . ولو أن أوسكار وايلد ، حين تحدى ماركيز كوينزبرى Queensberry اتبع ما فى هذا المؤلف من إرشادات بدلا من مقاضاته فى المحاكم لعاش حياة طويلة ملأى بالعمل والنشاط ، وليبلغ تقريباً اليوم الذى أصبحت فيه أذواقه مقبولة ومحترمة لدى مجتمع سليم ومفيدة

فى عالم الفن والأدب .

ويوضح الكتاب كيف أنه من الممكن أن تستمر المناقشات بين أصدقاء أربعة مهذبين إلى يوم القيامة (حيث إن كلا الطرفين يأبى عادة أن يتقبل الهزيمة ويعرض أعذاراً مرضية) ؛ نقول يمكن أن تستمر المناقشات لولا خطر واحد بعيد الاحتمال، ولكنه جائز ، ألا وهو وضع الرجلين المتخاصمين عاريين إلى وسطهما فوق بقعة يكسوها الحشيش الأخضر فى فجر أحد الأيام وقد امتشق كل منهما سلاحه ويحيط به أعوانه . والواقع أن هذا يحدث فى القليل النادر ، قل مرة كل ثلاث سنوات أو أربع ، ولكن لا يمكن استبعاده تماماً ، ولا يهدد هذا الخطر حياة المتخاصمين فقط بل يعرض أيضاً الخبير الذى يوجه المبارزة والأعوان والأطباء إلى قضاء بقية حياتهم فى السجن حيث إن المبارزة محرمة قانوناً . فلا غرابة بعد ذلك كله أن يدفع خوف الأعوان من فقدان حريتهم إلى التعجيل فى إصدار قراراتهم والوصول إلى تسوية سلمية بحتة .

وهكذا قد يحدث أن يطلبك بالتليفون صديق من أصدقائك ، ويحدثك فى عجلة وهو ثائر ، ليخبرك أنه تورط فى مشكلة ، فتتوجه لمقابلته ومعه أحد أصدقائه هو مساعده ، ويبحثون معاً نواحى النزاع ، وعندئذ تهرع إلى أقرب نسخة فى متناولك من مؤلف جيلى لتدرس ما فيها من إمكانات متاحة ، وتنسخ منها الرسائل المناسبة من تلك الواردة فى نهاية الكتاب (وليس لديك من الوقت سوى ٤٨ ساعة لتحدى الخصم المعتدى) ، تفعل ذلك ولا يسعك إلا أن تسخر فى قرارة نفسك من الإجراءات والاصطلاحات والتعقيدات القديمة المضحكة . وقد عملت أنا نفسى فى مرات قليلة مساعداً لعدد من الأصدقاء (فالصحفيون يعتبرون خبراء فى هذا الموضوع) ، وشعرت دائماً وأنا أتحدث بلسان جيلى وأتابع إرشاداته كأننى أقوم بالتمثيل فى مسرحية رديئة .

ولكن حين وقفت جنباً إلى جنب مساعداً لخصم وقد ارتدى كلانا سترة سوداء كأننا فى حفل تعميد أو فى اجتماع لمجلس إدارة مؤسسة ما، وحين سلمت المعتدى رسالة نسختها لتوى من مؤلف جيلى ؛ وبينما راح هو يقرؤها وحاول فى حماس أن يجيب عن بند من بنودها أوقفته عن الكلام مستخدماً الصيغة التقليدية : « إنى آسف حيث لا يمكننا الإصغاء إلى أى شىء تقوله ، ولكنى أرجوك أن تعين اثنين من أصدقائك ، وسوف يسعدنا أن نتحدث معهما ، وسوف نكون فى انتظارهما طيلة العصر ، وإلى اللقاء » . ولم يسعنى أن أشعر برغم الكلمات الجوفاء المنافية للعقل والإيماءات المحيرة أن الموقف لا يزال يحتفظ بقدر زهيد من الوقار الضئيل .

وحدث مرة أننى اضطررت إلى إرسال رسالة من هذا النوع إلى صحفى شيوعى سلمتها إليه فى مقهى مزدحم بروما بين صيحات خدمه وزبائنه (ولم يكن لدينا متسع من الوقت قبل نفاد الوقت المحدد ، وكان موعدنا هذا هو الوحيد الذى استطعت تحديده مع ذلك الصحفى ، بعد أن قضينا ساعات ثمينة فى مناقشة : أمن الممكن اعتبار الشيوعى رجلا مهذباً ، لأن جيلى لم يذكر شيئاً عنه فى مؤلفه) ، ووصل الصحفى فى الموعد المحدد وسط وابل من المطر ، وطوى مظلته ، ولمحنا من بعيد فابتسم ولوح لنا بيديه ثم صاح بنا قائلا : « هل أنتم مجانين ؟ لماذا الخصم فى مقابلتى قبل غروب الشمس ؟ » وضحك وهو يتسلم الرسالة منى دون أن يعرف فحواها ، ولعله ظن أننى أداعبه دعابة سخيفة ، ثم راح يقرأ عباراتها الطنانة العتيقة فشحب وجهه وتجهم . واتضح أنه حتى بالنسبة له كان لهذا الإجراء الطقسى مسحة من الأثر فى نفسه . وفى النهاية لم يسمح له الحاضرون بأن يخوض المبارزة ، فاضطر آسفاً أن يعلن انسحابه منها .

لا جدال فى أن طريقة الكولونيل جيلى لتسوية الخصومات طريقة بالية ساذجة ،

ولكنها برغم ذلك لا تزال باقية، لا لمجرد أنها قد تكون مفيدة أحياناً بل لسبب آخر ، ذلك لأن الطريقة المهذبة لتسوية الخصومات وفق قانون الفروسية ظلت قائمة فى إيطاليا مدة أطول منها فى أى بلد آخر ، لأنها تتفق مع سمة من أبرز سمات الإيطاليين وأعمقها ، فهى وسيلة أخرى لإغفال القوانين والقواعد واللوائح الرسمية والهيئات الحكومية ، ولتنظيم الأمور طبقاً لمفهوم خاص بهم لما هو صحيح وما هو باطل ، ووفق المبادئ التقليدية ومساعدة أصدقاء المرء .

* * *

هناك قليل جداً من القواعد التى يمكن أن تساعد الإيطالى على شق طريقه فى الحياة فى أمان واطمئنان فى بلد لم يقبل حقاً قط تعاليم الإقطاع الأخلاقية ، ولمجتمعه وقانونه وحكومته سلطات ضعيفة ، ومن ثم كان لزاماً عليه أن يدافع عن نفسه ، ويبدأ ذلك فى مرحلة مبكرة من عمره فيكون معلم نفسه (معظم المدارس قاصرة) وأستاذ نفسه (الجامعات فقيرة ومتخلفة وإدارتها سيئة) ، ثم عليه فيما بعد أن يكون صحفى نفسه (يمكن أن تكون الأخبار التى تنشر عن الشئون الداخلية مقززة بحيث قد يكون الاعتماد عليها مجلبة للمصائب) ، وعليه أن يكون هو نفسه الناقد الأدبى والسينمائى والفنى والمسرحى (يندر أن يعكس ما ينشر من نقد قيمة الفيلم السينمائى أو الكتاب أو المسرحية وإنما يعكس هذا النقد عوامل شتى كالعلاقة الشخصية بين المؤلف والناقد ، وحزبيهما السياسيين وتقاربهما فى السن من عدمه ، وميولهما الفلسفية وما إلى ذلك) ، وعليه أن يكون فى وقت الحرب الخبير الحربى لنفسه(لن يخبره أحد إلا فى وقت متأخر جداً من هو المنتصر ؟ ومتى ينبغى له أن يهرب ؟)، وعليه أن يكون خبير نفسه الضرائبى (ليميز بين الضرائب التى يسددها كاملة، وتلك التى يسدد جزءاً منها ، وتلك التى يغفل سدادها إطلاقاً)، وعليه أحياناً أن يكون محامى نفسه

وشرطى نفسه وقاضى نفسه . خلاصة القول أن أمنه لا يتوقف على الجهود المشتركة لمواطنيه وما ينبغى له أن يضيفه إليها من جهوده الخاصة ، بل على قدراته الشخصية ودهائه الموروث .

وسرعان ما يكتشف أنه لا يمكنه أن يشغل أى منصب فى المجتمع إلا ذلك الذى يستطيع الحصول عليه والدفاع عنه بسلطته الشخصية ، وهذه تتوقف على عوامل شتى : كفايته — مواهبه — نشاطه — عزمه ، ولكنها تتوقف فى النهاية على قدراته على إرهاب أعدائه بل القضاء عليهم إذا اقتضى الأمر . وهناك فى إيطاليا أساليب كثيرة لتحقيق ذلك على قدر ما بها من بيئات : فأساليب الأديرة والأسقفيات والفاتيكان تكاد تكون غير محسوسة ، فقد تكفى حملقة باردة ، انحناءة جافة ، تورية لاتينية تليها ضحكة مكتومة ، مقال عن مسألة لاهوتية تافهة ، أو ثناء فى غير محله ، أما فى عالم الأعمال والسياسة فيمكن أن يقذف الرجل فى شرفه وعرضه ، أو يحط من أخلاقه ، أو تقطع صلته بالشخصيات القوية الهامة ويدفع إلى حافة الهلاك أو الانتحار . وفى بعض أجزاء صقلية قد يعنى القضاء على إنسان ما المعنى الحرفى لهذه الكلمة ، أى قتله أو دس السم له .

وكل هذه الأساليب تتطلب توافر السلطة ، فلابد أن تكون هناك سلطة وراء كافة الكلمات اللطيفة ظاهريًّا والتهديدات المبهمة ووراء كل قرار بقطع موارد الرزق عن إنسان ما ، وبدون السلطة تصبح كل التهديدات مجرد إيماءات مضحكة لا طائل تحتها . ولا يمكن أن يتوقع إنسان العيش بدون سلطة ، وليس من الضرورى أن تكون هذه كبيرة رهيبة ، ولكن لابد من توافر القدر اللازم منها لكل مهمة يتناولها الإنسان لا أكثر ولا أقل ، أى بالنسبة لحاجاته ، فالوزير الجالس فى مكتبه والحاجب الذى يدخل الزائرين إلى حضرته كلاهما يتصرف فيما لوظيفته من سلطة ضرورية ، وإلا لما

كان أيهما فى المنصب الذى يشغله .

وتضطر هذه الضرورة الإنسان فى كفاحه اليومى من أجل الحياة أن يطبق بصفة عامة نفس القوانين التى سيطرت على العلاقات الدولية فى كل العصور ، فيجب على كل إيطالى أن يتعلم مواجهة المشاكل بذلك الأسلوب الذى يستخدمه الحكام ورجال الدولة فى تقرير السياسة ، ويتأثر عدد قليل من القرارات بالعواطف أو الأذواق أو المصادفات ، ولكنها تتأثر عادة بتقدير دقيق لقوى الأطراف المتنازعة ، فإن الاختيار بين حلف وآخر ، وبين الحرب والسلم ، وبين المقاومة إلى آخر رمق أو الاستسلام الفورى ، نقول إن الاختيار بين كل ذلك هو نتيجة تقدير واقعى للقوى التى يستطيع كل طرف أن يحشدها .

وهذا هو أحد الأسباب التى من أجلها يحملق الإيطاليون بعضهم فى وجوه بعض عندما يتفاوضون معاً حتى على أتفه الصفقات ، فهم يقرءون فى عينى خصمهم (أو يتلمسون فى صوته وما يختاره من ألفاظ) علامات إصراره على قراره أو جبنه الخفى ، ويمكنهم بذلك أن يقرروا متى يجوز للمرء أن يزيد من مطالبه ، ومتى يتلطف ، ومتى يكون من الحكمة التراجع وقبول شروط الطرف الآخر . ويجب بطبيعة الحال أن يتم هذا الاستسلام بشىء من اللباقة garbo فيكون التراجع (الذى ظل الباب له مواربا دائماً) محجباً بإيضاحات ذكية مداهنة . والإيطاليون خبراء بسليقتهم ولهم خبرة بالغة فى هذا الفن بحيث لا يصفه إلا قليلون . ولا مناص من أن يكون لهذه الضرورة عيوبها ، فهى تبطئ كل أنواع الصفقات وتعقدها ، ولا يمكن أبداً إتمام عمل خطير بالمراسلة ، بل لابد للناس من التجول ليحملق كل منهم فى وجه الآخر . ومع ذلك فلهذه الضرورة بعض المزايا : فقد كان الإيطاليون مثلا دبلوماسيين موهوبين بطبيعتهم حين كانت الدبلوماسية لا تزال مهنة مرهقة ذات مسئوليات جسيمة .

ويجب أن يعى هذا كل من يحاول أن يتقصى الأسباب الحقيقية لبعض القرارات الإيطالية المحيرة أو يحاول أن يتنبأ بأى تحرك إيطالى جديد فى المستقبل ، فالملاحظ أن الإيطاليين بعد أن يقدروا القوى النسبية للأطراف المتخاصمة تقديراً صحيحاً يحاربون العدو الأضعف وينضمون إلى المنتصر ، وقواعد السلوك هذه تجعل الخصومات بجميع أنواعها أقصر دواماً فى إيطاليا مما هى عليه فى البلاد الأخرى . أما عدد أولئك الأصلاء الشجعان الذين يرغبون فى أن يواصلوا النضال إلى جانب الطرف الذى يعتقدون أنه على صواب على حين يعتقد الرأى العام أنه سوف يستسلم فى النهاية ، فإننا نقول له إن عدد أولئك قليل بالضرورة . وتجعل القواعد بعض القرارات نقط تحول فى التاريخ أو تعجل بقيام الثورات فى حين لايزال من الميسور تحاشيها أو منعها أو تحويلها عن مجراها . وكثيراً ما تجعل أيضاً نتائجها سطحية غير مستقرة ومضللة جوفاء .

إن السلطة ، أعنى السلطة الشخصية ، هى مفتاح كل شىء .

الفصل الحادى عشر

سلطان الأسرة

الأسرة هى مصدر السلطة الأولى . والأسرة الإيطالية هى قلعة فى أرض معادية : يجد الفرد بين جنباتها ومن أعضائها سلوى ومعونة ونصيحة ومؤونة وقروضاً وأسلحة وحلفاء وشركاء يعاونونه فى مساعيه ، وليس الإيطالى الذى له أسرة وحيداً إطلاقاً ، لأنه يجد فيها ملاذاً يضمد فيه جراحه بعد الهزيمة أو دار أسلحة ومعاونين لضرباته الظافرة . وقد اعترف العلماء دائماً بأن الأسرة الإيطالية هى المؤسسة الأساسية فى البلاد ، وأنها ابتكار تلقائى للقريحة الإيطالية تكيف عبر القرون مع الأحوال المتغيرة ، وأنها الدعامة الحقيقية لكل نظام اجتماعى يسود إيطاليا. وجدير بالذكر أن كلا من القانون والدولة والمجتمع لا يمكن أن يؤدى وظيفته إلا إذا تحاشى التدخل فى المصالح العليا المباشرة للأسرة .

وكثيراً ما عرفت إيطاليا فى قليل من المبالغة بأنها ليست سوى تشكيلة من ملايين الأسر المرتبطة معاً رباطاً وثيقاً بحكم الغريزة العمياء ، وهى كمستعمرات الحشرات تركيب عضوى أكثر منه بناء سليماً يقوم على قوانين مدونة وضرورات خلقية . وقد حدث فى الماضى وفى الأزمنة الحديثة التى تكاد تكون تاريخاً معاصراً أن كانت الدولة State فى أحط وأضعف مركز شغلته ، وعانت الفقر والهزيمة ، ومع ذلك كان الأهالى بالغى النشاط والسعادة والازدهار . وشبه بعض الكتاب المتشائمين حيوية الشعب المرحة هذه وعجز الأنظمة الحكومية وتمزقها فى تلك الأزمنة ، بتجمع الديدان

على جثة من الجثث ، وعلى النقيض من ذلك كانت هناك عصور ، أو قل عصور نادرة ، اتفقت فيها مصالح تآلف الأسر مع مصالح الدولة ، وعندئذ بدت إيطاليا للمراقبين الأجانب أنها بلد قادر متماسك قوى .

وليس هذا بطبيعة الحال شيئاً جديداً أو غريباً أو فريداً ، فإن سلامة الفردوسيادته تضمنهما أساساً الأسرة فى كثير من البلاد و بين كثير من الشعوب ، فى الماضى والحاضر ، حيث تكون سلطة الدولة ضعيفة وحيث يكره الناس القانون ويقاومونه .. مثال ذلك أن الصينيين فى عصور إمبراطوريتهم اعتبروا إجلال الأسرة أجدر من حب الوطن وحب الخير ؛ ولهذا السبب حاول حكم ماوتسى تونج الشيوعى القضاء على الأسرة ، وقد أدرك أنها عدوه القوى الألد . كذلك حينما سمح لليهود أن يستقروا فى أوربا فإنهم امتثلوا ظاهرياً للقوانين والضرائب المحلية ، ولكنهم فى أعماق قلوبهم أطاعوا فقط قواعدهم الدينية وقانون حياتهم العائلية العريق فى القدم مما سمح لهم بالبقاء عبر الاضطهادات المختلفة التى هددت حياتهم .

فلا غرابة إذن أن يكون الإيطاليون الذين يعيشون كما عاشوا فى الماضى فى مجتمع متمرد تهدده الأخطار ، من بين أولئك الذين وجدوا مأواهم وراء جدران بيوتهم وبين أقربائهم فى الدم . ومهما يكن من شىء فهناك بين الإيطاليين والصينيين أوجه شبه كثيرة : فالصينيون أيضاً مولعون بالحفلات والولائم والطقوس المبهرجة والضوضاء التى تصم الآذان ، والألعاب النارية ، والطعام الشهى ، ويحبون الأطفال ، ويكثرون من إنجابهم . كما أن فنهم أيضاً كثير الزخارف ومبتكر ، ولكنه ليس عميقاً دائماً ، ويصنعون بأيديهم أشياء رائعة ، ثم هم مفاوضون بارعون وتجار حاذقون. كما يشبه الإيطاليون اليهود فى كثير من النواحى : فلليهود نفس النظرة العملية الخالية من الأوهام ، وهم من بين الأقوام القليلة التى تسخر من عيوبها ، ويساورهم الحياء الحذر إزاء

المقاصد النبيلة لغيرهم ويبحثون دائماً عن الحوافز الفعلية المختفية وراء ها .

ومع هذا هناك فارق أساسي بين الإيطاليين وغيرهم من الشعوب التي تتخذ من الأسرة قارباً خاصاً للنجاة في خضم الفوضى العاصفة ، فليست الفوضى في إيطاليا مجرد أسلوب للحياة وحالة تلقائية للمجتمع وتطوراً طبيعياً ، بل هي أيضاً حصيلة إرادة الإنسان وثمرة اختياره غرست في كد واجتهاد ، وتدعمت عبر القرون . وبناء على ذلك لا تنحصر قوة الأسرة في كونها حامياً ضد الفوضى ولكنها أيضاً وفي الوقت نفسه أحد أسبابها الرئيسية . والواقع أنها شجعت فعلا الفوضى بطرق شتى وخاصة بجعل تطور النظم السياسية المتينة عديمة الجدوى . وهذا يثير بطبيعة الحال مشكلة معقدة : ترى ألا تنتعش النظم السياسية إلا حيث تكون الأسرة ضعيفة ، أم أن المسألة على عكس ذلك ؟ ألا تصبح الأسرة مكتفية بذاتها إلا حيث تكون النظم السياسية متينة على نحو كاف ؟ ومهما يكن الأمر فلم يكن قط للنظم السياسية في إيطاليا فرصة تذكر ؛ ذلك أن الناس لم يبتكروا منها سوى القليل ، واضطروا أن يستوردوا من الخارج من وقت إلى آخر نظماً جاهزة : الإقطاع ، الملكية المركزية ، الدستور ، نظام المحلفين ، الديمقراطية ، الاشتراكية ، كما أنهم يهددون اليوم باستيراد النظام الشيوعي الجاهز من الاتحاد السوفييتي .

وكانت الأسرة كذلك عملاقاً لا يقهر ، لأنها كانت الفلك المقدس الذي أودع فيه الإيطاليون كل مثلهم العليا واحتفظوا بها ضد كل المؤثرات الأجنبية ، ولا جدال في أنها حفظت الطابع القومي من التلوث . يقيناً أن إيطاليا الأسرات هي إيطاليا الحقيقية ، هي إيطاليا الجوهرية الخالصة والمصفاة من تجارب القرون الماضية . أما إيطاليا القوانين والنظم فهي إيطاليا المزيفة جزئياً ، هي البلد الذي يتمنى الإيطاليون أن يصدقوا أنه كان موجوداً بالأمس أو أنه سيكون في المستقبل ،

ولكنهم يدركون أنه ليس كذلك . ترى هل يستمر هذا الحال ؟ هل لزام أن يكون مآل كل النظم التى سيتخذها الإيطاليون لأنفسهم فى المستقبل التآكل والفناء على يد الأسرة ؟ ترى هل هذا الاعتقاد هو سبب كون الإيطاليين مستعدين بطوعهم لتجربة أساليب سياسية جديدة ، وكون كثيرين منهم لايهابون الثورات؟ هل تنتهى الفوضى يوماً ما فى هذا البلد ؟ وهل تسود الأسرة دائماً ؟ هذا بطبيعة الحال هو اللغز الأساسى فى التاريخ الإيطالى والحياة السياسية الإيطالية .

* * *

وفيما يلى صورة مبسطة للأسرة الإيطالية كما هو مفروض أن تكون ، أى نموذج مثالى لها ، وهدفنا من هذه الصورة تنوير القارئ وتثقيفه ، ولا بد أنه على قدر كاف من الذكاء بحيث يدرك أن الأمور فى واقع الحياة قلما تكون كاملة ومثالية كما تصورها هذه الصورة شأنها شأن جسم الإنسان الذى قلما يطابق صورته الملونة الواردة فى كتب التشريح ، فهناك أيضاً فى إيطاليا أسر ممزقة وخلافات وانشقاقات وانقسامات ونزاعات لاتنتهى بين الأقارب . نذكر على سبيل المثال جزيرة صقلية ، حيث كثيراً مايقبع أعضاء من أسرة واحدة وراء أشجار التين الشوكى وأصابعهم على زناد بنادقهم انتظاراً لأن يقتل كل منهم الآخر ، وفى لمبارديا يحدث دائماً تقريباً أن يتنازع أعضاء الأسرة نفسها على وصية جدهم أمام القضاء ، ويستعينوا بالمحامين الباهظى النفقات وبكل أنواع الحيل ،ويتنقلوا من محكمة إلى أخرى ،بيد أن العناد المتطرف الذى يتسم به نضال الأقارب فيما بينهم يثبت أحياناً أنهم يتناضلون ضد غرائزهم نفسها ،فهم حتى وهم يتنازعون لايسعهم إلا أن يشعروا بذلك الحافز الذى لايمكن مقاومته تقريباً . . . حافز الانسجام مع المبادئ القديمة ، وكذا الإحساس العميق بالندم البالغ على مخالفتها .

وتوفق معظم الأسر فى أن تكون وفية للنموذج المثالى على قدر الإمكان ؛ وخير أمثلة لذلك هى عادة أسر المتحفظين القدامى ، أولئك الذين هم أكثر إيطالية من غيرهم ، أعنى أسر الفلاحين وصيادى الأسماك وملاك الأراضى والطبقة الوسطى المتواضعة Petit bourgoisie فى المدن الصغيرة وأرستقراطى الريف الأكثر صرامة ، ويحافظ أهل جنوب إيطاليا بجميع طبقاتهم على التقاليد كاملة ويتمسكون بها أكثر من أهل الشمال حيث يتجه الشمال الصناعى ومجتمع مقاهى المدن الكبيرة إلى محاكاة الأمثلة السيئة التى سنتها البلاد الأخرى ، ولكن هذه الانحرافات بسيطة برغم ذلك ، فليس هناك إيطالى يجرؤ أن يفعل دون تردد وندم ما درج على فعله الأمريكيون والإنجليز والفرنسيون ، كأن يهجر زوجه أم أول طفل ذكر له .

إن الأسرة تستقطب الولاء الأول من كل فرد حيث يجب الدفاع عنها وإثراؤها وتقويتها واحترامها وإضفاء المهابة والرهبة عليها ، وذلك باستخدام كل الوسائل الضرورية سواء كانت مشروعة — إذا كان هذا ممكناً على الإطلاق — أم غير مشروعة . ولا يجوز لأحد أن يتحداها دون أن يلقى قصاصه ، ويجب ألا يلوث شرفها ، ويجب الانتقام لكل ما يلحقها من أذى ، وصد كل الأعداء عنها ، وتمزيق سلطة الخطيرين منهم أو القضاء عليهم . ولزاماً على كل عضو فى الأسرة أن يبذل قصارى جهده لإسعادها ، وأن يعطيها أملاكه إذا احتاجت إليها ، وأن يضحى بحياته من أجلها إذا كان ذلك أمراً حتمياً . وكثيراً ما أنفق رجال آخر ليرة لديهم لإنقاذ قريب لهم من الإفلاس . وقصارى القول يجب اتخاذ كل الوسائل لحماية الأسرة مما قد يصيبها من عثرات الزمن أو ينزل بها من نكبات بسبب التغيرات السياسية أو الأزمات الاقتصادية ، ومن ثم يجب أن يكون واحد من الأسرة على الأقل عضواً فى الحزب السياسى الحاكم وآخر عضواً فى الحزب السياسى المعارض ، فإن الأسرة المنظمة

عليها أن تنظر فى كل الصراعات الأهلية حتى يكفل نجاحها وازدهارها لأجيال عدة أو على مدى الزمن إن أمكن ، و يجب بطبيعة الحال أن تنجب أطفالا كثيرين وخاصة الذكور حتى يحافظوا على اسمها بحيث لاتترك فرصة لإنجابهم ، فكل ما يعمل فى إيطاليا هو من أجلهم ، لأنهم قادة مستقبل الحياة الإيطالية ، تحقق لهم أتفه رغباتهم . وكثيراً ما يحتشد جمع غفير حول طفل جميل ، وكثيراً ما يجوع الآباء الفقراء أنفسهم من أجل أطفالهم ، وكثيراً مايقتصدون فى ملابسهم ووسائل راحتهم للترفيه عن أولادهم وتوفير سبل التعليم لهم حتى يبلغوا مرتبة أعلى فى سلم المجتمع . ولا يتم هذا الارتقاء فى سرعة ، بل يسير فى موجات متتالية جيلا بعد جيل حتى يصلوا إلى أعلى القمم .

وهناك نقطة جوهرية تفوت معظم الأجانب ويجب إدراكها وتذكرها ، هى أن معظم الإيطاليين لايزالون يسيرون وفق معيارين : فهناك قانون واحد يسرى داخل دائرة الأسرة على الأقارب والأصدقاء الودودين والشركاء المقربين ، وهناك قانون آخر ينظم الحياة خارجها ؛ ففى داخل دائرة الأسرة يبذل الإيطاليون قصارى جهدهم فى إثبات جميع تلك الصفات التى لاينسبها إليهم عادة المراقبون السطحيون ، فهم نسبياً قوم يعتمد عليهم ، أمناء ، صادقون ، عادلون ، مطيعون ، كرماء ، منظمون ، شجعان ، قادرون على التضحية بالنفس ، ويمارسون الفضائل نفسها التى يخصصها غيرهم عادة لرفاهية وطنهم بعامة ، ولكن وطنية الإيطاليين الحقيقية تكمن فى إخلاصهم لأسرهم . أما فى الخارج ووسط فوضى المجتمع واضطرابه ، فكثيراً مايشعر الإيطاليون بأنهم مضطرون إلى استخدام الخدع الخفية التى يستخدمها المقاتلون فى أرض يحتلها العدو فيعتبرون كل سلطة شرعية أو رسمية عدائية حتى تثبت لهم صداقتها أو أنها عديمة الضرر ؛ وإذا لم يمكن إغفالها يجب تحييدها أو خداعها إذا اقتضى الأمر .

وكان هناك في إيطاليا رجال خاضوا حروباً لم ترق لهم ، وكثيراً ما اقتصر عملهم على كل ما يكفل عودتهم سالمين إلى بيوتهم فحسب ، وهذا معناه من الناحية الفنية أنه يمكن اتهامهم بالجبن ، بيد أن هؤلاء الرجال أنفسهم لا يجدون مفرًّا في وقت السلم من مواجهة تضحيات لا تحتمل وأخطار مهلكة في سبيل آبائهم وأمهاتهم وأطفالهم ، فيخاطر الآباء والإخوة والأبناء والحفدة بحياتهم من أجل نسائهم وحمايتهن من انتهاك حرمتهن وحماية أنفسهم من العار (نجد أمثلة كثيرة على ذلك في الجنوب بخاصة ، ولكنها توجد أيضاً في الشمال الأكثر تقدماً) . وفي معظم هذه الحالات ينتهي الأمر بأنصار الدفاع عن مكانة الأسرة إلى قضاء حياتهم في السجن وهم مرتاحو البال رافعو الرءوس معتزون بأنفسهم فُخُر بما فعلوا ، فهم يدركون أنهم قد أدوا واجبهم وأطاعوا قانوناً من القوانين السماوية القليلة التي يعترفون بها ويقدرونها ، كما يعرفون أن أقرباءهم سوف يرعون نساءهم وأطفالهم طيلة غيبتهم .

إن التزام المرء بإثراء أسرته وتدعيم سلطتها حتى تتحدى تقلبات الزمن يفسر كثيراً من العادات الإيطالية العجيبة ، بما في ذلك ما جرى عليه الملوك والبابوات القدامى في رفع أبناء إخوتهم وأخواتهم وأقربائهم إلى المناصب العليا والعمل على إثرائهم . ومن السهل اليوم أن نتهكم على المحسوبية بيد أنه ينبغي لنا دراستها دون حقد أو ضغينة ؛ فقد كان الملوك والبابوات دون شك — شأنهم شأن جميع الإيطاليين — يدينون بولائهم الأول لأسرهم ، ولكن كان الملك عادة يتميز بمزايا كثيرة ، فقد كان ينتسب إلى أسرة نبيلة قوية ثرية فعلا وذات اتصالات وفروع كثيرة مفيدة . ثم إنه لم يشغل باله بمسألة اعتلائه العرش حيث كان توليه إياه أمراً طبيعيًّا ، كما كان يعرف أن ابنه الأكبر سوف يرث عرشه من بعده ، ثم سيليه الابن الأكبر لابنه الأكبر وهكذا ؛ فكان لدى الملك عادة متسع من الوقت والفرص لتحسين حال أقاربه وتوسيع أملاك

الأسرة وزيادة ثروتها . وفضلا عن ذلك فقد كان محاطاً بفئة مختارة من الرجال المحنكين المدربين على خدمة الأسرة فى أمانة وإخلاص .

ومن ناحية أخرى كان البابا فى مركز صعب حيث كان لا يصل إلى منصبه إلا بعد أن يكون قد بلغ من السن عتياً . بل يكون ضعيفاً عليلا أحياناً . فكان لزاماً عليه أن يعجل فى خدمة أقاربه فى السنوات القليلة الباقية له وقبل أن تفوت الفرصة — وهى مهمة استغرق تحقيقها من الأسرة الملكية قروناً — وفضلا عن ذلك كان أقارب البابا يحتاجون إلى معونته فى كل شىء حيث كانوا عادة قوماً مغمورين ريفيين فقراء ، وكان يجهل ماذا سيكون عليه مصيرهم بعد رحيله . لقد كان للبابا بطبيعة الحال سلطة منحهم ألقاباً رنانة ، ولكن بديهى أن هذه الألقاب عديمة الجدوى بدون رأس مال وأملاك . أما أولئك الذين أحاطوا به فقد كانوا عادة مخلصين ، ولكن لم يكن هذا الإخلاص له وحده ، فقد خدموا « الأب المقدس Holy Father » أيًّا كان ، وسوف يخدمون خلفه بالإخلاص نفسه . ومن ثم لم يكن فى وسع البابا — شأنه شأن غيره من المحدثين novi homines — أن يعتمد على غير أقربائه فى الدم ، وعرف هؤلاء أنهم مرتبطون به فى السراء والضراء قدر ارتباطه بهم .

كل ذلك يوضح العجلة البالغة والتجرد من المبادئ اللذين اقترن بهما ما فعله بابوات مختلفون فى سنوات قليلة بهدف إسعاد أقاربهم ، وإن كانوا رجالا أفاضل فيما عدا ذلك . وكانت جهودهم مثمرة وذات نتائج طويلة الأمد عادة ، فلا تزال الأسر الكبيرة النبيلة فى روما من نسل البابوات (يلاحظ أن قلة منها كانت من أصل رومانى أى من روما نفسها) ، ولا يزال بعضها من بين أغنى الأسر ، وتتمتع بثمار الماضى والأسلاب القديمة . بل إن تلك الأسر السيئة الحظ التى منحت أراضى عديمة القيمة فى إقليم كامبانيا Campagna وكانت مجرد أراضى مراع جميلة المنظر وسط

بقايا قنوات الماء المعلقة المتهدمة، هي اليوم وفيرة الثراء أيضاً حيث أصبحت أراضيهم في هذا القرن عقاراً باهظ الثمن داخل حدود المدينة .

ولدينا بيانات قليلة موثوق بها عن دخل أبناء إخوة وأخوات البابوات خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر حين كانت المحسوبية قد خفت فعلا عن ذى قبل . وقد سجل هذه البيانات سفراء فينتسيا الذين اهتموا بالأرقام بوصفهم من رجال الأعمال ؛ من ذلك أن سانت شارلز بوروميو ابن أخى البابا بيوس الرابع نصب كاردينالا فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان لهذا العمل نتائج رائعة ، حيث كان بوروميو رجلا عظيما ورعاً بلغ دخله السنوى خمسين ألف سكودى كان يوزعها على الفقراء أو يقفها على المؤسسات الدينية (أمراء بوروميو هم أسرة ميلانية ولا يزالون يتمتعون بثروات طائلة ويعيشون فى قصرهم الخاص المسمى باسمهم Palazzo Borromeo الكائن فى ميلان) . كذلك تسلم جاكوبونكمبانيو (تكتب الأسرة اسمها حالياً بونكمبانى — Boncompagni) وهو الابن غير الشرعى للبابا جريجورى الثالث عشر عقاراً قيمته ١٢٠ ألف سكودى على حين كان نصيب ، اثنين من الكاردينالات كانا ابنى أخوات البابا نفسه عشرة آلاف سكودى سنوياً ، ولا تزال أسرة بونكمبانى تمتلك قصوراً ودوراً وضياعاً ، وكان آخر قصر بنوه فى القرن التاسع عشر صورة مقلدة للمبانى القديمة وتشغله اليوم سفارة الولايات المتحدة الأمريكية فى شارع فينيتو بروما .

كذلك عمل البابا سكستس Sixtus الخامس على إثراء ابن أخيه الكاردينال منتالتو فمنحه دخلا كنسياً قدره مائة ألف سكودى . وفى سنة ١٥٩٩ أغدق البابا كلمنت السابع الدوبراندينى على اثنين من أبناء أخواته أحدهما كردينال والآخر رجل عادى، دخولا جملتها ٦٠ ألف سكودى لكل منهما ، ويروى عنه أنه اكتنز لأسرته ما جملته مليون سكودى (لا تزال أسرة الدوبراندينى من أغنى الأسر فى إيطاليا ،

وتمتلك عدا أملاكها الكثيرة الدار الشهيرة المعروفة باسمها فى فراسكاتى Frascati . وتعيش فيها اليوم ، وكانت قد بنيت أصلا للكاردينال ابن أخى البابا ، وتنتظم أرضها فى مدرجات تطل على روما من بعيد ، وفى حدائقها قضى الكاتب هنرى جيمس « ساعات لا يمكن وصفها » على حد تعبيره . وفى الحرب العالمية الثانية استولى عليها الألمان وجعلوها مقراً للجنرال كيسلرنج) . وجاء فى تلك البيانات أن البابا بولس الخامس البورجيزى أعطى أقاربه ٧٠٠ ألف سكودى نقداً ، ودخولا قدرها ٢٤ ألف سكودى سنوياً من أوراق مالية ، ودخولا قدرها ٢٦٨ ألف سكودى من مناصب مختلفة (ولا تزال أسرة بورجيزى واحدة من أربع أو خمس أسر كبيرة تنتسب إلى الأرستقراطية البابوية وترتبط بأسر شهيرة فى كافة أنحاء أوربا — ولا تزال هذه الأسرة تمتلك قصر بورجيزى الذى يعرف باسم آلة روما الوترية Cembalo di Roma بسبب شكله الغريب) .

ويروى أن دخل الكاردينال لودفيكو لودو فيزى L.Ludovisi ، ابن أخى البابا جريجورى الخامس عشر ، بلغ ٢٠٠ ألف سكودى سنوياً ، كما حصلت أسرة لودوفيزى بأكلها على شهادات استثمار بابوية luoghi di monte قيمتها ٨٠٠ ألف سكودى (اندمجت أسرة لودوفيزى مع أسرة بونكمبانى وأصبح اسمهما اليوم بونكمبانى لودوفيزى) . وترجع ثروة آل بربرينى Barberini إلى اثنين من أبناء أخوات البابا أربان Urban الثامن قيل إنهما حظيا بدخل سنوى قدره حوالى مليون سكودى ، فقد بلغت جملة ما حصلاه من وظيفتهما رقماً قياسياً هو ١٠٥ ألف سكودى — وكان آل بربرينى من أشد الأسرات البابوية جشعاً ، وقد بنوا القلاع والدور الفخمة وقصراً كبيراً فى ميدان بربرينى بروما وقد صممه بورومينى Borromini وبرنينى Bernini وهما أشهر معماريين فى عصرهما .

ولعل أسطع مثال عن الإيطالى الذى يصل إلى مركز قيادة خطير (ويصبح

بذلك رب أسرته بغض النظر عن عمره) ويوجه همه إلى رعاية أقاربه هم آل بونابرت ، فقد كان نابليون[١] إنساناً من نوع جديد Homo Novus — إن كان هناك نوع جديد إطلاقاً — وعلى غرار كثير من البابوات لم يضع ثقته إلا فى أقاربه وحدهم بل كثيراً ما تعذر عليه ذلك أيضاً ، ذلك أنه حالما اشتد عوده عمل على تحسين حال إخوته وأخواته وأصهاره وابن زوجته ، فنصب أخاه يوسف ملكاً على نابولى لفترة من الزمن ثم رقاه ملكاً على إسبانيا ، وجعل أخاه الأصغر لوسيان أميراً لمقاطعة كانينو Canino الواقعة فى إقليم ماريما Maremma شمالى روما ، وكان هذا لا يثق بأخيه نابليون . كذلك زوّج نابلون أخته إليزا Elisa بالأمير فليتشى باتشوكى ، ومنحها فى أول الأمر دوقية لوكا ، ثم منحها فيما بعد دوقية تسكانيا الكبرى . وصار أخوه لويس ملكاً على هولنده ، وتزوجت أخته بولين الأمير كاميلو بورجيزى ، كما تزوجت أخته كارولين جواكيم مورا الذى عين ملكاً على نابولى ، واضطر أخوه جيروم الذى كان متزوجاً من الأمريكية إليزابث باترسون، حسناء بلتيمور، إلى أن يطلقها ويتزوج فتاة ألمانية لم تكن على درجة وافرة من الجمال هى كاترين ورتمبرج حتى يصبح ملكاً على وستفاليا . أما ابن زوجته أوجين بوهارنيه Beauharnais فقد كان « نائب ملك » على إيطاليا وامتاز بقدرته وكفايته .

وإلى جانب هذه الأمثلة البارزة لهذا التقليد الإيطالى هناك أمثلة أخرى كثيرة قائمة بيننا حتى اليوم ، إيماناً بأن وضع الأقارب فى المناصب الرئيسية لا يكفل لهم جميعاً دخولا طيبة فحسب بل إنه يضمن كذلك سلامة الأسرة وأمنها ويدفع عنها غوائل الدهر . ولا يزال هذا التقليد سارياً بين الحين والحين فى الأسر البابوية ، فقد جعل البابا بيوس الحادى عشر ابن أخته « كونتاً » ، أما البابا يوحنا الثالث والعشرون

---

(١) لعل المؤلف يستند فى مثله هذا إلى أن آل بونابرت ينتسبون أصلا إلى تسكانيا .

فلم يفعل شيئاً قط من هذا القبيل لتحسين مركز أو زيادة دخل إخوته الفلاحين وأبنائهم العمال ، وكان يقول فى سذاجة : « إنهم أقارب البابا ، إنهم يتناولون الغداء معى مرة واحدة فى السنة ، وفى هذا ما يكفيهم » . ومن ناحية أخرى فقد صار أبناء أخوات البابا بيوس الثانى عشر أمراء (يقيناً لم يرفعهم البابا إلى هذه المرتبة وإنما الذى فعل ذلك هو الملك فكتور إمانويل الثالث V. Emnanuel III إنقاذاً لعمهم من الحرج) ، وفضلا عن ذلك وضعوا فى مناصب قيادية فى مؤسسات كبرى كانت المصالح المسيطرة فيها هى مصالح الكنيسة. وسوف توضح قراءة الأدلة الحديثة عدداً وفيراً من الأمثلة المعاصرة ، فهناك إخوة وأصهار وأبناء وزوجات أبناء وأزواج بنات وأولاد عم أو عمة لزعماء أو ساسة الديمقراطيين المسيحيين قد تقلدوا مناصب رفيعة مجزية فى المؤسسات الحكومية أو مؤسسات القطاع العام وكذا فى المؤسسات الصناعية والشركات القابضة holding companies ، مناصب قلما دربوا لها تدريباً معيناً .

ثم هناك على الأقل زعيم سياسى واحد استطاع منذ الحرب العالمية الثانية أن يجمع لنفسه ثروة طائلة أشبه بثروة الأسرات البابوية القديمة ، وتعتبر من أكبر الثروات فى إيطاليا ، جمعها فى دهاء مستغلا سلطته السياسية ، ونظمها على عجل وهو يسابق الزمن حيث كان بلغ من السن عتياً ، فعل ذلك وهو مرتاح الضمير لا لنفسه ولكن لمصلحة أولاده كما هو بديهى حيث كان قد أوشك أن يموت ولم يعد له مطامع فى الحياة ، على حين كانوا هم فتية صغاراً يافعين نضرين لايمكنه أن يضعهم فى مناصب هامة مجزية . ومما لاريب فيه أن هذا التقليد متبع كذلك فى الأعمال الحرة كما هو الحال أحياناً فى بلاد أخرى ، ثم هو منتشر فى المؤسسات الصغرى ، فنجد فى إيطاليا مكاتب حكومية صغيرة ومستشفيات ريفية مزخرفة بدون ذوق وبخاصة فى الجنوب ، وقد شغل

أهم مناصبها أفراد يحملون لقب أسرة واحدة أو تربطهم رابطة قرابة — وكثيراً ما يكون السبيل الوحيد للنجاح للرجل الطموح هو أن يتزوج من إحدى بنات رؤسائه .

وطبيعى أن الزيجات مهمة بوصفها الحاسمة فى تدعيم نفوذ أسرة عادية وإسعادها كما كان الحال قديماً مع زيجات الأسر الملكية ، ومن ثم يتزوج كثير من أبناء وبنات القادة السياسيين المشهورين بعضهم من بعض ؛ قل إن بعضهم رهائن فى معسكرات بعضهم الآخر ، وبذلك يعقدون عمل المعلقين السياسيين الذين يعجزون أحياناً عن تفسير بعض المواقف الغامضة عليهم إلا إذا أدركوا الرابطة الوثيقة الخفية التى تربط بين السياسيين المختلفين لا بوصفهم رؤساء لطوائف داخلية ولكن بوصفهم أصهاراً وأنسباء . ولم يعد الآباء الصارمون يجبرون بناتهم المتمردات على التضحية بأنفسهن من أجل الأسرة كما اضطر الملك فكتور إمانويل الثانى أن يفعل فى سنة ١٨٥٩ حين زوج ابنته الصغرى ماريا كلوتيلدا من الأمير نابليون بونابرت الشهير باسم بلوبلو Plon-Plon ، وكان رجلا بديناً منحلا متوسط العمر ، قبل أن يعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا ويساعد أباها فى غزو لمبارديا . إنه يندر أن يكون هناك ضرورة لهذا الإجبار فى العصور الحديثة ؛ فإن الفتاة التى نشأت نشأة سليمة وتلقت تربية صحيحة تريد بطبيعة الحال فى الرجل الذى تتمناه الصفات التى ستحسن من مستقبل أسرتها ." وسوف يبدو الشاب فى نظرها أكثر جاذبية إذا كان لأقاربه نفوذ فى الميدان نفسه الذى نشأت فيه سواء أكان هذا ميدان الأعمال أم ميدان السياسة أم ميدان القوات المسلحة ، أم الوظائف الحكومية البيروقراطية ، بل حتى فى ميدان الجريمة !!

وبهذه المناسبة نذكر أن أسر المافيا الكبيرة فى صقلية مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بشبكة من الزيجات القديمة والحديثة قدر ارتباط الأسر الأرستقراطية القديمة الوارد ذكرها فى دليل جوتا Gotha ؛ ولم يدرك مكتب مكافحة المخدرات

فى الولايات المتحدة الأمريكية أهمية هذه الروابط بين المهاجرين الإيطاليين إلا حديثاً ، فراح يجرى تحرياته . ورسم فى دقة بالغة شجرة تسلسل الأسر السيئة السمعة المنحدرة من أصل صقلى ، واكتشف رابطة القرابة الوثيقة التى تربطهم جميعاً . فكل منهم ابن عم الآخر أو زوج ابنته أوجده أو ابن زوجه أوعمه الأكبر أو ابن عمه أو عمته أو خاله أو خالته أو أبوه أو أمه فى العمادة وهكذا ؛ وتؤلف بعض هذه العشائر فى الولايات المتحدة طوائف محكمة مغلقة على نفسها . فيقصر حفدتها الزواج من قريباتهن على نحو مطرد . ولبعضهم الآخر روابط أقل إحكاماً ولكنهم يحافظون على الصلات المتينة فيما بينهم . ولهم مصالح مشتركة ، وكما فعلت الدول الأوربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فهم يتحالفون معاً لإقرار السلم أوشن الحروب ، سواء كانت هذه عدوانية هدفها القضاء على منافسيهم أو فتح ميادين جديدة يتوسعون فيها ، أو حروباً دفاعية للمحافظة على سلامة مناطق نفوذهم ، ثم هم يتفاوضون ويعقدون معاهدات الصلح فى وقار وثقة .

وجدير بالذكر أن الرجل الإيطالى رب الأسرة أو وريثها يشتهر عن جدارة فى أنحاء العالم برجولته ، فهو يدافع بحماس عن استقلاله ، ولا يمكن أن تخضعه امرأة لإرادتها ، وكبرياؤه واضحة جلية ، راقبه وهو يتمشى فى الشارع الرئيسى Corso فى أية مدينة صغيرة فى وقت الغروب أو فى صباح أيام الآحاد بعد الصلاة ، إنه يبدو مغروراً ، وقد تأنق فى ملبسه وراح يلقى ببصره يميناً ويساراً فى زهو وكبرياء ، ثم الحظه وهو يختلس النظرات إلى الفتيات الجميلات من طرف جفنيه المتدليين : إنه يبدو وكأنه سيد الخلق .

أما المرأة فما هى ؟ واضح أنها خُلقت لتسلية الرجل ومواساته ؛ وهى أشبه بدمى التمثيل الإيمائى التى تساعد الحاوى فى القيام بألعابه على المسرح وذلك من حيث

زينتها وعدم أهميتها ، ثم هى – أعنى المرأة – كجميع من هم أقل شأناً وأدنى منزلة لابد من اتخاذ كل وسيلة لوضعها فى مكانها وذلك لمصلحتها قبل كل شىء، وحين لاتصبح فريسة الدعاية الدنيئة الغادرة يمكن حقًّا أن تكون مقبولة مفيدة وأسعد حالا أيضًا ، وهى تعرف ذلك بدورها وتكون شاكرة حامدة لزوجها ، وحين تبدأ تعبّر عن نفسها يجب تلقينها درسًا على الفور . يقول المثل الإيطالى : « إن المرأة مثل البيضة كلما ضربت أصبحت أحسن » .

والإيطاليون بطبيعة الحال يرثون لحال غيرهم من الناس الذين عجزوا عن إخضاع نسائهم ، أو أولئك الذين تركوا لهن الحبل على الغارب ، فيقولون لنتأمل كيف أن هؤلاء النساء معذبات غير راضيات عن حالهن حيث لايشعرن بقيد يكبح جماحهن وحيث يسمح لهن القيام بأشياء ليست من اختصاصهن ! ثم يقولون فلتنظر إلى الأزواج الأجانب الذين يعاملون زوجاتهم بشىء من الرهبة بل بشىء من الخوف أحيانًا وكأنهن حيوانات آكلة البشر . ما أطوع هؤلاء الرجال لنزوات نسائهم اللائى يصبحن نتيجة لذلك مدللات عنيدات غير سعيدات ! ويشاع أن هؤلاء الرجال لايخفون من حياتهم وأفكارهم شيئًا عن زوجاتهم ، ويقدمون لهن حسابًا عما يفعلونه كل يوم ساعة بساعة ، وعن كل ليرة ينفقونها ، بل عليهم أن يطلبوا منهن الإذن لهم بالخروج فى أمسية ما لقضاء ساعات بريئة مع أصدقاء أبرياء . ألا ترى أن الأمور فى إيطاليا تسير وفق قوانين الطبيعة وإرادة الله ، وأن المرأة الإيطالية شاكرة حامدة لأنها تعامل على النحو الذى تعامل به ؟

إن المرأة الإيطالية لا تعرف شيئًا أبداً عن حياة زوجها الخاصة . ترى أله عشيقة ؟ أم له عشيقتان ؟ أله علاقة منتظمة مع امرأة ما ثم يهجرها إلى امرأة أخرى ، أم له علاقات مع نساء عديدات فى وقت واحد ؟ الحق أن الأوهام

لا تقلقها ، ويندر أن تتسرب الغيرة إليها ، فقد تساورها شكوك قليلة أحياناً ولكنها تنتظر فى ثقة عودته إلى البيت وهى سعيدة بكل ما يخبرها به ، أماعن نفسها فهى تعرف أن عليها أن تكون حذرة فلا تتطلع بأى حال إلى رجل آخر ؛ لأنها إذا فعلت فسوف تستحق عقاباً شديداً وسوف يتبرأ منها زوجها، بل فى كثير من الأحوال سوف تلقى حتفها . ثم تعرف وضعها فى النظام الذى لا يتغير فى المجتمع شأن زوجات فلاحى الجنوب اللائى يحملن أثقالا على رءوسهن ويسرن أميالا وراء الأزواج الذين يمتطون حمار الأسرة ، وفى فترة الصيف تجلس الأسرة الإيطالية فى آخر النهار خارج بيوتها أمام عتباتها لاستنشاق النسيم العليل a prendere il fresco فيدخن الرجال ويحيك النساء خيوط نسيجهن ويثرثرن فيما بينهن ، ويجلس الرجال دائماً أبداً مواجهين الشارع ويومئون للأصدقاء والمارين بهم . أما النساء فيجلسن وقد اتجهت وجوههن فى احتشام نحو جدار البيت ولا يرين شيئاً سوى الملاط والأحجار ولا يلتفت منهن إلى الوراء نحو الشارع من حين إلى حين سوى الوقحات الجريئات اللائى لا مناص لهن من أن يلقين مصيراً سيئاً .

وكل هذا طبعاً هراء فى معظمه ، فهو الكلام الرنان الرسمى الذى يرويه السياح غير المحنكين فى يومياتهم . ترى هل يصدقه الرجال الإيطاليون ؟ إن كثيرين يعتقدون فى صحته، بيد أن معظمهم يضمر شكوكا ومخاوف خفية حيث تأتى اللحظة التى يصدم فيها كل منهم بالحقيقة المؤلمة ، وهى أن معظم النساء اللائى له بهن علاقة هن زوجات رجال آخرين ، وبالتالى ليس من الممكن مادياً للأزواج أن ينحرفوا عن الاستقامة الزوجية دون أن تفعل ذلك زوجاتهم ، وهكذا يحدث يومياً أن عدداً وفيراً من الرجال الإيطاليين المزهوين الغيُر الشامخين المتكبرين يصيرون « من ذوى القرون » Cornuti ويصبحون موضع السخرية والتهكم .

وبديهى أن هذا الحال ظل على هذا المنوال قرونًا طويلة .

والمظاهر دائماً خداعة حيث يتصرف الرجال ظاهريًا وكأن الأمور قد نظمت دواماً وفق عادات غير قابلة للتغيير ولا جدال فيها ، والنساء راضيات بأن يلعبن بين الجنس البشرى دور أعضاء الدرجة الثانية فيه ، فهن يتصرفن من غير شك وكأنهن مخلوقات ضعيفة سهلة الانقياد قابلة للتكيف ، ولكن وراء تلك الواجهة نجد الأمور على خلاف ذلك .. فما الحقيقة ياترى ؟ إنه من الحمق والغبن أن نلجأ إلى التعميم فى الحكم ، فليست هناك حقيقة واحدة بل سلسلة لا تنتهى من الحقائق تختلف باختلاف كل منطقة فى البلاد وكل طبقة اجتماعية وكل بيئة وكل فرد . بل إن الحقيقة تتغير أحيانًا من يوم إلى آخر ومن ساعة إلى أخرى ، وقد تندمج فى حقيقة أخرى بمعنى أن هناك حقائق متقلبة مبهمة متعددة الوجوه ، ومع ذلك لم يمكن القول عن يقين بأن هناك فى إيطاليا توزيعًا دائمًا للحقوق بين الجنسين فالرجل هو اسميًا رب البيت ، ولكنه ليس الحاكم المطلق فيه على أى حال ، حيث يتولى السياسة العامة ، وهو من غير شك المسئول عن الحرب والسلام وعن العلاقات مع سائر الناس ، والزوجة هى رسميًا الشخصية التابعة تتعهد واجبات أكثر تواضعاً بيد أن مجالها غير محدد وهو مجال متسع إلى حد كبير .

وهذا الترتيب لا يعطى أيهما سلطة ساحقة ، فهو يمنح المرأة النصيب الأكبر من المسئولية الأدبية ، وبفضلها تسير الأمور سيراً سلسًا فى البيت ، ولكن علمتها القرون أن تجعل زوجها يتناسى نفوذها الفعال ، فهى عادة تستطيع أن تدبر الأمور بطريقة حاذقة لا تكاد ترى ، وتهدئ من مشاعره وتتحاشى إظهار أوجه الخلاف بينهما ، ولكن لها بعامة الكلمة الأخيرة غير المنطوقة ، وهى بطبيعة الحال تحتفظ بمكانها ، وبديهى أنها ستفقد سيطرتها إن هى غفلت عن ذلك . وقد يكون

مكانها فى المطبخ (فى الأسر ذات الدخل الضئيل) أو فى حجرة الجلوس وغرفة التزين (فى الأسر الأكثر ثراء) . أما ليلا فإن مكان جميع الزوجات هو الفراش الزوجى ؛ أيًّا كان مكانها فهو مكان له سلطة عظيمة — بعبارة أخرى يمكن القول إن الرجال فى إيطاليا يديرون البلاد ، أما النساءفهن اللائى يدرن الرجال .

وما كان من الممكن أن تكون الأمور خلافًا لذلك،فإن مقام كل فرد وسلامته وسعادته تتوقف كلها على القوة،والأسرة هى أول مصدر لها،وهذه تحدد سلطتها عوامل شتى : المال ، الاتصالات ، المصاهرات ، الصيت ، المرتبة ، الحظ ، ولكن يحددها أولا وقبل كل شىء تماسك الأسرة الداخلى وانسجام فروعها وشعبها ، وكل هذه الأمور يقبض النساء على زمامها فى كل أنحاء العالم وبخاصة فى إيطاليا ، فالنساء هن اللائى يرتبن الزيجات اللائقة المناسبة ، ويتتبعن الأقارب البعيدين ، ويشرفن على أن يقوم كل فرد بعمل الشىء المناسب لا لنفسه وسلامته بل للأسرة وسعادتها جملة .

ويدرك النساء الإيطاليات أهميتهن ، ويعرفن أنه بدونهن سوف ينهار البناء كله وفى ساعات قليلة وكأنه بيت من الورق ، أو قل هم أشبه بمجموعات النمل فى جهودهن المستمرة غير الهيابة ، فقد وهبن أنفسهن لواجباتهن آناء الليل وأطراف النهار ، ووقفن الحماس والحمية وروح التضحية لأسرهن كما يفعل الأبطال والبطلات نحو الملك والقائد والعلم والوطن والدستور والثورة وخطة السنوات السبع ، وما يفعله القديسون والقديسات من أجل المجد الأعظم للخالق .

وبينما يحتفل كثيرون عن جدارة بكفاح الوطنيين والثوار والقديسين واستشهادهم فإن أحداً لم يحاول قط أن يعبر عما يبذله النساء الإيطاليات فى كل العصور من جهود ضخمة مغمورة جريئة تثير الرهبة من أجل معاونة أزواجهن وضمان سلامة أسرهن

ومن أجل تيسير سير الأمور فى وطنهن . الحق أنه لم يشتهر من النساء الإيطاليات سوى عدد قليل جداً . نذكر منهن الكونتيسة تريزا كونفالو نييرى كازاتى Teresa Confalonieri Casati وهى من ميلانو ، فقد كان زوجها قد تآمر ضد حكومة النمسا سعياً وراء استقلال إيطاليا وانقاذها من نيرها ، فقبض عليه وقدم للمحاكمة وصدر عليه فى سنة ١٨٢٣ حكم بالإعدام ، وسافرت زوجته الكونتيسة إلى فينا ، وركعت على ركبتيها أمام الإمبراطور متوسلة إليه الرحمة بزوجها ، ونجحت فى مسعاها ، فنجا من الإعدام وسجن مدى الحياة فى قلعة سبلبرج Spielberg فى بوهيميا ، ولم تتبادل معه الرسائل قط ، وماتت دون أن تراه مرة أخرى .

ترى كم من الأخوات والزوجات والبنات والأمهات والعمات والجدات المغمورات قد تورطن وتعذبن من أجل حياة الرجال الإيطاليين ! كم من نساء عديدات وهبن كل أفكارهن وجمالهن وآمالهن وصحتهن ورجاحة عقلهن لحماية أسرهن وإسعادها عبر قرون عدة من التقلبات والغزوات والهزائم والمجاعات والمذابح ! وكم من نساء اضطررن إلى الكذب وحبك الدسائس والمناورات والمؤامرات أو ارتدن أماكن نائية لجمع معلومات نفيسة أو للظفر بحلفاء نافعين أو رهائن من نوع ما ! لقد ضحت كثيرات بحياتهن فى شهامة ونبل ؛ إما قطرة قطرة خلال سنوات أو دفعة واحدة حين كان ذلك أمراً ضرورياً ، وكم منهن تجرأن على ارتكاب القتل ! وكم منهن قبلن حياة العار الدنسة ! وكم منهن تسللن فى كل عهد إلى فراش شخص ذى نفوذ لا لمتعتهن دائماً بطبيعة الحال ، ولكن سعياً وراء ترقية أزواجهن أو آبائهن ! ترى ماذا تستطيع المرأة أن تفعل أكثر من ذلك لأسرتها ؟

* * *

وهناك علامات صغيرة تدل على تفوق شخصية المرأة فى الحياة الإيطالية ، تلك حقيقة بارزة . خذ مثلا الأغانى الشعبية حيث يخصص منها كل عام للأم La Mamma

قدر ما يخصص للعشيقات والحبيبات الفاتنات . ولعل أكثر الصيحات تداولا بين الإيطاليين هو قولهم : « أماه ! Mamma Mia » ترى ماذا يقول أفراد الشعوب الأخرى فى وقت المحن والأخطار ؟ هل يقول الألمان أيها الأم Mutter وهل يقول الفرنسيون « ماما » ؟ وهل يقول الإنجليز « يا أمى Mother of mine » حين يواجهون إخفاقًا أو محنة مفاجئة ؟ ويلاحظ أن الجند الإيطاليين الجرحى يئنون وهم فى مراكز الإسعاف فى الخطوط الأمامية قائلين بصوت يكاد لا يسمع : أمى ، أمى ، أمى ! وكأنهم أطفال يتألمون ؛ كذلك فإن المحكوم عليهم بالإعدام يقولون وهم ينتظرون إطلاق الرصاص عليهم : « أماه » . أما الاستغاثة بالعذراء فهى أكثر الصيحات انتشاراً بعد الاستغاثة بالأم ، وذلك بوصف العذراء LA MADONNA المرادف الخارق للأم ، ولكونها الرمز العام للأنثى فى معاناة الألم والتضحية بالنفس .

ثم إن الكنيسة نفسها تشجع بلباقة هذه النزعة القومية . وللسيد المسيح فى إيطاليا مركزه الأسمى مع أمه ، ويكاد يكون على قدم المساواة معها . وقد يكون فى إيطاليا الكثير من الكنائس المكرسة للعذراء بصورها الكثيرة المختلفة وصفاتها وخصائصها قدر ما للسيد المسيح ، ولكن أكثر المزارات المقدسة فى إيطاليا استقبالا للزائرين وأعظمها إجلالا هى مزارات العذراء وأهمها عذراء بومبى Madonna di Pompei ، وعذراء لوريتو Loreto ، وعذراء روزاريو ، وعذراء كارمينى ، وعذراء الحب المقدس Del Divini Amore كذلك للعذراء صور أكثر إعجازاً من أى صور أخرى جاء بعضها عبر الأمواج من الشرق بوسائل خارقة فى العصور القديمة ، ويقال إن قلة منها رسمها القديس يوحنا أحد الحواريين الأربعة ، فى حين رسم كثيراً منها عباقرة الفن الإيطالى ، ولهذه الصور كلها فائدة خاصة فى حل مشاكل نسائية معينة : فيصلى لها العانسات ويبتهلن حتى يعثرن على أزواج صالحين ، والعاقرات حتى يحملن ،

والزوجات البائسات حتى ترد لهن حب أزواجهن ، والأمهات حتى يشفى أطفالهن من أمراض مستعصية . كما أن أغلب الرجال الإيطاليين قد نذروا شخصياً إلى السيدة ماريا ، فيرد اسمها بين ما يعطون من أسماء يوم تعميدهم ، ثم إن ماريا هى من القديسات والقديسين الذين ائتمنوا رسمياً على حماية إيطاليا . وهناك فى كل شهر، يوم واحد على الأقل مخصص بها ، وكل هذه الأعياد لايقتصر الاحتفال بها ومراعاتها على الكنيسة وحدها بل تشترك فيها مكاتب الحكومة والقطاع الخاص ، ويعتبر شهر مايو من كل عام شهرها الخاص ، وفضلا عن ذلك تخصص لها بين حين وحين سنوات بأكملها .

ويجب أن نتذكر أن الإيطاليين كانوا شديدى التعلق بعقيدة ماريا العذراء Cult of Virgin Mary ويأبون إباء شديداً إغفال شأنها أو الإقلال من مكانتها وقد وافقوا من أجلها على شطر العالم المسيحى على يد البروتستنت الذين لم يعتبروها جديرة بهذا التبجيل الشديد ، ومن ثم ساعد تعلق الإيطاليين بالعذراء على مر العصور على جعل إعادة وحدة المسيحيين أمراً بالغ الصعوبة أو مستحيلا تقريباً . ذلك أن ضغط الإيطاليين المخلصين وحماس رجال الدين منهم هو الذى دفع الكنيسة إلى إعلان عقائد لاهوتية عن العذراء قننت فيها وقدست التقاليد والأساطير التى يعتز بها الناس السذج ويؤمنون بها من صميم قلوبهم .

* * *

ويشك الرجال الإيطاليون فى زوجاتهم ويغارون عليهن ، معتقدين أن ذلك هو أول واجبات الرجولة ، حيث يتوقف استقرار الأسرة وضمان سمعتها الطيبة على وفاء الزوجة لزوجها أكثر من وفاء الزوج لزوجه ، والقوانين الإيطالية صريحة فى هذا الموضوع : فزنى المرأة جريمة تعاقب عليها ، أما زنى الرجل فليس كذلك إلا إذا اقترن بسلوك

فاضح شائن . ويزخر التاريخ الإيطالى بأمثلة شهيرة على تصميم الرجال والإخوة والأبناء على عقاب نسائهم لخطايا تجلب العار والسخرية لأسمائهم ، ثم إن الصحف اليومية ملأى كل صباح بقصص كئيبة من هذا النوع ، وبرغم ذلك كله لا يظهر النساء أية دلالة على خوفهن من العقاب .

ولهذا الاتجاه أمثلة كثيرة ساطعة وبخاصة فى القرن السادس عشر، وهو أكثر القرون اصطباغاً بالصبغة الإيطالية . خذ مثلا قصة السيدة الفاتنة بلجرينا بنتيفوليو Donna Pellegrina Bentivoglio التى قتلت بأمر زوجها الكونت أوليس Ulisse فى سنة ١٥٩٨ ، فقد اتهمها خطأ بأنها ارتكبت جريمة الزنى ، فأرسل إليها أربعة من السفاحين هجموا عليها فى رائعة النهار وقطعوها إربا إربا هى ووصيفتين لها وسائق عربتها وتركوا بقايا الجثث فى الطريق . كذلك حدث فى سنة ١٥٩٠ أن فاجأ السيد كارلو جيزوالدو Don Carlo Gesualdo (ابن الأمير فينوستا Venosta) زوجه السيدة ماريا دافالوس Donna Maria D'Avalos ومعها عشيقها السيد فابريزيو كارافا Fabrizio Carafa دوق أندريا Andria وقتلهما بنفسه فى قصره . وفى مدينة ميلانو حدث أيضاً فى سنة ١٥٧٧ أن هجم الرجل الورع الكونت جوفنى بوروميو ابن عم كل من الكاردينال فيديرو بجو Federigo وسانت شارلز على زوجه الملتوية المشاكسة الكونتيسة جوليا سانسفرينو وطعنها ثلاث طعنات قاتلة وهى جالسة تتناول العشاء .

أو خذ ما حدث لأسرة ما سيمو Massimo وهى من غير شك من أنبل أسر روما وأعرقها ، سواء كانت — كما تدعى — أم لم تكن منحدرة أصلا من آل فابى Fabii الرومانيين (نسبة إلى روما) ومن فابيس ماكسيموس Fabius Maximus الذى قهر هانيبال ، فقد كان لرب الأسرة ليليو Lelio من زوجه الأولى فى العصر الذى نتحدث عنه (ق١٦) ستة بنين ، وكان هؤلاء شباناً أقوياء ضخام القامة ، وحدث

أنه بعد أن توفيت أمهم وقع أبوهم فى غرام فتاة أدنى منه مرتبة ونسباً وتاريخاً مما لايليق بأمير رومانى فى ذلك العصر، وكانت هذه الفتاة تدعى يوفروزينا Eufrosina، وقدولدت فى بقعة لا تبعد كثيراً عن تشوشاريا Ciociaria التى ولدت فيها الممثلة المعاصرة الشهيرة جينا لولو بريجيدا، وكانت قد تزوجت من قبل من رجل اسمه كوربيريو Corberio ولكن جمالها الفاتن كان قد سحر الأمير مارك أنطونيو كولونا Marcantonio Colonna ففقد عقله وقتل زوجها حتى يستطيع أن يفوز بالأرملة الفاتنة ويتخذها محظية له فى قصره. وكان لزاماً على ليليو ماسيمو أن يهبها أكثر من ذلك حتى يفوز بها لنفسه فتزوجها. وبديهى أن هذا الزواج كان إهانة لشرف الأسرة لم يمكن أن يتحملها الأبناء، فرفضوا ليلة زفافها فى سنة ١٥٨٥ أن يرحبوا بها فى البيت، وفى صباح اليوم التالى دخل عليها فى مضجعها خمسة من الأبناء وقتلوها فى فراشها رمياً بالرصاص، ولم يتخلف عن الاشتراك فى هذه الجريمة سوى ابن واحد باركه ماسيمو على حين أنه صب لعناته على إخوته الآخرين. وبعد أسابيع قليلة لحق الرجل العجوز بزوجه فمات كسير الفؤاد. وشب بومبيو الابن الطاهر الذيل من الجريمة ليواصل نسل أسرة ما سيمو العظيم (ومن نسله المعاصر السيد فيتوريو Vittorio الذى ورث الجانب الكريم المحتد من أصله، وكان قد تزوج من الممثلة السينمائية الشهيرة دون آدمز ورزق منها بابن، ولكنه حين أراد طلاقها لم يسلك سبيل أسلافه الأفظاظ بل تحاشى سفك الدماء ولجأ إلى المحاكم).

أما اللعنات التى صبها العجوز الراحل ليليو ماسيمو على أبنائه الخمسة الذين قتلوا زوجه فلم تذهب سدى فى تلك الأيام حيث لقى كل منهم نهاية سيئة، فقتل الأول وهو أتافيو بقذيفة مدفع فى معركة بحرية ضد الأتراك، ولجأ جيرولامو إلى فرنسا حيث قتل رمياً بالرصاص فى كمين أعد له حينما كان يغازل سيدة من النبيلات، كما

قتل ثالثهم ألسندرو قرب باريس وهو يعمل جندياً فى فرق القائد فارنيزى ، وكان الابن الرابع لوقا هو الوحيد الذى قبض عليه فى روما فى قضية مقتل زوج أبيه . ثم أطلق سراحه على اعتبار أنه انتقم لشرف الأسرة ، ولكنه مات مسموماً ، دس له السم أخوه ماركانطونيو الذى قبض عليه بتهمة قتل أخيه وسجن فى برج نونا Torre di Nona حيث اعترف بجريمته وأعدم فى الميدان الصغير المواجه لجسر قلعة سانت أنجلو .

* * *

وعلى مر القرون لم يعد يحتفظ بهذه التقاليد الصارمة كاملة سوى الطبقات الدنيا ، ثم هى فعلا الوحيدة التى لا تزال تحتفظ بها حتى اليوم . أما بين الطبقات الكريمة المولد فقد أصبحت آداب السلوك أكثر رقة وتسامحاً ، فاستضافت الزوجات عشاقهن بسخاء مطرد دون مبالاة ، وأصبح لزاماً على الأزواج أن يعالجوا هذا الموضوع بأسلوب أكثر واقعية وأقل سفكاً للدماء ، ولولا ذلك لقضى على نصف البالغين من السكان . واستطاع بعض الأزواج أن يحتفظوا بهدوئهم وبشهيتهم بل بمصادقة عاشقى زوجاتهم الذين قد رفعوا عن كاهلهم برغم كل شىء أعباء ثقيلة (نذكر من هؤلاء الكونت جويتشولى وهو من رافنا الذى اشتهر بأنه الزوج المستسلم المتسامح لعشيقة لورد بيرون الحبيبة الأخيرة للشاعر العظيم) . ومن هذه الأمثلة أيضاً كونت بابادوبولى زوج فاتنة من البندقية فى القرن التاسع عشر ، وقد اشتهر بخفة روحه وفكاهاته وتوقد ذهنه . روى عنه أنه بينما كان نائماً إلى جانب زوجه فى إحدى الليالى سمع صريراً وتنفساً وشخيراً صادراً من تحت الفراش ، فأدرك أن هناك عاشقاً من عشاقها الكثيرين فوجىء بحضوره فوجد ملاذاً له تحت السرير ؛ ولم ينبس الكونت ببنت شفة . وفى الصباح حين جاءته القهوة أدلى إحدى يديه وبها الفنجان كاملا إلى أدنى السرير ، وسأل فى أدب دون أن ينظر : «هل تشرب قهوتك محلاة أم غير محلاة ؟»

فقد رأى أن فى قضاء العشيق ليلة كاملة طريحًا على الأرض تحت زوج عشيقته مباشرة ، العقاب الكافى لتعذيب أى إنسان !

وهناك أيضًا قصة الرجل الغيور الفاضل الذى كره أن تكون له « قرون » ، ولكنه استطاع أن يتجنبها دون كلمات جارحة أو سفك للدماء ، نعنى قصة البارون بتينو ريكازولى Bettino Ricasoli الذى ولد فى سنة ١٨٠٩ ، وكان رجلا ورعًا ، وقف حياته للسياسة والدراسات الجدية فى الزراعة التى تخصص فيها ، ولم يكن وسيمًا بأى حال من الأحوال بل كان شديد الحول ، ولكنه كان ذا قامة طويلة نحيفة يسير فى زهو الجندى وخيلائه ؛ وقد عين رئيسًا لوزراء إيطاليا سنة ١٨٦١ ؛ وكان بذلك — بعد كافور — ثانى رئيس وزراء لإيطاليا الموحدة ، ولكنه لم يلبث فى منصبه سوى فترة قصيرة ، لأنه كان دائم الشجار مع الملك فكتور إمانويل الثانى الذى كان أرستقراطيًا عنيدًا مثله .

وحدث بعد زواج بتينو ببضعة أشهر — وكان يعرف بالكونت الحديدى Barone di Ferro أن اصطحب فى ليلة ما زوجه الشابة « أنا بونا كورسى » إلى حفل راقص فى فلورنسا ، وهناك لاحظ أن شابًا معينًا رقص معها بضع مرات ، فقال لها : « لابد لنا من الرحيل ياعزيزتى » . وأخذها إلى العربة التى كانت فى انتظارهما ، وجلس إلى جانبها ، وصاح بالسائق قائلا : « هلم بنا إلى بروليو Brolio » ، وكانت هذه الضيعة مقر الأسرة ، وبها قلعة كئيبة منعزلة وسط التلال القحلة الجرداء ، وكان آل ريكازولى قد هجروها منذ زمن طويل ؛ فشد السائق أعنة الخيل ، وسارت العربة وسط الثلوج وقد خيم السكون على راكبيها حتى الفجر . وكان الزوج مرتديًا ملابس السهرة على حين راحت السيدة ترتعد من شدة البرد وهى فى ثياب الحفل . وعاش الاثنان فى بروليو بقية حياتهما .

ولكى يقتل الوقت جدد بتينو بناء سكنه فى الضيعة حتى أصبح يبدو كتلك التى

حلم بها سير والتر سكوت أو تلك التى صممت لتكون خلفية لأوبرا التروفاتورى Il Trovatore كما قام أيضاً بتجربة زراعة أنواع جديدة مختلفة من العنب مستخدماً طرقاً أحدث وأحسن . (ولابد للمرء من أن يكون صبوراً قوى العزيمة عند القيام بهذه الأعمال حيث يستلزم الأمر قضاء خمس سنوات تقريباً قبل أن يتذوق نتاج خليط العنب الذى زرعه) . ووفق البارون إلى عمل مزيج من العنب الأسود والأبيض المعروف باسم سانجوفيزى Sangiovese ومالفازيا ، Malvasia ووفق إلى تخميرهما على موجتين متتاليتين ، فأعطيا مذاقاً جديداً جذب الكثيرين ، وراح زارعو العنب فى الإقليم وهو إقليم كيانتى يحاكون ما فعله البارون ، وهكذا اشتهر فى النهاية نبيذ كيانتى Chianti وذاع صيته فى العالم كله . ولايزال نبيذ ريكازولى Ricasoli من أحسن أنواع الكيانتى ، ويعتبر النوع المسمى قلعة بروليو Brolio Castle من أغلى أنواعه وأحسنها كلها . وهكذا استطاع البارون أن يحتفظ بطهارة الأسرة وباسم زوجته وشرفه بعيداً عن الدنس ، كما استطاع أن يجمع ثروة كبيرة ويثرى جيرانه فى الوقت نفسه .

* * *

كذلك تكتسح الحياة الحديثة فى إيطاليا تماسك الأسرة الرائع ، وقد يكون لهذا التغيير نتائج خطيرة . ترى أئذا ضعفت روابط الأسرة عمت الفوضى وساءت ؟ أم يشجع الإيطاليون فى النهاية احتراما لائقاً للسلطات والمؤسسات الرسمية ؟ الواقع لم تعد الأسرة فى إيطاليا ، وبخاصة فى مراكز الشمال الصناعية ، على ما كانت عليه فى الماضى . وطبيعى أن هذه الظاهرة ملموسة هناك بقدر أكبر ، لأن الشمال أقرب إلى سائر بلاد أوربا حيث ساعدت الصناعة وانتشار الثروة شيئاً فشيئاً على تحويل المجتمع تحويلا محسوساً . ففى الشمال يسكن الإيطاليون فى شقق صغيرة ، وتفصلهم عن أقاربهم مسافات واسعة ملأى بالمبانى وتشقها الشوارع المزدحمة كما لو كانوا يعيشون فى أقاليم بعيدة بعضها عن بعض . ولا يرى الأقارب بعضهم بعضاً إلا فى فترات

متباعدة ، بل قد ينسى بعضهم بعضًا تمامًا وسط معمعة الحياة ؛ ويريد الشباب أن يكونوا مستقلين فى حياتهم ودراساتهم وأذواقهم وأطماعهم وأصدقائهم ، وأن يعيشوا بعيداً عن سيطرة الآباء والأمهات . وأخذت بعض الطقوس والشعائر والتقاليد القديمة تزول شيئًا فشيئًا أو تمارس بابتسامات تنم عن شيء من التفضل أو الاستهزاء .

وبدأ الطلاق يجد سبيله إلى الإيطاليين بوصفه عادة من عادات الطبقة العليا . وبديهى أن القوانين الإيطالية لاتزال خالية تمامًا من هذا الموضوع [1] ، وسوف تظل كذلك ، فليست الكنيسة وحدها هى التى تعارض الطلاق بل الناس أنفسهم أيضًا حيث يعتقدون أنه نظام بربرى مدمر ، وسوف تحول دون الأخذ به ضرورة الاحتفاظ بحاجز منيع ضد تغير الأمور ، والواقع أن أعنف الفوضويين والثوار اليساريين لم يجرؤوا فى الماضى على اقتراح الأخذ به ، بل إن الشيوعيين ينكرون اليوم بشدة أنهم يفكرون فى تأييده ، حيث يعرف كل فرد أن الهدف الأساسى من الحياة الزوجية هو تأسيس أسرة جديدة وتدعيم الأسر القائمة لا مجرد إشباع أحلام الشباب وامتزاج روحين معًا . طبيعى أنه من المرغوب فيه أن يكون الزوجان سعيدين برفقة أحدهما للآخر ، ولكن هذا ليس بالأمر الذى لامفر منه ، فهناك أمر واجب ملح ، ذلك أنه إذا انحرف الزوج أو الزوجة أو كلاهما عن الصراط المستقيم فلزام عليه أو عليها أو عليهما معًا أن يدبرا الأمور على نحو لا يهدد كيان الأسرة ويدمر حياة الآخرين ، فعلى الأزواج المخطئين والزوجات المخطئات أن يعطى كل منهما الآخر وبكل الوسائل جميع الفرص لخداع نفسه أو لخداع نفسها . ومن الاتجاهات الخطيرة التى ينبغى قمعها إغفال الاحتياطات (حتى الواضحة منها) وعادة ترك الخطابات مفتوحة فى كل مكان أو عدم كتمان الأسرار والاعتراف بكل شيء .

---

(١) فى سنة ١٩٧١ أصدرت إيطاليا قانوناً يبيح الطلاق لمواطنيها .

ومنذ سنوات قليلة عاش فى جنوة مصرفى متزوج فى متوسط العمر وقع فى غرام سيدة جميلة زوجة رجل رقيق الحال ، ولم يرتح المصرفى إلى اجتماعاته خلسة مع هذه السيدة فى غرف مؤجرة ، وفضل أن يقابل محظيته فى وقت فراغه فى مسكنها المريح . وكان كلما زارها فى الأمسيات يقول لزوجها : « يا صديقى العزيز لدى شعور خفى بأن رقم كذا سوف يفوز الليلة على مائدة الروليت ، فهل تمانع فى أن تذهب إلى النادى لتقامر عليه بمبلغى هذا ؟ واعتاد الزوج أن يطيع هذا الضيف وتوجه دائماً إلى النادى لتنفيذ ما طلبه إليه ، وكان يعود بعد ساعتين ويقول : « للأسف لم يظهر الرقم إطلاقاً بين الأرقام الفائزة ، وإنه قد خسر المبلغ » . واستمر الحال على هذا المنوال مدة سنوات . وكان من الممكن أن يسخر من هذا الترتيب اللطيف المتمسكون بمبادئ الفضيلة والأخلاق ، بل كان من الممكن أن يهذروا ويفصحوا عن الحقيقة المؤلمة ، وهى أن الزوج إنما كان يدس النقود فى جيبه ، وأنه نصاب دنىء يقتات على حساب محنته ، وأن زوجه ليست سوى عاهرة فاجرة . وكان من الممكن أن يفسدوا هذا الترتيب المحكم المهذب بمطالبة الزوجة بأن تعترف علناً بخطاياها ، ومطالبة الزوج بأن يطلقها ، وكذا مطالبة المصرفى بأن يهجر زوجه وأطفاله ويتزوج محظيته ، وهكذا يدمرون أسرتين فى وقت واحد .

ومع ذلك فإن كثيرين اليوم يريدون الحصول على الطلاق بطرق عنيفة وبأى ثمن حتى يمكنهم الزواج مرة أخرى ، ونتيجة لذلك ابتكر المحامون الأذكياء وسائل وحيلا قانونية لطلاق أولئك الأزواج الذين يصعب عليهم الحصول على بطلان رابطتهم المقدسة . وهكذا حلت زيجات كثيرة فى بلاد بينها وبين إيطاليا معاهدات ثنائية تنص على أن حكم النفاذ فى إحداها يسرى ويعتبر شرعياً فى الأخرى فى حالات معينة ، بيد أن قليلا من المحاكم الإيطالية جرؤت على أن تقرر صلاحية قرارات تلك المحاكم الأجنبية .

ومع ذلك قرر أحد القضاة الإيطاليين المسنين يومًا ما اعتبار تلك القرارات سارية المفعول فى إيطاليا لفترة من السنوات تنقضى بإحالته إلى المعاش ، وبذلك حرر آلافًا من الأزواج التعساء ، إلا أن هذه الثغرة الوحيدة قد سدت الآن بإصدار تشريع أكثر تفصيلا ولوائح أشد صرامة ، ولكن هناك وسائل أخرى يجرى اكتشافها. وطبيعى أن إجراءات الطلاق فى إيطاليا هى أيسر للناس المغمورين والمجهولين الذين لايهتم قراء الصحف بهم ولايثيرون فضائح واسعة النطاق ، أما ممثلو السينما والساسة المعروفون والمغنون المشهورون فلزام عليهم ألا يلجأوا إليها ولكن حين لايكون هناك سبيل للخلاص وحين يتعذر التحايل فإن عدداً متزايداً من الناس يغفلون القانون ويؤسسون بيتًا مع رفاقهم الجدد دون اللجوء إلى السلطات المدنية أو رجال الدين .

وبطبيعة الحال حدث هذا من قبل ، بل إنه كان يحدث دائمًا ، ولكن هناك فارقًا بين ما حدث فى الماضى وبين ما يجرى الآن ، فلم يعد ينظر إلى الأزواج غير الشرعيين أنهم كمرضى الجذام يعيشون حياة منعزلة بعيدين عن الأنظار ، أو منبوذين كما كان حال أنا كارينينا Anna Karenina وفرونسكى Vronsky فى رواية تولستوى الخالدة ، بل أصبحوا يقبلون فى المجتمع ويدعون إلى كل مكان وينظر إليهم نظرة ملؤها الرأفة والإشفاق ، بل يشجعون كأنهم ضحايا بريئة لنظام تشريعى قاس ينتمى إلى العصور الوسطى ، فأصبحت السيدة تسمى عادة باسم عشيقها على سبيل المجاملة ، كما أمكن عن طريق حيل قانونية مختلفة أن يسمى الأطفال باسم اسرة الرجل وإن كان هذا مخالفًا للقانون . خلاصة القول أن هذه الروابط تكاد تكون اليوم "موضع الاحترام أو قل بالغة الاحترام والمتانة ، بحيث إن كثيرين من هؤلاء السيدات والرجال غير المتزوجين رسميًّا بدءوا فى أن تكون لهم ، علاوة على ذلك ، علاقات غرامية أخرى.

* * *

وكما حدث فى الماضى فى مناسبات كثيرة، يبدو الإيطاليون اليوم متحمسين للأخذ بالكثير من المستحدثات الأجنبية، وهكذا أخذ نظام الأسرة يتفكك بوضوح، ترى هل يعنى هذا أن إيطاليا تتغير حقًا ؟ أجل ، إن وراء هذه المظاهر الطائشة ، ووراء الأبواب المغلقة على كل أسرة ، كفاحًا شديداً للمحافظة على جوهر الأساليب القديمة ، يدور هذا الكفاح فى أعماق قلب كل فرد إيطالى ، وسوف تكون النتيجة المنتظرة بطبيعة الحال هى نفسها كما كانت دائمًا : تظاهراً بهيجًا بفكر حر متسع الآفاق لن يتفق تمامًا مع ما وراءه من حقيقة لاتقهر . وسوف يقول المراقبون السطحيون السذج : « إن إيطاليا لم تعد البلد الذى كان منذ قرون » ، وإن كثيرين من الإيطاليين هم اليوم « عصريون » كأى فرد آخر ، وإن ثورة عميقة قد غيرت دون شك حياتهم . أما المراقبون المتعمقون المحنكون فسوف يكونون أكثر إدراكًا للحقائق . طبيعى أن بعض الأفكار الحديثة سوف ترسخ وتثبت ولكن سوف تبقى أيضًا بطريقة ما روح الأساليب القديمة ، وسوف يختار الإيطالى مساندة أسرته فى أزمة من الأزمات ضد رجال الدرك Carabinieri والشرطة والمحاكم والرأى العام، بل أحيانًا ضد ضميره ، ذلك لأن الأسرة ظلت آماداً طويلة السفينة الوحيدة التى يعتمد عليها فى بحر عاصف ، والتى تطفو دائمًا وتصل إلى البر بكل ملاحيها ومحتوياتها فى سلام وأمن ، وقد تتغير الأمور بلا شك ، ولكنها تتغير ببطء شديد أو أنها قد لاتتغير إطلاقًا كما يحدث فى الفنادق القديمة الرثة فى إيطاليا حيث يجدد أصحابها واجهاتها ومداخل أبهائها ويتركون سائر مبانيها على حالها تمامًا .

وهناك بين أكثر الأوساط عصرية أمثلة كثيرة تدل على ما للأسرة من سلطان . خذ مثلا قصة الإخوة السبعة فى جنوة (كانوا أصلا ثمانية أخوة، ولكن مات أحدهم فى حادث سيارة) فقد امتلكوا فيما بينهم خطوطًا ملاحية ومصانع لتكرير زيت

الزيتون وصناعات وأعمالا أخرى ومؤسسات تبلغ قيمتها بلايين الليرات ، واتفقوا فيما بينهم ــ حرصًا على وحدة الأسرة ــ ألا يمتلك أى منهم شيئًا خاصًا به أكثر من ثيابه وثياب زوجته وأولاده والأثاث الذى فى بيته . أما باقى الممتلكات فهى شركة بينهم جميعًا بما فى ذلك السيارات التى يمكن لكل منهم طلبها تليفونيًا عند الضرورة . ويعتقد الإخوة أن هذا الترتيب الأسرى هو خير نظام لإدارة المشروعات الخاصة المعقدة الواسعة النطاق والتى يمتلكونها معًا ، وأنه يقضى على عوامل الاحتكاك فيما بينهم. أو خذ مثلا تصرف الأبناء الأصغر سنًا فى أسرة كبيرة فى صقلية ، فى هذه الجزيرة ما زالت سلطة الأسرة القديمة تتوقف إلى حد كبير على اللقب الموروث والدخل الذى تجنيه من الأرض الموروثة ؛ ولكن القانون الإيطالى ألغى الألقاب وفرض توزيع جزء كبير من الميراث توزيعًا متساويًا بين الأبناء ؛ ومن ثم نلاحظ لتحاشى تقسيم الملكية بين عدد وافر مما قد تختفى معه فى جيل أو اثنين ، نلاحظ أن الإخوة الأصغر سنًا يصرون على عدم الزواج شأنهم شأن الرهبان، وأنهم إذا تزوجوا فإنهم يمتنعون عن إنجاب أطفال حتى تبقى ثروة الأسرة ومكانتها وسلطتها كاملة غير منقوصة وتستمر إلى الجيل الثانى .

ويمكن بسهولة ذكر أمثلة أخرى ، وسوف تصادفك فى كل محادثة أو عمل تجارى أو نبأ من الأنباء ، فهى تستكن فى قلب الحياة الإيطالية نفسه. وإليك مثلا ماحدث منذ زمن ليس ببعيد: فقد تقرر منح مؤلف أفضل كتاب فى السنة جائزة أدبية وكان من بين المتقدمين مؤلف حظى بشهرة ممتازة هو شاب ذكى نشر ما يعتبر حقًا أحسن كتاب فى ذلك العام ، وأصبح بفضله شهيراً بين عشية وضحاها ، وكان ابن عالم شهير أيضًا ، وحدث أن عين أبوه عضواً فى لجنة التحكيم التى ستمنح الجائزة ، وشعر الأب الفاضل بحرج كبير ، ورفض أن يجلس فى لجنة تحكم على

أعمال ابنه ، وأبى أن يبخس عمل منافسيه ، وأبى أن يساور الناس الشك فيتهموه بالمحسوبية والمحاباة فى حالة فوز ابنه المحقق ، فقرر ألا يشترك فى لجنة التحكيم فى تلك السنة ، وكتب رسالة رقيقة إلى زملائه لم يشرح فيها وساوسه (فإن الشرح كان يستلزم الاعتراف بأن ابنه سوف يفوز بالجائزة وبالتالى قد يعتبر هذا الشرح نوعاً من الإيحاء والضغط) ، وبناء على ذلك تحاشى بدقة الإشارة إلى أن ابنه كان جديراً بالجائزة ، واقترح اسمين أو ثلاثة لمؤلفين غيره كانوا أقل امتيازاً .

واقترح عضو أو اثنان من أعضاء لجنة التحكيم إعطاء الابن الجائزة ، ولكنه لم يفز بها ولم تجد الحجة التى هزمته جواباً فى إيطاليا ، على حين قبلها الجميع كأنها نهائية ، فحين قال أحد الحكام : « لابد أننا أخطأنا فى تقديره . نعم ، لابد أنه ليس قديراً كما ظننا ، لأن أباه نفسه لم يعتقد أنه جدير بالجائزة ، ومن ثم لم يشر إليه قط فى رسالته إلينا » . حين قال أحد الحكام ذلك وافقه الجميع فى وقار . وقال الحكام فى أنفسهم : ما كان أسوأ هذا الابن ! فإن أباه نفسه لم يكن لديه من الشجاعة ما يؤدى معه واجبه الذى يمليه عليه قلبه نحو ولده ، وهو واجب نهض به الآباء نحو الأبناء فى طويل الأزمان والآباد .

الفصل الثاني عشر

وسائل النجاح

يمكن مقارنة الأسرة الإيطالية ، تلك الجماعة المقدونية المؤلفة من آباء متزمتين وأمهات مضحيات وأجداد مشغوفين وعمات عانسات وأنسباء ومراهقين مصابين بالبثور، وحشود أطفال كبيرة – بقانونها غير المدون ونظامها الصارم ، نقول يمكن مقارنتها بسفينة تمخر فى الظلام بحاراً غدارة يتربص فيها خصوم لايرحمون . ولاتسير السفينة وحدها بل تحيط بها عادة قافلة كبيرة لضمان أمنها وسلامتها ؛ والقافلة هى المؤسسة (شرعية أو غير شرعية) التى قد تكون الأسرة منتسبة إليها أعنى الجماعة أو العشيرة أو الحزب السياسى أو الزمرة Camarilla أو الطائفة أو نقابة العمال أو الجمعية سواء كانت علنية أم سرية والتى تجمع كل منها أناساً متشابهين فى خلفياتهم وآمالهم ومخاوفهم وحاجياتهم .

ولا شك أن هناك فارقاً جوهرياً بين هذا التنظيم وواقع السير فى معترك الحياة وقت الحرب ، فالأسرة لا تتبع تشكيلا ما إلا إذا كان هذا التشكيل يتعهد سلامتها وازدهارها . وحينما يرى الربان أن تترك القافلة خلسة والانضمام إلى أخرى أنفع له وأقل تعرضاً للأخطار لن يتردد فى ذلك ، وفى القليل النادر سوف تبحر الأسرة بمفردها لفترة من الزمن على الأقل انتظاراً لمعرفة أى الطرفين سيظهر علامات التفوق على الآخر فى معركة ما وأيهما سوف يقدم فرصاً ملموسة أكثر ضماناً للبقاء .

وتزدهر بطبيعة الحال فى كل بلد تحالفات مماثلة تستطيع أن تسيطر على معظم

الأنشطة الإنسانية فى كل مكان . والواقع أنه من المفيد للمرء فى أية جهة أن يكون عضواً فى زمرة ما، كى ينجح فى الحياة، وأنه من الصعب حقاً أن يتقدم المرء فى حياة دون موافقة « شلل » محصنة . . صحيح أن بعض أشهر الجماعات ليست قوية النفوذ كما قد يظن ، كما أن بعضها خيالى فحسب ليس لها وجود أو لها وجود وهمى خيالى ، وكثيراً ما يكون القليل منها مجرد هواجس فى أذهان المهزومين الخائبين أولئك الذين يستخدمونها ليسوغوا عجزهم عن النجاح ، بيد أن كثيراً منها قائم فعلا ، ولا جدال فى أن قلة منها قد تركت طابعها فى التاريخ ، مثال ذلك جماعات الماسونية وصانعو النبيذ bouilleurs des crus فى فرنسا وهيئة أركان الحرب Grosse Generalstab فى ألمانيا ، وملاك الرقيق فى الولايات الجنوبية الأمريكية ورجال المصارف (وول ستريت) فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والكنيسة الإنجليزية فى إنجلترا ، والمكتب السياسى (البولتبورو Politburo فى الاتحاد السوفييتى . وبعضها قوى النفوذ فى العالم اليوم كما يعتقد الناس ، فالأزياء الحديثة (المودات) مثلا تقررها جماعة صغيرة من تجار باريس ونخبة من مديرى المتاحف الأقوياء . ومع ذلك فمهما كانت هذه الجماعات قوية النفوذ فى أى مكان فقلما يكون لها تلك الأهمية البالغة التى لا تزال نجدها فى إيطاليا كما كان حالها دائماً .

وهذه الجماعات القوية لا تعرف لسلطانها حداً إلا حد سلطان الجماعات المنافسة لها ، وهى تقوم بدورها فى حرية مطلقة بدون قواعد أو حكم ، وطبيعى أن القانون — اسمياً — يسود كل شيء . وجهاز الدولة الشبيهة بالحديثة واضح فى كل مكان بكل دعاماته المسرحية من شخصياته وأزيائه وألقابه ومؤسساته ، ولكن هناك فارقاً جوهرياً بين هذه الشخصيات ، وتلك المنظمات وبين ما هو قائم فعلا فى بلاد أخرى، وحقيقة الأمر أن كل فرع من أجهزة الدولة فى إيطاليا هو هيئة مستقلة إلى حد

كبير لابد لها من النضال من أجل وجودها ومن أجل إسعاد من تحميهم وترعاهم ضد أية فروع أخرى تنافسها من أجهزة الدولة وهى تناضل فى عنف أحيانًا ، وكثيراً ما تناضل سراً لتفسح لها مكانًا أوسع تحت الشمس ولتحصل على أكبر قسط ممكن من الميزانية وعدد أكبر من الموظفين ، ودرجات أعلى وامتيازات أوسع لقادتها ، تمامًا كما تفعل الجماعات الضاغطة .

وعند الضرورة تتكاتف مؤسسات عامة للنضال معًا ضد كل أنواع الجماعات الخاصة ، تناضل معًا بدون المزايا التى يمنحها إياها القانون . ومسلحة بالسلطة التى تستطيع حشدها فحسب ، فتهزم تلك الجماعات عندما تكون هذه ضعيفة ، أو تتصالح معها على تسوية ما عندما تكون قوية ، وقد شب بين الشرطة Polizia ورجال الدرك Carabinieri شجار منذ أكثر من قرن ، (والطريف أن قيام سلطتين متنافستين للشرطة — وهو نظام غريب — هو فى نظر الإيطاليين خير ضمان لحرياتهم حيث تراقب كل منهما الأخرى) ، وقد شنت هاتان السلطتان البوليسيتان حربًا مستمرة فى غرب صقلية على المافيا مدة تزيد على مائة عام ، وتحالفت المافيا مرة بعد أخرى مع الشرطة كما تحالفت الشرطة أحيانًا مع رجال الدرك ، وحين تحالفت السلطتان ضد هؤلاء الخارجين على القانون استطاعتا ، أحيانًا ، أن تسيطرا على الموقف لفترة ما ، لا لأنهما مثلا القانون ولكن لأنه تصادف أنهما كانا أقوى من المافيا . وهذه الحقيقة ينبغى تذكرها إن أراد المرء أن يفهم النقاط الدقيقة لهذه النزاعات ، كتلك التى تشب بين حراس الجمارك والمهربين ، وبين وزارة العمل ونقابات العمال ، وبين وزارة المالية والممتنعين عن دفع الضرائب ، وبين وزارة التربية والتعليم والمدرسين والطلبة ، وبين وزارة الصناعة ، وأصحاب المصانع .

ولا بد لرئيس الوزراء نفسه إن أراد أن تطاع أوامره أن يكون له جماعة من

المؤيدين داخل حزبه السياسى وداخل الحكومة وداخل الكنيسة أو إحدى شعبها القوية (إذا كان ديمقراطياً مسيحياً) حيث قلما يستطيع الاعتماد على سلطته الدستورية وحدها . وهناك بعد الحرب العالمية الثانية قليل من الوزراء الأفاضل ولكن غير المحنكين فاتهم أن يتذكروا هذه الأمور (فقد كانوا طيلة الحكم الفاشى إما فى السجن أو خارج إيطاليا . وهكذا قطعت الصلة بينهم وبين واقع الحياة فى البلاد) . حاول هؤلاء بشجاعة فرض إرادتهم على موظفى الحكومة المعارضين أو المتمردين أو على الشعب دون اللجوء إلى تحالفات ما ، فانتهوا جميعاً إلى عزل أنفسهم تماماً فى مكاتبهم وصاروا حيارى لا حول لهم ولا قوة ؛ فقلما دقت تليفوناتهم ، واقتصرت مقابلاتهم على الأصدقاء والأقارب المقربين ، ولم يخبرهم أحد بما يدور حولهم بل أهمل سعاتهم تزويدهم بالأوراق وأدوات الكتابة اللازمة ، وأغفلوا ملء محابرهم بالحبر ، ففى إيطاليا يتغير معنى القانون وهدفه طبقاً لسلطان الشخص الذى يطبقه أو يخالفه ، ويكون الإفلات من دفع الضرائب أخف وأيسر على الأقوياء والمتصلين (أعنى الأغنياء وأصحاب الحسب والنسب فى الماضى ، ومعظم من يسيطرون على أصوات انتخابية كثيرة فى الحاضر) وخلاصة القول أن كل شىء يصبح فى النهاية مجابهة للسلطة لا امتثالا للحقوق المشروعة .

* * *

ومن ثم لزام أن يكون هناك نوع من الحماية لكل فرد ، بل إن الشخص البسيط الذى لا مطامع له فى حاجة إلى معونة كافية لمجرد أن يترك وشأنه ؛ فقد اشتهر الجو التاريخى الإيطالى بأنه كان دائماً غير مستقر ، وهناك فى كل جيل أمواج عاتية من التغير السياسى تسحق كل العقبات وتكتسح كل شىء ليس له أساس عميق أو ليس مرتبطاً بشىء متين ، وهنا تعتبر سماحة النفس نوعاً من الضعف ، وهنا لا يرثى أحد

للعدو المهزوم ، ولا تنتظر المعارضة القيام بدورها علناً وفى صراحة تامة . بل تتوارى وتعمل سراً ، وقد تعود فقط للظهور فى وضح النهار بعد جيل أو اثنين . وتختفى أنظمة مضى عليها قرن وتقتلع الصفوة القديمة من جذورها ، ولابد لقادة خام جدد أن يتعلموا سر المهنة أولا بأول (ويبدأ قليلون منهم دائماً بجمع ثروة خاصة لهم) وتتحول أعمدة المجتمع الراسخة بين عشية وضحاها إلى وسائل مدمرة خطيرة ، ولابد من إعادة تأليف الكتب المدرسية ، وتحريم تقاليد ومناقب ومعتقدات قديمة لتحل محلها أخرى جديدة فى سرعة مذهلة وفى تكرار وفوضى .

وفى وسط هذه التقلبات يتعرض للخطر حتى أولئك المغمورون الأبرياء الذين يطبقون القانون ، وينصرفون لشئونهم ، وتكتسح الأمواج العارمة الأغبياء والبلهاء ، والأفاضل المتينى الخلق المخلصين لمثلهم العليا والذين يرون أنه لايليق بهم أن يكيفوا أنفسهم مع الظروف الجديدة ، وكذا أولئك المنعزلين الذين لا أصدقاء لهم ، على حين يهاجر قليلون إلى الخارج ويضحى بعضهم بحياتهم أوحريتهم أو أملاكهم ، ويختفى كثيرون عن الأنظار ويعيشون مغمورين مجردين من كل مركز أو نفوذ . أما الأغلبية العظمى من الشعب فإنها تدرك الحقائق ولاتفاجئهم الأحداث أبداً . والإيطاليون أشبه بأولئك الذين تصادفهم موجة عارمة فيمسكون بأيديهم معاً حتى لاتجرفهم ، وعليهم فى كل الأزمنة أن يربطوا أنفسهم بجماعة قوية من الأصدقاء حيث لايعرفون إطلاقاً متى تهب عليهم العاصفة التاريخية التالية وإنما يدركون فقط أن من يقفون وحدهم مصيرهم الضياع .

* * *

ولاتغلب على الإيطاليين النزعة الفردية كما يظن الأجانب ، إنهم مخلصون فى خدمة منظماتهم التى يندر أن تكون المنظمات الرسمية ؛ وقد أدرك هذه الحقيقة قليلون من

بينهم أنطونيو جرامشي Antonio Gramsci العلامة الأحدب الذكي الذي أسس الحزب الشيوعي الإيطالي في سنة ١٩٢١ . فقد ترك كثيراً من الملاحظات والأفكار التي أثارتها قراراته العشوائية ودوّنها بإيجاز حين كان مريضًا ميئوسًا من حالته في سجون الحكم الفاشي . وإليك عبارة من عباراته ترجمت بإيجاز ترجمة حرة : « إنهم يؤكدون أن الإيطاليين شعب تغلب عليه النزعة الفردية ، فيؤكد ذلك بعضهم بشيء من الرضا ويؤكده بعض آخر بشيء من السخرية والتشاؤم » ، ويقول كثيرون : إن هذا هو « لحسن الحظ » ، ويقول آخرون : إنه « لسوء الحظ » ترى هل الإيطاليون فرديون حقًا ؟ وهل الفردية هي التي تجعل عامة الناس يتجاهلون السياسة اليوم ، وهل الفردية هي التي جعلتهم يتجاهلون مصالح الأمة جملة في الماضي ؟ وهل هذا هو السبب الذي جعلهم يرددون قولهم : « دع فرنسا أو إسبانيا تأتي إلى البلاد (فسيان عندنا) ما دمنا نأكل ؟ إن عدم اشتراك المرء في حياة الجماعة أو الدولة لايعني بالضرورة أنه يعيش حياة منعزلة ، تلك التي يحياها الرجل الأبي الذي يعتمد على نفسه وحدها ليخلق عالمه الاقتصادي والأخلاقي الخاص به ، وإنما يعني فقط أن الإيطاليين بدلا من أن ينضموا إلى الأحزاب السياسية ونقابات العمال يفضلون الانخراط في الشلل والعصابات وجماعات الإجرام النابوليتانية camorras وجماعة المافيا ويمكن ملاحظة هذه النزعة بين الطبقات الدنيا والعليا على حد سواء » .

وبطبيعة الحال اعتقد جرامشي في براءة وبحسن نية أن كل هذا هو النتيجة المحتومة للنظام الرأسمالي ، على الرغم من أنه أدرك أن هذه الظاهرة هي أقدم من الرأسمالية ، بل إنها قديمة قدم الشعب الإيطالي نفسه ، وإنها — وهو أمر أدهشه — كانت مجهولة تقريبًا ، أو إنها لم تنتشر في الأمم الأكثر تقدمًا حيث الرأسمالية قوية فعلا ، ومع ذلك آمن جرامشي في إخلاص بأن الشيوعية هي العلاج الوحيد ، وأنه إذا أصبحت وسائل

الإنتاج ملكاً عاماً للشعب فسوف يصبح الإيطاليون مواطنين يحافظون على إطاعة القانون . واضطر أن يتمسك بإيمانه هذا برغم الدلائل المضادة وما يحيط بعقيدته من شكوك ؛ لأنه لو فعل غير ذلك لضاعت كل أعماله وتضحياته سدى ، ولكننا نعرف خيراً منه ، فقد أظهرت التجارب الحديثة أن الإيطاليين يواصلون سيرتهم الأولى فى ظل أى نظام اقتصادى . والواقع أنه كلما زاد إشراف الحكومة على الأنشطة الاقتصادية زاد اعتماد الناس على الأصدقاء والأعوان ليجدوا فيهم عوناً لحمايتهم وضمان نفوذهم وأملاكهم ، وليس هناك شىء تشوبه التكتلات فى إيطاليا أكثر من صناعة مؤممة . ولم يعش جرامشى ليرى بنفسه كيف أن حزبه الصغير البطولى تحول بعد الحرب العالمية الثانية إلى مجرد جماعة كبيرة أخرى للمساعدة التبادلية على الطريقة الإيطالية all'italiana توجهها بشىء من الغموض فقط عقيدة أيديولوجية ، وفى معظم الأحوال انتهازية ذكية .

* * *

والتكتلات والزمر وجماعة المافيا والجمعيات السرية ، أو كما يسميها الإيطاليون فى كثير من الأحوال الشلل consorterie ، وكذا المنظمات غير الرسمية الموقرة التى يعهد إليها الناس بالإشراف على أمنهم وسلامتهم ، لا تختار دائماً عن وعى ، حيث يحدث فى بعض الأحيان أن يولد المرء فى واحدة منها . وكان المرء فى الماضى يجد نفسه من رعايا أمير ما ، أو مواطناً فى جمهورية صغيرة ، أو عضواً فى حزب تاريخى مثل الويلف Guelph والجبيلين ، Ghibellines أو عشيرة من عشائر أسرة ما مثل آل مونتاجيو Montagues وآل كابيولت Capulets ، وعرف المرء بطريقة ما ، بدون ماحاجة إلى أن يخبره أحد ، أنه لزام عليه أن يساعد كل الأعضاء الآخرين ، وأن له الحق فى طلب مساعدتهم ، ولاتزال هذه التشكيلات التلقائية قائمة ، فالجنوبيون الذين ينزحون إلى الشمال أو الشماليون الذين يتوجهون إلى

الجنوب يتصرفون تلقائياً وكأنهم أعضاء فى جمعية سرية . ويساعد كل منهم الآخر مساعدة أخوية فور رؤية بعضهم بعضاً . وبلغ من دقة هذه الروابط أن أولئك الذين قد يكونون أعداء فى موطنهم الأصلى (كأبناء المدن المتنافسة أو الأحياء المتنافسة فى البلدة الواحدة) يصبحون على الفور حلفاء وشركاء فى بيئتهم الغريبة الجديدة ، ويلتزم الإيطاليون من كل أقاليم إيطاليا سواء كانت فى الشمال أو الجنوب بالتزامات حين يتقابلون خارج وطنهم فهم يتعرفون بعضهم على بعض بدون التخاطب ، بل ليس لزاماً عليهم أن يتكلموا فهم يتفاهمون بإيماءات خفية ، وكل منهم على استعداد لأن يفعل لزميله أى شىء .

ويمكن مقارنة هذا الشعور الغريزى الذى يتسم به الإيطاليون فى معرفة بعضهم بعضاً وإحساسهم المشترك ، نقول يمكن مقارنته بالحنين أو قل الجاذبية التى تجذب للأسف أولئك الذين اعتادوا الرذائل الخفية بعضهم إلى بعض ، وكأن انتساب المرء إلى إيطاليا وكذا الحياة طبقاً للأسلوب الإيطالى رذيلتان خفيتان أو جريمتان ضد الطبيعة . ويربط هذا الشعور نفسه كل الإيطاليين معاً حين يكونون تحت حكم طاغية أجنبى ، بل لعله هنا أشد من شعور سكان أى بلد آخر يعانون الأمر نفسه . فقد كان من الطبيعى مثلا أن يحاول الفرنسيون والهولنديون والدنمركيون مساعدة بعضهم بعضاً ضد الاحتلال النازى فى أثناء الحرب العالمية الأخيرة ولكن الإيطاليين هم وحدهم خير من دربهم التاريخ على أن يخالفوا جميع القوانين ، وعلى أن يفهم كل منهم الآخر بمجرد لمحة خاطفة ، وعلى توحيد صفوفهم ضد السلطات المحتلة وهكذا فهم على علم مسبق بكل الحيل ، ومن ثم لم ينضم منهم إلى القوات المسلحة الألمانية Wehrmacht سوى أقلية ضئيلة لا يعتمد عليها ، أما الأغلبية العظمى من الإيطاليين فقد تصرفت تلقائياً وفوراً كما لو كانوا أبناء عمومة ، لم

ير بعضهم بعضاً منذ زمن طويل ، فكان من اليسير لأى فرد فى أى مكان أن يجد بدون خوف أو وجل ، ملجأ له فى أول بيت يصادفه فى قرية من القرى أو ضيعة ما ، وكان يدرك أن الفلاحين سوف يجازفون عن طيب خاطر بواجهة الموت من أجل أن يطعموه ويؤووه ، وامتدت هذه النوايا نفسها إلى الأسرى من الحلفاء الهاربين كما يشهد بذلك كثيرون منهم ، نقول شملت المزايا هؤلاء لا لمجرد المثل العليا التى حاربوا من أجلها ولكن لأنهم أيضاً كانوا يلاقون ألوان العذاب على يد الألمان وهكذا أصبحوا أعضاء مكرمين فى المجتمع الإيطالى .

وكثيراً ما يجب على المرء أن يختار الطائفة التى ينضم إليها ، ويندر أن يكون مجال الاختيار واسعاً ، وليس هناك فرد ما حرّ حرية تامة ، وسوف تضيق خلفية المرء وأذواقه وطبقته ومواهبه مجال الاختيار أكثر وأكثر ، بيد أنه كثيراً ما تأتى لحظة فى حياة المرء ينبغى عليه فيها أن يغامر ويحزم أمره ، وبعض الجمعيات التى يمكنه أن ينضم إليها هى جمعيات قديمة قوية تشمل أرجاء البلاد ، وبعضها جماعات قروية ، ثم هناك فى داخل الجمعيات الكبيرة تكتلات مختلفة واحدة داخل الأخرى وكأنها متاهات متشعبة متداخلة يصعب على المرء أن يتلمس طريقه فيها .

وأقدم وأكبر الجماعات كلها هى الكنيسة العالمية ، وتحتوى على كل أنواع التكتلات والهيئات الفرعية ، وهى جماعة موقرة قوية فعالة على نطاق واسع وموجودة فى كل مكان ، هى دولة داخل الدولة ، وهى تطيع قوانينها الخاصة بها ، وتوفر إمكانات لاحد لها ، وتحمى أتباعها المخلصين وتقدم لهم المساعدة ، وتحل كل أنواع المشاكل ، وتعمل على إسعاد الناس الأفاضل وعلى توفير سلامتهم فى كل الظروف ، ولحقتها سمعة سيئة من حيث إنها جعلت الحياة الرسمية فى إيطاليا دوماً مقلقلة وضعيفة ، ويمكنها أن توفر للرجل الجبان حياة آمنة مطمئنة (فيمكنه أن يكون قسيساً فى أبرشية أو راهباً) كما

يمكنها أن توفر للرجل الطموح فرصاً كثيرة (فيمكنه أن يكون دبلوماسياً للفاتيكان أو كاهن الاعتراف Confessor للملوك ورجال الدولة، أو رئيس طائفة من الرهبان أو مديراً لجامعة كاثوليكية أو مديراً لمؤسسة للنشر أو مطراناً يسيطر على نواح علمانية وروحية أو كاردينالا له مسئوليات واسعة ، بل يمكنه أن يكون البابا نفسه) كذلك يمكن أن يعيش الرجل العلمانى حياة آمنة سعيدة بفضل مساعدة الكنيسة ، فيمكنها أن تصحبه خطوة خطوة من المهد إلى اللحد ، وتكفل له عملا طيباً ومستقبلا مستقراً وتحميه من حسد منافسيه وتدبر له أحياناً نجاحاً فى الدنيا وشهرة ونفوذاً سياسياً وثروة .

إن الكنيسة هى عالم قائم بذاته وهى أكثر المنظمات البشرية تعقيداً، فمن الخارج تبدو للغريب أنها وحدة متراصة، أما فى الداخل فهى أشراك من التكتلات والشلل التى يتنازع بعضها مع بعض فى كياسة ولطف بطريقة تكاد تكون خفية من أجل مجد الرب العظيم : تجد هذا النزاع بين البابا ومستشاريه الخصوصيين وبين الإدارة البابوية Curia ، وبين الإدارة البابوية والأساقفة ، وبين الأساقفة الأحرار والأساقفة والقساوسة وبين جماعات الرهبان بعضها مع بعض ، كل يكافح فى تشبث وعناد من أجل السيطرة والتفوق ، أما الكاثوليك العلمانيون فهم أيضا منقسمون إلى شعب شتى متهلة ابتداء من « فرسان مالطة » البالغى الثراء إلى حزب العمل الكاثوليكى ومنظمات العمال اليساريين المحرومين .

وحتى سنوات قليلة مضت كان فى وسع المرء أن يضمن نجاحه ورخاءه بانضمامه إلى جماعة الماسونية ، وكانت هذه فى إيطاليا جماعة قوية سرية ، (وكانت بدورها منقسمة كالشرطة إلى فروع متنافسة). ساعدت هذه الجماعة أعضاءها على نجاحهم وازدهارهم حتى الحرب العالمية الأولى ، ولعلها سيطرت على معظم أعلى مناصب الدولة

الإيطالية وحمت أعضاءها فى سائر مسالك الحياة ، وكان الماسونيون يعارضون تدخل رجال الدين فى الأمور الدنيوية ، فحاربوا نفوذ الكنيسة فى كل المجالات : فى السياسة . وفى العالم الأكاديمى ، وفى القوات المسلحة ، وفى المؤسسات التجارية والصناعية — ولكنهم فقدوا اليوم كل نفوذهم — غير أنه لا تزال هناك منظمات كبيرة مماثلة يمكن أن ينضم المرء إليها لتحميه ، ولكن ليست لها من القوة ما للكنيسة اليوم ، وما كان للماسونية فى الماضى . نعنى بذلك الأحزاب السياسية وتكتلات أصحاب المصالح الاقتصادية ، والجماعات الثقافية بكافة أنواعها ، هذا ويمكن أن يكون المرء عضواً فى الوقت نفسه فى عدد من الجماعات المتشابهة المتقاربة ، فيمكنه مثلا أن يكون ممن هم فى رعاية الجزويت أو فى الجناح الأيسر لحزب العمل الكاثوليكى وديمقراطياً مسيحياً صالحاً ومديراً لصناعة مؤممة ، كما يمكن أن يكون عضواً فى الحزب الشيوعى ليشرف على إحدى التكتلات فى عالم الفن والثقافة التى يسيطر عليها الحزب .

وفى وسع المرء أيضاً أن ينضم إلى جماعات أصغر ، وهناك آلاف منها ، بعضها أقل وقاراً من الأخرى ، وبعضها إجرامى بحت ، وكلها قوية النفوذ فى مجالاتها الخاصة بها ، وهكذا حتى نصل إلى جماعة المافيا فى قرية صغيرة من قرى صقلية . ومن الحكمة دائماً عندما نتعامل مع إيطالى أن نعرف بالضبط الجماعات التى هو موال لها والشلة أو الجمعية أو الحزب الذى ينتمى إليه والذى يحميه وكذا من هم أصدقاؤه ، ومن أى منهم يستمد نفوذه . وطبيعى ليست هناك أدلة تتضمن هذه البيانات الضرورية بل إن الشخص قد ينكر إنكاراً تاماً ولاءه لجهة معينة ولبعض الجمعيات السرية (مثال ذلك جماعة الماسونية فى الماضى والأحزاب الديمقراطية أيام الحكم الفاشى ثم بعض التكتلات المالية فى العصر الحاضر) ومع هذا فليس من العسير اكتشاف هذه البيانات فكل فرد على علم بها .

ومن الأسباب التي تدفع المرء إلى إنكار ولائه لجهة ما برغم إيمانه بضرورة الانتماء إلى جماعة أو شلة ، خوفه من أن يصبح هذا الولاء وبالا عليه فى وقت الأزمات ، ومن ثم فإن القاعدة السليمة هى ألا تكون ظاهراً لدرجة كبيرة ، وعلى المرء دائماً ألا يكون حامل العلم ، وعليه أن يقبل المراكز الوطيدة الثانوية دون غيرها ، وعليه أن يتحاشى أن يعرف بأنه من أتباع هذا أو ذاك من الناس أو نصيراً متحمساً لفكرة معينة ، ذلك لأن أحداً لا يعرف متى تهب العاصفة التاريخية التالية ، ومتى يصبح ما كان مقبولا بالأمس بوصفه ميزة من المزايا ، نكبة وخطراً على صاحبه بين عشية وضحاها ، وبناء على ذلك يجب على المرء أن يترك دائماً الأبواب مفتوحة وراءه وهذا هو أيضاً أحد الأسباب التى من أجلها ينبغى بالمرء أن يحاول أن يكون له أصدقاء بين صفوف خصومه . وهذا أمر سهل ، لأن هناك بين صفوف الخصوم كثيرين ممن يتبعون القاعدة نفسها .

حدث فى أبريل عام ١٩٤٠ حين قبض على مأمور الضبط Commissario di polizia بوصفى عدواً خطيراً للعهد الفاشى أن كان بالغ الرقة معى ، فبينما كنت انتظر فى قسم الشرطة Questura حتى يحل موعد سؤالى أرسل هو فى طلب غذاء شهى لى من مطعم قريب ، كما بعث إلى بيتى يطلب موافاتى بقمصان نظيفه وغيار من الملابس الداخلية ، وكذا بعض النقود ، ثم حذرنى فى عبارات محجبة موضحاً ما ينبغى أن أقوله وما يجب ألا أقوله عند سؤالى ، وبعد ذلك كله تفضل فحملنى فى سيارته إلى سجن ريجينا كويلى Regina Coeli فشكرته وسألته عن سبب تلطفه معى فقال فى صراحة : « إن المرء لايعرف أبداً ماذا يحدث غداً فقد تفعل الشيء نفسه معى فى يوم من الأيام » (وكان لايزال الحكم الفاشى وقتئذ راسخاً قوياً ، وكانت إيطاليا لاتزال دولة محايدة . وبدا وكأن ألمانيا سوف تكسب الحرب — أى أن مأمور الضبط كان

يؤمن على حياته ضد حدث أبعد ما يكون احتمالا) .

وبعد ذلك ببضع سنوات ، أى فى الأشهر القليلة الأخيرة من الحرب ، حدث أن استدعانى المدير الفاشى بجروسيتو Grosseto ، وهى المديرية التى كنت أعيش فيها ، وكانت إيطاليا وقتئذ مقسمة إلى قسمين ، ففى الجنوب قامت الحكومة الشرعية أى الملك والحلفاء ، فى حين كان الشمال فى أيدى الألمان والحكومة العميلة وموسولينى ، وكانت جروسيتو لاتزال تتبع الشمال ، واستبقانى المدير الفاشى منتظراً ساعات طويلة فى مكتبه على حين أخذ يصرف شئونه ، وجعلنى أراقبه وهو يصدر أوامره بإخفاء الماشية عن الألمان الذين أرادوا الاستيلاء عليها ، وبإيواء الفدائيين وكذا وهو ينذر قوماً آخرين بالغارة القادمة ؛ ثم التفت إلىّ فى النهاية وقال : « أرجو أن تستطيع يوماً ما أن تقول لمحكمة قضائية مارأيت وسمعت فى مكتبى . وقد فعلت ذلك بعد الحرب فى بلدة بيروجا ، وحكم عليه بالسجن ثلاثين سنة .

وكثيراً مايكون الكلام الصريح ضاراً بصاحبه ، ومن ثم فالغموض هو القاعدة التى تكاد تكون عامة فى كل الميادين ، وهكذا تجد معظم المقالات الرئيسية فى الصحف ومايصدر من نقد للفن ، ومايلقى من خطب سياسية ، تجد كل ذلك مغلفاً فى نثر غامض على نحو رائع . وعلى المرء أن يتجنب خلق أعداء لاداعى لهم ، فإن المرء لايعرف متى تصبح أفكاره المقبولة على نطاق واسع — لا تثير جدلا — خطرة معرضة للشبهات . إن المرء يخفى أحياناً آراءه بدون ضرورة لأن هذا الإخفاء لاضرر منه ، على حين أن الكشف عنها قد يؤذيه ، وبطبيعة الحال هناك فى كثير من الأحوال أسباب أخرى أقل ضرراً بالسمعة فقد يكون الإخفاء فى الأوقات العصيبة الوسيلة الوحيدة لحماية المرء لحريته : سواء حريته الجوانية ، أو حرية تصرفاته اليومية .

وقد درس هذه النظرية دراسة واسعة كاتب سياسى اشتهر بقصصه ومقالاته هو جويد و بيوڤينى Guido Piovene ، وذلك فى كتاب أصدره حديثًا بعنوان « ذيل من القش » La coda di paglia (مجاز إيطالى قديم يعنى أن على من له ذيل من القش ألا يقترب كثيراً من النار ، والذيل هنا كناية عما قد يوجد فى حياة المرء الماضية من حقائق مشينة يريد هو إسدال الستار عليها ، وبالتالى فهى تحد إمكاناته الحاضرة حيث يخشى دائمًا أن يكشف فرد ماهذه الأسرار الدفينة ويعلنها للملأ فيلحق به الخزى والعار) . وقد هاجمت الصحافة الإيطالية أخيراً الكاتب بيوڤينى ذلك لأنه أصبح الآن عدوًّا لدوداً للحكم الفاشى ونصيراً للشيوعيين برغم أنه أيام دكتاتورية موسولينى كتب بضع مقالات يمجد فيها أسلوب الدكتاتور الأدبى ويثنى على سياسته المعادية لليهود ، فضلا عن أنه تطوع فى الحرب الأهلية الإسبانية إلى جانب الجنرال فرانكو . الحق أنه لابد لنا من أن نقر أنه تغالى فى موقفه غلوًّا لم يماثله فيه عدد يذكر من الأذكياء والعقلاء. ولم يكن لهذا الموقف ضرورة ما ، فقد استطاع الناس أن يسيروا أمورهم ويصلوا إلى مناصب هامة دون ما حاجة إلى إطراء صفات للدوتشى لم تكن له ، ولم يظنوا إطلاقا أنه تحلى بها ، ولم تكن هناك ضرورة لامتداح سياسات احتقرها هو فى قرارة نفسه حين كانت هذه تذكرة بتبعيته وخنوعه لهتلر ؛ ومع ذلك فإن بيوڤينى يدافع عن نفسه موضحًا بأنه ربما لم تكن هناك ضرورة قصوى لأفعاله ، ولكن عذره الوحيد إنها كانت دون مقابل ، وادعى أنه فعل ما فعل لا ليحتفظ بتجربته الشخصية فحسب ولكن ليدمغ العهد كله ، فاعتمد على ما يسميه « النفاق الكئيب » . كتب بيوڤينى يقول : « لقد كانت تجربتى هى تجربة ولاء كاذب فى عصور الاستبداد » . كتب ذلك بدون أن يوضح لماذا هو الآن غيور على تجديد تلك التجربة الشائنة بالانضمام إلى الحزب الشيوعى الإيطالى فى معظم

المجادلات. ثم يقول : « إننى لا أدعى بأن ولائى الكاذب كان دائماً صادراً عن وعى ، لأن ذلك كان يتطلب أخلاقاً مقدامة وانسجاماً وشجاعة فى الكذب وإخلاصاً يكاد يكون فاسداً منحرفاً ، وكلها أمور يصعب تحقيقها قدر صعوبة التضحية بالنفس ... لقد أعطيت نفسى قطرات ضئيلة من الاقتناع بألا أحتقر نفسى احتقاراً بالغاً (ونذكر عرضاً أن هذا هو الفارق بين بيوفينى وجويتشارديني فقد أبى هذا أن يُخدع وكانت له أخلاق مقدامة تكفل له النجاح فى عالم عرف أنه عالم لعين شرير غير قابل للعلاج) .

ويواصل بيوفينى حديثه قائلا : « لما كانت الفترة الفاشية قائمة على نفاق مطلق فقد بدت لى فترة « سيكولوجية » إلى أبعد حد — وأعنى بذلك فترة أمكن فيها أن يبتدع الإنسان لنفسه أدوات فكرية معقدة حتى لا يرى أبسط الحقائق ؛ وهكذا أغلق الإنسان نفسه داخل نفسه واخترع خدعاً — وكان هناك نوع آخر من التعمية فى كتاباتى ، فقد حدث وأنا أعمل أن غمرنى غضب يتسم بالازدراء منعنى من تلطيف أسلوبى ، ودفعنى إلى نقطة أبعد ما تكون عن تلك التى كان ينبغى علىّ التوقف عندها ، فكنت أغالى فى الكلام على نحو مناف للعقل بحيث يمكن أن يدرك أقل الناس ذكاء حقيقة معناه بين السطور وكان التسويغ : أن هذه المقالة بالغة الغباء بحيث لا يمكننى اعتبارها مكتوبة بقلمى ، وخيل إلى أن أتبرأ منها وأن أنسبها إلى كاتب بليغ أحمق استأجرته لهذه المهمة ، وهكذا ساورت ذهنى تلك المقارنات السخيفة التى أوردتها بين موسولينى وشكسبير ، أو حتى بين موسولينى وباسكال ، بل كان فى وسعى أن أورد بالسهولة نفسها مقارنة بين موسولينى وبارمنيديس Parmenides أو لوكريشيوس Lucretius المهم أننى أردت الهروب على قدر الإمكان من المقارنات المعقولة» .

ولسوء الحظ فإن مقارنات بيوفينى التى تعمد أن تكون مسرفة فى الغلو وسخيفة لم تترك فى أذهان جماهير القراء الذين لم تخامرهم الشكوك ، الأثر الذى يميل هو لتصديقه ،

فقد ظن معظم الناس وقتئذ أنه لابد أن يكون هناك مع ذلك وجه شبه بين موسوليني وباسكال وشكسبير مادام قد قرر ذلك ناقد معروف فى صحيفة محترمة موثوق بها ؛ على حين اعتقد غيرهم من أعداء الفاشية أن بوفيني ليس سوى متملق آخر للعهد . ولم يعرف سوى أصدقائه الحميمين حقيقة أنه احتقر الفاشيين وأنه لم يكن حريصاً بنوع خاص على الفوز بمزايا منهم ، وإنما أراد فقط تحاشى المتاعب . وأنه كان غير محنك فى هذه المباريات حيث جاوز الهدف بدرجة واسعة لاتصدق .

وبرغم ادعائه بأنه يتكلم بلسان جيله فإنه لا يمكن اعتباره نموذجاً كاملا له ، وحقيقة الأمر أنه انضم فى الماضى ، كما انضم فى الحاضر ، إلى الطرف الذى يمكنه أن يهيئ له أعظم قدر من راحة البال . ويجب أن نقرر أن هذا الأمر نفسه كان مفروضاً أن تفعله غالبية الإيطاليين فى كل العصور ، ولكن هناك نقاطاً قليلة تجعله مثلا قائماً بذاته ، فهو يرتكب الخطيئة الكبرى : إذ يعترف ويحلل ويناقش اختياراته علناً مما يجر عليه كل أنواع الشتائم من اليسار واليمين على حد سواء ، وهكذا يبدد المزايا التى قد يحصل عليها بحيله ، كما أنه لم يستطع قط خداع نفسه أو غيره خداعاً كاملا ، ولم يحصل قط على شىء ما نتيجة تكيفه والظروف التى عاشها ويعيشها .

وهناك قصة قديمة توضح هذه النقطة ، قصة اخترعها الإيطاليون وقت حصار برلين حين تلبدت الغيوم وبدا أن الحرب العالمية الثالثة قاب قوسين أو أدنى : وحين لم يكن حلف الأطلنطى قد أنشئ بعد — تقول القصة إنه فى يوم ما هاجم الروس فجأة غرب أوربا بجيش عرمرم وإن وسائل الدفاع المحلية دمرت على الفور ، وإن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بطبيعة الحال غير مستعدة لتقديم المساعدة العاجلة ، بل احتاجت إلى ا تحتاج إليه عادة من سنوات لتقرر رأيها وتصنع المعدات وتدرب الرجال ومن ثم زحف الروس بدون مقاومة — وفى أيام قلائل — من نهر الألب إلى جبل طارق ، الإيطاليون

وغزوا الجزر البريطانية ونظموا كل الأراضى المحتلة وفق ميولهم السياسية .

وتقول القصة إن الروس أقاموا فى تلك البلاد نظم حكم شيوعية ، وقضوا على أعداء الشيوعيين – وفى الوقت المناسب وبعد مضى سنوات وصل الأمريكيون وهزموا الروس وحرروا أوربا ، وأقيمت حكومات جديدة حرة راحت تقتل الشيوعيين حتى غدت أوربا فى النهاية خالية تقريباً من السكان ماعداعدداً ضئيلامن البريطانيين والفرنسيين والألمان وهلم جرا تركوا فى الأراضى الفضاء والمدن الخالية . أما إيطاليا فقد كانت تزخر بأهلها حيث بقى حياً من سكانها خمسون مليوناً تقريباً (أى عدد سكان إيطاليا وقتئذ) . وبديهى أنهم تذكروا مثلا من أمثلتهم القديمة يقول : « إن الرجال الشجعان والنبيذ الطيب لايدومان إلا فترة قصيرة » .

أو خذ قصة مرة أخرى أقدم من السابقة واخترعها أيضاً الإيطاليون أنفسهم فى العشرينيات من هذا القرن حين لم يمض على الحكم الفاشى سوى سنوات قليلة ؛ تقول القصة : زار سكرتير الحزب الشيوعى مصنعاً كبيراً لإحدى الشركات وبرفقته مدير الشركة الخنوع ، وفى نهاية الزيارة حشد جميع العمال فى فناء المصنع ليستمعوا إلى خطاب يلقيه الزائر الكبير ، وقبل أن يلقى سكرتير الحزب كلمته ألقى نظرة شامخة على العمال من منصته العالية وسأل مدير الشركة : « خبرنى ما هو المذهب السياسى لهؤلاء العمال ؟ » فأجاب المدير قائلا : ثلثهم شيوعيون ، وثلثهم اشتراكيون ، أما الباقون فيتبعون أحزاباً صغيرة شتى ؛ وشحب وجه سكرتير الحزب وصاح : « ماذا تقول ؟ وكم منهم فاشيون ؟ » فأسرع المدير يطمئنه قائلا : « جميعهم يا صاحب السعادة . . . جميعهم » .

وكثيرون من الإيطاليين هم فى الواقع غير انتهازيين بالمعنى الفنى : إنهم لايجدون صعوبة ما فى التسلل إلى الأحزاب السياسية والتسرب منها وإخفاء أفكارهم

وقبول وترديد الأفكار الرسمية التى تفرض عليهم من أعلى ، لأنهم يرومون تجنب الأخطار. إنهم يفعلون كل ذلك لأنهم شكاكون، فهم يعتقدون أن كل الإيديولوجيات سواسية فى صحتها وبطلانها ، وأنه ليس هناك حل مجرد لمشاكلهم ولكن يمكن أن يسير العالم بطريقة ما تحت أى نظم سياسية تبدو أسهل لتقبلها فى الفترة التى يعيشونها. لأن كل تلك النظم سوف تعمل فى نقص وخلل فى إيطاليا حيث أخفقت كلها فى وقت أو آخر ، وسوف تخفق كلها عاجلا أو آجلا . وهم يعتقدون أن جمهورية سيئة ليست أفضل من ملكية سيئة ، وأن دولة اشتراكية فاسدة ليست خيراً من دولة رأسمالية فاسدة، ويؤمنون بأن الشيوعية الإيطالية سوف تكون صورة زائفة للشيوعية — خلاصة القول هم يؤمنون أنه ليس هناك علاج عام بلجميع عللهم .

* * *

أما المهارات البسيطة اللازمة لمجرد البقاء فليست عسيرة التعلم ، وعلى أى حال فهى ليست إيطالية بحتة ، بل هى عامة فى كل المجتمعات غير الآمنة ، بيد أن هناك تحسينات محلية وحيلا لا تحصى لا يمكن أن تجد لها نظيراً فى أى بلد آخر ، ذلك لأن الإيطاليين يصبحون فى فترة مبكرة من حياتهم أساتذة لَبِقين فى هذه الفنون بحيث لا يشعرون عادة بوجودها ، ونتيجة لذلك تجرى الحياة فى سهولة ويسر ، فاختفت الصراعات أوخفّت بحيث اعتقد الأجانب مرة أنهم عاشوا هنا فى نعيم فى بلد يكاد يكون أحسن بلاد العالم ، نعم فى النعيم الذى لايحدث فيه ما يعكر الصفو وحيث الناس سعداء ومبتهجون وأحباء ، ولا يزال بعض الأجانب يعتقدون ذلك حتى اليوم .

وفى سبيل الإيضاح نلخص هذه القواعد الأولية : على المرء أن يرعى أسرته ، ويوسع قدر استطاعته من دائرة أصدقائه النافعين ، ويقلل من أعدائه الخطرين ، وبذلك يتقن فن الائتلاف والعشرة فيكون لطيفاً simpatio فى كل الأوقات وبأى

ثمن . ويجب أن يكون المرء يقظًا دائمًا يرقب الأفق باحثًا عن أصغر سحابة ، ومتفرسًا في وجوه الناس لملاحظة أدنى تغير في مزاجهم ، كما يجب على المرء أن ينخرط في سلك طائفة قوية ، ويبحر في قافلة مأمونة ، وعليه أن يحسب حساب التاريخ وتقلباته .

ومن الناحية السلبية إليك الأمور التي يجب على المرء أن يتجنبها : عليه ألا يكون بارزاً على نحو صارخ ، جسوراً ، مغروراً ، صريحاً ، نزاعًا إلى الثقة ، سريع التصديق . وعلى المرء ألاّ يعتنق أفكاراً محددة وألاّ يتخلف عن مسايرة الجماهير . ويجب على المرء قبل كل شيء أن يتذكر في كل الأوقات أن الخلافات لاتحسم على أساس القانون واعتبارات العدالة المجردة ، أو أحقية المتخاصمين النسبية ، وإنما تحسم في أكثر الأحوال بالقوة ، إن القوة ليست فقط في كثير من الأحوال هي الحق بل إنها كثيراًما تكون أيضًا معادلة للجمال والثقافة والذكاء والسحر ،وان يضار أحد برعى هذه الأمور في دقة وعناية . نعم ، لاضير في هذه الأمرر ، ولكن لا نقع فيها بالمثل .

أما المهارات اللازمة لما هو أكثر من البقاء ، أي المهارات الضرورية لتحقيق أبسط أنواع النجاح ، فهي من غير شك أشق في تحديدها واكتسابها ، والإيطاليون الذين يطبقونها عمليًا ويصلون إلى مركز قيادي ولو كان قليل الأهمية هم حقًا ممتازون ، بل هم أبطال حقيقيون أولئك الذين يمكنهم أن يعملوا مع مواطنيهم ، وأن يكشفوا كل حيلة ، ويعرفوا كيف يدافعون عن أنفسهم في كل المواقف والظروف . أجل ، إن المناقب الضرورية كيما يصبح المرء رئيسًا لأي شيء في إيطاليا كأن يكون رئيس دير ، أو رئيس مؤسسة لتربية الكلاب في بلدية من البلديات ، أو سوق خضار يتبع المافيا ، أو محطة ثانوية من محطات السكك الحديدية ، أو عمدة قرية جبلية — نقول إن المناقب الضرورية لذلك هي من الضخامة بحيث تكفي في معظم البلاد الأخرى لأن تجعل المرء وزيراً للخارجية أو مستشاراً خاصًا للملكة أو رئيس أركان حرب أو رئيس جمهورية .

وبطبيعة الحال ليست هناك وصفات ناجعة ولا تعليمات مجربة يمكن أن يطبقها المرء ويكون متأكداً من الحصول على نتائج طيبة منها ، فكل حالة تختلف عن الأخرى ، وكما هو حال كبار الفنانين يبدو أن أكثر الرجال نجاحاً فى إيطاليا يتبعون قليلا من القواعد العامة ثم يطور كل منهم أساليبه الخاصة به ، ويكتشف مواهبه الفريدة ، ويكيف نفسه ببراعة مع البيئة والظروف التى يعيشها . أما القواعد العامة ــ شأنها شأن تلك التى تحكم الفنون حين توصف فى الكتيبات المتداولة ــ فإنها خدّاعة تبدو سهلة التطبيق ، وليس هناك شئ منها مقصور على فئة قليلة ، ثم هى نفسها تقريباً التى يلجأ إليها الطامحون كلما اشتدت المنافسة . وحين يكون المتنافسون كثيرين وأذكياء لايرحمون ، والمناصب المتاحة نادرة ، والدفاع عنها قوياً فى جهات معينة مثل قصر فرساى فى عصر لويس الرابع عشر و « وول ستريت » (حى المال فى نيويورك) فى أوجه ، أو فى هوليوود فى سنوات مجدها .

ولكن ندر أن أُدين على وجه الحصر رجال الحاشية والمضاربون والانتهازيون فى هوليوود بسبب مسعاهم للفوز بمناصب عالية فى ميادين عملهم ، فقد كانوا أحراراً شأنهم شأن المقامرين الذين يختارون معاناة جحيم من صنعهم ، ولكنهم يستطيعون دائماً مغادرة المائدة الخضراء . وهناك سمة حاسمة بشأن هذه الأمور فى إيطاليا ، فإذا كان لرجل ما مطمع متواضع ويريد أن يحسن حاله فليس أمامه من سبيل آخر ، فهو يدرك أنه لاينبغى له أن يعتمد على مجرد جدارته ومواهبه بل عليه أن يتنافس فى مباراة لا قواعد لها ، والرجل الذى يفوز هو ، على سبيل الحصر ، أحسن الرجال طراً فى فن اختراع وسائل جديدة لشل خصومه أو القضاء عليهم ، وليست هناك فى ساحة المباراة خطوط جانبية ولا مقاعد للاستراحة عليها ، ولا قطع من الإسفنج

لقذفها، ولاسبل للهروب ، فإن الأمة كلها ساحة قتال فسيحة ومعظم الجوائز متواضعة والأخطار فتاكة .

وبناء على ذلك إليك بعض هذه القواعد الواضحة ، ولكن العبرة في سلامة تطبيقها :

القاعدة الأولى : عليك أن تختار الرفاق المناسبين ، وعلى الشاب لكي يحقق النجاح الذى ينشده ألا يقتصر على الانضمام إلى مجموعة قوية بل عليه أيضاً أن يعمل على شق طريقه حتى يصل إلى القمة ويصبح من أصحاب النفوذ ، أى من زعماء هذه المجموعة أو زعيمها الأوحد إذا استطاع حتى يستخدم كل المجموعة لأهدافه الخاصة ، كما يجب أن يكون له بطانة خاصة ، ومن ثم عليه أن يختار مجموعة صغيرة داخل المجموعة الكبيرة وينضم إليها ويؤثر فيها ، وعليه أن يعرف بادئ ذى بدء أن الشلل المختلفة تهيئ له أحسن الفرص ، وهنا نذكر أن هناك عادة بصفة عامة زمرة الرجال الكبار المحصنين الراسخين فى مراكز قيادية ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولا يسمحون بالتقدم والترقى إلا لأصدقائهم ، ثم زمرة الشباب الطامحين المصممين على إبعاد الرجال الكبار واحتلال مكانهم . إن اختيار الزمرة التى يمكن الانضمام إليها أمر عسير دقيق ؛ يجب أن تطرح جانباً النزعات الرومانتيكية والعاطفية حيث لايمكن للمرء أن يتحمل نتيجة خطئه فى الاختيار لأنه يكاد يكون من المستحيل بعد ذلك حين تكون النتيجة واضحة تغيير مكانه بدون أن يدفع ثمناً غالياً .

القاعدة الثانية : (ولعلها أهم القواعد كلها) عليك أن تختار لنفسك الراعى الحق ، فإن كل الشلل الداخلية يسيطر عليها عادة قليلون من أصحاب النفوذ ، وأحياناً يسيطر عليها زعيم واحد حيث هناك فى كل الميادين قلائل من أصحاب النفوذ . ويجب على كل شخص يريد أن يتفوق ويبز أقرانه أن يربط نفسه براع محنك

مجرّب. فيصبح معاونه ويستخدمه لأغراضه الخاصة . وهناك آلاف من الوسائل التي يستطيع بها الشاب إغراء رجل أكثر نضجاً منه مثلما هناك آلاف من الوسائل لإغراء النساء . وفي هذا المجال يجب أن يتذكر المرء أن الفن وحده غير كاف ، فليس هناك إغراء وحشى أبداً ، أو إغراء يكون ضد الصلات أو قل الانجذابات الطبيعية حيث قلما يكون النساء والرجال الكبار سذجاً مغفلين . وهناك نساء لا يمكن إطلاقاً غوايتهن ، كما أن هناك رجالا كباراً يفضلون — خوفاً من أن يطعنوا فى ظهورهم — أن يحيطوا أنفسهم بأتباع أغبياء غير أكفياء لا يطمعون قط فى الصعود إلى أى شىء ، وقد أحب موسوليني المرءوسين الخانعين العاجزين . أما النساء فإنهن يعطفن على الرجال الذين يملن هن إليهم ميلا طبيعياً، أولئك الذين يقدمون لهن شيئاً مقابل حبهن ، ويفضل الحُماة Protectors الشبان الذين يشتركون معهم فى بعض الأمور والذين يشاركونهم فى آرائهم تقريباً ، أولئك الشبان الذين يعجبون بهم ويقلدونهم — وهكذا يقع الاختيار على قليل من ذوى الطموح الكثيرين — ومع ذلك فإن استخدام المرء لفن جذب الأنظار إليه واختياره لمنصب ما أمر لا ينبغى إغفاله تماماً حيث يجب استخدام هذا الفن دائماً لتعجيل مجرى الطبيعة الطبيعى وتيسيره .

وبرغم ما لهذه اللعبة من تعقيدات فاتنة وبرغم ما يحيط بها من مهارات سيكولوجية وبرغم الأخطار التى تهدد لاعبيها من كل المستويات والأعمار ، فمن الغريب أنه لا توجد هناك كتب كثيرة تعالج الطموح الشخصى لا أساليب الغرام ومشاكل المداعبات الغرامية — كتب تهدف إلى بيان وسائل التودد إلى الحُماة الذين يتولون رعاية من يتقرب إليهم من مرءوسيهم أو توضح طرق النفاذ إلى الشلل المغلقة ، أو أساليب المناورات التى لا نهاية لها والدسائس المعقدة والمؤامرات والمكايد ، والمكايد المضادة

اللازمة للنجاح، بل للنجاح المتواضع في الحياة الإيطالية ، على حين أن الطموح من بين العاطفتين اللتين تثيران المرء — أعني الحب والطموح — هو بلا شك أكثر حيوية وأطول أمداً وأشد تنوعاً حيث يوفر إمكانات أكثر إثارة، والواقع هناك روايتان مشهورتان لكاتبين أجنبيين عالجتا هذه المسائل في ضوء خلفية إيطالية إحداهما رواية : La Chartreuse de Parme للكاتب الفرنسي ستاندال ، والأخرى رواية : The Cabala للكاتب ثورنتون وايلدر Thornton Wilder

كيف يمكن أن يتقدم الشاب ؟ بادئ ذى بدء يجب أن يكون كثير الحركة على قدر الإمكان، بمعنى أنه يجب أن يكون رهن الإشارة وعلى أهبة الاستعداد دوماً ، وهذا هو السبب الذى يفسر ازدحام حجرات الانتظار الخاصة بمكاتب أصحاب النفوذ بالزائرين الذين يفدون لعرض خدماتهم والتماس الرعاية والعطف ، وقد يقضون أحياناً ساعات طويلة ليتحدثوا مع الرئيس بضع دقائق ، وقد يسيرون معه بعض خطوات ويشعلون له سجارته ، أو يقدمون له سيجارة ، أو يحملون له معطفه ، ويفعلون أى شئ يلفت انتباهه فيقربهم إليه . وقد أعلن « كافور » سخطه على كل هذا فاعتاد أن يقول : « إن أسوأ الغرف هي أفضل دائماً من غرف الانتظار » . والواقع أن سلطة أى فرد فى أية فترة معينة يمكن أن تقاس قياساً صحيحاً بعدد الناس المحيطين به ، بل قد يتبعه المحظوظون فى الشارع ، وقد يرافقونه فى رحلاته الطويلة حينما يسافر ، ويعرف هؤلاء الطفيليون فى الجنوب باسم Clienti أى التوابع أو العملاء وهو لفظ مشتق من اللفظ اللاتينى Clientes الذى كان يصفهم فى أيام الرومان بأنهم أولئك الذين يعرضون خدماتهم ويطلبون مساعدة وحماية ونصيحة .

هذا وقد اعتاد سياسى قديم فى بلدة بنيفنتو Benevento (فى جنوب إيطاليا) أن يعقد مجلساً كل صباح فى حانوت حلاق (تماماً كما كان يفعل ملك من الملوك

القدامى حين يجمع مجلسه تحت شجرة) . فبينما جلس السياسى على كرسى يشبه العرش وقد كسا الحلاق وجهه برغوة الصابون ، وتدلت حول كتفيه منشفة ، راح الحلاق يحلق له ذقنه . لقد كان منظراً لاينسى ، فقد أحاط بالسياسى حشد صاخب من الناس جاءوا يقدمون له التماسات شتى ويطلبون مساعدته ويرجونه أن يوفر لأولادهم وظائف أو إعانات أو معاشات لهم هم . كل ذلك فى فوضى صاخبة فى حين تولى الدفاع عن السياسى ضد هؤلاء المقتحمين قليل من أتباعه المخلصين . وأصغى السياسى الشبيه بالإله جوبتر إلى هؤلاء الناس وأومأ إليهم برأسه ونادى كلا منهم باسمه وضحك وأصدر الأوامر . ولا تجد هذا المثل الصارخ بهذا الشكل المسرحى فى المراكز الأكثر تقدماً ، ومع ذلك فإن كبار رجال الأعمال والمال والصناعة والعلوم فى الشمال محاطون هم أيضاً ، وبالقدر نفسه ، بالتوابع الذين يتوددون إليهم وإن كان ذلك يجرى بطريقة أكثر حشمة وتحفظاً .

وطبيعى أن التملق ، أعنى التملق الهادف إلى المنفعة ، ظل دائماً الطريقة الأساسية للفت النظر والفوز بمحبة الرئيس وبالتالى للترقى . ولعل أبرز الأمثلة وأنصعها فى التاريخ هى قصة ذلك الشاب الإيطالى الفقير العديم الأصدقاء الذى استطاع أن يرقى دفعة واحدة بفضل كلمات قليلة تلفظ بها (أربع فقط) حيث نجح فى مهمة عهد بها إليه وازدهر مستقبله كله . وقد أورد هذه القصة دوق سان سيمون فى مذكراته (وقد يسر نجاح هذا الشاب كون الرجل الذى تملقه أجنبياً فكان إغراؤه أسهل بكثير مما لو كان إيطالياً) . وقد جرت الواقعة التى تحدث عنها سان سيمون قرب «بارما» فى سنة ١٧٠٦ حيث يقول فى مذكراته : « إن دوق بارما خشى أن تخرب الجيوش الفرنسية أراضيه وتنهبها ، وكانت إذ ذاك تحارب فيها الجيوش النمساوية ، فأراد أن

يطلب إلى القائد الفرنسي دوق فاندوم Vendôme بأن يأمر جنده بالانسحاب بضعة أميال بعيداً عنها .

وبدت المفاوضات دقيقة عسيرة بنوع خاص حيث اشتهر دوق فاندوم بأنه رجل شديد المراس يصعب إقناعه ، وكان شاذاً نزويـاً وابنـاً غير شرعي يجرى فى عروقه الدم الملكى ، وبالتالى كان كسائر الأبناء غير الشرعيين الذين يجرى الدم الملكى فى عروقهم نزاعـاً إلى الشك سريع الغضب ، وكان فضلا عن ذلك عنيداً ما هراً كسولا متغطرسـاً وجشعـاً ، كما كان يفخر بأنه شاذ شهوانى ، وكثيراً ما استعرض محبوبيه ومن نالوا حظوته ، وكان ينام فى فراش واحد مع كلابه بل إنه لم يزعج أنثاها قط حينما كانت تلد فى الفراش نفسه ، وكان شرهـاً أولع بالتهام كميات وفيرة من الطعام كان أغلبها من السمك الفاسد الذى استساغه بصفة خاصة ، ولكنه كان يتقيأ بعده مباشرة فى إناء أمام ضيوفه ودون أن يقطع الحديث ، واستخدم دائمـاً لغة خشنة عسكرية ، وكان يستقبل زائريه ويصرف ماالديه من أعمال وهو « يقضى حاجته حيث يجدر آنذاك أن يختفى عن أعين الناس » .

وقرر دوق بارما أن يرسل إلى القائد الفرنسي سفيراً يخلف فى نفسه أثراً قويـاً ، فأوفد إليه أسقف بارما ، وهو رجل مسن وقور حاذق ارتدى ثيابه القرمزية ، وألحق به قسيسـاً صغيراً ، إلا أن الكاهن الكبير المقام لم ينج من نزوات القائد الشاذ ، وبعد أن استمع إلى فكاهات شائنة ورأى بعض المناظر المؤذية المخزية انصرف ساخطـاً حانقـاً . أما القسيس الصغير الوصولى ، وكان أكثر الإيطاليين طموحـاً ، فقد تشبث بالبقاء ، يقول عنه سان سيمون فى مذكراته « إنه وقد عرف من هو فاندوم قرر أن يرضيه بأى ثمن حتى يتم المهمة وفق رغبة سيده . . . فلم يلبث أن استسلم

لفاندوم — وهكذا تمت المهمة بسرعة وبطريقة مرضية — والتحق القسيس ، وكان ابن بستانى ، بخدمة فاندوم وأصبح مستشاره ثم تبعه إلى إسبانيا حيث أصبح الصديق الحميم للملك والملكة وعين رئيساً للوزراء . وبعد ذلك بسنوات نصبه البابا كاردينالا وجعل نفسه حكم أوربا ليقرر الحرب أو السلام بين الدول العظمى . . . كان اسم هذا القسيس جوليو ألبيرونى Giulio Alberoni .

كيف إذن تسير الأمور فى إيطاليا على نحو رائع أحياناً فى عالم قاس شديد المنافسة ؟

وكيف يستطيع هذا العدد الكبير من الإيطاليين أن يتقنوا أعمالهم على حين قلما يختار قادتهم على أساس قدرات ومواهب وخبرات موضوعية بل يختارون فى معظم الأحوال عن طريق النزعة إلى الدسائس والمكايد ؟ وكيف تستطيع أية مؤسسة ، أن تعمل حين تكون مشوبة بالمحسوبية معرقلة بالتملق ؟ نعم ، كيف يمكن لأمور كثيرة أن تتم على نحو رائع فتتنافس الصناعات مع منافسين أكثر كفاية وتماسكاً فى الأسواق الدولية ؟ وكيف تجرى الحياة فيما يبدو فى سهولة ومرح ؟ وإذا كان ما ذكر فى الصفحات السابقة صحيحاً فلماذا لا يخفق الإيطاليون فى كل شىء يحاولونه ؟ ترى ما هو السر ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة مسألة معقدة ، فبادئ ذى بدء هناك ميادين محددة لاتسرى عليها القواعد الإيطالية بشأن التقدم . مثال ذلك أنه لا يمكن إلا للرجال القادرين الوصول إلى القمة فى ميدان الجراحة ، ذلك أنه لسبب ما لا يبالى الإيطاليون بأن يسلموا أمور حياتهم القومية إلى قادة غير قادرين دساسين ، ولكنهم يأبون أن يعهدوا بحياتهم الشخصية إلى جراحين غير بارعين . ولأسباب مثيلة هم لايشجعون الغث من كل من منشدى الأوبرا وراقصات الباليه والممثلين ومخرجى

الأفلام السينمائية وحائكي الملابس والطيارين والربابنة ، فكل هؤلاء يتقدمون ويرتقون طبقًا لجدارتهم الخالصة .

ويجب أن نتذكر أنه يحدث أحيانًا أن الناس الذين يعطون عملهم اهتمامًا كافيًا ولديهم الطاقة الإضافية المطلوبة للتفوق يفهمون بسهولة فهمًا كاملا الإجراءات اللازمة للوصول إلى القمة بوصفها جزءاً لايتجزأ من عملهم ، ولولا هذه الفنون البارعة لما كان في وسعهم أن يطوروا إمكاناتهم ، ولبقيت قدراتهم الكامنة عاطلة دون استغلال ، وهم يكتسبون هذه الفنون بوصفها جزءاً من المعرفة الضرورية تمامًا كما يكتسبون العادات أو يتعلمون القراءة والكتابة ، فتضعهم موهبتهم في مركز مؤات ، والموهبة هي قبل كل شيء أحد مصادر القوة ، وكما شرحت من قبل ، يفضل الرؤساء الكبار والشلل ترقية أولئك الذين سوف ينفعونهم ، أي أولئك الذين يجمعون بين مواهبهم والمهارات الخاصة اللازمة بتحسين أحوالهم ، وكثيراً ما يكون هؤلاء الشبان جديرين بالترقي من الناحية الموضوعية . وأخيراً فإنه في معظم المشروعات الخاصة تشق عادات المنافسة الغربية طريقها بصعوبة ضد الأساليب الإيطالية التقليدية وكثيراً ما تسود ، ففي الصفوف العليا والمؤسسات الكبيرة حيث لاتتصل المسائل بالناحية الفنية أو الكفاية بل بمجرد القوة ينشأ الرؤساء بطبيعة الحال وفق الطريقة الإيطالية القديمة . أما في الصفوف الدنيا والمؤسسات الصغيرة وحدها فإن الذين يتقدمون ويترقون هم على سبيل الحصر أولئك الذين يحققون نتائج .

ويكره الإيطاليون بطبعهم كابوس التنافس غير المحتمل ، وهذا الانتقاء الذي يقوم على تشجيع الشاذ والفظ من الناس الذين تنحصر مزاياهم في قدرتهم على النجاح في الاختبارات ، وفي إتقان عملهم والإلمام به إلمامًا طيبًا ، فيسألون أنفسهم أي حياة هذه التي

ينبغي للمرء فيها أن يشق طريقه بصعوبة من أجل مركزه بدلا من أن يبقى آمنًا مطمئنًا في حماية أصدقاء أقوياء ؟ وهذا هو أحد الأسباب التي تفسر كيف أن كل أنواع التنظيم الصارم للحياة الاقتصادية تجد ترحيبًا في إيطاليا : فقد أحب الإيطاليون نقاباتهم Guilds التي كانت قائمة في العصور الوسطى ، أي في عالم يسبق عالم الصناعة ، تلك التي نظمت كل حرفة ومهنة من التلمذة apprenticeship إلى اللحد ، وأحبوا الفاشية قبل الحرب العالمية الثانية ، لأنها منعت كل تنافس بوصفه خطراً على الدولة ، وأحاطت البلاد بحواجز جمركية منيعة ، كما يحبون اليوم أي نوع من الاشتراكية طالما يسمح لذوي الطموح أن يتقدموا كما تقدموا دائمًا بفضل حماية الأقارب الأقوياء وبسحرهم الشخصي وبسهولة تملق الناس والترصد للمناصب المتاحة السمينة بعين بصيرة نافذة .

الفصل الثالث عشر

مشكلة الجنوب

بعد كل ما ذكرناه فى الأبواب السابقة أصبح القارئ ملماً بكل شىء يمكن أن يضىء أمامه جوانب البيئة الإيطالية والحياة الإيطالية ، ويبدد ما قد يكون هناك من غيوم كثيرة . فلديه الآن كل المفاتيح تقريباً التى قد تمكنه من أن يستنبط لنفسه جميع الأمور . وسوف يتعرف على مناظر محزنة قاسية كما هى على حقيقتها لا كما تبدو للعيان ؛ وسوف تكشف عن سر طبيعتها وترفع الحجب عنها بعض أحداث التاريخ الغامضة أو أحداث السياسة المعاصرة المتناقضة المبهمة، تلك التى يناقش الأفراد الأمناء الحائرون معناها الحقيقى بدون جدوى ، فقد ينسب بسهولة الدبلوماسيون والصحفيون الأجانب الحديثو العهد فى روما معنى محدداً إلى التصريحات الملتبسة والبيانات المبهمة عن الأهداف السياسية ، وكذا إلى المناورات الحاذقة المحيرة ، وسوف يعرف أصدقاء إيطاليا معرفة صادقة ماذا يحبونه فيها ولماذا ؟ ولا شك أنه لن يمكن تفسير كل صغيرة وكبيرة . بل سيكون هناك دائماً ضباب رقيق فوق الوهاد وسوف يتعذر دائماً تفسير بعض الحقائق والشخصيات والأحداث والمشاكل وقليلا من عواطف الجماهير وتقلباتها فى الماضى والحاضر . فليس كل ما فى إيطاليا يجرى على الطريقة الإيطالية all'italiana ذلك لأن الحياة لا تسير قط وفق الخطط العقلانية المنطقية التى يرسمها الإنسان .

وسوف يحار القارئ بين الحين والحين ، بل سوف يضل إن هو طبق مفاتيح

الحياة الإيطالية تطبيقاً صارماً بعيداً عن الخيال ، وعليه أن يتذكر أنه حين قد لا تكون الأشياء كما تبدو للملاحظ الساذج فإنها ليست دائماً أو كلية كما يعتقد المراقبون الشاكون الواقعيون ، فقد يحدث ألا يستسيغ الأجنبي إيماءة بريئة أو نبرة صداقة خالصة أو محبة صادقة أو عملا بطولياً على أنه مجرد تظاهر كاذب ، أو قد يعتبر موجة من الحماس الجماعي مجرد مظهر أجوف ، وسوف تدهشه الحقيقة وتصدمه صدمة عنيفة؛ فقد حدث مثلا أن الجنرال « ليون دى لاموريسيير » قائد الجيوش البابوية التى تألفت من المتطوعين الفرنسيين والإيرلنديين والألمان والبلجيكيين والسويسريين حدث أن تحدى جيوش الحكومة الملكية الإيطالية فى عهد الملك فكتور إمانويل الثانى V. Emmanuel II وذلك فى معركة كاسلفدردو Castelfidardo فى ٨ سبتمبر عام ١٨٦٠ وقال مزهواً عبارته المشهورة الأخيرة : « لا يستطيع الإيطاليون أن يحاربوا » ؛ لأنه كان يعرفهم ويحتقرهم ، وسبق أن رآهم فى الحرب ، ولكن الإيطاليين خيبوا ظنه فهزموه هزيمة نكراء خسر بعدها البابا كل ممتلكاته إلى الأبد؛ ثم كم من مراقبين أعلنوا فى سنة ١٩٢٢ أن الفاشية ليست سوى حريق من القش لن يدوم أكثر من ثلاثة أشهر ؟ ليس غريباً أن الحذر الذى يتذرع به الأجانب هو الذى يضللهم حيث كثيراً ما انخدع الإيطاليون عبر القرون وهم على علم بكل القواعد التى تحكم سلوكهم ، فقد ضللهم وخيب ظنهم وشلهم خوفهم من خداع أنفسهم .

وعلى سبيل المثال فإن تطبيق بعض المبادئ التى لخصناها يمكن أن يوضح مشكلة الجنوب المحيرة Problema del Mezzogiorno : أى الفارق العميق القائم بين « إيطاليتين » : إيطاليا الشمال وإيطاليا الجنوب . لاشك أن الإيطاليين جميعاً يبدون — إذا لوحظوا عن بعد — أنهم متشابهون كما يتشابه أفراد الأسرة الواحدة ، فهم ينحدرون من أصل واحد تقريباً ، ويتميزون بشعرهم وعيونهم السوداء وسيماهم

المرحة : وقد شكلتهم تقلبات تاريخية مماثلة وطوروا أو شحذوا نفس المواهب حتى ينعموا بالبقاء، وهم جميعاً يحبون الحياة، ويهشون للمنظر البراق : ثم هم جميعاً على حدسواء يحذرون القانون، ويسعون لتحقيق أسلوبهم للسعادة على طريقة جويتشارديني Guicciardini أى مراعاة تحقيق مصالحهم الخاصة على حساب المجتمع . فعليهم أن يدافعوا عن أنفسهم وعن أسرتهم وعن شلتهم ضد خيانة الآخرين وحسدهم وحقدهم ، وهم يستخدمون الأسرة بمثابة فلك يصمد للنكبات الطبيعية والاضطرابات التاريخية والانقلابات السياسية ، وعليهم خلافاً للشعوب الأحسن تنظيماً أن يعتمدوا على فضائلهم الخاصة ورذائلهم العامة وقدرتهم على التكيف وعلى سحرهم وذكائهم وحذقهم وكذا على استخدام نفوذهم الشخصى .

كل هذا ينطبق على شمال إيطاليا وعلى جنوبها . ولكن هناك فارقاً هاماً هو أحد الأسباب التى تفسر بطء تقدم اقتصاد الجنوب فى القرن الماضى وسرعة نمو اقتصاد الشمال . وقد أحبط هذا الفارق حتى الآن كل المحاولات التى قامت لتوحيد مستوى المعيشة أو جعله واحداً تقريباً فى الشمال والجنوب . وسوف يسىء هذا الفارق نفسه توجيه إنفاق جزء على الأقل من المبالغ الهائلة التى تستثمرها الحكومة فى الجنوب ، بل هناك خطر من ازدياد عدم الثقة وسوء الفهم بين « الإيطاليتين » ، وسوف تصبح الوحدة القومية التى كانت دائماً هشة فى أحسن الأحوال ، أكثر خلخلة مما كانت عليه فى الماضى .

أما الأهداف الخاصة للجنوبيين والشماليين فهى — بطبيعة الحال — نفسها تقريباً ، بيد أن الشمالى يعتقد أن هناك سبيلاً مؤكداً لبلوغها هو اكتساب الثروة ، حيث يؤمن أن الثروة وحدها تكفل سلامة الأسرة وسعادتها ، على حين يدرك الجنوبى أن هذا الهدف يمكن تحقيقه باكتساب النفوذ والمكانة والسلطة والشهرة فحسب ، ومن ثم

يدأب الشمالى مهما كانت طبيعته على السعى لاكتساب الثروة بأشكالها المختلفة ، فهو يريد عملا ثم عملا أحسن ، وهو يريد أرضًا ورأس مال ورصيداً وأسهمًا فى شركات صناعية وبيوتًا ، ومعرفة فنية وعلمية ، ودرجات جامعية نادرة باهظة التكاليف حتى تكفل له وظيفة ذات مرتب أفضل ، وتقدمًا فى الحياة ، ثم هو يضع هذه الأهداف نصب عينيه فى تربية أولاده فيعلمهم ليكونوا فنيين ذوى مرتبات عالية ومهندسين وإخصائيين ، وهو يقدم أية تضحية بغية الحصول على مزايا مادية له ولأسرته ، وهو يريد لنفسه زوجة غنية ، وأزواجًا أغنياء لبناته وزوجات غنيات لأولاده وأصدقاء أثرياء . خلاصة القول أنه يشبه البورجوازى الفرنسى بمعنى أنه إنسان اقتصادى Homo economicus .

أما الجنوبى فإنه يريد أولا وقبل كل شىء أن يطاع ويكون موضع الإعجاب والاحترام والخوف وحسد الآخرين ، إنه بطبيعة الحال يريد ثروة أيضًا ولكنه يريدها لتكون أداة يؤثر بها على الناس ، ومن ثم فإن التظاهر بالثروة عنده مفيد قدر الثروة نفسها ، فأنت تجد فى الجنوب أن الفلاح البسيط . والأجير اليومى . ومشذب أشجار الزيتون ، وعامل منجم الكبريت ، وكذا مالك الأراضى ، والعضو المحترم فى ناد خاص ، ومُحْدِث الغنى ، صاحب المصانع المنشأة حديثًا ، نجد كل هؤلاء يسعون لاكتساب ود الأصدقاء والأقارب الأقوياء ، وخوف أعدائهم ، واحترام كل إنسان ، وشهرة أسرهم .

وعلى سبيل المثال نذكر أن هناك فى ميلانو فى الشمال وفى نابولى فى الجنوب تجار جملة للخضر والفاكهة ، وهم جميعًا ينتسبون إلى الطبقة الاجتماعية نفسها تقريبًا . وتلقوا التعليم نفسه بوجه عام . ويدفعون رسومًا لجمعية تجار الجملة التى تتبع اتحاداً قوميًا يضمهم ، وقد يتقابلون فى مؤتمرات أهلية بل فى مؤتمرات دولية ، ولعلهم يعرفون بعضهم بعضًا ويومئون بعضهم لبعض عندما يتقابلون ، أى أنهم يعتبرون أنفسهم زملاء

بطريقة غامضة ، وهنا تنتهى كل أوجه الشبه بينهم ؛ فتاجر الجملة النابوليتانى يتجول فى الريف ومعه معارفه متعمداً إرهاب الفلاحين الذين يقعون فى قطاعه المحدد ومجبراً إياهم على أن يبيعوا له محاصيلهم بالأسعار التى يحددها هو ؛ وهو يدافع عن قطاعه وعن الفلاحين أتباعه ضد أى عدوان من أى منافسين له ، ويحمل معه بندقيته فهو يصوبها على هدفه متى شاء، ويمكن أن يقتل إنساناً عند الضرورة، ويمكنه أن يأمر آخرين بقتله ، ولما كان الجميع يعرفون أن فى استطاعته تنفيذ إرادته والدفاع عن سلطانه بقتل خصومه ، فإنه لايحتاج أبداً إلى أن يصوب بندقيته . أما إذا رفض الفلاحون أن يبيعوا له محاصيلهم ففى وسعه أن يترك هذه المحاصيل فى الحقل حتى تفسد ، ومن ثم فإن الفلاحين لايرفضون أبداً بيع محاصيلهم إليه لأن أحداً لايجرؤ على أن ينافسه فى شرائها ، وطبيعى أن المراقب السطحى لا يستطيع أن يدرك ماذا يدور فعلا ولا يعرف علاقات هذا التاجر بالفلاحين وبتجار التجزئة ، ولن يلحظ شيئاً من التهديدات الخفية والمخاوف المستورة، فإن كل الفلاحين والعملاء والمعاونين وتجار التجزئة والمنافسين سوف يبتسمون ويتبادلون الضحكات والفكاهات ويشربون النبيذ معاً ويتصافحون وكأنهم خير الأصدقاء، وفى القليل النادر فقط يحدث أن تسوء الأمور فيعثر رجال الشرطة على جثة مجهولة فى أحد دروب الريف — وهنا قلما يعرف الجناة — وبرغم ذلك كله فإن أحداً لايقتل فى نابولى طالما كان حذراً يساير اللعبة ويلتزم بقواعدها .

أما تاجر الجملة الميلانى فهو شخصية مختلفة تماماً ، فهو أشبه بزملائه الأجانب منه بمنافسيه النابوليتانيين والصقليين ، فهو لا يحمل معه بندقيته أبداً ولايتبعه معاونون، ويندر أن يرى الفلاحين الذين يشترى منهم ، ولا يكاد يتجول فى الريف ، وإنما يجلس فى غرفة مكتب حديثة تحيط به آلات لإملاء الرسائل ورسوم بيانية على الجدران،

وعدد من السكرتاريات النشيطات ، ويدير عمله بالتليفون مع الوسطاء والمشترين فى ألمانيا وفرنسا وسويسرا ، يبيع لهم كميات هائلة تشحن إليهم بسيارات الشحن أو فى عربات السكك الحديدية ، فيرسل إليهم الخوخ من فيرونا والمشمش من نابولى والبرتقال من صقلية والعنب من أبوليا والبطاطس والكرنب من تسكانيا ، هدفه الوحيد زيادة الكميات التى يشحنها إلى الخارج فى عربات سكك الحديد المزودة بالثلاجات ، حتى يرسل المحاصيل الطازجة اللازمة لاستهلاك الأجانب بأعلى الأسعار . ويحصل بطبيعة الحال على ربح وفير فى السنوات الطيبة . قل إنه يستطيع أن يكسب أحياناً مائة مرة بل ألف مرة مثل ما يكسبه زملاؤه النابوليتانيون ، ولكن النابوليتانى لا يعنيه هذا الأمر ولا يشقيه لأنه يريد أشياء أخرى غير المال ، أشياء أندر وأكثر إشباعاً لنفسه ، ذلك أنه يريد أن يرهبه الناس (على رجال الشرطة أن ينسوا أحياناً أنهم رأوه يمر بهم) ، ويريد أن يكون قوى النفوذ (على السياسيين أن يلتمسوا معونته فى وقت الانتخابات) ، ويريد أن يكون محبوباً (فهو سوف ينصف المظلوم ويحمى الضعيف الذى يطلب معونته) .

وهذا المثل اخترناه على سبيل الإيضاح ليثبت نقطة معينة ، والواقع أنه ليس هناك شىء سهل على هذا النحو فى واقع الحياة ، ذلك لأنه ليس هناك حد أخلاقى فاصل بين الشمال والجنوب ، فليس كل الجنوب جنوبياً وليس كل الشمال شمالاً بحتاً ، وقد يجد المرء فى الشمال أناساً يريدون قدراً كبيراً من السلطة والنفوذ والمكانة والمرتبة فوق أى شىء آخر ، وبالمثل من السهل أن يجد المرء فى الجنوب خمسمائة إنسان لا تهمهم المكانة ومستلزماتها ويحرصون على جمع المال الوفير ، ولكننا حين ندقق النظر نجد أن هذه الاستثناءات تؤيد عادة القاعدة العامة أكثر مما تنفيها ، ففى كثير من الأحوال نجد الشمالى الذى يبدو أنه يسعى وراء السلطة إنما يفعل ذلك لأن السلطة

تجلب مالا أكثر ، ونجد الجنوبى الذى يبدو أنه يحاول زيادة ثروته إنما يريد حقاً رفع مقامه بقدر يوفره له المال . وهناك فى روما مثلا سياسيون معروفون من الشمال يستغلون مكانتهم المرموقة فى الحكومة لإثراء أسرهم ، وهناك سياسيون معروفون من الجنوب يجمعون المال ليصبحوا نواباً فى البرلمان ووكلاء للوزارات أو وزراء ، ويمكن القول بصفة عامة إن الجنوبيين يميلون إلى جمع المال ليحكموا ، على حين يميل الشماليون إلى أن يحكموا ليجمعوا المال .

وقد لا يكون هذا الفارق واضحاً فى كل فرد ولكنه واضح فى المُجتمَعين ، ويتخلل كل صغيرة وكبيرة ، ويدعم الخصائص المتناقضة بين « الإيطاليتين » ، ويوسع الثغرة بينهما . لقد نجحت إيطاليا الرسمية ظاهرياً فى مائة سنة فى توحيد الأسماء والألقاب والأختام فحسب ، ولكنها لم توحد الواقع . خذ مثلا مدير الأمن Prefetto ذلك الموظف الذى تعينه الحكومة المركزية ليحكم مديرية ، إنه دائماً من الجنوب ، ذلك لأن الجنوبى هو وحده الذى يقبل وظيفة زهيدة المرتب ولكن لها سلطة وأمجاد وأسبقية فى البروتوكول ، فهو يرى فى لقب صاحب السعادة Eccellenza لقباً يماثل لقب الأسقف أو لقب أمير بابوى أو سفير ، ويهنأ بمكانته الممتازة التى يحتلها على المائدة ، وليس هناك شىء أكثر تضليلا من الاعتقاد بأن هناك بين مدير الأمن فى مديرية شمالية وزميله فى الجنوب أى شبه ، فهو فى الشمال موظف بيروقراطى مغمور وقليلون من يتذكرون اسمه ، أما فى الجنوب فهو الحاكم والقائد الاجتماعى فيذهب إلى الولائم وحفلات الزواج والجنازات وتعميد الأطفال ، ويحاط بالمتوددين والمتذللين ، وتعتبر كلمته بل أى اقتراح يبديه على التليفون أو رغبة يهمس لها لنفسه — تعتبر قانوناً ؛ ثم إنه لايزال يستطيع أحياناً أن يوجه الانتخابات لمصلحة الحكومة ، وعندما يمر بسيارته السوداء ينحنى له الناس ويرفعون له قبعاتهم .

ومن الحماقة أن نصدر حكماً على أى من هذين المجتمعين لنقرر أيهما أكثر مدنية وأيهما أقدر على أن يوفر على مر الزمن أكبر نفع لأكبر عدد ، فبديهى أن الشمالى به ميزات مادية أكثر من الجنوبى ، ولكنها ميزات لاتعوض مساوئ الفقر الروحى والمتعة الفجة ، والحياة الثقافية والعاطفية المزيلة ، والتقنين الكريه للحياة والنظام وكلها أمور تعتبر جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الصناعى ، ومن الناحية الأخرى يستخدم الجنوبى قدراته فى الكفاح اليومى ، وكثيراً ما يقهر منافسيه ، وينعم أحياناً بلذة النصر ، ولديه وقت لمتابعة أهواء تافهة متلافة وكثيراً ما تكون حياته أكثر عاطفية وإنسانية وأقرب إلى الطبيعة والغرائز الطبيعية ، ولكن هذه المزايا لاتعوض القذارة والفقر واليأس وانعدام الأمن والظلم .

وجدير بنا أن نشير إلى الفوائد العظيمة التى قدمها الجنوبيون للمنجزات الإيطالية الماضية ، فبديهى أن الشعب الذى يقف نفسه للسعى العقلانى العلمى للفوز بالثروة وحدها لابد له أن يصبح شعباً كئيباً مملا لأن المدنية ونعم الحياة تزدهر أحسن ازدهار حين يكون هناك شعب مؤمن ذكى يرضى بالحياة البسيطة فى سبيل تحقيق أهداف أسمى وأكثر إشباعاً للنفس . . شعب يفضل الكرامة والشهرة والنفوذ وراحة الضمير والرفعة على مجرد المال ، فيخرج منه علماء وشعراء وفنانون وروائيون وقديسون وفلاسفة وفقهاء وشواذ ، وأرستقراطيون مبذرون ، وقد أخرج الجنوب غالبية هذه الشخصيات فى الحياة الإيطالية ، وتدين لهم إيطاليا بفضل عظيم ، فإن بعضاً من أحسن القصص المعاصرة فى إيطاليا كتبها جنوبيون ، وكان « بيراندللو Pirandello » أعظم روائى مسرحى أخرجته إيطاليا من مواليد بلدة كاووس Chaos على مقربة من «أجريجنتو» فى صقلية ، كما ولد « كروتشى Croce » وهو أعظم فلاسفتها « ودانتزيو» وهو واحد من أعظم شعرائها ، فى إقليم أبروتزى Abruzzi ، ثم إن أمور الدولة سارت عشرات السنين سيراً

حسنًا وبأجر بسيط على يد موظفين من الجنوب وكانت جامعات إيطاليا ولا تزال زاخرة بالأساتذة الجنوبيين ، كما أدار مستعمرات إيطاليا فى الماضى جنوبيون ، وسيطر على المحاكم فى الماضى رجال من الجنوب ؛ وكوّن الصقليون نواة السلك الدبلوماسى وتفوقوا فى هذا الميدان ، وقامت فى بارى ونابولى ومسينا بعض دور النشر التى خصصت نفسها بنشر الثقافة وحافظت على بقاء الروح الإيطالية حية فى سنوات الحكم الفاشى الدكتاتورى المظلمة .

أما القول بأن كثيراً من سمات الجنوب وعاداته نموذجية لمجتمع « زراعى » إقطاعى فإنه قول متحيز مضلل وإن كان مغريًا ، فهو يفترض أنه من الممكن للجنوبيين أن يكونوا شماليين إذا أحيطوا بالنظامين السياسى والاقتصادى السليمين فحسب ، ولكن الأمر ليس كذلك فمثلا أنشئت الصناعات فى جزءى إيطاليا الشمالى والجنوبى فى الوقت نفسه تقريبًا أى فى أوائل القرن التاسع عشر ، وحدث بعد الوحدة وفى ظروف مماثلة نظريًّا أن اضمحلت الصناعة فى الجنوب وازدهرت فى الشمال ، وقالت مصادر موثوق بها إن الاضمحلال الصناعى فى الجنوب كان راجعًا إلى أن الجنوب كان إقطاعيًّا ، بيد أن الشمال كان إقطاعيا بدوره . كذلك قيل إن الجنوب خضع قرونًا طويلة لحكم أجانب طغاة ، ونحن نعرف أن الشمال حكمه أيضًا أجانب طغاة .

وقيل أيضًا إن الشمال كان أقرب إلى الأسواق الأجنبية ، والواقع أنه كان منفصلا عنها بجبال الألب الشاهقة ، على حين لم تعوز الجنوب موانئ صالحة حسنة الموقع ، فضلا عن أنه لم يكن فى الشمال ولا فى الجنوب مناجم فحم أو موارد رخيصة للمواد الخام. وهناك اعتقاد أن الإيطاليين الجنوبيين كانوا فريسة البيروقراطية الشمالية ، فأفقرهم المنافسون البدمنتيون واللمبارديون ، والواقع أن إدارة الدولة الموحدة سرعان ما أصبحت جنوبية فى معظمها ، وسرعان ما سيطر الجنوبيون على إدارة الأحزاب السياسية أيضًا ،

لأنهم كانوا حقـًا رجالا عرفوا كيف يصلون إلى القمة ، وصار منهم كثير من الوزراء والنواب وكبار الموظفين ، وهؤلاء قدموا ما استطاعوا من خدمات لبنى عشيرتهم — ولو أمعنا النظر فى كل ذلك لوجدنا أن السبب الحاسم هو غير ما ذكر تمامًا ، ذلك أن الثورة الصناعية لم تكن منسجمة مع أهل الجنوب حيث شعروا بغريزتهم أن مكاسبها لا تساوى ما فيها من تضحيات وشعروا أنهم أسعد حالا إذا هم سلكوا طرقـًا أخرى .

* * *

ومهما يكن من شىء فقد تمسك الجنوبيون فى الماضى بأسلوب حياتهم أيـًا كانت الظروف فقاوموا الغزاة أحيانـًا وما حاول هؤلاء إدخاله من مستحدثات ، وتقبلوا أحيانـًا الهزيمة والخزى والفقر واليأس حتى لا يتنكروا لطبيعتهم وتقاليدهم الخاصة بهم ، وكما فعل الإسبان شن الجنوبيون أحيانـًا حرب العصابات فى جبالهم ، وكما فعل الصينيون تظاهروا أحيانـًا باقتباس الأساليب الأجنبية كى يبطلوا مفعولها ويهضموها ويحولوها إلى شىء آخر من صنعهم ، شىء بعيد عن أصله ، نذكر على سبيل المثال أن قانون نابليون Code Napléon أدخل إلى الجنوب فى عهد الإمبراطورية الأولى على يد ملكين فرنسيين هما يوسف بونابرت ويواكيم مورا ، ولم تمض سنوات قليلة حتى أدخل عليه التطبيق المحلى تعديلات وتفسيرات تعذر معها على المحامين الفرنسيين معرفة كنهه ، بل إن خطوط السكك الحديدية نفسها تكيفت وأساليب الجنوب ، فعلى حين روعى عند مد خطوطها فى الشمال أن تسير مع أقصر الطرق وأرخصها بين المدن ، حادت وتعرجت هذه الخطوط فى الجنوب لتمر بقرى مجهولة ولد فيها رجال من أصحاب النفوذ ، أو لهم فيها دور يملكونها ، كما أطيلت أحيانـًا بعض الخطوط عمداً لزيادة ربح المقاول المسئول عن العملية .

وبطبيعة الحال لم يتيسر للجنوبيين استعادة أيام الماضى السعيدة حين حكمهم

فرديناند الثانى الملك البربونى الذى تكلم بلهجتهم وعرف مواطن الضعف فيهم ومات سنة ١٨٥٩ ، فقد دأب على القول : « إن مملكتى تحميها مياه ملحة من ثلاث جهات ومياه مقدسة من الجهة الرابعة » ، وتهب اليوم على البلاد رياح شمالية باردة فتدخل إليها الأساليب الأجنبية بدون حساب ، ولابد للناس أن يتظاهروا بأنهم مثل كل الآخرين ، فأصبح كثير من فضائلهم القديمة رذائل مقررة ، وهم لا يرتاحون إلى أساليب الإنتاج الحديثة حيث كثيراً ما يهزمهم ويذلهم منافسون أكثر غباء يتجاهلون العناصر الطيبة فى فن الحياة ، ولا يمكن أن يكيفوا أنفسهم حتى يصبحوا أناساً اقتصاديين homines economici لاهم لهم إلا جمع المال ، ومع ذلك فإنهم فى الوقت نفسه لايستطيعون أن يحتملوا حالهم من حيث كونهم شعباً أدنى أو « متخلفاً » . وهم فخور بماضيهم .والخلاصة أن هذا هو اللب السيكولوجى لمشكلة الجنوب .

* * *

وليست المشكلة حديثة العهد ، فمنذ مائة سنة وضح تماماً أن الجنوب فى حاجة ماسة إلى رعاية عاجلة ، فقد خص كافور بكلماته التى تمتم بها وهو على فراش الموت بعد بضعة أشهر من قيام الوحدة ، خص بها النابوليتانيين الفقراء حيث قال فى هذيانه الأخير : « لقد استقر الأمر فى الشمال فلم يعد هناك لمبارديون و بيدمنتيون وتسكانيون ورومانيون ، بل أصبحنا كلنا إيطاليين ، ولكن لا يزال هناك نابوليتانيون . أواه ! إن هناك فساداً كبيراً فى بلدهم وليس هذا ذنب هؤلاء الفقراء حيث أسىء حكمهم دواماً وإنما الخطيئة هى خطيئة فرديناند الوغد ؛ والواجب علينا أن نعيد الفضيلة إلى بلادهم ، وأن نعلم أطفالهم وشبانهم ، وأن ننشئ لهم دور حضانة ومدارس عسكرية ، ويجب علينا ألا نحلم بتغيير النابوليتانيين عن طريق إهانتهم وسبهم ، إنهم يطلبون منى وظائف فى الحكومة وأوسمة وترقيات ، ولكن عليهم أن يعملوا وأن يكونوا

أمناء ، وعندئذ سوف أعطيهم ما يستحقون من ألقاب وترقيات وأوسمة . ولكن علينا ألا نسمح لهم بأية تجاوزات ، ويجب ألا يكون موظفو الحكومة موضع الشك ، وسوف أحكمهم بالحرية ، وسوف أبين ما يمكن أن تفعله فى بلدهم الجميل عشر سنوات من الحرية . . . »

ومنذ أوائل القرن الحالى أصبحت القوانين الخاصة ، والمشروعات العامة الخاصة بالجنوب ، والاعتمادات الخاصة للمشروعات التجارية والصناعية ، والاعتمادات الخاصة بالجنوب ، أصبح كل ذلك ظاهرة دائمة للسياسة الإيطالية وقد وقف كل من جوليتى وموسولينى أحسن سنوات عمرهما لإرضاء مطالب الجنوب فى تلقى رعاية خاصة . ومنذ سنة ١٩٥٠ ، أنفقت الحكومة الجمهورية الديمقراطية الجديدة على الجنوب أكثر من ضعف ما أنفق عليه فى الخمسين سنة السابقة ؛ وسوف تنفق عليه سنوياً نسبة كبيرة من الدخل القومى ، وبرغم أن الجنوب تقدم تقدماً هائلا فإن علل الماضى لا تزال قائمة .

* * *

وسوف تؤيد هذه الحقيقة رحلة قصيرة بالقطار أو بالسيارة عبر جنوب إيطاليا ، فسوف يرى الزائر أينما ذهب عدداً من المبانى المقامة بالأموال العامة يفوق ما أقيم منها فى الشمال أو فى أى بلد أوربى آخر . فسوف يرى المرء — ونتحدث هنا حسب الترتيب الزمنى — مبانى ضخمة ترجع إلى زمن جد أبيه ، مبانى أقامها أول ملكين من ملوك آل بربون هما يوسف بونابرت ويواكيم مورا ، وذلك فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ثم سيرى المنشآت الوفيرة التى أقامها فرديناند الثانى ، ولا تزال كل هذه وتلك تمثل غالبية المنشآت الأساسية : الطرق والموانى ، والمبانى الحكومية والمستشفيات والمدارس ، ثم سوف يتعرف المرء على المبانى المتواضعة المألوفة التى أقيمت فى أوائل حكم فكتور إمانويل الثالث ، أى فى السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى ، ثم المبانى الكثيرة التى أنفق عليها بسخاء ،

أعنى تلك التى أقامها موسولينى فى محاولاته الإمبراطورية لتخليد اسمه وسمعة عصره والمقامة من الرخام والأسمنت المسلح ، وأخيراً سوف يرى الزائر المبانى الجديدة البراقة التى أقامتها الحكومات المعاصرة ، حكومات الديمقراطية المسيحية فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية .

وتنم مبانى كل فترة عن حالة من العطب والحاجة إلى الترميم تتناسب وعصرها ، ففى ضواحى نابولى مثلا غدت بعض المصانع القديمة التى بنيت فى أوائل هذا القرن متهدمة فعلا ويتساقط الجص من جدرانها ، ويصعب بل يستحيل أحياناً قراءة اسم المصنع المنقوش على الواجهة بعد أن محته الشمس والأتربة ، وانثنت الدعامات الأفقية الأساسية التى يقوم عليها السقف تحت ثقل القرميد المكسو بالطحلب ، وتعلقت الأبواب فى مفصلات علاها الصدأ ، وامتلأت الأفنية بالنفايات من آلات خربة وصفائح وصناديق شحن تأثرت بتعرضها للريح أو بالعوامل الجوية الأخرى ، وبطبيعة الحال لاتزال المصانع تعمل ، ولاتزال عجلاتها تدور وهى على وشك الانهيار وسبب ذلك كله أن المعيار الاقتصادى يعتبر ثانوياً ، فقلما يكون المصنع مشروعاً لتحقيق ربح بمعنى الكلمة ، وليس القصد منه أن يعمل بكفاية ولعل منتجاته الهزيلة رخيصة كى تباع فى السوق المحلية ، ولكنها رخيصة فى الواقع لأن رأس المال جاء من الأموال العامة لامن القروض ، ولأن للشركة إعفاءات خاصة من الضرائب وربحها بسيط ، ولاتنفق على تجديد أدواتها أو على تحسينات بها أو على صيانتها سوى مبالغ ضئيلة ، والأجور فيها أقل بل أقل كثيراً مما عليه الحال فى جهات أخرى .

أما المصانع التى بناها الفاشيون فهى أحسن حالا نوعاً ما لأنها أحدث عهداً ، ومع ذلك لايظهر فيها أثر للتحسين ، وهى لاتساير التقدم الفنى ، أما المصانع التى بنيت بعد الحرب ، والتى روعى فى إنشائها أحدث الطرق ، وبنيت أسقفها من

البلاستيك ، وطليت جدرانها بألوان براقة ، فلا تزال فى حالة طيبة نسبياً ، ومع ذلك فإن تساقط الجص من جدرانها لا يبشر بالخير لمستقبلها .

وهذا يصدق أيضاً بصفة عامة على المؤسسات الزراعية ، فيرى المرء أحياناً على مقربة من القرى الجميلة التى أنشأتها مؤسسات الإصلاح الزراعى Enti di Reforma قرى مماثلة أقامتها الدولة أيضاً أيام الحكم الفاشى ، وغدت اليوم مهجورة (كما أن معظم القرى الجديدة الحديثة غير مأهولة بالسكان لأن الفلاحين الجنوبيين يفضلون على أى حال العيش فى المدن الصغيرة لا الحياة فى الريف) ، وهكذا تركت المنازل القديمة تتدهور حيث لم يخصص لصيانتها المال اللازم ، وهى أشبه بأطلال متداعية لعصر تاريخى بعيد ، قل إنها أكواخ وزرائب كست سطوحها الأعشاب وأشجار التين البرى ، وتجد أحياناً الأسطح وقد انحنت إلى الداخل أو تطايرت ، على حين تسللت النباتات إلى جدرانها وأرضياتها ، وتلحظ فى كثير من الأحوال أن الأجزاء المتحركة فيها من أبواب ونوافذ ودعامات قد سرقت . . الحق أن أطلال مدينة بومبى أو مدينة هركولانيوم Herculaneum التى تشرف على صيانتها وزارة التربية والتعليم أحسن حالا وتبدو أحدث منها .

ولهذا الإهمال الواضح لأعمال الصيانة دلالته ، فإن القانون الذى يجيز لصندوق اعتمادات الجنوب Cassa del Mezzogiorno إنفاق بلايين الليرات على تنمية الريف ، لا يتضمن بنداً ما لأعمال الصيانة ، ومن ثم فإن الجيل القديم الذى يلحظ تدهور هذه المشروعات الباهظة النفقات يطلق على هذا الإقليم اسم « مقبرة المشروعات العامة » ولا يزال هذا التعريف مستعملا حتى اليوم .

وهناك دلائل أخرى تؤكد سيطرة العوامل السيكولوجية وغير الاقتصادية ، فكثيراً ما تكون المبانى القديمة والحديثة فخمة ضخمة باهظة النفقات بالنسبة للمدينة أو القرية

البائسة التى تخدمها ، وسوف يرى الزائر على شاطئ البحر التيرانى والبحر الأدرياتى موانى كبيرة مزودة بحواجز من الجرانيت أو الأسمنت المسلح وأرصفة لشحن السفن وتفريغها ومخازن كثيرة، على حين أن الكثير من هذه الموانى الثانوية تكاد تكون خاوية صامتة لايأوى إليها سوى سفن الصيد حين تهب رياح البوريانا buriana ، وبالمثل سوف يرى المرء مكاتب ضخمة للبريد حيث لايرسل الأهالى أو يتسلمون أسبوعياً سوى القليل من الرسائل ، وقد يرى مبانى مدرسة هائلة لاتحوى سوى عدد قليل من التلاميذ ، ولايمكن بطبيعة الحال تدفئتها أو تنظيفها بالمبالغ الضئيلة المخصصة لهذا الغرض ، وهناك فى مدينة « بارى » ثكنة لرجال الدرك أقيمت فى أيام الحكم الفاشى على شاطئ البحر فى بقعة كانت تصلح لأن تكون مقراً لشقق سكنية فاخرة أو لفندق عظيم ، وقد زين المبنى بالتماثيل والأعمدة وحفرت على واجهته زخارف شتى ، مما لا يضيف شيئاً إلى مقدرة مخفر شرطة .

وقد فسر هذا الإسراف على أنه نوع من بعد النظر ، بمعنى أنه لمقابلة النمو فى المستقبل ، وهذا تفسير يناقض الحقيقة القائمة من حيث إن الأهالى والأنشطة المحلية قد تضاءلت عن ذى قبل بدلا من أن تزيد ، فلم يحدث شىء قبل الحرب الأخيرة على حين يهاجر اليوم كثيرون من شباب الجنوب بحثاً عن عمل لهم فى الشمال ، وبطبيعة الحال هناك استثناءات ، أى أن هناك حالات أنفقت فيها أموال عامة نجحت فى خلق سلسلة من الأعمال والاستثمارات من لاشىء ولكن ليست هذه الحالات كثيرة ، وهى عادة أقيمت لتؤدى المهمة التى أنشئت من أجلها لاعن رغبة فى الأبهة والفخامة ، وبديهى أن الجهاز لا يستطيع دائماً خلق الوظيفة التى أنشئ من أجلها ، الحق أن كثيراً من تلك المبانى القديمة والحديثة نسبياً أو الحديثة جداً تذكر المرء بالمبانى الفخمة التى أقامها مهراجات الهند القدامى . . هى علامات متفرقة لسلطة أجنبية وأبهتها .

ويتضح في النهاية الهدف السيكولوجي والمظهري لكثير من هذه المباني من البقعة التي تختار لإقامتها فيها ، فمثلا أقيم في بالرمو بصقلية منذ الحرب العالمية الثانية محطة حديثة للكهرباء ويلاحظ أن بالرمو ميالة بنوع خاص إلى الأشياء المظهرية ، فبعد أن فتحها غاريبلدي ، وقمصانه الحمر الألف في عام ١٦٨٠ ، وأصبحت جزءاً من مملكة إيطاليا أقامت دارين للأوبرا كلاهما أكبر من دار أوبرا سان كارلو في نابولي ودار أوبرا لاسكالا في ميلانو ودار أوبرا باريس ؛ أما محطة الكهرباء التي نحن بصددها فلم تشيد بعيداً عن أنظار الناس ووراء تل يخفي مبانيها القديمة ومداخنها حتى يصبح دخانها أقل مضايقة للناس ، بل أقيمت على مقربة من الميناء في قلب المدينة وبذلك أفسدت منظراً من أجمل المناظر الإيطالية ، منظراً اعتز به الشعراء والمصورون القدامى . . . أجل ، لقد أقيمت المحطة في البقعة نفسها التي كان يمكن أن تكون مقراً لكاتدرائية تخلد ذكرى القديس حامى المدينة ، أو كان من الممكن في الزمن القديم أن تكون مقراً لمعبد للإله الحارس لها أو « لزيوس » نفسه . أو أية قوة اعتقد أهالي العصر أنها في وسعها أن تجلب خيراً عميقاً للمدينة .

ويقول السيكولوجيون ، وهم محقون : إن هذا السلوك ليس خاصاً بالإيطاليين وحدهم ، وإنه سلوك الفقراء في أي مكان ، أولئك الذين يبددون أموالهم على أشياء مظهرية زائدة على حاجتهم ، ويغفلون ما هو ضروري لهم . . فالجمهوريات الصغيرة المتخلفة في إفريقيا وفي أمريكا اللاتينية ، تبدد مواردها الضئيلة على إقامة تماثيل من الرخام لمؤسسيها وتهمل بناء محطة للمجاري أو تشييد مدارس ومستشفيات تكفي أهلها ، وهكذا يمكن القول أنها تفعل عن علم أو عن غير وعي ، كل ما يمكن عمله لزيادة الفقر والجهل والمرض ولكن حين يفعل الشيء نفسه مواطنو أمة أوربية اشتهر كثيرون منهم بذكائهم وثقافتهم وألموا إلماماً وافياً بالأمور الاقتصادية واتصلوا بشعوب أكثر منهم

تقدماً ولا يبعدون عنهم سوى ساعات قليلة ، فإنه لا يمكن اعتبار هذا العمل نتيجة انعكاسات اجتماعية عمياء بل نتيجة اختيار متعمد .

* * *

ومهما يكن من شيء فلم يعد الجنوب كما كان فهو يتغير يومياً و ينمو ويتحسن ، وقد ساعد على تغييره عوامل كثيرة ، القليل منها فحسب من صنع الإنسان . . نعم ، لم يعد الجنوب « جزيرة » الملك فرديناند بل إنه جزء من أمة معاصرة ، وجزء من أوربا وجزء من العالم الحديث ، ولم يكن فى مأمن من أحداث التاريخ ، ولم يكن بمنجى من تدفق الاتجاهات المنتشرة فى العالم ، وليس هناك شك فى أن الأموال الكثيرة التى أنفقت عليه أثرت فيه ، فإن جزءاً منها على الأقل أحسن إنفاقه ، وأثر الجزء الباقى بطريقة ما فى البيئة المحلية ، وإن لم يكن التأثير فى الاتجاه المطلوب .

ثم إن الحرب غيرت الأمور فقد قام الجنوبيون بواجبهم فى أراض غريبة نائية من سنة ١٨٦٦ إلى سنة ١٩٤٥ ، وذلك فى شمال إيطاليا وجبال الألب وصحارى شمال إفريقيا وفى إسبانيا وهضاب الحبشة وفى ألبانيا واليونان وروسيا ، كذلك زار كثيرون منهم الهند و بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وذلك بوصفهم أسرى حرب فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، ومعروف أن الناس جميعاً يعودون من الحرب وقد قرروا فى قرارة أنفسهم بأن يحيوا حياة مختلفة أكثر إشباعاً لهم ، ولم يشذ عن هذه القاعدة المقاتلون الجنوبيون ؛ كذلك كان من نتائج تدفق المهاجرين إلى أمريكا الشمالية والجنوبية منذ أواخر القرن الماضى أن تلقى الجنوب بانتظام مبالغ كبيرة من المال ، كما عاد إليه مهاجرون أغنياء حنكتهم التجارب واكتسبوا أفكاراً جديدة وعادات جديدة ، وتطلعوا إلى التغيير المتواصل ، وعلى مر قرن ونصف قرن من الزمان هاجر رجال أذكياء قادرون من الطبقات الوسطى إلى شمال إيطاليا ووسطها حيث شغلوا هم وحفداؤهم مناصب رئيسية ، كذلك عاد جند جنوبيون إلى موطنهم ومعهم زوجات من الشمال . وكان للأفلام السينمائية

والتليفزيون أثرهما ، فقد راح سكان القرى الجبلية النائية يحملقون فيما تعرضه عليهم من صور عن حياة العالم الخارجي وأهله من البورجوازيين المهذبين الممتثلين للقانون الذين أحسنت تغذيتهم ؛ وأخيراً كان للأنشطة الاقتصادية الحيوية فى السنوات القليلة الأخيرة أثرها أيضاً فى إنعاش البلاد ؛ واليوم يذهب العاطلون والعمال غير المهرة جماعات en masse إلى الشمال ، أما من يبقون فى الجنوب فإنهم يجدون عملا أكثر دواماً وأحسن أجراً .

إن التغير واضح بيّن ، فتجد المصانع قائمة على طول الطرق الرئيسية وخطوط السكك الحديدية ، وهناك مصانع أخرى يجرى تشييدها بين وقت وآخر ؛ وطبيعى أن بعض المصانع تعانى بعض الصعوبات حيث بنيت على عجل بدون تخطيط واضح ، أو اعتمادات كافية أو خبرة وافية ، وعلى يد رجال غير أمناء أحياناً ، وبعضها ينتج مصنوعات يجرى إنتاجها فى جهات أخرى على نحو أفضل وأرخص ، فإن الجنوب لا يؤمن بمبدأ التخصص ، ولكنه يؤمن بالمحاكاة ، وهناك مصانع كثيرة ناجحة ومزدهرة ، وتلك هى التى قررت الطبيعة بناءها فى بقعتها القائمة فيها لأغراض موضوعية ، وقد أنشأ بعض هذه المصانع المؤسسات الشمالية منتهزة فرصة التيسيرات التى نص عليها التشريع الخاص بالاستثمارات فى الجنوب ، وهناك مصانع أخرى تديرها الدولة وتمولها مثال ذلك مصنع الحديد والصلب فى تارانتو ، نعم ، أنت تجد مراكز صناعية مزدهرة هنا وهناك ولا تقل شأناً عما تشاهده من مصانع فى شمال أوربا ، وغدت البقعة الساحلية الممتدة من سيراكوزا وأوغسطا فى شرق صقلية ، حيث قامت قديماً فيمايزوى المدينة اليونانية ميجارا Megara وحيث ظلت هذه البقعة إلى عهد قريب لا تحوى سوى أشجار الزيتون وقطعان الماشية التى ترعى على شاطئ البحر ، نقول أصبحت هذه البقعة أشبه بنيوارك Newark فى ولاية نيوجرسى ،

أو جالفستون فى ولاية تكساس . فازدحمت السهول بالمصانع الكيمائية والصهاريج الشاهقة والأنابيب الصفراء والحمراء والزرقاء والمنشآت المعدنية المعقدة التى تشق عنان السماء .

وتشبه الأحياء الجديدة فى المدن المتداعية مدينة « برازيليا » فإن طراز العمارة يتسم بالجرأة كما هو الحال فى أمريكا الجنوبية وفى هند نهرو خوفاً من الظهور فى موقف المتخلف المتمسك بالعادات القديمة البالية التى هجرها سير التقدم ، بل إن أوجه الناس فى المدن والبنادر المزدهرة قد تغيرت ، فأصبح النساء أكثر جدية وأجمل هنداماً وتبدو الجماهير حسنة التغذية ، وتلبس ثياباً أجمل وأحسن ، ولم يعد المتشردون يسيرون حفاة ، واختفى الشحاذون ، وتغيرت عادات الأكل ويبدو الشبان أطول وأحسن قواماً من آبائهم وقد صمموا على ألا يحتالوا على العيش كما فعل أسلافهم دائماً ، وألا يستسلموا للقدر ولسلطان الحظ وللبؤس الأبدى .

وبرغم كل هذه التحسينات الكثيرة التى تفوق حد التصور فمن الحماقة أن نقول إن مشكلة الجنوب هى من غير شك فى طريق الحل ، فبادئ ذى بدء يجب أن نقرر أن مشكلة الفقر بالغة القدم والتأصل بحيث إنها لم تختف وإنما طويت فى معظمها ، وأن ضغطها يشكل أساس كل شيء ، فإن أغلب التحسينات والمستحدثات يمكن ملاحظتها حول عدد قليل مختار من المدن والبقاع المفضلة وأكثر البقاع الزراعية خصوبة ، ولكن البؤس يعم كل الجهات الأخرى حيث لا يذهب عادة الزائر العادى القادم من الشمال ، وقد تكون هذه الجهة خلف بقعة مزدهرة أو على مرمى حجر من فنادق جديدة فخمة أو مصانع أو بيوت عمال أو على مسيرة قصيرة فوق التلال . . نعم ، سوف نجد فى كل مكان فى الريف أن البؤس مازال مسيطراً ، وإن كان بؤساً أفضل من سابقه حيث يخففه كثيراً ما استحدث من منشآت وأعمال

جديدة مثل طريق جديد أو تليفون عام أو أحيانـًا قناة لنقل المياه أو شبكة من المجارى أو مدافن جديدة ، أوأن يزور القرية طبيب مرتين كل أسبوع ، أوتقيم بها حكيمة مولدة ، هو بؤس ربما يخفف منه توزيع الفائض الأمريكى من الدقيق ومن اللبن المكثف للأطفال ، وكذا توزيع الأدوية بالمجان للفقراء ، ولكنه بؤس رغم ذلك كله .

بل يمكن القول بأنه حتى إذا اختفى الفقر ، فالمشكلة ستظل بدون حل ، بل إذا استمرت عملية إدخال الأساليب العصرية ، وإذا أصبح لكل فرد سقف يأوى تحته ، وطعام كاف ، وأمن نسبى ورعاية طبية ، وتعليم ابتدائى ، ووظيفة دائمة ، فإن النواحى الخلقية للمشكلة لن تزول وسوف يستمر الضيق والقلق وإحساس الناس بكونهم ضحايا للظلم التاريخى وفريسة لأطماع غيرهم ، وسوف تستمر الرغبة فى الثورة وفى الانفصال عن حكومة روما المركزية .

وبطبيعة الحال ينشد الجنوبيون حياة أفضل تقارب فى مستواها مستوى حياة الأوربى الغربى ، ويريدون أن يحلوا مشاكلهم المادية العاجلة . إنهم يريدون كل ذلك ولكنهم يريدون أيضًا شيئـًا آخر هو أن تضيق الثغرة بين الشمال والجنوب ، لأنهم يريدون أن يعيشوا كإخوانهم فى الشمال ولا يقبلون شيئـًا غير ذلك بل إن أى بديل لهذا هو أمر مهين لهم ضار بكرامتهم وهم لا يدركون لماذا يعيش إخوانهم الشماليون حياة طيبة ولهم مصانع عظيمة ومستشفيات فخمة وأموال طائلة ، وما سر افتقار الجنوب إلى هذه الأشياء على حين أن زملاءهم ليسوا مهرة مثلهم ؟

لن يمكن تهدئة الجنوبيين قط ، كما لن يمكن دفن المشكلة حتى تمحى الفوارق الحقيقية والوهمية بين الفريقين .. وهناك أسباب كثيرة لصعوبة تحقيق ذلك فبادئ ذى بدء نرى أن كل ليرة تنفق فى الجنوب ، يذهب جزء منها إلى الشمال ، فمن الشمال الإيطاليون

يفد المهندسون والإخصائيون والمديرون والمقاولون والعمال المهرة لكثير من الأعمال ، ومن الشمال ترد كل الآلات والأجهزة اللازمة للمصانع ومختلف المنشآت بما فى ذلك الطلمبات البسيطة اللازمة لرى رقعة صغيرة من الأرض ، وأخيراً ترد من الشمال معظم السلع الاستهلاكية والقمصان والأحذية والملابس والأثاث وأجهزة الراديو والتليفزيون والدراجات البخارية . . وإذا كانت بعض هذه السلع تصنع اليوم فى الجنوب فإن هذه الحقيقة تظل سراً مكتوماً حيث يعتقد الجنوبى أنه أضمن له وأكرم أن يلبس أو يستهلك أشياء مصنوعة فى ميلانو .

خذ مثلا المثلجات الصقلية cassate alla siciliana التى اشتهرت صقلية بصنعها منذ عهود غابرة ترجع إلى أيام حكم العرب لها منذ ألف سنة مضت . . . إن صناعة هذه المثلجات فى الشمال ليست إلا تقليداً رديئاً ، ومع ذلك فإن صقلية تستهلك كميات وفيرة من المثلجات المصنوعة فى ميلانو ، أما صناعتها محلياً ، أى فى صقلية فقد اقتصرت على محال أو مقاه قديمة وهكذا فإن إنتاج ميلانو يجد رواجاً كبيراً فى صقلية حيث يعلن عنه فى التليفزيون ويمكن طلب أية كمية منه فتصل إلى أصغر قرية فى سيارات شحن خاصة مزودة بالثلاجات وثمنها رخيص علاوة على استيفائها كل الشروط الصحية .

ولو أن الصقليين أقاموا مصنعاً للمثلجات لغزوا أسواق ميلانو بإنتاج أفضل ، وبالتالى لغزوا أسواق سائر أوروبا ، ولكنهم لايفعلون ذلك ، ولعل السر يكمن فى أنهم قلما يستطيعون إنشاء شركة مالية كبيرة لمثل هذا العمل (لايريد الجنوبى أن يكون مالك أسهم فى شركة وبالتالى يكون أقلية فيها حيث يريد كل فرد فى الجنوب أن يكون رئيساً ولا يثق أحد ثقة كبيرة بشركائه) وبناء على ذلك فإن الجنوبيين لايريدون أن يتعلموا ما يحسنون عمله ، إنهم يفضلون عمل أشياء أخرى أكثر هيبة ومقاماً ، مثل

صناعة الصلب والآلات وبناء السفن وكذا صناعة السيارات إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا وهم يخضعون بسهولة بالغة لسلطان الشمال حتى فى المسائل الشبيهة بصناعة المثلجات التى شهد لهم العالم ببراعتهم فيها .

وهناك سبب أخير هو السبب الجوهرى ، ذلك أن الجنوبيين يفكرون بلغة السياسة لا لغة الاقتصاد ، فلا يمكن مصنع أن ينشأ للمثلجات فى صقلية إلا عن طريق مبادرة من إدارة حكومية أو إرادة وزير أو تدخل كبير الأساقفة أو قرار لحزب سياسى ، حيث كانت غالبية المبادرات فى القرن الماضى صادرة عن الملوك أنفسهم أى عن سلطة عليا ، ولايزال هذا الحال قائماً حتى اليوم ، فالسياسة هى التى تقرر المصانع التى ستنشأ ومكان إقامتها ، والمال الذى سيخصص لها ، وأولئك الذين سيعهد إليهم بإدارتها ، بمعنى أن الشمالى الذى يعتمد على مبادرته الشخصية ويضطر أن يعمل الأشياء لحسابه الخاص هو شمالى أبله أحمق ، ونتيجة لكل ذلك فإن السباق بين اقتصاديات الجنوب واقتصاديات الشمال هو سباق غير متعادل ، أو قل إنه سباق بين دمية تحركها أسلاك من أعلى وبين إنسان حى ، ومن ثم كان حتماً أن يكون الاقتصاد الشمالى أكثر حيوية وأقدر على التكيف من الاقتصاد الجنوبى ، اقتصاد يديره رجال اختيروا فى معظم الأحوال عن طريق المنافسة ، رجال حنكتهم التجارب وحفزهم أمل الربح .. وهكذا فعلى حين يقاس تقدم الاقتصاد الجنوبى بالأقدام فإن تقدم الاقتصاد الشمالى يقاس بالأميال .

وما دام الجنوبيون لاينشدون حقاً مجرد الازدهار بل المساواة الاجتماعية مع الشماليين ، فسوف يستمرون فى بذل معظم جهودهم وأموالهم بطريقة عارضة فحسب على الأهداف الاقتصادية البحتة ، ولكنهم سيبذلونها أساساً فى عرض وإظهار ما اكتسبوه أو لم يكتسبوه بعد من وسائل المدنية الحديثة والسلطة والمقام ، وسوف تستمر مصانعهم

نصباً تذكارية لا أدوات لإنتاج الثروة ، ولتكون دليلا على أن المدينة أو الإقليم القائمة فيه لم يعد يعتبر متخلفاً ، بل لايقل حداثة وجدة وتقدماً عن أكثر أجزاء أوربا مدنية . . وبديهى أن مثل هذه الاستثمارات لا تنتج نتائج اقتصادية سليمة ، كما أنها لا تترك الأثر السيكولوجى المطلوب ، فإنها لا تسد الثغرة بين الشمال والجنوب بل تزيدها اتساعاً — وشيئاً فشيئاً يكتشف قلة من الجنوبيين ، وعلى مضض منهم ، الحقيقة المذهلة من أن الاستثمارات الوحيدة السليمة هى تلك التى تسير وفق المقياس الشمالى المقيت ، فهى وحدها التى سوف تنتج على مر الزمن نتائج مستقرة للجنوب ، أعنى الآثار السيكولوجية والمظهرية والسياسية المطلوبة ؛ إن هذه الاستثمارات وحدها هى التى تستطيع على مر الزمن حل مشكلة الجنوب Problema del Mezzogiorno بيد أن غالبية الجنوبيين لم يكتشفوا بعد هذه الحقيقة الكئيبة المرة ، ذلك لأن غالبيتهم هم ضحايا الخدعة الإيطالية الخالدة ، خدعة الخلط بين الحقيقة وبين ما يمثلونه على أنه حقيقة فى سعيهم لحل المشكلة العويصة التى لا حل لها ، ألا وهى : كيف يمكن الإنتاج على أساس ما كان يجرى فى الماضى فى عصر البربون الساذج ، وكيف يمكن الاستهلاك فى العالم المعاصر ، عالم السلع الصناعية الرخيصة الوفيرة .

الفصل الرابع عشر

صقلية والمافيا

لقد صدق « جيته » حين كتب يقول : « إن من لا يشهد صقلية لا يمكنه أن يخرج بفكرة واضحة عن حقيقة إيطاليا ، فصقلية هي نموذج إيطاليا المدرسي للمبتدئين ، حيث تجد كل خلة ونقيصة إيطاليا مكبرة مضخمة وملونة بألوان زاهية ، وللصقليين مثلا قدرة على التنظيم sistemazione ، أو بعبارة أصح إضفاء النظام على الفوضى ، فكم منهم كانوا مشرعين ، وكم منهم كانوا فى التاريخ أول من ابتكر طرقاً جديدة للتعبير ، ورؤية جديدة للحقيقة ، ومفهوماً جديداً للعالم والإنسان ! نذكر على سبيل المثال من رجال العصر القديم أرشميدس Archimedes وستيزيكورس Stesicorus الشاعر الشهير ، وإمبيدوكليز Empedocles وتيوقريطس Theocritus أول من نظم شعراً يصور حياة الرعاة وأهل الريف ، ثم نذكر من رجال العصر الحديث بليني وفرجا وبيراندلو ولا مبيدوزا ، وفى الجزيرة تصبح النزعة الإيطالية للأبهة الفارغة والخيلاء والمشاهد اللافتة للنظر عنيفة جبارة فتكاد تكون المظاهر غريبة فى روعتها مليئة بالزخارف إلى درجة بالغة ، وليس هناك فى إيطاليا كلها كنائس أو قصور أكثر باروكية (زخرفة) من كنائس وقصور راجوزا وكوميزو ونوتو وسيراكيوزا ، وقد نحتت كلها بمهارة من الحجر الرملى الذهبي المحلى .

وفى كل أنحاء إيطاليا تجرى الحياة على مهل نوعاً ما بفضل ذكاء أهلها الوافر ، ثم هي فى صقلية مشلولة به فعلا ، فإن ذكاء الصقليين ذكاء مفرط بحيث لزم دائماً تصدير جزء منه إلى الخارج ، ذلك أن قدرتهم على استيعاب المواقف فى

سرعة خاطفة وعلى ابتكار الوسائل للتخلص من المآزق وتقديرهم الصحيح لقوى الأطراف المتنازعة ، وكفايتهم فى نسج الدسائس المعقدة وضبط أتفه أعمالهم وعواطفهم وعباراتهم ، نقول إن قدرتهم على كل هذه الأمور تثير حيرة إيطاليى شبه الجزيرة بقدر ما تدهش أفعال هؤلاء ، أذهان الأجانب أهل شمال أوربا ، والصقليون جميعاً خبراء محنكون بحيث يسهل على كل منهم أن يبطل عمل الآخر .. فإن المشروع البسيط الذى يمكن أن يتم فى أية جهة أخرى برسالة ومحادثتين يصبح بين الصقليين مشروعاً ضخماً يحاول كل مشترك فيه أن يقترح خططاً شيطانية ليتغلب على خصمه ، ويتنبأ فى الوقت نفسه بكل الخطط التى يمكن أن يحاول خصمه استخدامها ، فتكون النتيجة دائماً جمود مصارعين متعادلى القوة ، ذلك الجمود الكئيب الذى نعته لا مبيدوزا بأنه « إحساس بالموت » .

وبديهى أن خير فضائل الصقليين — مثلهم مثل سائر الإيطاليين — ليست تلك التى يتسم بها رجل العصر الحديث المحب للنظام المنكر لذاته ، بل هى فضائل البطل القديم الذى يقاتل ، مع مجموعته الصغيرة ، سائر العالم .. وإذا كان ابن شبه الجزيرة الإيطالية قادراً فى كثير من الأحوال على أعمال البسالة وإنكار الذات ، ففى وسع الصقلى أن يصل إلى ذروة الحلم والكرم وإنكار الذات والشجاعة ، وهو يتقبل الموت بصدر رحب ، أو يسدد ضرباته القاتلة فى هدوء دون تردد أو ندم ، حينما لا يكون هناك مفر من ذلك دفاعاً عن مثله العليا الصقلية البحتة ، وإذا كانت غالبية الإيطاليين يستطيعون أن يتهربوا بمهارة من القوانين المدونة ، فإن غالبية الصقليين يتحاشونها كلية ، فإن هم السادة الذين لا يشق لهم غبار فى هذا الفن ، ويعترف لهم الإيطاليون بأنهم أبطال لا نظير لهم فى هذا المضمار .

وتقرر مرتبة كل فرد على حدة بقدر ما يثيره من خوف ، وبتلك الهالة الرهيبة التى تحيط به ، وهذا يصدق بنوع خاص على الجزء الغربى من الجزيرة ، حيث الخوف

هو خشية الموت ، ولكنه يصدق أيضاً على نحو خفى في كل مكان بالجزيرة ، وتعرف الأساليب المراوغة التي طورت عبر العصور لإثارة الخوف والذعر بين عدد متزايد من الناس بأساليب «المافيا» ، ولهذه الكلمة السيئة السمعة معنيان : معنى عام وآخر خاص.

فالمافيا Mafia بمعناها العام هي حالة ذهنية وفلسفة للحياة ، ومفهوم للمجتمع ، وقانون خلقي ، وإحساس يسود جميع الصقليين ، فهم يتعلمون في المهد أو يعرفون حين يولدون أنه عليهم أن يساعد بعضهم بعضاً ، وأن يقفوا إلى جانب أصدقائهم ويحاربوا الأعداء المشتركين حتى لو كان الأصدقاء على خطأ والأعداء على صواب ، وعلى كل فرد أن يدافع عن كرامته بكل الوسائل وبأى ثمن وألا يغفر إهانة مهما صغرت بدون أن يأخذ بثأره ، وعليهم أن يكتموا السر ، وأن يحذروا دائماً من السلطات الرسمية ومن القوانين . ويشترك كل صقلي في هذه المبادئ سواء كان رجلا مهذباً أو لصاً حقيراً ، أميراً معدماً يعيش في قصره الفسيح المغبر ، أو مهرباً للهرويين له أقارب في الولايات المتحدة الأمريكية ، وسواء كان عالماً ضليعاً أو عاملا أمياً يعمل في منجم الكبريت ؛ كما يحافظ على هذه المبادئ أيضاً ويراعى تطبيقها بعناية الصقليون الذين يعيشون في سائر أجزاء إيطاليا أو في الخارج . والواقع أن الصقلي الذى لا يشعر بهذه الالتزامات يجب ألا يعتبر نفسه صقلياً . وبهذا المعنى فإن صفة المافاوى Mafioso هي صفة كل من يتصرف ، في زهو ، واعتزاز بالنفس . فإذا رأى الصقليون مثلا جواداً يتبختر وعليه سرج مزركش ، وله رقبة مقوسة وخياشيم متسعة وعيون متقدة قالوا : « ياله من جواد مافاوى ! » وهم بطبيعة الحال لا يعنون بذلك أنه عضو في جماعة سرية خطيرة .

أما المافيا بمعناها الخاص ، فهى المنظمة الشهيرة غير الشرعية التي تسيطر على جزء واحد في صقلية ، أعني في غربها ، فتهديداتها مخيفة في بالرمو أو بارتنيكو أو أجريجينتو Agrigento ولكنها تغفل في مسينا وكاتانيا وسيراكوزا الواقعة في

شرقى الجزيرة ، والمافيا ليست جماعة منظمة بمعنى الكلمة ذا هيئة تتدرج فى مراتب مسلسلة ، وليس لها قوانين مدونة ، ولا مقار ، ولا فئة مختارة مسيطرة ، ولا رئيس لا منازع له ، بل هى تشكيل تلقائى أشبه بمستعمرة النمل أو خلية النحل ، هى مجموعة مفككة كيفما اتفق من أفراد وجماعات غير منسجمة ، كل فرد فيها يحيا حياة الحشرات ويتبع قواعدها ، وكل جماعة تسيطر على مجالها الصغير ومستقلة تخضع لزعيمها الخاص بها ، وتفرض كل منها فى دائرة اختصاصها نظام عدالتها البدائى الصارم . . ولا يحدث إلا فى الظروف الطارئة النادرة أن تتحرك المافيا لتؤلف اتحاداً مفككاً .

ولا يعرف أحد عدد رجال المافيا ، ويمكن أن يقال إن أقلية فحسب من الصقليين هم الذين يعتبرون من المافيا بالمعنى الموسوم بالإجرام ، وكثيرون لا يعرفون حقاً أهم من المافيا أم لا ؟.. ولكن كقاعدة عامة — ينبغى على الصقليين الغربيين — أن يحافظوا على علاقاتهم الطيبة مع المافيا فى قريتهم أو فى مدينتهم ، فلا بد لهم من العيش هناك ، وبالتالى لزام عليهم حماية أسرتهم وأملاكهم أو عملهم ، لا يريدون إثار المتاعب لأنفسهم . . والمافيا بالنسبة لهم هى حقيقة من حقائق الحياة ، وشرط من الشروط الأبدية للبقاء ، شأنها شأن المناخ . أو متوسط سقوط المطر أو اللهجة المحلية . ، وكثيراً ما يستحيل رسم خط فاصل واضح بين من ينتمى إلى المافيا ومن لا ينتمون إليها .

خذ مثلا قصة رهبان ماتزارينو Mazzarino الذين قبض عليهم أخيراً وحوكموا لأنهم عملوا رسلا بين المافيا وضحاياهم من الرجال الذين تعرضوا لتهديدهم بغية ابتزاز أموالهم . . فقد شرح الرهبان الأتقياء فى دفاعهم أمام المحكمة غير الصقلية أنهم يجب عدم اعتبارهم بحال مستشارين للمافيا أو محرضين أو شركاء فى الجريمة ، ولكنهم عملوا كل ما فى وسعهم لإقناع الضحايا الذين حملوا إليهم

رسائل تهديد المافيا بأنه خير لهم أن يدفعوا ما طلب منهم ، وأن يسرعوا فى ذلك حرصاً على إنقاذ حياتهم ، ألم يحدث أن من أغفلوا نصيحتهم وجدوا جثثاً هامدة فى دروب الريف المنعزلة ؟ واعترف الرهبان بأنه كان من الطبيعى أن يكتبوا بعض الرسائل بأنفسهم ، ولكنهم قالوا إنهم فعلوا ذلك لأن رجال المافيا كانوا أميين ولم يكن لديهم آلة كاتبة .

وفضلا عن ذلك أوضح الرهبان أنهم غير مسئولين أبداً عن تنفيذ القانون فى ماتزارينو ، لأنهم ليسوا رجال شرطة ، وإنما أخذوها قضية مسلمة بأن هناك مغتصبين ، وضحايا ثمينة من أصحاب المال الوفير ، ولكن سلامة هؤلاء الضحايا كانت متوقفة على تحقيق طلبات المافيا . . فهناك رجال يمكنهم العيش والازدهار بما يثيرونه من خوف فى الآخرين – وراح الرهبان يشرحون أنهم كانوا يقومون بواجبهم فحسب ، لأنهم حاولوا منع سفك الدماء ، ألم تكن رسالتهم رسالة إنسانية ؟ (ولكن المحكمة انتهت فى قرارها إلى أن الرهبان مجرمون برغم ذلك ، وحكمت عليهم بالسجن عدة سنوات) .

وبطبيعة الحال يدرك كل إنسان (وإن كان لا يجرؤ أحد أن يذكر ذلك علانية) أن المصائب التى تحمى المافيا الناس منها تكاد تكون كلها تقريباً من صنع المافيا وتدبيرهم . . ويعرف كل فرد أن ما يدفعه للزعيم المحلى من إتاوة يشبه ما كان يدفع للأمير الإقطاعى ، وهكذا يستسلم كل فرد لطلبات المافيا . ولكن ليست العلاقة بين رجال المافيا وضحاياهم مقصورة على جمع المال حيث يحل دائماً يوم تحتاج فيه المافيا إلى خدمة من نوع ما ، ويكتشف المرء عندئذ أنه عاجز عن أن يرفض طلبهم ، أجل ، يجد رجل الأعمال نفسه مضطراً لأن يعطى مجرماً سابقاً وظيفة ، ويجد المصرفى أنه لزام عليه أن يأذن بقرض لعميل غير مضمون ، ويجد الفلاح أنه مضطر لأن يأوى رجالا مجهولين فى حظيرة ماشيته دون أن يسأل

أية أسئلة عنهم ، ويجد الرجل الأمين نفسه مضطراً لأن يتذكر بوضوح شيئاً لم يره قط أو ينسى شيئاً رآه . يقع كل هؤلاء شيئاً فشيئاً فى شباك المافيا ، ثم يتعذر عليهم أن يخلصوا أنفسهم منها .

خذ مثلا آخر : قد يريد أحد المرشحين السياسيين الفوز بأصوات الناخبين ، ويستطيع رجال المافيا أن يحصلوا له على كل ما يريده من أصوات فى أحياء معينة فيتقبلها بشىء من المخاوف . . وقد فعل ذلك كثيرون من الساسة البارزين ، فلماذا لا يحذو أى مرشح حذوهم ؟ نعم لقد تقبل معونة المافيا أورلاندو الصقلى الذى يعتبر أكبر حجة إيطالية فى القانون الدستورى ، وكان رئيساً للوزراء فى سنة ١٩١٨ عقب الحرب العالمية الأولى ، وصار بعد ذلك بسنة واحدة أحد الأربعة الكبار فى صلح فرساى إلى جانب لويد جورج وودرو ولسون وجورج كليمنصو . نقول إنه تقبل معونة المافيا ، ففى أول انتخابات حرة أجريت فى إيطاليا سنة ١٩٤٦ بعد الحرب العالمية الثانية ، وضعت فى دائرته بارتنيكو قرب بالرمو التى كان قد انتخب فيها لأول مرة سنة ١٨٩٧ ، وهى حصن مكين للمافيا ، وضعت لوحة كبيرة كتب عليها العبارة التالية : « انتخبوا فتوريو إمانويل أورلاندو صديق الأصدقاء » ، ولم تكن هناك عبارة أوضح من تلك ، فالكل يعلم من هم الأصدقاء .. إنهم « المافيا » .

وبديهى أن المرشح عندما يفوز بالانتخاب فى أى مكان ، عليه أن يظهر علامات شكره لناخبيه ، وبعبارة أخرى عليه مقابل ما منحوه من أصوات أن يقوم بأشياء قد لا يرتضيها دائماً ، ومهما يكن من شىء فأى مرشح فائز لا يقدم خدمات لأبناء دائرته ؟ بيد أنه فى صقلية قد يوصى بتعيين رجال غير صالحين إطلاقاً فى وظائف فنية ، وقد يكتب رسائل للوزراء يدافع فيها عن شخصيات مشبوهة ، أو قد يساعد على إخراج رجل من السجن ، أو قد يعترض على إقامة مشروع مفيد

(مثل إقامة قناة عالية لجلب المياه) قد يضر بنفوذ صديق من الأصدقاء أو بدخله (كأن يكون مالكاً لآبار مياه) . . ترى هل ما جرى عليه العرف من استخدام المافيا على هذا النحو وتقديم خدمات لهم يجعل المرء بالضرورة عضواً فى هذه الجماعة أو شريكاً لها ؟ يجيب عن ذلك علماء الأخلاق بالإيجاب . أما الصقليون فهم غير متأكدين من صحة هذا الجواب ، فهم يعرّفون هؤلاء الرجال الذين يكتمون السر ويقدمون الخدمات ويتقبلون الخدمات ، ولكن لهم أيضاً سلطات خاصة بهم غير مستمدة من المافيا وتجعلهم نافعين للمافيا أحياناً . . يعرّفونهم بأنهم رجال محترمون uomini rispettati ، رجال يكسبون احترام الآخرين ولا ينبغى الإضرار بهم .

وواضح أن الموضوع كله محير للعقل ، فالمافيا بمعناها العام والمافيا بمعناها الخاص مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، ذلك أن المافيا . بمعناها الخاص لا يمكن أن تزدهر إن لم يكن معناها العام سائداً ، ولا يمكن أن يصل إنسان إلى القمة فى المافيا بمعناها الثانى إن لم يكن أستاذاً متمكناً من معناها الأول » ومن الصعب أن يعرف المرء على نحو دقيق أين يبدأ أى من المعنيين وأين ينتهى الآخر ، فهما كثيراً ما يتداخلان ويتشابكان . الحق أن للظاهرة جذوراً عميقة فى التاريخ ، وفى أخلاق الصقليين وعاداتهم ، وتختفى أصول هذه الجذور فى أعماق القرون الغابرة .

* * *

والواقع أن أحداً لا يعرف معنى كلمة « مافيا » ومن أين جاءت ؟ وأين نشأت ؟ ولماذا تحول المفهوم الكبير للمافيا إلى النحو الذى صار إليه ؟ ويذكر الصقليون هذه الكلمة على مضض منهم ، فقط ليجعلوا أنفسهم مفهومين حينما يخاطبون الإيطاليين فى شبه الجزيرة ، أو الأجانب ، ولكنهم يفضلون أن يطلقوا على المافيا اسم الجماعة المبجلة onorata società أو أى اسم آخر ، أما الأعضاء فيعرفون عادة باسم

الأصدقاء gli amici أو أصدقاء الأصدقاء gli amici degli amici ويستعمل رجال الأعمال ذوو الوقار فى بالرمو تعبيراً رشيقاً حديثاً عملياً ذلك أنهم حين يتكلمون عن رجال المافيا الأقوياء الذين يتوجهون إليهم أحياناً لطلب مساعدتهم اسم الرجال المؤهلين أو الإخصائيين qualificati

وإليك كل ما هو معروف عن أصل المافيا : اعتاد ملاك الأراضى فترة قرون طويلة أن يقيموا لأنفسهم جيوشاً صغيرة للدفاع عن أسرهم وضياعهم ضد عصابات النهب والسلب ، وكان بصقلية طرق قليلة ، وكانت الجزيرة نفسها تئن تحت حكم أجانب جشعين ، كما كانت الثورة كامنة ضد القوانين والمؤسسات الأجنبية ، فحافظت هذه الفرق العسكرية compagnie d'armi على نوع من العدالة البدائية بوسائل عنيفة ، فلم يكن لها محاكم قضائية ولا سجون ، وإنما كانت تعدم كل من يرتكب جريمة مهما صغر شأنها ، لقد فهمت العدالة على أنها شىء فطرى فى الإنسان ، فرفعت المظالم ، وحمت الضعفاء ، وعاقبت اللصوص ، وزوجت الفتيات اللائى اغتصبن من مغتصبيهن ؛ وذلك كله وفقاً لتفسير قانون الفروسية الريفى الذى كان قد أدخله إلى الجزيرة الغزاة النورمان سنة ١٠٧٠ م ، والذى ظل حياً فى مسرح العرائس الذى يتردد عليه الكبار والصغار ، وخصص لتمثيل منجزات فرسان شارلمان .

واليوم يحاول رجال المافيا الصقليون أن يحافظوا على الفكرة الزائفة بأنهم ليسوا مجرمين عاديين ولكنهم أعداء المجرمين ، وأنهم لا يرتكبون الجرائم ولكنهم للأسف مضطرون أحياناً إلى استعمال القوة لتمويل أنفسهم وتنفيذ قانونهم الذى ظل قروناً طويلة — حسب روايتهم — القانون الشرعى الوحيد فى صقلية ، والحامى الوحيد ضد الفوضى . وحقيقة الأمر أن الجوانب الظاهرة فى حياة كبار رجال المافيا لا غبار عليها

عادة ، فهم آباء طيبون وأزواج صالحون وأبناء بررة كلمتهم مقدسة ويتحاشون بشدة أن يكون لهم يد فى أعمال التجسس أو الدعارة أو المخدرات أو عمليات النصب والاحتيال ، ولا يخونون صديقاً أبداً ؛ ثم هم دائماً رجال مخلصون للكنيسة ، ويتبرعون بأموال ضخمة للأبرشية المحلية أو للفقراء المحتاجين ولكثير منهم أخوات فى الأديرة وأخوة فى الطوائف الدينية ، ولذا ينبغى للمرء حين يدرس هذه الجماعة ألا ينسى هذا الأثر الباقى من العصور الوسطى ، فإن هذا الكلام الطنان ليس كله زائفاً ، وهذا أمر مهم لأنه يميز المافيا الصقلية عن المنظمات الإجرامية البحتة أو جماعات ابتزاز الأموال بالتهديد أو الإيذاء وهو ما تشتهر به « المافيا الأمريكية ».

ورأى معظم قادة الجيوش الصغيرة Compagnie d'armi — شأنهم شأن العمد فى أفلام رعاة البقر الأمريكية — أن من المناسب أحياناً أن يجندوا رجالا جدداً من بين قطاع الطرق ، ويكون هؤلاء عادة من قطاع الطرق القدامى الذين سئموا حياة الغابات ونشدوا الاستقرار وتطلعوا إلى حياة عائلية محترمة ، وكان هؤلاء الرجال هم الوحيدين المتاحين الذين لم يخشوا ركوب المخاطر ، وبذلك أصبح الخط الفاصل بين مخالفى القانون غير واضح ، وكان من السهل على الرجال أن ينتقلوا من طائفة إلى أخرى ثم العودة إلى الطائفة الأولى مرة ثانية ، وتفسخت الجيوش المحلية وتعذر ضبطها وأغرتهم فرصة الوصول إلى اتفاق مع أعدائهم ، أى مع المجرمين المحترفين ، وبالتالى أمكن أن يتعايش الجميع ويزدهروا على نحو آمن مطمئن ، فإن قام قطاع الطرق بالسلب والنهب فى أملاك أخرى فإنهم يلقون رعاية وعطفاً من الجيوش المحلية ، أما إذا أرادوا الشغب فى أملاكها هى فإنهم يلقون حتفهم .

وكان المالك عادة يقطن بعيداً عن أرضه فى مدينة مثل بالرمو أو نابولى ، فإن كان موجوداً فى أرضه وحدث أن اكتشف أن حراسه كانوا شركاء لقطاع الطرق فسرعان ما كان يجد نفسه فى مركز حرج جدا ، وليس أمامه من اختيار سوى

أن يتقبل إرادة رجاله ، لأنهم هم الذين حموه وحموا أسرته وقصره ومخازنه . أليس كذلك ؟ فماذا يعنيه إذا ألحقوا أضراراً أحياناً بممتلكات جيرانه ؟ أجل كان فى وسع حراسه أن يفرضوا عليه إرادتهم ، وكان عليه مقابل خدماتهم أن يعطيهم جزءاً من المحاصيل (ألم يفعل المرء دائماً هذا العمل نفسه مع الحكومة ؟) ، وأن يتغاضى عن جرائمهم ، وأن يحميهم من السلطات الحكومية بنفوذه ، وأن يحرص على ألا يعاقبوا بالجرائم ارتكبوها فى جهة أخرى، سواء كانت عمليات خطف أشخاص أو ابتزاز المال أو السرقات أو القتل .

ولا يزال شكل المافيا البدائى الريفى بما عرف به من هذا المزيج من القسوة العنيفة والعواطف النبيلة قائماً فى صقلية حيث توجد ضياع كبيرة ، وسرعان ما يُخطر الوارث أو المشترى الأجنبى لضيعة منعزلة ، نقول سرعان ما يُخطر بطريقة سرية مؤدبة ، ولكنها تثير الرهبة فى نفسه ، بأن عليه ، لكى يتحاشى أى متاعب ، أن يستأجر رجلا معيناً من أهل الجهة ليكون مشرفاً على الضيعة ؛ ويكون هذا الرجل عادة قد قضى سنوات فى السجن، لأنه ارتكب جريمة سرقة أو حريق أو قتل . ويشمل لفظ الأجنبى هنا الصقلى الوافد من شرقى الجزيرة ، أما الصقلى الذى هو من الغرب فلا حاجة به أن يُخطر بهذا الأمر ، لأنه يعرفه من تلقاء نفسه، وهو يفعل ما هو ضرورى، أو يبيع الأرض لأى شخص يسمح له بشرائها بالثمن الذى يحدده الأصدقاء (المافيا) ، فإذا كان المشترى الجديد من الحمق بحيث لا يفهم معنى الرسالة المبلغة إليه فسرعان ما يحصد نتيجة إغفاله هذا فتقطع كرومه ليلا وتحرق غاباته ومخازن تبنه وتسرق أغنامه وماشيته ، وربما يختطف أحد أطفاله ، ويعترف رجال الشرطة بعجزهم عن عمل أى شىء وينصحون المالك بأن يفعل ما طلب منه ، فإذا فعل ذلك فسوف يكون رجلا محترماً rispettato وسوف يوقر ويبجل ويخدم خدمة خالصة ويحاط بكل التحيات الإقطاعية ويمتدح فى كل مكان، وسوف يرفع له أناس مجهولون قبعاتهم ، وسوف ينحنون أمامه

كلما مر بهم ، وسوف تكون حياته مأمونة بل سوف تكون الفردوس نفسه .

وهناك اليوم أنواع أخرى من المافيا أكثر حداثة وربما أكثر قوة كذلك ، تخصص معظمها فى ابتزاز إتاوة مالية من كافة الأنشطة الاقتصادية ، فهناك مافيا الماشية والمراعى ، ومافيا الموالح ، ومافيا المياه (أولئك الذين يتحكمون فى الآبار النادرة وقنوات الرى) ، وهناك مافيا المبانى (فإذا لم يدفع المقاول الإتاوة المفروضة عليه هدمت سقالاته فيسقط من عليها البناءون ويلقون حتفهم) ، وهناك مافيا التجارة ، ومافيا الأشغال العامة (الذين يمنحون العقود) ، وهناك مافيا تجار الجملة فى الخضر والأزهار والأسماك وهكذا . وكلها تعمل بالطريقة نفسها تقريباً ، وهى تفرض النظام فى حدود اختصاصها ، وتمنع السرقات ، وتوفر الحماية ضد كل أنواع التهديد بما فى ذلك تهديدات السلطة الشرعية والمنافسين والمجرمين وموظفى المالية والمنظمات المافية المنافسة ، وهى التى تحدد الأسعار وتنظم العقود وتتولى أمر من يخالف أوامرها فتعاقبه بالإعدام ، وإن كان يندر حدوث هذا إذ تكفى هذه الحقيقة فى معظم الأحوال لكى تجبر كل شخص على تنفيذ أوامرها .

أما رؤساء هذه المنظمات المختلفة فهم عادة بورجوازيون موسرون ومحامون محترمون وجراحون مشهورون أو أصحاب أملاك فى الريف ، وكلهم لهم صفحات بيضاء وسلوكهم لا غبار عليه ، وهم يستخدمون الدبلوماسية لا القوة ، ويتحدثون بصوت خفيض ويفضلون أن يستخدموا الطريقة القديمة للمخاطبة فيقولون : «إنى أقبل يديك Bacio le mani» . وهم محافظون فى سياستهم بل رجعيون ، يكرهون كل تقدم من شأنه أن يهدد حتما سلطاتهم ، فهم يريدون إبقاء الأمور على ما هى عليه ، ويقفون دائماً إلى جانب أية حكومة قائمة وكأنهم لا يمكنهم أن يتلقوا العون إلا منها . . إنهم ظرفاء simpatici ولا بد لهم أن يكونوا كذلك .

* * *

والأسرة هي النواة الأولى للمافيا ، وقد انتسبت بعض الأسر لجماعة « الأصدقاء » منذ زمن سحيق ، فيترك الأب لابنه الأكبر أملاكه كما يترك الملك مملكته لولي عهده ، ويجرى الأب مفاوضاته وإلى جانبه ابنه الأكبر ، ولا يتكلم هذا مطلقاً بل ينظر ويسمع ويتذكر كل شيء ، فقد يُقتل الأب فجأة ، وتظهر بعض الأسر الحديثة من لا شيء ، وعليها ـ كغيرها من الأناس الجدد ـ أن تناضل الأسر القديمة لتبقى وتثبت وجودها ، وعلى مر الزمن يصبح لها معاونون وأتباع وأملاك ، وتقيم علاقات مع ملاك الأراضي ورجال الأعمال والسياسيين والشرطة والأسر المافية الأخرى ، وفي أول الأمر تقرر مرتبتها بعدد أعضائها الذكور وببسالتهم ثم تقرر فيما بعد بالاتصالات المفيدة التي تقيمها ، ويمكن أن تتعايش عدة أسر مافاوية في قرية واحدة مادامت لا تتنافس في ميدان النشاط نفسه فتتفرغ كل منها إلى قطاعها الخاص بها ، وعليها جميعاً أن تتحد معاً ضد أي تهديد مشترك .

وقد تجد أحياناً مجموعة من الأسر القوية التي تنتسب إلى الإقليم نفسه وتتابع أنشطة مماثلة أو متقاربة إنه من الخير لها أن تكون اتحاداً دائماً يعرف باسم الرابطة Cosca ، وهذه هي الخطوة الثانية في المنظمة. وليست هذه الرابطة تحالفاً بين أقران متساوين ولكنها تحالف يقوم على الاعتراف بسيادة إحدى الأسر وزعامة ربها ، وتحافظ الرابطة Cosca على علاقات طيبة مع مثيلاتها التي وقفت نفسها لأنشطة أخرى وتتفق معها عادة على الحدود والاختصاصات ، وتتفاوض معها على عقد معاهدات تحترمها الأطراف المختلفة ، ويندر أن تعلن هذه الروابط الحرب بعضها على بعض ، وتتخذ الحرب في هذه الحالة شكل الخصومات ، فيقتل شخص من فريق ، ويقتل آخر من الفريق المنافس انتقاماً للقتيل الأول ، ثم يعثر على ثالث مصاب بعيار ناري

فى دروب من دروب الريف ، وقد تباد أسرة بأكملها . وهكذا يستمر الحال عدة سنوات حتى ينسى السبب الأصلى للخصومة .

ومن الخصومات التى لايزال يذكرها الناس والتى راح ضحيتها مئات منهم منذ قرن مضى ، تلك التى نشبت بين مجموعة تدعى ستوباليرى stoppaglieri فى بلدة « منريال » Monreale ومجموعة اسمها فراتوتزى Fratuzzi فى بلدة « باجيريا Bagheria » ، فقد حدث أن أحد أفراد هذه المجموعة الأخيرة ويدعى « سالفاتورى داميكو » تحول إلى مخبر بعد أن فقد كل أسرته ، فأبلغ الشرطة كل مايعرفه ثم قال : « إن رجال المافيا سوف يقتلوننى ،ولن يمكنكم أنتم ولا كل شرطة إيطاليا إنقاذ حياتى » . وفعلا بعد أحد عشر يوماً وجد مصاباً بالرصاص وفى فمه « فلة » رمز مجموعة ستوباليرى ، وعلى صدره صورة عذراء Madonna del Carmine رمز مجموعة فراتوتزى . وتناسى الفريقان المتخاصمان عداوتهما مدة الفترة الضرورية اللازمة لعقابه ، ذلك لأنه ارتكب أكبر إثم فى نظر المافيا ، بوصفه قد أبلغ السلطات الحكومية ، وهذه جريمة تسمى جريمة الإبلاغ Informità (وجدير بالذكر أن الرجل الذى خان قاطع الطرق « سالفاتورى Salvatore جوليانو » Giulioano قتل منذ سنوات قليلة مضت فى سجن بالرمو بعد أن تناول فنجاناً من القهوة المسمومة) .

وكثيراً ما تنضم هذه الروابط cosche التى تقوم بأنشطة مماثلة أو متقاربة فى زمرات مقدسة consorteria ، وهنا تعترف الزمرة لرابطة من الروابط التى تؤلفها بالسيادة ، وتعترف لراعيها بأنه زعيم الجميع ، ويحدث هذا تلقائياً عندما تدرك الروابط أن واحدة منها هى أقواها وأغناها رجالا وأصدقاء ومالا ، وأكثرها حماة وأقارب

من مراتب عالية وأشدها إلحاقاً للأذى بأى شخص يتحدى إرادة الزمرة وأعظمها نفعاً لمن يتعاون معها ، وتؤلف كل هذه الزمر المقدسة فى صقلية الجماعة الموقرة onorata società أى المافيا ، وهى كما ذكرنا جمعية مرنة مفككة حدودها غامضة.

وهناك درجات شتى للانتساب لهذه الجمعية : فقد تعمل أسرة من الأسر كوحدة دون حاجة إلى الانضمام إلى أسر أخرى ، وقد تعمل رابطة سنوات طويلة دون الانضمام إلى روابط أخرى ، وقد تسيطر زمرة من الروابط على مساحة معينة مستقلة عن جماعة الجزيرة ، بيد أن هناك روحاً من وطنية المافيا تسود الجميع وتوحد كل الأعضاء ، فهم يدركون أنهم مدينون بكل معاونة ممكنة لأى صديق من « جماعة الأصدقاء » يحتاج إليها لأى سبب من الأسباب ولو لم يسمعوا عنه ، شريطة أن يقدمه إليهم صديق للطرفين . . ويعرف غالبية كبار رجال المافيا مئات من أصحاب المراتب العليا ، ويتقابل الزعماء الكبار معاً ، ويتابع كل منهم نشاط الآخر من بعد ، ويقوِّم كل منهم زميله حق التقويم كما يفعل مشاهير الرجال فى مختلف الأعمال ، ويصبح رؤساء قلائل مشهورين شهرة خاصة فى كل صقلية بسماتهم الخاصة من ذكاء وحصافة وعزم قوى ونجاحهم المتواصل ، وكنتيجة طبيعية يعترف فى النهاية لرجل واحد بأنه أكثر الناس موضعاً للاحترام والثقة والتبجيل ، لأنه يستطيع أن يثير الرهبة فى النفوس أكثر من أى شخص آخر . . . هذا هو رئيس المافيا .

وليست هناك قواعد مضبوطة لاختياره ، فليست هناك لوائح أو انتخابات أو اجتماع سرى للرؤساء الكبار ولا هيئة انتخابية . أما الاجتماعات التى قد تعقد فهى اجتماعات غير رسمية ، وبطبيعة الحال كان على الرئيس فى القرن الماضى أن يشق طريقه إلى القمة و يحطم أخطر منافسيه ، وكانت هذه العملية مدمرة مضنية ، راح ضحيتها مئات من الأرواح الغالية ، أما اليوم فإن رئيس المافيا ينبثق بسلام

حيث عرفه أقرانه لسنوات طويلة أنه خيرهم ، وقد حدث أحياناً ، ولفترات قصيرة ، أنه لم يكن هناك رئيس واحد بل مرشحون كثيرون متعادلون ، ومن ثم ظل المركز خالياً .. أما العمل فقد سار كالمعتاد ، وسرعان ما يعثر على الرئيس ، وهو على أية حال شخصية لا يمكن الاستغناء عنها ، فإن سلطته مطلقة فقط على زمرته ، وهى سلطة إسمية فى سائر الجزيرة . وهو لا يصدر أوامر أو يرسم خططاً للعمل أو يتولى مفاوضات باسم المافيا مع السلطات الرسمية أو العملاء الأجانب ، ولكن قد يطلب إليه أحياناً تسوية نزاع أو إنهاء خصومة أو وضع حد لأمر ما ، ويندر جداً أن يشن الحرب على الثائرين باسم المافيا كلها .

ولعل أهم رئيس للمافيا لا تزال ذكراه عالقة بالأذهان وموضع الاحترام هو « دون فيتو كاشيو فرّو » Don Vito Cascio Ferro الذى جال وصال من نهاية القرن الماضى إلى أواخر العشرينات — ولد دون فيتو فى «بيسا كوينو» قرب بالرمو من أبوين فلاحين أميين ، ثم سرعان ما ظهرت عليه علامات النجابة والصفات العظيمة ، فقد كانت تحيط به هالة طبيعية من السلطة ، ووجد الناس على اختلافهم أنه لا مفر لهم من طاعته وطلب مشورته وموافقته على مشروعاتهم دون أن يعلموا سر ذلك ، وكان دون فيتو أول من كيف أساليب المافيا العتيقة الريفية مع القرن العشرين وحياة المدينة الحديثة المعقدة ، فنظم الجرائم من أكبرها إلى أصغرها بما فى ذلك سرقة الدجاج ، واختلاس النقود النحاسية من صناديق الإحسان بالكنائس . وكان يحفظ فى ذاكرته أسماء كل المجرمين تقريباً وكذا أسماء معاونيه ، وكانوا جميعاً يحصلون على ترخيص منه للقيام بمهامهم ولا يمكنهم أن يعملوا شيئاً دون موافقة الجماعة (المافيا) ودون إعطاء المافيا نصيبها المعتاد .

إن وجود الجريمة فى الجزيرة أمر طبيعي شأنها شأن أى بلد آخر وفى أى عهد ، ولكن فى دنيا «دون فيتو» المنظمة كان لابد من تنظيم الجريمة وتحديد مجراها واستخدامها بذكاء فى ظروف معينة لأغراض نافعة كما فرض عليها دفع ضرائب ؛ ذلك أن الجريمة قبل كل شىء أحد أنشطة الإنسان وكل جرائم الجزيرة دون استثناء جرت تحت إشراف رجال المافيا ، ودفع مرتكبوها إتاوة لهم ، كما يمكن تجنيدهم عند أى طارئ للدفاع عن مصالحها ، بل أصبح الشحاذون لأول مرة فى بالرمو غير خاضعين لاستغلال صغار المجرمين ، وما يفرضونه عليهم من إتاوات ، ولكنهم انخرطوا فى منظمة عامة شأنهم شأن كل رجال الأعمال ، وفرض عليهم أن يدفعوا للصديق (رجل المافيا) المشرف على قطاعهم نسبة مئوية مما يربحون .

وساد النظام بحيث إذا سلب خطأ — فى منطقة دون فيتو — أحد الرجال المحترمين كأن يكون سياسياً مهماً من روما ، أو أجنبياً ممتازاً ، فإنه كان يأمر بإعادة ماسرق إلى صاحبه ، سواء كان حقيبة أو ساعة أو محفظة أو مجوهرات سيدة ، وكان ينفذ أمره فى دقائق معدودات مع تقديم كافة الاعتذارات . . . هذا فى غرب الجزيرة أما فى شرقها فلم يكن هناك نشاط للمافيا ، حيث يعرف الجميع ما حدث لموسولينى فى مدينة كاتانيا (فى شرق صقلية) سنة ١٩٢١ من حادث مشين ، ذلك أن الدكتاتور وهو أسمى رجل فى الدولة وقتئذ زار كاتانيا ليبحث مشاكلها وحاجياتها مع سلطاتها . . فذهب إلى مديرية الأمن وعقد مع مدير الأمن والشخصيات البارزة جلسة طويلة ، ولما هم بالانصراف بحث عن قبعته فلم يجدها ، ولم يمكن العثور عليها ، لابد أن الذى سرقها هو لص هوى جمع التذكارات . . ولو أن هذا الحادث جرى فى بالرمو فى غرب صقلية لما عجز رجال المافيا عن رد القبعة لصاحبها .

ولكن لم يعد النظام اليوم فى بالرمو على ما كان عليه أيام « دون فيتو » فقد حدث

منذ سنوات قليلة بعد الحرب العالمية الثانية أن فقدت سيدة إنجليزية صديقة للأمير « دون رايماندو لانزا Don Raimondo Lanza » معطفها الفرو ، وأكد لها الأمير أنه سوف يعثر عليه ، فأرسل إلى خليفة « دون فيتو » وأمره بأن يعيد المعطف . والمعروف أن أسرة لانزا هي من أوائل الأسر التي نزلت بصقلية ، فقد جاءت إليها منذ ألف سنة وحاربت إلى جانب الملك الإمبراطور فردريك الثاني هوهنشتوفن في القرن الثالث عشر ، وكان آل لانزا مستشارين للملوك والأمراء وولاة وقادة وأمراء بحر — وكان أبو « دون رايماندو »من كبار طياري إيطاليا في الحرب العالمية الأولى ، وامتلكت الأسرة آلاف الأفدنة ومدناً بأسرها وأنهاراً وقصوراً ودوراً فخمة ، بمعنى أنها كانت موضع الاحترام والتبجيل في صقلية ، ولكن زعيم المافيا اعتذر في خضوع وأحضر على وجه السرعة جميع المعاطف الفرو التي سرقت في بالرمو في الأيام القليلة الماضية ، ولم يكن معطف السيدة الإنجليزية من بينها ، لقد سرقه رجل هاو ربما كان من شبه الجزيرة غريباً عن صقلية ، ولم يخش صولة الأصدقاء .

الحق أن « دون فيتو » رفع المنظمة إلى أعلى درجة من الكمال دون أن يستخدم العنف . فإن زعيم المافيا الذي يبعثر الجثث في أنحاء الجزيرة ليحقق هدفه يعتبر غير كفء ، شأنه شأن السياسي الذي يشن حروباً عدوانية . لقد حكم « دون فيتو » ، وأثار الرعب في النفوس بفضل استخدامه صفاته العظيمة ، وبفضل سيطرته الطبيعية وهيئته المهيبة ، فقد كان طويل القامة أنيق الملبس حرص على ارتداء الألوان الداكنة ، وجعلته لحيته البيضاء الطويلة أشبه بحكيم من الحكماء أو واعظ من وعاظ نيو إنجلند في القرن الماضي أو قاض محترم (وكان هو أمياً فعلاً) . أما آداب سلوكه فكانت راقية وكان متواضعاً ، ولكنه مهيب ومحبوب من الجميع ، ولم يرفض أي طلب للمعونة ، وأنفق الملايين في قروض وهدايا وفي الأعمال الخيرية

العامة ، وكان يبذل قصارى جهده لتصحيح الخطأ وإزالة الظلم ، وكان إذا خرج فى رحلة ، هرع كل عمدة لاستقباله عند مدخل القرية مرتدياً أحسن ثيابه وقبل يديه وقدم له فروض الطاعة كأنه ملك من الملوك ، وفى أيامه ساد النظام والأمن — نعنى أمن المافيا بطبيعة الحال — لا أمن القانون الرسمى الذى كان من الممكن أن تفرضه مملكة إيطاليا ، ولكن الناس لم يتوقفوا عن تمييز الفوارق بين الاثنين .

وقد اعترف « دون فيتو » أنه لم يرتكب جريمة قتل إلا مرة واحدة فى حياته ، ولم يكن ذلك بقصد الحصول على المال ولكن دفاعاً عن شرف الجماعة (المافيا) ومكانتها وبقائها ؛ وكان القتيل رجلا تحدى المافيا جملة فلقى حتفه على يد « دون فيتو » نفسه ، وكان هذا الضحية ويدعى « جوسبى بتروزينو Petrosino » رئيساً للفرقة الإيطالية فى إدارة شرطة نيويورك ، وكان قد وصل إلى بالرمو سنة ١٩٠٩ ليدرس العلاقات بين الجماعة الموقرة Onorata Società (المافيا) وجماعة اليد السوداء التى ألفها المهاجرون الصقليون فى نيويورك ، ولم يكن بتروزينو صقلياً ، ولم يعرف أساليب الصقليين ، بل كان من بادولا Padula فى مديرية « سالرنو » ، وهاجر إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٧٣ ، فظن أنه فى مأمن من كل خطر حيث لم يعلم بوصوله إلى بالرمو أحد عدا الشرطة ، ولكنه بعد وصوله بساعات قليلة قتله « دون فيتو » فى الشارع وهو يسير فى ميدان مارينا أمام دار القضاء .

وقد قبض على دون فيتو سنة ١٩٢٦ — لأول مرة وللمرة الوحيدة — قبض عليه مدير الأمن مورى Mori ، وهو شرطى صارم عهد إليه موسولينى بإبادة المافيا من صقلية ، فشن على الجماعة حرباً قاسية ، واستخدم أساليب تشبه أساليبهم ضارباً عرض الحائط بالقوانين المدونة ومثيراً الذعر فى قلب كل فرد ، ونجح فترة من الزمن ، لكن « دون فيتو » هيمن بسلطانه على السجن كله شأنه شأن القائد المحبوب الذى

يسجن مع جنده فى معسكر للاعتقال ، فقد ساد النظام فى السجن لأول مرة ، وقام هو بتسوية كل الخصومات ، وساعد السجناء فى حل مشاكلهم الخاصة ، وأرسل الإعانات لأسر الفقراء منهم ، وبعث بمهور وبإعانات سخية لبنات الأصدقاء اللائى يتأهبن للزواج ، واستمر بصفة عامة يواصل أعماله من زنزانته قدر ما استطاع وسط هذه الظروف العصيبة ومات فى السجن كسير الفؤاد . وكان من الممكن إلى سنوات قليلة مضت ، قراءة بعض العبارات التى حفرها بسكينه على جدار رواق سجن « أوتشاردونى » فى بالرمو وقرأ السجناء عباراته تلك وهزوا رؤوسهم بالموافقة على ماجاء فيها . . . وإليك عبارة من تلك العبارات : « إن السجن والمرض والحاجة تكشف عن حقيقة قلب الإنسان » ولا يزال السجين من رجال المافيا يعتبر شرفاً كبيراً له أنه أقام فى الزنزانة التى عاش فيها « دون فيتو » سنوات عمره الأخيرة .

* * *

ومن الغريب أن الفرد الذى ينتسب إلى المافيا يكتشف أنه لا يعرف أنه يفعل شيئاً باطلا ، وإليك الطريقة التى يرى بها الأشياء : إن النظام لابد من صيانته ، والعدالة ينبغى توافرها ، ولكن نظراً لكون الناس لسوء الحظ على ماهم عليه ، فمن الضرورى فى كثير من الأحوال تنفيذ إرادة المافيا بطريق العنف ، ولسوء الحظ يضطر المرء أحياناً لتمويل عمليات روابط المافيا وتنفيذ قانونها ، إلى ابتزاز المال والسرقة والاحتيال . ألا تفعل الشىء نفسه كثير من المنظمات التى تناضل ضد حكومة ظالمة أو حكومة أجنبية ؟ وبطبيعة الحال ينزل الأذى بالناس ، ولكن هذا يحدث فقط لأنهم عنيدون ، وبطبيعة الحال كثيراً ما يكون عسيراً قصر استخدام هذه الوسائل على أغراض شرعية ، وهناك سوء استغلال لعين ، فإن السلطة تفسد صاحبها ، وكل زعماء المافيا تغريهم سلطاتهم ، وبعضهم يستسلم للإغراء وينتهى إلى نهاية سيئة ، أما الصالحون منهم

فلا يلقون هذا المصير لأنهم قادرون على ضبط جشعهم، بيد أن الصالحين أصبحوا لسوء الحظ نادرين، فلم تعد الأمور على ما كانت عليه أيام « دون فيتو »، وأخذت المافيا تبتعد عن أهدافها التقليدية، وازداد عدد رجالها الذين يقفون أنفسهم لمخالفة القواعد القديمة لالشيء إلا لمجرد جمع الثروة لأنفسهم بكل الوسائل الممكنة ، ولم يعد النظام صارماً ، ولكن ليس الخطأ هو خطأ المافيا بقدر ما هو خطأ الزمن ، فإن هناك اتجاهات مماثلة واضحة فى كل مكان فى العالم الحديث حيث يميل كل الناس اليوم إلى خدمة مصالحهم الخاصة، وينسون واجباتهم الاجتماعية، وبرغم ذلك كله فلا يزال هناك من رجال المافيا من هم رجال صالحون حيث لم تختف السلالة قط . ويلاحظ أن هؤلاء يريدون قبل كل شيء مساعدة الغير، فهذه هى رسالتهم التى يعترفون بها .

وإليك كيف يصوّر واحد منهم نفسه فى حديث سجله الكاتب المعاصر المصلح « دانيلو دولشى Dolci Danilo » ونشره فى كتابه « التبديد » Waste :

« هكذا ولدت ياسيد دانيلو .. كلما طلب إلىّ أحد مساعدته فإنى ألبى طلبه ، لأن الطبيعة جعلتنى كذلك . . . فقد يأتى إلىّ رجل ويقول لى إن هناك نزاعاً بينى وبين تتزيو Tizio ، فهل يمكنك أن تتفضل بتسويته ؟ وبناء على ذلك فإنى أدعو الشخص المذكور أو أتوجه إليه بنفسى حسبا تكون الحالة وأعمل على أن أصلح الرجلين . . هذه سلطة أمتلكها ولست مغروراً ولا طموحاً ، إننى أفتح ذراعى لجميع أنواع الرجال ولا أستطيع أن أقول « لا » لأى إنسان ، وليست هناك مشكلة أتخلى عنها ، الحق أن عندى إحساساً بالواجب يجبرنى على أن أساعد الغير ، وبطبيعة الحال كثيراً ما يكسب المرء شكر الناس ، وكثيراً ما يكون له أصدقاء ، أصدقاء كثيرون، ثم تأتى الظروف حين يطلب المرء مساعدة مقابل ما قدمه من قبل

من مساعدات . . . وتتتابع الأشياء فى الحياة . . . . . .لقد ذاع اسمى . . . ويسألنى جميع الناس على مختلف أنواعهم لمن يعطون أصواتهم ، فهم يشعرون بأن واجبهم يحتم عليهم طلب تعليماتى إظهاراً لشكرهم لى على ما قدمت لهم من خدمات ويريدون بالتالى إرضائى . . . فمثلا على غداً أن أترك درس محصولى من الحنطة وكل أمورى كى أتوجه إلى أجريجنتو حيث طلب إلى أن أوصى المدرسين بطالب معين حتى أضمن نجاحه فى امتحاناته ، وهكذا ترى كيف تسير الأمور » .

وبديهى أن المدرسين سيعطون الطالب درجات النجاح مهما أثبت أنه جاهل مغفل ، فهم ليسوا أغبياء ، إنهم يريدون أن يقفوا إلى جانب رجل المافيا ، فمن يدرى متى يحتاجون إليه ؟ قد يساعد واحداً على أن يرقى أو ينقل إلى مقر أفضل ، ومن جهة أخرى فإن إغضاب رجل المافيا سوف يكون خطراً عليهم ، ثم إنه أمر يدل على الحماقة فسوف ينقل كثيرون من الطلاب إلى فرقة أعلى فى الوقت نفسه ، وفى المدرسة نفسها ، بعد أن يكون قد أوصى بهم بعض الرجال المهمين على مختلف أنواعهم ، فماذا لو زادوا طالباً آخر ؟ وهكذا تولد الخدمة خدمة أخرى ، فإن خدمة واحدة تكون حافزاً على شكر من قدمت إليهم ، وهم يعلمون أنه عليهم أن يقدموا خدمة مقابلها عندما يطلب إليهم ذلك ، كأن يعطوا أصواتهم لمرشح معين ، ويمكن أن يقدم سياسى كبير ناجح فى روما أو بالرمو لهم خدمات كثيرة . ويمكن أن يطلب إلى لص دجاج فى قرية مغمورة أن يؤدى خدمة صغيرة إلى رجل قوى كسرقة وثيقة معينة أو تعقب إنسان ما خلسة ، ويمكن أن يؤمر قاتل بقتل أحد الأفراد . . . قل إنها سلسلة لا نهاية لها ، سلسلة متماسكة سرًّا بالخوف ، ويربطها فى الظاهر الاعتراف بالجميل والصداقة والتحيات المعسولة ، وهذا هو السبب الذى من أجله يسمى المافاويون أنفسهم «الأصدقاء» gli amici «وأصدقاء الأصدقاء» gli amici degli amici ويعتبرون

أنفسهم جماعة كبيرة للمساعدة المتبادلة ، وأنهم أحياناً مضطرون على مضض منهم إلى تحطيم أعدائهم العنيدين وإلى مخالفة القوانين حرصاً منهم على راحة أعضاء الجماعة وتوفير رفاهيتهم .

وكان «دون كالو فتزيني» Don Calo Vizzini آخر رئيس للمافيا يعتبر نفسه قبل كل شىء رجل خير للجمعية ومواطناً صقلياً صادقاً وكاثوليكياً صالحاً ويمكن مقارنته برئيسها السابق « دون فيتو كاشيو فرّو » الذى سيظل مثلا ساطعاً فى كل العصور ، وهو إن لم يكن عظيماً قدر عظمة سلفه فإنه كان عظيماً على أى حال. ولد دون فتزينى فى «فيلالبا» Villalba ومات فيها سنة ١٩٥٤ بعد أن بلغ من العمر سبعاً وسبعين سنة ،وكانت جنازته جديرة بأمير، فكانت هناك فرق موسيقية وصفوف طويلة من القساوسة والرهبان الذين راحوا ينشدون ويهزون مباخرهم ، ووضع الجثمان على عربة تجرها خيول سوداء ، وغطيت بأكوام من الأزهار ، وسار وراءها آلاف من الفلاحين فى ثيابهم السوداء ، وبكى النساء واحمرت أعين الرجال وولول الأطفال ، واشترك فى الجنازة كل الشخصيات البارزة فى القرية ، وكذا شخصيات كبيرة من أجريجنتو وبالرمو ، وساسة من جميع أنحاء الجزء الشرقى فى صقلية ، بل من روما . . . وراح الخطباء يرثونه ويعددون مناقبه ، فقالوا إنه كان صديق الفقير ولم يرد لأحد طلباً ، وإنه كان منكراً لذاته نزيهاً ، وعلقت على قمة باب الكنيسة اللوحة التقليدية وقد كتب عليها أنه كان رجلا أميناً صادقا فاضلا galantuomo يعتمد عليه . ولكنه كان أيضاً صاحب أملاك ، فقد ترك وراءه مناجم للكبريت وأراضى وعقارات واستثمارات مختلفة جملة قيمتها حوالى ألفى مليون ليرة ، وبرغم أنه كان أمياً فقد كان قوى الصلات ، فكان أحد أعمامه أسقفاً ، وكان أحد أبناء عمومته الأسقف الاسمى لبلدة نوتو ، مؤسساً لطائفة الرهبان الكرمليين ، وكان من بين أشقائه اثنان

أحدهما قسيس والآخر مطران .

وبرغم أن سلطة دون كالو لم تكن مماثلة لسلطة دون فيتو فإنها كانت سلطة عظيمة ، ويكفى أن نقول إنه بعد وفاته بسنوات طويلة لم يستطع أحد أن يجمع المافيا فى وحدة واحدة كما فعل هو ، وكنت إذا رأيته لايمكنك أن تتصور مدى الرعب الذى كان يثيره فى النفوس، فقد بدا شخصاً غير مؤذ ، وكان صغير الحجم أحناه الروماتيزم قليلا ، وكان يلبس سترة من القطيفة على غرار الفلاحين الموسرين ، ويضع على رأسه قلنسوة من القماش ، وكان سلوكه لطيفاً مؤدباً ، ولم تنم عنه سوى عينيه العسليتين الفاتحتين اليقظتين الذكيتين .

وكان من الطريف المفيد أن تراه وهو يغادر بيته فى الصباح ، فبادئ ذى بدء كان ميدان Piazza « فيلالبا » يبدو وكأنه مسرح صغير على أهبة لأن تبدأ عليه أوبرا « كافاليرى روستكانا » وقد ظهرت الكنيسة فى جانب منه وقامت حوله بيوت عتيقة متداعية ، واعتاد دون كالو أن يخرج بانتظام فى ساعة صلاة الصبح من باب صغير يطل على الميدان ويسير فى هدوء جيئة وذهاباً وقد شبك يديه خلف ظهره وراح يتحدث إلى شقيقه المطران .

وعندئذ كان يخرج من بين ظلال الجدران ومن الشوارع الجانبية أناس وصلواقبله ، بعضهم جاء من أماكن بعيدة ، وكل منهم ينتظر دوره للتحدث إليه . . . كان هؤلاء فلاحين وسيدات عجائز قد وضعن على رؤوسهن خمرهن السوداء ، وشباناً مافاويين ورجالا من الطبقة الوسطى ، وكان كل منهم يسير بدوره إلى جانبه ليوضح له مشاكله ، وكان دون كالو يصغى إلى من يأتى إليه ، ثم ينادى أحد أعوانه ويصدر بعض أوامره ، ثم يستدعى صاحب الالتماس التالى . . وقبل كثيرون يده اعترافاً له بالشكر قبل مغادرتهم إياه .

وكان بعد ذلك بقليل يجلس فى مقهى بالميدان ويباشر عمل اليوم وهو يشرب قهوته شأنه شأن كثيرين غيره سواء كانوا فلاحين مسنين أو تجار ماشية . . وقد يهز رأسه حين يروى عليه رجل ما مشكلة معقدة أو يعرض مشروع عمل معيناً . الحق أن رحابة صدره وسماحته وتحيات الاحترام التى كان يتلقاها من المارة والحاشية التى تحيط به وخنوع الناس الذين يقصدونه وما لاح على وجوههم من ابتسامات العرفان بالجميل حينما تحدث إليهم ، كان كل ذلك يذكر المرء بمشهد قديم ، مشهد الأمير الذى كان يعقد مجلس قضائه فى الهواء الطلق ليسوى الأمور بالعدالة والقسطاس ، وبطبيعة الحال لم تكن ضحايا عهد دون كالو ظاهرة للعيان ، أعنى تلك الجثث الكثيرة التى كان يعثر عليها فى الريف لمدة نصف قرن وقد اخترقها الرصاص ، وكذا الأرامل الباكيات والأولاد اليتامى .

وقد دعم الجيش الأمريكى سلطة « دون كالو » ، فحين نزلت القوات الأمريكية فى صقلية عين على الفور عمدة لبلدته فيلالبا ، ومنح سلطات واسعة ، فكان يتصرف فى العربات العسكرية والذخيرة الأمريكية كيف شاء . . وقيل إنه خدم الأمريكيين خدمة كبيرة قبل نزولهم إلى صقلية بأن أمد رسلهم بمعلومات قيمة ، وعمل على أن تتعاون معهم شبكة المافيا بأسرها ؛ ولا يعرف مدى صحة هذه الشائعات ، ولكن المعروف أنه استرد أيام احتلال الحلفاء كل ما خسره من سلطات أيام الحكم الفاشى ، وأعاد بناء جماعة المافيا من جديد بعد أن قاست طويلا من حكم مدير الأمن «مورى» Mori الذى سجن كثيرين من المافاويين بما فيهم «دون كالو» ، أو نفاهم إلى الجزائر المنعزلة القريبة من الشاطئ . . . الحق أن « دون كالو » حكم بيد من حديد منذ نزل أول جندى أمريكى إلى فيلالبا حتى يوم وفاته ، وكان يبلغ بكل صغيرة وكبيرة تحدث فى إقليمه ، وكذا بكل ما هو مهم فى صقلية كلها ، وما كان يتم عمل ما دون موافقته ، وكان كمعظم الرجال القدامى بالغ التطرف فى مبادئه السياسية ،

فعاون الديمقراطيين المسيحيين ، وحارب كل البدع الثورية .

وكان الشيوعيون ومنظمو نقابات العمال أعداءه الشخصيين ، واعتبرهم منافسين له أو قل زعماء مافيا معارضة ، فحين أراد « جيرو لامو لى كوزى Girolamo Li Causi بطل صقلية الشيوعى عقد اجتماع فى ميدان فيلالبا أرسل إليه دون كالو يقول : « إن هذا أمر غير مأمون العواقب » ، وبطبيعة الحال فهم لى كوزى معنى هذا التحذير الهادئ ، ولكنه كان رجلا عنيداً صلفاً لم يحترم سلطة ما حتى سلطة الأصدقاء (المافيا) ، فتوجه إلى الميدان وراح يتحدث لحشد متناثر هنا وهناك ، ولكن حديثه قطع فجأة بأصوات الرصاص ، فقد أخذ رجال دون كالو المنتشرون فوق سطوح المنازل يصوبون بنادقهم نحوه ونحو مستمعيه فولى الحشد الصغير الأدبار ، وجرح قليلون منهم بما فيهم لى كوزى نفسه ، إذ أصابته رصاصه فى إحدى ركبتيه . وترك فى أول الأمر طريحاً على أرض الميدان ، وفجأة ظهر رجل عجوز انحنى عليه فى هدوء وسأله فى صوت عادى قائلا : « ألا أستطيع أن أقدم لك خدمة ؟ » . كان هذا العجوز هو دون كالو نفسه .

* * *

وهناك أمريكيون يعتقدون أن طوائف المجرمين فى بلادهم تنتسب إلى جماعة المافيا الصقلية ، وأنها فى حقيقة الأمر فروع خارجية للمنظمات الأساسية ، وأنها كلها تتلقى أوامرها من بالرمو . ويصدق هذه الأسطورة عند قراءتها فى الصحف بعض المجرمين الأمريكيين السذج المنحدرين من أصل إيطالى ، وهم يفدلون أحياناً إلى صقلية معتقدين بأنهم ليسوا فقط منتسبين إلى الجماعة ، بل إن لهم فيها مقاماً ممتازاً ، والواقع أنهم على الأكثر رجال محترمون uomoni rispettati كغيرهم من الأجانب الموسرين ، وسرعان مايكتشفون لدهشتهم أن الأصدقاء (المافيا) يعتبرونهم أغراباً ،

ونذكر من هؤلاء الأمريكيين السذج لكى لوتشيانو ، Lucky Luciana فعندما وصل إلى بالرمو مبعداً من الولايات المتحدة ، قال رجل الشرطة الذى كان منوطاً به مراقبة حركاته «إنه يظن نفسه رجلا عظيم الشأن فى المافيا ، ياله من ساذج برئ» : وسار لوتشيانو هنا وهناك مع زعماء أقوياء أكرمهم وعاملهم كأنهم « أصدقاء » ولكنهم احتالوا عليه وجردوه من خمسة عشر مليون ليرة اتفقوا معه على أن يستثمرها فى مصنع للحلوى شركة معهم ، وتلاعبوا بحيث كلما ربح المصنع خسر لكى لوتشيانو . . هكذا عامل رجال المافيا أبرز شخصية فى عالم الإجرام الأمريكى ، وراح ضحية أفعالهم فى مسقط رأسه .

كذلك من الصعب أن نزيل من الأذهان النظرية القائلة بأن المافيا هى جماعة سرية دولية مقرها إيطاليا ، لأن هذه النظرية يستسيغها كثيرون ويجدون فيها عزاء وسلوى لأنها تساعد على تفسير بعض الأحداث الغامضة ، ثم هى مفيدة فى تسويغ العجز الذى تتسم به بعض منظمات الشرطة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فتقول إن المراكز الحقيقية لطوائف المجرمين تقع بعيداً عبر البحار ، وإنه لابد من قطع رأس الأفعى أولا ، وإن هذه المهمة لاتقع على عاتق الأمريكيين بل على عاتق الإيطاليين والأجانب ، وهؤلاء أناس غير موثوق بهم ويتكلمون لهجة غير مفهومة .

وللنظرية أيضاً جذور سيكولوجية عميقة ، فإن الجماعة التآمرية السرية الدولية المؤلفة من رجال سمر غادرين منحرفين يستخدمون وسائل سرية مخادعة لتحقيق مآربهم ويضربون خصومهم الشقر المتسمين بالشرف والجمود والكياسة . إن هذه الجماعة تشبه الجماعات السرية الدولية المؤلفة من المصرفيين اليهود أو الجزويت والتى لها مقار سرية فى بلاد نائية ، وطبيعى أن منظمة من هذا النوع غير موجودة حيث لابد لقيامها وتأدية عملها من أن يكون لها نظام وسلطة مركزية ، وفى هذه الحالة سوف يكون

من الخطر ، ولكن من السهل ، اكتشافها ، والتغلغل فيها والقضاء عليها ، والسبب فى أن المافيا الحقيقية لايمكن محاربتها حرباً مثمرة هى أنها عدة أشياء فى الوقت نفسه ، ولكنها ليست منظمة واحدة متماسكة مُحكمة ، إنها أشبه بتنين له عدة رؤوس ويمكنه أن يظل حياً دون رأس ما إطلاقاً .. ثم لماذا بعد هذا كله تشغل المافيا بالها بإعطاء أوامر فى الولايات المتحدة الأمريكية على حين أن نفوذها معدوم فى كاتانيا التى تبعد أميالا قليلة فى شرق صقلية ؟

بيد أن للأسطورة الأمريكية بعض الأصل ، فلاشك أن المهاجرين الصقليين الكثيرين الذين وفدوا إلى الولايات المتحدة قد نقلوا معهم المافيا بمعناها العام ، فكلهم حملوا فى قلوبهم مشاعر الشهامة الصقلية ، ولا يزال كثيرون منهم يشعرون بها ، ثم إن كثيرين منهم أيضاً يتتبعون أقاربهم فى صقلية ويحرصون على زيارتهم بين حين وحين ، وكما هو واجب على جميع الأقارب فإنهم يساعدون بعضهم بعضاً فى وقت الحاجة ، فيتبرع كثير من الأمريكيين بالمال لمنشأة فى قرى آبائهم كأن تكون ملجأ للأيتام أو مستشفى أو مدرسة أو قناطر لجلب المياه ، ويرسل بعضهم معونات مالية لأقاربهم فى صقلية أو يتحملون نفقات تعليم ابن عم لهم فى المدرسة ، وقليلون من الأمريكيين الذين ينتسبون إلى فئة المجرمين لهم حوافز مُلحة خاصة ، فيحدث بين حين وحين أن يهرب عضو فى عصابة ما إلى صقلية ليجد مأوى فى بيت فلاح فيها .. وبطبيعة الحال لايمكنه أن يظل به طويلا ، فإن من السهل التعرف عليه فضلا عن أنه لايرتاح قط إلى طرق المعيشة البدائية فى الريف الصقلى ، كذلك قد يفر مجرم صقلى ويساعده أقاربه بها ، بما يزودونه من مال ووثائق مزيفة ، على دخول الولايات المتحدة ، وسوف يساعدونه على أى حال حتى لو كان رجلا شريفاً مادام فى حاجة إلى مساعدتهم (ونذكر بهذه المناسبة أن أحد أعوان سالفاتورى

جوليانو ممن كان له أقارب فى بوسطن ، أكتشف فى تكساس يعمل فى قوات الطيران الأمريكية تحت اسم مستعار) ، ويتعاون الأقارب والأصدقاء على تهريب المخدرات من بالرمو إلى الولايات المتحدة ، ولكننا فى الواقع نجد هذه التجارة فى سائر موانى العالم ، فيصل الهروين إلى الولايات المتحدة على سفن تحمل جميع الأعلام ، وتحت إمرة رجال من جنسيات كثيرة لا صقليين فحسب ، وهناك علاقات ما بين المجرمين الأمريكيين المنحدرين من أصل صقلى ولكنها علاقات كيفما اتفق ، وتلقائية غير منظمة ، ولا ترتقى إلى جمعية سرية تآمرية دولية ، وواضح أنه لا يمكن أن يصدر أمر من بالرمو ليفصل فى المسائل الهامة فى عالم الإجرام الأمريكى .

* * *

لقد ألفى المهاجرون الصقليون فى أمريكا أنفسهم محوطين بمجتمع غريب معاد ، فكان عليهم أن يتغلبوا على مشكلات لغة صعبة غير مفهومة ، وعادات محيرة ، وقوانين صارمة وكل ما اعتبروه حكماً جائراً ، وشعروا أنهم محرومون لأسباب لم يفهموها من نعم الحياة ومن الثروة والسلطان ، فتعلقوا بما يمكن أن يوفر لهم الحماية والسلوى ، أعنى الكنيسة والأسرة وأساليبهم فى الحياة ، وسرعان ما اكتشفوا أن الأفانين التى طورها أهلهم القدامى فى موطنهم الأم لإبطال مفعول القوانين الأجنبية كانت مفيدة لهم أيضاً فى موطنهم الجديد .. لقد تغلب أجدادهم على العرب والنورمان وملوك أسرة أنجو والملوك النمساويين والبربون ، والبدمنتيين وغيرهم ، فحاول الحفداء استخدام الوسائل نفسها فى أمريكا للبقاء والنجاح . . ويشهد على إحساسهم بأنهم أقلية اتخذت موقف الدفاع ، الاسم الذى اختاروه لمنظمتهم الإجرامية فأطلقوا على أنفسهم اسم جماعة « قضيتنا » Cosa Nostra أى القضية التى يجب الدفاع عنها من الدخلاء ، والواقع أنهم اكتشفوا أن الأفانين القديمة هى أكثر فائدة لهم فى أمريكا ، ثم زادوا عليها ،

وكان الأمريكيون عادة نزاعين إلى الثقة بالآخرين، غير مؤهلين للدفاع عن أنفسهم ضد وسائل المكر والخداع ، راغبين عن الكفاح حيث تكون فرصة الربح ضئيلة .

واتبع كل الصقليين فى الولايات المتحدة، بما فيهم أقلية من المجرمين، القواعد القديمة نفسها وهى القواعد الوحيدة التى عرفوها على أية حال، والتى هى صورة ذكية لما يتبعه الإيطاليون ، وهم ليسوا مخادعين بالسليقة per se ولكن يمكن استخدامهم بفعالية لتحقيق أهداف غير شريفة — وطبيعى أن هذه القواعد هى خير ما تكون فى ميادين السياسة والأعمال. الكبرى حيث تكون السلطة عاملا فعالا ثم هى أقل نفعاً حيث تكون القدرة الشخصية — لا الضغط — عاملا لا غنى عنه وقد ساعدت الجماعة كثيرين من الصقليين الشرفاء وحفدتهم فى الولايات المتحدة على الوصول إلى مراتب أرقى فى السلم الاجتماعى .

وحرص المجرمون المنحدرون من أصل صقلى على تكوين نسخة طبق الأصل من الطوائف غير الشرعية التى انتموا إليها فى موطنهم الأم ، وذلك ليتغلبوا على المنظمات المنافسة لهم ، واستخدموا القواعد نفسها حتى لايغلبوا على أمرهم. وقد شرح مرة المجرم الأمريكى : المحكوم عليه بالسجن « جوزيف فلاكى Joseph Valachi » حقائق الحياة فى قرية صقلية ، وهى فيما يرجح قديمة قدم حضارة البحر المتوسط ، والمبادئ التى استرشد بها الملوك والأبطال الهومريون فى قراراتهم ، شرح الحقائق للجنة من مجلس الشيوخ وجمهور التليفزيون المبهور ، فأوضح أن الرجل المنعزل يعتبر إنساناً ضائعاً فى عالم الرذيلة والإجرام الأمريكى ، وأنه كان عليه أن ينتسب إلى أسرة هى أسرته ، أو أى أسرة قبلته عضوا فيها ، وأن الأسر قد تجمعت فى مجموعات كبيرة ، وتحولت المجموعات التى تحالفات ، وانبثق عن التحالفات اتحاد مفكك أطلق عليه «جماعة قضيتنا Cosa Nostra » ، يسيطر عليها قانون غير مكتوب ، وحين تكلم

الإيطاليون

وشرح . قام موظفو مكتب التحقيقات الفيدرالى بعرض رسوم بيانية دقيقة عن أسر « جماعة قضيتنا » ، وكشف عن أن المنظمة كانت تقريباً على النحو الذى كانت عليه منذ ستين سنة قبل أن يصلحها دون فيتوكاشيو فرو، وأنها لاتزال تتطلع إلى عمليات قتل كثيرة لتحافظ على سلم مزعزع ، ولتحدد من سيكون الضحية رقم واحد. كما كشف أيضاً عن أن المجرمين الصقليين فى أمريكا قد هجروا المظاهر الإقطاعية التى كانت لآبائهم . فلم يعودوا يهتمون قبل كل شىء بالعدالة الريفية للمظلومين . بل غدوا مهتمين بالدولارات وجمع الثروات عن طريق أنشطة كان لابد للرجال القدامى أن يعتبروها غير جديرة بهم ، أعنى إدارة بيوت الدعارة وتهريب المخدرات .

وكانت نظرة فلاكى للأمور متحيزة . قل إنها أشبه بمنظر شامل لتاريخ نابوليون كما يراه جندى فى المشاة، ففى المافيا أيضاً تكون الحرب امتداداً للسياسة عن طريق وسائل أخرى ؛ فلم يعرف فلاكى شيئاً ما عن المفاوضات الطويلة بين الزعماء وعن الخطط التى دارت بأذهانهم وعن فترات الهدنة التى فرضوها ، وعن النجاحات التى حققوها دون سفك دماء ، وكل ماعرفه هو ما حدث حين نشبت الحرب . حيث سار المسلحون ببنادقهم ، وكان عليهم إبادة مجموعات الثائرين ، ولم يعرف أن الانتصارات الحقيقية لجماعة « قضيتنا » كانت تلك الانتصارات الصامتة غير المتغنى بها حين تدفقت الأموال فى هدوء؛ فالواقع أن الزعماء يهجرون الأنشطة الإجرامية على نحو مطرد ويستطيعون التسلل إلى أعمال أقل شرعية ، مثل لعب القمار أو إلى عمل شرعى بحت حيث يقيمون احتكاراً ، وحين يدقق المرء فى هذا الاحتكار يجده قائماً على الأفانين القديمة فلا يستطيع أحد أن ينافسهم ، لأنه فى وسعهم القضاء عليه بوسائل شتى ، بل قد يزيلونه من الوجود إذا اقتضت الضرورة ذلك . ولم يقابل فلاكى مثل هؤلاء الرجال قط ، بل إن مكتب التحقيقات الفدرالى لايعرف أسماءهم ، ولو فرض أنه

عرفها لما استطاع أن يوجه إليهم تهمة ما ، فهم يعيشون بعيداً عن أنشطتهم سواء كانت شرعية أو غير شرعية ، ويتصلون برجل أو اثنين من أعوانهم ليعهدوا إليه أو إليهما بالإشراف على قطاع واحد ، ويتعاملون نقداً ، ولا يستخدمون التليفون قط ، وقلما يسافرون ، وهم يتبرعون بالأموال للجمعيات الخيرية ، ولا يرقى الشك إلى حياتهم الخاصة .

ومهما يكن من شيء فلا يمكن أن ننكر أن المافيا فى غرب صقلية هى أساساً منظمة إجرامية تسبب مآسى كثيرة بين الناس وتحكم على غالبيتهم بأن يعيشوا حياة بدائية من العار والقذارة والفقر والجوع والخوف ، لأنها تقاوم كل تقدم ممكن بل تحول دونه ، فلا يريد إنسان أن يستثمر ماله ويحسن أموره حين تستطيع الإرادة المتعسفة لناس مجهولين إيقاف كل أنشطتهم بل القضاء عليهم فى أية لحظة ، ولا يجرؤ على ذلك سوى قلة من الناس المحترمين uomini respittati الذين يصلون إلى اتفاق مع الأصدقاء amici مقابل ثمن يدفعونه إليهم ، بل يعجز السياسى الشجاع النزية على الفوز على منافسيه الذين لا يرحمون ماداموا يجدون تأييداً من تلك الشبكة الواسعة من الأصدقاء والشركاء .

بيد أن المافيا ليست هذا فقط ؛ فلو أنها كانت منظمة إجرامية فحسب ؛ لاهم لها سوى السرقة والقتل من أجل الحصول على المال ، لأثارت موجة من السخط ، ولكان من الممكن مقاومتها والقضاء عليها ، ولكن السائد أنها كذلك أسلوب تلقائى للحياة طوره الناس أنفسهم على مدى قرون طويلة قاسوا فيها من سوء الحكم ، فتولت إقامة شكل بدائى من العدل ، ونشر أسلوب من السلم وضمان أمن السكان ، قل هى بديل للحكومة الشرعية ، وللتغلب عليها يجب أولا على الحكومة أن تجعل للقانون المنزلة الأسمى كما يجب أن يشعر الصقليون بأنهم فى أمان متى وثقوا فى

الشرطة ، أما والأمور على ماهى عليه فلا يمكن للشرطة أن تكفل سلامة أى إنسان على حين يستطيع الأصدقاء amici ذلك كما يستطيعون أيضاً أن يغدقوا عليه فوائد لا تعد ولا تحصى .

والحالة اليوم أسوأ مما كانت على الإطلاق حيث تنحط المافيا بسرعة ، وهى أشبه بالسرطان الذى يقضى على الأنسجة السليمة، هى الشكل السرطانى المتضخم للمرض الأخف المنتشر فى إيطاليا . فإن فن الحياة القائم على دفاع المرء عن حياته بما له من سلطة ، وتكملة نقص الدولة بمزاياه الخاصة ، يفسد فى النهاية كل أنوع الحكم السليم ، ويعطل كل الأجهزة الشرعية، ويعوقها عن أداء مهمتها، ويجعل من المستحيل تقريباً إصلاح مافى الجهاز الحكومى من شوائب ونقص .

الفصل الخامس عشر

فورنوفو وما بعدها

« ما هذه الأرض الجميلة التى وجد جنود شارل الثامن أنفسهم وسطها ، والتى كان أمراؤها ينفثون السم من خلال ابتساماتهم ، والتى كانت الحمى مخبوءة فى مروجها الخصبة ، والتى كان نساؤها يحملن الأمراض على شفاههن ؟ لقد بدت إيطاليا آنذاك لقواد فرنسا وجنودها ، وكأنها ساحرة أسطورية تلتف بالرقى والتعاويذ ، وتحوطها الأوهام والخدع ، تخفى وراء أيكاتها المعطرة ضحاياها التى تحولت إلى وحوش ، وقد استقرت مواطن الإغواء فيها على أشلاء القتلى . على أنها بلغت من الجمال حداً لا يمكن معه لهؤلاء القادة والجنود إذا ما توقفوا لحظة ، محدقين فيما وراءهم بعيون ملؤها الشوق واللهفة إلى جبال الألب التى كانوا قد عبروها أن يقاوموا النظر إلى الابتسامة التى على ثغرها ، . إنهم ينبغى لهم أن يسيروا قدماً عبر الجنة الساحرة على أن يأخذوا حذرهم فيشرعوا أسيافهم ، ويحشوا خوذاتهم بالورود ، كما فعل

أورلاندو فى حديقة مورجانا . . . حتى لا يطرق أسماعهم غناء الغواية . هكذا بدأت إيطاليا الدور الذى لعبته فى عصر النهضة لأهل الشمال . « شيطان إيطاليا الأبيض » هكذا كان عنوان واحدة من أروع تراجيديات وبستر . إنها شيطان أبيض ، بل ابنة تشع الخطيئة والموت ، تقبض بيديها على ثمار المعرفة خيرها وشرها ، وتغرى الأمم بالتهامها ، هكذا ألهبت إيطاليا خيال رجال القرن السادس عشر ، كانت هى أنثى ، وكانوا هم رجالا مكتملى الرجولة ، ولكنها استطاعت أن تعلمهم كما استطاعوا هم أن يتعلموا . أدخلت عليهم هى المسرة ، وجلبوا هم القوة ».

(ج . أ . سيموندز : النهضة فى إيطاليا)

كانت سنة ١٤٩٢ من سنوات التاريخ الحافلة بالأحداث ذوات الذكرى السيئة ، ففيها كشف كولمبس أمريكا ، وانتخب الكاردينال « رودريجو بورجيا » لمنصب البابا تحت اسم ألكساندر السادس ، وفيها أصبحت إسبانيا أمة بقهر إقليم غرناطة ، ومن ثم وجهت طاقتها المختزنة إلى ميادين خارجية ، وفى السنة نفسها قضى لورنزو دى مديتشى الثانى (العظيم) نحبه ، وتلك كلها كانت بالنسبة لإيطاليا كوارث لا يرأب صدعها . ذلك أن كشف أمريكا (وما أعقبه بعدة سنوات من فتح البحار الهندية) حول تجارة العالم إلى منافذ أخرى ، كما أن موت ألكساندر السادس جعل من حركة الإصلاح فى ألمانيا وانفصال الكنيسة فى إنجلترا أمراً لا مفر منه ، كما أن توحيد إسبانيا مهد الطريق أمام شارل الخامس ملك إسبانيا وأرشيدوق

النمسا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ليبسط نفوذه على أوربا . هذا بالإضافة إلى أن موت لورنزو حطم الكيان الهزيل ، كيان الأحلاف المتوازنة الذى أقامه ، والذى كان قد أبقى على السلام فى إيطاليا ، وجعلها فى مأمن من هجمات الأجانب .

وفى تلك السنة نفسها استقبل شارل الثامن ملك فرنسا ، الذى كان قد بلغ لتوه سن الرشد ، مبعوثين سريين من إيطاليا ، أوفدهم إليه لودوفيكو إل مورو أمير ميلان ، وهو رجل خائن راودته نفسه أن يحاول مع الملك اليافع غير المجرب بعض الألاعيب المتكررة فى السياسة الإيطالية ، ذلك بأن يدعو الأمير الإيطالى عاهلا أجنبيًّا إلى إيطاليا ليحارب عدوه ، ولأسباب معقدة ، كان ملك نابلى هو عدو لودوفيكو ؛ واقترح هؤلاء المبعوثون السريون على ملك فرنسا غزو نابلى ، وعرضوا أن يمولوا الحملة ، وطمأنوه على حرية المرور عبر شمالى إيطاليا فى طريقه إلى جنوبها . واختير شارل لهذه المهمة لأنه كان يدعى ادعاء ضعيفاً بحقه فى عرش نابلى . (ولكل الملوك بطبيعة الحال ادعاءات ضعيفة بحقوقهم فى كل العروش عمليًّا . خذ مثلا فكتور إمانويل الثالث ملك إيطاليا ، ومزاعمه الغامضة بالنسبة لعرش ملوك الاستيوارت ، وإطلاقه على نفسه ، حتى آخر لحظة ، وفى الوثائق الرسمية ، لقب « ملك قبرص وبيت المقدس ») . وما كان مبعوثو ميلان ليأملوا فى ترحيب حار باقتراحهم السخيف الخطير . ولكن لماذا ، فوق كل اعتبار ، يغامر ملك فرنسا بقوته وثروته وحياته ، بعيداً عن وطنه ، من أجل غنيمة تافهة ، وعنده من المسائل الهامة ما يجدر به أن يتفرغ لها ويوليها عنايته ؟

يقول ج . أ . سيموندز فى جد واكتئاب : « إن العناية الإلهية كثيراً ما تتنازل فتستخدم لعظائم الأمور مهرجاً أو دمية ، فتحوط بحماية خاصة وبدعوات الناس وابتهالاتهم مجرد قزم . ولم يكن شارل الثامن سوى هذه الدمية » . ويصفه

جويتشارديني Guicciardini بقوله : « كان ضعيف البنية معرضاً للأمراض منذ طفولته . وكان قصير القامة دميم الخلقة ، إذا استثنيت وقار نظرته ونضارتها وكانت أطرافه غير متناسبة إلى حد أنه يبدو أكثر شبهاً بالمسخ البشع منه بالإنسان . ولم يكن جاهلا بالفنون العقلية فحسب ، بل كان كذلك لا يكاد يعرف الحروف الأبجدية. وبرغم شوقه إلى الحكم فإنه خلق والحق يقال ، لأى شيء غير الحكم ، فقد كان محوطاً بالأتباع ، ولكنه لم يمارس أى سلطان عليهم ، ولم يحتفظ بأى لون من الجلال والعظمة » . وقام هذا الملك المشوه البليد الفهم بكل ما أراد مستشاروه أو متملقوه الأذلاء أن يقوم به . وكان هؤلاء ، على حد تعبير جويتشارديني : « من طبقة وضيعة ، هم مجموعة من الخدم في أغلب الأحوال » .

ولم يسخر شارل من المبعوثين ، ولم يرفض اقتراحهم على أنه فخ قاتل ، ويزج بهم في السجن بل إنه أصغى بانتباه إلى حديثهم . والحق أنه كان كلما أمعن التفكير ، ازداد تقبله للفكرة . ذلك لأنها اتسقت مع حلم قديم كان يراوده ، متأثراً بقراءات الشباب للقصص الرومانسي ، فأراد أن يقهر الأتراك العثمانيين ويغزو القسطنطينية ويتوج على عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وفي مقدوره من أجل ذلك أن يستفيد من نابلي وجيشها وأسطولها وكنوزها وثغورها وهي في متناول يده . وكان من الطبيعي أن يفكر في فرنسا أولا ، حيث كان يسودها القلق ، وكان جيشها ضعيفاً وخزانتها خاوية. والأعداء الأجانب يتهددون حدودها من كل جانب ، وقبل أن يبدأ شارل مغامرته في إيطاليا اشترى السلام مع إنجلترا بأموال لودوفيكو ، وهدأ من روع الإمبراطور مكسيمليان بالتنازل عن بعض مقاطعات حيوية ، كما أعطى فرديناند ملك إسبانيا (وهو أحد أقرباء ملك نابلي) بعض المواقع الحصينة في جبال البرانس ، وهي مفتاح دفاعات فرنسا ، مكافأة له على حياده .

وما إن باتت البلاد عاجزة عن الدفاع ، حتى بادر هو بحرمانها من كل رجل قادر قوى الجسم ، فجمع جيشاً جديداً ، وكدس المؤن وحشد السفن فى ثغرى جنوة ومرسيليا . وشرع يتحرك جنوباً إلى ليون . حدث هذا فى سنة ١٤٩٤ التى يقول عنها جويتشارديني : « تلك أتعس سنة بالنسبة لإيطاليا وهى بداية سنى الكوارث » .

وافتتن الناس فى إيطاليا بالغزوة القادمة ، ولكنه افتتان مشوب بالقلق . واتهم قليل منهم شارل بالجنون ، وبأنه سوف يوقع نفسه وبلاده فى كارثة لأنه سوف يمد خطوط مواصلاته إلى نقطة خطيرة ، وإنه ما إن يتعمق فى إيطاليا حتى يمكن بسهولة قطع خط الرجعة إلى فرنسا والقضاء على جيشه . واستعد كثيرون للترحيب بالفرنسيين . وبشر الراهب « سافونا رولا » ، بوحى من السماء ، ولو أنه كان بعيداً عن الهدف ، نقول بشر بشارل على أنه « سوط الله » بعث به لإحياء الكنيسة وتطهير ينابيع الحياة الروحية . وأقنع كثير من الإيطاليين أنفسهم — كما كان عليهم أن يفعلوا فى مناسبات كثيرة متعاقبة — بأن الغزاة الأجانب جاءوا فى واقع الأمر ليخلصوهم من حكومتهم الفاسدة وحكامهم الخونة ، ويقيموا نظاماً نموذجياً يمكن فى ظله للأمم النبيلة ، آخر الأمر أن تتبوأ مكانتها اللائقة . أما الأغلبية الساحقة فقد تولاهم الفزع ، وما كانوا ليطيقوا التفكير فيما يتهددهم بوصول « المتبربرين » ، وأقروا بأنهم كانوا يستحقون أية مصائب ونوائب مخبأة لهم . إن لودوفيكو إل مورو ، فى نظر كثير من مواطنيه ، لم يفعل فى الواقع ، أكثر من أنه ، فى لحظة ، جلب الكارثة التى كانت وشيكة الوقوع طويلا .

وشرع أمراء إيطاليا ، يتزعمهم ملك نابلى ، على عجل يقومون بنشاط دبلوماسى كبير لتكوين حلف دفاعى . فزار بعضهم بعضاً ، وتبادلوا القبلات

والسفراء الخصوصيين ، والرسائل ، والهدايا وطقوس الفروسية . وأقسموا أغلظ الأيمان أن يصدق كل منهم الآخر حتى النهاية ، مهما حدث . ورسموا خططاً عسكرية وسياسية ممتازة ، وبدا أنهم واثقون كل الثقة فى أنفسهم ، فإن لدى إيطاليا أحسن القواد ، كما أن لديها من المال والجنود والمؤن والأسلحة أكثر مما لدى فرنسا . وليس فى الفن العسكرى ما يخفى على الإيطاليين ، بالإضافة إلى أنهم كانوا يقاتلون فى مواطنهم، على مقربة من مستودعاتهم ،وعلى أرض عرفوها شبراً شبراً . ورتبوا أن يضعوا مجموعات من الجنود فى المواقع الاستراتيجية التى يمكنهم منها أن يوقعوا أبلغ الضرر بالأعداء . وعلى الرغم من حقيقة أن كفتهم هى الراجحة ، على الورق ، فإنهم لم يستشعروا الطمأنينة . وإلى جانب ملك نابلى ، كان البابا ألكساندر أشد فزعاً ، حيث كان يخشى اجتماع المجلس الذى ربما أقصاه عن العرش الذى كان قد اشتراه . وقد استبد به الرعب إلى حد أنه بعث بالسفراء إلى سلطان تركيا مستنجداً به راجياً مساعدته ضد الملك العريق فى المسيحية ، ولكن بايزيد الثانى كان بعيداً عنه كل البعد ، كما كان فى شغل عنه ، مما يجعله عديم الجدوى بالنسبة للبابا .

وكان فى الإمكان بسهولة أن تكون خطط الدفاع ناجعة إذا أمكن الالتزام بها . ولكن كان من المستحيل على الإيطاليين الاتفاق المطلق الكامل والضرورى لتنفيذ مشروع كبير فعال ،فالاتفاق يصعب دائماً الاحتفاظ به فى أى حلف . والحق أنه لم يتم شىء يمكن أن يقال عنه إنه جاء وفق التخطيط السابق . وكان بعض القادة شجعاناً بطبيعة الحال ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً وحدهم . وكان بعضهم تعوزهم الكفاية والبراعة . وكان الشك يغلب على كثير منهم . فبعد أكثر من قرن من المعارك التى لم ترق فيها دماء ، والحملات الاستعراضية ، التى كانت تحكمها

الرشاوى بصفة أساسية ، ذهب هؤلاء المتشككون إلى أن الفرنسيين سوف يصبحون أشق قليلا من الإيطاليين . وكان ثمة آخرون يأخذون جانب الحرص والحذر ، فكانوا يتساءلون : إذا قدر لشارل أن يكسب الحرب فى النهاية، وأن يقرر معاقبة الذين استبسلوا فى القتال ضده ، فماذا تكون بعد ذلك النتيجة ؟ من ذا الذى يستطيع أن ينبئ بما يفعله هؤلاء المتبربرون ؟ ودار بخلد هؤلاء : أليس الأفضل إذ ذاك أن نمالئ الجانبين فى وقت معاً ؟ وكان عليهم أن يفكروا فى أسراتهم . وأرسل كثير من الأمراء بمبعوثين سريين إلى معسكر الفرنسيين ، أو عقدوا الصداقات مع رجال الحاشية الفرنسيين ، فى حين نفذوا أوامرهم فى تراخ مدروس وفى غير ما حماس .

وغادر شارل الثامن مدينة فيين Vienne فى مقاطعة دوفينى Dauphiné فى ٢٣ أغسطس سنة ١٤٩٤ ، ومعه ٣٦٠٠ من الرجال المسلحين ، وهم زهرة فرسان فرنسا و ٦٠٠٠ من الرماة من بريتون، و٦٠٠٠ من حملة القوس، و٨٠٠٠ من مشاة غسقونيا ، و ٨٠٠٠ من الجنود المرتزقة من سويسرا وألمانيا . وعبر جبال الألب عند ممر مونت جنفر Montgenèvre ، دون أن يضرب ضربة واحدة ، ووصل فى أمان إلى السهول التى تحتها، ودخل مدينة أستى Asti فى ١٩ سبتمبر . وليس من الميسور اليوم القيام بهذه الرحلة فى سرعة أكبر ، فى طرق جيدة ، فى وقت السلم ، سيراً على الأقدام أو على ظهور الخيل . ولم تتحرك بيدمونت أو مونتفيرا (وهما أول بلدين إيطاليين عبرهما) لتعويق تقدمه ، لسبب واحد يلتئم كل الالتئام مع حسن حظ شارل . ذلك أن الأميرين الحاكمين كانا مجرد طفلين آنذاك : فكان دوق سافوى فى الثانية عشرة من عمره ، وكان مركيز مونتفيرا فى الرابعة عشرة . وسرعان ما تبادلت والدة كل منهما والوصى عليه العلاقات الطيبة

مع الفرنسيين ، تفادياً للمتاعب ، وسمح لهم بحرية المرور .

ومنذ تلك اللحظة لم تعد الحملة سوى نزهة إلى نابلى . وأبحر أسطول نابلى فى وقت متأخر أكثر مما ينبغى ، ومن ثم لم يتمكن من إشعال ثورة كان مرغوباً فيها فى جنوة ، ومن إعاقة إنزال المؤن الفرنسية فيها . أما جنود نابلى الذين أرسلوا شمالا فإنهم لم يستطيعوا الوصول إلى أبعد من شيزينا Cesena على الأدرياتيك . وعُوقت مسيرة الجيوش المتحالفة الأخرى ، وانتابهم الضعف ، وتشتتوا ، حيث كان لزاماً عليهم أن يتوقفوا هنا وهناك للاشتباك فى حروب وتمردات صغيرة . . . واتخذت البندقية موقفاً يتسم باليقظة والحذر ، ذلك أنها قصدت إلى التدخل إلى جانب الفريق المنتصر ، فى الوقت الذى تستنزف فيه قوة الآخرين ، أما بيرو دى مديتشى حاكم فلورنسه الذى سيطر على ممرات الأبنين ، والذى كان فى مقدوره وقف تقدم الغزاة بجهد يسير (سيطر على الخط الذى وضع فيه كسلرنج الضعيف المنهزم جيوش الحلفاء القوية فى مأزق حرج دافعوا فيه عن أنفسهم بضراوة ، وذلك فى شتاء ١٩٤٤) فإنه — أى بيرو — أسرع ، قدر ما تستطيع الخيل أن تعدو ، إلى معسكر الفرنسيين وسلم شارل مفاتيح كل الحصون الجبلية ، وكذلك مفاتيح سارزانا ، وبيتراسانتا ، وبيزا ، وبلجهورن . وبهذا تخلص الفرنسيون مما كان ينتظرهم من مشقة فى اقتحام سهل ضيق يطوقه البحر من جانب وسلسلة جبال عالية شديدة التحدر من الجانب الآخر . ولدى سماع هذه الأنباء ثار أهالى فلورنسة على حاكمهم فى عنف بالغ ، وعندما دخل شارل المدينة فى ١٧ نوفمبر ، عادت مرة أخرى جمهورية حرة ، وحيّاه الشعب على أنه محررهم .

وامتطى ملك فرنسا صهوة جواده مدججاً بالسلاح قاصداً قصر آل مديتشى ، وهناك أنهى إلى زعمائهم أنه جاء غازياً لا ضيفاً . وطالب بمبالغ ضخمة من المال . .

حيث كان المال إحدى مشاكله الملحة . ولم يكن ليكتفى بشيء . ورفض وزراء فلورنسة شروطه ولكنه أصر فى عناد . وعندئذ اختطف بييرو كابونى ورقة دونت عليها الشروط ومزقها أمام عينيه ، فأنذره شارل فى عظمته الملكية قائلا : « إننا سوف نعلق النذير وننفخ فى الأبواق » . فأجاب كابونى : « ونحن سندق الأجراس». وكان من الممكن ، عند دق ناقوس الخطر ، أن يتحول كل بيت إلى قلعة وأن تسد منافذ الشوارع بالسلاسل الحديدية ، وأن يقذف كل حى فى المدينة بمئات الرجال . وغطى شارل خيبة أمله بتورية قبيحة باللغة الإيطالية عرض فيها بكابونى . وما يدل عليه اسمه بعد تحريف فيه ، ولكن كابونى لم يدق نواقيسه بعد كل هذا . ووافقت فلورنسة على أن تدفع لشارل مائة وعشرين ألف فلورين، شريطة أن يرحل .

ووصل شارل إلى « بوابة الشعب » فى روما فى ٣١ ديسمبر سنة ١٤٩٤ . وفى الساعة الثالثة بعد الظهر ، بدأ دخول الجيش الفرنسى . وعند تمام الساعة التاسعة ليلا كان آخر جندى فرنسى وآخر عربة قد مرت بالأبواب فى وهج الأنوار الكاشفة والمشاعل . وحيا الأهالى بعضهم بعضاً بصوت أجش صائحين : « الفرنسيون ، الفرنسيون ! » . وكان المنظر رائعاً حقاً . كان هناك الألمان والسويسريون العمالقة مزهوين بالريش الذى يرفرف فى قبعاتهم وبمعاطفهم المزركشة ، والفرسان الفرنسيون فى عباءاتهم الحريرية فوق دروعهم المذهبة، وحرس الملك الاسكتلنديون بلباسهم الغريب الصافى المخطط ، والمشاة الألمان المرعوبون بمطاردهم (المطرد سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب) الشبيهة بالمناجل . كذلك هلل الأهالى يحدوهم الأمل فى أن يعجل دخول الفرنسيين بخاتمة سيئة للبابا وأسرته جمعاء . وتذرع البابا ألكساندر السادس بالحكمة والحذر، فاعتكف فى قلعة سانت أنجلو. ماذا عسى أن يفعل الفاتح معه ؟ وكان إلى جانب الملك كل من الكاردينال أسكانيو

سفورزا والكاردينال جوليانو ديلا روفيرى (وهو البابا يوليوس الثانى فيما بعد) يحرضانه على دعوة مجلس الكرادلة . ولكن واحداً من رجال حاشية الملك الموثوق بهم (بريسونييه Briconnet) احتال لتحويل أقدار روما وأسرة بورجيا والكنيسة والعالم المسيحى بأسره . إن بريسونييه وهو زوج ابنة صائغ الفضة للملك ، وهو أب لخمسة أطفال ، أراد فى إلحاح ، لسبب ما ، أن يصبح كاردينالا ، وأقنع شارل بأن عليه أن يوافق على حل وسط .

وطرح الملك جانباً فكرة دعوة المجلس ، واستبدل بها المال وبعض الحصون وقلنسوة حمراء لبريسونييه ، كما احتفظ بسيزار ابن البابا والأمير جم أخى سلطان تركيا كرهينتين (أما كيف اتفق وجود الأمير جم فى روما آنذاك ، فتلك قصة طويلة ، ذلك أن السلطان أراد أن يقضى على أخيه ، ولكنه لم يشأ أن يقتله أو يجده مقتولا فى القسطنطينية ، فبعث به إلى البابا ليحتجزه لديه مقابل معاش سنوى قدره أربعون ألف دوكية ، على أن يكون مفهوماً بطريقة خفية أنه يجب التعجيل بالقضاء عليه . ولكن ما من أحد يرتضى أن يعجل بموت ضيف يدر ٤٠,٠٠٠ دوكية سنوياً . وتمتع الأمير المسلم لبعض الوقت بموفور الصحة والعافية فى بلاط روما ، على حين قتل العديد من رجال الحاشية والأعضاء البارزين فى الأسرة كل أسبوع . على أنه سرعان ما وافاه القدر المحتوم بعد قليل من استضافة شارل إياه ، وربما مات مسموماً . وقيل إن البابا ألكساندر كان قد آثر ، آخر الأمر ، أن يحفظ عهده مع السلطان أكثر منه مع ملك فرنسا) .

وبعد أن أقام الملك شهراً فى روما استقبله النابوليتانيون بالترحاب والهتاف والاحتفالات ، وقد كانوا دائماً يبتهجون بتغيير حكامهم وسادتهم . وكما كان يفعل شارل دائماً فى كل مكان ، انصرف الملك إلى الملذات واللهو ، فانغمس

فى الرقص والمبارزات والحفلات والولائم ومعاشرة أجمل سيدات المدينة وأنضرهن وأعرقهن أصولا . وما هى إلا فترة وجيزة (كما فعل كل من غزا نابلى) حتى بدأ يثقل كاهل الناس ويهيجهم ، فجلب على نفسه كراهية الشعب نتيجة لهذه الأوضاع . وفرض ضرائب باهظة ، ووزع مناصب المملكة المربحة وألقابها وإقطاعياتها على بطانته .

وفى ١٧ مايو بدأ حماقة تدعو إلى السخرية منه ، وذلك بتمثيل ما كان يراوده الأمل فى أن يكون تتويجاً لانتصاره فى حملته ، فسار فى موكب فى الشوارع ، فى لباس إمبراطور الشرق ، بالأردية والمعدات التى كان قد ابتدعها لتتويجه فى القسطنطينية ، فأمسك بكرة يعلوها صليب فى إحدى يديه وبصولجان فى اليد الأخرى ، ووضع على رأسه تاجاً كبيراً . (وهذا العمل الفج يجلب نحس الطالع ، كما يعرف كل النابوليتاتيين . فماذا حدث لموسولينى مثلا ، بعد عدة قرون ، حين حمل جواده الأشهب الأثير بالطائرة إلى شمال إفريقية ، استعداداً لدخوله الإسكندرية فاتحاً ؟ لم تطأ قدماه أرض الإسكندرية قط ، وفقد شمالى إفريقية ، وحاول بشق النفس أن يسترد جواده حيًّا) وبعد أيام قلائل من هذا العرض المشئوم ترامت الأنباء إلى شارل بأن الإيطاليين كونوا عصبة ، من وراء ظهره ، وأنهم كانوا يقومون باستعدادات جادة ليقطعوا عليه خط الرجعة ويسحقوه . وواضح أن نابلى باتت شركاً منصوباً له . فقرر أن يعود أدراجه بمثل السرعة التى كان قد جاء بها .

إن الوطنيين الإيطاليين الذين أضناهم وطء أقدام الغزاة بلادهم وإذلالهم ، وقد أدركوا ما سوف يحدث على وجه التحقيق إذا لم ينل ملك فرنسا سوء العقاب على اجترائه ، سعوا فى الحال بطريقة ما ، ليحملوا معظم الأمراء والبابا وميلان

وفلورنسة والبندقية للاتفاق على حشد جيش معاً لتحدى الفرنسيين . وتحدث الرجال الشجعان بصراحة عن « حرب إيطاليا ضد أعدائها » وعن « حرية إيطاليا » التى يجب أن يدافعوا عنها . وكأنما كان هناك حقاً « إيطاليا » ، وأنها لم تكن مجرد « اللغة الإيطالية » وهو الاسم الذى كان يطلقه على هذه البلاد دائماً وبحق فرسان القديس يوحنا بنظامهم العسكرى والملكى . ولكن قل أن كانت الوطنية فى إيطاليا يوماً هى القوة الدافعة المسيطرة ، فلم ينضم معظم أعضاء العصبة إليها لمجرد حبهم لوطنهم ، بل لأن هذا العمل بدا أكثر أمناً أو أخف ضرراً وقتئذ . وكان واضحاً أنه من الخطر بمكان تأييد ملك فرنسا حين ذاك ، أو معاونته بالوقوف موقف الحياد . لقد كادت موارده تنضب ، كما كاد نجمه يأفل . . . وأنّى له أن يذهب من نابلى، وهو عمليًّا فى الطرف المسدود من شبه جزيرة إيطاليا الضيق ؟ إنه لم يعد الرجل نفسه ، ولم يسلك كما يجدر بفاتح ظافر أن يفعل . وجانبت قراراته الصواب أكثر فأكثر . ولم يبق لديه إلا النزر اليسير من المال . وأنهكت قوى جيشه وعراه السخط ، وأهلكه الزهرى ، وهو المرض الفتاك الذى كان الإسبان قد حملوه من أمريكا ، والتقى به الفرنسيون فى نابلى . وكان ألكساندر بورجيا . وهو رجل سريع الخاطر ، قد قال إن الفرنسيين غزوا إيطاليا بقطع من الطباشير ومهمازات خشبية ، وقد امتطوا جيادهم وهم ينتعلون الأخفاف ، وأرسلوا برجال حاشيتهم أمامهم ليضعوا علامات على أبواب أفضل البيوت وأكثرها ترفا ، كى يقضوا الليل فيها . بديهى أنه من اليسير طمس معالم غزوهم بمثل السهولة التى تمحى بها علامات الطباشير التى خلفوها وراءهم . فواضح أنه كان من الأحزم فى سنة ١٤٩٥ الانضمام إلى العصبة .

* * *

والتقى جيش العصبة الإيطالية بالجيش الفرنسي في شمال إيطاليا ، قرب قرية فورنوفو في ٦ يوليو عام ١٤٩٥ . وتقع فورنوفو Fornovo على نهر تارو Taro في الطرف الشمالي من ممر تشيزا Cisa عبر الأبنين ، بين سارزانا وبارما . واختير هذا المكان لأن الفرنسيين كانوا قد مروا به في طريقهم إلى نابلي ، وظنوا أنهم يمكنهم أن يعبروه في طريق عودتهم إلى بلادهم . وبالقرب من فورنوفو يبدأ الطريق على ضفة النهر يستقيم وينحدر انحداراً خفيفاً نحو السهل الذي تحته ، بعد أن يكون قد تعرج عدة أميال في ممرات ضيقة بين جدران شديدة الانحدار من الصخر . وقد يكون الوادي ، في أعلى النهر ، مكاناً صالحاً للكمائن . وفي أدنى النهر كان الطريق واسعاً منبسطاً بحيث يصلح لمناورات فرق الخيالة ومناورات الجنود المشاة ، ولكنه مع ذلك ضيق إلى حد يسمح بانكماش التحركات داخل ميدان معركة محدد تحديدا دقيقاً .

وبلغ عدد الجنود الفرنسيين نحو ٩,٥٠٠ من المحاربين ، أصاب الكلال معظمهم من طول المسيرة وقلة الغذاء ، وأرهقهم المرض . وكانوا يخشون الصدام المفاجئ الوشيك الوقوع . (وكان لديهم من الخبرة ما يدركون معه أن مواقعهم تدعو إلى اليأس) ، وقد خارت عزائمهم إذ كان لزاماً عليهم أن يتخلوا عن فتوحاتهم بدون أسباب مشرفة ، وكانوا قد فقدوا حماسهم للقتال ، لأنهم ظلوا بلا قتال فترة طويلة . أما أعداؤهم فقد بلغ عددهم ٣٠,٠٠٠ رجل مفعمين بالنشاط ، مزودين بأحسن السلاح والمؤن . فكانوا واثقين من النصر . وعرف إيطاليو المولد من بينهم (وهم الأغلبية الساحقة) أنهم إنما يقاتلون معركة فاصلة من أجل بلدهم ، فإما يفوزون بكل شيء أو يخسرون كل شيء ، على أرضهم ، ضد عدو دونهم شأناً ضرب عليهم الذلة جميعاً . وكان الجيش تحت إمرة واحد

من أحسن القواد فى عصره ، هو « فرانشسكو جونزاجا مركيز مانتوا » يحيط به رجال أسرته ونفر من القادة المرتزقة المحنكين الموثوق بهم . وكان جونزاجا قد اختار مكان المعركة وزمانها ووضع لها خطة بارعة يبدو بوضوح أن مصيرها الظفر .

وتقدم الفرنسيون على حذر فى هذا الصباح ، عالمين بأنهم قد يلاقون العدو فى أية لحظة ، وكانوا مستعدين لهجوم المواجهة المألوف الذى اعتبره الفن العسكرى فى العصور الوسطى أحسن أسلوب لائق بالأماجد . وبعثوا بأمتعتهم ومؤنهم وذخائرهم ومعداتهم — بما فى ذلك الكنوز الملكية (وهى عبارة عن قافلة تتراوح بين ٥,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ بغل محملة) ، إلى التلال الموازية للطريق ، حتى لا تعوق مسيرتهم فى أثناء القتال . ووضعوا فى الطليعة ٣٥٠ فارساً مسلحين أعظم تسليح ، ووراءهم ما تبقى من زهرة خيالة فرنسا ، ثم المشاة السويسريون ، وهم ٣٠٠٠ فى تشكيلهم النموذجى ، أكتاف بعضهم فى أكتاف بعض فى مربع مرصوص ، منتصبين بحرابهم الحادة ، وتبعهم سائر الجيش بقيادة شارل شخصياً على فترات منتظمة . وكان من المقدور على الإيطاليين أن يحدق بهم الفرسان الفرنسيون ، ثم يشتت شملهم السويسريون الأشداء وينهكهم حرس الملك رماة الأسهم الاسكتلنديون ورماة القوس الفرنسيون ، ثم تنزل بهم الضربة القاضية مؤخرة الجيش التى تكونت من ٣٠٠ من الفرنسيين المسلحين .

وكان جونزاجا Gonzaga على درجة من المهارة يدرك معها تماماً كل ما دار بخلد الفرنسيين أنه سيفعله . فلربما ضمن له النصر بطبيعة الحال هجوم مواجه ، لأنه كان متفوقاً من حيث العدد ، ولكن على حساب خسارة فادحة فى الأرواح . ولكنه آثر خطة مخالفة لهذه ، خطة جديدة غير مألوفة ، أطلق عليها الكابتن ليدل هارت Liddell Hart (أكبر خبير بالشئون العسكرية فى القرن العشرين) «إستراتيجية الاقتراب

غير المباشر Indirect approach »، وقد استخدمها كل القادة العظام المنتصرين فى التاريخ .ولهذا، أيضاً، انتظر القائد الإيطالى عدوه فى المكان الذى اتسع فيه الوادى وكان فيه ثمة مجال للحركة . وهذا هو ما خطط له . وبينما سار الفرنسيون أرتالا فى تشكيلهم على الطريق ،على الضفة اليسرى لنهر تارو ، كان على الإيطاليين أن يدهموا الطليعة(كما توقع القائدالإيطالى) بهجمات متكررة من وحدات الخيالة الخفيفة. وبينما كان هذا يحدث ، كان على طابورين من الخيالة الثقيلة يقودهما فرانشسكو جونزاجا شخصياً ، وأحسن قادته برناردينو فورت براشيو B. Fortebraccio (ويعنى اسمه الذراع القوى) أن يصعدا بسرعة على الضفة المقابلة (اليمنى) فى حركة مفاجئة ، فكان عليهما أن يخوضا النهر فى نقطتين فى وقت واحد ، ويهاجما جناح الفرنسيين ، وينشرا فيهم الذعر ويحطما تشكيلهم المنظم ، ويسوقاهم إلى جهة التلال ، ويشطر الفرقة إلى أجزاء ، ويعملا القتل فى كل على حدة . ولكن لسوء الحظ لم تأت الرياح بما تشتهى السفن . وهذا بالضبط ما حدث .

لقد اقتحم طلائع الفرنسيين ، لبعض الوقت على الأقل ، فرقة الفرسان السريعة الخفيفة Stradioti (الذين كانت فينتسيا قد جندتهم ودربتهم فى دلماشيا وألبانيا لمواجهة غارات الفرسان الأتراك الخفاف السريعين عبر الحدود) . ولم يكن هؤلاء الفرسان البنادقة مزودين بغير السيوف المعقوفة ، فلم يكن مقصوداً بهم أن يصمدوا طويلا فى وجه الخيالة الثقيلة والسويسريين. وقد أمروا فقط أن يضايقوا العدو ثم ينسحبوا بسرعة . ولكن الزمن الذى وفروه لجونزاجا وفورت براشيو لحركات رجالهم التطويقية كان قصيراً . كما أن الأمطار الغزيرة غير المعهودة رفعت مستوى النهر فى ذاك اليوم ، وجعلت خوضه متعذراً . وحاول جونزاجا عبثاً أن يخوض حيث كان متوقعاً أن يفعل ، ولكنه فقد كثيراً من الرجال والخيل التى لم تستطع السباحة وقد أثقلت

كواهلها الدروع والأسلحة المصنوعة من الصلب ، وجرفتها المياه الدافقة . وقد بذل عدة محاولات مضنية استنفدت وقتاً ثميناً . وأخيراً قرر أن يحاول مرة أخرى أعالى النهر ، حيث كان الوادى أضيق والنهر أكثر ضحالة ولكنه أشد اندفاعاً .

وما لبثت المتاعب التى واجهها جونزاجا أن فضحت خطته للفرنسيين ، فأدركوا أن جناحهم مهدد . فانثنوا ليواجهوا الخطر واستعدوا للهجوم . وحاول كثير من رجال جونزاجا ، آخر الأمر ، الوصول إلى الضفة اليمنى ، ولكن لم يكن أمامهم إلا نفس المكان الذى كان يستخدمه رجال فورتبراشو . ومن ثم وقع الطابوران الإيطاليان فى شرك لا فكاك منه . ثم واجهتهم عقبة لم يتوقعوها : حاجز من العسير تخطيه ، هو عبارة عن قناة عقيمة ذات ضفتين من الطين شديدتى الانحدار موحلتين ، تمد طاحونة بالماء . وفقد الإيطاليون عدداً كبيراً من فرسانهم وخيلهم ، كما ضاع عليهم وقت ثمين آخر . وهنا شن الفرنسيون الذين كانوا قد أعادوا تنظيم صفوفهم هجومهم على الإيطاليين ، مستفيدين من متاعبهم ، وقاتل الفرنسيون بشجاعة المستميت ، الذى يدافع عن حياته ، وهو ناء عن الأوطان فى أحرج مأزق :

وما هى إلا لحظات حتى بات القتال مذبحة مضطربة متلاحمة ، فكانت أكبر معركة دامية شهدتها إيطاليا على مدى قرنين من الزمان . وتكسرت النصال ، وأحدق الرجال بعضهم ببعض تقتيلا بالرماح والسيوف ، وبذلت فرق الطوارئ المتبقية من جنود جونزاجا وفورتبراشيو آخر ما فى جعبتها ، فصاحت ثانية صيحات مدوية « إلى الموت ، إلى الموت ، إيطاليا ، إيطاليا ! » وسرعان ما غطيت الأرض بالموتى ومن يعالجون سكرات الموت من الرجال والخيل . وحارب الفرسان الذين فقدوا جيادهم مترجلين . وما هى إلا أن أبصر جونزاجا وسط هذه المعمعة الصاخبة ،

شارل يقاتل قتال المستميت على رأس جماعة صغيرة من رجاله (وكان شارل جنديًّا شجاعاً قديراً تدرب فى المبارزات) وجمع جونزاجا نفراً من الرجال وهجم ثانية ، وربما كانت هنا نقطة التحول ، وكان يدرك ذلك . ولكن عندما أوشك القائد الإيطالى أن يأسر الملك أو يقتله ، جرح جواده فترجل . وكان فورتبراشيو قد لقى مصرعه قبل ذلك بقليل . ونجا شارل . وبقى جونزاجا فى الواقع وحده راجلا ، ليعمل قدر ما يستطيع لمجرد الإبقاء على حياته .

وكانت النتيجة النهائية مجزرة مضطربة صاخبة ، أو قل هى الفوضى على أشدها . وما إن أقبل الليل حتى عمل شارل على التسلل مع ما تبقى من جنوده ، ووصل مدينة آستى Asti على عجل ، وعبر جبال الألب ، ولم يتعقبه أحد ، وبقى على أرض المعركة أربعة آلاف من القتلى ، ثلثاهم من الإيطاليين .

* * *

إن معركة فورنوفو هى نقطة التحول فى تاريخ إيطاليا ، ولا يزال الإحساس بنتائجها البعيدة قائماً حتى اليوم . ولو أن الإيطاليين فازوا فيها بالنصر ، فلربما اكتشفوا آنذاك معنى الزهو بوحدة الشعب والاعتزاز بها ، ومعنى الثقة بالنفس التى يولدها الدفاع عن حريتهم العامة ، ومعنى الاستقلال . ولربما برزت إيطاليا كأمة محترمة إلى حد كبير ، قادرة على تقرير مستقبلها ، وكبلد لابد أن يفكر الأجانب المغامرون مرتين قبل الإقدام على مهاجمته . وما كان من أحد يجرؤ على اختراق جبال الألب دون مبالاة ، خشية الهلاك . وما كانت الدول الأوربية لتتشجع على القضاء دوماً على السياسة الإيطالية ، وعلى اقتطاع أجزاء من الأرض الإيطالية بأيدى مواطنيهم العزل المجدين الكادحين ، إرضاء للمنافسات الأسرية وإشباعاً لنهم كل فرد . ولربما اتخذ تاريخ إيطاليا وأوربا والعالم ، وجهات مختلفة ، ولربما تطور الخلق القومى الإيطالى فى اتجاهات مختلفة . ولربما امتنعت السخرية

من أصوات الوطنيين وحسن الإنصات إليها فى اهتمام واحترام . وعندما تحققت الوحدة والاستقلال آخر الأمر فى القرن التاسع عشر ، ظلت العادات القديمة سائدة ، ولم تكن لتتغير بسهولة . ويقول دى كومين إن القتال الحقيقى فى فورنوفو استمر ربع ساعة ، واستغرق تعقب الإيطاليين المهزومين وقتلهم ثلاثة أرباع ساعة أخرى ، ومن ثم نرى أن المغامرة بمصير إيطاليا لعدة قرون لم تدم إلا خمس عشرة دقيقة .

ولماذا خسر الإيطاليون الحرب فى فورنوفو ؟ من المؤكد أن الهزيمة لم تقع بسبب أنهم جبناء . إنها كانت نوع المعركة التى يفهمونها والتى يقاتلون فيها دائماً ببسالة ، دفاعاً عن بلدهم وعن شرفهم ضد عدو أجنبى ممقوت . لقد كانت لهم الرجاحة . وتتفق كل التقارير المعاصرة على أن الرجال الذين اشتركوا فى الحرب كانوا قد اشتهروا ببسالة ، قدر بسالة الفرنسيين ، وأنهم واجهوا الموت فى بطولة حتى بعد تحققهم من ضياع الأمل فى النصر ، ولكن هناك أسباباً أخرى للهزيمة لا يمل المؤرخون من تحليلها .

وأول هذه الأسباب إرادة الله . فقد حالف حسن الحظ شارل منذ مغادرته فرنسا ، كان محظوظاً مثل الطفل أو الرجل المخمور ، وكم من مرة أحدقت به الأخطار الرهيبة دون أن يدرى . وكان من الجائز أن يوقف تقدم جيشه أو ينهك أو يحطم لسبب واحد من أسباب كثيرة : بسبب الانهيارات الثلجية فى الألب ، أو وصول فرقة من الجند فى الوقت المناسب إلى ممر جبلى ، أو مقاومة حصن واحد أو ثورة الفلاحين الموالين المخلصين . كان حظه غريباً لدرجة أن كثيرين (من بينهم جويتشارديني) ذهبوا إلى أن الحملة كانت محوطة بعناية الله وتوجيهه . ولقد وردت كثيراً عبارة : « يبدو أن الله يوجه الحملة » فى مذكرات دى كومين

الذى رافق الملك بوصفه مستشاراً سياسياً له . إن المطر لا يسقط قط فى إيطاليا فى شهر يوليو ، فهو الشهر الذى يظمأ فيه الريف ، وتكون الحقول صلبة مثل شوارع المدن ، والعيون جافة ، وتهزل أجسام الماشية ، وتنكمش الأنهار إلى نهيرات صغيرة ، ولكن انتفخ نهر تارو واندفع الماء فيه بعنف فى ذلك اليوم ، وهو أمر معهود فى هذا النهر لبضعة أسابيع فى الشتاء فقط . ومن الواضح أن حظ شارل ثم الجو قبل كل شىء هما اللذان أحبطا خطة جونزاجا التى كانت تعتمد فعلا على سرعة عبور النهر فى نقطتين فى وقت واحد . وكانت الأرض لينة رخوة زلقة ، غير صالحة للخيالة الثقيلة ، ولكنها قطعاً أسوأ بالنسبة للفرسان المهاجمين منها بالنسبة للمدافعين .

ولا ريب فى أن الابتكار الجرىء ، أى الخطة الإيطالية المعقدة ، ساعدت على الخاتمة المفجعة ، لقد اختار جونزاجا المنطقة الأشد وعورة فى اتجاه مجرى النهر ، لأنه كان يستطيع أن يحسن فيها تشكيل جنوده فى الجبهة مستعرضة ويحركهم فيها ، مستفيداً أكبر فائدة من تفوقهم العددى والعقلى على الفرنسيين . ولكنه نسى على أية حال ، أنه فى مثل المعركة التى تصورها ، ولكى يقوم بالمناورات فى العراء ، ولأنه من المحتمل أن يغير خططه لمواجهة أى حادث غير متوقع . تقول نسى فى هذه الظروف أنه كان لزاماً عليه أن يكون بين يديه قبل كل شىء أداة طيعة وجيشاً متجانساً مستعداً قادراً على إطاعة الأوامر أو ارتجال تحركاته كلما دعت الحاجة . وكان كل ما لديه بديلا عن ذلك ، مجموعة حشدت كيفما اتفق ممن يستخدمون للطوارئ ، انضم بعضهم إلى بعض فى آخر لحظة للقتال ، مع تفاوت درجة تدريبهم وخبرتهم وأسلحتهم وإمكان الاعتماد عليهم . فلما ساءت الأمور عمل كل فريق من الجنود ما ظن أنه أفضل ما يجب عمله فاندفع بعضهم

إلى المعمعة ولى حتفه ، وفر بعضهم ، وانصرف آخرون إلى جمع الغنائم .
وانتظر فريق آخر صابراً أن يلقى عليه ما يجب أن يعمل بعد ذلك ، أو ليرى
من يكتب له النصر . وليس من شك فى أن الذين ضحوا بأنفسهم كانوا كثيرين ،
فإن مجموعة المشاة البنادقة تحت إمرة جيرولامو جينوفا ، على سبيل المثال ،
أدت واجبها ، فاندفعت عندما حمى الوطيس ، وفقدت مائتى رجل ، من
ثلاثمائة ، على حين أنه لا شك فى أن فريق ميلان ، بقيادة لودوفيكو إل مورو ،
تقاعسوا عن القتال ، لأنهم لم يكن لديهم أوامر ، ولكن من المحتمل أيضاً أنه
كانت هناك أسباب سياسية .

وما كان جونزاجا ليستطيع الإفادة من جيش العصبة ولو كان هذا الجيش
أداة منسجمة طيعة حسنة التنظيم ، فقد خطط لمعركة عصرية حديثة ، ولكنه
خاضها كقائد من طراز قديم من العصور الوسطى . فقد اندفع إلى قلب الميدان
وهاجم المرة تلو المرة على رأس رجاله سعياً وراء النصر أو الموت . وكان عليه بطبيعة
الحال أن يبقى آمناً فى أحد الجوانب على رابية ، ليرقب مجرى الأحداث فى هدوء ،
ليتخذ القرار المناسب الذى كان يمكن أن ينقذ الموقف ؛ فيرسل جنود الاحتياط
إلى حيث يمكنهم أن يؤدوا أجل عمل فى اللحظة المناسبة ، ولكنه لم يستطع أن يفعل
شيئاً من هذا . فقد ظل معظم الوقت منعزلا ، لم يتصل إلا بنفر قليل ممن حوله ،
مشغولا بإنقاذ حياته وقتل الفرنسيين ، أكثر من شغله بالتفكير فى المعركة فى
مجموعها ، ومن ثم لم يكن قط قادراً على تعديل أوامره السابقة أو تكييف خططه .

وأشار المؤرخون المعاصرون إلى أن تقاعس فرقة الفرسان الخفيفة Stradioti
(البنادقة) كان السبب الرئيسى للهزيمة ، وهذا ، بعد المطر ، هو التفسير الذى
يحلو للمؤرخين الإيطاليين أن يرددوه ، لأنه يرضى الكبرياء القومية الجريحة .

فأين كانت فرقة الفرسان الخفيفة هذه بعد إنهاك طلائع الفرنسيين ؟ لقد اختفت عن الأنظار . فقد أبصرت بقافلة البغال المحملة بأمتعة الفرنسيين على التلال فشرعت تتعقبها ، لقد كان هؤلاء الفرسان البنادقة يجمعون الغنائم فى هذه اللحظة الحرجة التى كان يمكن أن يحقق النصر فيها وصول فرقة جديدة من الإيطاليين ؛ ولقد قدرت هذه الغنائم بنحو ٣٠٠,٠٠٠ دوكية ؛ وفيها خوذة الملك شارل ، وسيفه الملكى ، وأختامه وجزء من سجلاته ، وصورة ولى عهد فرنسا ، والمذبح المتنقل ، وعدة مخلفات مقدسة .

وقبض فى الحال على ديودو Duodo قائد البنادقة الذى بقى على قيد الحياة بعد المعركة ، وحوكم وجرد من رتبته العسكرية ، ولقد دافع عن نفسه دفاعاً قوياً ، وكان أول من أوضح فى دفاعه أنه ما كان ينبغى بالجونزاجا أن يفنى نفسه فى القتال ، بل كان عليه أن يلزم نقطة واحدة يتحكم منها فى الاحتياطى . ولا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أن فرقة الفرسان الخفيفة البنادقة لم يكونوا أكثر من جنود غير نظاميين ، دربوا على لون واحد من الحرب فقط ، وهى الغارات السريعة — اضرب واهرب — على معسكرات العدو وقوافله وخيالته . وكان الهدف الأسمى فى مثل هذا النوع من الحروب دائماً هو الاستيلاء على كنوز العدو بما فى ذلك النساء والعبيد والماشية . ولقد سار فرسان البنادقة هؤلاء (Stradioti) على سجيتهم ، وفعلوا ما ألفوا فعله دوماً ؛ ولما كانوا غرباء مرتزقة يخدمون جمهورية البندقية نظير أجر ونصيب من الغنائم ، فإنهم لم يرتبطوا ارتباطاً عاطفياً بالنتيجة النهائية بأى حال من الأحوال . فماذا كان ينتظر منهم غير هذا ؟

وربما انهزم الإيطاليون بسبب فضائلهم ورذائلهم معاً . فقد اتحدوا بعد فوات الأوان . وكان لزاماً عليهم أن يلتحموا مع شارل فى العام السابق ، وهو فى

طريقه إليهم ، لا فى طريق عودته . ولكنهم أضاعوا وقتاً ثميناً عدته اثنا عشر شهراً فى مناورات دبلوماسية ودسائس بارعة . فلما استقر قرارهم آخر الأمر على سحق الفرنسيين جمعوا على عجل خليطاً من الوحدات المحاربة كيفما اتفق . ووصلت القوات إلى فورنوفو عشية الالتحام تقريباً ، متأخرة إلى الحد الذى تعذر معه على جونزاجا أن يتدبر نصب الكمائن لشارل فى الجبال . ولحق بها عدد آخر من الجنود فى وقت أكثر تأخراً ، أى فى الأيام التى تلت المعركة ، ثم إن القرار الذى اتخذ بالقتال حيث يتسع الوادى ، تأثر أيضاً بدوافع غير عسكرية ، على الطريقة الإيطالية . فقد اعترف فرانشسكو بأنه حاول أن يكون قريباً من بارما قدر الإستطاعة لأنه لم يكن يثق فى بارما ، وكان يخشى أن يهاجم البارميون مؤخرته .

أخيراً نجد أن فضائل جونزاجا ورذائله كانت أيضاً حاسمة فى تحديد الموقف : لقد كان خير قائد فى إيطاليا ، ولكنه لم يكن كذلك بالقدر الذى ظنه هو . فقد صمم المعركة ليظهر شجاعته . وصف خبير إيطالى — اسمه بييرو بييرى — خطته حديثاً ، بأنها « محاولة بارعة يائسة » . ومن الواضح أن المركيز « جونزاجا » كان حريصاً على عظمته الشخصية ، فاستسلم للإغراء المتأصل فى نفوس الإيطاليين ، باستغلال أزمة قومية ليصبح شخصية تاريخية فذة ، تحييه الجماهير فى هالة من المجد الخالد . من أجل ذلك لم يطق أن يلتزم جانباً واحداً ويشرف على القتال بأسره . إنه إنما أراد أن يظهر بسالته ، وبسالة أسرته ، وبسالة المحاربين من أهل بلدته مانتوا ، الذين حاربوا جميعاً بشجاعة فائقة ، وهلك منهم خلق كثير وظن فرانشسكو آخر الأمر أنه قد كسب المعركة . ألم يتركوا له الأرض ؟ ألم يستول على خزائن العدو ؟ ألم يرغم ملك فرنسا على الفرار ؟ ولما عاد إلى « مانتوا »

شيدت هناك كنيسة شكراً لله ، أطلق عليها اسم « من أجل إعادة تدعيم حرية إيطاليا » . ولا بد هنا من ملاحظة لفظة « إيطاليا » التى تدل على مبلغ حرص المعاصرين على إبراز المعنى القومى للمعركة . ومهما يكن من أمر فإن سائر الناس أدركوا أنهم خسروا المعركة : وخسروا الحرب . وخسروا حرية إيطاليا .

* * *

ويمكن مقارنة حملة شارل الثامن هذه ، بحرب الأفيون التى شنها الإنجليز ضد إمبراطورية الصين فى القرن التاسع عشر . فقد كانت هذه أيضاً عملا متواضعاً نسبياً ليس لها من الأهمية قدر ما لمثلها من الحروب ، ولكنها بدأت سلسلة متلاحقة من رد فعل الأحداث التى لم يمكن التنبؤ بها ، ومهدت الطريق فترة طويلة من التدخل الأجنبى والصراع الدامى والحروب الأهلية والثورات . لقد أظهر الإنجليز (مثل الفرنسيين على عهد شارل الثامن) العالم على وهن أمة عظيمة ، وعلى الغنائم الهائلة التى يمكن جمعها مع التعرض لأيسر الخطر ، وعلى الضعف الكامن فى الأهالى الذين جاوزت مدنيتهم الحد ، وعلى عجزهم عن العمل فى جماعات متماسكة يربط بينها هدف أو منطق واحد ، وعلى استعدادهم للإذعان طواعية لأساليب الغزاة القساة الوحشيين ذوى العزيمة الأكيدة . إن تدمير الشعوب العظيمة وإذلالها — الإيطاليين والصينيين — المزهوة بأمجادها القديمة ، أثار الروح القومية والكراهية الخفية للأجانب ؛ الذين هم ، بدرجة واضحة ، دون المواطنين ثقافة ومعرفة وفناً ، وهى كراهية لا يتيسر بدونها تفسير كثير من الأحداث التالية . وقد اندلعت على فترات متقطعة ، فى ثورات وحشية دامية ، أعقبتها فترات استسلام فاتر ذليل . وإن النتائج النهائية لهذا كله لتمتد إلى يومنا هذا . فإن الفاشية وثورة البوكسر فى الصين سنة ١٩٠٠ ، وانتصار الشيوعية

فى الصين أيضاً وقوة الشيوعيين فى إيطاليا — كل هذه لها جذور كثيرة ، ولبعضها جذور فى الهزائم القديمة البعيدة التى كاد النسيان أن يجرّ عليها ذيوله ، وفى الرغبة فى الثأر لها .

ومهما يكن من أمر فإن الدول الأوربية جلبت إلى الصين ثقافة مغايرة قائمة على العلم والتنظيم والأسلحة الحديثة ، وجلبت إلى إيطاليا شكلا من الثقافة العامة أشد تخلفاً ولكن يمكن إدراكه . ولا مراء فى أن فرانشسكو جونزاجا كان قائداً أفضل من شارل ، ولكن ثبات عزم الأجانب فى ميدان المعركة ، وشجاعتهم ونظامهم، كل أولئك كان من شيمتهم ، وهى كلها فضائل شعب قادر على الاتحاد والتماسك خلف قادته . لقد كانت الأسلحة والحيل الحديثة التى استخدمها الفرنسيون وسائر الغزاة الأجانب الذين جاءوا من بعدهم من اختراع الإيطاليين ، وهم الذين هذبوها وحسنوها ، ومن أجل هذا كان إذلالهم وقهرهم أشد مرارة إلى أكبر حد . وأدت الحرب فى الصين إلى الانهيار النهائى لإمبراطورية عاجزة هرمة ، ووضعت نهاية لمدنية لم تطور الوسائل التى تستطيع بها أن تدافع عن نفسها . أما الغزو الأوربى لإيطاليا ، من جهة أخرى ، فإنه — على حين حطم تفوق إيطاليا فى الحرب والسياسة — حفز الإيطاليين إلى بذل مجهود أكبر فى المجالات التى تركت لهم ، تلك التى لم ينافسهم فيها أحد . لقد أنجزوا بعضاً من أعظم الانتصارات فى الفنون والعلوم المبتكرة حديثاً فى الوقت الذى كانت تدور فيه رحى الحروب ، أما الاضمحلال فقد وقع فيما بعد .

* * *

أما ما أعقب فورنوفو فهو معقد فاجع ، حتى دائرة المعارف البريطانية المتقنة العريقة تأوهت تحت وطأة المهمة الثقيلة ، مهمة تفسير الأحداث التى

تلت المعركة لقرائها وعجزت عنها . وعلى الصفحة ٤١ من المجلد الخامس عشر (الطبعة الحادية عشرة ، كمبردج ١٩١١) قالت فى حزن وأسى : « من العسير فى هذا المكان أن نتتبع الدسائس المتشابكة التى وقعت فى هذه الحقبة ، ففى نيف وثلاثين عاماً بعد سنة ١٤٩٥ جاء إلى إيطاليا فعلا كل ما أمكن من جيوش أوربا ، فإن النمسويين والألمان والبرجنديين والفرنسيين والفلمنكيين والإسبان والمجريين وغيرهم من مختلف الأجناس ، عبروا جبال الألب ، أو رسوا بسفنهم على شواطئ إيطاليا ، بل إن السويسريين هجروا وديانهم الهادئة المسالمة وأبقارهم الحلوب إلى ميادين الحرب فى إيطاليا تحت لواء غيرهم من البلاد : بوصفهم جنوداً مرتزقة ، أو تحت علم بلادهم ، حتى يصيبوا شيئاً من الصيد الثمين . ومن سمات السويسريين الغريزية المعروفة أنهم ينتهزون فرص العمل المأمون . وهكذا عقد كل إنسان مع الآخر أحلافاً دائمة ، ثم نقضوها ، وكونوا أحلافاً جديدة ، وأقدموا ثم أحجموا ، وحاربوا ثم عقدوا الصلح ، ثم استأنفوا القتال ، وإن الإنسان ليتصدع رأسه عند قراءة تفاصيل الأحداث فى هذه الحقب ، ويتذكر المناظر الختامية فى الأفلام الهزلية الصامتة القديمة ، حيث شجار السكارى المفتوح للجميع ، والذى يتبادلون فيه اللكمات دون حساب .

وكانت الحرب سجالا بين الأجانب ، ينتصر هذا وينحدر ذاك ، وهكذا دواليك ، ولكن الهزيمة كانت من نصيب الإيطاليين دائماً . وكان عليهم — إذا سارت الأمور سيراً حسناً — أن يمدوا كل إنسان بالطعام والمأوى وأكياس العملة الذهبية ، ويوفروا العلف والمأوى للحيوانات . ولم تسر الأمور على ما يرام إلا فى فترات متقطعة . أما معظم الوقت فقد عانى السكان السلب والنهب ، وذبحوا ، واستبيحت نساؤهم ، وأتلفت حقولهم ، وخربت البيوت فى مزارعهم ،

وجردت مخازنهم ، وحطمت دنان نبيذهم ، ودنست كنائسهم ، وذبحت ماشيتهم ، ونهبت مدنهم الجميلة وجردت وأحرقت . واجتاحت الريف الإيطالى عصابات تعمل فيه السلب والنهب ، من الآبقين الهاربين من الجندية ، وهم حثالة المجتمع الأوربى ، وانتشر الجوع والطاعون انتشار النار فى الهشيم . إن الإيطاليين الذين لم يلقوا الموت فى بيوتهم ، وفى مدنهم وقراهم الأصلية ، لقوا حتفهم فى كل ساحة للحرب . وما من مناوشة وقعت ، إلا كانوا هم بين ضحاياها ، وكأنما كانوا ممثلين لدى الجانبين أو متفرجين أبرياء .

ولما كانت الجمهوريات المحلية والأمراء عاجزين عن تكوين تحالف عسكرى آخر فيما بينهم للدفاع عن وطنهم ، فإنهم انضموا إلى هذا أو ذاك من الائتلافات الأجنبية ، نكاية فى منافسيهم الشخصيين ، وأرسلوا رعاياهم أفواجاً ليقاتلوا ويقتلوا فى معارك جانبية صغيرة لا حصر لها ولا يدرك مداها . وظن الإيطاليون الذين انخرطوا فى جيوش الشعوب الأخرى كمرتزقة ، أن الحياة فى المعسكر أفضل منها فى أى مكان آخر . إن ما حدث فى الثمانية عشر شهراً الأخيرة فى الحرب العالمية الثانية ، حيث حارب الحلفاء من كل الأجناس الألمان ، وحارب الفاشيون غير الفاشيين ، وتحولت المدن إلى أنقاض ، وتسول الأطفال الجياع ، وباع النساء أنفسهن نظير قطعة من الخبز ، ونفى الرجال وعذبوا وقتلوا على يد ذوى القمصان السوداء ، وانتشر الجوع واليأس والفساد والمرض — تقول إن كل هذا حدث كذلك بعد فورنوفو ، واستمر أكثر من ثلاثين عاماً ، ويبدو أن أحداً لم يكن لديه من القوة ما يضع به حداً لهذا التدمير الأحمق الذى لا معنى له .

وفى عام ١٥٢٧ ، أى بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من تلك الاضطرابات الدامية

سار إلى روما جيش إمبراطورى جديد ذلك هو جيش الإمبراطور شارل الخامس ؛ جمع حيثما اتفق ، وكان فى صفوفه إلى جانب المرتزقة الألمان Landsknechts اللوثريون المتعصبون الذين جندوا يحدوهم الأمل فى إظهار مزيد من الحماسة ضد البابا ، والجنود الإسبان الكاثوليك المتعصبون ، والمرتزقة الإيطاليون ، ساروا تحت إمرة أحد نبلاء البوربون ، وهو خائن قام فى وجه ملك فرنسا . وكان هؤلاء الألمان ، مثل سائر جنود شارل الخامس، لا يتقاضون أجوراً ، ولكنهم يحصلون عليها بفرض الإتاوات وسلب المدن . ولقى النبيل البوربونى حتفه عندما اقترب من أسوار روما ، على سلم ، وسط الضباب فى ٦ مايو سنة ١٥٢٧ ، قبل غروب الشمس بساعتين . ويفاخر بنفنوتو تشلينى فى « مذكراته » بأنه هو الذى قتله بقوسه ، ولكن أى مؤرخ جاد لا يصدقه . فقد كانت الطلقة واحدة من عدة طلقات ، ولم تكن هناك مقاومة، وأمكن تسلق الأسوار وفتحت أبواب المدينة ، وتم الاستيلاء على روما فى بضع ساعات .

وتركت المدينة مدة تسعة أشهر لشهوات وجشع وقسوة ثلاثين ألف رجل لا يكبح جماحهم قائد مسئول حازم . ورأى البابا كليمنت السابع ، وهو سجين فى قلعة سانت أنجلو ، سحب الدخان تتصاعد ليل نهار من الحرائق المتجددة فى كل أحياء المدينة ، وسمع عويل النساء ، وأنات الرجال المهذبين مختلطة بنكات وأغنيات الجنود السكارى ، وهمهم بكلمات أيوب متذمراً : « لأنه لم يغلق أبواب بطن أمى ، ولم يستر الشقاوة عن عينى » (الآية ١٠ الإصحاح الثالث من سفر أيوب — التوراة) . وصعقت أوربا بأسرها بهذه القصص المفزعة : ولمدة شهر كامل كان الناس يوضعون على المخلعة حتى يعترفوا بالأماكن التى خبأوا فيها أموالهم . وكانت النساء من كل الطبقات والأعمار ، حتى الراهبات ، يتعاقب على الفسق بهن صفوف من الرجال ساخرين ، وحطمت كنوز من روائع

الفن التى لا تقدر بثمن أو بددت إلى غير رجعة . واختطف كبار الأساقفة طمعاً فى الفدية ، وسحبوا عبر الشوارع والطرقات فى ملابسهم الكهنوتية الثمينة . ثم أعيدوا إلى حيث أتوا على ظهور الحمير فى أوضاع ساخرة تنافى قداسة رجال الدين ، وجردت الكنائس من كل غث وثمين فيها . وألقى بالمخلفات المقدسة والكتب فى الشوارع مع القاذورات والجثث المتعفنة . حتى الموتى لم يكونوا بمنأى عن الأذى ، فقد نبش قبر البابا يوليوس الثانى وسرق خاتمه من أصبعه الذى جف وتصلب . لقد أتى الكاثوليك من ضروب القسوة والشر بمثل ما أتى البروتستانت ، وفعل الجنود الإيطاليون من ضروب الفساد والأذى مثل ما فعل الجنود الأجانب ، وسلك سكان روما المسلك الوحشى نفسه الذى نهجه الغزاة الفاتحون .

* * *

إن اجتياح روما ونهبها ، وهو النتيجة البعيدة لمعركة فورنوفو ، هو الكارثة التى لم تفق منها إيطاليا قط ، أو هو الجرح الذى ترك آثاراً لا تبرأ فى الخلق القومى فى إيطاليا . ولم يساور أحداً من الإيطاليين الشك يوماً فى أنه كان نتيجة أخطائهم هم أنفسهم . لِمَ لم يجد أحد القادة فى نفسه من القدرة والشجاعة ما يصد به الجيش الإمبراطورى المضطرب المتنافر المتعدد الأجناس ، المترنح فى مسيرته نحو الجنوب ؟ ولِمَ لم يثر الشعب فى وجه هؤلاء الرعاع الأجانب ؟

ليس لاجتياح روما هذا شبيه دقيق كمثال للإذلال القومى . ولا يمكن فى الواقع أن يقاس بالحادث الذى يخطر على البال لأول وهلة ، ألا وهو سقوط باريس عام ١٩٤٠ ، إن باريس الجمهورية الثالثة كانت هى الأخرى أعظم وأفخم مدينة فى أوربا ، كانت مستودع الثروة التى تجل قيمتها عن كل تقدير ، والتى جمعت على مر قرون كثيرة ، كانت مكتبة الدنيا ، وكانت مستودع

روائع الفن قديمه وحديثه ، كما كانت مستقى الصفوة المختارة من الناس . ولكن باريس لم تسلب أو تدمر . لقد نهضت سليمة من محنتها ، وأفزعت قاهريها . إن المتبربرين زحموا أروقة المتاحف ، وملأوا قاعات الموسيقى ومسرح الكوميدى فرانسيز ، ومجدوا الموتى من أبطال الثقافة الفرنسية ، على حين عذبوا الوطنيين الفرنسيين الأحياء . وعلى النقيض من ذلك ، لم يترك لروما شىء قط ، ولم تلق شيئاً من الرحمة قط . إن ماضيها المجيد وأطلالها المهيبة ، وذكرى عظمتها الرهيبة ، وروائع التحف التى تزخر بها القصور والكنائس ، والذخائر التى تملأ المكتبات والخزائن — إن شيئاً من هذا كله لم يق روما من الأذى . الحق أن كل ما تحلت به من صفات (مثل جمال معظم نسائها ، وفضائل بعضهن ، والوقار العظيم فى نفر منهن) جعل من مقاومة الغصب والسلب أمراً أشد عسراً .

ولكن روما كانت شيئاً أكثر بكثير من باريس سنة ١٩٤٠ . كانت « مستقر الرب » فى الأرض ، والصخرة التى أقام عليها المسيح كنيسة الرب ، وكانت مركز إمبراطورية روحية ظل كل المسيحيين رعايا لها إلى ما قبل ذلك ببضع سنوات . إن الذين استولوا عليها ارتكبوا شيئاً أفظع من مجرد اعتداء عادى ، لقد اقترفوا دنساً يستحيل إصلاحه . إن فى رؤية المدينة المقدسة يصيبها كل هذا اللوث والدنس ، مع عدم القدرة على تحريك ساكن لصد هذا البلاء النازل ، كما فعل الإيطاليون ، أكبر دليل على عجزهم العسكرى والسياسى ، إنه الغدر بتراثهم الأدبى والروحى . واعتبر تدمير روما — مثل تدمير بيت المقدس من قبل — آية بينة على غضب الله ، وعقاباً للناس على رذائلهم وآثامهم ، لقد حطم هذا الحادث نفوسهم ، وجرح كبرياءهم جرحاً لا يرجى برؤه ، وقضى على رغبتهم فى الحياة كأمة واحدة ، لأن روما ، مثل بيت المقدس ،

كانت كذلك رمز وجودهم القومى . إن الإيطاليين لم يحققوا الوحدة ، ولكنهم كانوا يحسون دائماً أنهم أمة ، تكونت برغم كل شيء ، لا على يد الملوك والجنود ورجال السياسة مثل سائر الأمم ، بل تكونت بفضل رجال الكنيسة والشعراء والفنانين والفلاسفة . إن البلد الروحى الذى أحبه الإيطاليون كان له عاصمة هى روما ، لا مجرد صخور روما القائمة على ضفاف التيبر ، بل المدينة الروحية المندسة فى بطون الكتب والأساطير ، لقد سحرت دانتى ، وكولا ، وبترارك ، كان لزاماً أن تفتن كل أعاظم الإيطاليين فى المستقبل . كانت روما الأم الكبرى التى خرج من بطنها كل ما اعتز به الإيطاليون ، والتى لا يجدون بدونها سلاماً وطمأنينة . وكان ضياعها صدعاً لا رأب له .

* * *

وخرج الإمبراطور شارل الخامس من القتال وكأنه المنتصر الأوحد، وخمد صوت المعركة ، وهبط مثار النقع . وفرض الإمبراطور على إيطاليا شروط صلح إسبانية . واستسلم الإيطاليون لما نزل بهم ، فما كانوا ليستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ضده ، وكان بمنأى عنهم ، فلا يمكن أن يدس أحد له السم ، أو يدبر له مؤامرة ، أو يخدعه ، أو ينصب له شركاً ، كما لم يكن فى المقدور تكوين عصبة من الدول الأجنبية لمحاربته ، لأنه كان أقوى من كل من حوله ، وكان له أعظم أسطول وأكبر جيش ، وحلفاء أكثر من أى ملك غيره ، وكان لديه من الثروة ما لم يكن له مثيل ، ومن الممتلكات الشاسعة فيما وراء البحار ما لم تنتظمه خريطة حتى ذاك الزمان . وعرف الناس جميعاً أن الشمس لم تكن تغرب عن إمبراطوريته قط ، وانتخب كذلك فى عام ١٥٣٠ إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

وارتضى شارل الخامس ، كرماً منه ولطفاً ، أن يتوّجه البابا بيديه ، فى نفس

الوقت ، إمبراطوراً وملكاً على إيطاليا . وكان تاج ملك إيطاليا الذهبي ، الذى يسمى « التاج الحديدى » ، حيث قيل إن به أحد مسامير الصلب التى دقت فى صليب المسيح ، وهو من الآثار العتيقة (ويحتمل أن يكون تاج قسطنطين) نقول إن هذا التاج كان محفوظاً فى كاتدرائية مونزا Duomo di Monza بالقرب من ميلان ، حيث تركته تيودولندا Teodolinda ملكة اللونجوبارد أى اللمبارديين (لا يزال هناك) ، وندر أن استعمل ، بل إنه لم ينقل من مونزا ، وكان تاج الإمبراطورية محفوظاً فى كنيسة القديس بطرس فى روما ، وكان الأباطرة السابقون (وأولهم شارلمان سنة ٨٠٠) يتوجون هناك أو فى كنيسة سانت جون لا تيران . ولكن شارل لم يضيع الوقت للتوقف فى مونزا ثم يشخص منها إلى روما ، وقال فى استهزاء إنه لم يتعود الجرى وراء التيجان ، ولكن التيجان هى التى تسعى إليه . وأصدر أوامره بأن يؤتى له بالتاجين فى بولونيا التى كانت فى منتصف الطريق بين روما ومونزا ، وأن يقابله البابا كليمنت السابع هناك . وارتضى البابا ذلك فى خنوع . وفى يوليو عام ١٥٢٩ أمر الإمبراطور أمير البحر أندريا دوريا أن يقابله فى برشلونة ، وعبر البحر المتوسط فى رحلة شاقة استغرقت ١٤ يوماً ، وحط رحاله فى جنوة ومنها تقدم نحو بولونيا .

وكان لقاء البابا والإمبراطور واحداً من الأحداث الختامية فى التاريخ الإيطالى ، فقد دعم بالأبهة والمهرجانات سيطرة الكنيسة ، وسيطرة إسبانيا العملية على جزء كبير من أوربا ، وختم هذا الاحتفال عصراً عجيباً من الإشراق العقلى الذى لا يبارى ، والعناء الشديد فى إيطاليا ، وافتتح حقبة جديدة امتدت أكثر من ثلاثة قرون من الخضوع للحكم الأجنبي ، يمكن أن يقال إنه فى أثنائها لم يكن هناك تاريخ لإيطاليا خاص بها .

وأعدت الترتيبات الضخمة فى بولونيا . وبطبيعة الحال لم يكن ثمة أموال بعد أحداث السنين السابقة ، وعلت الناس الكآبة وبدت على وجوههم روح العداء . ولحظ البابا حين دخل المدينة أن أحداً من الأهالى لم يستجب لهتافات أتباعه : « يحيا البابا كليمنت ! » واتشح البابا وحاشيته بملابس الحداد ، وكانوا ، بعد نهب روما ، قد أقسموا ألا يحلقوا شعورهم وأن يرسلوا لحاهم ، تذكاراً لما عانوا من قبل ؛ على أن بلدية المدينة ونبلاءها سعوا معاً بطريقة ما إلى جمع مبلغ من المال حتى يحتفوا بالإمبراطور احتفالا جديراً بالذكر ، وقدم ضيوف لامعون من كل مكان . وشهد الحفل كل أمراء إيطاليا العظام . وكان يحف بالبابا مشاهير الكرادلة وكبار الأساقفة من موظفى حكومة البابا ومن الأبرشيات ، وكان يسير فى ركاب الإمبراطور فى كل مكان فوج من رجال البلاط من إسبانيا وإيطاليا وألمانيا ، وسفراء من إنجلترا وفرنسا واسكتلندا ، والمجر وبوهيميا والبرتغال .

وفتحت فيرونيكا جامبارا أبواب قصرها لكثير من رجال الأدب ، فكان هناك الشعراء بمبو ، ومورو ، وموليزا يتجاذبون الحديث مع برنى السريع البديهة ، وفيدا العالم ، وترسينو الجليل، وماركنطو نيو فلامينيو . كما كان من بين الحاضرين جوفيو وجويتشارديني . وكل ما تبقى من عظمة إيطاليا فى عصر النهضة ، وذكائها وأنماطها بعد اجتياح روما ، ودمار أغنى مدنها ، والحروب المستمرة التى دامت خمساً وثلاثين سنة ، كل أولئك تقوقع فى بريق الغروب ، بريق المهرجانات والألعاب ، والأحاديث والولائم وحفلات الرقص .

ورسم فرانشيسكو ماتزولا F. Mazzola المسمى إل بارمجانينو Il Parmigianino لوحة لشارل يحيط به . فام Fame الذى يتوج جبهته ، فى حين يناوله الطفل هركيوليز Hercules الكرة الأرضية . كذلك أحرز الرسام تتيان Titian شرف

رسم الإمبراطور فى أوضاع مختلفة ، ولقد فقدت لوحته التى صور فيها الإمبراطور بالحجم الطبيعى فى كامل عدته الحربية ممتطياً جواداً أشهب ، وبقى غيرها من الصور ، وسر شارل بالرسام تتيان إلى درجة أن الإمبراطور التقط بنفسه من الأرض فرشاة كانت قد سقطت منه ، وجعله فارساً وعينه رساماً للإمبراطور نظير راتب ثابت .

ولحظ الناس أن شارل وبطانته فى تجولهم فى شوارع بولونيا ارتدوا دائماً الزى الإسبانى . فبينما ارتدى الإيطاليون الملابس ذات الألوان الزاهية السائدة إذ ذاك ، من الحرير والمقصبات والمخرمات والقطيفة والصوف ، ذات اللون الأحمر والأخضر والأصفر والقرنفلى والأزرق ، ارتدى الإسبان حللا سوداء وجوارب سوداء وأحذية سوداء طويلة وقصيرة ، وقلنسوات من القطيفة السوداء مزدانة بريش أسود . وكانت الأزرار المتخذة من الجواهر واللآلىء تخفف من حدة قتامة الملابس وكآبتها ، كما كانت السلسلة والحمل المتدلى من وسام الجزة الذهبية تخففان من قتامة صدر شارل ، وكان الإسبان شاحبى الوجوه لا يبتسمون أبداً ، ورئى شارل مرة واحدة يبتسم لسيدة ألقت عليه زهرة من شرفة .

وما كان ينبغى لنا أن نذكر مثل هذه التفاصيل الطفيفة لولا أن الإيطاليين ، كما فعلوا دوماً ، نبذوا بسرعة ملابسهم المتنوعة الزاهية ، واقتبسوا زى الفاتحين ، اللون الأسود الجنائزى الذى كان يرتديه الإسبان ، وكأنى بالبلد بأسره قد لبس الحداد حزناً على استعباد الطغاة الأجانب له ، وفقدان حريته . إن وجوه الناس فى الجيل التالى كما نراها فى صورهم ، ليرتسم عليها تعبير عن الأسى والقنوط والجزع ، يتلاءم مع ملابسهم السوداء .

وقد لحظ أحد الشعراء هذا التغيير فنظم قصيدة قال فيها :

« إن الملابس السوداء تتفق مع عصرنا . إنها كانت يوماً بيضاء .
ثم تعددت ألوانها ، والآن هى قاتمة مثل أهل إفريقية .
هو عصر مظلم كظلام الليل ، لعين ، غادر ، يسوده الغموض ،
مقيت اتسم بالجهل ، مريض ساده الفزع .
إننا نشعر بالعار فننأى عن الألوان الزاهية .
إننا نندب حظنا — لأننا نعانى من الطغاة .
ومن الأغلال ، والمشانق والرصاص والأشراك —
إننا نتفجع على أبطالنا المنكودى الطالع ،
وعلى أنفسنا التى افتقدناها فى جنح الليل » .

* * *

وليس بنا من حاجة إلى تذكير القارئ بأن اللون الأسود كان اللون الرسمى فى ظل الفاشية ، وكان موسولينى يتشح بالسواد من قمة الرأس إلى أخمص القدم . كذلك كان وزراؤه .

الفصل السادس عشر

الباروك الخالد

إن ماحدث لإيطاليا هو ماحدث للقواعد من النساء اللاتى اشتهرن يوما بالجمال ، وكما يتخلى هؤلاء ، على مضض ، وغروب شمس حياتهن ، عن الإيماءات وتصفيفات الشعر ، والملح الطريفة والأزياء الحديثة ، فإن إيطاليا لاتزال تتشبث بالسلوك والعادات والمثل التى سادت فى القرنين من الزمان اللذين أعقبا تتويج شارل الخامس ؛ ولابد ألا يغيب هذا عن ذهن كل من يحاول أن يتفهم شيئا عن هذا البلد المربك : الأحداث السابقة ، التطورات الجارية ، الحركات الفنية ، التطورات السياسية ، أوكل من يريد أن يمد بصره إلى سماء المستقبل الملبدة بالغيوم ، كما يجب ألا ينخدع (لأن كثيراً من الأشياء فى إيطاليا خداعة للبصر) ، إنه يجب أن يندس إلى الأعماق . ولسوف يكتشف عندئذ أن واقع إيطاليا هو بصفة عامة واقع الباروك BAROQUE .

والباروك اصطلاح غامض . ويعتقد بعض الباحثين (ومن بينهم بنديتوكروتشى Benedetto Croce أن اللفظة جاءت من كلمة منحوتة (ب ، ا ، ر ، و ، ك) ابتدعها علماء العصور الوسطى لتعليم التلاميذ الأغبياء صيغة معقدة بصفة خاصة ، من صيغ التعليل المنطقى ، وهى على وجه الدقة ، الطريقة الرابعة من الشكل الثانى من أشكال القياس المنطقى . ويذهب آخرون إلى أنها الاسم التجارى القديم لإحدى اللآلىء الضخمة الغريبة الشكل المعروفة حتى اليوم فى إيطاليا باسم « لؤلؤة البار وك

Perle Barocche » . وليس بين الفرضين تناقض ، فقد حدث أن استعمل هذا الاصطلاح بطريقة ما ، استعمالا مجازيًّا ، لوصف أى شيء معقد عقيم ، متقلب وشاذ أشبه بالأقيسة المنطقية النادرة الاستعمال ، أو اللؤلؤة ذات النتوء غير المنتظم : النظريات الملتوية ، الشعر الموجز المسرف التنميق ، أو العمارة المزوقة على نحو مفرط . وبعد ذلك استخدم هذا الاصطلاح لتحديد فترة بأسرها من فترات التاريخ : عصر الباروك ، الذى اعتنق فيه رجال الباروك أفكاراً باروكية ، وعاشوا حياة باروكية ، محوطين بفن الباروك ، وثمة أكثر من وجه شبه عرضى بين ذاك العصر وبين عصرنا نحن .

وبظهور عصر الباروك أصبح كثير من الأشياء التى كانت رخوة تلقائية هيّنة عشوائية من قبل ، نقول أصبحت صارمة متماثلة مجردة من الروح الإنسانية بعض الشيء فى أوربا بأسرها . ودمّر كل الحكام المستبدين منافسيهم ، وحكموا فعلا دون معارضة ، وانضم الملوك العظام إلى أحلاف واسعة النطاق ، ولكنها لاتثبت على حال ، وهى لعبة أسرية وئيدة الخطى أشبه بالكراسى الموسيقية . وتركت الولايات والجمهوريات الصغيرة دون مسئولية حقيقية أو استقلال . وسلبت شخصياتها ، وباتت توابع عاجزة كارهة مغيظة محنقة ،وقل خطر الحروب الصغيرة ولكن بقى الخوف من الصراعات الهائلة التى تجتاح العالم آنذاك . وطوّر تركيز السلطة بأدوات الحكم القدير الفعال . وسنت القوانين وفرضت ، وقويت البيروقراطية وتكاثرت بسرعة ، بسجلاتها واستماراتها التى يجب ملؤها ، وطقوسها وسلطة معاقبة كل من لا يدين لها بالخضوع . وتقلصت وانكمشت الحريات البسيطة التى ثبتت بالممارسة ، وامتيازات الشخصيات الكبيرة والنقابات والمدن والجامعات ورجال الدين والمهن ، أو أى فرد كره أن يساق سوقاً ، حتى لم يبق من هذه الامتيازات وتلك الحريات إلا جزء

ضئيل منها ، والواقع أن الفرد بات وحيداً أمام إرادة حاكمه أو مليكه .

أما الأنشطة الاقتصادية التى لم تكن يوما محظورة فقد خضعت لرقابة صارمة ، واحتكر الملك المنتجات الرئيسية التى لايمكن الاستغناء عنها ، وصار له وحده أن يصدرها أو يستوردها . وفرضت الضرائب الباهظة بشكل لم يسبق له مثيل ، من أجل الإنفاق على الجيوش والأداة الحكومية الواسعة النطاق . وشكلت الهيئات الهرمية ذات المراتب المتسلسلة فى كل المجالات . ولم تعد الجيوش مجموعات هاوية من الرجال الذين تم اختيارهم حيثما اتفق ، عاقدين العزم وهم سعداء على الإحراق والسلب والنهب والغصب ، بل تطلبت خططا وجداول تنظيمية وزياً موحداً ، وسلسلة دقيقة التحديد من الأوامر ، وحددت السلطات بشكل حاسم الهجاء الصحيح للكلمات ، وقواعد اللغة (الأجرومية) ، كما وضعت قواعد سلوك صارمة جامدة للتشريفات والحياة الخاصة . ولم تعد المدن هى النتاج التلقائى غير المحدد لحاجات الإنسان وأهوائه وأذواقه ، بل صممها وخططها مهندسو الملك الذى طالب بطرق مستقيمة واسعة وميادين كبيرة ، وأراد الملك بطبيعة الحال إظهار عظمة الباروك فى عاصمة هائلة منمقة ، إلى جانب توفير سهولة المرور لجنوده لقمع الفتن . إن الجمال نفسه وهو أكثر الصفات مراوغة وحيرة ، قد قنن ووضعت له أدق التفاصيل . ووضع للحياة الدينية نظام صارم . وانتهت المناقشات والثورات العنيفة التى قامت فى العصر السابق ، فى البلاد الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وفرضت الأخلاقيات ، وحددت التعاليم والمبادئ ، ووحدت الطقوس . ودافع المعسكران كلاهما دفاعا مجيداً عن الدين القويم ، واضطهد المفكرون الأحرار والهراطقة فى روما وفى جنيف على حد سواء . وحكم بالإعدام على عالم الطبيعة واللاهوت ميجول دى سرفيتس القطلانى Miguel de Servetus ، أصدر عليه

هذا الحكم جامعة السوربون والكلفنيون فى نفس الشهر .

وبدا أن المجتمع مكون من طبقتين رئيسيتين : السادة الكبار grands seigneurs وهم قلة يؤلفون الطبقة العليا ، أما فى أسفل السلم فتوجد الجموع الغفيرة المثيرة التى لا حول لها ولا قوة ، فى أسمالها البالية . واستمد السادة الكبار قوتهم من عطف الملك ومحاباته لهم ومن دخول أراضيهم ، وشجعوا على حياة الترف والبذخ فى ضياعهم أو فى البلاط ، وعلى ألا يشتغلوا بالتجارة والأعمال المصرفية والسياسة ، وعلى ألا يجروا وراء العلم والتعليم ، من ذلك أن الدوق كوزيمو الأول دى مديتشى — تجنبا للمتاعب — أجبر الأسرات الكبيرة المشتغلة بالتجارة والأعمال المصرفية فى فلورنسا على استثمار أموالهم فى ضياع البلاد وأراضيها ، وكافأهم بألقاب رنانة . وازداد السعى وراء الألقاب . ومن ثم لم يكن بد من أن يصبح النبلاء وقد تجردوا من مسئولياتهم متغطرسين حمقى أغبياء . وخيم الجهل على الأهالى وباتوا فقراء مؤمنين بالخرافات ، يقض مضاجعهم جباة الضرائب ، والسلطات الدينية والبيروقراطية والجنود . وقام الفقراء بين الحين والحين بثورات دامية ، ولكنها قصيرة الأمد لم يجنوا من ورائها شيئاً . وفى غمرة البؤس توفرت لهم أسباب السرور ، فى معظم الوقت ، بفضل الصدقات التى توزع عليهم ، ورخص أثمان الدقيق الذى يباع لهم ، والحفلات العامة الفخمة التى يشهدونها وبفضل هراوات رجال الشرطة. وكان المظهر فى المكان الأول من الأهمية . وهذا هو السبب فى أن عصر الباروك لا يزال متفوقا من حيث الجمال المثير الواضح فى المبانى العامة والكنائس والمتنزهات والمساكن والمدن ، ولم يكن من قبيل المصادفة أن كل كبار المهندسين المعماريين فى هذا الزمان هم أيضا مصممون مشهورون للمناظر والمشاهد . وكذلك عرضت الأحداث التاريخية ، عرضاً باهراً قدر الطاقة ، مثلها مثل الإنتاج المسرحى الذى أنفق عليه بسخاء .

وخلف هذه الفخامة والعظمة والصياح وقرع الطبول ورفرفة الأعلام وقصف المدافع ، وفى ظل النظام المعقول المعصوم من الخطأ ، والذى ساد العصر ، كمن شعور ثقيل بالعبث والضجر . ومن ثم لجأ الناس إلى كثير من ضروب التلهى والتسلية : التمرد الخفى على كل الأعراف السائدة . الصراعات السافرة أو المستترة من أجل الحرية أو بدائلها ، السعى وراء التعبير عن مواهب الإنسان المعطلة فيما قد يوجد من منفذ أو فرجة بين الميادين المحظورة . ورحل الناس إلى أقصى الأرض، وقاتلوا المتوحشين ، وأسسوا المستعمرات ، وأضمروا الأفكار السياسية الخطيرة ، وتطوعوا فى جيوش بلادهم أو غيرها من البلاد ، واعتنقوا مذاهب دينية جديدة ، وكلما كانت غير مألوفة ومضطهدة أكثر ، كانت فى نظرهم أفضل . وعاش آخرون خارجين على كل القوانين المعروفة : حياة ملؤها الفجور والعنف والتهتك والعشق والجريمة . وهذا هو الوجه الآخر من عصر الباروك ، وهو جانب الباروك الأكثر التصاقاً بحياة الباروك .

ولما ساد الباروك ومال الناس إليه فإن من المدهش أن إيطاليا لم تشعر بأى انزعاج من كونها بلداً مهزوماً متفككاً مظلوماً . فأقبلت على الباروك انتقاماً . وبدت ، آخر الأمر ، أكثر التصاقاً بالباروك من أى بلد ساد فيه الباروك فى أوربا . لقد وضعت الطراز ، وأقبل غيرها على تقليدها فى كل اكتشافاتها ووسائل ترفيهها وأساليبها وتصميماتها ، وأصبحت روما عاصمة الباروك فى العالم . ذلك لأن حياة الباروك انتفعت أكبر الانتفاع بكثير من المواهب والأذواق والميول الكامنة فى الناس . هذا بالإضافة إلى أن عناصر حياة الباروك — وهى الظلم والضجر والتمرد — كانت أقوى فى إيطاليا منها فى أى بلد سواها . وكان للتنظيم الصارم فى سائر البلاد مبررات نبيلة ، فالمفهوم أنه فرض للدفاع عن الوحدة والكرامة القومية

وإخضاع الجميع لهدف مشترك ولسيادة القانون ، على حين أنه — أى التنظيم الصارم — فى إيطاليا كان مفروضاً من الخارج ، من سلطتين عالميتين : إسبانيا والكنيسة ، لأسباب خارجية لمصلحتهما ولفائدتهما .

وكانت إسبانيا إمبراطورية ضخمة حكمت إيطاليا كواحدة من مستعمراتها الكثيرة عن طريق نواب للملك أو أمراء صغار تابعين . أما الكنيسة — بوصفها هيئة زمنية — فكانت ولاية إيطالية صغيرة ، من بين الولايات ، وربما أشد إفلاساً أوفساداً وسوء نظام ، يستبد بها قطاع الطرق أكثر من معظم الولايات الأخرى ، عاجزة عجزاً مهيناً ، مثل غيرها ، عن تنفيذ سياسة مستقلة خاصة بها . ولكنها كانت كذلك إمبراطورية روحية ضخمة موغلة فى كل قطر كاثوليكى ، توزع أجزاء القارة الأمريكية كما لو كانت ملكاً خاصاً لها ، تستمد قوة لا حدود لها من ولاء الأمراء الكاثوليك ومن إيمان جمهور الكاثوليك . وكان لصاحب الجلالة الكاثوليكية ملك إسبانيا المقام الأول بين الأمراء الكاثوليك ، كما كان شعب إسبانيا أكثر الشعوب إخلاصاً وتعصباً للكرسى البابوى المقدس . وكانت كلتا الإمبراطوريتين تدعم الواحدة منهما الأخرى . وحاولت كل منهما أن تستخدم الأخرى كى تعوض عن ضعفها ، فاستغلت الكنيسة الجنود الإسبان لفرض مراسيمها وأوامرها ولحماية الوحدة الكاثوليكية ، واستغلت إسبانيا نفوذ الكنيسة الروحى لتضمن طاعة الناس وسهولة انقيادهم ، وتنازع الفريقان طول الوقت على السيادة كما يفعل كل الحلفاء الأفاضل . وكان للكنيسة الفوز ، آخر الأمر ، كما هو حالها دائماً .

ويمكن مقارنة الفرق بين الباروك فى إيطاليا والباروك فى غيرها من البلاد ، بالفرق بين الشيوعية فى الجمهوريات التابعة ، والتى فرضتها الجيوش الأجنبية

آلياً بعد الهزيمة ، والشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، التى هى نتاج العبقرية الروسية المعذبة ، ونتاج حب الروس العميق لبلدهم المنكود ، ورثائهم الدائم لأحوالهم . وكانت الأشكال الخارجية لعصر (الباروك) أكثر تأكيداً فى إيطاليا ، وكانت التصريحات بالإيمان قوية على نحو غير ضرورى . وكان هناك فى الوقت نفسه ، ما يشعر بشكل غامض ، بالحطة والاحتقار فى الامتثال لإرادة السلطات المحلية ، كما هو الحال الآن فى أى بلد شرقى فى أوربا ، فكان التمرد الخفى والأعمال التخريبية والعصيان والفوضى والخروج على القانون ، تعتبر كلها أعمالا جديرة بالتقدير لائقة بالرجال . وكان محرماً على الإيطاليين ، مثل غيرهم من الشعوب المظلومة ، أن يفكروا ويتصرفوا ويعملوا ويقاتلوا من أجل أنفسهم . ووضع الأجانب وخدامهم المخلصون والمتعاونون معهم أيديهم على كل الأعمال ذات المسئولية وترك للمواطنين العاديين الحرف الحقيرة التافهة والعمل الهزيل الذليل ، أو السعى وراء العظمة الشخصية .

وازداد الموقف قابلية للتفجر على مر الأعوام . ولم يجد الإيطاليون —وقد اشتهروا شهرة سيئة بأنهم أشد الناس ضجراً وأصعبهم مراساً وأحدهم ذكاء فى أوربا —لم يجدوا أمامهم إلا قليلا من المجالات الضيقة الثانوية يهيئون فيها متنفساً لطاقاتهم . وكان الحكام وهم نواب الملك الإسبانيون وصغار الأمراء أشد جشعاً وغباء وجهلا من معظم الحكام الآخرين، ولكنهم كانوا أيضاً أقل أمناً وأشد فزعاً . ولم يكن السكان فى أى مكان آخر — عن عمد — أشد جوعاً وأمية ، وقد انتشرت بينهم الخرافات. ولم ينعم الناس فى أى مكان آخر بمثل المشاهد المسرفة ، ولم يثر أنظارهم مثل هذه العمارة الباذخة . وفى الوقت نفسه لم يكن هناك فى أى مكان آخر ، مثل هذا العدد الكبير من الناس الذين أضناهم الشعور بالخيبة والعبث ، والذين هم أشد

شوقاً إلى الانتقام من ظالميهم ، وأشد تحرقاً ، بشكل يائس ، على اكتشاف طرق غير مألوفة للفرار .

ولم يواجه الإيطاليون تحدى العالم الخارجى ، كما فعل اليابانيون ، مثلا ، عندما جاء دورهم فى القرن التاسع عشر . لقد أدرك اليابانيون فى يسر أن مدنيتهم القديمة ليست إلا ستاراً مزخرفاً من الورق ، وأنها أرق وأهش من أن تقيهم عاديات الدهر ، فذهبوا إلى معاهد التعليم ، ودربوا أنفسهم على كل المهارات الغربية ، وقلدوا الأساليب الغربية ، واقتبسوا الزى الغربى ، وطرق العمل والقوانين وسبل الحياة الغربية . وأتقنوا كل ذلك حتى بزّوا الغرب فيه . أما الإيطاليون فكانوا على النقيض من ذلك . فبلغ بهم الزهو حداً لم يسلموا معه بأنهم يجدر بهم أن يتعلموا من غيرهم . . . وماذا عسى أن يعلمهم هؤلاء المتبربرون ، وهم الذين كانوا أساتذة العالم ؟ وبطبيعة الحال كان هؤلاء المتبربرون قد أحرزوا المجد الحربى والتفوق السياسى على الإيطاليين . ولكن ما مبلغ أو قيمة هذه المزايا القصيرة الأجل إذا قورنت بانتصارات الإيطاليين التى تحدت الزمن فى ميادين الفنون والعلوم ؟ وما عساها تكون تلك الكيانات السياسية السريعة الزوال التى أقامها الأجانب إذا قورنت بأعظم ازدهار للعبقرية السياسية الإيطالية ، نتيجة التعاون المخلص مع الرب ، والكنيسة الرومانية الكاثوليكية المقدسة ، التى كتب لها الخلود بإرادة الله ؟ لقد استمر الإيطاليون يغرسون الفضائل التى جعلت منهم ، فى أعينهم هم ، شعباً لا يقهر ، ولكنها جعلتهم ، فى الوقت نفسه لقمة سائغة وفريسة سهلة المنال للأجانب .

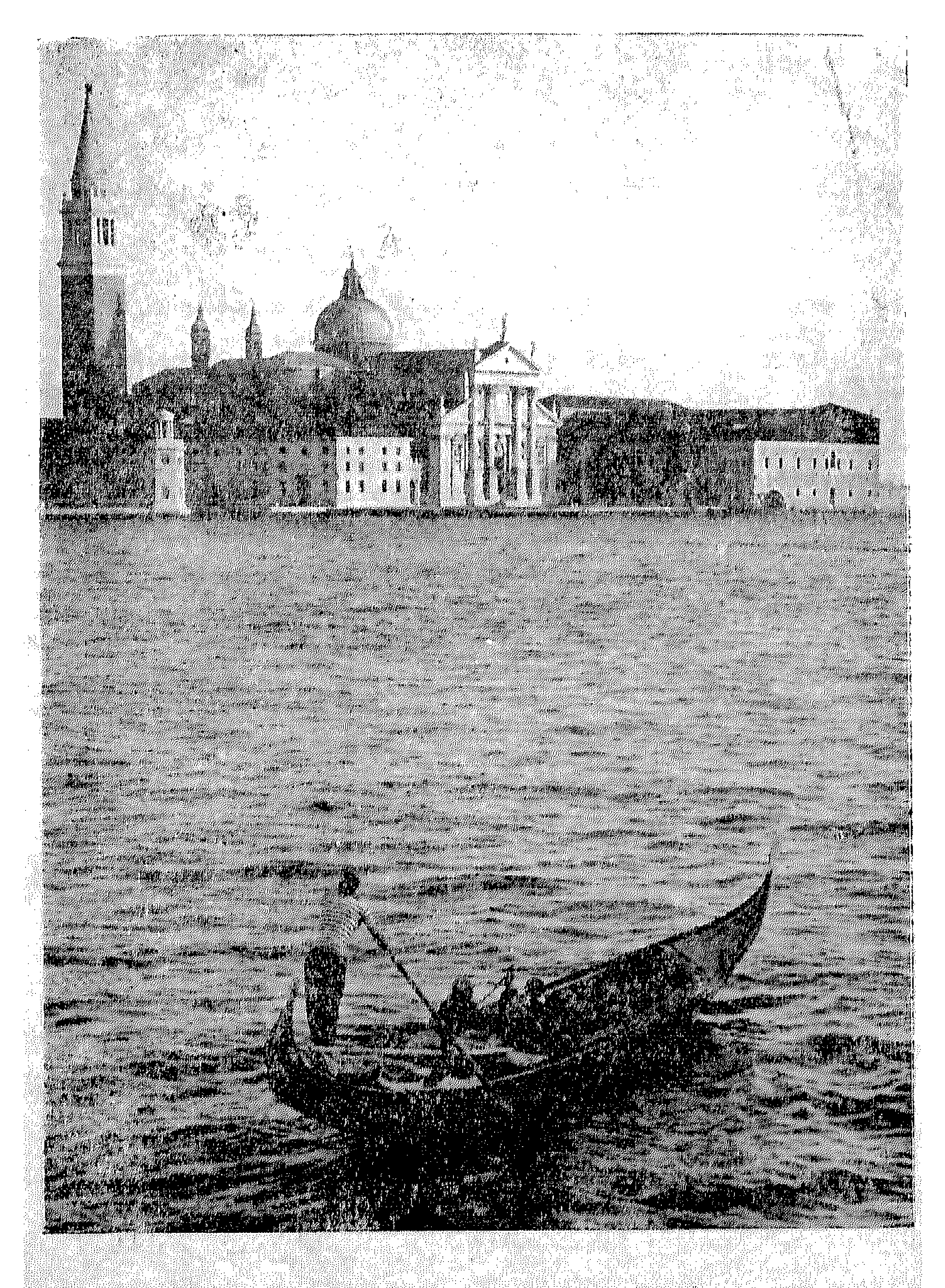
وانكب كثير من الإيطاليين القادرين على المهمة الملحة ، مهمة تدعيم الكنيسة والدفاع عنها . وكان بعضهم من رجال الدين الذين كانت الكنيسة فى حاجة

ماسة إليهم آنذاك ، قديسون مثل شارل بوروميو ، وروبرتو بلارمين . وكان كل البابوات العظام فى تلك الحقبة من الإيطاليين (وكان بعضهم من أعظم البابوات على مر العصور) كذلك كان معظم الكرادلة وعلماء اللاهوت والكتاب والعلماء والوعاظ والمعلمين وزعماء الهيئات والطوائف الدينية ، الذين أقاموا ، عملياً ، فى ظرف عشرات قليلة من السنين ، صرح كنيسة كاثوليكية جديدة كل الجدة . وكان هؤلاء الرجال حقاً يخدمون الرب ، ولكن فى الوقت نفسه يخدمون إيطاليا ، أو ما كان ، فوق كل شيء ، أعظم نظام أو صرح إيطالى ، بقى بعد النكبة ، وهو الوحيد الذى ظل قادراً على إرهاب الأجانب المسيطرين . ولم يكن هذا بالشيء الجديد بطبيعة الحال ، فقد كانت الكنيسة منذ بداية العصور الوسطى ، ملتقى تجمع الإيطاليين ضد تهديد سلطان الإمبراطورية . حتى إذا ما صارت مدينة ما على حافة الهزيمة على يد جيش معتد ، يهدد بتدمير حريتها وسلب ثروتها، اتجه الناس إلى أسقفهم ، ونصبوه على رأس حكومتهم ، لهذه الفترة ، وأرسلوه ليبدأ المفاوضة مع العدو ، بغية الحصول على شروط أكثر ملاءمة واحتمالا . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية ، فعل الإيطاليون ذلك بسليقتهم واتجهوا إلى الكنيسة . فقد كانت الهزيمة قد لحقت بهم ، وفتحت بلادهم ، وانهارت دولتهم القومية ، وانتشر المرض والجوع ، وبدا أن ثورة دموية على الأبواب . ومن الواضح أن روما البابا ، استخدمت ببراعة ، فى كل العصور ، نفوذاً عالمياً بلا حدود يفوق نفوذها .

ومضى إيطاليون معاصرون آخرون فى العمل فى الميادين التى كان لهم فيها يوماً قصب السبق على كل منافسيهم ، وهى الفنون والعلوم . فبعد نهب روما وتتويج شارل الخامس فى بولونيا، رسم ميكلأنجلو « يوم القيامة » على سقف مصلى

سستين Sistine Chapel ، كما صمم قبة كنيسة القديس بطرس ، وصب تشليني تمثال Perseus فى كنيسة لوجا دى لانزى فى فلورنسا ، وبنى المعمارى بلاديو كنيسة سان جورجو فى فينتسيا ، وأنجز تتيان بعض أعظم روائعه ، وصمم سانسوفينو بعضاً من أشهر مبانيه ، ومهما يكن من شىء ، فإنه كان فى أعمالهم شىء ميزها عن الأعمال التى أخرجوها هم أنفسهم قبل ذلك ببضع سنين ، ألا وهو الركون اللطيف إلى الأشكال الخيالية الغريبة ، وربما زيادة فى المهارة الفنية ، أو مبالغة مشوهة ، أو لون جديد من المهارة bravura . وعندما قضى عمالقة عصر غابر نحبهم ، واصل عملهم رجال جدد ، أمثالهم تقريباً ، وكان منهم سلسلة لا نهاية لها . فولد تنتورتو فى عام ١٥١٨ ، وباولو فيرونيزى فى عام ١٥٢٨ ، وكارافاجو فى عام ١٥٧٣ ، وجيدورينى الذى اعتقد أجدادنا أنه كان أعظم رسامى إيطاليا ، فأطلقوا عليه « جيدو الملهم » فى عام ١٥٧٥ . وجاءت إلى روما من بولونيا فى عام ١٥٩٥ أسرة كاراتشى ، وهم فريق الرسامين الانتقائيين. وجاء بعدهم بيترو دا كورتونا ، وإل جويرشينو ، وسلفاتور روزا ، ومانياسكو ، وهم رهط من الفنانين النشيطين المجدين المتعددى الجوانب المبدعين بشكل مذهل . ولم يعودوا الفنانين الأتقياء ذوى الرزانة فى فترة سابقة . وكان بمعظمهم لوثة خفيفة ، فهاموا ، على وجوههم منتعلين أحذية عالية ومهاميز ، ومتمنطقين بالسيوف والحراب ، مثلهم مثل المغامرين ، وكثيراً ما كان عليهم أن يفروا عدواً لينجوا بحياتهم بعد أن يكونوا قد قتلوا أحد الأفراد فى شجار

واشتد الطلب على النحاتين والمهندسين المعماريين . وقد بلغوا ذرى من البراعة والتفوق لم يشهد لها مثيل من قبل . وملأ رجال مثل برنينى ، وبوررو مينى وجوفارا وأتباعهم ، ملأوا روما بمثات من القصور و الكنائس ، ورصعوا جو المدينة



كنيسة سان جورجو — فينتسيا — من تصميم بلاديو

بقباب جديدة جريئة ، وبنوا قبة كنيسة القديس بطرس وبهو الأعمدة الذى أمامها وهيأوا لروما وجهها الذى هى عليه اليوم . وتجول كثيرون منهم فى إيطاليا، أو ساحوا فى الخارج من عاصمة إلى أخرى ، يشيدون القصور الملكية والكنائس والكاتدرائيات والحدائق ، ويخططون المدن ويصممون الشوارع والأشجار والساحات piazze والنافورات حتى وافاهم القدر . وبرز فى كل ما قاموا به الحب نفسه للمظهر المثير المفعم بالألوان والصور الذى أصبح على مر السنين مسرحياً أكثر فأكثر ، والاستخدام الجرئ نفسه الذى لم يسبق له مثيل للتقنية، أى طريقة معالجة التفاصيل الفنية ، والدقة والإتقان نفسهما فى كل صغيرة وكبيرة . ولم يكن من قبيل المصادفة أنهم خصصوا عبقريتهم ، كذلك بصفة أساسية ، للكنيسة وتمجيد انتصاراتها على الملحدين والهراطقة فى أعظم عرض إثارة وإشراقاً ، وهو مظهر للبراعة Virtuosismo لم يشهد له مثيل من قبل. وكان كثير من هؤلاء الفنانين متمسكين بأهداب الدين تمسكاً شديداً . ولقد تسلطت على ميكلأنجلو فكرة خلاص نفسه . ووطد كارلو دولشي العزم على ألا يصور من الموضوعات إلا ما قد يثير الحماس الديني . ولم يكن لوكا جوردانو يسافر إلى إسبانيا إلا بصحبة الكاهن الذى يعترف بين يديه . ووجد فنانون آخرون كل السلوى والعزاء فى خدمة الرب ، وفى خدمة إيطاليا ، إيطاليا البائسة المنكودة .

ولم يكن بد من أن يبتدع الإيطاليون الباروكيون أشكالا مسرحية بهرت أنظار العالم عدة قرون . وكان العصر عصر عرض وتظاهر وعواطف ، وكأن الحقيقة الوحيدة هى حقيقة الخيال . وصمم عباقرة الفنانين إعداد المسرح وترتيب أثاثه وستائره بما يتفق مع كل مشهد ، تصميما بالغ الروعة والفخامة ، وبنوا الأجهزة لإحداث ضروب من التأثير المسرحى تفوق الوصف ، مثل عواصف فى البحر ، وطوفان

الماء ، وطيران العصافير أو الملائكة ، وتغييرات فورية فى الديكور ، ومناظر غريبة تمتد فى ظاهر الأمر إلى ما لا نهاية . وبدأت جماعة الفنانين المتبرمين مسرحاً فى فلورنسا عام ١٥٧٥ ، أطلقوا عليه اسم «مسرح الفن Teatro dell' arte » . وقد ضافوا ذرعًا بتكرار الكلمات القديمة نفسها التى كتبها المؤلف ، ليلة بعد ليلة . فابتدعوا كلمات وحركات خاصة بهم كلما مضوا فى عملهم ، متبعين فى ذلك حبكة رقيقة . واستقدمتهم كاترين دى مديتشى إلى باريس يوم عرسها ، وأحرزوا على الفور نجاحًا هائلا ، وسرعان ما اقتحموا ، مع غيرهم من الفرق التى قلدتهم ، أوربا فى هجوم عاصف .

وضحك الناس فى كل مكان من مشاهير الشخصيات التنكرية أمثال : آرليكينو وبريجيلا الخادمين الماكرين ، ثم بانتالونى التاجر الغنى الذى أرهقته الضرائب وأقار به الجشعين ، ودكتور بالانزون المقلد الساخر لكل العلماء والأطباء ، وكابتن سبافنتا الجندى الجبان المزهوّ بنفسه . وذرف الناس دموعًا صادقة على العواطف المثيرة للشفقة التى أبدتها كولومبينا الخادمة الجميلة ، أو روزورا سيدتها الشابة التعيسة وعشاقها . وكان لمسرح الفن تأثيره على كل مسارح أوربا . وانتقلت كلمات مسرح الفن إلى كل اللغات الشائعة . فنى عام ١٥٨٨ أصبحت كلمة ZANY أى المهرّج لفظة إنجليزية ، وهى تعنى John بلغة البندقية ، وكانت ZANY من تحريف الفنان الممثل آرليكينو . وعندما يريد أحد الروس السوفييت أن يقول إن ما يعرضه عليك ليس تركيبيًا من الورق المقوى ، صنع لخداع الأجانب ، بل إنه شىء حقيقى ، فإنه يؤكد لك بشكل جدى أنه ليس « تروفاروب trovarobe » وهو لفظ يدل على الرجل الذى يستخدم « للإشراف والتفتيش » ، أى ليتأكد من أن مستلزمات التمثيل والإخراج موجودة على المسرح فى الوقت المناسب ،

ثم أصبح معناه المخرج أو مدير المسرح المسئول عن كل المناظر والصور الخادعة للبصر .

واشتهرت الموسيقى شهرة غير كريمة بأنها عزاء المظلومين والمنزعجين. إنها الفن الوحيد الذى يستطيع الإنسان فيه أن يشعر باطمئنان فى أوقات الخطر . وأدرك ذلك هنريخ هين Heinrich Heine ، فكتب فى مؤلفه Reisebilde عقب رحلته إلى إيطاليا سنة ١٨٢٨ يقول « إن الكلام محظور فى إيطاليا البائسة المستعبدة ، ولكنها تستطيع أن تصف بالموسيقى كل ما تعانى من كروب ، فيمكنها أن تودع فى الألحان كل المقت الذى تحس به نحو الظلم الأجنبى ، وتحمسها وشوقها إلى الحرية ، وكل الأسى على عجزها ، وتطلعها إلى عظمتها الغابرة ، وآمالها الحزينة وترقبها وانتظارها للعون » . واستطاع الإيطاليون قبل الباروك أن يجدوا فى الموسيقى ملاذاً لهم ، وكان عليهم ، على أية حال ، أن يبتدعوها . ولم يكن « بالسترينا » Palestrina هو الرجل الذى بدأ الموسيقى الإيطالية على طريق المجد فحسب ، بل كان كذلك الرجل الذى كان عليه أن ينقذ الوليد الجديد من الموت العاجل ، فلم يرق الغناء فى الكنائس لسلطات الكنيسة . ولم يكن من هذا مفر ، لأن معظم فرق المنشدين أنشدت الكلمات المقدسة فى ألحان بذيئة مستوردة من الخارج توحى بالحانة وصالة الرقص والماخور . وحملت القداسات أسماء الألحان الشعبية التى أسست عليها (القداسات) ، وهى أسماء أليق بالعطور المعاصرة منها بالألحان الدينية مثال ذلك : « فى ظل شجيرة » أو « قبلنى » . أو « وداعاً يا أحبائى » . وغالباً ما دوت الألفاظ الصريحة فى أغانى الحب والقصائد البذيئة فى أثناء الحفلات الدينية حيث كانت تطلق بأعلى صوت ، فى حين أنشد المنشد بصوت خفيض عميق « حمل الله حامل الخطايا » Agnus Dei أو « المبارك » Benedictus ، ولم يعد من الممكن احتمال هذا

العمل المخزى أكثر من ذلك ، فقرر مجلس الكنيسة فى دورته الثانية والعشرين فى ١٧ سبتمبر عام ١٥٦٢ ، «أن يستبعد من الكنائس مثل هذه الموسيقى التى تستخدم أى شىء بذىء أو داعر» وتساءل هل تستطيع الموسيقى أن توحى بشىء إلا بذيئاً أو داعراً ؟ وبناء على ذلك ألف البابا بيوس الرابع لجنة من ثمانية كرادلة لبحث هذه المسألة .

وعرف أن أربعة منهم وطدوا العزم على تحريم كل الموسيقى فى الكنائس ، وطلب إلى الموسيقى «جوفنى بيير لويجى» الشهير باسم بالسترينا نسبة إلى مسقط رأسه الخروج من هذه الورطة ، وأمروه بأن يؤلف شيئاً لم يظهر قط من قبل ، أى قداساً أصيلا بأسلوب كنسى وقور يوحى بأفكار دينية تماماً . فإذا أخفق ، كما ظن كل الناس (وقد أبلغه ذلك شخصياً الكاردينال بوروميو ابن أخى البابا) ، فلابد أن تحل كل الفرق الموسيقية فى الكنيسة البابوية ، وسائر المنظمات الموسيقية فى كل الكنائس الأخرى ، وتستبعد الموسيقى من الحفلات الدينية . وكان أمام بالسترينا مهمة ظاهرها البساطة ، ولكنها تكاد تكون مستحيلة . فكان عليه أن يبتدع شكلا جديداً من الفن ، أو أن يشهد بنفسه انهيار حياته وحياة كل زملائه . فألف اللحن المشهور الآن باسم «قداس البابا مارسيلس» ، واستمع إليه الكرادلة فهدأت نفوسهم واقتنعوا ، وأنقذت موسيقى الكنيسة إلى الأبد فى ثوبها الجديد . وفى الوقت نفسه تأسست الموسيقى الإيطالية . فماذا عساه أن يحدث لو كان بالسترينا قد أخفق ؟ إن المرء ليصاب بالدوار والذهول !

وفى الوقت نفسه تقريباً التقى بانتظام مجمع من العلماء والهواة والفنانين فى قصر فرنيو Palazzo Vernio بفلورنسا ، بهدف أعلنوه ، وهو إحياء الإلقاء الموسيقى عند الإغريق . وكان الهدف بطبيعة الحال غامضاً خيالياً . فما من أحد يعرف كيف غنى

الإغريق ، ولم ينحدر إلينا شيء من الموسيقى الإغريقية ، ولم يكن لدى الهواة الفلورنسيين سوى شيء يسير من الحدس لإرشادهم فى هذا السبيل، هو اعتقادهم بأن القدامى كانوا يقرءون الشعر المسرحى بالترنيم والتنغيم . وكما ابتكر الكيميائيون القدامى الكيمياء الحديثة وهم يحاولون عبثاً العثور على حجر الفلاسفة ، فإن مجمع الأصدقاء فى قصر فرنيو Vernio اخترعوا شيئاً يختلف كل الاختلاف عما كانوا يبحثون عنه ، وهو « الأوبرا » ، فإن أحدهم ، وهو « كلوديو مونتفردى » طور الإلقاء فى موسيقى أوبراه « أورفير » Orfeo سنة ١٦٠٨ فكانت النبتة التى نمت منها كل أوبرا فى التاريخ ، ونجح على الفور ، الشكل المسرحى الجديد ، مزداناً بكل الحيل والمناظر والتأثيرات المسرحية وملابس العصر .

ومهما يكن من أمر فقد كان وراء هذا كله ، وراء هذه الفخامة وهذا الإبداع والحذق ، شعور مفجع باليأس، وخيبة روحية بالغة إلى حد أنها معوقة . فإن وراء الفن الدينى ، على سبيل المثال ، ووراء الضخامة والفخامة فى واجهات المبانى الكنسية ، والبراعة Virtuosismo التى لا تكاد تصدق فى الهندسة ، والإثارة التى تهز المشاعر فى الزخارف ، والتوكيد المبالغ فيه فى التفصيل ، والإيماءات المذهلة فى التماثيل ، ورفرفة العباءات الحجرية وسط الأعاصير الدائمة . والأحاسيس بالغضب على وجوه القديسين فى صورهم ، نقول وراء هذا كله لم يكن ثمة شعور دينى خالص يمكن أن يلحظ ، ولكن كان هناك شيء آخر ، هو الانهماك الحزين بالإعلان ، إعلان لا يتطرق إليه الشك ، عن انتصار الكنيسة على كل أعدائها ، وبإقناع العالم بأسره بسيادتها التى لا تقهر . ووراء معظم النثر المنمق البليغ الواسع المعرفة ، فى ذاك العصر ، لم يكن ثمة إلا القليل من الصدق ، ولم يكن له فى الواقع أى معنى . ولا يقرؤه إلا المتخصصون فى أيامنا هذه .

وابتدع الشعر أوزانًا جديدة ، وطرقًا جديدة لاستخدام الألفاظ ، ومجازات جديدة عجيبة ، فسلى القارىء وداهنه ولاطفه وتملقه ، وأثار المسرات الداعرة البغيضة ، وهذا يذكرنا بتلك الآلات الضخمة التى صنعت حوالى هذه الفترة ، أعنى الأقفاص الفسيحة المملوءة بطيور مرقشة ترقيشًا عجيبًا ، تحرك أجنحتها وتغرد تغريداً رخيمًا ، وهى تبدو حية ، على حين أنها ليست إلا نتاج القدرة على الإبداع لدى الإنسان ، ولكنها قدرة تعوزها العاطفة . إنها أشياء تكرر نفسها تكراراً لا نهاية له .

ولم يكن فى الحقيقة ثمة شىء يعمل لذاته وحده ، ولكنه يعمل أساسًا من أجل الأثر الذى يمكن أن يحدثه . ولمدة قرنين أو أكثر من الزمان انصرف عدد كبير من العباقرة بمواهبهم الهائلة إلى حد لا يصدق ، إلى الإيمان القوى بأن المظهر هو أحسن بديل عن الواقع . فملأوا الدنيا بالروائع حتى يجدوا تعويضًا عن انعدام الأمن والفراغ والفوضى والعجز واليأس من حياتهم القومية ، وينسوا إذلالهم وخزيهم ، ويغفلوا خطيئتهم الجماعية . وكان هذا سعياً مسعوراً وراء شىء من العزاء ، ثم الانتقام من الشياطين الأجانب الجفاة المتغطرسين . ولم ينجح الإيطاليون آخر الأمر ، قط فى تثبيت طراز عظمتهم الخاص بهم . وكانوا دائمًا مثار السخرية ، وظن أن كل منجزاتهم مريبة من مستوى ردىء ، وكأنما كانت تعوزهم صفات الرجولة . يقول كروتشى : « فقد الإيطاليون ما كان لهم من سمعة طيبة فى جدية إنتاجهم العقلى ، وأضفت عليهم مواهبهم لقب الممثلين الممتازين ، والمغنين والملحنين والمزخرفين وناظمى الشعر ، وكيل لهم المديح لأنهم « شعب الفنانين » Popolo d'artisti ، وأصابهم الازدراء والاحتقار فى بعض الأحيان على أنهم دجالون مهرجون » .

* * *

ولم يستسلم بعض الإيطاليين للعجز والوهن . وربما كان هؤلاء أكثر مما يتصور المرء . فقد اكره هؤلاء الرجال القدامى أن يُستضافوا وأن يتحول انتباههم أو تنبهر أنظارهم أو يستفيدوا، كما استاءوا من أن يبقوا فى دياجير الجهل ، وأن يخدعوا و يستغلوا . وكان بغيضاً إلى نفوسهم أن يرغموا على الاعتماد على فن العيش (وهو عمل سيء محوط بالألغاز لا يعدو أن يكون فن كسب الحظوة لدى السادة الحمق الجحودين المتقلبين) لمجرد الحصول على ما يقيم الأود . وقد تقع العين عرضاً على هؤلاء الناس وما هم فيه من تعاسة . وإليك ما سطره ، وقلبه ينفطر أسى ، كاتب جاد ، هو باتستا جوارينى ، إلى صديق له ، بعد تعيينه شاعراً فى بلاط فيرارا : « سعيت جاهداً أن أحول نفسى إلى رجل آخر ، وأن أنتحل — كما يفعل ممثلو الروايات — شخصية وآداب وأحاسيس عهد سابق ، وكانت قد تقدمت بى السنون ، واضطررت أن أظهر بمظهر الشاب اليافع ، فاستبدلت باكتئابى مرحاً ، وتظاهرت بحب لم أشعر به ، وحولت حكمتى وتعقلى إلى حمق وطيش ، وجملة القول أنى انتقلت من فيلسوف إلى شاعر » . ويقول كروتشى « إنه من يطلع على وثائق هذا العصر لا يرى فيها على الدوام الصفاء والبهجة . وقد يجد المرء ما يغريه بالتوكيد على أن الضحك قد ضاع ، أعنى الضحك الخالص الصادر من القلب ، فاصطنعه الناس عن طريق الشعر الساخر والأخيلة التقليدية والقصائد البطولية الهزلية واللعب بالألفاظ أكثر منه بالتعبير التلقائى عن الفرح » .

واستشعر الإيطاليون المزهوون الخزى والعار من أنهم غير محكومين بواسطة القوانين ، وهى الفيصل فى حياتهم القومية والمتحكمة فى أقدارهم ، ومن الهوان فى حالة الذل والخنوع التى يعانيها الناس من حولهم . ويقول كروتشى : « إن

إيطاليا التى أنجبت الحواريين والقديسين فى القرون الأولى . وربما أنجبت المزيد منهم فيما بعد، فى عصر البعث، لم تنجب أحداً فى عصر الباروك، لأن مثل هؤلاء الرجال لا يستطيعون العيش عندما يخيم الهدوء الخامل والاستسلام ، على الروح » .
وربما لم يكن هناك حواريون وقديسون كثيرون ، ولكن كان هناك كثير ممن عانوا من عدم وجود أحد منهم ، وممن وجدوا أن انعدام الهدف وفراغ الحياة أمر لا يطاق . وهاجر الكثيرون ، ولو لم يكن لإيطاليا تاريخ خاص بها ، فقد حاول بعض الإيطاليين فرادى أن يصبحوا شخصيات تاريخية . فأصبح بعضهم دبلوماسيين أو رجال دولة لدى الملوك الأجانب ، مثل الكاردينال مازاران . وخدم بعضهم فى جيوش البلاد الأخرى ، وأشرف المهندسون الإيطاليون على الأعمال الهندسية فى حصار أنتورب وفى حصار لاروشيل . وصار الساندرو فارنيزى واحداً من كبار القواد فى جيش فيليب الثانى ملك إسبانيا ، وقاد الجيوش فى الأراضى المنخفضة وفى فرنسا . ودافع جبرييل سربلونى ، وهو من ميلان ، عن مالطة ضد الأتراك ، وأصبح قائداً إسبانياً فى الأراضى المنخفضة مع دوق ألبا Alba وحارب فى ليبنتو ، على السفينة ١٦٦ المساة « لادونزلا » ، فى أقصى اليسار ، بوصفه قائداً عاماً لمدفعية المسيحيين ، ضد الأتراك . وتولى ريمندو مونتشكولى ، من مودينا ، إمرة الجيوش الإمبراطورية ضد تورن Turenne فى معركة سسباخ ، وكتب رسالة عن الفنون العسكرية (وكان يؤمن بالجيوش الصغيرة الحسنة التدريب القادرة على خفة الحركة وسرعتها) . واعتبر الإسبان أن مملكة نابلى معيناً لا ينضب للجنود والضباط . وقد حارب الآلاف منهم فى كل أنحاء أوربا والأمريكتين ، وأصبح كثيرون منهم قواداً إسبانيين ذوى شهرة واسعة .

وإن شدة حساسية هؤلاء الرجال لكل ما يمت بصلة إلى الشرف القومى ،

لتكشف عن أنهم كانوا يحاربون لشيء أكثر من مجرد الحصول على الراتب وجزء من الغنائم . فكانوا دومًا يتحدون الأجانب (والفرنسيين على الأغلب) الذين سخروا من بسالة الجنود الإيطاليين وإخلاصهم ، ولا تزال حية فى إيطاليا ذكرى هذه المعارك الكبيرة (التى انتصر فيها الإيطاليون عادة) ، ولزام على تلاميذ المدارس أن يدرسوها . ولقد نسيها الفرنسيون بطبيعة الحال . ووقعت أولى هذه المعارك المحزنة فى سنة ١٥٠٣ ، وتعرف باسم تحدّى بارلتا Disfeda de Barletta، وفيها انضم الفرسان الإيطاليون بقيادة بروسبير و كولونا إلى الإسبان بقيادة كنسالفو القرطبى ، ليقاتلوا الفرنسيين من أجل الاستيلاء على إقليم أبوليا . وأسر ضابط فرنسى اسمه لاموت ، وحمل إلى المعسكر الإسبانى . وفى أثناء تناول العشاء انتقص من قدر الإيطاليين ، ووصمهم بالجبن والخيانة ، وأضاف أنه مستعد مع حفنة من الفرنسيين أن يلاقى فريقًا من الإيطاليين مساويًا فى العدد ، فى أرض المعركة فى أية لحظة — والتحم ثلاثة عشر رجلا من كل من الفريقين ، فى مكان منعزل على شاطئ الأدرياتى بين بلدتى أندريا وكوراتو فى ١٣ فبراير ، وطوح الإيطاليون بكل أعدائهم من فوق جيادهم ، وأعلن فوزهم ، ولم يقتل أحد ، وأقيمت على مكان المعركة — أى فى بارلتا — لوحة تذكارية من الحجر بارتفاع عشرين قدمًا ، تخلد هذا الحادث بلغة لاتينية سامية . وقد حطمها جنود نابليون ذات ليلة فى سنة ١٨٠٥ ، وأقامها المواطنون المحليون من جديد ، فى زهو واعتزاز ، بعد هزيمته فى معركة ووترلو . ولا تزال هناك وسط الكروم ، لتذكر الإيطاليين بأنه مهما بدت الظروف حالكة السواد ، فإنهم لم يفقدوا كل شيء .

وثمة حدث شبيه بهذا التحدى وقع فى عام ١٦٣٦ فى سهول كريفاكور قرب نهر تسين Tessin فى شمال إيطاليا . وفى هذه المرة كان هناك فريقان من ثلاثين

رجلا ، وكان عليهم أن يقاتلوا حتى يقتل هذا الفريق أو ذاك عن آخره ،أو يصل إلى حد العجز عن القتال، وأخذ الإيطاليون زمام المبادرة ، ولما كانوا قاب قوسين أو أدنى من النصر ، انضم الجنود الفرنسيون الذين كانوا يرقبون القتال إلى إخوانهم ، وتفاديـًا لخطر معركة واسعة مهوشة ، أوقف الضباط من كلا الطرفين القتال . واعتذر القائد الفرنسى فيما بعد عن مسلك رجاله ، الذى يجافى الشهامة والفروسية . ولم يقم أى نصب تذكارى . ولعدة قرون ، وللأسباب نفسها قامت بين الإيطاليين فرادى ، وبين الأجانب مبارزات لا حصر لها . فى أوائل القرن التاسع عشر ، تحدى كارلو فيلانجرى Carlo Filangieri (من نابلى) أحد القواد الفرنسيين وقتله ، لأنه كان قد أساء إلى أهل نابلى . وفى ١٩ فبراير ١٨٢٦ ، فى فلورنسا ، تحدى القائد النابوليتانى المنفى — جابرييل بيب Gabriele Pepe — سكرتير المفوضية الفرنسية فى تسكانيا وهو الشاعر ألفونس دى لامارتين الذى كان قد أطلق على إيطاليا فى إحدى قصائده أنها « أرض الموتى » . وجرح لامارتين ، ولكنه عانق غريمه ، واعترف فى شهامة بأنه كان مخطئـًا . وأصبح بيب شخصية لامعة فى فلورنسا ، وأخيراً راح يكسب رزقه بإعطاء دروس فى الإيطالية للأجانب . وآخر من التحم فى مثل هذا الصدام النبيل هو فكتور إمانويل من آل سافوى — آوستا ، كونت تورين وهو ابن عم الملك فكتور إمانويل الثالث ، فقد تحدى أميراً فرنسيـًا ، هنرى دورليان ، وكان قد كتب من أثيوبيا عدة مقالات لصحيفة الفيجارو ، انتقص فيها من قدر جيش المستعمرات الإيطالى . ووقعت المبارزة فى فوكرسون قرب فرساى فى ١٥ أغسطس عام ١٨٩٧ ، وجرح هنرى دورليان جرحـًا طفيفـًا .

* * *

إن كثيراً من الكتاب المتفقهين ينسبون الانحراف الواضح فى الخلق القومى فى

عصر الباروك إلى تأثير الكنيسة وحده . قال « بنديتوكروشي » : « إن هؤلاء الإيطاليين الذين كانوا ، لفترة قصيرة من قبل أبناء ماكيافلي، ظن بهم اليوم أنهم تلاميذ . . القساوسة » . وضحك الفيلسوف النابوليتاني العجوز ، في خبث ، من هذا التناقض : كيف يتأتى هذا ؟ لقد كان ماكيافلي مشهوراً شهرة سيئة بأنه « عدو القساوسة » ، معاد لسياسة الفاتيكان ، مدبج النقد اللاذع لفساد الكنيسة . كيف أمكن أن يتغير الناس تغييراً جذرياً في مثل هذا الوقت القصير ؟ إن هذا لشيء سخيف سخفاً واضحاً . وكان كروشي بطبيعة الحال على حق ، كما كان مخطئاً أيضاً . فالمسألة معقدة . إن مؤلفي النشرات السياسية والصحفيين هم وحدهم الذين يجرؤون على الإدلاء بجواب واضح قاطع عنها ، ولن يتيسر لأحد غيرهم أن يحل هذا اللغز المعقد .

ويمكن حتماً أن يعتبر إيطاليو القرن السادس عشر تلاميذ ماكيافلي والكنيسة معاً . إن ماكيافلي ، فوق كل شيء ، لم يصغ نظرياته من الهواء ، ولكنه استنتجها من الأحداث المعاصرة في بلده ، ومن سلوك مواطنيه ، وما ركب في نفسه من حزازات وأحقاد ، إنه لم ينس قط تربيته الكاثوليكية ، ونشأت عداوته للمبادىء الإكليريكية من حبه للكنيسة أكثر مما نشأت من عداوته لها . وكان تشهيره مقصوراً على القساوسة التافهين والرهبان السيئين . وفي الوقت نفسه يمكن اتهام رجال الكنيسة باتباع المبادىء الماكيافيلية ، التي كانت تمثل ، فوق كل شيء ، آراء الناس في هذه الحقبة ، تماماً كما يمكن أن يقال عن الأمريكيين في القرن الثامن عشر — حتى هؤلاء الذين لم يسمعوا قط عن « تقويم ريتشارد المسكين » لفرنكلين — يقال عنهم إنهم يتبعون تعاليمه . وبعبارة أخرى ، إنهم جميعاً أي ماكيافلي ، والأهالي والبابوات والكاردينالات المحليون ، والإدارة البابوية ،

والقساوسة المحليون ، كانوا إيطاليين ، وكانوا جميعاً أبناء أرضهم وعصرهم . ويمكن أن تعتبر الكنيسة بحق أم عصر الباروك ولكنها ابنته أيضاً ، ومعلمة الشعب الإيطالى وتلميذته أيضاً . فهل من أجل هذا انحرف الخلق الإيطالى ؟ أو أن السياسة الدنيوية للكنيسة تأثرت كثيراً بالعادات الوطنية الإيطالية ؟

* * *

ولم تكن قوى الشر أقرب وقتئذ إلى النصر منها فى أى وقت مضى . وكانت الكنيسة تقاتل التهديدات الداخلية والخارجية قتالا مميتاً . وكانت مواجهة الأخطار الداخلية أشد وأنكى ، لأن الأعداء الخارجيين كانوا فوق كل شىء ، معروفين جيداً ويمكن تمييزهم بسهولة ، ومحاربتهم بقوة وثبات ، وهم أولئك الذين أعلنوا العصيان والمنشقون والهراطقة . أما الأعداء فى الداخل، فكان من العسير الكشف عن هويتهم ، وهم المستهترون والمتشككون والماديون الذين آثروا متاع الحياة الدنيا على الآخرة . ولم يكونوا إلا الخرافة والجهل والفساد ، ومحاباة الأقارب ، وشراء المناصب الكهنوتية والحرص على الوظائف وتفكك النظام الكنسى . وكان لزاماً على الكنيسة ، فوق كل شىء ، أن تكون على حذر من أصدقائها الطيبين ، وهم المؤمنون المضللون المتحمسون الذين رغبوا فى علاج كل الأدواء ، دون تمييز وعلى عجل ، فغامروا بنشر هرطقات جديدة أشد خبثاً ، وكانوا سبباً فى انهيارها النهائى . وكانت الأمور قد انتهت حقاً إلى مأزق حرج، حين كان على الكاردينال جسبار كنتاريني نفسه ، وهو مؤمن قوى العقيدة لا مطعن عليه ، أن يقرر « إنى لا أستطيع أن أخفى استيائى من أن بعضاً من ألمع المدن الكاثوليكية قد منيت بالفساد الأخلاقى والعادات المنحلة ، إلى حد أن بعض الأديرة المخصصة لإيواء العذارى اللائى نذرن أنفسهن لله ، تحولت إلى مواخير .

وهل يمكن أن يكون ثمة شيء أسوأ وأخزى ؟ » .

وإنا لنعلم كيف أن الكنيسة ، أيام مجمع ترنت ، استطاعت بشكل عجيب أن تتغلب على أعدائها . فأصلحت من شأنها ، وأقامت نظاماً جديداً ، وقضت على كثير من ضروب الإهمال والعادات الفاسدة وأحيت العقيدة الدينية وأعادتها إلى سابق عهدها ، وعوقت تقدم المنشقين والهراطقة ، وخرجت من المحنة أقوى وأعظم ، وساد روما جو من السلوك المثالى . كما بات السلوك الوقور ، وسيماء التقى ، والوجوه الهادئة التى ثلج فيها الشعور بالندم ، والتباهى بالتزام الدين القويم . بات كل أولئك من سمات العصر البارزة المألوفة . واستمسك الآثمون بالقاعدة التى تقول : « إذا لم يكن طهراً وتعففاً فليكن على الأقل حزماً وكياسة (إذا بليتم فاستتروا) » . وكان على الكنيسة ، مثل سائر النظم التى تقاتل قتال المستميت من أجل البقاء ، أن تستخدم الوسائل الفعالة بلا هوادة ولا رحمة . وكان عليها أن تدمر أعداءها قبل أن يدمروها هم ، حتى لو راح معهم عدد من المتفرجين الأبرياء . وأدخلت من إسبانيا محاكم التفتيش الدينية ، ونشرت قوائم كبيرة من الكتب الممنوعة ، وشجعت الأنشطة المتعددة الجوانب التى كان يقوم بها جماعات الجزويت المغامرة النشيطة .

وملأت محاكم التفتيش الدينية سجونها بالمشتبه فى أمرهم . وفى عام ١٥٦٨ كتب أحد المقيمين فى روما ممن صعقوا بما رأوا : « كان يحرق أو يشنق أو يضرب عنق عدد من الناس يومياً فى روما ، وازدحمت معسكرات الاعتقال عن آخرها ، وكان لابد من إقامة معسكرات جديدة » . ولابد أنه كان بطبيعة الحال متأثراً بعاطفته . ومن المحتمل أن السجون امتلأت دون تمييز لعدة سنين ، ولكنا نعلم أن الضحايا الفعليين كانوا قلة بل كانوا حفنة من الرجال الذين اتسموا بالبطولة والعناد ،

مثل أنطونيو بالياريو ، وجوردانو برونو ، وبيترو كارنسكى ، ونفر قليل غيرهم ، من بينهم رجل إنجليزى واحد ، أحرق إلى آخر شعرة فيه فى ٥ أغسطس عام ١٥٨١ لأنه أهان القربان المقدس إهانة بالغة . وفى حالات تعد على الأصابع ، فى الولايات ظهر نشاط كبير . ومن المذابح الهامة الغادرة ، تلك المذبحة التى وقعت سنة ١٥٦١ قرب كوشنزا فى كالابريا ، حيث استؤصلت عن آخرها مستوطنة تضم ١٤٠٠ من الهراطقة المعروفين باسم طائفة الوالدنزيين Waldensians وقد قتلوا بالسيف ، أو الحرق ، أو الجوع ، أو التعذيب ، أو السجن ، أو الإلقاء بهم من أعلى الجبال . وأرسل قليل ممن بقوا على قيد الحياة إلى إسبانيا لينخرطوا فى سلك الجيش .

ويجب ألا يغيب عن الذاكرة أن الإيطاليين عادة يرون أن القتل عمل بغيض أحمق ، وكان الأغلب أن يقتلهم القراصنة المسلمون الذين يرسون على الشواطئ الإيطالية ، أو الغزاة الأجانب ، لا العكس . وأعمل الجيش الألمانى القتل فيهم دون تمييز فى الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . ولكن الإيطاليين لم يقتلوا الألمان دون تمييز قط . ولم تحدث فى إيطاليا قط حملات تعذيب أو مذابح منظمة . ولا يمكن قط أن تحدث فى إيطاليا مذبحة مثل مذبحة « سانت برثلميو » وقد لا يعترض بعض الإيطاليين على قتل الإنسان لأعدائه عند الاقتضاء ، ولكنهم جميعاً يعتبرون عقوبة الإعدام القانونية عملا قاسياً غير ذى جدوى (لا توجد اليوم عقوبة الإعدام فى القوانين) إن كراهية الناس للاضطهاد المشروع قانوناً ، وقلوبهم الطيبة ، تجعلهم يساعدون ، دون تمييز ، ضحايا السلطات الحاكمة . ولا يمكنهم أن يقاوموا شعورهم بالعطف على قطاع الطرق والهاربين من وجه العدالة ، والفارين من السجون واللاجئين السياسيين . وفى أعوام ١٩٤٣ و ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ،

آووا ، على رغم الخطر الذى هدد حياتهم ، أعداء الفاشية والأمريكيين والإنجليز من أسرى الحرب . وأنقذوا آلافًا من اليهود من براثن الموت فى أوربا الشرقية ، بإخفائهم عن عيون حلفائهم الألمان ، وتهريبهم إلى مواطن آمنة ، أو تزويدهم بوثائق مزورة .

وليس مما يثير الدهشة إذن ، أن كثيراً من مفكرى القرن السادس عشر ، ذوى العقيدة الدينية المريبة ، أنقذهم مواطنوهم . وكان قليل من الإيطاليين بروتستانتيين . وأُنذر معظمهم (مثل أعداء الفاشية الذين لا حصر لهم أيام الحكم الدكتاتورى الأخير) ، أُنذروا بموعد القبض عليهم قبل حدوثه ، وربما أنذرهم الموظفون أنفسهم الذين كلفوا بذلك . وبلغ بعضهم حدًّا من الذكاء أحس معه بأن الجو حوله لا يوحى بالاطمئنان ، فلم ينتظروا وقوع الكارثة . وسعى بعضهم إلى إرضاء السلطات العليا ، ببعض التنازلات التى جاءت فى حينها ، وبالتظاهر بالانسجام ، وأوضح آخرون ، فى لباقة وذكاء ، أن الذى يفكر على أساس علمى ، يمكنه أن يعتنق مجموعة من الآراء بوصفه فيلسوفًا ، ومجموعة أخرى مختلفة تمامًا ، بوصفه مسيحيًّا . وكان شعارهم العبارة المشهورة : « يجب أن تنسجم الواجهة مع طرار العصر ، أما الداخل فيترك لاختيارك » .

وإليك ما جاء فى رسالة كتبها كليليو كالكانينى أستاذ الأدب فى فيرارا ، وأوضح فيها القواعد : « هناك أشياء من الأسلم كتمانها وإخفاؤها عن عامة الناس ، لا لإظهارهم عليها . . . والآن وقد أدخلت مراسيم الآباء الروحانيين وطول استخدامها طرقًا جديدة. فأية ضرورة تدعو إلى إحياء الطقوس القديمة التى عفى عليها الزمن ؟ إنى أتوسل إليكم ، حينئذ ، أن تدعوا هذه الأشياء تستريح ، لا لأنى لا أؤيد اعتناق العلماء ومحبى القديم إياها ، ولكن حتى لا تتسرب إلى عامة الناس ،

والمغرمين بالبدع ، ولئلا تتهيأ الفرصة للنزاع والفتنة . ولذلك ينبغى ، فى رأيى ، أن تنحصر المناقشة مع الخبيرين . وفى تقديرى أنه من الأسلم أن نتحدث إلى الكثرة وأن نفكر مع الصفوة » . والمعروف جيداً أن الكثيرين « تحدثوا مع الكثيرين وفكروا مع القليلين » فى الفترات الأخيرة من التاريخ الإيطالى . فعلوا هذا أيضاً أيام الدكتاتورية الأخيرة ، واستطاع كروتشى ، لمدة عشرين عاماً ، تأليف أعماله ونشرها ، على الرغم من الرقابة الفاشية لأن كتابته كانت غامضة مثقفة تستهوى القلة من الناس . واعتاد ماريو مسيرولى ، الصحفى السياسى العظيم فى زمانه ، أن يقول للشباب الذين اعتبروه أستاذاً لهم : « يجب ألا ينتابكم القلق على حرية الصحافة . إن حرية الصحافة ضرورية فقط ، وفوق كل شىء ، للكاتب الردىء . وإن الكاتب الجيد ليجد دوماً الوسيلة لنقل أفكاره الثورية بطريقة خفية ملفلفة إلى الخبيرين المطلعين »

* * *

وتعذر توجيه قوى محاكم التفتيش ، كما حدث فى إسبانيا ، ضد جموع الهراطقة ، ولكنها وجهت فحسب ضد نفر من الزعماء المستهترين ، ووجهت ضد الناس أقل كثيراً منها ضد الكتب . فصودرت الكتب الخطيرة ودمرت وأحرقت ، وأودع أصحابها السجون وحوكموا . وتعطلت المكتبات عن العمل ، وتوقف أصحاب المطابع عن الطباعة . وفتش حراس الحدود المسافرين تفتيشاً دقيقاً بحثاً عن المطبوعات المخبأة . وحدث هذا أول ما حدث كما هى العادة فى إيطاليا ، فى مظهر ضخم من الدقة . وكان الأثر النفسى سريعاً مدمراً . وسلم الحذرون الكتب المشتبه فيها ، وأبلغوا المسئولين عمن احتفظوا بمثلها . وحتى لاتينو لاتينى ، وهو عالم ممن يتمتعون برعاية الفاتيكان ، تولاه الفزع ، فكتب إلى صديق له فى

سنة ١٥٥٩ : « ألم يبلغك نبأ الخطر المحدق بالكتب ؟ ليس هنا من يجرؤ لسنوات طويلة أن يكتب شيئاً . . . وكما تحبنى وتحب نفسك ، اجلس وألق نظرة على خزائن كتبك دون أن تفتح أبوابها ، وكن على حذر ، حتى لا تسمح الشقوق نفسها بالإشعاعات تنطلق إليك من كتب العلم المحظورة » .

وقال باولو ساربى ، وهو عالم لاهوتى من جمهورية البندقية ، عن قائمة الكتب التى تحرمها الكنيسة : « إنها أحسن أداة خفية اخترعت لاستخدام الدين فى نشر الغباء بين الناس » ، وحذر بشدة أصدقاءه فى الخارج من محاولة تهريب كتب إليه طالما أنها لابد أن تكتشف . ومهما يكن من أمر فإن الكتب المحظورة لم ينقطع ورودها . ويخص فى دخول عدد قليل من الكتب ، كما هو الحال الآن فى الاتحاد السوفيتى ، لسد حاجة العلماء والباحثين الذين لا يستطيعون دحض نظرياتها الزائفة بغير ذلك . وأصبحت الرقابة على مر الزمن ضعيفة متراخية جداً . ولما زاد اطمئنان الناس وثقتهم ، أدخلت الكتب عن طريق الشخصيات الهامة (ممن لا تفتش أمتعتهم) والمسافرين المغمورين والحجاج والتجار ، وكانت الكتب تغلف أحياناً بأغلفة المطبوعات غير الضارة ، أو تخبأ فى عنابر السفن ، أو بين البضائع . ونسخت بعض الرسائل باليد ووزعت ، بل حتى طبعت سراً

ويجدر ألا يغيب هذا عن الأذهان ، قبل تحديد الأثر الحقيقى « لقائمة الكتب الممنوعة » على الحياة الإيطالية فى عصر الباروك ، إن قلة ضئيلة جداً فقط من الإيطاليين هى التى تقرأ الكتب فى أيامنا هذه ، ولم يقرأها إلا بضع مئات من العلماء المتخصصين فى القرن السادس عشر . وما كان لقراء الكتب قط أثر كبير على مواطنيهم ، وكيفما كان الأمر فإن معظمهم عاش فى ظل مدنية

شعارها تجاذب أطراف الحديث فى الهواء الطلق ، لا الانصراف إلى القراءة بين الجدران . وظل أثر الخطر خانقًا ، لأن الغالبية الساحقة من الناس المفكرين المحبين للسلام والدعة كان من المينسور تخويفهم . أما « أحسن أداة خفية » أى قائمة الكتب الممنوعة — فقد صبغت بالغباء قليلا من الناس الذين لم يرغبوا فى أن يكونوا أغبياء . ولكنها ، ولا ريب ، شجعت كثيرين فى نزوعهم الطبيعى إلى الجهل ، وفن التظاهر بالأحاسيس السليمة والمعتقدات التى تقرها السلطات العليا .

* * *

ولم يبد فى إيطاليا شىء أكثر اصطباغًا بسمات عصر الباروك الإيطالى من « جماعة الجزويت » . والحق أنها لم تكن بطبيعة الحال نظامًا إيطاليًا على الإطلاق . إن بها بصمات من الصلابة الإسبانية ، وكلنا يعلم أنها ابتدعت سنة ١٥٣٩ ، ابتدعها جندى إسبانى انضباطى ، مفطور على القيادة والزعامة ، وصبغها بما اتصف به قومه وطبقته من صفات وأهواء صارمة بطولية عنيدة ، هو « دون أنيجولو بيز دى ريكالدا » لورد لويولا وأوناز ، وهو المعروف بين الناس باسم « أجناشيوس لويولا » Ignatius Loyola ، وكان يساعده نفر من القساوسة الإسبان والفرنسيين أما أول أتباعه من الإيطاليين فقد انضموا إليه فيما بعد . ومع ذلك فإن هذه الجماعة تطابقت مع الجوانب الأساسية فى حياة الباروك الإيطالية ، وفسرتها وشجعتها : الانسجام ، الثراء المظهرى الذى يثير الإعجاب ، المظاهر التى تبهر الأبصار والتهرب الذكى من القوانين البغيضة .

ولم يكن ثمة قط جماعة مسيحية — دينية أو علمانية — أكثر انصياعًا للنظام الصارم ، وخضوعًا للنظام المفروض والتنظيم العقلانى ، والانضباط ،

والمعايير الموحدة من جماعة الجزويت ، فقد تعلم الآباء أن يطيعوا طاعة عمياء رئيسهم الذى « جلس فى مكان الرب » دون ما إشارة إلى حكمته أو تقواه أو حزمه . وكان زعيمهم تحت رقابة دقيقة من طائفة من مرءوسيه لا يستطيع هو أن يطردهم أو يفصلهم . وكان كل الجزويت أشبه بعجلات مسننة قابلة للتبادل فى آلة ضخمة . وتحدثوا بكل اللغات . واستطاعوا أن يلتئموا مع كل بيئة ، وتسللوا إلى كل ركن وكل زاوية . وسيطروا على المجتمع ، ولقنوا أن يكونوا « كل شىء لكل الناس » . وأثروا على الكنيسة وعلى الحياة الخاصة للملايين المغمورين وقرارات الأمراء والحكام . كذلك لم يستطع أى نظام غير الجزويت أن يرضى الإيطاليين المشتاقين إلى المظهر والثراء والأحاسيس التى لا يستطيع إثارتها إلا عرض طيب .

وإن ما نعرفه بأنه طراز الباروك ، خلقه مهندسو جماعة الجزويت ، أولئك الآباء الأفاضل الذين صمموا أولى كنائس الجزويت فى روما . وكان يعرف باسم « الطراز الجزويتى » ، فى الوقت الذى لم يتذكر فيه أحد بعد القياس المنطقى واللآلىء المشوهة . وما زال البروتستانت وكاثوليك الشمال يرتابون فيه ويمقتونه ، لأن رائحة البحر المتوسط تفوح منه بشدة . لقد صممت كنائس الجزويت بحيث تحيط المؤمنين بجو حالم ، وكأنهم فى حفل ثمل للصوت والضوء عبق بدخان البخور . ولم يستخدم من قبل بمثل هذا البذخ والزخرف ، ما استخدم فيها من الرخام الثمين المتعدد الألوان والذهب والفضة . وبلغ تقليد الحقيقة فى الباروك ذرى لم يسبق لها مثيل : فقطع الرخام فى طيات رقيقة حتى يحاكى المخمل والدمقس وطلى الجص حتى يحاكى الرخام ، ولم يكن كل الذهب ذهباً أصيلا .

ألم يكن جوهر طراز الباروك هو سعيه الدائم إلى الخداع والبهجة . وصفه كروتشى بأنه « البحث وراء الشىء غير المتوقع ووراء كل شىء مذهل » .

وكتب جوفانى باتستا مارينو ، وهو أعظم شعراء عصره ، وقد استخدم الألفاظ الخداعة المنمقة ، كما استخدم المهندسون الرخام . . كتب يقول : « إن كل هدف الشاعر هو أن يثير دهشة الناس » . ودوت كنائس الجزويت بالموسيقى العذبة التى تسحر الألباب ، كما دوت المنابر فيها بالفصاحة المذهلة ، مما لم يسمع مثله من قبل ، وهذا انطلاق ثورى من أسلوب التعنيف الكئيب الفلسفى اللاهوتى الذى استعمله غيرهم من القساوسة إلى أسلوب من الفصاحة المنمقة المعسولة التى هزت مشاعر المؤمنين وحركت عواطفهم بشكل يفوق الوصف . ومن ثم اكتظت كنائس الجزويت بروادها على حين خلت كنائس أخرى كثيرة منهم .

وعلى كرسى الاعتراف تلهف الناس على أن يظفروا بنصائح القساوسة الجزويت فى المشاكل المعقدة على اختلافها . وسرعان ما أصبحوا أساتذة فن جديد هو فن إرشاد النفوس الحيارى . ويقول واحد من ألد خصومهم ، وهو بليز بسكال Blaise Pascal : « لم يكن هدفهم إفساد الخلق ، وليست هذه خطتهم ، ولكن لم يكن إصلاح الخلق هدفهم الوحيد ، وإلا كان هذا سياسة عقيمة » . بل ابتدعوا معايير مرنة وفتاوى وتحايلات شرعية ، يقيسون بها القيمة الأخلاقية لأعمال الإنسان ، استطاعوا بها أن يطمئنوا المخطئين ويوجهوهم ويقنعوهم دون أن يرعبوهم . ثم يعلق بسكال على ذلك فى مرارة : « وبهذا يحتفظون بكل أصدقائهم ، ويدافعون عن أنفسهم ضد كل أعدائهم » . كذلك كتب فراباولو ساربى ، وكان أيضاً يمقت الجزويت ، فى إحدى رسائله : « كان لهم من منافذ الروغان والمسوغات وألوان التلميح والغمز ما كانوا معه أكثر تقلباً ومراوغة من السفسطائيين المغالطين حتى إذا ظن المرء أنه قد ألزمهم الحجة وسد

عليهم المنافذ ، تملصوا واختفوا » .

ومهما يكن من أمر ، فإن أحداً من ألد خصوم الجزويت ونقادهم لا يخامره الشك فى أن هؤلاء الآباء اليسوعيين لا يلجأون إلى تحايلات شرعية تشوه سلوكهم هم أنفسهم ، وقد نهجوا فى حياتهم نهج القديسين ولم يلحق أشخاصهم أى عار قط . وبينما كان رجال الإكليروس قد انحدروا فى وقت من الأوقات إلى مهاوى الانحطاط الخلقى والفكرى ، حظى الآباء اليسوعيون بالاحترام والتقدير لأشخاصهم وللقساوسة عامة ، بفضل احتشامهم وإخلاصهم وثقافتهم وجديتهم وطهارتهم التى لا يرقى إليها الشك ، أما التحايل والفتاوى فكانت لعامة الشعب .

وكان بسكال — إلى حد ما — على حق ، فقد اعتقد الجزويت اعتقاداً جازماً بأنهم الوحيدون الذين يستطيعون إنقاذ الكنيسة من الكارثة . ورأوا أنفسهم أنهم بمثابة جماعة من الجنود يواجهون قوى ساحقة للعدو . وتعود فكرة هذه الموازنة بالذاكرة إلى العقلية العسكرية التى تميز بها مؤسس الجماعة . فإن نفس الاسم الذى أطلقه على «نظامه» وهو « فرقة » Compagnia هو نفس اسم جماعات الجند الذين يتبعون قائداً مرتزقاً Condottiere . وقال إن جماعات الأديرة السابقين كانوا للكنيسة بمثابة كتائب المشاة ، الذين كان من واجبهم أن يقفوا بثبات وصلابة ، على حين كان الجزويت خيالتها الخفيفة القادرة على سرعة الحركة والمناورة . وكان عليهم مثل سائر الخيالة الخفيفة (مثل فرقة مغاوير « وليم ت . شرمان » ، وفرقة الصاعقة bersaglieri) أن يتغلغلوا فى خطوط العدو ، ويرتادوا ويستطلعوا ويجمعوا المعلومات ، ويأسروا رهائن وسجناء ، ويلحقوا به ما استطاعوا من الأضرار ، ويقوموا بأى عمل تقتضيه الظروف بأية وسيلة متاحة .

كذلك أدركت عقلية أجناشيوس لويولا العسكرية القيمة الاستراتيجية

الفريدة لإيطاليا . وعرف أن كل المعارك الفاصلة من أجل خلاص الكنيسة — مثل معظم المعارك الدنيوية من أجل سيادة أوربا — يجب خوضها فى الجنوب من جبال الألب . ففى أى مكان آخر يمكن أن تحظى الكنيسة بالنفوذ والقوة والسلطان ، أما فى إيطاليا فيمكن إنقاذها أو ضياعها إلى الأبد. من أجل ذلك جد لويولا فى تركيز معظم رجاله الممتازين وجهوده الطيبة فى إيطاليا ، وأقام مركز قيادته فى روما . وابتكرت الجماعة عددها وخططها للمهمة المعينة التى بين أيديها ، وكيفت منطلقها وفق البيئة المحلية ، وابتكرت وسائل بارعة لتهذيب الإيطاليين وتسليتهم وتربيتهم وتخريفهم وإغرائهم والسيطرة عليهم ، كما وجدتهم ، فشيدت المدارس فى كل مكان ، وكانت أحسن مدارس العصر : مدارس مجانية للأطفال الفقراء الأذكياء ، ومدارس غالية النفقات للقادرين ، مزودة بأقدر المعلمين ، حتى تشب الصفوة الحاكمة فى الأجيال المقبلة على أساس جزويتى ، ولكنها فى الوقت نفسه نشرت الثقافة والمعرفة . واستفادت من كثير من النزعات والميول الفاسدة لدى الإيطاليين ، ولكنها كذلك استغلت ذكاءهم الوافر ، ومراهبهم الفنية ، ومشاعرهم الدينية واعتزازهم بكنيستهم .

وحققت الجماعة نجاحاً كاملا ، فى بضع سنين ، سيطرت عملياً على نفوس الناس وعلى المجتمع الإيطالى . وفى الوقت الذى لم تفقد فيه طابع الصلابة الإسبانية ، بدت للأجانب إيطالية معبرة عن الزمان والمكان تعبيراً نموذجياً ، إلى الحد الذى كان عليها معه أن تواجه معارضة شديدة . وإن العداوة التى أثارتها جماعة الجزويت فى الخارج زادت كثيراً من حدتها ، تلك العداوة القديمة التى كان الإيطاليون يثيرونها . والعكس بالعكس ، وجعلت الجماعة حياة الإيطاليين أشق وأصعب لأن الريب والشكوك التى أحاطت بهم لعدة قرون ، زاد من حدتها الاعتقاد

السائد بأنهم قد أصبحوا تلاميذ الجزويت .

* * *

وهناك كتاب إيطاليون يعتقدون – وهم يتلهفون تحدوهم مشاعر البنوة على تلمس أسباب خارجية لما انتاب بلادهم من نكبات كثيرة – يعتقدون أن طول حكم الإسبان لجنوب إيطاليا وميلان ونفوذهم فى كل مكان ، هما أصل البلاء فى بعض علل الإيطاليين المستعصية . وفى هذا بعض الحقيقة . فإن الإسبان ، على سبيل المثال ، أظهروا احتقاراً إقطاعياً للمهن أو الأعمال النافعة المنتجة . وإنا لا نزال نرى فى طول الجنوب وعرضه ، أن ذوى المكانة اليوم يعتبرون أن البقاء بلا عمل علامة على الرفعة والسمو ، والخمول رمز المنزلة العالية . وهم يعرفون باسم الرجال المهذبين galantuomoni . وقد يعتمدون فى معاشهم على رواتب ضئيلة أو دخل تافه من بعض حقول البقول التى يؤجرونها ، وقد يكونون قطعاً أشد فقراً من الخباز أو صاحب محطة البنزين أو صاحب الحانوت ، ولكنهم يلبسون الياقة ورباط الرقبة والمعطف والقبعة ، ويحملون العصا ، ويجلسون على الكراسى المجدولة فى النادى على قارعة الطريق ليرقبوا المارة . ويتحدثون فى السياسة ويطالعون الصحف ، ويعاملون عامة الناس بازدراء . وليس ثمة مهنة أو عمل تلوث أيديهم . يذهب الرجل المهذب galantuomo إلى المحكمة ليدافع عن شرفه ، إنه مثل النبيل الإسبانى hidalgo ، يتصرف فى القانون كيف يشاء .

ولما كان هؤلاء الجنوبيون من المهذبين galantuomoni هم الذين يديرون على الأغلب ، الجهاز الحكومى ، فإن أهواء عصر الباروك تسربت بشكل أو بآخر ، إلى كل إيطاليا الرسمية فى المائة سنة الأخيرة . ومن ثم يعامل الأفراد العاديون باحتقار فى كل دواوين الحكومة . وبقيت الضرائب بصفة عامة ، كما فرضها الحكام الإسبان ، جزافية تحكمية مرهقة لكل الناس ، ولكنها بمثابة قصاص

أو تأديب لكل من يغامر بالعمل أو ينتج شيئاً . ويعتقد معظم الموظفين ورجال السياسة أن الحياة الاقتصادية شر يجب أن تشرف عليه السلطات المسئولة بشدة ، مثل النهر الغدار ، كلما زاد ضبطه كان أصلح لكل الناس . ولا يزال كثير من هؤلاء الناس يحلمون بدولة منظمة يملك فيها الحاكم عملياً كل شيء ، وله احتكار كل المنتجات الأساسية ، ويحقق معاشاً متواضعاً لكل فرد ، ولكن يغدق بصفة خاصة ، على أصدقائه بسخاء . وغالباً ما يختفى اليوم حلم الباروك الإسبانى هذا فى شكل أنيق ، وراء المبادىء الماركسية ، فالحاكم هو الدولة الاشتراكية أو الشيوعية ، وأصدقاء الحاكم هم جهاز الحزب .

ولا يزال المهذبون «galantuomoni» الحاملون (وإلى حد أقل معظم الإيطاليين الآخرين) مغرمين بالألقاب الرنانة ، وكل نعوت الشرف على اختلافها . ونقطة الضعف هذه مستوردة من إسبانيا قطعاً . فلم يكن لدى أقدم طبقة النبلاء الإيطاليين ألقاب قط : فأرستقراطيو البندقية ، الذين ترجع بعض أسراتهم اللامعة بأصولها إلى عهد اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ، كانوا يعرفون ببساطة باسم « النبلاء » Nobil Uomoni وبعد أن ضم النمسويون البندقية إلى دولتهم فى عام ١٨١٥ خلعوا على النبلاء لقب « كونت » ليتبوءوا مكاناً لائقاً فى البلاط . أما بطارقة جمهورية جنوة فقد رخص لهم رسمياً بأن يطلقوا على أنفسهم لقب « مركيز » ، حين كانوا يتجولون فى إسبانيا وإنجلترا وفرنسا ، حيث كان لهذه الألقاب أهمية . ومن جهة أخرى عجت مملكة نابلى بالألقاب . وفى سنة ١٧٤٠ لحظ شارل دى بروس المتزمت رئيس برلمان ديجون « أن أهالى نابلى عصاة متمردون ، والبرجوازية تافهة محتالة والطبقة العليا من النبلاء مزهوة متفاخرة ، والطبقة الدنيا منهم جشعة فى الألقاب ... وكانت الألقاب تعطى لمن يريدها ، ومن هنا ساد المثل القائل : « إنه دوق

حقا ، ولكنه غير مهذب » . إن القصاب الذى تعود أن يبيعنا اللحم بشخصه من قبل ، بات الآن يفعل ذلك عن طريق مساعديه ، حيث منح لقب دوق » .

إن الألقاب لتبلى جدتها على مر الزمن ، وتفقد قيمتها ، شأنها شأن العملة . إن أبسط رجل اليوم فى أى مكان فى إيطاليا ، قد يعتبره أمراً طبيعياً أن ينادوه بلقب « دكتور » Dottore سواء التحق بالجامعة أو لم يلتحق ، أما أن يخاطب بمجرد لقب سيد Signore ، وهذا لقب أدخله الإسبان أيضاً — فهو أمر كريه مزعج فى الواقع . إن عضو البرلمان المتواضع — مثل مؤلف هذا الكتاب — يخاطب بلقب الموقر Onerevole لا فى موقعه الرسمى فى مجلس النواب فحسب ، بل يفعل ذلك أيضاً النادل ومنادى السيارات . إن صيغة الخطاب — المفرد الغائب التى تلازم معظم من يتعلمون اللغة الإيطالية ، هى من مخلفات إسبانيا كذلك . إنها طريقة تقليدية للحديث ، لا بطريق مباشر إلى إنسان ، ولكن إلى الحالة التى تحيط به ، أو إلى شخص وهمى أو مبهم . . . « إلى سيادته » ولما كانت « السيادة » لفظ مؤنث ، فإن كل الصفات والضمائر التى تعود عليها يجب أن تكون مؤنثة كذلك ، حتى فى حالة مخاطبة الذكور ، ومن ثم تثير الشكوك والارتباك فى الأجانب . فإن عبارة ? Come sta lei التى يقصد بها كيف أنت ؟ تعنى حرفيا « كيف هى ؟ » أو « كيف تسير الأمور مع هذه الأنثى التى لا نراها » ؟ ومن هذه الرغبة فى الألقاب والأمجاد الفارغة ، جاء الغرام الباروكى الإسبانى بحب الظهور والتزين والتظاهر والادعاء وكلها لا تزال سائدة . ويقول ، شاكياً ، شاعر عظيم فى عصر الباروك ، هو باتستا جواريني من أهالى فيرارا فى شمال إيطاليا : « إن عصرنا عصر مظاهر ، وإن الإنسان ليظل متنكراً طوال العام » .

ولا ريب فى أن بعض هذه السمات الإسبانية أخرت أو عاقت التقدم : من

ذلك إغفال أو اختفاء حقائق الحياة الاقتصادية ، والانشغال بغير الأمور الجوهرية ، وبالمظهر الخارجى للأشياء ، والأمل فى تحسين أحوال الفرد ، لا عن طريق جهوده الشخصية ، بل عن طريق الحظوة لدى أصحاب النفوذ والسلطان ، والاعتقاد بأن الملك (أو من يحل مكانه أيًّا كان) ينبغى عليه أن يرعى أو يهتم بالجميع ، فهل حقـًّا ما يقال من أن بقاء هذه العادات طويلا بعد خروج الإسبان هو خطأ من أخطائهم ؟ ولمَ لم تتأصل جذور بعض فضائلهم العظيمة ؟ ولماذا ترك الحكم الإسبانى بصمات لا تمحى فى إيطاليا ، وعلى وجه أخص فى مملكة الصقليتين القديمة (نابلى وصقلية) على حين أنه لم يترك عمليًّا أى أثر فى سائر الولايات الأوربية التى كانت تحكمها مدريد فى الفترة نفسها ؟ ولماذا — على سبيل المثال — كان الفلمنك والهولنديون على هذه الدرجة من المغامرة والاحتشام فى المظهر والجد والنشاط والبعد عن الإسراف والتبذير ؟ ولماذا يعتمد معظم الميلانيين على عملهم هم أنفسهم ، ويعتزون بأنهم سادة أنفسهم ، ويحبذون الاقتصاد غير المقيد ؟

واضح أنه من العسير استخلاص نتائج مجردة . فليس من شك فى أن الإسبان والكنيسة ساعدا على تشكيل الخلق القومى الإيطالى طوال عصر الباروك . وليس من شك كذلك ، فى أن الانحراف الذى انتاب هذا الخلق وقتئذ كان مستعصيًا على العلاج . ولكن الإسبان والكنيسة لم تشجعا فقط إلا ما كان لا مناص منه من الخصائص التى هى أكثر التئامًا مع مزاج الإيطاليين أنفسهم ، ومن المحتمل أنها هى نفس الخصائص التى ربما طورها ونماها الناس بشكل أو بآخر . إن الكنيسة والإسبان لم يكونوا اختراعًا تعسفيًّا خلقه نصف إله . إنها خيبة الإيطاليين ، أو حقيقة أنهم لم يستطيعوا حكم أنفسهم ويشبعوا الحاجة الأساسية الأولى لشعب

يحترم نفسه ، ألا وهى إبعاد الأعداء الأجانب الأمر الذى خلق فراغ السلطة ، فامتص الإسبانيون فى هذا الفراغ . ولم تكن الكنيسة مكيدة أجنبية تفرض على شعب كاره مقاوم أسلوباً للحياة غريباً عنه . وإنا لندرك الآن أن السيطرة لا تدوم طويلا ، ولن تكون فعالة ، إذا فرضت بالقوة وحدها . ولكن لا بد أن يتقبلها بعض الناس على الأقل ، على أنها تعبير أصيل عن آمالهم وأحلامهم . وراحت الكنيسة تؤدى رسالتها المقدسة الخالدة الكونية بحذر وذكاء إيطاليين ، وكانت مزودة برجال من الإيطاليين ، وما كان فى وسعها إلا أن تجسد بعض المثل العليا الإيطالية أيضاً . وما كان لها أن تحقق النجاح عن غير هذا الطريق ، ثم إن إرادة الناس ، أيضاً ، هى التى حددت قوة السيطرة السياسية والأدبية وعمقها . كذلك كان نواب الملك الإسبان والخونة المحليون الذين تعاونوا معهم مستبدين متغطرسين جشعين بالقدر الذى سمح لهم به الإيطاليون أنفسهم . كما أن الكنيسة بسطت نفوذها ووسعت من سلطانها حتى تواجه مسئولياتها التى ألقاها الإيطاليون على عاتقها . الحق أنه ليس ثمة جواب حاسم لهذه المشكلة !

خاتمة

ربما حير عصر الباروك عقول الناس من جيل سابق . ومن سوء الحظ أن فيه لنا بعض الأسرار . إننا نعرف الخضوع للنظام الصارم حين نراه : الظلم الخانق الناجم عن الاقتصاد المقيد ، وإكراه جمهور المجتمع الثرى ،على اعتناق مذهب الأبوية Paternalism فى معالجة الجماعات والأفراد ، وهو مذهب يشل حركة المجتمع ، والنفوذ المذل للأنظمة الاستبدادية الدموية الحمقاء . وإننا الآن نبتسم لما اعتبر يوماً ضروباً مفزعة من القسوة والصرامة . وتبدو الحكومات السابقة معتدلة وغير فعالة نسبياً إذا قيست بالنماذج الحديثة . وقلما كان « السادة الكبار » grands seigneurs قادرين على الإتيان بفعلة غير كريمة على نطاق واسع . وحتى أسوأ الملوك رغب فى أن تسميه الأجيال القادمة « الملك الكريم » . وربما كان الإنسان فى معظم البلاد أعزل أمام حاكمه ، ولكن كان فى القوانين ثغرات تتسع له . ولم يكن لدى الشرطة بنادق أو راديو أو تليفون أو أجهزة للتسمع على المكالمات . إنهم عذبوا الناس فعلا ، ولكنا نشك فى أن الأساليب التى كانوا مزهوين بها ، كانت أقل أثراً وفعالية من الأساليب التى أتقنها معاصرونا . ومهما يكن من أمر فإن الظلم فى عصر الباروك بدا مروعاً فى أوانه . لقد كان ظلماً جديداً مفزعاً خانقاً . وسلك الناس فى كل أنحاء أوربا نفس السلوك الذى شهدناه بأعيننا، كما يفعلون فى كل العهود فى ظروف مشابهة .

إن الإخضاع لنظام صارم ظالم لا يأتى دون اقتضاء أو دون استحقاق ، مثل الطوفان والوباء ، (كيفما تكونوا يول عليكم) . إن المستفيدين منه وضحاياه ييسرون

دائمًا إقامته ، وأحيانًا يحرضون عليه ، وكثيراً ما يرحبون به ، بعد فترات من الفوضى والقلاقل ، وبدونه يهلك الناس بعضهم بعضاً ، وتتدهور التجارة والصناعة ، وتتوقف الحياة نفسها . وإنه فى الوقت نفسه يحقق فوائد مألوفة ، فهو يفرض هدنة من نوع ما ويسير القطارات فى مواعيدها ، ويوهم بأن الأعمال يمكن أن تجرى على طبيعتها فى أثناء التغييرات السياسية ، ويبقى على الطبقات الدنيا من الناس فى أماكنهم . ويبدو النظام فيه نظامًا ، ولكنه عادة من قبيل خداع البصر : إنه سطح أملس مصقول يغطى واقعًا متعدد الألوان ، أو شريحة من زجاج صاف فوق صفحة بحر عاصف . وتبقى المسائل العويصة دون حل . ويصبح بعضها شرًّا مميتًا . وتنتهى آخر الأمر بوقوع الكارثة .

ويبدأ النظام الصارم بأن يفرض بطريقة خفية، قيوداً يعترف كل فرد، راضيًا، بأنها ضرورية وأنها جاءت متأخرة ، ثم يُثَنِّى بفرض طائفة من الأفكار والآراء المعتمدة والمعايير الموحدة للسلوك . وإذا لم يتوقف مثل هذا النظام الظالم عند حد منذ البداية ، فإنه ينتهى بالتحكم والسيطرة على كل شىء ، ويكون الرقابة أول الأمر ظاهرية واضحة للعيان . ثم تتغلغل فى أعماق الناس ، وتستتر حتى تصبح كالسرطان الخبيث . ويعلل كثير من الناس أنفسهم بأنهم إنما يفعلون مايفعلون وفق إرادتهم الحرة ، وأنهم يعيشون أفضل حياة ممكنة ، وأنه إنما يحدد كل شىء ويقرر كل شىء مجموعة من رجال مبجلين فوق مستوى البشر ، أو رجل أسمى « سوبرمان » يتمتع بمعرفة كلية ومقدرة كلية لا حدود لهما ، فماذا يبغى الإنسان أفضل من هذا ؟ وهنا يتعلم المرء أن يكون شاكراً لأية نفحة أو هبة تأتيه من أعلى ، ويتعلم أن يحب سادته ويعجب بهم . ويؤمن بالشعارات السائدة لأن كثيراً منها يعكس ما يعتلج فى نفسه من أهواء ، وينسى نفسه فى غمرة المشاهد الجماعية ، والاحتفالات.

المثيرة . ويعتز ويفاخر بأنه يخدم أهدافًا عليا ويمتثل لرسالة تاريخية . ولا بد بطبيعة الحال أن يأخذ حذره . فيجب أن يكمم فاه ، وألا يأتى عملا شاذًا ، وينبغى أن يتقبل النفاق والخداع على أنهما قاعدتان ذهبيتان من قواعد السلوك ، ويلقن أبناءه فائدة استخدام الملق والغموض والمراوغة والنفاق . فشغله الشاغل فوق كل شيء هو البقاء . ولكن هناك من يدركون أو يشعرون شعوراً غامضًا فى وقت من الأوقات أنهم محبوسون فى قفص من ذهب ، أو معتقلون فى معسكر مزدان . وكما أن قليلا من الناس قادرون على احتمال القسوة الرهيبة والجبن الذليل ، فهناك أيضًا قلة قليلة فقط قادرة على نكران الذات والبطولة . ومهما يكن من أمر فإن معظم الساخطين وغير القانعين يتطلعون فى أنفسهم سرًا ، إلى عصر ساتورن المفقود ، عصر اللهو والمجون . ويتحاشون الأماكن البغيضة . ويحاولون شيئًا من المراوغة وشيئًا من السلوى والعزاء .

وعلى السطح خضع الإيطاليون للنظام الصارم الذى أتى به عصر الباروك ، فى سهولة ويسر أكثر من سائر الشعوب . لكى يظفروا بالنفحات ممن هم فوقهم ، ولكى يلقوا الترحيب ، وتنبهر أبصارهم ، وارتضوا من الأعماق أن يشاركوا فى الحفلات العامة والعروض الصغيرة الخاصة . واستخدموا فى براعة أساليب الملق والغموض والمراوغة . ولم يكن لهم الخيار كذلك ، فالثورة كانت مستحيلة . فمن ذا الذى كان فى مقدوره أن يجمع شمل الولايات الإيطالية الصغيرة فى صعيد واحد ، لكى يطاردوا الأجانب إلى خارج البلاد ؟ إن هذا أمر لا مجال للتفكير فيه ، وكان الإيطاليون واقعيين فأدركوا حقيقة أنه لابد من قائد ، ولم يكن من سوء التدبير أن يعهدوا بهذه المهمة البغيضة إلى الأجانب والخونة المتعاونين معهم ، ليفرضوا الضرائب ، ويجندوا الجيوش ، ويثيروا ، بشكل ما ، كراهية المحكومين .

وكانت القوانين أمراً لا غنى عنه ، فإنها لم تجعل الحياة ممكنة فقط بل ممتعة كذلك ، فإنها ، بشكل ما ، بمثابة الحواجز فى ميدان سباق الخيل . فكيف يتأتى للبارعين المهرة أن يكون لهم السبق ويفوزوا إذا لم يكن ثمة عوائق تبقى على الضعاف وراءهم ؟ وكيف يتسنى للمرء أن يدور حول القوانين ويراوغ فيها إذا لم يكن ثمة قوانين ؟

وتحت السطح ابتدع الإيطاليون طرقاً للتغلب على النظام الصارم الظالم . ذلك أنهم لما لم يستطيعوا حماية حريتهم القومية فى ميدان المعركة ، قاتلوا بضراوة فى سبيل الدفاع عن حرية الفرد وأسرته ، وهو لون الحرية الذى زرعوه بشكل ما . وتلك هى الحاجة الملحة الوحيدة التى شحذت فضائل الفرد الخاصة إلى حد لم يكن له مثيل فى أى بلد آخر . كتب فيتوريو ألفييرى Vittorio Alfieri مزهواً (وكتب ستاندال وغاريبالدى بعده مستخدمين ألفاظه بنصها) : « إن الرجل العادى فى إيطاليا يشب على نزعة فردية لا نظير لها » . وإن الرجال فرادى ، قد نموا وسط أسراتهم أسمى الصفات ، فلما انضم الملايين منهم بعضهم إلى بعض ، لم يرتفعوا إلى أكثر من جماعة من السوقة الضعاف السذج الحمقى . ولقد بلغ كثيرون فى وقت السلم مراتب الشهرة العالمية فى مجال عملهم ، وأصبح كثيرون فى زمن الحرب أبطالا لا يشق لهم غبار ، مثل الفرسان الذين هزموا الفرنسيين فى بارلتا ، أو الضباط البحريين والملاحين الذين اقتحموا ميناء الإسكندرية ، تحت الماء ليلا ، فى الحرب العالمية الأخيرة ، لينسفوا السفن الحربية البريطانية فى مراسيها . ولكن الأمة الإيطالية لم تسع قط إلى حل مشاكلها الأساسية ، وقل إن نجحت القوات المسلحة الإيطالية فى هزيمة الأعداء . لم تكن إيطاليا يوماً صالحة قدر صلاحية أهليها فى مجموعهم .

ولم يقهروا الإيطاليون حكامهم فحسب، بل سعوا أيضاً إلى ابتكار وسائل مثيرة رائعة ليجعلوا من كل ساعة مذلة مخزية شيئاً محتملا مرضياً ما أمكن . هذا هو السبب فى أن سلوكهم وطعامهم وبيوتهم ومدنهم وحياة الحب عندهم ، كلها أمور تبعث على البهجة السرور . وهذا هو أيضاً السبب فى أن فنهم ، أو معظم فنهم ، صمم أساساً ، ليزود الناس بشيء من السلوان والنسيان والسعادة . وكان أمراً طبيعياً أن يتهموا بأنهم طائشون عابثون لم يتعمقوا قط إلى ما تحت السطح البراق للأمور ، ولهذا اللون ما يبرره بطبيعة الحال . ولكنهم ليسوا عابثين لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا شيئاً آخر . ولقد ترك كثير من عظماء الفنانين وثائق خاصة تكشف عما لاقوه من عذاب أليم فى مأساة حياتهم . وإن الأدب الإيطالى ليزخر بصيحات الكرب والألم المبرح . شكا دانتى مر الشكوى : « آه يا إيطاليا المستعبدة ، يا موطن الأحزان والأسى ، يا سفينة بلا ربان وسط العاصفة ، لا حاكمة مستعمرات، بل ماخور» . ورأى بترارك أنها ملأى بالأوجاع والآلام التى لا تنجع فى علاجها الأقوال بل الأفعال : « ولسوف تمتشق البسالة حسامها من جديد ، ولن يدوم القتال طويلا ، لأن الشجاعة القديمة لم تمت فى قلوب الإيطاليين ! » ورأى ليوباردى حوله أطلالا ومعالم أمجاد غابرة ، ولكنه لم ير « أكاليل الغار تتوج هامات الأبطال ، ولا أسلحة من الصلب » تحرر البلاد . ووجد فيليكايا Filicaya أسباباً للبكاء فى « جمال إيطاليا الفتاك » ذلك الجمال الذى فتح شهية الأجانب . وحتى البابوات أنفسهم ثاروا فى بعض الأحيان ضد الغزاة القادمين من الجانب الآخر من جبال الألب ، وكانت صيحة المعركة أيام البابا يوليوس الثانى « أخرجوا أيها البرابرة ! » Fuori i barbari .

أما السبب فى أن كثيراً من الفنانين العظام وأشباه العظام تحولوا إلى مزخرفين

ومسامرين ممتازين ، فإنهم ، قد تعذر إيجاد أى حل للمشكلة القومية ، رأوا أن واجبهم الأدبي يقتضيهم العمل على تخفيف آلام مواطنيهم وجعلهم ينسون مصيرهم التعس غير اللائق .

واتهم الإيطاليون كذلك بأنهم لم يولوا الحقيقة احتراماً كافياً ، وهناك بطبيعة الحال قلة من الناس أولت الحقيقة احتراماً صادقاً . إن الإيطاليين ليسوا وحدهم فى هذا العالم ، ومع ذلك فإنهم يدركون الحقيقة حين تقع أبصارهم عليها . وهم ليسوا أغبياء . وإن كلا منهم ليحاول تسيير دفة سفينته الخاصة فى ضوء الحقيقة ، وإلا وقعت الكارثة . ولكنهم — مجتمعين — يبدو أحياناً أنهم ينسون الأهمية الفريدة للحقيقة ، وغالباً ما يتجاهلونها ، أو يزينونها أو يبالغون فيها أو ينكرونها وفق مقتضى الحال . وإنهم ليكذبون لإرضاء الغير أو لتجميل صورة ، أو ليثيروا العواطف أو ليدللوا على صحة إحدى النقاط . وإنهم ، فوق كل شيء ، ليعتبرون الكذب فيما يتعلق بأحوال بلدهم المنكود واجباً مقدساً له من الوجهة الأدبية ما يسوّغه قدر تسويغ الاختلاق المشوب بالعطف والشفقة على رجل يحتضر لخداعه وخداع أقربائه . وهذا سبب آخر فى أن الإيطالى الفرد يكاد يكون عاقلا حكيماً دائماً ، على حين أن بلاده — وهى منساقة أو موجهة على أساس من التحريفات والمبالغات المغلفة بالملق والنفاق — قد ارتكبت على مر القرون ، أخطاء مفجعة على نحو فتاك .

* * *

ويمكن بتفحص سريع خاطف لنظم الحكم الإيطالية فى الماضى القريب ، إثبات أن الإيطاليين عاشوا فى عصر الباروك فى القرون الأربعة الأخيرة ؛ فإن ملكيات القرن الثامن عشر التى اكتسحها نابليون ، والمملكة الموحّدة التى تأسست

بعد حركة البعث ، والدكتاتوريات المقنعة التى أسسها رجال السياسة الأحرار (الليبراليون) فى نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، والدكتاتورية الفاشية السافرة ، والتكتلات الاشتراكية والكاثوليكية الحاكمة الآن ، كلها نماذج من الباروك الخالص . تتغير الأسماء واللغة الرسمية البليغة ، ولكن جوهر الوضع هو هو لا يتغير .

وإليك هذه الصيغة ، التى كانت صالحة فى الماضى ، وربما ظلت صالحة لعدة سنوات قادمة . فهاك عدداً كبيراً من السكان المجدين النشيطين الليبى العريكة الأذكياء ، القلقين على قوت يومهم ، القادرين أحياناً على تقبل التضحيات التى لا تعد ولا تحصى ، ولكنهم قلقون ومتلهفون على كل جديد . أبق على جهل الناس ، بأن توفر لهم الحد الأدنى من المدارس ، وأبق عليهم معوزين محتاجين ، بأن تحكمهم بيد من حديد ، أو تضيق على الصناعة والتجارة ، وأبق عليهم حيارى مرتبكين مزعزعين عن طريق التلاعب التعسفى بالقوانين المصوغة صياغة غامضة . واحرص على ألا يكون هناك أبداً حقوق وواجبات محددة تحديداً واضحاً ، ولكن هناك دائماً ألواناً من الحظوة والمنفعة والعطف تأتيهم ممن هم فوقهم ، أو هناك دائماً سوء استعمال للسلطة . واحتفظ بالناس سعداء بوابل من الصدقات الحقيرة ، وألههم بالعديد من أيام العطلات ، أكثر مما هو حادث فى أى بلد أوربى آخر ، وبالمهرجانات ، وبافتتاح المشروعات العامة ، المنمقة تنميقاً باهراً ، والمفيدة أحياناً ، وليكن إنفاق معظم المال على الأمور غير الضرورية ، مثل القوات المسلحة والحروب الوحشية فى الماضى ، أما الآن فلينفق المال على ضروب اللهو والتسلية والحفلات العامة والألعاب ، ولينفق أقل المال ، ما أمكن ، على تحسين أحوال الشعب المادية والأدبية . أبق عليهم دائماً سكارى بمناجاة أحاسيسهم البدائية .

ثم خذ أقلية أوليجاركية صغيرة من الزعماء ، يتنازعون دومًا فيما بينهم ، قلقين أشد القلق على مراكزهم ، وغالبًا على حياتهم ، ممن يعتمد سلطانهم ، بشكل مزعزع ، على "عطف قليل" من الناس ، أو فرد واحد فقط ، وهو أحيانًا رئيس أجنبى يقيم خارج البلاد . وضع هؤلاء الزعماء "فوق القانون" ، فإن هذا ينزع بأفضلهم إلى أن يكون حذراً ، عديم الرحمة ، متغطرسًا ، نهمًا ، لا ضمير له، وفى غابر الأيام كان مثل هؤلاء من رجال البلاط ، وملاكًا للأرض أرستقراطيين وأعيانًا ، وقادة ، وبعد فترة كانوا كذلك أصحاب مصارف أو ملاك سفن ، أو من رجال الصناعة ، وبالأمس القريب كانوا رؤساء فاشيين . وهم اليوم زعماء أحزاب كبيرة جماهيرية ، وممثلو منظمات يمكن أن تدلى ملايين الأصوات (فى الانتخابات) ومشرفون على مؤسسات صناعية ضخمة ، خاصة أو حكومية ، ورؤساء الاتحادات العمالية . وكان « للسادة العظام » فى الماضى ، ذوق أرفع ، وكانوا أشجع وأكثر تأدبًا ، وأكثر مهابة ووقاراً ، وغالبًا ما أحب الوطنيون الليبراليون (الأحرار) فى القرن التاسع عشر بلادهم ، وشجعوا الصناعة والتجارة ، وحاولوا أحيانًا ، أن يعملوا شيئًا لتحسين ظروف معيشة الشعب . أما زعماء اليوم فهم أشد ذكاء ومقدرة وأكثر دراسة ومعرفة . ولكن "هذه الفروق ليست ذات بال ، مثلها فى ذلك مثل أزياء الملابس التى ارتدوها .

وإذا نحن أغفلنا الفروق السطحية وجدنا أن زعماء إيطاليا اليوم ينهجون نفس السبيل الذى كان يسلكه أسلافهم دائمًا . إنهم يديرون إيطاليا كما لو كان لسان حالهم يقول إنها « قضيتنا » Cosa nostra فينفذون مشروعات سياسية ضخمة طموحة مثيرة للإعجاب ، توصف بأنها لخير البلاد ، ولكنهم يعلمون صراحة أنهم يقصدون بها أساسًا ، وبطريقة تعسفية ، تقوية سلطانهم هم أنفسهم ، ويستخدمون الناس

وكأنهم ممثلون خارجيون إضافيون فى فيلم إغريقى رومانى ، يُحرّكون من بعيد، ولا يفسر لهم أحد فكرة الفيلم أبداً . ولا مجال للتفكير فى أى شىء آخر . أما حض مواطنيهم على حب فنون القراءة والكتابة ، والسماح لهم بتحقيق رخاء معقول والتمتع به ، وتشجيع أكبر عدد منهم على تحمل المسئولية على نحو جاد ، فإن هذه كلها أشياء تعرض سيطرة الصفوة الممتازة للخطر ، أو كما يحلو لهذه الصفوة أن تقول : تضعف الكيان الاجتماعى ، على أن هناك ما يقال دفاعاً عن هؤلاء الزعماء ، ذلك أن مجتمعهم هو الذى أنجبهم ، فإن « السادة العظام » القدامى مثل الوزراء المعاصرين أو المشرفين على احتكارات الدولة ، يشاركون الشعب صفاته ونقائصه . إنهم يحبون المثل العليا والنماذج نفسها . إنهم فى حقيقة الأمر كما يصنعهم الإيطاليون أنفسهم . .

وكان واضحاً دائماً أمام أعين الكتاب ذوى التفكير الصافى أن بلدهم كان ضحية منكودة ، لحلقة خبيثة . فقد ولد الخلق القومى ضروب الطغيان . واستشرى الطغيان ، فقوى من نقائص الخلق القومى وزادها سوءاً ، ومن ثم لم يكن مفر من وقوع الكارثة . فإذا كان لإيطاليا أن تتخلص من قدرها المخزى، فلا مناص من تحطيم هذه الحلقة الخبيثة . واتفق رأى الوطنيين من قديم الزمان على أن تحقيق الاستقلال ، وإقامة دولة قومية موحدة (أو ائتلاف كنفدرالى وثيق العرى بين الولايات الإيطالية) وتقبل الناس لواجباتهم المدنية والعسكرية ، كل أولئك قد ينفخ فى البلاد حياة وروحاً جديدة . على أن هذا كله لا يكتسب عن طريق الحظ ، أو يفرضه عملاء خارجيون ، مع شىء قليل من التعاون من جانب الإيطاليين ، وإلا كانت نتائجه سريعة الزوال ، على أحسن الفروض، أعنى العرض المألوف الذى يبهر الأنظار ، أو مشهد آخر تشبث بالبقاء وراءه الواقع القديم دون تغيير من الوجهة العملية .

وكان لزامـًا أن يتم هذا كله بمشقة وجهد ، وقد حدث فعلا عبر عملية تلقائية من عمليات التاريخ الإيطالى دفعتها موجة متصاعدة بطيئة من موجات الاستياء الشعبى ، واشتراها الناس بدمائهم فى حروب أو ثورات ظافرة ، وعلم المفكرون السياسيون الإيطاليون بطبيعة الحال ، أن الثورات الناجحة والحروب المظفرة ليست مرغوبـًا فيها لذاتها per se . إنها مجرد الأدلة النهائية على تماسك الناس تماسكـًا قلبيـًا كاملا ، وعلى إيمانهم بمصيرهم المشترك ، وعلى تقبلهم لقانون مشترك وواجبات مشتركة . إنها آية تخلى الفرد الإيطالى عن الصراع من أجل مصلحته الخاصة وشروعه فى التفكير بأسلوب جماعى . ولكن كيف يحمل الإيطاليون على النضال والموت فى سبيل بلادهم ؟ من الواضح أنهم إذا أمكن حضهم على ذلك ، فإنه لم تكن ثمة حاجة لأن يفعلوا ، لأنهم سيكونون فعلا على الشكل الذى تمنى أفاضلهم أن يكونوا عليه .

ولابد أن نوضح بشكل جاد أن هذا كان فيما مضى ، ولا يزال اليوم ، هو النقطة الجوهرية فى المشكلة أو كل المشاكل الإيطالية ، وهو لب الموضوع ، والمغزى الوحيد لتعقيدات كثيرة مضطربة غير ذات معنى فى ظاهرها ، فى التاريخ الإيطالى . إنه التفسير الوحيد لكثير من الجوانب المختلفة المحيرة فى السلوك القومى ، وإنها المشكلة التى ناقشها الناس بحماسة عبر القرون ، ولا يزالون يناقشونها فى المقاهى وفى البرلمان ، إنه الشوكة فى جنب كل أفاضل الإيطاليين فى كل زمان . لماذا سلكت إيطاليا التى تعج بالناس الأقوياء الأذكياء اليقظين ، هذا المسلك الضعيف ؟ لماذا تعرضت للغزو والسلب والنهب والإذلال فى كل قرن ، ومع ذلك أخفقت فى عمل أبسط الأشياء الضرورية للدفاع عن نفسها ؟

وبدا للمفكرين الإيطاليين أن أمل تحقيق الوحدة الوطنية والاستقلال ، حلم

عزيز ولكنه بعيد المنال . فبادىء ذى بدء لم يستشعر الشعب قط الحاجة الملحة إلى تكوين أمة واحدة . وسلم جويتشارديني فى مرارة بعد استعراض تاريخ قومه بأنه « لم تكن إيطاليا قط بلداً سهلا يمكن إخضاعه لحكم واحد » ، وحتى فى أيام روما الإمبراطورية ، فإنها فى الحقيقة نجحت فى مقاومة إخضاعها لقوانين موحدة . وفى الوقت الذى كانت فيه بلاد الغال وإسبانيا وألمانيا وبريطانيا ، من الوجهة الإدارية ، ولايات متضامنة يسودها النظام ، كانت إيطاليا بشكل ما مجموعة متنافرة من المدن الحرة والأقاليم المستقلة استقلالا جزئياً والقبائل الجبلية المتمردة ، فكادت تكون شعوباً مستقلة بلهجاتها وآلهتها وعاداتها . وفيما بعد ، أى فى العصور الوسطى ، كان من الممكن لأباطرة ألمانيا أن يضفوا على البلاد عدة مرات نوعاً رديئاً من الوحدة ، فقد جاءوا فى فصل الربيع ، عند ذوبان الثلوج ، ليغزوا ويسلبوا وينهبوا ، ويضموا السكان المتقلبين بعضهم إلى بعض فى ظل نظام إقطاعى طيع يسهل فيه قيادهم . وكان الألمان أحياناً يهزمون ويصدون عن البلاد فى معارك دامية ، فإذا تعذر صدهم ، تملقهم الناس بالمفاوضات الغادرة ، أو خدعوهم بالمعاهدات الهشة الغامضة ، أو غدروا بهم أو أفسدوهم ، وبالتالى كان لزاماً ألا تعمر طويلا نتائج انتصاراتهم العسكرية الكثيرة ، وكانت المدن المفتوحة تتظاهر بولاء كبير طالما طوقتها القوات الإمبراطورية ، حتى إذا ولت القوات ظهورها عادت المدن سيرتها الأولى من التمرد والعصيان .

وكانت هنالك أسباب كثيرة لهذا ، فإن الإيطاليين لم يكونوا ، فحسب ، شعباً يصعب بصفة عامة « إخضاعه لحكم واحد » كما يقول جويتشارديني ، ولكنهم كذلك لم يشعروا قط بأنهم شعب « جديد » ، أو أنهم من الأمم غير الناضجة شبه المتبربرة التى تطلبت قوانين صارمة ونظاماً حديدياً حتى تحتفظ

بمسحة من المدنية عندما تقلص ظل الإمبراطورية الرومانية . لقد ساد الإيطاليين إحساس قوي بأنهم أعرق وأعقل من أن يقلدوا أهل الشمال . وتشبثوا بالبقايا البالية للأساليب الرومانية ، التي كانت ، مثل سائر الآثار البالية ، لذيذة مريحة لهم . إنهم كذلك لم يتخلوا عن ذكرى عظمتهم الغابرة ، وكانت هذه الذكرى راسخة ، حتى في أحلك العصور ، حين كانت مجرد أسطورة خرافية باهتة ، إنها لم تكن من القوة بحيث تعوق انتصار الأفكار والنظم الأجنبية فحسب ، بل كانت كذلك بديلا حسناً لها . وأحس الإيطاليون أنهم موحدون ، إلى حد كاف معنوياً وأدبياً وثقافياً ، بشكل ما ، فلم يعودوا في حاجة إلى توحيد سياسي وعسكري . لقد ربطت بينهم اللغة والأطلال والفنون والآداب والعادات والحيل وشهرة عظمائهم وذكرى قديسيهم العظام .

وثمة شيء آخر ، ذلك أنه في الوقت الذي توحدت فيه سائر أمم أوربا في ظل الملكيات القوية ، ظل الإيطاليون يناضلون من أجل تقسيماتهم السياسية . وكثيراً ما حاولت الأسرات والأمراء المحليون أن يؤسسوا ممالك موحدة أو اتحادات ولهذا ثبت طويل ، يبدأ بالأمير أردوان مركيز إفريا Ardoin Marquis of Ivrea الذي كاد يحقق هذا الأمر ، ومات سنة ١٠١٥ ، ومنهم فردريك الثاني « أعجوبة الدنيا » ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا الذي ولد وتعلم في إيطاليا ، ومنهم فيكونت ميلان ، وأسرة مديتشي في فلورنسا ، وكثيرون غيرهم ، وحاول يواكيم مورا ملك نابلي أن يغزو البلاد في سنة ١٨١٤ مستغلا هزيمة نابليون زوج أخته . بل إن رجلا إنجليزياً هو لوردوليم بنتنك LordWilliam Bentinck وزير ملك بريطانيا لدى بلاط نابلي في المنفى ، في أثناء حروب نابليون ، فكر في إقامة إيطاليا مستقلة في وجه النمسويين والفرنسيين . وجدير بالذكر بأنه لم يسمح ، عبر القرون ،

لأحد أو لأمير أو لجمهورية ، أو لزعيم ثائر أو لأسرة مالكة ، أن تكون من القوة بحيث تجمع الإيطاليين تحت ظل علم واحد وقانون واحد ، إلى أن صار فكتور إما نويل من آل سافوى ملك سردينيا ، ملكاً على إيطاليا سنة ١٨٦١ بمساعدة الجيش الفرنسي ومتطوعي غاريبالدى والجمهوريين الثوريين .

وكان البابوات ، بطبيعة الحال فى كل الأوقات ، من بين أقوى الأمراء الإيطاليين وأكثرهم نفوذاً . وكانت الكنيسة فى كل العصور أقوى النظم الإيطالية وأكثرها نشاطاً وحيوية . وانتسب إليها كل الإيطاليين وأحبوها وخدموها من كل قلوبهم . ومن المفترض أنه كان فى مقدور أى من البابوات أن يوحد البلاد دون كبير عناء ، فلماذا لم يحدث هذا قط ؟ لقد كانت الكنيسة الحليف التقليدى للشعب ضد الإمبراطورية ، وقادت الائتلافات ضد الغزاة من الشمال ، بين الحين والحين . ولكن الناس لم يكونوا قط شاكرين شكراً دائماً للعون الذى يتلقونه . ولم يبقوا قط على مناصرتهم للكنيسة طويلا — فقد شايعوا الويلف Guelphs طالما كان الموقف يقتضى ذلك ، وكان ذلك يتفق مع مصلحتهم ، ثم تحولوا إلى صفوف الجبيلين Ghibellines حالما أصبحت السيادة السياسية للكنيسة خطراً يتهددهم ، ثم ارتدوا إلى الويلف حين عاد الألمان مرة ثانية عبر جبال الألب . والحق أن الإيطاليين حاربوا ليمنعوا أياً من النظامين الكبيرين المتنافسين أن يكون له الغلبة . ونظر الناس إلى بلدهم بنفس القدر من الاعتزاز والفخر ، على أنها جنة الإمبراطورية ، وعرش الله على الأرض ، معاً ، ولكن لم يقتصر اعتزازهم على أى من هذين وحده طول الوقت .

ويجب التسليم بأن هذه الأنماط غير الواعية من السلوك لا تزال سائدة فى أيامنا هذه . ولما كانت إيطاليا تحكمها اليوم الكنيسة بشكل غير مباشر ، عن

طريق الحزب الديمقراطى المسيحى ، فإن عدداً متزايداً من الإيطاليين ينضمون بسليقتهم إلى الحزب الذى يمكن اعتباره المرادف المعاصر للجبيلين ، وهو منظمة قوية تدعمها دولة أجنبية معادية للفاتيكان وللنفوذ الدنيوى للقساوسة فى الشئون الإيطالية والعالمية . ولو قدر للشيوعيين يوماً أن يقبضوا على زمام الأمور ، فإن أى دارس لتاريخ إيطاليا يدرك ما سوف يحدث . بعبارة أخرى سوف يهرع الناس لينضموا ، سراً أو جهراً ، حسب مقتضيات الأحوال إلى منظمات الكنيسة فى فى أعداد مستمرة فى التزايد ، متحدّين الاضطهاد والموت ، إذا لزم الأمر ، ليصارعوا ما يعتبرونه طغياناً أجنبياً مقيتاً .

ولم يدرك ما كيافلى تمام الإدراك هذه الآلية البندولية فى التاريخ الإيطالى ، وذهب به الظن إلى أن الكنيسة هى أس كل البلايا القومية . وهاك ما دونه فى قطعة مشهورة : « ليس ثمة ولاية اتحدت أو ازدهرت إلا إذا كانت تحت سلطان جمهورية واحدة أو ملك واحد . كما هو الحال فى فرنسا أو إسبانيا . أما السبب فى أن إيطاليا ليست على هذا الحال ، فليس هناك إلا الكنيسة ، لأنها لم تكن يوماً من القوة بحيث تبسط سلطانها على البلاد بأسرها . . . كما أنها من جهة أخرى لم تكن ضعيفة إلى حد العجز — حين تخشى فقدان سلطتها الزمنية — عن استدعاء عاهل أجنبى ليحقق التوازن فى دفاعها ضد القوى التى هددت بأن يكون لها التفوق والغلبة . لقد أبقت علينا تحت سيطرة كل من هبّ ودبّ من الحكام والأمراء ، ولقد سبب هؤلاء كثيراً من التنافر والوهن ، إلى حد أصبحت معه إيطاليا فريسة لكل من يغير عليها ، لا للمتبربرين الأقوياء فحسب » .

إن هذه الفرضية البالغة البساطة على جانب من الأهمية ، لأن كثيراً من فضلاء الإيطاليين لا يزالون يتمسكون بها ، وهم الذين لا يتسطيعون أن يسلموا

بسهولة بأنه كان فى مقدور الأهالى إذا أرادوا ، أن يظفروا باستقلالهم وحريتهم ضد الدول الأجنبية والكنيسة . وثمة شىء من العزاء والسلوان فى القول بأن دسائس رجال الكهنوت كانت من القوة بحيث لا تسمح بقيام حركة تلقائية والتوسع فيها . ومع ذلك فإن هذه الفرضية ليست خاطئة كل الخطأ ، ولا هى خاطئة فى كل الأوقات . إن سلطان الكنيسة كان قويًّا دائمًا ، لا لأن البابوات كانوا رجال دولة من طراز فذّ ، وأن جهاز الكنيسة كان من الحكمة وبعد النظر بمكان ، وأن الإيطاليين كان يتولاهم الفزع من العقوبات الدينية ، ولكن لأن الإيطاليين لم يكن لديهم قط رغبة أكيدة ليكونوا صانعى تاريخهم بأنفسهم أو متحكمين فى أقدارهم ، وأنهم استخدموا الكنيسة (كما استخدموا الإمبراطورية فى أزمان مختلفة) لتعويق التوحيد ، أو تقويض أركانه وإضعافه إذا تحقق .

وقد يتضح هذا مما حدث فى القرن ونصف القرن الماضيين . لقد استنفد تحقيق الوحدة فى سنة ١٨٦١ ثلاثة أجيال من الوطنيين والمفكرين والحالمين والجنود والشعراء والموسيقيين ، ورجال الدولة والثوريين والمغامرين . ومع ذلك فعلى الرغم من كثرة ما أسهموا فى تحقيقها فإن هذا لم يتم بفضل الإيطاليين ككل ، ولم يكن هناك مدّ صاعد من الاستياء الشعبى ينفخ فى الحركة من روحه . إن الذين آمنوا بالبعث ، أو بمولد بلادهم من جديد ، كانوا هم الأقليات المتحررة التقدمية من الارستقراطية والبرجوازية المستنيرة . أما الجماهير العريضة ، غالبية الصفوة الممتازة والفلاحين فقد كانت ترقب الأحداث فى شىء من الشك وعدم الثقة ، ونتيجة لذلك كانت الدولة القومية ، أو مملكة إيطاليا الجديدة ، كيانًا هشًّا غير آمن . وحاول الليبراليون أن يقبضوا على زمام السلطة بالحيلة ، وهى نفس الحيل والأساليب البوليسية التى كان قد استخدمها من قبلهم الطغاة الأجانب والأمراء

الصغار الضعاف . وكانوا مضطرين دومًا أن يثيروا أو يلهبوا المشاعر الوطنية القوية ، حتى يظل الناس مسعورين ، كما تفعل كل الحكومات الضعيفة ، وذلك عن طريق إنفاق مبالغ طائلة على القوات المسلحة ، وشن حروب مشئومة واستنزفوا معظم طاقاتهم فى محاولة إظهار إيطاليا بمظهر أعظم دولة فى العالم .

وتقوضت أركان المملكة بتحالف الطبقات الشعبية مع الكنيسة ، وتشككت أغلبية المواطنين والخلق القومى . وجاهدت المملكة لعشرات من السنين سعيًا وراء تعليم نخبة مختارة ، وتحسين الإدارة الحكومية ، وتشجيع التجارة والصناعة . وكانت إنجازاتها كثيرة ، وكان بعضها فذاً فريداً يدعو إلى الإعجاب . ولكنها لم تحل قط المشاكل الرئيسية حلا حقيقيًا . وبلغت ذروة عظمتها فى أكتوبر سنة ١٩١٨ حين انتصر الجيش على الأعداء النمسويين والمجريين الممزقين الخائرى العزيمة . فى معركة فيتوريو فينيتو Vittorio Veneto التى أطلق إسمها على بلدة فى إقليم فينيتو وعلى شارع رئيسى (روما) ولكن هذا الجهد كان أكبر من أن تحتمله بلاد حديثة هشة . فانهارت الدولة الموحدة فعلا . وكانت الدكتاتورية الفاشية عبارة عن كيان فوقى – بوليسى أجل دمار إيطاليا الجديدة ، ودعمها كما تدعم العوارض الخشبية الجدار المتهدم . وجاءت ساعة الفصل أو لحظة الحق فى سنة ١٩٤٥ مع الهزيمة فى الحرب العالمية الأخيرة . وبغزو الحلفاء لإيطاليا أدرك الإيطاليون أن ما اعتقدوه الحل الأخير لمشاكلهم التى عمرت قرنًا من الزمان : أى انبعاث البلاد والشعب من جديد ، وتكوين أمة حديثة ، لم يكن إلا كيانًا باروكيًا مفجعًا يمزق القلوب ، تكلف حياة الملايين ، وضيع قدراً ثمينًا من الموارد المتاحة ، وغرر بأحسن الإيطاليين على مدى قرن من الزمان ، وتركت إيطاليا آخر الأمر بلا أوهام ، تتأمل وتمعن النظر فى نفسها ، كما كانت دائمًا . وسادت الفوضى ، الفوضى الإيطالية المعهودة فى كل الأزمان ،

الفوضى الأثيرة أحيانـًا ، التى تحكمها أحيانًا بطريقة خفية تلقائية قواعد وأعراف سرية ، ويخفف من حدتها التشكك والرفق وغفران نقاط ضعف الإنسان . وهى غالبًا سارة مفرحة ، وهى قطعًا تبعث — فى المدى القصير — على الرضا والارتياح أكثر مما يبعث الحكم الصارم للقانون ، ولكنها على المدى الطويل سبب ضروب لا تعد ولا تحصى من العناء والإذلال والجرر وانتهاك الحرمات .

إن الزوار الأجانب ليفتتنون بإيطاليا ، تستهويهم مفاتنها ومواطن الجمال فيها ، كما كان الحال دائمًا ، فالحياة الإيطالية ملأى بالبهجة والنشوة والتمل العاطفى . وإن « الحياة الحلوة dolce vita » لتبدو الآن أحلى مما كانت عليه فى أى وقت مضى . وقلة قليلة من السياح هم الذين يرون القبح والشناعة تحت السطح ، والذلة والشقاء . إن واحداً من كل مائة منهم هو الذى يلحظ الكآبة والحزن فى كل شىء تحت بريق الذهب الزائف ، والحظ التعيس المرير لأناس كتب عليهم إلى الأبد أن يسلوا أنفسهم ويسلوا الدنيا بأسرها ، ويخفوا أعمق مشاعرهم ، ويظهروا بمظهر الرقة والظرف بأى ثمن ، ليكسبوا قوت يومهم . وماذا يعلم هؤلاء من أمر الشعور الخاص بالخيبة ، والسخط الصامت الذى يشلّ حركة أحسن الإيطاليين . ولقد وصف هذه الحالة أحد أشخاص رواية من روايات الكاتب إجناتزيو سيلونى Ignazio Silone بقوله : « هناك حزن ، وهو حزن خبيث لا يخطئه أحد على أنه ذلك الحزن العادى الذى هو نتيجة الندم والتحرر من الوهم والمعاناة . وهو حزن عميق ينتاب النفوس المصطفاة لمجرد وعيها بمصير الإنسان ... وساد هذا اللون من الحزن دائمًا الإيطاليين الأذكياء العقلاء ، ولكن معظمهم حاولوا أن يجدوا منه مهربًا بأية وسيلة ، تفاديًا للانتحار أو الجنون ، فتظاهروا بالمرح المبالغ فيه ، وبالحذق ، والغرام بالنساء والطعام وببلدهم ، وفوق كل

شيء بالألفاظ الرقيقة المهذبة ، ويصبحون ، كيفما تسنح الفرصة ، رجال شرطة أو رهباناً أو إرهابيين أو أبطال حرب ، وأظن أنه لم يوجد قط جنس قانط من الناس خابت آماله تماماً مثل هؤلاء الإيطاليين المرحين » .

وليس مما يبعث على الدهشة أن قليلا من الأجانب يرون هذه الأمور ، حين تدرك وجودها أقلية ضئيلة من المواطنين ، وإن الأجانب ليبتهجون إذ يجدون أنفسهم ، بدون أن يدروا ، فى مكان مرموق . إن الكيان الاجتماعى الإيطالى يمكن مقارنته بشجرة الزيتون ، وهى أكثر الأشجار اصطباغاً بالصبغة الإيطالية ، وهى تبدو مختلفة اختلافاً تاماً عند النظر إليها من أعلى عنها عند النظر إليها من أسفل ، فأوراقها صقيلة لامعة خضراء قاتمة فى أعلاها ، رمادية منضوحة فى أسفلها . ووجوه الإيطاليين تبدو متملقة باسمة رقيقة من أعلى ، ولكنها متغطرسة وقحة لا أثر فيها للرحمة من أسفل . ويرقى الأجانب بطريقة آلية إلى مرتبة أعضاء شرف فى الطبقة الحاكمة . ويشغلون مكاناً عالياً ، فنظرتهم لشجرة الزيتون هى نظرة عامة .

إن الوهم الذى تخلقه إيطاليا يبعث فى النفس راحة . إن البلاد التى تؤمن بالنظام ، وإقامة ميزان العدل ، وغرس الفضائل الأخلاقية التى لا تلين ولا تنثنى ونشر التعليم الشامل ، وإحراز الأمجاد الحربية ، وجمع الثروة وتوزيعها وإدارتها بشكل دقيق ، سواء حققت مثلها العليا فعلا ، أو أولتها مجرد الاحترام ، إن مثل هذه البلاد يمكن أن تكون جديرة بالتقدير ، ولكنها قل أن تكون مسلية . وحتى هذه البلاد التى تنهج نهج المثل الأعلى للحرية . يمكن أن تكون خانقة مرهقة ، لأن الحرية لا تتحقق ، فوق كل شيء ، إلا بتنفيذ القانون تنفيذاً غير متحيز ، إن أسلوب الحياة فى إيطاليا جذب ، على مر القرون ، أناساً رغبوا فى

التخلى ، لفترة ما ، عن فضائلهم القومية . وفى قلب كل إنسان ، أنّى كان مولده ، وأيًّا كان تعليمه وذوقه ، ركن صغير إيطالى ، وهذا هو الجزء الذى يضيق ذرعًا بالخضوع للنظام الصارم ، ويفزع لأخطار الحرب ، ويختنق بالأخلاقيات الصارمة ، وهو الجزء الذى يحب الفن العابث المسلى ، ويعجب بالأبطال المتزوين الخالدين ، ويحلم بالتحرر المتعذر من قيود الوجود المنهجى المرتب .

إن ألوان العزاء التى قدمتها إيطاليا على مر الزمان ، أصبحت اليوم أثمن ، إلى أبعد حد ، منها فى أى وقت مضى . إن العالم الغربى قلق أشد القلق . وأصبح على حافة الشك فى جدوى وقداسة بعض فضائله التقليدية التى أسس عليها هدوءه الروحى واحترامه لذاته . فقد باتت الصناعة والاقتصاد البرجوازى تعتبران أكثر إيذاء للمجتمع ، ولم تعد البطولة المقدامة المطلوبة فى الجنود مرغوبًا فيها ، وأدت الوطنية المطلقة العنان بالرجال والأمم إلى أخطاء مفجعة ، وفقدت الأخلاقيات جانبًا من حقيقتها المشرقة ، وأصبحت القوانين مائعة ، ولا أحد يعلم علم اليقين ما إذا كان ثمة حقيقة واحدة ، إن عصر الأمم القوية المعتزة بتفوقها العنصرى ، المتحكمة فى مصايرها ، ليؤذن بالزوال . إن حياة كل فرد لتتحكمها قرارات أناس هم فى الواقع ناءون عنه غير معروفين لديه ، أقوياء لا يمكنه الاتصال بهم ، مثلما بدا شارل الخامس للإيطاليين فى القرن السادس عشر ، أناس يمكنهم أن يمنحونا الثروة والغنى ، أو يضربوا علينا الذلة والفقر ، وقادرون على أن يهبونا الحياة أو يقتلونا ونحن نيام فى مضاجعنا . إن تنسيق مجتمع صناعى كبير وإخضاعه لنظام موحد ليصبح أمراً كريهًا خانقًا أكثر فأكثر ، ويظل الناس يكدون مثل أرقاء السفن فى الأزمان الغابرة ، ليحصلوا على المزيد من المقتنيات المادية المبهرجة . ويغذون بالأفكار المجهزة لهم ، ويزودون بالفن الذى تجيزه السلطات

الحاكمة ، ويتسلون بنفس العروض ، وتبهر أبصارهم بنفس الاحتفالات ، وتهتز مشاعرهم لنفس الشعارات ، وتحركهم نفس الأحاسيس الجماعية . وضاع رجل العصر الحديث فى غمرة المنظمات المجهولة الهوية التى تتسع أكثر فأكثر على مر الأيام . وإن الوحشية والملل ليطوقان الرجل كلما وجد سبيلا إلى الهرب من هذا الضجيج والصخب ، فترة تكفى للتفكير فى نفسه .

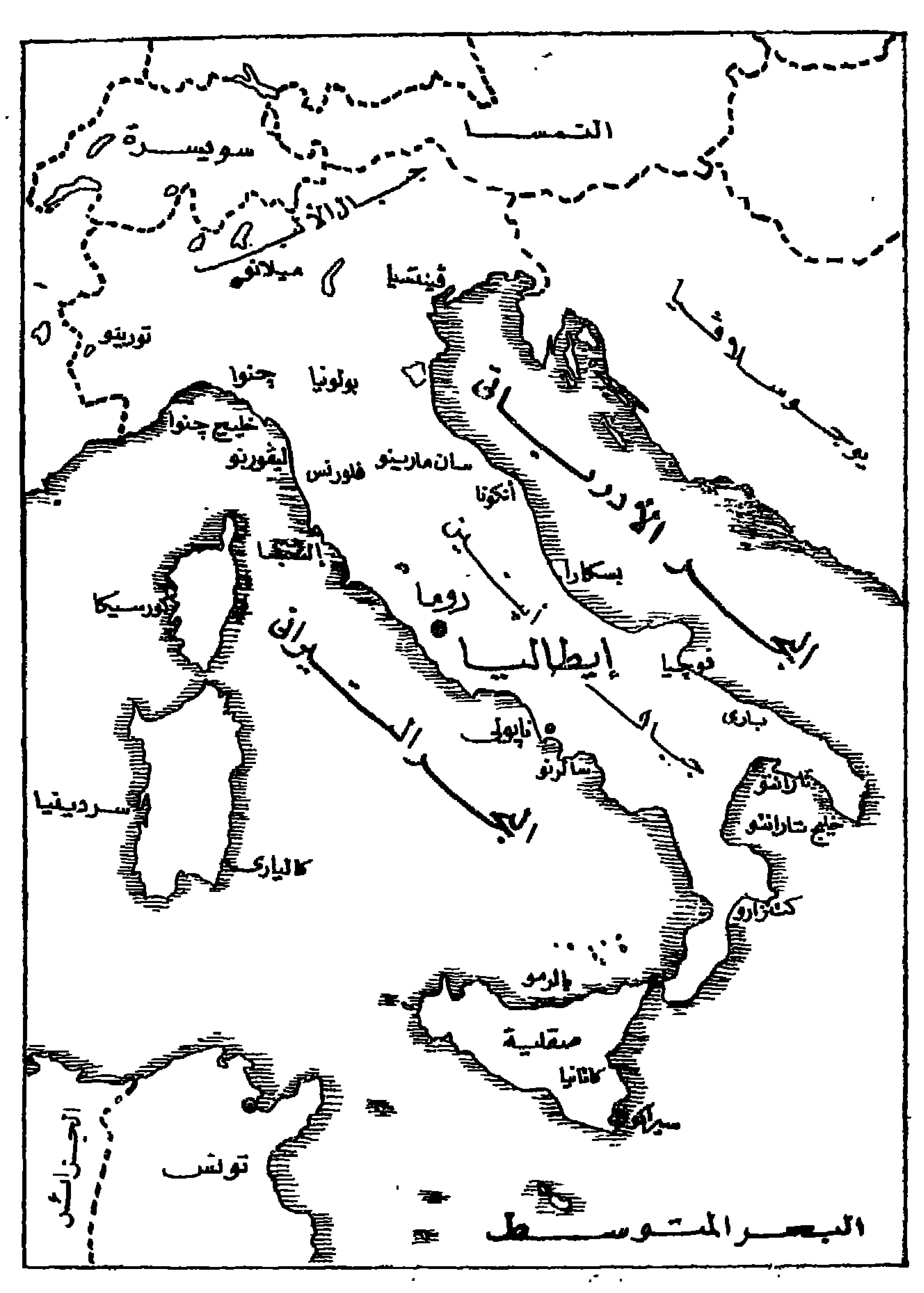
إن فن العيش The art of living هذا الفن المزرى الذى ابتدعه الإيطاليون لمكافحة النظام الصارم الموحد ، ليصبح الآن مرشداً للبقاء ، لا تقدر قيمته ، لكثير من الناس ، وإن « الحياة الحلوة » la dolce vita لتنتشر إلى بلاد احتقرتها أو خشيتها ، أو إنها لتبرز إلى السطح فى بلاد آثرت الظن بأنها غير موجودة . فإن دافعى الضرائب فى كل مكان ليحاولون التملص من واجبهم المقدس . واكتسبت اللذات اليسيرة فى الحياة أهمية جديدة ، مثل الطعام ، والخمر ، وقضاء يوم فى الشمس ، وغادة حسناء وقهر منافس ، والموسيقى العذبة ، وطبيعى أن تتزايد الأفواج التى تقصد إيطاليا كل سنة . ولا يعرف معظمهم على وجه التحقيق سبب ذلك . ولكنهم يفكرون فى أنها مكان جميل لقضاء العطلة يجذبهم إليه الشعور بالطمأنينة ورقة قلوبهم . والواقع أنهم يساقون إلى المكان الذى باتت فيه المشاكل الجديدة المحيرة فى العالم المعاصر ، شيئاً مخيفاً مألوفاً ، وهى مشاكل تعلم المواطنون أن يعيشوا معها منذ أمد بعيد . أما سائر الغربيين فإنهم وافدون جدد فى عصر الباروك الجديد . ولا يزال كثيرون منهم وافدين جدداً كارهين متشككين غير معدين ، يتشبثون بأساليب التصرف العتيقة المتفق عليها ، وتعروهم الدهشة دوماً عندما يكتشفون أنه لم تعد لهم نفس القوة لبلوغ النتائج . ولقد ابتدع الإيطاليون أفانين وحيلا قديمة لمكافحة الضجر والنظام ونسيان العار والحظ العاثر ، والتهدئة

من روع الإنسان حتى ينام ، وتسليته فى وحدته . ولا يزالون يذكرون عصر ساتورن وهو عيد اللهو والعربدة ، ويعيدون بناءه فى لهفة ، فى لهو وعربدة دائمتين . وهم لا يأتون الأخطاء التى يأتيها بعض الأجانب المتلهفين الذين يندفعون اندفاعاً أعمى فى مسالك جديدة ، ويتقبلون ، دون تمييز ، الحلول الفاسدة المعيبة . ويعلم الإيطاليون الفائدة النسبية لكل حيلهم ، ويعرفون أيها خطير وأيها خداع مضلل ، ويعرفون أين يتوقفون . وربما أصبحت إيطاليا ، بشكل ثانوى معلمة الأمم .

* * *

ولا يمكن أن يعتبر أسلوب الحياة فى إيطاليا ناجحاً إلا الزوار المؤقتون ، فإنه أسلوب لا يحل المشاكل ، بل يزيدها سوءاً . وكان يمكن أن يكون نجاحاً من نوع ما إذا أفلح على الأقل فى إسعاد الإيطاليين ، ولكنه لم يفلح . ونتائجه باهظة التكاليف رديئة قصيرة الأمد . وإن الناس لينعمون بمزاياه العاجلة المؤقتة ، وما كانوا ليحتملوا الحياة بدونها ، ولكن يؤرقهم ويقض مضاجعهم دوماً الاستياء والضجر . وإنهم ليندبون حظهم اليوم كما كانوا يفعلون باستمرار من قبل . وعلى مدى المائة والستين عاماً الماضية كانوا على حافة الثورة ضد الملوك والسيطرة الأجنبية والكنيسة ، والتمزق وملاك الأراضى والرأسماليين والمركزية ، على التعاقب . وكل هذه أسهمت ، فى وقت أو فى آخر ، فى اشتداد العلل القومية . ويشغل السياسيون أنفسهم فى الداخل بالقوانين والنظم على غير طائل . ولكن السبب الجوهرى يروغ من الجميع فيخطئون التعرف عليه . إنه أسلوب حياة الإيطاليين ، هو الذى يعرقل كل القوانين والنظم فى إيطاليا عن العمل الجاد الفعال . إنه توهم الحل ، والتراخى والكسل ، والاستسلام القبيح لنفس المساوىء التى حاول الإنسان القضاء عليها ، وفى تزيينها وتمجيدها وإطلاق مختلف الأسماء عليها ، والعيش

معها . وتتراكم المشاكل غير المحلولة ، وتحدث كوارث لا مفر منها ، فى فترات منتظمة . ويرى الإيطاليون الكارثة المحدقة بهم بوضوح ، ولكنهم ، مثل النائم الذى يصاب بكابوس ، لا يستطيعون دفع الأذى عن أنفسهم . إنهم يستطيعون فقط أن يقوموا بألعابهم المسلية ، ويحاولوا تأمين أسراتهم ضد العاصفة القادمة ، وخداع أنفسهم بعض الوقت ، وإنهم يعللون أنفسهم بالأمل فى أنه عندما تنقشع سحائب الدخان ، يمكن أن تنهض إيطاليا ثانية ، كالعنقاء ، من بين الرماد . ألم تفعل هذا دائماً ؟ إن التشبث واللهفة اللتين يتابع بهما الفرد مصالحه الخاصة ، ويحمى نفسه من المجتمع ، وانعدام ثقته فى المثل العليا والدوافع النبيلة ، والولع بالمظاهر البراقة . وانصراف الإنسان إلى نزواته ، كل أولئك يجعل الحياة الإيطالية سارة محتملة ، على الرغم من الفقر والطغيان والظلم ، وإنها كذلك لتبدد جهود أفاضل الإيطاليين وتضحياتهم ، وتجعل من العسير مكافحة الفقر والطغيان والظلم والقضاء عليها .



خريطة إيطاليا

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٣٤٤ /١٩٧٤

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٤

هذا الكتاب

صورة واقعية لطبائع الإيطاليين وأخلاقهم ، وآداب سلوكهم ، وأساليب حياتهم ، وعاداتهم ، وفضائلهم ، ورذائلهم ، وإنجازاتهم ، ومواطن إخفاقهم فى الماضى والحاضر ، وآمالهم فى المستقبل . وذلك من وجهة نظر السائحين الأجانب الذين افتتنوا بسحر إيطاليا حتى بلغ عددهم اليوم ٢٥ مليون سائح سنويًّا . ثم من وجهة نظر الإيطاليين أنفسهم ، ومن وجهة نظر المؤلف نفسه ، وهى بلا شك نظرة أصيلة صادقة مخلصة ، فالمؤلف نائب فى البرلمان الإيطالى منذ سنة ١٩٥٨ ، وصحفى لامع جاء كتابه مزيجاً من تاريخ وفلسفة واجتماع وسياسة وأخلاق ، فكان منذ صدوره فى أمريكا وإيطاليا فى مقدمة الكتب الواسعة الانتشار ومن أكثرها رواجاً لأنه بحث جذاب مشوق لاذع صريح وهو مع ذلك دراسة وافية عن إيطاليا والإيطاليين لم يكتب مثلها منذ زمن بعيد .

وسيجد القارئ العربى وهو يتنقل بين صفحات هذا الكتاب أوجه الشبه الكثيرة بين الإيطاليين وبين شعوب كثيرة أخرى فى منطقة البحر المتوسط .





دار المعارف بمصر